نفح الطيب

من

غصن الأندلس الرطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

حققه

الدكتور احسان عباس

المجلد الأول

دار صادر
بيروت

١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

دار صادر : صندوق بريد ١٠ — بيروت

مقدّمة المحقق

١ – تعريف بالمؤلّف[١] :

وُلد أحمد بن محمد بن أحمد المقّري القرشي المكني بأبي العباس والملقّب بشهاب الدين سنة ٩٨٦[٢] بمدينة تلِمسان ، وأصل أسرته من قرية مَقَّرة – بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة – وقد بيّن حال هذه الأسرة وشئونها عندما تحدث عن جدّه الأعلى أحمد المقري حديثاً ضافياً (في المجلد الخامس من النفح) . أما عن صلة الأسرة بتلِمسان وصلته هو بها فقد قال (في المجلد السابع) : «وبها ولدت أنا وأبي وجدي وجدّ جدي ، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلت عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة ١٠٠٩ ثم رجعت إليها آخر عام ١٠١٠ ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ١٠١٣ إلى أن ارتحلت عنها للمشرق أواخر رمضان سنة ١٠٢٧ . . . »

إذن فإن أبا العباس المقّري نشأ بتلِمسان وطلب العلم فيها . . . وكان من أهم شيوخه التلِمسانيين عمّه الشيخ سعيد المقّري ، ولمّا فارقها إلى فاس كان

---

١ ليس من غايتي في هذه النبذة بسط القول في المقري وإنما أكتفي بالإلماع إلى أهم ما لا بد منه للقارىء ، ومن شاء مزيداً في ترجمته فليراجع خلاصة الأثر للمحبي ١ : ٣٢٠ وصفوة من انتشر لمحمد الأفراني : ٧٢ واليواقيت الثمينة ١ : ٢٩ ونشر المثاني للقادري ١ : ١٥٧ وريحانة الألبا للخفاجي ٢ : ١٧٤ (ط . ١٩٦٧) وما كتبه الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في مقدمته على «روضة الآس» ، والأستاذ محمد حجي في كتابه الزاوية الدلائية : ١٠٨–١١٣ ، وللأستاذ الحبيب الجنحاني كتاب في ترجمة المقري (تونس : ١٩٥٥) ، وكثير من المعلومات عنه يمكن أن يستمد من نفح الطيب وروضة الآس وأزهار الرياض وفتح المتعال ؛ وقد أوليت ما جاء عنه في رحلة العياشي اهتماماً خاصاً ، لأن الذين كتبوا عنه أغفلوا هذا الكتاب .

٢ اعتمدنا في هذا التاريخ على الأستاذ ابن منصور (مقدمة روضة الآس) .

في حدود الرابعة والعشرين من عمره ، وفي فاس مضى يطلب العلم على شيوخها ، إلى أن حلّ فيها الفقيه إبراهيم بن محمد الآيسي أحد قواد السلطان أحمد المنصور الذهبي ، فأعجب بالمقّري الشاب واصطحبه معه إلى مراكش وقدّمه إلى السلطان ، وهناك التقى بابن القاضي وبأحمد بابا التنبكتي صاحب نيل الابتهاج وبغيرهما من علماء مراكش وأدبائها وكانت هذه الرحلة مادة كتابه « روضة الآس » الذي أخذ في كتابته حين عودته إلى فاس ومنها إلى بلده تلِمسان ، ليقدّمه إلى السلطان المنصور ، ولكن السلطان توفّي (سنة ١٠١٢) والمقري ما يزال في بلده . ومع ذلك فإن الهجرة من تلِمسان كانت قد ملكت عليه تفكيره فلم يلبث أن غادر مسقط رأسه نهائياً إلى فاس (١٠١٣) وأقام فيها حوالي خمسة عشر عاماً ؛ يقول في النفح : « وارتحلت منها إلى فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها » . والحقّ أن المقري أصبح في هذه الفترة من صدور العلماء المرموقين ، ولكن اضطراب الأحوال في المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي وصراع أبنائه على الحكم ، وتعرُّض مدينة فاس نفسها لأعمال المدّ والجزر في تلك الظروف المتقلبة[1]، كل ذلك لم يكن يكفل للقاطنين فيها شيئاً من الهدوء ، ولم تكن بلاد المغرب حينئذٍ فريسة للأطماع الداخلية وحسب ، بل تعرّضت لغزوات الإسبان والبرتغاليين ، وفي سنة ١٠١٦ كان المقّري يشهد — عن كثب — انقطاع آخر صلة للعرب ببلاد الأندلس حين تفرقت الجالية الأندلسية تطلب لها مأوى في سلا وتونس وغيرهما من البلاد المغربية ؛ وبعد ذلك بثلاث سنوات كان الإسبان (الإصبنيول) يستولون على مدينة العرائش في المغرب بمواطأة الشيخ المأمون أحد أبناء المنصور ؛ ولقي هذا العمل استنكاراً من الناس ، فلجأ الشيخ إلى الفقهاء ليفتوه في الأمر : لقد كان هو لاجئاً عند صاحب إسبانيا يطلب منه المعونة فوعده بها لقاء إعطائه العرائش ،

١ انظر الاستقصا ٦ : ٣ — ٥٢ .

وما سمح له بمغادرة بلاد إسبانيا إلا بعد أن قدّم له أولاده رهينة حتى يفي بوعده . فهل من حقّه أن يفدي أولاده بهذا الثغر أم لا ؟[1] وكان هذا السؤال امتحاناً عسيراً للمتذممين من المفتين، ولذلك هرب جماعة منهم واختفوا عن الأنظار . وكان المقّري واحداً من أولئك الذين لجأوا إلى الاختفاء .

غير أن هذه الحادثة لم تدفع بالمقّري إلى مغادرة فاس . بل بقي فيها عدّة سنوات أخرى ، أحرز فيها منصب الإفتاء رسمياً بعد وفاة شيخه محمد الهواري (١٠٢٢)[2] . فهل ثمّة من سبب مباشر دفعه إلى الرحلة عنها ؟ يقول الأستاذ محمد حجي متابعاً السيد الجنحاني : « وكان خروج المقّري من فاس بسبب اتّهامه بالميل إلى قبيلة شراكة (شراقة) في فسادها وبغيها أيام السلطان محمد الشيخ السعدي فارتحل إلى الشرق . . . إلخ »[3] ؛ ولكن المصادر لا تذكر شيئاً عن هذا السبب ، وكل ما قاله المقّري نفسه « ثمّ ارتحلت بنيّة الحجاز ، وجعلت إلى الحقيقة المجاز » ، بل إنّه استأذن عبد الله بن شيخ نفسه في السفر ، فأذن له . غير أن إلصاق التهمة به ليس مستبعَداً ، فقد كان المقّري في فاس عالماً طارئاً عليها ، وكانت شراقة تلمسانية الموطن ، وكانت تنصر عبد الله بن شيخ ضدّ أهل فاس ، فلعلّ الحسد للمكانة التي بلغها المقّري عند هذا السلطان خيلت لبعض سكان تلك المدينة أن المقّري ضالعٌ مع سلطانه ومع تلك القبيلة نفسها ضدّ الفاسيين . وبغير ذلك — أو ما يشبهه — لا يمكن أن نفسر عدم عودة المقّري إلى المغرب ، مع شدة حنينه إلى وطنه وقسوة ما لقيه في التّرحال . وخاصة ما لحقه من المضايقات أثناء وجوده في مصر .

---

١ الاستقصا ٦ : ٢١ .

٢ مقدمة روضة الآس : يج .

٣ الزاوية الدلائية : ١٠٩ والجنحاني : ٤٢ ؛ والشراقة هم عرب بادية تلمسان وما انضاف إليها وسموا بذلك لأنهم في ناحية الشرق من المغرب الأقصى . فأهل تلمسان وأعمالها يسمون أهل المغرب الأقصى مغاربة ، وأهل المغرب الأقصى يسمون أهل تلمسان وأعمالها مشارقة لكن العامة يلحنون في هذه النسبة فيقولون شراقة (الاستقصا ٦ : ٥٢) .

وفي أواخر رمضان عام ١٠٢٧ غادر مدينة فاس متوجهاً إلى المشرق فوصل تطوان (تطاون) في ذي القعدة من ذلك العام، ومن هناك ركب السفينة التي عرّجت به على تونس وسوسة حتى وصلت الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة فالحجاز بحراً، فوصل مكّة في ذي القعدة من العام التالي وبقي فيها بعد العمرة ينتظر موسم الحج، ومنها توجه إلى المدينة لزيارة قبر الرسول (ص) ثم عاد إلى مصر (محرم ١٠٢٩) وفي شهر ربيع زار بيت المقدس وأخذ يتردد إلى مكّة والمدينة حتى كان في عام ١٠٣٧ قد زار مكّة خمس مرات والمدينة سبع مرات، وقد أوفى هذا الجانب تفصيلاً في كتابه «نفح الطيب»[1]، قال: «وحصلت لي بالمجاورة فيها [مكة] المسرّات، وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة، والله يحيل أيام العمر بالعود إليها مديدة، ووفدت على طيبة المعظمة ميمماً مناهجها السديدة سبع مرار، وأطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار، واستضأت بتلك الأنوار، وألفت بحضرته صلى الله عليه وسلّم بعض ما منّ الله به عليّ في ذلك الجوار، وأمليت الحديث النبوي بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع... ثم أبت إلى مصر مفوضاً لله جميع الأمور، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور، وكان عودي من الحجّة الخامسة بصفر سنة ١٠٣٧ للهجرة»[2].

وفي أوائل رجب من العام المذكور قصد إلى زيارة بيت المقدس، فبلغه أواسط رجب وأقام فيه نحو خمسة وعشرين يوماً، وألقى عدة دروس بالأقصى والصخرة، وزار مقام الخليل إبراهيم ومزارات أخرى؛ وفي منتصف شعبان عزم على التوجّه إلى دمشق، وهناك تلقاه المغاربة وأنزلوه في مكان لا يليق به، فأرسل إليه الأديب أحمد بن شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية، فلمّا شاهدها

---

١ انظر المجلد ١ : ٣٣ – ٥٧ .
٢ النفح ١ : ٥٦ – ٥٧ .

أعجبته وتحوّل إليها ، وقد أسهب في ذكر حاله بدمشق وما تلقاه به أهلها من حسن المعاملة ، ويكفي هنا أن ننقل بعض ما قاله المحبّي : « وأملى صحيح البخاري بالجامع تحت قبة النسر بعد صلاة الصبح ، ولمّا كثر الناس بعد أيام خرج إلى صحن الجامع ، تجاه القبة المعروفة بالباعونية ، وحضره غالب أعيان علماء دمشق ، وأما الطلبة فلم يتخلف منهم أحد ، وكان يوم ختمة حافلاً جداً ، اجتمع فيه الألوف من الناس ، وعلت الأصوات بالبكاء ، فنُقلت حلقة الدرس إلى وسط الصحن ، إلى الباب الذي يوضع فيه العلَم النبوي في الجمعيات من رجب وشعبان ورمضان ، وأُتي له بكرسي الوعظ فصعد عليه ، وتكلم بكلام في العقائد والحديث لم يُسمع نظيره أبداً ، وتكلّم على ترجمة البخاري. . . وكانت الجلسة من طلوع الشمس إلى قريب الظهر . . . ونزل عن الكرسي فازدحم الناس على تقبيل يده ، وكان ذلك نهار الأربعاء سابع عشري رمضان سنة ١٠٣٧ ، ولم يتّفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما اتفق له من الحظوة وإقبال الناس »[١] . وكانت إقامته بدمشق دون الأربعين يوماً ، وقد خرج جمهور كبير من علمائها وأعيانها في وداعه ، عندما اعتزم العودة إلى مصر .

وحدث تلميذ له كان يلازمه ويرافقه في تقلباته بدمشق وزياراته لمعالمها — وهو الشيخ مرز الشامي — قال : إنّه ذهب معه ذات يوم لزيارة قبر الشيخ محيي الدين ابن العربي في خارج المدينة ، قال : وكان خروجنا بعد صلاة الصبح ، ووصلنا إلى المزارة عند طلوع الشمس ، فلمّا جلسنا عنده قال لي الشيخ المقّري : « إنّي ابتدأت عند خروجنا إلى الزيارة ختمة من القرآن لروح هذا الشيخ وقد ختمتها الآن »[٢] — وهذا شيء مستغرب لقصر المدّة التي تمت فيها الختمة .

وفي شوال من العام نفسه كان بمدينة غزّة ، فنزل فيها ضيفاً على الشيخ

---

١ خلاصة الأثر ١ : ٣٠٥ .

٢ رحلة العياشي ٢ : ٨٦ .

الغصين ، وكانت للمقّري مكانة عند أمير غزّة ؛ فسأله تلميذه الشيخ عبد القادر ابن الشيخ الغصين أن يتوسط لدى الأمير بأن يسمح له ببناء بيت ببعض رحاب المسجد (إذ كانت دار الغصين بعيدة عن المسجد وكانت مهمته أن يقرأ ويقرىء في المسجد نفسه) فقال له المقّري : لا بد من حضورك معي عند الدخول على الأمير . فلمّا دخلا عليه قدّم المقّري للأمير مقدمات في فضل بناء المساجد والمدارس ، ثم أثنى على الشيخ عبد القادر ، وقال له : إنّه من أهل العلم وليس ببلدكم مثله ، وأراد أن تأذنوا له في بناء بيت في المسجد يقرأ فيه ويقرىء ، فقال الباشا : مثلك لا يليق له البناء في المسجد ولكن هنا موضع نحبسه عليك — وهو موضع المدرسة — فكان إنشاء تلك المدرسة بفضل وساطة المقّري ؛ وقصّ الشيخ عبد القادر أيضاً حكاية تدلّ على تواضع المقّري أثناء إقامته بغزة ، وذلك أن الشيخ الغصين قال له : « يا سيدي أحمد إنّا نشتهي الطعام المسمّى عند المغاربة بالكسكس فهل في أصحابكم من يحسن صنعه ؟ » فما كان من المقّري إلاّ أن صنعه لهم بنفسه ؛ وكان عبد القادر يحتفظ بنسخة من كتاب شيخه المقّري المسمّى « إضاءة الدُّجنة بعقائد أهل السُّنّة » وعليها تعليقات بخط المؤلف قيدها لدى مروره بمدينة غزة في تلك السفرة[1] .

عاد المقّري إلى مصر رغم إعجابه بدمشق وأهلها ، وكان أثناء إقامته الطويلة بمصر قد تزوج امرأة من عائلة السادة الوفائية ، رزق منها بنتاً ، توفيت عام ١٠٣٨ ، ويبدو أن العلاقة بينه وبين زوجته لم تكن موشّحة بالوفاق ، ممّا اضطره إلى تطليقها ؛ وقد زادت هذه الحادثة من تنغيص حياته بمصر ، ويقول الخفاجي : إنّه وجد بمصر الحسد والنفاق ، وتجارة الآداب ليس لها بسوقها نفاق[2] ، وفيما كان يزمع الهجرة من مصر ليستوطن الشام[3] ، وافته منيته في جمادى الآخرة

١ رحلة العياشي ٢ : ٣٠٥ — ٣٠٧ .
٢ ريحانة الألبا ٢ : ١٧٥ .
٣ ذكر المحبي أنه زار الشام مرة ثانية أواخر شعبان سنة ١٠٤٠ .

سنة ١٠٤١ .

٢ — مؤلفات المقّري

ترك المقّري عدداً من المؤلفات ، وفي ما يلي ثبت بأسماء بعضها :

١ — روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس ، ألفه حوالي ١٠١١ — ١٠١٢ ليقدّمه إلى المنصور أحمد الذهبي (طُبع بالمطبعة الملكية بالرباط عام ١٩٦٤ بتحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور) .

٢ — أزهار الرياض في أخبار عياض ، ألفه أثناء إقامته بفاس ١٠١٣ — ١٠٢٧ ولم يطبع منه إلاّ ثلاثة أجزاء بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٤٢) .

٣ — إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنّة ، منظومة بدأ بتأليفها أثناء زيارته للحجاز سنة ١٠٢٩ ودرسها في الحرمين الشريفين ، وأتمها في القاهرة سنة ١٠٣٦ ، وقد قال عبد القادر الغصين إنّه كان السبب في تأليفها ، قال : « فإنّي كنت أقرأ عليه صغرى الشيخ السنوسي بمصر ، فسألنا منه نظماً في العقائد ، فكان كلّما قرأ درساً نظمه فيقرأه غداً كذلك إلى أن ختمها »[1] وكانت عند عبد القادر نسخة منها عليها تعليقات للمقّري ، ومن جملة ما كتبه على حاشيتها ، عند قوله « وكان إتمامي له في القاهرة » : « هو جملة التاريخ لأن عدة حروفة بالجمّل ١٠٣٦ » وكتب المقّري في آخر تلك النسخة ما نصّه : « يقول مؤلف هذه العقيدة العبد الفقير أحمد المقّري المالكي — جبره الله — إنّي صححت هذه النسخة جهد استطاعتي ،

١ رحلة العياشي ٢ : ٣٠٦ ، ويمكن التوفيق بين هذا الذي قاله وبين بدء التأليف لهذه المنظومة في الحجاز ، لأن تأليف الكتاب كان على فترات خلال سنوات .

وأصلحت فيها ما عثرت عليه ، وقد كتب من هذه العقيدة فيما علمت بمصر المحروسة والشام والحجاز والمغرب نيف على ألف نسخة ، ولله الحمد ، وكتبت خطي على نحو المائتين منها ، وقد كتبها غالب طلبة مكّة لمّا قرأتها هناك ، وأهل بيت المقدس لما قرأتها به أيضاً ، وأهل دمشق حين درستها بها ، وأخذ منها أصحابنا إلى المغرب[1] والصعيد نسخاً ، وكتب لي بعض أصحابنا بالصعيد أنّه كتب منها هناك نيف على مائة نسخة ، وكذلك برشيد والإسكندرية ، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم ، وكتب لشوال سنة ١٠٣٧ »[2] (طبعت بمصر سنة ١٣٠٤ بهامش شرح العقيدة السنوسية للشيخ عليش) .

٤ ـ إتحاف المغرم المغرى في شرح السنوسية الصغرى ، وقد تقدّم (رقم : ٣) أنّه كان يدرس السنوسية لطلبته بمصر (ومن شرحه لها نسختان بالخزانة الملكية بالرباط رقم ٣٥٤٤ ، ٥٩٢٨) .

٥ ـ أجوبة على مسائل أرسلها إليه أستاذه محمد بن أبي بكر الدلائي سمّاها « اعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس . . . » (توجد ضمن كتاب البدور الضاوية بخزانة الرباط) .

٦ ـ حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي (ذكرها المحبي واليواقيت) .

٧ ـ عَرف النشق من أخبار دمشق (ذكره المحبي ، ولعله كان مشروعاً لم يتم) .

٨ ـ شرح مقدمة ابن خلدون (ذكره حاجي خليفة ٢ : ١٠٦)

٩ ـ قطف المهتصر في شرح المختصر ، شرح على حاشية مختصر خليل (ذكره المحبي) .

---

١ أرسل المقري نسخة منها إلى المغرب صحبة أحد الحجاج إلى أستاذه شيخ الزاوية الدلائية سنة ١٠٤٠ .

٢ رحلة العياشي ٢ : ٣٠٧ .

١٠ — فتح المتعال في مدح النعال (طبع بالهند) ؛ ولما اطلع الرحالة أبو سالم العياشي على كتاب بمكة اسمه «منتهى السول من مدح الرسول» ووجد فيه مجموعة من الشعر في مثال نعل الرسول (ص) قال: «ولم يطلع على هذا التأليف شيخ مشايخنا الحافظ سيدي أبو العباس أحمد المقّري، مع سعة حفظه وكثرة اطلاعه ومبالغته في التنقير والتفتيش عمّا قيل في النعل، ولم يطلع لمن قبل عصره إلاّ على عدد أقل من هذا بكثير، وغالب ما أودعه في كتابه «فتح المتعال في مدح النعال» كلامه وكلام أهل عصره، ولو اطلع على هذا الكتاب لاغتبط به كثيراً»[1].

١١ — وكان المقّري قد ختم كتابه السابق برجز في النعال الشريفة ثم أفرده في نسخة بعث بها إلى شيخه الدلائي (المخطوط رقم ٥٦٥ بالخزانة العامة بالرباط) ولعلّه المسمّى «النفحات العنبرية في نعل خير البرية».

١٢ — وللمقّري أراجيز كثيرة أخرى منها «أزهار الكمامة في شرف العمامة» (الخزانة العامة بالرباط ؛ المخطوطة ٩٨٤ د).

١٣ — والدر الثمين في أسماء الهادي الأمين (ذكره المحبي واليواقيت).

١٤ — ورجز «نيل المرام المغتبط لطالب المخمس الخالي الوسط» (مخطوطة الرباط ٢٨٧٨ ك).

١٥ — البلدة والنشأة (ذكره المحبّي واليواقيت).

١٦ — الغث والسمين والرث والثمين (ذكره في اليواقيت).

١٧ — حسن الثنا في العفو عمن جنى (طبع بمصر في ٤٧ ص ؛ دون تاريخ).

١٨ — الأصفياء (ذكره أحمد الشاهيني في رسالة بعث بها إلى المقّري).

١٩ — الشفاء في بديع الاكتفاء (ذكره أحمد الشاهيني في رسالته).

١ رحلة العياشي ٢ : ٢٥٦ . وقد صرح المقري في أواخر النفح أنه اطلع على الجزء الخامس والعشرين منه .

٢٠ – القواعد السرية في حل مشكلات الشجرة النعمانية .

٢١ – النمط الأكمل في ذكر المستقبل .

٢٢ – أرجوزة في الإمامة .

٢٣ – نظم في علم الجدول (ذكره في اليواقيت) .

٢٤ – وذكر في النفح أنّه كان يزمع تأليف كتاب في تلمسان يسميه : « أنواء نيسان في أنباء تلمسان » ويبدو أنّه لم يحقق ذلك .

٢٥ – شرح له على قصيدة «سبحان من قسم الحظوظ »[1] (ذكره في اليواقيت) .

٢٦ – ونسبت له المصادر كتاب « الجمان من مختصر أخبار الزمان » إلاّ أنّ الأستاذ الجنحاني يشك في نسبة هذا الكتاب إليه[2] .

٢٧ – رسالة « إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة » (ذكرها في النفح ٣ : ٤٥٧ ولعلّه لم يفردها) .

٢٨ – وأخيراً كتاب « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » الذي سأتحدث عنه في ما يلي :

٣ – كتاب نفح الطيب :

حدّثنا المقّري في مقدمة كتابه عن جميع المرحلة التي سبقت تهممه لتأليف هذا الكتاب ، ومنه نفهم أنّه ثمرة لزيارته التي قام بها لدمشق ، فقد حدث تلامذته فيها عن لسان الدين ومكانته السياسية والأدبية فأثار في نفوسهم حبّ الاستطلاع إلى مزيد من البيان عنه ، وكان أحمد الشاهيني المدرّس بالجقمقية

---

١ يفهم من كلام صاحب اليواقيت أن المنظومة نفسها للمقري ، ولكن بعض أبيات على وزنها وردت في النفح ضمن رسالة للسان الدين ، فلعل المقري عارض هذه الأبيات في قصيدة طويلة .

٢ انظر كتاب الجنحاني ص : ٩٢ – ٩٥ .

أشدهم إلحاحاً في ذلك ، ولهذا نزل المقّري عند رغبته ، ووعده « بالشروع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزّيّة »[1] ، وبعد أن قطع في العمل شوطاً بدا له أن هناك صعوبات لا يستطيع التغلّب عليها ، فخامره التردّد من جديد . وعاود ابن شاهين الإلحاح وكان اطلع على بعض ما جمعه المقّري ، فأحسّ بخيبة أمله لأن المقّري لم يدرج في فاتحة الكتاب المجموع ما دار بينهما من محاورة ، ممّا اضطر المقّري إلى معاودة العمل على نسق جديد ، وتخصيص قسم من المقدمة ومن الكتاب لذكر دمشق وأصحابه فيها ، وكان في البداية يزمع أن يسميه « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب » فلمّا رأى أن المادة التي اجتمعت لديه قد استفاضت بحيث شملت تاريخ الأندلس وأدبها غيّر اسم الكتاب وجعله « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » . وعلى هذا النحو أصبح الكتاب قسمين : قسم خاص بالأندلس عامة وقسم خاص بلسان الدين وما يتعلق به من شئون . وفي كل قسم من هذين القسمين ثمانية فصول[2] . وقد فرغ من كتابته « عشية يوم الأحد المسفر صباحها عن ٢٧ رمضان سنة ١٠٣٨ بالقاهرة » ثم ألحق فيه كثيراً في السنة التالية بعدها فيكون جميعه في آخر ذي الحجّة الحرام تتمة سنة ١٠٣٩[3] .

والحقّ أن زيارة المقّري لدمشق كانت ارتباطاً « بوعد » ساعد المقّري على إنجاز الكتاب ، ولكني أرجح أن فكرة الكتاب كانت تجول في ذهنه . قبل ذلك ؛ لأسباب منها :

١ — أن إعجابه بلسان الدين ابن الخطيب ، بحيث يقلده في طريقته الإنشائية ويحفظ الكثير من رسائله وشعره ، كان قميناً بدفعه إلى كتابة مؤلف عنه ، وخاصة لإحساسه بالغربة والوحشة اللتين أحسّ بهما « مثله الأعلى » حينما لجأ إلى المغرب .

١ النفح ١ : ٨٠ .
٢ انظر تفصيل ذلك في النفح ١ : ١١٣ — ١١٧ .
٣ خاتمة النسخة « ق » .

٢ ــ أن مثل هذا الكتاب كان كفيلاً بأن ينفس عنه كربه ، ويعود به من خلال أشعار الحنين ومن خلال التاريخ الماضي والقريب إلى وطنه ، عودة نفسية وروحية .

٣ ــ أن المنهج للتأليف في لسان الدين كان سهلاً مفتوح المسارب أمام عينيه لأنه قد مارس مثل هذا المنهج حينما كتب عن القاضي عياض كتاباً سماه « أزهار الرياض » .

٤ ــ أن انفصام آخر الروابط الإسلامية من الأندلس لم يكن قد مضى عليه إلا سنوات ، فكانت صورة « المأساة » ما تزال تلح على مخيلة المقري ، وكان الربط بين الماضي والحاضر من الأمور التي تعين على التذكر والتذكير والعبرة في آن واحد ؛ وكل من درس « نفح الطيب » بتأمل ، سيشعر بهذه الناحية ، ويكفينا مثلاً على ذلك تلك الوقفة الطويلة التي وقفها المقري وهو يستعيد صورة المنصور بن أبي عامر الذي يمثل البطولة العربية بالأندلس في أوجها .

٥ ــ كان المقري كغيره من المغاربة يحس مدى إهمال المشارقة للتراث الأندلسي والمغربي ، وكان ذلك الإهمال في القديم للاعتداد بالثقافة المشرقية ، أما في عصر المقري فكان سببه ضعف الثقافة عامة ، وحسبك أن تجد لسان الدين ــ وهو من هو في المغرب والأندلس ــ محتاجاً إلى من يعرف المشارقة به ويحدثهم عن أخباره ؛ ولهذا وجد المقري أن كتابة مؤلف جامع شامل تحقق هذا الغرض ، وكان في البدء يزمع أن يقصره على لسان الدين ، ثم وجد أن صورة لسان الدين لا يمكن أن تتضح إلا على محمل من التطور الأدبي والسياسي في الأندلس . وفي الوقت نفسه كان الكتاب يحقق تبيان الصلة الثقافية بين المشرق والمغرب ، ولهذا خصص جزءاً كبيراً من كتابه للرحلتين : رحلة المغاربة إلى الشرق ورحلة المشارقة إلى الأندلس والمغرب ، وفي هذه الناحية الثانية كان المقري يحس أنه حلقة في تلك السلسلة الطويلة ، وكأنه في مقدمة الكتاب وفي بعض

فصوله الأخرى سجّل طرفاً من رحلته ، كما سجّل أسلافه من قبل أخبار تنقلاتهم . وبذلك أسعفه مؤلفه هذا على أن يحقق ما قد نسميه « نزعة مغربية » وهي نزعة لا تقتصر على الرحلة وإنّما كانت تشمل نقل التراث المغربي الخالص والأندلسي إلى المشارقة .

ولست أرى المقّري مغالياً أو مترسماً لتقليد معيّن حين يعلن عن تهيبه من الإقدام على هذا التأليف ، نعم كان المنهج أول الأمر واضحاً في مخيلته ، ولكنّه ما إن بدأ العمل حتى واجهته أكبر صعوبة يمكن أن تواجه من يتصدى لذلك ، أعني ندرة المصادر الأندلسية والمغربية في المشرق . ولسنا ننكر أن الرجل كان ذا ذاكرة قوية ، ولكن الذاكرة القوية لا يمكن أن تسعفه في كل وجه ، ولو كانت كذلك حقّاً لأنقذته من التكرار الكثير الذي يقع في صفحات متقاربات أحياناً ، ثم هناك أشياء قد اختلّت عن صورتها الأولى في ذاكرته لأنّه حفظها منذ عهد بعيد ، وإذن فما العمل ؟ إنّ كل من يقرأ النفح يحسّ أن المقّري لم يكن لديه نسخة من الذخيرة أو من المقتبس أو من زاد المسافر أو من الصلة لابن بشكوال ، ولم يتح له أن يطلع على صلة الصلة والذيل والتكملة والحلة السيراء وتحفة القادم وجذوة المقتبس ومعجم أصحاب الصدفي ... إلخ ، وإذا رأيته يذكر هذه الكتب فهو إنّما ينقل عنها بالواسطة . ولهذا كلّه انقضّ على مصادر معينة فأسرف في النقل عنها لأنّه لا يملك سواها ، فقد وجد لديه من مؤلفات ابن سعيد المغرب والقدح المعلى (أو اختصار القدح) ووجد للسان الدين نفسه الإحاطة وللفتح ابن خاقان المطمح والقلائد ، وكان بين يديه كتاب ابن الفرضي في العلماء والرواة وكتاب المطرب لابن دحية ودرر السمط وكتاب التكملة لابن الأبّار ، وتاريخ ابن خلدون ونيل الابتهاج لشيخه أحمد بابا ، وأمعن في التفتيش عن كل ما دوّنه المشارقة من أخبار الأندلس فاستعان بابن خلّكان وبالخريدة وبكتاب بدائع البدائه لابن ظافر ، ونقل أكثر ما فيها من حكايات وأخبار أندلسية ، وكان ممّا جرأه على الاضطلاع بذلك العبء ، أنّه كان قد نقل كثيراً من المادة

اللازمة (أصالة أو استطراداً) في كتابيه أزهار الرياض وروضة الآس ، فارتاحت نفسه إلى إعادة جملة غير قليلة من مادة كتابيه هذين .

هذه صورة قد تخيّل للقارىء أن الجهد في تأليف النفح لم يتعدّ تكديس المادة من المصادر التي تيسّرت حينئذ للمؤلف . ولكن من الجور على المقّري ألاّ نعترف له بفضله الكبير وهو قدرته – رغم الاستطرادات – على تسخير مادته لتصوير الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية بالأندلس وحرصه على أن يستنقذ من يد النسيان والضياع كثيراً من الأخبار عن الأندلس والمغرب ؛ وما يزال قسم كبير من كتابه منقولاً عن أصول ضاعت ومستوعباً لأصول أخرى لا نجدها في سواه . وقد ظهر كثير من المصادر التي نقل عنها في خلال الأعوام المائة الأخيرة ، إلاّ أن ظهورها لم ينقص من قيمة النفح كثيراً ، بل إنّ وجود النفح كان بمثابة الوثيقة النافعة في تحقيق تلك المصادر . وعلى سبيل المثال أقول : إن المقّري قد اعتمد كثيراً على المغرب لابن سعيد ولكن المقارنة الأولية بين نصّ المغرب المنشور ونص النفح تدلّنا على أن المقّري اعتمد نسخة أوفى بكثير من هذه التي لدينا ؛ كذلك نقل كثيراً عن المطمح ولكن اعتماده على المطمح الكبير الذي لا نعرفه حتى اليوم يجعل نقوله نسخة متفردة في عدة أمور . والأمر يبدو على وجه أوضح إذا تساءلنا أين هو الطالع السعيد ، والروض الأريض ، وجنة الرضى ، وكتب المقّري الجدّ والأزهار المنثورة وغيرها من الكتب الكثيرة التي استعان بها المقّري في هذا التأليف ؟ إن كتاب النفح قد اتخذ الطابع « الموسوعي » الذي يجعله مغنياً عن عشرات الكتب لصعوبة الرجوع إلى تلك الكتب مجتمعة في نطاق ، هذا إذا بالغنا في التفاؤل وقدّرنا أن جميع مصادر النفح ستكون ذات يوم في متناول أيدي الدارسين .

٤ – تحقيق نفح الطيب :

لهذه القيمة التي لا يزال هذا الكتاب يتمتع بها رأيت أن أتولاه بالتحقيق

العلمي . ومع أن نفح الطيب أقدم كتاب أندلسي ظهر للنور وعرفته المطبعة العربية وكان مصدراً لأكثر ما عرفه المشارقة عن الأندلس في مدى مائة عام أو أكثر فإنّه لم ينل من عناية المحققين ما ينبغي له ، وخير طبعة ظهرت منه هي تلك التي تولاّها بالعناية كل من دوزي ودوجا وكريل ورايت (ليدن : ١٨٥٥) فقد اعتمد هؤلاء المستشرقون على النسخ الخطية التي توفرت لهم في باريس ولندن وأكسفورد وغوطة وبرلين وكوبنهاجن وبطرسبرج ، ونشروا الكتاب في قسمين يحتوي كل قسم على جزءين وألحقوا بذلك جزءاً صغيراً يضمّ الفهارس والتصويبات ، ومع أن هذه الطبعة لم تشمل إلا القسم الأول من النفح . فليس ذلك ممّا يحول بيننا وبين كلمة إنصاف لهؤلاء المحققين ، ذلك أنهم توخوا الدقة في مقارنة المخطوطات واجتهدوا في مراجعة نصوص النفح على ما تيسر لديهم حينئذ من مصادر ، فجاء الكتاب ذا طابع علمي موثق . ولهذا اعتبرت الطبعة أصلاً معتمداً ، وأشرت إليها في حواشي الطبعة الجديدة باسم أشهرهم في الدراسات الأندلسية وهو « دوزي » ، ولم أحاول أن أعيد النظر في المخطوطات التي اعتمدوها ثقة مني بأمانتهم التي تبلغ حد التزمّت في إثبات الفروق بين مختلف النسخ الخطية .

وقد طُبع النفح عدة طبعات في المشرق كان أولها طبعة بولاق سنة ١٢٧٩ ، وهي على ما فيها من جهد مليئة بالخطأ ، وليس فيها ما في الطبعة الأوروبية من دقة علمية ، ثم كان آخر الطبعات المشرقية طبعة المكتبة التجارية بإشراف الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة : ١٩٤٩) ، وقد أفاد فيها من الطبعة الأوروبية ومن الطبعات المشرقية ، فجاءت في صورة مقبولة نوعاً ما ، ولذلك أبحت لنفسي أن أشير إليها باسم « التجارية » إشارات قليلة ، وإن كنت لا أعدّها أصلاً لأنها لم تعتمد على نسخ خطية .

وفي سبيل أن أوفر لهذه النشرة الجديدة ما تتطلبه الأمانة العلمية من جهد راجعت النفح على كلّ ما استطعت الحصول عليه من مصادره — خطية كانت

أو مطبوعة – وسيجد القارىء في الحواشي والجزء الخاص بالفهارس أنني راجعت في سبيل ذلك عشرات الكتب ، ورصدت نقل المقّري على نحو يكشف عن أصول كتابه حتى حين يصمت عن ذكر تلك الأصول ؛ وترجمت للأعلام ترجمات قصيرة أو أشرت إلى مصادر تراجمهم ، وشرحت ما اعتقدت أن الشرح فيه ضروري ، ولم أستكثر من الشروح اللغوية لأن ذلك يخرج الكتاب – وهو ضخم بطبيعته – إلى حجم كبير جداً . وأثبتُّ فروق القراءات ، لا حيث يكون الخطأ واضحاً ، بل حيث تكون القراءة ذات وجه مقبول . وزوّدت الكتاب بفهارس شاملة ، لكي يكون الانتفاع به ميسراً ، فإن كثرة الاستطراد فيه وتشعبّ أجزائه تجعل الإفادة منه – دون فهارس تفصيلية – أمراً بالغ العسر . وأبحت لنفسي ترقيم بعض فقرات هذا الكتاب ووضع عناوين لأجزائه ، كي أسهل على القارىء والباحث استعماله ومراجعته .

على أن كلّ ذلك لم يكن ليعطي لهذا العمل صبغة فارقة لو لم أعتمد على عدد من مخطوطات النفح نفسه أعانتني كثيراً في التحري والتدقيق ، وقد راعيت أن تكون هذه المخطوطات ممّا لم يطّلع عليه محقّقو الطبعة الأوروبية ، وهذا ثبت بتلك النسخ التي اعتمدتها :

١ – النسخة « ك » وهي من المكتبة الكتانية التي ضُمت إلى الخزانة العامة بالرباط (ورقمها : 2394 ك) وتقع في ٢٨٦ ورقـة ، تمثل أول ورقتين منها فهرستاً لأهم الموضوعات التي وردت فيها ، ويبدأ النصّ فيها على الورقة الثالثة ، وفي كل صفحة من صفحاتها ٢١ سطراً ومعدل الكلمات في السطر الواحد ١١ كلمة ؛ وهي مكتوبة بخط مغربي جيد (أندلسي) كثير التشجير وعلى هوامشها عناوين للموضوعات ، وهي أكثر المخطوطات اتفاقاً مع الطبعات المشرقية ؛ وتنتهي عند آخر الباب الرابع من القسم الأول حسب تقسيمات المؤلف .

٢ – النسخة « ج » وهي رقم 768 ج بالخزانة العامة بالرباط ؛ وتقع في ٢٠٥ ورقات إلاّ أن ما يخص النفح منها ينتهي عند الورقة ١٨٣ ويمثل ما بعد

هذه الورقة قطعة من كتاب « أنس السمير في نقائض الفرزدق وجرير » وقطعة من الذخيرة تمثل ترجمة ابن عمّار . وتحتوي كل صفحة منها ٣٣ سطراً ، مكتوبة بخط مغربي دقيق جدّاً ، وقد سمّاها ناسخها الجزء الأول من النفح إذ جاء في آخرها : « انتهى ما وجد في الجزء الأول من نفح الطيب ويتلوه في الجزء الثاني : ولما سألني في الإجازة الفاضل الأديب الشيخ محمد بن علي ابن مولانا عالم الشام الشهير الذكر شيخ الإسلام سيدي ومولاي عمر المعاري حفظه الله . . . إلخ بحول الله وحسن عونه ، وكان الفراغ منه ضحى ثامن شهر رمضان سنة ١٠٧٧ وذلك بحضرة مراكش . . . على يد الفقير إلى رحمة القدير محمد بن عمر الدعوغي . . . » . وتُعدّ هذه النسخة قيمة لقدمها ودقتها ، وهي أقرب إلى نسخة ق (التي سيأتي وصفها) من نسخة ك .

٣ — النسخة « ط » رقم 268 ك بالخزانة العامة بالرباط وهي في ٢٧٨ ورقة ، في كل صفحة ٢٥ سطراً ، وقد كتبت بخط مغربي واضح خالٍ من المدّ والتعريج ، ومجموع ما تحتويه يساوي ما اشتملت عليه نسخة « ك » ، غير أنها أقرب المخطوطات إلى « ق » ، حتى في القراءات الخاطئة .

٤ — النسخة « م » وهي رقم 430 ك ، بالخزانة العامة بالرباط وتضم ٢٨٦ ورقة ، في كل صفحة منها ٢٤ سطراً ، وخطها أيضاً مغربي واضح ، والقلم الذي كتبت به مستعرض قليلاً ، بالنسبة للمخطوطات الأخرى ، وهي تبدأ بالباب السابع من القسم الأول وتنتهي بنهايته ، ويسميها ناسخها « الجزء الثالث » من الكتاب . وتتميز هذه المخطوطة عمّا عداها بحذف المكرر وبالتمهيد المسهب في التقديم للأشعار ، وبإيراد زيادات — وخاصة في أشعار الزهد — لا ترد في غيرها من المخطوطات ، ويبدو من مجمل النظر فيها أنّ ناسخها حاول أن يتحكّم في نص النفح بالحذف والزيادة ، وأن ذلك ليس من صنع المقّري نفسه .

٥ — النسخة « ب » وهي نسخة خاصة كانت في ملك العلامة المحقق الصديق إبراهيم الكتاني ، فلمّا علم — حفظه الله — بأنّني أنوي تحقيق النفح

قدّمها إليّ ، مشكور الفضل مذكوراً بالخير ، ولعلّ هذه النسخة في الأصل كانت كسابقتها إذ انها تبدأ بالباب السابع من القسم الأول ، إلا أنّها مبتورة من آخرها ، ولم يبق منها إلاّ ١٦٥ ورقة ، وفي كل صفحة منها ٢٩ سطراً ، وخطها مغربي في غاية الجمال والوضوح ، وقد عاثت الأرضة في صفحاتها بشدة ، كما أن بعض الصفحات فيها خالٍ تماماً من الكتابة .

٦ — النسخة « ص » وهي رقم 216 ق بالخزانة العامة بالرباط وأصلها من مكتبة الزاوية الناصرية وتقع في ٢٩٠ ورقة ، وفي كل صفحة من صفحاتها ٣١ سطراً ، وخطها مشرقي نسخي ، والاهتمام بالشكل فيها مقصور على النصوص الشعرية ، وتسمّى « الجزء الثالث من النفح » وتبدأ بالباب الثامن من القسم الأول وتستمر حتى نهاية الباب الرابع من القسم الثاني ؛ وهي قريبة النسب (دون الخط) بأصل النسخة « ك » ، وتقع وسطاً بين الطبعات المشرقية ونسخة « ق » .

٧ — النسخة « ق » وهي نسخة خاصة يملكها الصديق الكريم والكتبي المفضال الأستاذ قاسم الرجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد ، وقد تفضل مبادراً فأعارنيها حين أعلمته أنّي أقوم بتحقيق الكتاب ، وتقع هذه النسخة في ٥١١ ورقة ، وهي نسخة كاملة تضم جميع مادة النفح بقسميه ، وفي كل صفحة من صفحاتها ٥١ سطراً ، وقد كتبت بخط نسخ مشرقي جميل وجعلت عناوينها الكبرى والصغرى بالحبر الأحمر ، غير أن ناسخها يسهو عند تشابه النهايات ، فيسقط مرات أسطراً كاملة ؛ كما أن الخطأ الناشيء عن تصوير الكلمة لتطابق صورة الأصل الذي كان ينقل عنه ، يتفشى فيها ، ومع ذلك فهي من أشد النسخ قرباً من المتن المثبت في طبعة دوزي . وناسخها هو أحمد بن محمد الحموي العطار ، فرغ من نسخها « عشية يوم الأربعاء المسفر صباحها عن الرابع والعشرين أو الثالث والعشرين لذي القعدة الحرام من شهور سنة ١١٣٠ » بمنزله الكائن بمحلة القيمرية من دمشق الشام — وقد قام بكتابتها برسم السيد محمد عاصم أفندي

ابن المرحوم السيد عبد المعطي أفندي الشهير نسبه الكريم بالفلاقسي — .

٨ — « المقتطفات » وهي أوراق كتب عليها « قطعة من تاريخ الأندلس » وتحمل رقم ٤٢١ إسكوريال وأكثر المادة فيها مأخوذة من نفح الطيب ، ولكني لم أفردها برمز لأنني غير واثق أنها تمثل جزءاً من ذلك الكتاب دون زيادات من كتب أخرى ، وهي في ١٤٣ صفحة ، في كل صفحة ٣٠ سطراً . وتحتوي على الأخبار التاريخية مثل ترجمة عبد الرحمن الداخل وأخبار المنصور بن أبي عامر والمعتمد بن عبّاد ومطولات القصائد كقصيدة ابن مقانا الأشبوني وقصائد ابن حمديس في المباني وقصائد لابن زيدون وقصيدة لسان الدين السينية المفتوحة وتشبه أن تكون « مسودة » أصلية ، إذ مادتها غير مرتبة ، وتضم من أخبار المشرق قطعة كبيرة عن الناصر بن المنصور وشعره .

وحقيق بي بعد هذا كله ، أن أعترف بجميل كل من له فضل على هذا العمل، فأتقدم بوافر الشكر لعدد من الأصدقاء، أخص بالذكر منهم الأستاذ إبراهيم الكتاني الذي قدّم إليّ النسخة « ب » هدية خالصة ، والأستاذ قاسم الرجب الذي كانت نسخته (ق) معتمدي الأول في التحقيق ، والأستاذ عبد الله الرجراجي مدير الخزانة العامة بالرباط الذي ذلّل لي صعوبات جمة حين أذن بتصوير كل نسخ النفح الموجودة بالخزانة العامة . فلولا حمية هؤلاء الأصدقاء في خدمة العلم لما استطعت أن أستمد الثقة المسعفة على المضيّ لبلوغ غاية شاقة .

ويطيب لي أن أنوه بالعون العمليّ المخلص الذي تلقيته من اثنين من تلامذتي يدرسان في مرحلة الماجستير هما الآنسة وداد القاضي التي تعمل في حقل العلم ببصيرة نافذة وروح علمية سامية والسيد يوسف محمد عبد الله أحد اللامعين من أبناء جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية ، فقد تكبدا معي — بصبر لا يعرف الكلل ودقة تستحق التقدير والإعجاب — عناء المراجعة للأصول وإعداد الفهارس العامة والنظر في النصّ قبل ذهابه إلى المطبعة نهائياً ، وبذلا في ذلك من جهدهما ما لا أفيه حقه من الشكر . جزاهما الله عني كل خير ، وضوأ مستقبلهما الذي أرجوه لهما

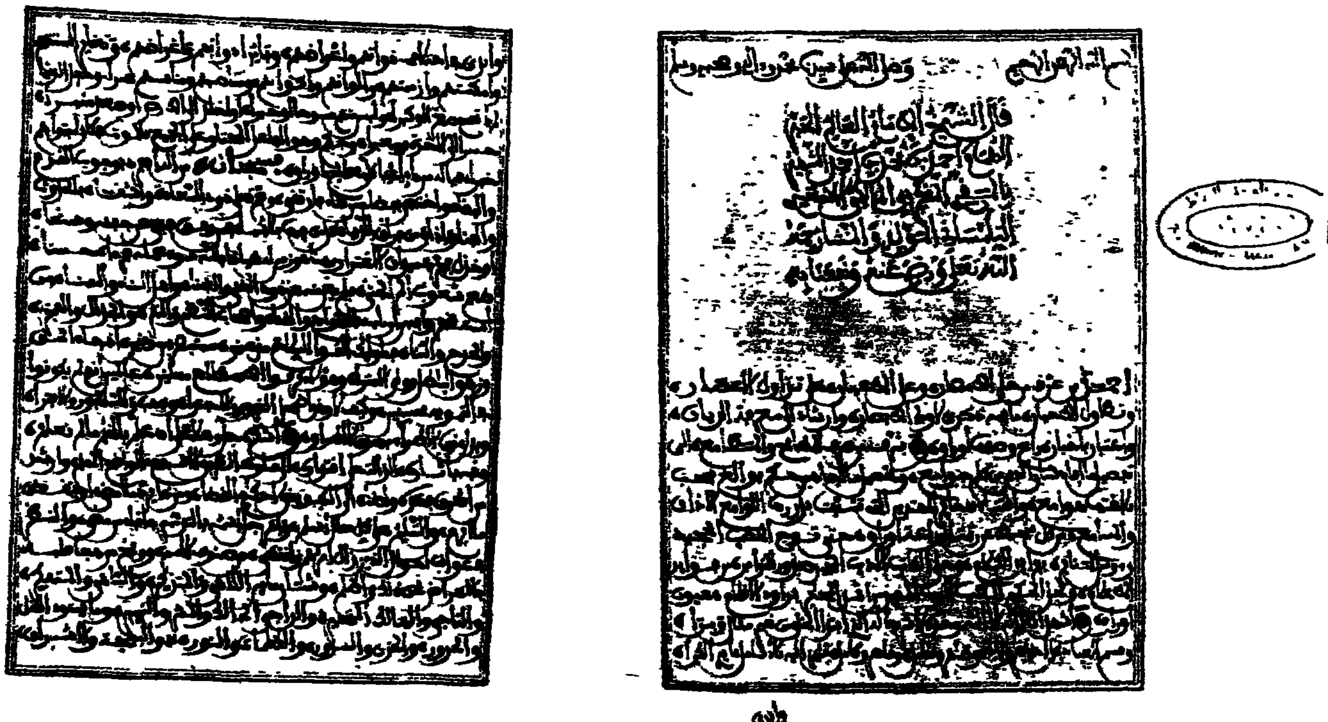
ويرجوانه لنفسيهما بهدي العلم وبركاته .

وما أظنني أتجاوز الواقع في شيء حين أنسب أكثر ما في هذا العمل من خير إلى جهود صديقين عزيزين : هما الأستاذ أنطون صادر (صاحب دار صادر) والأستاذ مصطفى دمشقية ، فأمّا الأول فقد ضحّى براحته ووقته في رعاية هذا العمل خطوةً بعد خطوة ، وقد آلى على نفسه أن يشمله بروح الإتقان وبراعة الإخراج مهما يكلفه ذلك من بذل ومشقة ، وأمّا الثاني فإن عداوته للخطإ وسهره في تحرّي الصواب وإعماله النظر النافذ والقلم السديد في صفحات الكتاب أثناء الطبع ، قد حقّق ما أُتيح له من التجويد الواضح الذي يستحق الثناء العاطر والشكر الجزيل .

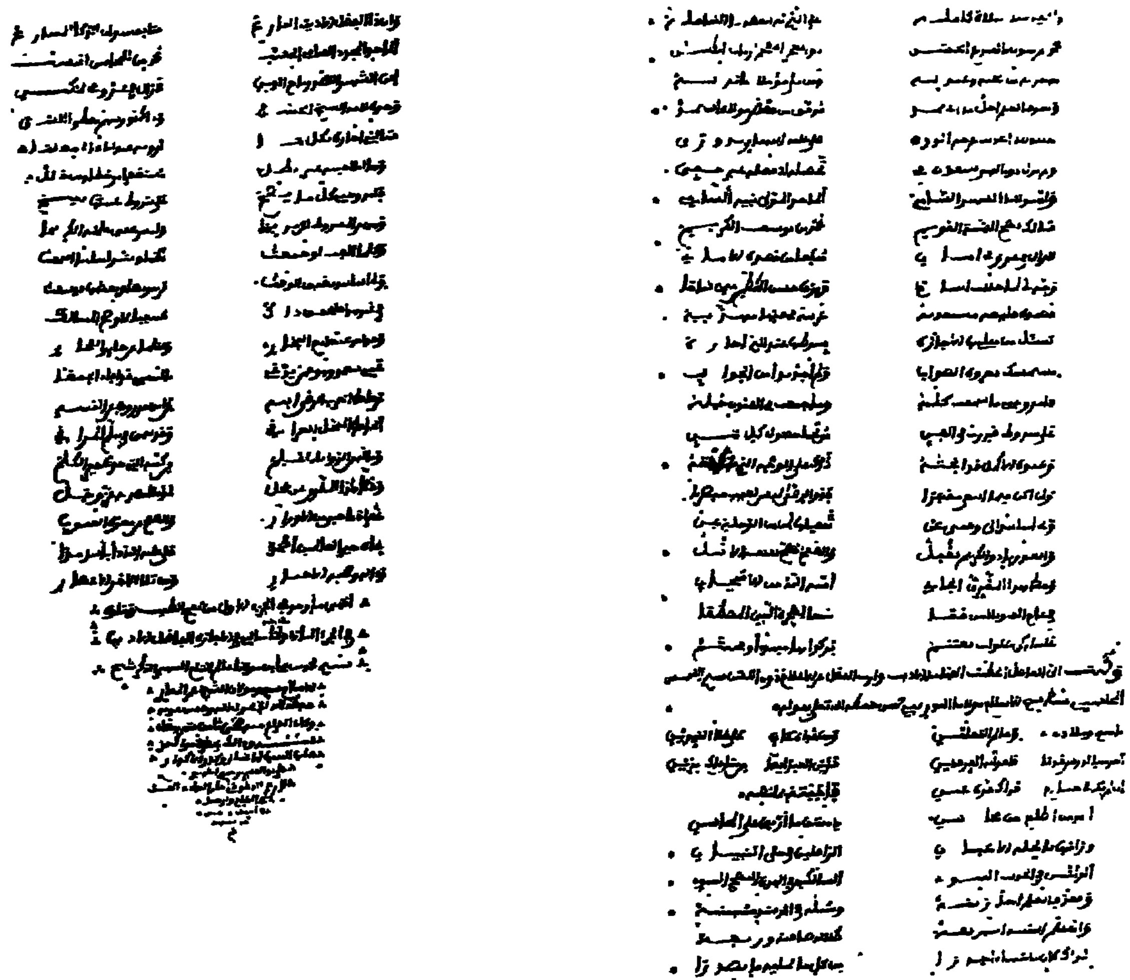
فأمّا ما قد يكون هنالك من هفوات فإنّني أتحمّل وزرها وحدي ، غير خجل بها ، وإن تمنيت السلامة منها ، بعد أن قدّمت ما في طاقتي في مدة تزيد على عامين ، انصرفت فيهما عن كثير من الشئون ، لإنجاز هذا العمل على نحو مقبول ، مطمئناً إلى أن باب العصمة مرتج دون بني الإنسان ، راضياً أن يكون الخطأ القليل علامة على إحراز الصواب الكثير .

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل .

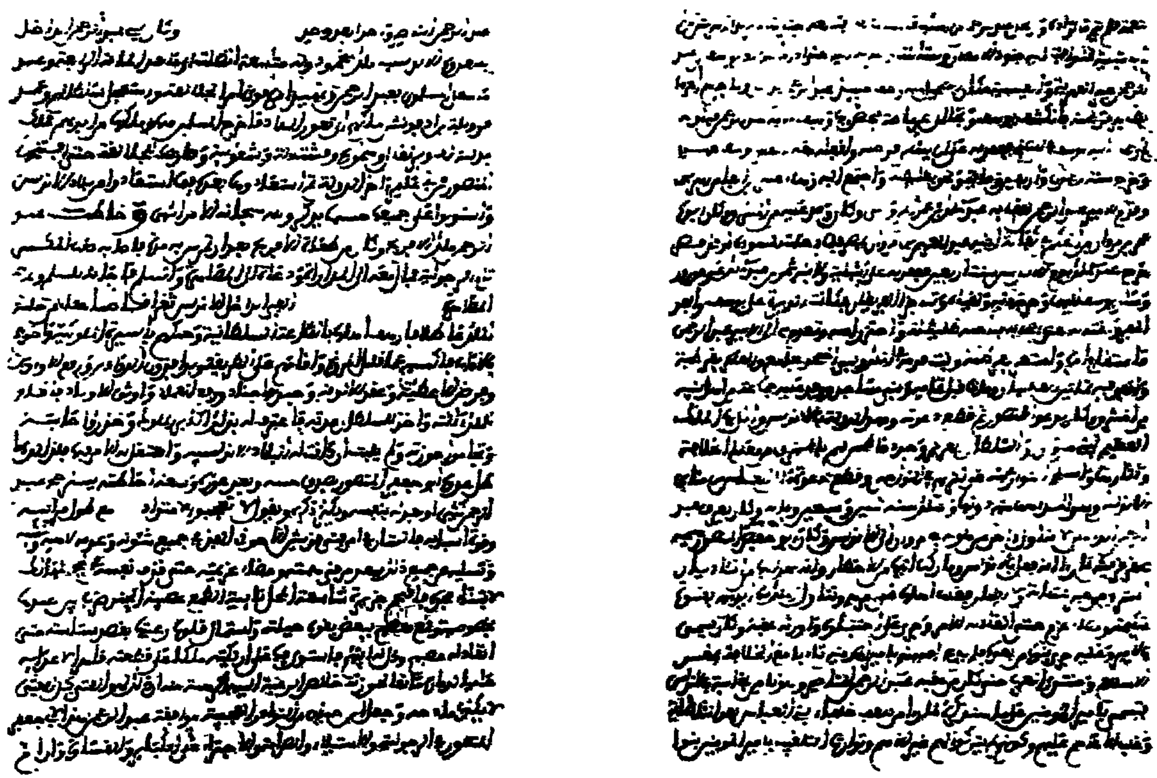
بيروت في ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٦٨ إحسان عباس



الورقة الثالثة من النسخة «ك».



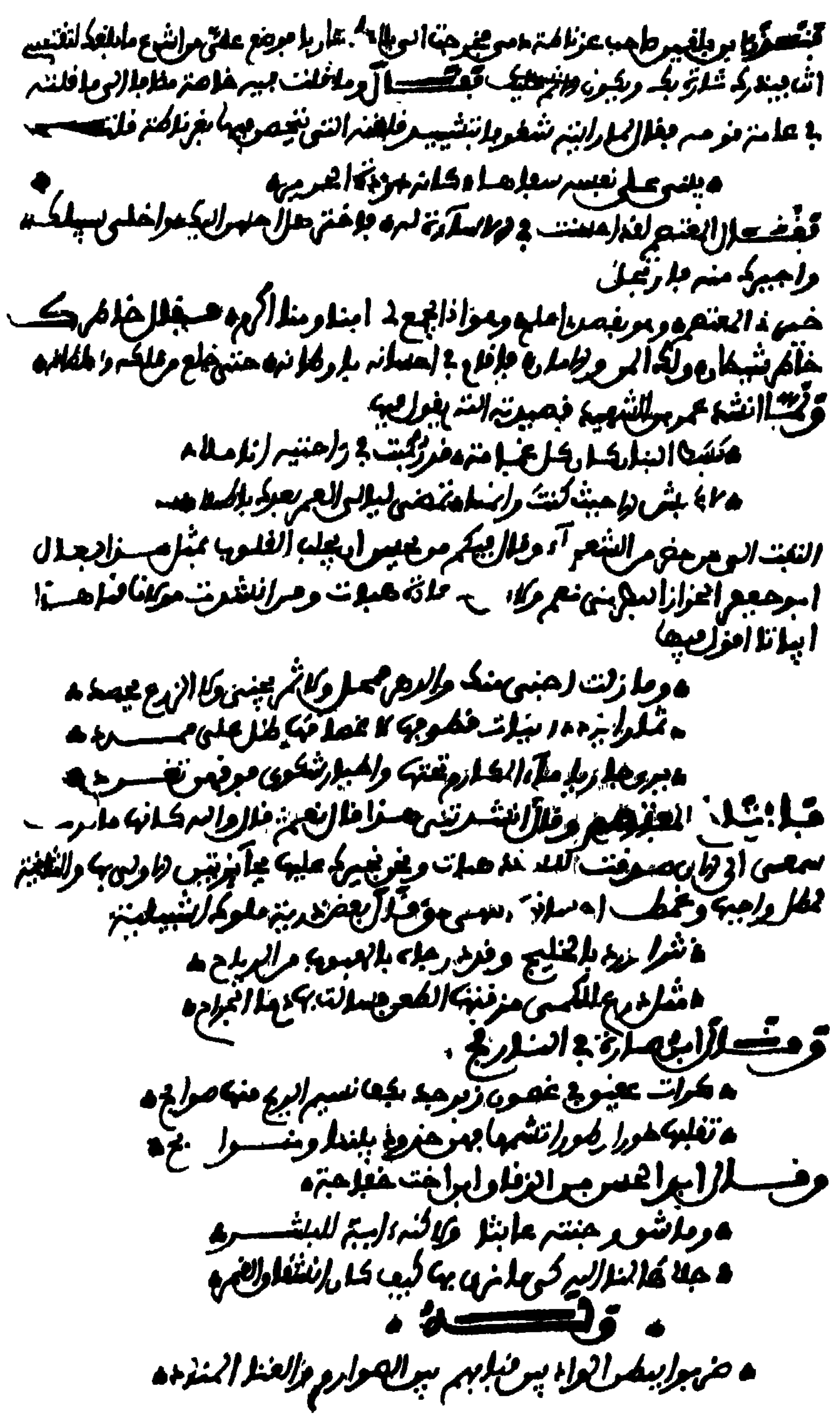
الورقة الأخيرة من النسخة «ج».



الورقة ١٠١ من النسخة «ط».

[illegible]

[illegible]



نموذج من النسخة « ب » .





الورقة الأولى من النسخة «ص».

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الفقير المضطر الحقير ● من هو من صالح العمل عري ● أحمد بن محمد الشهير بالمقري ● المغربي المالكي
الأشعري ● أصلح الله حاله ● وجعل في مرضاته حله وترحاله ● وحيى بغيث الطاعة والرضوان إمحاله ●
وأنجح ببلوغ آماله انتحاله وأنحى له أحمد من عرف من حلى الأمصار وعلى الأعيان على تداول الأعصار
وتناول الأحيان ● ما فيه ذكرى لأولي الأبصار ● وإرشاد إلى معرفة الديان واعتبار ● بأخبار راع
وصفها أو راق ● ونشر من محاسن المطامح والمطامع ● إلى تفصيل ما أفاد لسان الدين من كلم جوامع
وتحصيل الذي أجاد من حكم بوالغ سحب بلاغتها هوامع ● واقتناء ذخائر المهتدين التي تشنفت
بدررها اللوامع ● الآذان والمسامع ● من كل منحط عن رتبة البراعة أو راق ● حتى توج الخطيب المجيد
رؤوس المنابر بفرائد الكلام ● وحلى الكاتب المجيد صدور المزابر من فوائد الأعلام ● وكحل الحكيم الطبيب
الأديب المفيد من إثمد المحابر بمراود الأقلام عيون أوراق وأشهد أن لا إله إلا الله وحده الكائنات
الخالق من غير مثال وبرا ● وقسم العباد إلى حاضر وباد ● وظاهر وخامل ● وقاهر وكامل ● نشر الميت الأهل
أيكا كبرا وأبدى في اختلاف ذواتهم وأعراضهم وتباين أدواتهم وأغراضهم وتغاير ألسنتهم وأمكنتهم
وأزمنتهم وألوانهم وأكوانهم ومناصبهم ومناسبهم عبرا ● وجعل الدنيا لمن اتخذ صغرا وكبرا ● ولكنهم
مبوحا أو خبرا أو أخلد إلى الأرض أصعد منبرا جسرا إلى الآخرة ومعبرا وحكم وهو الفاعل المختار
على الجميع بالموت فكان لمبتداهم خبرا فيا له من داء أعيى كل معالج أو راق فسبحانه من إله انفرد
بوجوب القدم والبقاء ولختص بفضله من شاء فارتقى ● وعم تعالى ذوي السعادة والشقا
بالحدوث والفنا ● وأذاق من فراق الدنيا كل من فيها بلا ثنيا ● فمن وفق فنوى عن جفنه وسنا أو خذل
فجر في ميدان الاغترار رسنا وزين له عياذا بالله سوء عمله فرآه حسنا ● طم شغوفا بالمجنى
فلم يغن عن ذوي الغنى والفقا ● ولأهل السني والسنا من استظهر وإنه من رياسة الصواد
واللقا ● وأصحاب النظم والنثر ● والجدال والفخر والمدح والثنا ● فأولئك لقوا السلاح
مدعين مستبصرين موقعين ● أنجاء الحق وزهق الباطل وولى الأمير ● وهؤلاء تركوا الأمطلة
معلنين ما المبين أنهم لم يكونوا في التمويه محسنين ● وكيف لا وقد اضمحل الغرور والاجترا
وذهب والله الزور والافترا ● وبدل صدق الاعتراف بصدق الإطراق واشكره جل وعلا على
أن علم بالقلم ● ما لم نعلم ● ونبه بآثاره ● الدالة على اقتداره ● إلى سلوك الطريق الأقوم ● الواضح
المعلم ● وأرشد من أشرق فكره واضاء ● إلى التفويض لأحكام القضا ● ومن لم يرد ما أمضى
وينقض ما أبرم ● والتسليم على كل حال أسلم ● وأمر جل اسمه في أنباء من مضى ● وانظر في
عواقب الذين زال أمرهم وانقضى ● من سلوف الأمم ● ووبخ من دجا قلبه بالإعراض عن
ذلك وأظلم وشتان ما بين اللاهي والمتذكر ● والساهي والمتفكر والنائي والهالك المتحير
والداعي الحالك والمشرق النير ● وما يستوي الظل والحرور والحزن والسرور ● والظلمات والنور
وذو البهجة والإشراق وأصلي أزكى الصلاة والسلام هدية تحفو سيد الأنام ● ولبنة التمام
من زويت له من الأرض المغارب والمشارق ● وتم به نظام أنبياء الله العظام ● وأزاح نزغ
الضلال والظلام ● حتى أضاءت بوسمه المساجد ● وأذنت بأسه المهارق ● والفى الموفق
الموافق لدعوته بيد الاستسلام ● وذلك شأن ذوي العقول الراجحة والأحلام عن خايف
من عتب ولا راقب لملام فأمن طوارق والطوارق ● وتمت كلمة الإسلام ● الذي اتضح برهانه
لذي بصر وبصيرة لا يحتاج إلى زيادة إعلام ● وسلت سيوف توحيد الملك العلام من
المغارق المفارق ● وخضبتها بحنا النجيع الرقراق ● النبي الأمي الأمين ● الداعي جميع العالمين
إلى سلوك منهاج ما له من هاج ● ذي أضواء شوارق ● سيد الرسل الغر الميامين ● ملجا
الأمة جعلنا الله ممن نجا بالنجا إليه أمين الذي أنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات

الورقة الأولى من النسخة « ق ».



يهدي الخلق للصراط السوي ، وصراط الهدى سوي قويم ، فعليه الصلاة والتسليم
قال مؤلف هذا الكتاب العبد الفقير احمد بن محمد المقري المالكي وفقه الله الى حسن
المتاب ، وحباه الدخول في زمرة من رفع عنهم بشفاعة المصطفى صلى الله عليه وسلم الاصر والعتاب
هذا آخر ما سمح به الخاطر الكليل ، من هذا المقصد الجليل ، الذي يكون الى ما وراءه من
الطرف الادبية خير دليل ، ووضعته والقلب حليف الشجن وغربه ، والفكر اليف حزن وكربه
وانا اسال الله تعالى الذي لا يرجى سواه ، ان يجعل بناءه ثابتا بحسن البنية حيث البناء الذي فيه
حظ النفس وله ، وان يكون ما جلبته فيه من الهزل بالجد المذكور فيه مكفرا ، وان ينفع به من وجه اليه
وجهته فاني قد جمعت فيه ما يتعذر جمعه في غيره وكل الصيد في جوف الفرا ،
يا من عليه اتكالي ، ومن اليه متابي ، جد لي بعفوك عني ، اذا اخذت كتابي ،
واعلم ان هذا الكتاب معين لصاحبه لشعر ، ولمن يعاني بالفاظ من البيان السحر ، وفيه من
حكايات الاوليا والعلما والملوك ، ما نظمت في لبة السطور منه السلوك ، وفيه من الوعظ
والاعتبار ، ما لا ينكره المنصف عند الاختبار ، وكفاه انه لم يرمثله في فنه فيما علمت ، ولا اقول
ذلك تزكية له ويعلم الله اني تبرات من هذه العارض ومنه سلمت ، ولو لم يكن من الشرف الا ختمه بهذه
الامداح النبوية الشريفة ، ذات الظلال الوريفة ، لكان كافيا شافيا ، وها انا اجعل آخره
تنبيها اللبيب ، قول ابن حبيب ، يا خير مبعوث له طلعة
نور الهدى منها اقر العيون ، جيت الى ناديك ارجو القرى ، من غيث كفيك المغيث الهتون
كن لي شفيعا فارتكاب الهوى ، اوقعني بين الشجى والشجون ، صلى عليك الله سبحانه
ما هزت الريح قدود الغصون ، وقول النواجي ، لقد افرطت في حسن ابتداء
ومدحت مخلصي يوم الزحام ، فبالمختار ارجو عفو ربي ، ليرشدني الى حسن الختام
وكان الفراغ منه عشية يوم الاحد المسفر صباحها عن السابع والعشرين لرمضان سنة
ثمانية وثلاثين والف بالقاهرة المحروسة والحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ،
والحقت فيه كثيرا في السنة بعدها فيكون جميعه اخر المحرم الحرام فاتحة سنة تسعة وثلاثين والف
صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم دايما ابدا الى يوم الدين امين امين امين والحمد لله رب العالمين

قال محرر هذه النسخة المباركة العبد الفقير ، الضعيف الحقير ، الراجي من الله سبحانه العفو والغفران
احمد بن محمد المكي العطار غفر الله ذنوبه ، وستر في الدارين عيوبه كان الفراغ من كتابته عشية يوم الاحد
المسفر صباحها عن الرابع والعشرين او الثالث والعشرين لذي القعدة الحرام من شهور سنة ثلاثين ومائة
والف حامدا لله مصليا ومسلما على رسوله صلى الله عليه وسلم طالبا لمؤلفه المغفرة رحمه الله تعالى ورضي عنه
وعن جميع السادات العاملين ، وعن الاربعة الايمة المجتهدين ، وعن مقلديهم باحسان الى يوم الدين ، وعنا وعن
والدينا ومشايخنا ومن علمنا ومن هدانا ومن اسدى الينا معروفا وعن المسلمين والمسلمات والمومنين والمومنات
الاحياء منهم والاموات من اهل السنة والجماعات انه غفور رحيم شكور حليم سبحان ربك رب
العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى السيد
محمد كلما ذكره الذاكرون وكلما غفل عن ذكره الغافلون وسلم تسليما كثيرا دايما ابدا مباركا طيبا طاهرا
والحمد لله اولا وآخرا ، وباطنا وظاهرا ولا حول ولا قوة الا بالله العلي
العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم
النصير ، اللهم اختم لنا ولاخواننا بالخير ،
انك على كل شيء قدير ،

الورقة الأخيرة من النسخة « ق » .

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

[خطبة الكتاب]

يقول العبد الفقير ، الذليل المُضْطَر الحقير ، مَنْ هو من صالح الأعمال[1] عَرِيّ : أحمدُ بن محمّد الشهير بالمقَّرِيّ ، المغربي المالكي الأشْعَرِيّ ، أصلح الله تعالى حاله ، وجعل في مَرْضاته حِلّه وتَرْحاله ، ومحا بغَيْث الطاعة والرضوان أمحاله ، وأنْجَحَ ببلوغ آماله انتحاءه وانتحاله[2] :

أحمدُ منْ عَرَّف من حُلى الأمصار وعُلى الأعيان ، على تداول الأعصار وتطاوُلِ الأحيان ، ما فيه ذكرى لأولي الأبصار وإرشادٌ إلى معرفة الديّان ، واعتبارٌ بأخبارٍ رَاعَ وصفُها أو راق . وشرَّفَ مَنْ صَرَفَ المطامح والمطامع ، إلى تفصيلِ ما أفاد لسانُ الدين من كلمٍ جوامع ، وتحصيلِ ما أجاد من حِكَمٍ بوالغَ سُحبُ بلاغتها هَوَامع ، واقتناه ذخائر المهتدين التي تشنّفتْ بدُرَرِها اللوامعِ الآذانُ والمسامع ، من كل منحطّ عن رتبة البراعة أو رَاق . حتّى توّج

---

١ ط : العمل .

٢ لم ترد هذه الفاتحة في ج ك .

الخطيبُ المجيد رؤوس المنابر بفرائد الكلام ، وحلّى الكاتبُ الأديب المجيد صدورَ المزابر من فوائد الأعلام ، وكحل الحكيمُ الطبيبُ الأريبُ المفيدُ من إثمد المحابر بمَرَاود الأقلام عيونَ أوْراق .

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له الذي ابتدأ الخلقَ من غير مثال وبَرَا ، وقسّم العباد إلى حاضر وبادٍ وظاهر وخامل وقاصر وكامل تشير إليه بالأنامل أيدي الكُبَرَا ، وأبدى في اختلاف ذواتهم وأعراضهم وتَبايُن أدواتهم وأغراضهم وتغاير ألسنتهم وأمكنتهم وأزمنتهم وألوانهم وأكوانهم ومناصبهم ومَناسبهم عِبرا ، وجعل الدُّنيا لمن أُتيح صغراً أو كبرا ، ولبس منهم مُسوحاً أو حِبَرا ، وأخلد إلى الأرض أو صَعِدَ منبرا ، جسراً إلى الآخرة ومَعْبرا ، وحكم — وهو الفاعل المختارُ — على الجميع بالموت فكان لمبتدإهم خَبَرا ، فيا له من داء أعيا كلّ معالج أو راقٍ .

فسبحانه من إله انفرد بوجوب القدم والبَقا ، واختص بفضله من شاء فارتقى ، وعَمّ تعالى ذوي السعادة والشقا ، بالحدوث والفنا ، وأذاق من فراق الدُّنيا كلّ من فيها بلا ثُنا [1] ، ممّن وُفّق فنفى عن جَفْنِه وسَنا ، أو خُذل فجرّ في مَيْدان الاغترار رَسَنا ، وزُين له عياذاً بالله سوءُ عمله فرآه حسنا ، طَعْمَ شَعُوب [2] المرَّ الجَنَى ، فلم يغن منه عن ذوي الغِنى والغَنا ، وأهل السناء والسّنا ، من استظهروا به من أرباب الصَّوارم والقَنا ، وأصحاب النظم والنثر والجدال والفخر والمدح والثنا ، فأولئك ألقوا السلاح مُذعِنين ، مستبصرين موقنين ، إذ جاء الحقّ وزَهَقَ الباطل وولّى الامترا ، وهؤلاء تركوا الاصطلاح مُعْلنين [3] ، عالمين أنهم لم يكونوا في التمويه مُحْسنين ، وكيف لا وقد اضمَحَلّ

---

١ الثنا — بكسر الثاء وضمها — إعادة الشيء مرتين ، أو الرجوع فيه . وفي ق ك ج : ثنيا .

٢ طعم : مفعول به للفعل « أذاق » . وشعوب : اسم المنية .

٣ ط : معلمين .

الغرور والاجترا ، وذهب والله الجورُ[1] والافترا ، وَبُدِّلَ مَذْقُ الإطراء بصدق الإطراق[2] .

وأشكره جلّ وعلا على أن علّم بالقلم ما لم نعلم ، ونبّه بآثاره الدالّة على اقتداره إلى سلوك الطريقِ الأقوم ، الواضحِ المَعْلَم ، وأرشد من أشرق فكره وأضا ، إلى التفويض لأحكام القضا ، ومن ذا يردُّ ما أمضى أو ينقض ما أبرم ، والتسليمُ على كل حال أسْلَم ، وأمَرَ جلّ اسمُه بالتدبر في أنباء من مضى ، والنظر في عواقب أحوال[3] الذين زال أمرهم وانقضى ، من صنوف الأمم ، ووبّخَ من دجا قلبُه بالإعراض عن ذلك وأظلم ، وشتّان ما بين اللاهي والمتذكر ، والساهي والمتفكر ، والناجي والهالك والمتحيّر ، والداجي الحالك والمشْرِق النيّر ، وما يستوي الظّلُّ والحَرُور ، والحُزْنُ والسرور ، والظُّلماتُ والنور ، ذو البهجة والإشراق .

وأصلّي أزكى الصلاة والسلام ، هَدِيّةً لحضرة سيد الأنام ، ولَبِنَة التمام ، مَنْ زُوِيت[4] له من الأرضِ المغاربُ والمشارق ، وتم به نظام أنبياء الله ورسله العظام ، وأزاح نورُهُ الضلالَ والظلام ، حتى أضاءت بوسمه المساجد وازدانت باسمه المهارق[5] ، وألقى الموفَّقُ الموافقُ لدعوته بيد الاستسلام ، وذلك شأنُ ذوي العقول الراجحة والأحلام ، غيرَ خائفٍ من عَتْب ولا مترقب لمَلام ، فأمن من الطوارىء والطوارق ، وتمّت كلمة الإسلام الذي اتضح بُرهانه للذي بصر وبصيرة لا يحتاج إلى زيادة الإعلام ، وعلت سيوفُ توحيد الملك العلاّم ،

١ ط ق ج : الزور .
٢ مذق الإطراء : الثناء الكاذب . الإطراق : السكوت .
٣ أحوال : سقطت من ق .
٤ زويت الأرض : جمعت وطويت ، وفي الحديث « إن الله تعالى زوى لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » .
٥ المهارق : الصحف .

من المُعاندِ المُفارقِ المَفَارِق[1] ، وخضبتها بحنّاء النجيع الرقراق . النبيّ الأميّ الأمين ، الداعي جميعَ العالمين ، إلى سلوك منهاجٍ ما له مِنْ هاجٍ ، ذي أضواء شوارق ، سيد الرسل الغُرّ الميامين ، ملجإ الأمّة جعلنا الله ممّن نجا باللّجإ إليه آمين ، الذي أنزل عليه القرآن ، هُدًى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان ، وانشقّ له الزبرقان[2] ، ونبع الماء من بين أصابعه زيادة في الإيقان ، وسلّمت عليه الأحجار ، وانقادت لأمره الأشجار ، متفيئةً ظلاله الشريفة وخطّت في الأرض أسطراً مُبْدَعَة الإتقان ، إلى غير ذلك من معجزاته الخوارق ، فهو صاحب الدعوة الجامعة ، والبراهين اللامعة ، والأدلة التي سقت الشجرة الطيبة غيوثُها النافعة ، الصَّيِّبة الهاميةُ الهامعة ، الصادقةُ البوارق ، فأثمرت النجاةَ والفوز والفلاح وأورقت بالهدى أحسن إيراق . أسنى رسولٍ بُعث إلى الأرض ، وأعظمهم جَلالَة ، وأكثرهم تابعاً في الطول منها والعرض ، ولم لا وقد ظهر به الحقُّ لمن أمّهُ مسترشداً وجلا له ، وأسمى مَنْ جاء بتبيين السُّنَّة والفرض ، وأعمّهم دَلالَة ، منقذ البرايا في الدُّنيا ويوم العرض ، الآخذ بحُجَزهم عن النار والضلالة ، الداعي إلى تقديم الخير وحسن القرض ، الحريص على هداية الخلق المبلّغ لهم أحكام الحق من غير ضجر ولا ملالة ، ذو الفضل العظيم الذي لم يختلف فيه من أهل العقول اثنان ، والمجد الصميم الثابت الأصول الباسق الأفنان ، المنتقى من مَحتِدِ معدّ بن عدنان ، المنتخَب من خير عُنْصر وأطهر سُلالة، شفيعنا وَمَلاذنا وعصمتنا ومَعاذنا وثمالنا ، الذي نجحت به آمالنا ، وزكت به أقوالنا وأعمالنا ، ووسيلتنا الكبرى ، وعمدتنا العظمى في الأولى والأخرى ، وكنزنا الذي أعددناه لإزاحة الغموم ذُخْرا ، وغيثنا وغوثنا وسيدنا ونبينا ومولانا محمّد الطيب المنابت والأعراق .

---

[1] المفارق : جمع مفرق وهو الرأس ، وهو مفعول به للفعل « علت » .

[2] الزبرقان : القمر .

صلى الله وسلّم عليه ، ووَجّه وفودَ التعظيم إليه ، من مُفْرَدٍ في جَماله صار لجمع الأنبياء تماماً ، وفَذٍّ في كماله تقدّم في حضرة التقديس التي أسست على التشريف أعظم تأسيس فصلّى[1] بالمرسلين إماماً ، وصَدْرٍ تحلّى بجميل الأوصاف ، كالوفاء والعفاف ، والصدق والإنصاف ، فزكا في أعماله ، وبَلّغ الراجي منتهى آماله ، ولم يُخْلِفْ وَعْداً ولم يَخْفِر ذماماً ، وسيِّدٍ كُسِيَ حُلَل العِصْمة ، من كل مخالفة وذنب ووَصْمة ، فلم يصرف لغير طاعة مولاه ، الذي أولاه من التفضيل ما أولاه ، اهتبالاً واهتماماً .

وعلى آله وعترته ، الفائزين بأثرته ، أنصار الدين ، والمهاجرين المهتدين ، وأشياعه وذريته ، الطالعين نجوماً في سماء شهرته ، وأتباعهم القائمين بحقوق نُصْرته ، أرباب العقل الرصين ، الفاتحين بسيوف دعوته أبواب المَعْقِل الحصين ، حتى بلغت أحكام ملّته ، وأعلامُ بعثته ، مَنْ بالأندلس والصين ، فضلاً عن الشأم والعراق .

ورضي الله تعالى عن علماء أمّته المصنفين في جميع العلوم والفنون ، وعظماء سنّته المُوفين للطلاب بالآراب المحققين لهم الظنون ، وحكماء شِرْعَته المتبصرين بحدوث من مرّتْ عليه الأيام والشهور وكرّت عليه الآناء والدهور والأعوام والسنون ، المتدبرين في عواقب مَنْ كان بهذه البسيطة من السكان المتذكرين على قدر الإمكان بمن طَحَنَته رَحا المنون ، من أمْلاكِ العصور الخالية ومُلاّك القصور العالية وذوي الأحوال التي هي بسلوك الاختلاف حَالية ، من بصير وأعمى وفقير وذي نُعمى ومختال تَرَدّى بكبريائه ، ومحتال على ما بأيدي الناس بسُمْعته وريائه ، وعاقل أحسن العمل ، وغافل افتتن بالأمل ، وكارعٍ في حياض الشريعة ، ورائع برياض الآداب المريعة ، وذي وَرَعٍ سَدّ عما رابه الذريعة ، وأخي طمع في أن يدرك آرابه من الدنيا الوشيكة

. . . .

[1] فصلى : سقطت من ق ط ج .

الزوال السريعة ، ومقتبس من نبراس الرواية ، وملتبس بأدناس الغواية ، وشاعر هام في كل واد ، وقال ما لم يفعل فكان للغاوين من الروّاد ، وجاهل عَمَرَ الخراب ، وخُدع بالسّراب ، عن أعذب الشراب ، ومحقق علم أنّه إذا جاء القَدَر عميَ البصر ممّن كان أحْذرَ من غُراب ، وموفق تيقن أنَّ غيرَ الله فان وكل الذي فوق التّراب تُرَاب [1] ، ومن متخلق متجرّد تَصَوّف [2] ، ومتعلق متفرّد تشوّق إلى ما فيه رضا الرب وتشوّف ، وناهٍ ذَكّر بأيام الله وَوَعَظَ وخوّف ، ولاهٍ اغترّ بالباطل ، فهو بالحق مماطل ، وطالما أخّرَهُ وَسَوّف ، وأبعد الانتجاع ، ثم أوى من باطنه إلى بيت قَعيدتُهُ لَكَاعِ [3] ، نفسٍ أمّارة بعدما طوّف ، ومن مادحٍ نظم الآلاء نظم اللآل ، وكادح طَمَسَ لألاء العزّ بظلمة ذُلّ السؤال ، فجعل القصائد مصايد ، والرسائل وسائل ، والمقطّعات مُرَقَّعات [4] ، فآل أمره إلى ما آل ، ومن مُخبرٍ بما سمع ورأى ، حين اغترب عن مكانه ونأى ، أو أقام في أوطانه فبلغ ما قدّر ووَأى [5] ، ومن مُجازف لا يفرّقُ بين الغثّ والسمين والإمرار والإحلاء ، وعارفٍ ثقةٍ أمين نَظَمَ دُرَّ الصدفِ الثمين في أسلاك الكتابة والإملاء ، وعاشقٍ خنساءُ فكره ذات الصِّدَار ، من الشجون والشعار ، تبكي على صَخْرِ قلبِ المحبوب ، وتذكره كلّما طلعت شمس أو كان للصَّبا

1 يشير إلى قول المتنبي :

إذا صح منك الود فالكل هين   وكل الذي فوق التراب تراب

2 متخلق : لابس أخلاق الثياب ، وهو ذو خلق . ومتجرد : عريان ، أو قد جرد نفسه للعبادة .

3 من قول الحطيئة :

أطوف ما أطوف ثم آوي   إلى بيت قعيدته لكاع

والقعيدة اللكاع هنا : نفسه الأمارة بالسوء .

4 المرقعات : ملابس المتصوفة ، والمعنى أنه جعل مقطعاته الشعرية وسيلة للتصيد كمرقعات المتصوفة .

5 وأى : وعد وضمن بعزم .

هُبوب[1] ، فتأتي بما يُطفي وَقودَ الجوى المَشْبوب من بحار الأشعار ، وليلى شوقه العفيفة عن العار ، تَرَفَّل في ثوب من التصبّر مُعار ، وقيس تَوَقّه من ثوب السلوّ عار ، قد تولّه واشتاق خصوصاً عند انتشاق البَشَام والعَرَار[2]، وقَلِقَ لمّا أرِقَ فلم يقرّ به قرار ، فاعتراه ما بَراه وألف البكاء بحكم الاضطرار ، ولَبِسَ ثياب النحول والاصفرار ، وأُسِرَ لما هُزِمَتْ جيوشُ صبره وأزمعتِ الفِرار ، فتحير ممّا شجاه وسأل النجاة من أسر الفراق .

سُبحانَ مَنْ قَسَمَ الحظو ظَ فلا عتابَ ولا مَلامَهْ
أعمى وأعْشَى ثمّ ذو بَصَرٍ وزرقاءُ اليَمامَهْ[3]
ومُسَدَّدٌ أو جائرٌ أو حائرٌ يَشكو ظَلامَهْ[4]
لَوْلا استقامَةُ مَنْ هدا ه لمّا تبينَتِ العَلامَهْ
ومجاورُ الغَرَرِ المخيـ ـفِ لَهُ البِشارَةُ بالسلامه
وأخو الحجى في سائرِ الْـ أنْفاسِ مُرْتَقِبٌ حِمامَهْ
وكمَا مَضَى مَنْ قَبْلهُ يمضي ولم يقضِ التزامَهْ
والجاهلُ المغترُّ مَنْ لم يجعلِ التقوى اغتنامَهْ
فليرفضِ العصيانَ مَنْ يخشَى مِنَ اللهِ انْتقامَهْ

. . ....

١ ألم هنا بإشارات إلى الخنساء التي لبست صداراً على أخيها صخر فلم تنزعه حتى ماتت ، وكانت تقول في شعرها :

« يذكرني طلوع الشمس صخراً »

٢ فيه إشارات إلى قيس وليلى ، واشتداد الشوق عندما يهب النسيم حاملا معه رائحة البشام والعرار وهما نبتان طيبا الرائحة من نبات نجد .

٣ أي أن الناس متفاوتون في حظوظهم فمنهم — من حيث الإبصار — الأعمى والأعشى والحاد البصر الذي يشبه زرقاء اليمامة ، وهي مضرب المثل في ذلك ، وقصة رؤية الجيش الذي غزا اليمامة من مسيرة أيام مشهورة . وفي ق ط ج : أعشى وأعمى .

٤ مسدد : حسن التوجه . الجائر : الحائد عن القصد . الحائر : الذي لا هو مسدد ولا جائر .

وليعتبرْ بسواهُ مَنْ   لصلاحِهِ صَرَفَ اهتْمامَهْ
فالعيشُ في الدُّنيا الدنيّـ   ـةِ غيرُ مرجُوِّ الإدامَهْ
مَنْ أرْضعَتْهُ ثُدِيُّها   في سُرْعَةٍ تبدا فِطَامَهْ
مَنْ عزَّ جانبُهُ بِها   تنوي على الفَوْزِ اهتْضامَهْ
وإذا نظرت فأيْنَ مَنْ   مَنَعَتْه أو مَنَحَتْ مرَامَهْ
ومَنِ الذي وَهَبَتْه وَصْـ   ـلاً ثمَّ لم يَخْشَ انصرامَهْ
ومَنِ الذي مَدّتْ لَهُ   حبْلاً فلَمْ يخَفِ انفِصامَهْ
كم واحدٍ غرَّتْه إذْ   سَرَّتْه مخفيةَ الدَّمامَهْ [1]
قَعَدَتْ بهِ من حيثُ لم   يَعْلَمْ فلم يملِكْ قيامَهْ
أين الـذين قلوبُهُمْ   كانَتْ بها ذاتَ استهامَهْ [2]
أين الـذين تَفيّـأوا   ظلَّ السيادة والزَّعامَهْ
أيْنَ الملوك ذوو الريـا   سةِ والسِّياسةِ والصَّرامَهْ
وبنو أُميّةَ حينَ جَمَّـ   ـعَ عصرُهُمْ لهمُ فِئامَهْ
وتَمكّنوا ممّن يحا   ول نَقْضَ ما شاءوا انبرامَهْ
وتَعَشّقوا لمّا بَدَا   لهم مُحَيّا الأرض شامَهْ [3]
وتأمّلوا وَجْهَ البَسيـ   ـطةِ فانثَنَوْا يهوون شَامَهْ [4]
حتّى تَقَلّصَ ظلُّهم   وأراهُمُ الدهرُ اخترامَهْ
أيْنَ الخلائفُ مِنْ بَنِي الـ   ـعبّاس والبرِّ القَسامَهْ [5]

---

١ ق : مخفرة ذمامه .
٢ الاستهامة : مصدر « استهام » بمعنى هام ، أي شغف .
٣ أي أنهم عشقوا وجه الأرض لما تبدى لهم شامة جذابة .
٤ شامه : ديار الشام . والبيت سقط من ق ط .
٥ للقسامة معان : فمنها اليمين ، ورجل بر اليمين : لا يحنث بها ، والقسامة أيضاً : الهدنة بين المسلمين وأعدائهم ، والبر القسامة : يشير إلى العباس عم الرسول وله مواقف في الوفاء مذكورة في كتب السيرة ؛ وبه استسقى عمر بن الخطاب لما قحط الناس ، ويمكن أن يكون معنى —

أيْنَ الرشيدُ وأهلُه وبَنُوه أصحابُ الشّهامَهْ

ووزيرُهُ يحيى وجَعْفَرٌ ابنه الراوي احتْشامَهْ

والفضلُ مُدْني مَنْ يقولُ لمَنْ يلوم على النَّدى مَهْ

أمْ أيْنَ عَنْتَرةُ الشّجاعُ وذو الجدا كَعْبُ بن مامَهْ[1]

والزّاعِمُـون بجَهْلِهِم أنّ القُبور صَدًى وهامَهْ[2]

والمكثرون مِنَ المجونِ إذا شَكا الفكرُ اغتْمامَهْ

أيْنَ الغريضُ ومَعْبَدٌ أو أشعبٌ وأبو دُلامَهْ

أيْنَ الأُلى هامُوا بِسُعْدَى أو بثينةَ أو أُمَامَهْ

وبَكَوْا لفرطِ جواهُمُ والليْلُ قَدْ أرْخى ظَلامَهْ

وتَتَبّعُوا آثَارَ مَنْ عَشِقُوا بِنَجْدٍ أو تِهامَهْ

وتعلّلوا ، والشّوقُ يغلبُ ، بالأراكةِ والبَشامَهْ

أضنى النّوى قيساً فقاسَى لاعِجاً أغْرى غَرامَهْ

وغوى هوى غَيْلانَ مُذْ أبْدى بميَّتِهِ هُيَامَهْ[3]

أيْنَ الأكاسِرُ والقياصِرَةُ المُجلّون الغَمامَهْ[4]

أيْنَ الذي الهرمانِ مِنْ بُنْيانِهِ الحاكي اعتزامَهْ[5]

= « بر القسامة » هو هذا نفسه ، أي استحلف به مستسقياً فبر .

١ كعب بن مامة الإيادي : مضرب المثل في الإيثار ، لأنه آثر صاحبه النمري بالماء ومات هو ظمأ (انظر السمط : ٨٤٠ وفصل المقال : ٢٧٨) .

٢ يشير إلى قول بعض الجاهليين :

يخبرنا ابن كبشة أن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام

٣ غيلان بن عقبة المري ، هو ذو الرمة الشاعر ، صاحب مية .

٤ المجلون الغمامة : الكاشفون الغماء أي الكربات .

٥ ضمن في هذا البيت قول المتنبي :

أين الذي الهرمان من بنيانه ما يومه ما قومه ما المصرع

أمْ أيْنَ غُمْدانٌ وسيـ ـفٌ والوفودُ بِهِ أمامَهْ [1]
أيْنَ الخَوَرْنَقُ والسّديـ ـرُ ومَنْ شَفَى بهما أُوَامَهْ [2]
ومَدائنُ الإسكنـدرِ الـ لاتي لها أعلى دِعامَهْ
أيْنَ الحُصُونُ ومَنْ يصُو نُ بها من الأعدا حُطامَهْ
أينَ المراكبُ والمـوا كبُ والعصائبُ والعِمامَهْ
أيْنَ العساكـرُ والدسا كرُ والنّدامى في المُدامَهْ
وَسُقاتُهـا المُتَلاعِبو نَ بلُبِّ مَنْ أعْطَوْهُ جامَهْ
من كلّ أهيفَ يزدري بالغُصنِ إنْ يَهْزُزْ قَوَامَهْ
ذي غُـرّةٍ لألاؤهـا تمحُو عَنِ النادي ظَلامَهْ
فالشّمس في أزراره والبدرُ في يده قُلامَهْ
يُضْمي القلوبَ إذا رمى عَنْ قوسِ حاجبه سِهامَهْ
ويروقُ حُسناً إن رَنَا ويفوقُ آراماً بِرامَهْ
أنّى لهـا ثغرٌ حـلا ذوقاً لمن رامَ التثامَهْ
أنّى لها وجهٌ يَشُبُّ بقلبِ مُبصره ضِرَامَـهْ
أسْتَغْفِـرُ اللهَ للغُدْ وِ لا يرى الشرعُ اعتيامَهْ
بَلْ أيْنَ أربابُ العلو مِ أُولو التصدُّرِ والإمامَهْ
وذوو الوزارة والحجا بةِ والكتابةِ والعلامَهْ
كأئمّةٍ سَكَنُوا بِأنْ دلسٍ فلَمْ يشكوا سآمَهْ
هيَ جنّةُ الدُّنيا التي قد أذْكرَتْ دارَ المُقَامَهْ
لا سيّما غَرْناطَةُ الـ غرّاءُ رائقـةُ الوَسَامَهْ
وهي التي دُعِيَتْ دِمَشْـ قَ وحَسْبُها هذا فَخامَهْ

---

١ غمدان : قصر باليمن . وسيف : هو ابن ذي يزن ، ولما احتل العرش وفدت عليه الوفود لتهنئته وكان فيها وفد قريش .
٢ الأوام : العطش .

لتزولِ أهليهـــا بها إذ أظْهَرَ الكفرُ انهزامَهْ
وأتَتْ جيوشُ الشأم من بابٍ نَفى الفتحُ انبهامَهْ
فَسَلَوْا بِها عَنْ جِلّقٍ إذ أشبهتها في الضَّخامَهْ
وبَدَا لهم وجهُ المُنَى وأراهُمُ الثَّغْرُ ابتسامَهْ
وتبوّأوهـــــا حَضْرةً تُبْري من المضنى سَقَامَهْ
برُوَائهـــــا وبمـــائها وَهَوَائِها النّافي الوَخَامَهْ
وَرِياضِهـــــا المهتزّةِ الـ أعطافِ من شَدْوِ الحَمَامَهْ
وبمَرْجِهـــا النّضْرِ الذي قَدْ زَيّنَ اللهُ ارتسامَهْ
وقصورِهـــا الزُّهرِ التي يأبى بها الحسنُ انْقِسامَهْ
يا ليتَ شِعري أيْنَ مَنْ أمضى بها الملكُ احتكامَهْ
وَأتيحَ في حَمْرائِهـــا عِزّاً بِهِ زانَ اتّسامَهْ
أيْنَ الوزيرُ ابن الخطيـ ـب بها فَما أحلى كلامَهْ
فَلَكَمْ أبانَ العدلَ في أرجائهـا وبها أقـــامَهْ
ولَكَمْ أجار عِداً وكَمْ أجرى نَدًى وَالى انسجامَهْ
راعَتْ صروفُ الدهرِ دَوْ لَتَهُ وما راعت ذِمامَهْ
حتى ثَوَى إثرَ التَّوَى في حُفْرَةٍ نَثَرَتْ نظامَهْ[1]
مَنْ زارها في أرضِ فا سِ أذهبتْ شَجْواً مَنامَهْ[2]
إذ نَبّهَتْهُ لكلّ شَمْـ ـلٍ شَتّتَ الموتُ التئامَهْ
هـــذا لسانُ الدينِ أسـ ـكتَه وأسْكَنَهُ رِجامَهْ
ومحـــا عِبـــارتَهُ فَمَنْ حَيّاهُ لم يَرْدُدْ سَلامَهْ
فكأنّهُ ما أمسكَ الـ ـقلَمَ المطاعَ ولا حُسامَهْ

---

١ التوى : الهلاك .
٢ قبر لسان الدين بمدينة فاس عند باب المحروق منها .

وكأنّهُ لَمْ يعلُ مَتْ نَ مُطَهَّمٍ بارَى النَّعامَهْ
وكأنّهُ لم يَرْقَ غا رِبَ الاعتزازِ ولا سَنَامَهْ
وكأنّه لم يجلُ وَجْ هاً حازَ مِنْ بِشْرٍ تمامَهْ
وكأنّهُ ما جَالَ في أمرٍ ولا نَهْيٍ وَسامَهْ
وكأنّهُ ما نالَ مِنْ مَلِكٍ حِبَاهُ ولا احترامَهْ[1]
وكأنّهُ لم يُلْقِ في يَدِهِ لتَدبيرٍ زِمامَهْ
مُذْ فارقَ الدُّنيا وَقَوّضَ عَنْ مَنازلها خيامَهْ
أمْسَى بقبرٍ مفرداً والتُّربُ قد جَمَعَتْ عِظامَهْ
مِنْ بعدِ تثنيةِ الوزا رَةِ جاده صَوْبُ الغَمامَهْ[2]
لَمْ يبقَ إلاّ ذكرُهُ كالزهْرِ مُفْتَرَّ الكمامَهْ
والعمرُ مثلُ الضيفِ أو كالطَّيفِ لَيْس لَهُ إقامَهْ
والموتُ حَتْمٌ ثُمَّ بعـ ـدَ المَوتِ أهوالُ القيامَهْ
والنـاسُ مجزيّون عن أعمالِ مَيْلٍ واستِقامَهْ
فذوو السَّعادة يضحكو نَ وغيرهم يبكي نَدَامَهْ
والله يَفْعَلُ فيهمُ ما شاء ذلاًّ أو كرامَهْ
ويُشَفّعُ المختـارَ فيـ ـهِمْ حينَ يَبْعثُه مقامَهْ
وعليهِ خَـيرُ صلاتـهِ مَعَ صَحْبِهِ تتلو سَلامَهْ
والتابعيـن ومَنْ بَـدا بَرْقُ الرشادِ لَهُ فَشَامَهْ
ما فازَ بالرّضْوان عَبْـ ـدٌ كانَتِ الحُسْنى ختامَهْ

والله سبحانه المسؤول في الفوز والنجاة كرماً منه وحلماً ، فبيده الخير لا إله إلا هو العليّ الكبير ، العليم الخبير ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، فلا يَعْزُب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء من مخلوقاته على الشمول والاستغراق .

---

١ حباه : أي حباءه وهو العطاء .

٢ تثنية الوزارة : أي ذو الوزارتين وهو لقب لسان الدين .

[حنين إلى الوطن]

أمّا بَعْدَ حمد الله مالك الملك ، والصلاة على رسوله المنْجِيي من الهلك ، والرضا عن آله وصحبه الذين تجلّتْ بأنوارهم الظُّلَم الحُلْك ، وعن العلماء الأعلام ، الخائضين بحار الكلام ، المستوين من البلاغة على الفُلْك — فيقول العبد الحقير ، المذنب الذي هو إلى رحمة ربّه الغنيّ فقير [1] ، المقصّر المتبرئ من الحَوْل والقوّة ، المتمسكُ بأذيال الخدمة للسُّنّة والنبوّة ، وذلك بفضل الله أمانٌ وبراءة ، الضعيفُ الفاني ، الخطّاء [2] الجاني ، مَنْ هو من لباس التقوى عَرِيّ ، أحمد بن محمّد بن أحمد الشهير بالمقّريّ ، المغربي المالكي الأشعري [3] ، التلمسانيّ المولِدِ والمنشإ والقراءة ، نزيل فاس الباهرة ثم مصر القاهرة ، أصلح الله أحواله الباطنة والظاهرة ، وجعله من ذوي الأوصاف الزكيّة [4] والخلال الطاهرة ، وسدّد في كل قصد أنحاءهُ وآراءه ، ووفّقه بمنّه وكرمه للأعمال الصالحة ، والطاعات الناجحة الراجحة ، والمتاجر المغبوطة الرابحة ، والمساعي الغادية بالخير الرائحة ، ووقّاه ما بين يده ووراءه ، وكفاه مكر الكائد وافتراءه ، وجدّالَ الحاسد المستأسد ومِراءه ، وجعل فيما يرضيه سَوْمَه وشراءه ، آمين :

إنّه لمّا قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقُّب أو رَدّ ، ولا محيدَ عمّا شاءه سواء كَرِهَ ذلك المرء أو ردّ ، برحلتي من بلادي ، ونُقْلَتي عن محلّ طارفي وتِلادي ، بقُطْر المغرب الأقصى ، الذي تمت محاسنه لَوْلا أنَّ سَماسِرَة الفتن سامت بضائع أمنِه نَقْصا ، وطما به بحرُ الأهوال فاستعملت شعراءُ العَيْشِ في كامل رَوْنقه من الزحاف إضماراً وقطعاً ووَقْصا :

---

١ في ج ق ط : رحمة الغني فقير .

٢ ق : المخطيء .

٣ في ط ق : المالكي المغربي .

٤ في ج ق ط : الزاكية .

قُطْرٌ كأنَّ نسيمَهُ نَفَحاتُ كافورٍ ومِسْكِ
وكأنَّ زَهْرَ رياضِهِ دُرٌّ هَوَى مِنْ نظمِ سِلْكِ

وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف ، تاركاً المنصب والأهل والوطن والإلف :

بَلَدٌ طابَ لي به الأُنسُ حيناً وصفا العَوْدُ فيهِ والإبْداءُ
فسَقَتْ عهدَه العِهادُ وَرَوَّتْ منهُ تلكَ النواديَ الأنْداءُ

وما عسى أن أذكر في إقليم ، تعيّنَ لحجّةِ فضلِهِ التسليم :

أضْواؤه طِبْقُ المنى ، وهَواؤهُ يشتاقُهُ الوَلْهَانُ في الأسْحَارِ
والطبْعُ معتدلٌ فقُلْ ما شئتَه في الظّلّ والأزهارِ والأنْهارِ

محل فتح الكَمائم ، ومسقط الرأس وقطع التمائم :

به كان الشبابُ اللَّدْنُ غَضّاً ودَهْري كُلّه زمَنَ الربيعِ
ففرّقَ بَيْنَنَا زمَنٌ خؤونٌ لَهُ شَغَفٌ بتَفْريق الجميعِ

لم أنس تلك النّواسم ، التي أيامها للعمر مَوَاسم ، وثغورها بالسرور بواسم ، فصرت أشير إليها وقد زُمّت للرحيل القُلُصُ الرواسم :

ولَنا بهاتيك الديار مَواسمٌ كانَتْ تُقام لطيبها الأسْواقُ
فأبانَنَا عَنها الزمانُ بسرعةٍ وغَدَتْ تُعَلّلنا بها الأشْوَاقُ

وأنْشد قولَ غَيْلان[1] :

أمنْزِلَتَيْ مَيّ سَلامٌ عَليكما هل الأزْمُنُ اللائي مَضَيْنَ رواجعُ

. ...

[1] هو ذو الرمة الذي تقدمت إليه الإشارة ، والبيت في ديوانه : ٣٣٢ .

وأتمثّل في تلك الحدائق التي حمائمها سواجع ، بقول مَنْ جفونُهُ من الهوى غير هواجع :

تَشْدُو بِعِيدانِ الرياضِ حمائمٌ   شَدْوَ القيان عَزَفْنَ بالأعوادِ
مادَ النسيمُ بقُضْبها فتمايلَتْ   مُهْتَزَّةَ الأعطاف والأجْيادِ
هذي تودّع تلك توديعَ التي   قد آذنَتْ منْها بوَشْكِ بعادِ
واسْتَعْبرَتْ لفراقِها عينُ النَّدى   فابْتَلّ متزرُ عِطْفِها المَيّادِ

وأحَدّق النظر إلى رَوْض ، لإنسان العينِ من فراقه في بحر الدموع سَبْح وخَوْض :

رَوْضٌ بِهِ أشياءُ لِي   سَتْ في سِوَاه تؤلّفُ
فمنَ الهَزَارِ تَرَنُّمٌ   ومِنَ القَضِيبِ تَقَطُّفُ
ومِنَ النسيم تلطُّف   ومِنَ الغَدِير تَعَطُّفُ

وألتفت كالمستريب ، والحيُّ إذ ذاك قريب ، وحَديثُ العَهْد ليس بمنكر ولا غريب :

أهذا ولمّا تَمْضِ للبَيْنِ ساعةٌ   فَكيف إذا مَرَّتْ عليه شُهُورُ

والآثار لائحة ، والشمال غادية بأذكى رائحة [1] :

أرَى آثارَهُمْ فأذوبُ شَوْقاً   وأسْكُبُ مِنْ تَذَكُّرهم دُموعي
وأسألُ مَنْ قَضَى بفراقِ حِبّي   يَمُنُّ عليّ منهم بالرجوعِ

والنفس متعلّلة ببعض الأنس ، والمشاهِدُ الحميدة لم تُنس :

تِلْكَ العُهودُ بِشَدّها مختومةٌ   عِندي كما هي عَقْدُها لم يُحْلَلِ

[1] ك : غادية ورائحة .

غيرَ أن الرَّحيل ، عن الرَّبع المُحيل ، فُصِل به بينَ الشائق والمشوق وحيل :

وقَفْنا برَبْعِ الحيبِّ والحيبُّ راحل ... نحاولُ رُجْعَاه لَنَا ويُحاولُ
وألْقَتْ دموعُ العينِ فيه مَسَائلاً ... لها عن عِباراتِ الغَرام دلائلُ
وبالسَّفْح منها كم سَقَيْتُ لبانِها ... فميلَتُهُ والسفحُ للبانِ مائلُ
إذا نَسْمَةُ الأحبابِ منها تنسَّمَتْ ... تطيبُ بها أسْحارُنا والأصائلُ
تُثيرُ شجوني ساجعاتُ غصونِها ... فمِنْها على الحالَيْن هاجَتْ بلابلُ
مرابعُ ألآفي[1] مراتِع لذّتي ... مطالعُ أقماري بها والمنازلُ

فحيّاها الله من منازلَ ذاتِ أقمارٍ سائِرة فيها ، ومَنازِهَ لا يُحْصي الواصفُ محاسنها وأمداحَ أهلها ولا يستوفيها :

حَلّوا عقودَ اصطباري عندما رَحلُوا ... وفي الحَمائِلِ حَلّوا مثلَ أمْطارِ
إنَّ المنَازِلَ قَدْ كانَتْ منازِهَ إذ ... باتُوا بها وهْيَ أوطاني وأوطاري

ورعى الله مَنْ بان ، وشاق حَيّ الرَّنْد والبان :

بانُوا لعينيَ أقماراً تقلُّهمُ ... لُدْنُ الغصون فلَمّا آنسوا بانوا
عُهودهم لستُ أنساها،وكيفَ وقد ... رَبّى لبينيَ عنها الرَّنْدُ والبانُ

وفي مثل هذا الموطن تذوب القلوب الرقاق ، كما قال حائز قَصَبِ السَّبْقِ بالاستحقاق ، الأديبُ الأندلسي الشهير بابن الزَّقاق[2] :

وقَفْتُ علَى الربوعِ ولي حَنينٌ ... لساكنهنَّ لَيْس إلى الربوعِ

---

[1] ك : مرابع ليل في .

[2] ابن الزقاق علي بن عطية (حدود ٥٣٠) ابن أخت الشاعر الأندلسي أبي إسحاق ابن خفاجة ، وترجمته في التكملة : ١٨٤٤ والذيل والتكملة ٥ : ٢٦٥ والمطرب : ١٠١ والفوات ٢ : ١٢٥ والمغرب ٢ : ٣٢٣ ، والبيتان في ديوانه : ١٩٨ .

وَلَوْ أنّي حَنَنْتُ إلى مَغاني أحبّائي حَنَنْتُ على ضلوعي

وكما قال بعض مَنْ له في هذه الفِجاجِ مسير :

دخولُكَ من باب الهوى إن أردْتَهُ يسيرٌ ، ولكنَّ الخروجَ عسيرُ

وأين مَنْ له صَفاة لا يطمع الدهر القوي في نَحْتها ، وجنّات دنيويّة لا تجري أنهارُ الفراق من تحتها :

فَسَقَى رضيعَ النبت من ذاك الحمى بحَياً تدور على الرُّبى كاساتُه
سَفْحٌ سفَحْتُ عليه دَمْعي في ثرًى كالمسكِ ضاعَ من الفتاة فُتاتُه

ولم أزل بعد انفصالي عن الغرب بقصد الشرق ، واتصافي[1] في أثر ذلك الجمع بالفرق :

أحِنُّ إذا خلوتُ إلى زمانٍ تَقَضَّى لي بأفنيةِ الربوعِ
وأذكرُ طيبَ أيام تولّتْ لنا فتفيض من أسَفٍ دموعي

وأتوق وقد اتسع من البُعد الخَرْقُ ، وخصوصاً إذا شدا صادحٌ أو أوْمَض برق ، إلى ديار لا يعدلوها اختيار :

وأربُعِ أحبابِ إذا ما ذكرتُها بكيتُ ، وقد يُبْكيكَ ما أنتَ ذاكِرُ
بِطاحٌ وأدْواحٌ يروقُكَ حُسْنُها بكلّ خليج نمنمته الأزاهِرُ
فما هوَ إلاّ فضّةٌ في زبرجدٍ تساقَطَ فيه اللؤلؤُ المُتناثِرُ
بحيثُ الصَّبا والتُّربُ والماءُ والهوى عبيرٌ وكافورٌ وراحٌ وعاطرُ
وما جنّةُ الدُّنيا سوى ما وصفْتُهُ وما ضمّ منه الحسنَ نجدٌ وحاجِرُ
بِلادي التي أهلي بها وأحبّتي وقلبي وروحي[2] والمنى والخواطرُ

١ ك : واتصالي .

٢ ك : وروحي وقلبي .

تذكرني أنجادُها ووهادُها عهوداً مضت لي وهي خُضْرٌ نواضرُ
إذ العيشُ صافٍ والزمانُ مساعدٌ فلا العيشُ مملولٌ ولا الدهرُ جائرُ
بحيثُ ليالينا كغَضٍّ شبابنا وأيامُنَا سلكٌ ونحنُ جواهِرُ
ليالِيَ كانتْ للشبيبةِ دولةٌ بها مَلِكُ اللذّاتِ ناهٍ وآمِرُ
سلامٌ على تلك العهودِ فإنّها مواردُ أفراحٍ تلتها مصادرُ

وأتذكر تلك الأيام ، التي مرت كالأحلام ، فأتمثل بقول بعض الأكابر الأعلام :

يا ديارَ السرورِ لا زالَ يَبْكي فيكِ إذ تَضْحَكُ الرياضُ غَمامُ
رُبَّ عيشٍ صحبْتُه فيكِ غَضٍّ وعُيُونُ الفراق عنّا نيامُ
في ليالٍ كأنّهنّ أمانٍ في زمانٍ كأنّه أحلامُ
وكأنّ الأوقاتَ فيكِ كؤوسٌ دائراتٌ وأنسُهُنّ مُدامُ
زمنٌ مُسْعِدٌ وإلْفٌ وَصُولٌ ومُنًى تَسْتَلِذُّها الأوهامُ

وبقول الحائك الأمّي ، عندما يكثر شَجْوي وغمّي :

لم أنْسَ أياماً مضَتْ ولياليا سَلَفَتْ وعيشاً بالصّريم تصرّما
إذ نحنُ لا نخشى الرقيبَ ولم نخَفْ صَرْفَ الزمانِ ولا نطيعُ اللُّوّما
والعيشُ غَضٌّ والحواسدُ نُوّمٌ عنّا وعينُ البينِ قد كُحلَتْ عمى
في روضةٍ أبدتْ ثغورُ زهورها لمّا بكى فيها الغمامُ تبَسُّما
مَدّ الربيعُ على الخمائلِ نَوْرَهُ فيها فأصبحَ كالخيام مُخَيَّما
تبدو الأقاحي مثلَ ثغرٍ أشْنَبٍ أضحى المحبُّ بهِ كئيباً مُغْرَما
وعيونُ نَرْجِسِها كأعينِ غادةٍ تَرْنُو فترمي باللّواحظ أسْهُما
وكذلك المنثورُ منثورٌ بها لمّا رأى وَرْدَ الخدود مُنَظّما
والطيرُ تَصْدَحُ في فروع فنونها سَحَراً فتوقظ بالهَديل النُّوّما

وأميل ، إلى بلاد مُحيّاها جميل[1] :

كساها الحَيا بُرْدَ الشباب فإنّها بلادٌ بها عَقّ الشبابُ تَمائمي
ذكرتُ بها عهدَ الصِّبا فكأنّما قَدَحْتُ بنار الشوق بَيْنَ الحيازم
لياليَ لا ألوي على رُشْدِ ناصحٍ عِناني ، ولا أثنيه عن غَيّ لائم
أنالُ سُهادي من عيونٍ نواعسٍ وأجني مرادي من غصونٍ نواعم
وليلٍ لنا بالسّدّ بين معاطف من النهر ينسابُ انسيابَ الأراقم
تَمُرُّ إلينا ثم عَنّا[2] كأنّها حواسدُ تمشي بَيْنَنا بالنّمائم
وبِتْنا ولا واشٍ نخافُ كأنّما حَلَلْنا مكانَ السرّ من صدر كاتم

وأهفو إلى قصور ذات بَهْجَة ، وصُروح توضح معالمها للرائد نَهْجَه :

ورياضٍ تختالُ منها غصونٌ في بُرودٍ من زهرها وعقُودِ
فكأنّ الأدواحَ فيها غَوانٍ تتبارى زَهْواً بحسن القُدود
وكأنّ الأطيارَ فيها قِيانٌ تتغنّى في كل عودٍ بعود
وكأن الأزهارَ في حَوْمَة الرو ضِ سيوفٌ تُسَلّ تحت بُنُود

وأصبو إلى بِطاحٍ وأدواح ، تروّح النفوس والأرواح[3] :

سَقْياً لها من بِطاحِ خَزّ ودَوْحِ زهرٍ بها مُطِلّ
إذ لا ترى غيرَ وَجْهِ شمسٍ أطَلّ فِيهِ عِذارُ ظِلّ

وأنهارٍ جارية ، وأزهارٍ نَوَاسمُها سارية ، وأربُعٍ ومَلاعب ، تُزيح

. . . .

١ هذه الأبيات للشاعر الأندلسي محمد بن عمار (انظر أشعاره : ٢١٠ ملحقة بدراسة الدكتور صلاح خالص ، وراجع أيضاً الوافي ٤ : ٢٣٢ ووفيات الأعيان ٤ : ٥٤) .
٢ الديوان : تسر إلينا ثم عنا .
٣ البيتان لابن خفاجة (ديوانه : ١٤٠) وفيه : بطاح أنس .

عن مُبْصرها المتاعب[1] :

تلك المنازلُ والملا ... عبُ لا أراها الله مَحْلا
أوطِنْتُها زمَنَ الصِّبا ... وجعلتُ فيها لي مَحَلّاً
حيثُ التفتُّ رأيتُ ما ... ءً سائحاً ورأيتُ ظلاًّ
والنهرُ يفصِلُ بينَ زَهْـ ... ـرِ الروض في الشَّطّيْنِ فصلا
كبساطِ وَشْيٍ جَرَّدَتْ ... أيدي القُيُونِ عليه نَصْلا

وإلى منازل ، يستفزُّ حسنُها الرائقُ الجادَّ والهازل ، ويشفي منظرها عليلا ، ويكفي مَخْبَرُها للمستفهم دليلا :

وجِنانٍ ألِفْتُها حِينَ غَنَّتْ ... حولها الوُرْقُ بُكرةً وأصيلا
نهرها مسرعاً جرى وتمشّتْ ... في رُباها الصَّبا قَليلاً قليلا

وأتمثّل إن ذكرتُ حال وداعي ، بقول الشاعر الأديب الوَدَاعي[2] :

الغربُ خيرٌ وعند ساكنه ... أمانَةٌ أوْجَبَتْ تَقَدُّمَهُ
فالشرقُ من نَيّرَيْهِ عِندهمُ ... يودِعُ دينارَهُ ودرهمَهُ

وبقول غيره ، إشارةً لفضل الغرب وخيره :

أشتاق للغربِ وأصبو إلى ... معاهِدٍ فيه وعَصْرِ الصِّبا
يا صاحبيَّ نجوايَ والليلُ قد ... أرخى جلابيبَ الدُّجى واختبا
لا تعجبا من ناظرٍ ساهرٍ ... باتَ يُراعي أنجماً غُيَّبا
القلبُ في آثارها طائرٌ ... لمّا رآها تقصدُ المغربا

---

1 الأبيات لأبي فراس الحمداني (ديوانه ٢ : ٣٢٧) .

2 هو علي بن المظفر ، علاء الدين الوداعي (ــ ٧١٦) من أهل الإسكندرية ، أقام بدمشق .(انظر الدرر الكامنة ٣ : ١٣٠ والفوات ٢ : ١٧٣) .

وأهيم كلّما حَلَلْتُ من غيران أرضي بمكان ، وقد صير السائق جدّ السير معمولاً لـ « ما انفكّ » كما جعله خبراً لـ « كان » ، بقول قاضي القضاة العالم الكبير الشمس ابن خلّكان[1] :

أيُّ ليلٍ علَى المحبّ أطالَهْ	سائقُ الظّعْنِ يوم زمّ جِمالَهْ
يزجرُ العيسَ طاوياً يقطعُ المهـ	ـمهَ عَسْفاً سهولَه ورماله
أيها السائقُ المجدُّ ترفّقْ	بالمطايا فقد سئمنَ الرّحاله
وأنِخْها هنيهةً وأرِحْها	إذ برَاها السُّرى وفرْطُ الكلاله
لا تُطِلْ سيرها العنيفَ فقد برّ	حَ بالصبّ في سُرَاها الإطاله
وارْثِ للنازحِ الذي إن رأى ربْـ	ـعاً ثوَى فيهِ نادباً أطْلالَه
يسألُ الرّبعَ عن ظباء المصلّى	ما على الرّبع لو أجاب سؤاله
ومُحالٌ من المُحيلِ جوابٌ	غيرَ أنّ الوقوفَ فيه عُلالَه
هذه سُنّةُ المحبّين يبكو	نَ على كلّ منزلٍ لا مَحاله
يا ديارَ الأحبابِ لا زالتِ الأعـ	ـينُ[2] في تُرْبِ ساحتيك مُذَاله
وتمشّى النسيمُ وَهْوَ عليلٌ	في مَغانيكِ ساحباً أذياله
أين عيش مضى لنا فيكِ ؟ ما أسـ	ـرع عنّا ذهابَهُ وزَواله
حيث وجهُ الزمان طَلْقٌ نضيرٌ	والتداني غصونُهُ ميّالَه
ولنا فيكِ طيبُ أوقاتِ أنسٍ	ليتنا في المنام نلقى مثاله

وأردّد قولَ الذي سحر الألباب ، منادياً مَنْ له من الأحباب :

أحبابنا لو لقيتم في إقامتكم	من الصبابة ما لاقيْتُ في الظّعنِ
لأصبحَ البحرُ من أنفاسكم يبَساً	والبرُّ من أدمعي ينشقُّ بالسُّفنِ

---

١ هو أحمد بن محمد بن خلكان الإربلي الشافعي (– ٦٨١) صاحب كتاب وفيات الأعيان ، والأبيات من قصيدة أوردها ابن شاكر في الفوات ١ : ١٠٤ .

٢ الفوات : الأدمع ، وهو أصوب .

وقوله :

وما تغيرتُ عن ذاك الودادِ ، ولا حالَتْ بيَ الحالُ في عهدي وميثاقي
دَرْسي غرامي بكم دهري أكرّرُهُ وقد تَفَقّهْتُ في وجدي وأشواقي

وقول المجد بن شمس الخلافة [1] ، معلماً أنّه لا يريد بَدَلَ معهده وخلافه :

يا زَمانَ الهوى عَلَيْكَ السلامُ وعَلَيَّ السلوُّ عَنْكَ حَرامُ
أيُّ عيش قطعته فيك لو دا م وهل يُرْتَجَى لظلّ دوامُ
كنتَ حُلْماً والعيشُ فيك خيالاً وسريعاً ما تنقضي الأحْلامُ
لهفَ نفسي عَلى ليالٍ تَقَضَّتْ سلبتني بُرودَهَا الأيّامُ
فَطَمَتْني الأقدارُ عَنْها وليداً وشَديدٌ عَلى الوليدِ الفِطامُ
لا تلمني على البكاء عَلَيها مَنْ بَكى شَجْوَهَ فليس يُلامُ

وقول أبي طاهر الخطيب الموصلي :

حَيِّ نجداً عنّي وَمَنْ حلّ نجدَا أرْبُعاً هِجْنَ لي غراماً ووَجْدا
واقْرِ عني السلامَ آرامَ ذاكَ الـ شِّعبِ والأجْرَعَ الخصيبَ الفردا.[2]
وابْكِ عنّي حتى تُرَنّحَ بالوجـ ـد أرَاكاً بِهِ وباناً ورَنْدا
فلكم وقفةٍ أطلتُ[3] على الضا لِ بدمعٍ أذاعَ سرّي وأبدى
وعلى البانِ كم مِنَ البينِ أذْرَيْـ ـتُ لآلي للدمعِ مَثْنى ووحدا
آه والهفيّ عَلى طيبِ عيشٍ كنتُ قَطَعْتُه وصالاً وودّا

....

١ مجد الملك جعفر بن محمد (شمس الخلافة) (— ٦٢٢) ، شاعر مصري ؛ انظر ترجمته في وفيات الأعيان (١ : ٣١٣) .
٢ ك : المفدى .
٣ ق ط ج : ظللت .

حيثُ عودُ الشباب غضٌّ نضيرٌ ويدُ المكرمات بالجودِ تندى
والخليلُ الودودُ ينعِمُ إسعا فاً وصَرْفُ الزمان يزدادُ بُعدا
والليالي مساعداتٌ على الوصـ لِ وعينُ الرقيب إذ ذاك رَمْدا
كم بها من لُبانةٍ لي وأوطا رٍ تقضَّتْ وجازتِ الحدَّ حدّا
فاستعاد الزمانُ ما كان أعطى خِلْسَةً لي ببخله واستردّا

وقول بعضهم :

سلامٌ على تلك المعاهدِ ، إنّها شريعةُ وِرْدي أو مَهَبُّ شمالي
لياليَ لم تَحْذَرْ حزُونَ قطيعةٍ ولم نمش إلاّ في سُهولِ وِصالِ
فقد صرتُ أرضى من نواحي جَنابها بِخُلّبِ برقٍ أو بطيف خيالِ

وقول الجرجاني[1] :

للمحبّين من حِذَارِ الفراقِ عبراتٌ تجولُ بين المآقي
فإذا ما استقلّتِ العيسُ للبيـ نِ وسارتْ حُدَاتُها بالرفاقِ
استهلّتْ على الخدودِ انحداراً كانحدارِ الجُمان في الاتّساقِ
كم محبٍ يرى التجلُّدَ ديناً فهو يُخْفي من الهوى ما يلاقي
ازدهاهُ النوى فأعربَ بالوجـ ـدِ لسانٌ عَنْ دَمْعه المُهَراقِ
وانحدارُ الدموع في مَوْقفِ البيـ نِ على الخدّ آيةُ العُشّاقِ
هَوِّنِ الخطبَ لستَ أوّل صَبٍّ فَضَحَتْه الدموعُ يَوْمَ الفراقِ

وقولُ الخطيب الحصكفي الشافعي[2] :

---

١ لعله القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه (انظر ترجمته في اليتيمة ٤ : ٣ ووفيات الأعيان ٢ : ٤٤٠) .

٢ الخطيب الحصكفي هو يحيى بن سلامة بن الحسين ، معين الدين (– ٥٥٣) أحد شعراء الخريدة (ج ٢ : ٤٧١ من قسم الشام ووفيات الأعيان ٥ : ٢٥١ ومعجم الأدباء ٢٠ : ١٨ والمنتظم ١٠ : ١٨٣ وطبقات السبكي ٤ : ٣٢٢) .

ساروا وأكبادُنا جرحَى وأعينُنا قَرْحى وأنفسُنا سَكْرَى من القَلَقِ
تشكو بواطنُنا من بعدهِم حُرَقاً لكنْ ظواهرُنا تشكو من الغَرَقِ
كأنّهم فوق أكوارِ المطيّ وقد سارَتْ مقطَّرةٌ في حالك الغسقِ
دراريء الزهر في الأبراجِ زاهرةً تسيرُ في الفلك الجاري على نسقِ
يا موحشي الدار مذ بانوا كما أنسَتْ بقربهم لا خلَتْ من صَيِّبٍ غَدَقِ
إن غبتُمُ لم تغيبوا عن ضمائرنا وإن حضرتُمْ حملناكم على الحدقِ

وما أحسن قول بعضهم في هذا المعنى ، الذي كررنا ذكره وبه آلْمَعْنا :

سلامٌ على أهلِ الودادِ وعهدهمْ إذ الأنسُ رَوْضٌ والسرورُ فنونُ
رحلنا فشَرَّقْنا وراحوا فغرَّبوا ففاضتْ لرَوْعاتِ الفراق عيونُ

وكم أنشدتُ وليالي النوى عاتمةٌ ، قولَ الأندلسي ابن خاتمة[1] :

أيّامَنا بالحمى ما كان أحلاكِ كم بتُّ أرعاهُ إجلالاً وأرعاكِ
لا تُنكري وقفتي ذلاً بمغناكِ يا دارُ لَوْلا أحبّائي ولولاكِ
لمّا وقفتُ وقوفَ الهائمِ الباكي
فهل لهمْ عطفةٌ من بعد دَلّهمُ تالله ما تسمحُ الدُّنيا بمثلهمُ
آهاً لقلبي على تبديدِ شملهمُ ما كان أحلاكِ يا أيامَ وصلهمُ
ويا ليالي الرضا ما كان أضواكِ
يا بدرَ تِمٍّ تناءتْ عنهُ أربعُنا ولم تزَلْ تحتويهِ الدَّهْرَ أضلعُنا
ما للنوى بضروبِ البين تُوجعُنا إذا تذكَّرتُ دهراً كان يجمعُنَا
تفطّرَتْ كبدي شوقاً لمرآكِ

---

[1] ابن خاتمة : أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري الأندلسي (– ٧٧٠ هـ) شاعر من أهل المرية ، ومن معاصري لسان الدين (انظر ترجمته في الإحاطة ١ : ١١٤ والكتيبة الكامنة ٢٣٩ ونيل الابتهاج : ٥١ ومسالك الأبصار ١١ : ٥٠٢) .

أحبابَ أنفسنا كم ذا النوى وكَمِ ... ويا معاهدَ نَجوْانا بذي سَلَمِ
تالله ما شُبْتُ دمعاً للأسى بدمٍ ... ولا لثمتُ ترابَ الأرضِ من كرمِ
إلا مراعاةَ خِلٍّ ظَلَّ يرعاكِ
عَلَّ التعلُّلَ يُدْني منهمُ وعَسَى ... فيَعْمُرَ القربُ ما بالبين قد دَرَسا
كم ذا أُنادي بربعٍ بالنوى طُمِسا ... يا قلبُ صبراً فإن الصبرَ عاد أسى
ويا منازلَ سلمى أين سَلْماكِ .

وقول بعضٍ من اشتد به الهيام ، فخاطب جيرتَهُ مادحاً ليالي القرب وذاماً تقلُّب الأيّام :

أيامُ أُنسيَ قد كانَتْ بقربكمُ ... بِيضاً ، فحين نأيتم أصبحَتْ سودا
ذممتُ عيشيَ مذ فارقْتُ أرضَكُمُ ... من بعد ما كان مغبوطاً ومحسودا

وقول صاحب مصارع العُشّاق[1] ، وقد شاقه من الهوى ما شاق :

بانُوا فأدمعُ مُقلتي[2] ... وجداً عليهم تستهلُّ
وحَدَا بهم حادي الفرا ... قِ عن المنازلِ فاستقلُّوا
قُل للذين ترحّلُوا ... عن ناظِري والقلبَ حَلّوا
ما ضَرَّهُمْ لو أنهلوا ... من ماء وصلهمُ وعَلّوا

وقوله حين زحزحته يد الفراق ، عن أوطان العراق[3] :

قَدْ قلتُ والعَبَراتُ تَسْ ... فَحُها عَلى الخدّ المآقي

---

١ صاحب كتاب مصارع المشاق هو أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج (– ٥٠٠ هـ) (ابن خلكان ١ : ٣٠٩) والأبيات التالية مثبتة في كتابه ١ : ١٣٠ وابن خلكان ١ : ٣٠٩ .
٢ مصارع المشاق : بان الخليط فأدمعي .
٣ هذا موهم أن الأبيات لصاحب مصارع المشاق ، ولكنها وردت في كتابه (١ : ٢٣٧) يرويها القالي عن ابن الأنباري عن ثعلب ، وهي بهذا السند في أمالي القالي ١ : ١٦٤ .

حينَ انحدرتُ إلى الجزيـ رةِ وانقطعتُ عن العراقِ
وتخبّطتْ أيدي الرفا قِ مَهامهِ البيد الرقاقِ
يا بؤسَ مَنْ سلّ الزما نُ علَيهِ سيفاً للفراقِ

وقوله أيضاً [1] :

يا منزلَ الحيّ بذات النّقا سقّاكَ دمعٌ مذ نأوا ما رقا
هل سلْوةٌ؟ هيهات! لا سلوةٌ قد بلَغَ السيلُ الزُّبى وارتقى
وأنت يا يومَ النّوَى عاجلاً أدالَ منكَ اللهُ يومَ اللّقا

وقولي موطئاً للثالث [2] ، وقد تغير لي فيمن تغير حارث [3] :

لم أنسَ معْهَدَنا والشملُ مجتمعٌ والعيشُ غضٌ وروضُ الأنس معطارُ
فها أنا بَعد بُعدٍ عنه في قلق وقد نبَتْ بيَ أرجاءٌ وأقطارُ
تمضي الليالي وأشواقي مُجَدّدَةٌ وما انقضَتْ لي من الأحبابِ أوطارُ

وكلما مررتُ بمرأى يروق ، لمعت لي مِنْ ناحية المغنى بالمُنى بُروق ، فتذكرتُ قول بعضِ مَنْ له على غير من يهوى طروق :

ما نظرتْ عيني سواك منظراً مُستَحْسَناً إلا عرضْتَ دونَهُ
وما تمنّيتُ لقاء غائبٍ إلا سألتُ اللهَ أن تكونَهُ

وربما رُمْتُ انتحائي مذهب السلوّ وانتحالي، خلال أحوال إقامتي وارتحالي، فلم ينتقل عن تلك الصفات حالي ، وأنّى وجيدي بقلائد البتّات حاليَ :

---

١ هذه الأبيات للسراج صاحب مصارع العشاق (١ : ٢١٥) ولم يذكر الثاني والثالث منها .
٢ يعني للبيت الثالث ، وهو دليل على أن البيت مضمن وليس للمقري .
٣ يشير إلى قول إبراهيم بن العباس الصولي (وليس في ديوانه ، وربما نسب لغيره) :

تغير لي فيمن تغير حارث وكم من أخ قد غيرته الحوادث

والشوقُ أعظمُ أن يحيطَ بوَصْفِه قلَمٌ وأن يُطْوَى عليه كتابُ
واللهِ ما أنا منصفٌ إن كان لي عَيْشٌ يطيبُ وجيرتي غُيّابُ

وكيف ولآماقي صبّ ، ولأتواقي زيادة إذا سَرَى نسيم أو هَبّ :

شربتُ حُمَيّا البينِ صِرْفاً ، وطالما جلوتُ مُحَيّا الوصلِ وَهْوَ وَسيمُ
فميعادُ دَمْعي أن تنوحَ حمامةٌ وميقاتُ شوقي أن يهبَّ نَسيمُ

فإن لاح سَنا بارق شاقني ، أو ترنم شادٍ حدا بي إلى الهيام وساقني ، أو رَنا ظبيُ فلاةٍ راعني وراقني :

وإنّي ليُصْبيني سَنا كلّ بارقٍ وكلُّ حَمامٍ في الأراكِ ينوحُ
وأرتاعُ من ظبي الفلاةِ إذا رَنَا وأرتاحُ للتذكارِ وهو سَنُوحُ
ولم يكُ ذاك الأمرُ من حيثُ ذاتُه ولكنْ لمعنّى في الحبيب يَلوحُ

ولا أستطيع الإعراب عن أمري العجيب ، لما بي من النوى المُذْهِل والجَوَى المدهش والوجِيب :

ولا تسألوا عمّا أُجِنُّ فليس لي لسانٌ يؤدّي ما الغرامُ يقولُ
يُطارحني البرقُ الأحاديثَ كلّما أضاء كأنّ البرقَ منه رسولُ
وما بالُ خَفّاقِ النسيمِ يُميلني هل الريحُ راحٌ والشّمالُ شَمُولُ

إذ دموع شُؤوني عند الذكرى لا تَرْقا ، وجفوني ليس لها عن الأرق مَرْقى ، وشجوني تنمو إذا صدَحَت بفننها وَرْقا :

رُبَّ وَرْقاء في الدياجي تُنادي إلْفَها في غصونها الميّادَهْ
فتثيرُ الهوى بلحنٍ عجيبٍ يشهدُ السمعُ أنها عوّادهْ
كلّما رجّعَتْ توجّعتُ حزناً فكأنّا في وَجْدنا نَتَبادَهْ

فيا لها من ذات طَوْق ، مثيرة لكامن شوق ، جالبة له من يمين وشِمال وفوق :

ذكّرتْني الورقاءُ أيامَ أُنسٍ سالفاتٍ فبتُّ أُذْري الدموعا
ووَصَلْتُ السهادَ شوقاً لحبّي وغراماً وقد هجرتُ الهُجُوعا
كيف يخلو قلبي من الذكر يوماً وعلى حُبِّهم حنيتُ الضلوعا
كلّما أُولِعَ العذولُ بعتْبي في هواهُمْ يزداد قلبي وَلُوعا

وربما أتخيل قول من قال إنّها بالحزن بائحة ، وعلى فقد الإلف نائحة ، فأنشد قول خليل ، وهو بالحبّ مُدْنَف وعليل :

ورُبَّ حمامةٍ في الدَّوْحِ باتَتْ تُجيدُ النَّوحَ فَنّاً بعد فَنٍّ
أُقاسِمُها الهوى مهما اجتمعنا فمنها النوحُ والعَبَرَاتُ مِنّي

ولا غرو إن ظهر سر بائح ، فباكٍ مثلي من الشجو نائح :

فرَجَعْتُ بعد فراقِ أيام الهوى أصفُ الصَّبابةَ للمحبّ المولَعِ
دامي الجفونِ إذا الحمامةُ غَرَّدَتْ مِنْ فوقِ خُوطِ البانةِ المترَعْرِعِ
أسقي الديارَ — وقد تباعدَ أهْلُها عنها — عزَاليَّ الدُّموعِ الهُمَّعِ
ونواعبُ الأطلالِ ليس يُجيبني ما بينهنَّ سوى الصَّدَى بتوجُّعِ
وهواتفٌ فوقَ الغصون يُجيبني منهنَّ تغريدُ الحمام السُّجَّعِ
ناحَتْ على عَذَبِ الفروعِ وإلفُها مِنْها بمرأى فوقَها وبمَسْمَعِ
ما فارقتْ إلْفاً كما فارقْتُهُ كلاَّ ولا أجْرَتْ سواكبَ أدمُعي

على أوانٍ عيونُ سعوده رَوَان ، وزمان معمور بأمانيَّ وأمان ، وآمال دَوَان ، وتهانٍ ما بين بِكْرٍ وعَوَان ، وفي عذر من طال ليلُه فاضطرب فيه لولوعه ، وسكن جوَاه بجوانحه وضلوعه :

إنْ طالَ ليلي بعدهم فلطوله عُذْرٌ ، وذاك لمّا أقاسي منهمُ
لَمْ تَسْرِ فيهِ نجومُهُ لكنّها وقفت لتسمعَ ما أُحدّثُ عنهمُ

فأرَقي ، الزائد في حُرَقي ، أظهر المكنونَ وأبان ، ووَجْدي بمن نأى وبان ، لم يُجْدِ فيه تعلُّلٌ برَنْدٍ وبان[1] :

تَنَبّهي يا عَذَبَات الرَّنْدِ كم ذا الكرى ؟ هَبَّ نسيمُ نجدِ
فلَسْتِ مِثْلي في جَوًى أو أرقٍ وحُرْقة من فُرقة أو صدّ
عوفيتِ ممّا حلَّ بي من جيرةٍ في الغرب لم يَرْثُوا لفرط وَجْدي
أُعلِّلُ القلبَ ببانِ رامةٍ[2] وهل ينوبُ غُصُنٌ عَنْ قدّ
بانوا فلا مَغْنى السرور بَعدهم مَغْنًى ، ولا عهدُ الرضا بعهدِ
آهاً من البعدِ ومَنْ لم يَدْرِهِ لَمْ يَشْجُهُ تأوُّهي للبعدِ

وفي شغل من أبكته الربوع والطلول ، وذهبت بُرْهَةٌ من زمانه بين التّرحل والحلول ، فرَكِبَ من الأخطار الصَّعْبَ والذَّلُول ، وحافظَ على العهود ولم يسلك سبيل الغادر الملول :

سَقَاها الحَيا من أربُعٍ وطُلُولِ حَكَتْ دَنَفي من بعدهم ونُحولي
ضمِنْتُ لها أجفانَ عينٍ قريحةٍ من الدَّمْعِ مِدْرَارِ الشؤونِ هَمولِ

ومن الغريب ، الذي ينكره غير الأريب ، أن الحادي إنْ سرَّ القلبَ بكشف رَيْن ، فقد تسبب في اجتماع أمرين متنافيين متنافرين :

ترنَّمَ حادٍ بالصّريمِ فشاقني إلى ذكر مَنْ باتَتْ ضلوعي تضمُّهُ

....

١ من قصيدة لأبي الغنائم ابن المعلم الواسطي (– ٥٩٢) وكان شاعراً رقيق الشعر وبينه وبين سبط ابن التعاويذي مهاجاة (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٤ : ٩٨ والوافي ٤ : ١٦٥ وفي الثاني بعض أبيات القصيدة) .

٢ ك : ببان عنهم .

فَسَرَّ وساء النفسَ شجواً فربما كلفتُ به من حيثُ صِرتُ أذُمُّهُ

وارتجلتُ حين مللتُ من طول السُّرَى ، مضمنّاً ذكر ما أروم له تيَسَّرا ، وقد أكثر الرفاق عند رؤية ما لم يألفوه من الآفاق تلهفّاً وتحسُّرا :

قلتُ لمّا طال النوى عن بلادي ولأهلِ النوى جَوًى وعَويلُ
هَلْ أرى للفراق آخِرَ عهدٍ إنّ عُمْرَ الفراقِ عمرٌ طويلُ

ثمّ قلت مضمّناً :

لائمي في ذكر أحبابٍ نأَوْا لا تَلُمْ مَنْ أضْعَفَ الشوقُ قُوَاه
إنّ يوماً جامعاً شَمْلي بهم ذاكِ عِيدي ، ليس لي عيدٌ سِوَاه

ثم قلتُ مضمّناً أيضاً :

لك اللهُ مِن صَبٍّ أضَرَّ به النّوَى وليس له غَيْرَ اللقاء طبيبُ
وإنّ صباحاً نلتقي بمسائِهِ صباحٌ إلى قلبي المَشُوقِ حبيبُ

ثم عدتُ إلى التصبُّر ، بعد إمعان النظر والتدبُّر :

وإنّي لأدري أنّ في الصبرِ راحةً ولكنّ إنفاقي على الصبر من عمري
فلا تُطْفِ نارَ الشوقِ بالشوقِ طالباً سُلوّاً ، فإنّ الجمر يُسْعَرُ بالجمرِ

ثم سلكتُ مَنْهَجَ التفويض والتسليم ، منشداً قولَ ابن قطرال[1] المغربي في مقام النصح والتعليم ، ووجهت القصد إلى سكان الضمير بذلك التكليم :

إنّ أيّامَ الرضا معدودةٌ والرضا أجملُ شيءٍ بالعبيد

.....

١ ابن قطرال المغربي : عد ابن عبد الملك من اسمه أبو الحسن بن قطرال في شيوخ الرعيني (٥ : ٣٢٤) ولكن الرعيني لم يذكره في معجم شيوخه ، وإنما ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة : ١٣٨ وابن الأبار في التكملة (رقم : ١٩١١) وهذا المترجم به أندلسي لا مغربي إلا أنه ولي القضاء بسبتة وفاس وتوفي بمراكش عام ٥٦١ .

لا تَظُنّوا ليَ عنكُمْ سلوةً ما على شوقي إليكم من مزيدْ
راجعوا أنفُسَكُمْ تستيقنوا أنّكُم في الوقت أقصى ما أريدْ
إنَّ يوماً يجمعُ الله بكم فيه شَمْلي ذاك عندي يومُ عيدْ

وقول بعضِ مَنْ ندم على البعد عن المعاهد ، وأمّل العَوْدَ — والعودُ أحمد — إلى المشاهد ، وغفر للدهر ذنبه إن عاد ، وتلهف أن لم يعامله بغير الإبعاد :

لئن عادَ جَمْعُ الشّملِ في ذلك الحمى غَفَرْتُ لدهري كلَّ ذنبٍ تقدّما
وإن لَمْ يعُدْ مَنّيْتُ نفسي بعودةٍ وماذا عسى تجدي الأماني وقلّما
يحقُّ لقلبي أن يذوبَ صبابةً وللعين أن تُجْرِي مدامعَها دَما
علَى زمنٍ ماضٍ بهِم قَدْ قطعتُهُ لبستُ به ثوبَ المسرّة مُعْلَما

وقول آخر يخاطب أحبابه ، ويذكر فَوَاصِلَ بحر النوى الطويلِ وأسبابَه :

أُعيذكُمُ من لَوْعَتي وشُجُوني ونارِ جَوًى تُذْكَى بماء شؤوني
وبَرْحِ أسًى لَمْ يُبْقِ فيَّ بقيّةً سوى حَرَكاتٍ تارةً وسكون
أرى القلبَ أضحى بعد طارقةِ الأسى أسيرَ صباباتٍ رهينَ شُجون
وكيفَ سبيلُ القُرب منكُم ودونكُمْ رمالُ زَرُودٍ والأجارِعُ دوني ؟
سَلوا مَضْجعي هل قَرَّ من بعد بُعْدكم وهل عرفَتْ طعمَ الرُّقادِ جفُوني
سَهِرْنا بنعمانٍ ، ونمتُمْ ببابلٍ ، فيا لَعُيونٍ ما وفَتْ لعيونِ

وفي بعض الأحيان ، أتسلّى بقول بعض الأندلسيين الأعيان :

لا تكترِثْ بفراق أوطانِ الصِّبا فعَسَى تنالُ بغيرهنَّ سُعُودَا
فالدرُّ يُنْظَمُ عند فقد بحارِهِ بجميلِ أجيادِ الحسانِ عقُودا

وقول غيره :

فعسى اللّيالي أن تمنَّ بنَظْمِنا عِقْداً كما كُنّا عليه وأكملا

فلربّما نُثِرَ الجُمانُ تعمُّداً ليعاد أحْسَنَ في النظام وأجملا

وأرغب لمن أطال ذيول الغربة أن يقلّصها ، وأطلب ممّن أجال النفوس في سيول الكربة أن يخلّصها :

فنلتقي وعوّادي الدهْرِ غافلَةٌ عمّا نرومُ وعِقْدُ البينِ مَحْلُولُ
والدارُ آنسةٌ ، والشملُ مجتمِعٌ ، والطير صادحة ، والروض مطلولُ

وأضرع إليه — سبحانه — في تيسير العَوْد إلى أوطاني ، ومعهدي الذي مَطايا العز أوطاني ، وأن يُلحقني بذلك الأفق الذي خيره مَوْفُور ، وحقّ مَنْ فيه معروف لا منكر ولا مَكْفُور :

إذا ظَفِرْتُ من الدُّنيا بقربهمُ فكلُّ ذنب جناهُ الدهرُ مغفورُ

وكأنّي بعاتب يقول : ما هذا التطويل ؟ فأقول له : جوابي قول ابن أبي الإصبع الذي عليه التعويل :

أكثَرْتَ عَذْلي كأنّي كنتُ أولَ من بكى على مَسْكَنٍ أو حنّ للسَّكَنِ
لا تَلْحَ إنَّ منَ الإيمانِ عند ذوي الـ إيمان منّا حَنينَ النفس للوَطَنِ

على أنّي أقول : اللهم يَسّر لي ما فيه الخيرة لي بالمشارق أو بالمغارب ، وجُد لي من فضلك حيث حللت بجميع ما فيه رضاك من المآرب ، بجاه نبيّنا وشفيعنا المبعوث رحمة للأحمر والأسوَد والأعاجم والأعارب ، عليه أفضلُ صلاةٍ وأزكى سلام ، وعلى آله وأصحابه الأعلام ، والتابعين لهم بإحسان ما ذَرَّ شارق وتعاقَبَ طالع وغارب .

* * *

[ركوب البحر وبلوغ مصر]

ثمّ جدّ بنا السير في البر أيّاماً ، ونأينا عن الأوطان التي أطنبنا في الحديث حُبّاً لها وهُياماً ، وكنّا عن تفاعيل وصلها[1] نياماً ، إلى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السَّحْر والنَّحْر ، وشاهدنا من أهواله ، وتنافي أحواله ، ما لا يعبَّر عنه ، ولا يُبْلَغ له كُنْه[2] :

البحرُ صَعْبُ المرامِ جِداً لا جُعِلَتْ حاجَتي إليْهِ
أليْسَ ماءٌ ونحن طينٌ فَما عَسى صَبْرُنا عَلَيْهِ

فكم استقبلتنا أمواجه بوجوهٍ بَوَاسر ، وطارت إلينا من شِرَاعه عِقْبانٌ كواسر ، قد أزعجتها أكفُّ الريح من وَكْرِها ، كما نبهت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئاً من قوّتها ومَكْرِها ، فسمعنا للجبال صفيراً ، وللرياح دَوِيّاً عظيماً وزَفيراً ، وتيقّنّا أنّا لا نجد من ذلك إلا فضلَ الله مُجيراً وخفيراً ، ﴿ وإذا مسّكم الضُّرُّ في البحر ضلّ من تَدْعونَ إلاّ إيّاه ﴾ (الإسراء : ٦٧) وأيِسْنا من الحياه ، لصوت تلك العواصف والمياه ، فلا حيّا الله ذلك الهول المزعج ولا بيّاه ، والموج يصفّق ُلسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنّه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق ، فتخال الجوّ يأخذ بنَوَاصيها ، وتجذبها أيديه من قواصيها ، حتّى كاد سطح الأرض يُكشف من خلالها ، وعنَان السُّحُب يخطف في استقلالها ، وقد أشرفت النفوسُ على التلف من خَوْفِها واعتلالها ، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساءت الظنون ، وتراءتْ في صورها المَنُون ، والشِّراع في قراع مع جيوش الأمواج ،

---

١ ك : فضلها .

٢ البيتان من شعر ابن رشيق (ديوانه : ٢١٢) وهما في معاهد التنصيص ٢ : ٢٥ ونهاية الأرب ١ : ٢٥٥ وطراز المجالس : ٢٢٠ وديوان ابن حمديس : ٥٣٣ ورحلة ابن جبير : ٣١٩ .

التي أمدّت منها الأفواج بالأفواج ، ونحن قُعُود ، كدُودٍ على عود ، ما بين فُرَادَى وأزواج ، وقد نَبَتَتْ بنا من القلق أمكنتُنا ، وخرست من الفَرَقِ ألسنتنا ، وتوهّمنا أنّه ليس في الوجود ، أغوار ولا نجود ، إلا السماء والماء وذلك السّفين ، ومَنْ في قبر جوفه دفين ، مع ترقّب هجوم العدوّ ، في الرواح والغدوّ ، لاجتيازه على عدّة من بلاد الحرب ، دمّر الله سبحانه من فيها وأذهَبَ بفتحها عن المسلمين الكَرْب ، لا سيّما مالطة الملعونة ، التي يتحقّقُ من خلص من معرّتها أنّه أُمدّ بتأييدٍ إلهيّ ومعونة ، فقد اعترضت في لهَوات البحر الشامي شَجًا ، وقلّ من ركبه فأفلت من كيدها ونجا ، فزادنا ذلك الحذر ، الذي لم يُبْقِ ولم يَذَرْ ، على ما وصفناه من هَوْل البحر قلقاً ، وأجرينا إذ ذاك في مَيْدان الإلقاء باليد إلى التهلكة طَلَقاً ، وتشتتتْ أفكارنا فِرَقاً ، وذبنا أسًى وندماً وفَرَقاً ، إذ البحر وحده لا كَمِيٌّ يقارعه ، ولا قويٌّ يصارعه ، ولا شكلَ يضارعه ، ولا يؤمن على حالٍ[1] ، ولا يُفرّق بين عاطل وحالٍ ، ولا بين أعزل وشاكٍ ، ومتباكٍ وباكٍ :

ثلاثَةٌ لَيْسَ لها أمَانُ البحرُ والسّلطانُ والزّمانُ

فكيف وقد انضمّ إليه خوفُ العدوّ الغادر الخائن ، والكافر الحائن ، إلى أن قضى الله بالنجاة وكلٌّ ما أراد فهو الكائن ، وإن نَهَى عنه وأخطأ المائن ، فرأينا البر وكأنّا قبلُ لم نَرَهْ ، وشفيت به أعينُنا من المَرَه[2] ، وحصل بعد الشدّة الفرَج ، وشَمِمْنا من السلامة أطيب الأرَج ، فيا لها من نعمة كشفت عن وجهها النّقاب ، يقلّ شكراً لها صومُ الأحقاب وعِتْقُ الرقاب ، جَعَلَنا الله بآياته معتبرين ، وعلى طاعته مصطبرين ، ولم نخلُ في البر من مُعاناة خطوب ، ومداراة وجوه للمتاعب ذات تجهُّم وقطوب ، فكم جُبْنا منه مَهامِهَ فِيحاً ، ومسحنا

١ ك : كل حال .
٢ المره : فساد العين لترك التكحل .

بالخُطا منها أثيراً وصفيحاً ، وفلينا الفجاج ، وقرأنا من الطرق خطوطاً ذات استقامة واعوجاج ، وقلوبُ الرفقةِ من الفرقة في اضطراب وارتجاج ، وربما عَميَتْ على المجتهد الأدلّة التي يحصل بها على المذهب الاحتجاج ، فترى الأنفاس تعثر في زفرة الأشواق ، والأجسام قد زُرّتْ عليها من التعب الأطواق ، هذا والليل بصَفْحَة البدر مُرْتاب ، وقد شُدّتْ رِحال وأقتاب ، وزُمّتْ رِكاب ورُفِعَتْ أحداج ، وفُرِيَتْ من الدَّعَة بمدية النَّصَبِ أوداج ، وتساوى في السير نهار مشرق وليل مُقْمر أو داج ، وأُديمَ التأويب والإسآد ، وحِمْلُ الغربة قد أثقل وآد ، ثم وَصَلْنا بعد خَوْض بحارٍ ، يدهش فيها الفكرُ ويَحار ، وجَوْبِ فَيافٍ مجاهل ، يضلُّ فيها القطا عن المناهل ، إلى مصرَ المحروسةِ فَشُفِينا برؤيتها من الأوْجاع ، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التي تعجز عن وَصفها القوافي والأسجاع ، وتمثّلنا في بدائعها التي لا نستوفيها ، بقول ابن ناهض فيها[1] :

شاطئُ مِصْرَ جَنّةٌ ما مثلُها في بَلَدِ
لا سيّما مذ زُخْرِفَتْ بِنِيلِها المطّرِدِ
وللرياحِ فَوْقَهُ سَوابغٌ من زَرَدِ
مسرودةٌ ما مَسّها داوُدُها بِمِبْرَدِ
سائلةٌ وَهْوَ بها يُرْعَدُ عاري الجسدِ
والفُلْكُ كالأفلاكِ بَيْـ نَ حادِرٍ وَمُصْعِدِ

١ ابن ناهض : تنصرف هذه التسمية إلى اثنين أحدهما هو بدر الدين محمد بن ناهض الحلبي (– ٧٣١) والثاني محمد بن ناهض شمس الدين الحلبي (– ٨٤١) وهذا الثاني سكن القاهرة ومات فيها ولعله صاحب الشعر ، (انظر الدرر الكامنة ٤ : ٢٧٢ في ترجمة الأول والضوء اللامع ١٠ : ٦٧ في ترجمة الثاني) . وقد وردت هذه الأبيات في رحلة ابن بطوطة (١ : ٣٦) وهي منسوبة هناك لمن لقبه « ناصر الدين » ابن ناهض .

وبقول آخر :

انظر إلى النّيل الّذي ظَهرَتْ به آياتُ ربّي
فَكأنّه في فَيْضِهِ دَمْعي وفي الخفقانِ قلبي

وبقول أبي المكارم ابن الخطير المعروف بابن مَمّاتي في جزيرتها [1] :

جزيرةَ مصرٍ، لا عَدتْكِ مَسَرّةٌ ولا زالتِ اللذّاتُ فيكِ اتصالُها
فكم فيكِ من شمسٍ على غُصْنِ قامة يميت ويحيي هَجْرُها وَوِصالُها
مغانيكِ فوق النيل أضحتْ هوادجاً ومختلفاتُ الموج فيكِ حبالُها
ومن أعجبِ الأشياء أنّكِ جَنّةٌ تُمَدّ على أهل الضّلال ظلالُها

لعلّهُ أراد بأهل الضلال اليهود والنصارى المستَوْلين إذ ذاك على الدولة .
وتذكرت في مصر قولَ القاضي الفاضل [2] :

بالله قُلْ للنّيل عني إنّني لم أشْفِ من ماء الفُراتِ غليلا
وسَلِ الفؤاد فإنّه ليَ شاهدٌ إن كان طرْفي بالبكاء بخيلا
يا قلبُ كم خلّفْتَ ثَمّ بُثَيْنةً وأظُنُّ صبرَكَ أن يكون جَميلا

---

١ أبو المكارم الخطير الأسعد بن الخطير المعروف بابن مماتي (– ٦٠٦) كان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، حظياً عند القاضي الفاضل (راجع ترجمته في الخريدة ١ : ١٠٠ قسم مصر ، ومعجم الأدباء ٦ : ١٠٠ ووفيات الأعيان ١ : ١٨٧) .

٢ القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني (– ٥٩٦) كاتب صلاح الدين وصاحب الطريقة الفاضلية في الإنشاء (راجع ترجمته في الخريدة ١ : ٣٥ قسم مصر ووفيات الأعيان ٢ : ٣٣٣ وطبقات السبكي ٤ : ٢٥٣ وأخباره في الكتب التاريخية المتصلة بالفترة الصلاحية ، مثل مفرج الكروب والروضتين وغيرهما) . والأبيات في ديوانه : ٩١ وهي في مطالع البدور ٢ : ٢٩٢ ووفيات الأعيان ١ : ٢٨٥ وتاريخ ابن الوردي ٢ : ١١٦ وابن بطوطة : ٨٦ .

وقول أحمد بن فضل الله العمري [1] :

لمصرَ فضلٌ باهرٌ بعيشها الرَّغْدِ النَّضِرْ
في سفحِ روضٍ يلتقي ماء الحياةِ والخضرْ [2]

وقول آخر :

كأنَّ النيل ذُو فَهْمٍ ولُبٍّ لما يبدو لعين الناس مِنْهُ
فيأتي حين حاجتهم إليه ويمضي حين يستغنُون عنهُ

وقول آخر :

ولله مَجْرَى النيلِ مِنْهُ إذا الصَّبا أرَتْنا به من مَرّها عَسْكراً مَجْرا
بشَطٍّ يهزُّ السَّمْهَرِيّةَ ذُبَّلاً ومَوْج يهزُّ البيض هِنْدِيّةً بُتْرا
إذا مدّ حاكى الوردَ لوناً، وإن صفا حَكى ماءه لَوْناً ولم يحكِه مَرّا

وقول آخر :

واهاً لهذا النيل ، أيُّ عجيبةٍ بِكْرٍ بمثل حديثها لا يُسْمَعُ
يَلْقَى الثرى في الماء وهو مُسَلِّمٌ حتى إذا ما مال عادَ يُوَدِّعُ
مستقبلٌ مثل الهلالِ فدَهْرَه أبداً يزيدُ كما يزيدُ ويَرْجِعُ

وقول ابن النقيب [3] :

---

١ أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري شهاب الدين (– ٧٤٩) صاحب مسالك الأبصار (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١ : ٣٣١ والنجوم الزاهرة ١٠ : ٣٣٤) والبيتان في حلبة الكميت : ٢٦٢ .

٢ رواية البيت في حلبة الكميت :

في كل يوم يلتقي ماء الحياة والخضر

٣ هو الحسن بن شاور ناصر الدين ابن النقيب (– ٦٨٧) أحد شعراء مصر المشهورين بالتورية وأكثر شعره مقطعات (الفوات ١ : ٢٣٢) ؛ والبيتان في الفوات ١ : ٢٣٤ .

الصَّبُّ من بعدهمُ مُفْرَدٌ ودَمْعُه النيلُ وتعليقُهُ
وخَدُّه لما بكاهُمْ دَماً مقياسُهُ ، والدمْعُ تخليقُهُ

وقول الصَّفَدي[1] :

سَقْياً لمصر وما حوَتْ من أُنسِها وأُناسها
ومحاسِنٍ في مَقْسِها تَبْدُو وفي مِقْياسها
ومَسَرَّةٍ كاساتُهــا تُجْلَى علَى أكْياسها
وسطور قرط خَطّها الـ ـباري علَى قرطاسِها
ودُمَى كنائِسها ، ولا. تَنْسَى ظِباء كِناسِها
ولطافـة بجَـلالةٍ تَبْدُو علَى جُلاّسها
ونَوَاسِمٍ كُلُّ المُنَى للنفسِ في أنْفاسِها
ومراكب لعبت بها الـ أمواجُ في وَسْوَاسِها

وقول ابن جابر الأندلسي[2] :

ما زلتُ أُسنِدُ من محاسنِ أرضِها خبراً صحيحاً ليس بالمقطوعِ
كم مُرْسَلٍ من نيلِها ومُسَلْسَلٍ ومُدَبَّجٍ من هَضْبِها المرفوعِ[3]

---

١ خليل بن أيبك الصفدي (– ٧٦٤) صاحب الوافي بالوفيات وأعيان العصر ونكت الهميان والتذكرة الصفدية والغيث المسجم وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢ : ٨٧ وطبقات الشافعية ٦ : ٩٤) وشعره منثور في مؤلفاته .

٢ ابن جابر : محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الأعمى (– ٧٨٠) صاحب بديعية العميان هاجر مع صاحبه الرعيني إلى بلاد الشام ، وله شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطي . (انظر الدرر الكامنة ٣ : ٣٣٩ ونكت الهميان : ٢٤٤ والوافي ٢ : ١٥٧ وبغية الوعاة : ١٤ وغاية النهاية ٢ : ٦٠) وسيورد المقري له ترجمة في النفح .

٣ جمع في هذا البيت ألفاظاً من مصطلح الحديث .

وقول إبراهيم بن عبدون :

والنيلُ بين الجانبينِ كأنّما صَدِئَتْ بصفحته صفيحةُ صَيقلِ
يأتيكَ من كَدَرِ الزواخرِ مَدُّهُ بممَسَّكٍ مَنْ مائِهِ ومُصَنْدَلِ
فكأنَّ ضوءَ البدرِ في تمويجه برقٌ تموّجَ في سحابٍ مُسْبَلِ
وكأنَّ نُورَ السُّرْجِ من جَنَبَاته زُهْرُ الكواكب تحت ليلِ ألَيلِ
مثلُ الرياضِ مُفتّقاً أنوارُهُ تَبْدُو لعَينٍ مُشَبَّهٍ وممثّلِ

وقول ابن الصّاحب :

فَرِحَ الأنامُ بنيلهِم إذ صار أحمرَ كالشّقيقِ
وتَبَرَّكوا بشروقِهِ فكأنّه وادي العقيقِ

وقول آخر :

احمرّ للنيلِ خَدٌّ حتّى غَدا كالشقيقِ
وقَدْ ترنّمتُ فيهِ إذ صار وادي العقيقِ

* * *

[زيارة مكة والمدينة]

ثمَّ شمرتُ عن ساعد العزم بعد الإقامة بمصر مدّة قليلة ، إلى المهمّ الأعظم والمقصد الأكبر الذي هو سرّ المطالب الجليلة ، وهو رؤية الحرمين الشريفين ، والعلَمين المنيفين ، زادهما الله تنويها ، وبلّغ النفوسَ ببركة من شَرُفا به مآرب لم تزل تنويها ؛ فسافرتُ في البحر إلى الحجاز ، راجياً من الله سبحانه في الأجر الانتجاز ، إلى أن بلغتُ جدة ، بعد مكابدة خطوب اتخذتُ لها من الصبر عُدة ، فحين حصل القُرب ، واكتحلت العين بإثمد تلك التُّرْب ، ترنمتُ بقول من

قال ، محرّضاً على الوَخْد والإرقال :

بَدا لك الحقُّ فاقْطَعْ ظهر بَيْداء   واهْجُرْ مقالَةَ أحبابٍ وأعْداء
واقصِدْ على عزْمةٍ أرض الحجاز تَجِدْ   بُعداً عن السُّخطِ في نُزُلِ الأوِدّاء
وقلْ إذا نلْتَ من أمّ القُرى أرَباً   وَهْوَ الوصولُ بإسرار وإبداء
يا مكّة اللهِ قد مكّنتِ لي حَرَماً   مؤمّناً لستُ أشْكُو فيه من داء
فمُذْ رأى النازحُ المسكينُ مسكنَه   في قطرك الرحب لم يُنْكَبْ بأرزاء
شَوْقُ الفُؤاد إلى مَغْناكِ مُتّصلٌ   شَوْق الرياضِ إلى طَلٍّ وأنداء

ثمّ أنشدت ، عندما بدت أعلام البيت الحرام ، قولَ بعض من غلب عليه الشوق والغرام ، وقد بلغ من أمانيه الموجبة بشائره وتهانيه المرام :

وافى الحجيجُ إلى البيتِ العتيقِ وقد   سَجَا الدُّجى فرأوا نوراً به بَزَغا
عجّوا عجيجاً وقالوا : الله أكبر ما   للجوّ مؤتلِقاً بالنور قد صُبِغا
قال الدليلُ : ألا هاتوا بشارتَكُمْ   فمَنْ نوى كَعْبَةَ الرحمن قد بلغا
نادوا على العِيسِ بالأشواق وانتحبوا   وحَنَّ كلُّ فؤادٍ نحوها وصَغا
وكلٌّ من ذمّ فِعْلاً نَالَ محمدَةً   في مكّة ومَحا ما قَدْ جَنَى وبَغَى

ولمّا وقع بَصَري على البيتِ الشريف كدتُ أغيب عن الوجود ، واستشعرتُ قول العارف بالله الشبلي [1] لما وَفَد إلى حضرة الجود :

قلتُ للقلْبِ إذ تراءى لعيني   رَسْمُ دارٍ لهم فهاجَ اشتياقي
هذِهِ دارُهُمْ وَأنتَ مُحِبٌّ   ما احتباسُ الدموعِ في الآماقِ

١ الشبلي : أبو بكر دلف بن جحدر صاحب الجنيد (– ٣٣٤) ناسك عمل للعباسيين ثم تزهد وسلك طريق المتصوفة (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢ : ٣٩ وحلية الأولياء ١٠ : ٣٦٦). وقد أورد البلوي في تاج المفرق (٩٣ ظ) ثلاثة من أبيات الشبلي دون نسبة .

والمَغاني للصَّبِّ فيها مَعَاني   فَهْيَ تُدْعَى مصارعَ العُشّاقِ
حُلَّ عَقْدَ الدموعِ وَاحلُلْ رُباها   وَاهجُرِ الصبرَ وَارْعَ حقَّ الفراقِ

ثمَّ أكملت العُمْرة ، وَدعوت الله أن أكون ممّن عَمَرَ بطاعةِ ربّه عمره ، وذلك أوائل ذي القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنيّة ، وأقمت هنالك منتظراً وقتَ الحجّ الشريف ، ومتفيّئاً ذلك الظلّ الوَريف ، ومقتطفاً ثمار القُرْبِ الجنيّة ، إلى أن جاء الأوان ، فأحرمتُ بالحجّ من غير تَوَان ، وَحين حللتُ ممّا به أحرمت ، نويت الإقامة هنالك وأبرمت ، فحال من دون ذلك حائل ، وكنت حَرِيّاً بأن أنشد قول القائل :

هذي أباطحُ مكّة حولي وَما   جمعتْ مَشاعرُها من الحُرُماتِ
أدعُو بها لبَيْكَ تلبيةَ امرىءٍ   يَرْجُو الخلاصَ بها من الأزَماتِ
نِلْتُ المُنى بِمِنًى لأني لم أخَفْ   بالخَيْفِ من ذَنْب أحال سِماتي
وعَرَفْتُ في عرَفاتَ أني ناشِقٌ   للعَفْوِ عَرْفاً عاطِرَ النَّسَماتِ

وأن أتمثّل في المطاف ، إذ حفّتني الألطاف ، بقول من رَبْعُه بالتقوى مَشِيد ، البغدادي الشهير بابن رشيد :

على رَبْعِهِمْ لله بيتٌ مُبَارَكٌ   إليه قلوبُ الناسِ تَهْوِي وتَهْوَاهُ
يَطُوفُ به الجاني فيُغفر ذَنْبُهُ   ويسقطُ عنهُ جُرْمه وخطاياهُ
وكم لذّةٍ أو فرحةٍ لطَوَافه   فلله ما أحلى الطوافَ وأهْنَاهُ

ثمَّ قصدنا بعد قضاء تلك الأوطار ، لطيبة الشريفة التي لها الفضلُ على الأقطار ، واستشعرت قول من أنشد وطَيَّرُ عزمه عن أوكاره قد طار :

حمِدتُ مَرَادي إذ بلغتُ مُرَادي   بأمّ القُرى مُسْتَمْسكاً بعمادي
ومذ رَوِيتُ من ماء زمزم غُلّتي   فلَسْتُ بمحتاجٍ لماء ثِمادِ

فلله سبحانه الحمد على نعمه التي جلّت ، ومننه التي نزلت بها النفوس مواطن التشريف وحلّت :

من يَهْدِهِ الرحمنُ خيرَ هدايةٍ يَحْلُلْ بمكّة كي يُتاح المقصدا
وإذا قضى من حَجِّه الفرضَ انثنى يشفي برؤية طيبة داءَ الصّدى

وكان حظّي في هذه الحال تذكُّر قول بعض الوشّاحين من الأندلسيين الذين كان لهم ارتحال إلى تلك المعاهد الطاهرة ، والمشاهد الزاهرة ، التي تُشدّ إليها الرحال :

يا مَنْ لعبدٍ به افتقارُ إلى أيادٍ لهُ جِسَامْ
فضلُك مُدْنٍ لخير مُدْنْ حلّ بها سيّدُ الأنامْ

لَمْ يَهْفُ قَلْبي لحبّ لَيْلى ولا سُعادٍ ولا الرّبابْ
لاقَى شُجُوناً ونالَ وَيْلا مَنْ هامَ في ذلك الجنابْ
بَلْ مالَ مني الفؤادُ مَيْلا لِمَنْ لَهُ الحبُّ لا يعابْ

قَلْبيَ والله مستطارُ مذ حلّ في بيته الحرامْ
ذا الحجرِ والركنُ خيرِ ركن وزَمْزَمَ الخير والمقامْ

ذابتْ قلوبُ المطيّ عِشْقا ورَكْبِها واستَوى المرادْ
إلى حبيبِ القلوبِ حقّا الحيِّ والميتِ والجمادْ
إلى الذي لَيْس فيه يَشْقَى مَنْ حُبُّه داخل الفُؤادْ

شكَوْا وقد طالتِ السفارُ هم ومَطاياهُمُ السّقامْ
فَهْيَ قِسِيٌّ من التثني والقومُ من فوقها سهامْ

ولَسْتُ من سَكْرَتي مفيقا حتّى أرى حجرةَ الرسولْ
فإن يُسَهّل لي الطريقا فذاك أقصى مُنًى وسُولْ

متى تَرى عَيْنيَ العقيقا ويَفرحُ القلبُ بالوصولْ .

كم قُلت وَالصبرُ مُستعارُ للركبِ إذ غادروا المنامْ
ونَسمةُ الشوق حرّكتني وزَاد بي الوجد والغرامْ .

قومُوا فقد طالَ ذا الجلوسُ وَبادِرُوا زورةَ الحبيبْ
تاقَتْ إلى طيبةَ النفوسُ لا عيشَ من دُونها يطيبْ
لا حبّذا دونها الغرُوسُ والماء والشادنُ الرَّبيبْ

وحبّذا الرملُ والقِفارُ وَالعُرْبُ في تلكمُ الخيامْ
وأمُّ غيلانَ[1] ظلّلتني والأيكُ والأثلُ والثُّمامْ

يا طيبة حُزْتِ كلَّ طيبِ بسيّدٍ فيكِ ذي حلولْ
نداء مستضعَفٍ غريبِ في غُرِّ أمداحِهِ يقولْ
وَهْوَ من السامع المجيبِ لمدحِهِ يسأل القَبولْ

أنت الغنى لي فلا افتقارُ وَأنت عِزّي فَلا أُضامْ
مُسْتَمْسك منك حسن ظني بعُرْوَةٍ ما لها انفِصامْ

بسيّدِ العالمينَ أجمعْ بأحمدَ المجتَبَى الرسولْ
وَمن هو الشافعُ المشفَّعْ في موقفِ المَحْشَرِ المَهولْ
إذ لا كلامٌ هناك يُسْمَعْ للغيرِ والناسُ في ذهولْ

إذِ السماءُ لها انفطارُ والشُّهبُ منثورةُ النظامْ
كذا الجبالُ انثنت كعِهْنٍ سريعَةَ المرّ كالغمامْ

يا أوّل الرُّسْلِ في الفضيله وإن تأخّرْتَ في الزَّمَنْ

. . ..

١ أم غيلان : شجر السّمر .

شفاعةً نلتَ مَعْ وسيلهْ   فمن يُضاهي عُلاك مَنْ
عَلَتْ بكَ الرُّتبةُ الجليلهْ   وَطِبْتَ في السّرِّ والعَلَنْ

فأنْتَ من خيرهم خيار   فمن يُضاهيكَ في المقامْ
والرُّسلُ نالتْ بكَ التمنّي   وأنْتَ بدرٌ لهُمْ تمامْ

الوَجْدُ قد قَرَّ في فؤادي   فما لِصَبْرٍ بِهِ قرارْ
ولاعِجي صاعدُ اتّقادِ   ودمعُ عيني له انهمارْ
وها أنا جئتُ من بلادي   لطيبةٍ أبتغي الجوارْ

فحبّذا تلكمُ الديارُ   والمصطفى مسكةُ الختامْ
عَلَيْهِ أزكى الصلاةِ منّي   وصحبِهِ الغُرِّ ، والسّلامْ

وقول أبي جعفر الرعيني الغرناطي [1] — رحمه الله تعالى — وهو من التشريع [2] أحَدِ أنواع البديع :

يا راحلاً يبغي زيارَةَ طيبةٍ   نلتَ المُنى : بزيارة الأخْيَارِ
حَيِّ العقيقَ إذا وصلتَ وصِفْ لنا   وادي مِنى : يا طيِّبَ الأخبارِ
وإذا وقفتَ لدى المعرَّفِ داعياً   زال العنا : وظفرتَ بالأوطارِ

ولمّا منّ الله تعالى علينا بالحلول في المشاهد التي قام الدين بها وظهر ، والمعاهد التي بان الحقّ فيها واشتهر ، والمواطن التي هزم الله تعالى حزب الشيطان فيها

---

١ أبو جعفر الرعيني الغرناطي ، أحمد بن يوسف بن مالك (– ٧٧٩) صاحب ابن جابر ورفيقه في الرحلة إلى المشرق ، وقد شرح بديعية رفيقه ابن جابر (انظر الدرر الكامنة ١ : ٣٤٠ وبغية الوعاة : ١٧٦ وغاية النهاية ١ : ١٥١ وسيترجم له المقري في النفح) .
٢ التشريع : بناء القصيدة على قافيتين .

وقهر ، ونُصرت النبوّة وعُضدت ، وقُطعت غصون الكفر وحُصِدت، ورُصَّت قواعد التوحيد ونُضدت ، وقرّت العيون ، وقُضيت الديون ، أنشد لسان الحال ، قول بعض مَنْ جيدُه بمحاسن طيبةَ حال :

يا مَنْ به طيبةٌ طابت حُلَى وعُلَى   ومَنْ بتشريفه قد شُرّفَ العَرَبُ
يا أحمدُ المصطفى قد جئتُ من بلدٍ   قاصٍ ولي خَلَدٌ قاسٍ ولي أرَبُ
وقد دهتْني ذنوبٌ قلتُ إذ عظمتْ   لله منها وطهَ المرتجى الهرَبُ

ونسينا بمشاهدة ذلك الجناب ما كنّا فيه ، وسَبَقَ الدمعُ الذي لا يعارضُ الفرحَ ولا يُنافيه :

أيّها المغرمُ المَشُوقُ هنيئاً   ما أنالوكَ منْ لذيذِ التلاقي
قلْ لعينيكَ تَهْمِلان سُروراً   طالما أسعداكَ يومَ الفراق
واجمعِ الوجدَ والسرورَ ابتهاجاً   وجميعَ الأشجانِ والأشْوَاق
وأمُرِ العينَ أن تفيضَ انهمالاً   وتُوَالي بدمعها المُهرَاق
هذه دارهمْ وأنْتَ محبٌّ   ما بقاء الدموع في الآماق[1]

ومِلْنا عن الأكوار ، وثملنا من عَرْف تلك الأنجاد والأغوار ، وتملّينا من هاتيك الأنوار ، وتخلينا عن الأغيار ، وتحلَّينا بحُلى الأخيار ، وكيف لا وطيبة مركز للزوّار :

إذا لم تطب في طيبة عند طيب   بهِ طيبة طابت فأين تطيبُ
وإن لم يُجِبْ في أرضها ربُّنا الدُّعا   ففي أيِّ أرضٍ للدُّعاء يجيبُ
أيا ساكني أكناف طيبة كلُّكم   إلى القلب من أجل الحبيبِ حبيبُ

١ انظر البيت الثاني من أبيات الشبلي التي تقدمت ص : ٤٠ .

وما أحسن قول عالم الأندلس المالكي اللبيب، عبد الملك السُّلَميّ المشهور بابن حبيب[1]:

لله دَرُّ عصابةٍ صاحبتُها نحو المدينةِ تقطعُ الفَلَواتِ
ومهامهٍ قد جُبْتُها ومفاوزٍ ما زلتُ أذكرُها بطول حياتي
حتى أتينا القبرَ قبرَ محمدٍ خصّ الإلهُ محمداً بصلاةٍ[2]
خيرُ البريّةِ والنبيّ المصطفى هادي الورى لطرائقِ الجنّاتِ[3]
لمّا وقفتُ بقربه لسلامه جادتْ دموعي واكِفَ العَبَراتِ
ورأيتُ حُجْرتَهُ وموضعَهُ الذي قد كان يدعو فيه في الخَلَواتِ
معَ روضةٍ قد قال فيها: إنّها مُشْتَقَّةٌ من رَوْضَةِ الجنّاتِ
وبمنزلِ الأنصارِ وَسْطَ قبابِهِم بيتُ الهداية كاشفُ الغَمَراتِ
وبطيبةٍ طابوا ونالوا رحمةً مغنى الكتاب ومحكم الآياتِ
وبقبرِ حَمْزَةَ والصحابةِ حوله فاضتْ دموعُ العين مُنْهمراتِ
سَقْياً لتلك معاهداً شاهدتُها وشهدتُها بالخطوِ واللحظاتِ
لا زلتُ زوّاراً لقَبْرِ نبيّنا ومدينةٍ زهراء بالبركاتِ
صلّى الإله على النبيّ المصطفى هادي البريّة كاشفِ الكُرُباتِ
وعلى ضجيعيه السلامُ مردّداً ما لاح نورُ الحقّ في الظُّلماتِ

---

١ عبد الملك بن حبيب السلمي (– ٢٣٨ أو ٢٣٩) فقيه الأندلس ومؤلف «الواضحة» في الحديث والمسائل على أبواب الفقه (انظر ترجمته في الجذوة: ٢٦٣ والمطمح: ٣٦ والمغرب ٢: ٩٦ وابن الفرضي ١: ٣١٢ وابن عذاري ٢: ١٦٤ والديباج المذهب: ١٥٤ وتذكرة الحفاظ: ٥٣٧، وإنباه الرواة ٢: ٢٠٦ وشذرات الذهب ٢: ٩٠ ولسان الميزان ٤: ٥٩ وبغية الوعاة: ٣١٢ وسيترجم له المقري في الراحلين من الأندلس رقم: ١).

٢ ك: بصلات.

٣ ك: لطرائق لنجاة.

وقول كمالِ الدين ناظرِ قوص[1] :

أنِـخْ ، هذه والحمدُ لله يثربُ فبُشراكَ قد نلتَ الذي كنتَ تطلبُ
فعفِّرْ بهذا التُّربِ وَجْهكَ ، إنهُ أحقُّ به من كلّ طيبٍ وأطيبُ
وقبِّلْ ربوعاً حولها قد تَشرَّفتْ بمن جاورتْ ، والشيء بالشيء يحبَبُ
وَسكّنْ فؤاداً لم يزلْ باشتياقِه إليها على جَمْرِ الغضَا يتقلّبُ
وكفكفْ دموعاً طالما قد سفَحْتَها وبرِّدْ جوًى نيرانُهُ تتلهّبُ

وقول الرُّعَيْني الغَرْناطي :

هذه روضةُ الرسولِ فدعْني أبذلُ الدمعَ في الصعيدِ السّعيدِ
لا تلُمْني على انسكابِ دموعي إنّما صُنْتُها لهذا الصّعيدِ

ولما سلّمتُ على سيد الأنام ، عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ذُبْتُ حياء وخجلا ، لما أنا عليه من ارتكاب ما يقتضي وَجَلا ، غير أني توسّلْت بجاهه صلى الله عليه وسلم في أن أكون ممّن وَضَح له وجه الصفح وجَلا :

إليكَ أفِرُّ من زَلَلي فِرَارَ الخائفِ الخجِلِ[2]
وكان مزارُ قبرِكَ بالـ ـمدينةِ مُنْتَهى أملي
فوفّى الله ما طَمَحَتْ له نفسي بلا خللِ
فخُذْ بيَدَيْ غريقٍ في بحارِ القولِ والعملِ

---

١ اسمه أحمد بن عبد القوي بن عبدالله بن شداد الربعي ، كمال الدين (– ٦٨٦) ، ناظر قوص ورئيسها في زمنه ، بنى قبة على الضريح النبوي ، وكان له مشاركة في الأدب ؛ والأبيات مع ترجمته في الطالع السعيد : ٤١ – ٤٤ والمنهل الصافي ١ : ٣١٨ والدرر الكامنة ١ : ١٩٣ والنجوم الزاهرة ٩ : ٢١٤ والفوات ١ : ٨٨ وشذرات الذهب ٦ : ٢١ ومخطوطة الوافي (الورقة ٧٢ من الجزء السابع) .

٢ ك : الوجل .

وَهَبْ لي منكَ عارِفَةً تُعَرِّفُ ما تَنَكَّرَ لي
وتَهديني إلى رَشَدي وتمنعُني منَ الزَّلَلِ
وتحملني على سَنَنٍ يؤمّنني من الوَجَلِ
فأنت دليلُ مَنْ عَمِيَتْ عليه مسالكُ السُّبُلِ
وإنكَ شافعٌ بَرٌّ ومَوْئلنا من الوَهَلِ
وإنكَ خيرُ مُبْتَعَثٍ وإنّك خاتَمُ الرُّسلِ
فيا أزكى الورى شرفاً وشافيهم مِنَ العِلَلِ
ويا أندى الأنامِ يداً وأكرمَ ناصرٍ وولي
نداء مقصّرٍ وجِلٍ بثوبِ الفقرِ مشتملِ
على جَدْواكَ معتمدي فأنقذني من الدَّخَلِ[1]
وألحقني بجنّـــاتٍ لدى درجاتها الأُوَلِ
بصدّيـقٍ وفـــاروقٍ وعثمان الرِّضَى وَعلي
فأنت مَلاذُ معتصِمٍ وأنت عمادُ متكلِ
عليك صلاةُ ربّك جَـلَّ في الغَدَواتِ والأُصُلِ

ومذ شممنا[2] من أرَجِ تلك الأرجاء الذاكية ، واستضأنا بسُرُجِ تلك الأضواء الزاكية ، ظهر من الشوق ما كان بَطَنَ ، ولم يخطر ببالنا سَكَنٌ ولا وَطَنٌ ، ويا سعادة من أقام بتلك البقاع الشريفة وقَطَنَ :

مَرَّ النسيمُ بِرَبْعِهِم فتلذَّذا[3] حتى كأنَّ النَّشْرَ صار له غِذا
فَصَحا وصحَّ وصاح لا أشكو أذى قل للصَّبا ماذا حملتِ من الشَّذا
أمَسِسْتِ طيباً أم علاكِ عبيرُ

---

١ ق : الوجل .
٢ ومذ شممنا : سقط من ج .
٣ ج : متلذذاً .

يا أيّها الحادي الذي من وَسْمِهِ قصدُ الحبيبِ وأن يُلِمَّ برَسْمِهِ
هذي منازلُهُ فزمزمْ باسْمِهِ بأبي الذي لم تَذْوَ زهرةُ جسمِهِ
لكنّهُ غضٌّ الجَمالِ نضيرُ

لله شَوْقٌ قَدْ تَجاوَزَ حَدَّهُ أوفي على الصبرِ المَشيدِ فهدَّهُ
يا ناشِقَ الكافورِ لا تتعدَّهُ طوبى لمشتاقٍ يُعَفِّرُ خَدَّهُ
في روضةِ الهادي إليه يشيرُ

فهناك يبذلُ في التوسّلِ وُسْعَهُ ويُصيخُ نحو خطيبِ طَيْبَةَ سَمْعَهُ
ويُريق فوق حصَى المُصَلّى دَمْعَهُ ويرى مَعالمَ مَنْ يحبُّ ورَبْعَهُ
ومحمّدٌ للعالَمينَ بشيرُ

صلّى عليه الله خيرَ صلاتِهِ وحبا معاليَهُ جليلَ صِلاتِهِ
ما حنَّ ذو الأشواقِ في حالاتِهِ وأتى مغانيَهُ على عِلاّتِهِ
فأتيحَ حُسْنُ الختمِ وهو قريرُ

ووقفنا بباب طلب الآمال خاشعين، وتوسلنا إلى الله بذلك المقام العليّ خاضعين، وغبَطْنا قوماً سكنوا هنالك فكانوا لخدودهم متى شاءوا على تلك الأعتاب واضعين :

أكْرِمْ بعبدٍ نحو طَيْبَةَ مُسند[1] متوسِّلٍ مُسْتَشْفِعٍ مسترشِدِ
يَفْلي الفلاةَ لها بعزمٍ أيِّدِ وافى إلى قبرِ النبيِّ محمدِ
ولرَبعِهِ الأسمى يَرُوحُ ويغتدي

---

١ ك : منتد .

أزْجَاه صادقُ حبّهِ المُتَمكّنِ وحداهُ سائقُ عزمه المتعينِ
فحكى لدى شجوٍ حَمامَ الأغصنِ هَزَجاً يردِّدُ فيهِ صوتَ ملحّنِ
ويمُدُّ للإطرابِ صوتَ المنشدِ

ويقول جئتُ بعزمةٍ نزّاعةٍ ونهضتُ والدنيا تمرُّ كساعةٍ
لمحلّ أحمدَ قائلا بإذاعةٍ هذا النبيُّ المرتجى لشفاعةٍ
يومَ القيامةِ بين ذاك المشهدِ

هذا الرؤوفُ بجاره وَنزيلهِ هذا سراجُ اللهِ في تنزيلهِ
هذا الذي لا ريبَ في تفضيلهِ هذا حبيبُ الله وَابنُ خليلهِ
هذا ابن باني البيتِ أوّل مسجدِ

هذا الذي اصطفَتِ النبوّةُ خيمتَهُ هذا الذي اعتام الهدى تقديمَهُ
هذا الذي نُسْقَى غداً تَسْنيمَهُ هذا الذي جبريلُ كان خديمَهُ
في حضرة التشريفِ أزكى مَصْعَدِ

هذا الذي شَهد الوجودُ بخصِّهِ بمزيّةِ التفضيلِ من مختصهِ
وأبانَهُ مِنْ وَحْيِهِ في نَصّهِ هذا الذي ارتفعَ البراقُ بشخصهِ
في ليلةِ الإسراء أشرفَ مشهدِ

هذا الذي غدتِ الطُّلولُ حديقةً بجِوارِه وغدتْ تروقُ أنيقةً
هذا المكمَّلُ خِلْقَةً وخليقةً هذا الذي سمع النداء حقيقةً
ودنا ولم يَكُ قبل ذاك بمُبْعَدِ

فهناكَ كم رُسْلٍ به تتوسَّلُ وَعلى حِماهُ لدى المعادِ يُعَوّلُ
يا أرحَمَ الرُّحماء أنْتَ المؤئِلُ يا خاتَمَ الارسالِ أنْتَ الأوّلُ
فترقَّ في أعلى المكارِمِ واصعدِ

اللهُ رَفّعَ في سُرَاه مَنَارَهُ وَأبانَ في السَّبْعِ العلا أنوارَهُ
فَتَقَفّتْ ملائكةُ السما آثارَهُ وَأراه جَنّتَهُ هناك وَنَارَهُ
فمُؤبَّــدٌ ومخلَّــدٌ لمخلَّدِ

كم ذادَ من وَجَلٍ وجلّى ظُلْمةً وامتَنَّ بالرُّحمى ومَتّنَ حُرمةً
لما دجا أفُقُ الضَّلالةِ دُهْمَةً بعثَ الإلَهُ بِهِ ليرحَمَ أمّةً
لولاه كانَتْ بالضلالةِ ترتدي

حاز الشُّفُوفَ فكلُّ خلْقٍ دونَهُ فالغيثُ يَسْأل إذ يسيلُ يمينَهُ
والشمسُ تستهدي الشروقَ جبينَهُ واللهُ فَضَّلَهُ وأظهرَ دينَهُ
ووفى لنا فيه بِصدقِ الموعدِ

نُطْقِي يُغادي ذكرَهُ ويُرَاوحُ وبه ينافِحُ مِسْكَةً وينافِحُ
تُعْيِي اللسانَ محامدٌ ومَمَادحُ طوبى لمن قد عاش وَهْوَ يُكافحُ
عنه يناضلُ باللسان وباليدِ

هو صَفْوَةُ العرَبِ الأولى أحسابهُمْ أسيافُهُمْ قُرِنَتْ بها أسبابُهُمْ
فهُمُ لُبابُ المجدِ وهو لُبابُهم من آلِ بيتٍ لَمْ تزل أنسابُهُمْ
تُنْبِي لهم عن طيبِ عُنْصُرِ مولدِ

شَرَفُ النبوّة قد رسا في أهلها وسما على الزُّهْرِ العلا بمحلّها
ساق السوابقَ للفخارِ برُسْلِها نطقَ الكتابُ كما علمتَ بفضلها
وقضى به نصُّ الحديثِ المسنَدِ

فوقَ السِّماكِ توطَّنَتْ وتوطَّدتْ وتفرَّدتْ بالمصطفى وتوحّدتْ
فهي الخُلاصةُ صُفِّيَتْ فتجردتْ من معدنٍ فيه الرسالةُ قد بَدَتْ
منْ عصرِ آدَمِنا لعصرِ محمدِ

طالوا[1] فلم يُبقوا لمجدٍ مَصْعَدا   صالوا ففي أيمانهم حَتْفُ العِدا
سالوا[2] فَهُمْ لعُفاتهم غَيْثُ الجَدا   أهلُ السقايةِ والرفادةِ والندى
والكعبةِ البيتِ الحرامِ المقصدِ

المطعمونَ وقد طوى المرْيَ[3] الطَّوَى   الناهضون إذا الصريخُ لهم نوى
العاطفونَ إذا الطريقُ بهم ثَوَى   أهلُ السدانةِ والحجابةِ واللّوا
أهلُ المقامِ وزمزمٍ والمسجدِ

المصلحونَ إذا الجموع تخاذعَتْ[4]   المنجحونُ إذا المساعي دافعت
الدافعونَ إذا الأعادي قارعَتْ   المؤثِرُونَ إذا السَّنُونَ تتابعت
وَفْدَ الحجيج بنيلِ كلِّ تَفَقُّدِ

لا يقربُ الخطبُ الملمُّ منيعَهُمْ   لا يطرقُ الكرْبُ المخيفُ قريعَهُمْ
واللهُ شَرَّفَ بالنبيِّ جميعَهُمْ   مَنْ نالَ رتبتَهم وحازَ صنيعَهُمْ
نال الشُّفوفَ وحاز معنى السُّؤددِ

حلُّوا من الطَّوْدِ الأشمِّ بمنعةٍ   في خيرِ مُعْتَصَمٍ وأسمى رِفعةٍ
فهمُ بمَنَّةِ أمْنِهِ في هَجْعةٍ   الله خَصَّصَهُمْ بأشرفِ بُقعةٍ
محجوجةٍ[5] محفوفةٍ بالأسْعُدِ

لمّا أتيتُ لرامةٍ أصِلُ السُّرَى   من بعد قصدي مكةَ أمَّ القُرى
أنشدتُ جهراً فيهِ أنثر جوهرا   وإليكها يا خيرَ مَنْ وطىء الثرى
عذراءَ تُزري بالعذارى الخُرَّدِ

---

١ ق : طابوا .
٢ ك : سئلوا .
٣ ك : أم ؛ ج : الحما ؛ ط : المهمي .
٤ ق ج ط : تخادعت . وتخاذعت : تفرقت .
٥ ق : محجوبة .

كلُّ الحسانِ لحسنها قد أُدهشا ما مثلُها في تربْها شادٍ نَشَا
سَفَرَتْ بعزمٍ ما أجدّ وأطيشا نشأتْ بطيّ القلبِ وارتوتِ الحشا
زهراءُ مَن يرَها يُهلّ ويَسجُدِ

أمَّتْكَ تَشْأى في مَداها الألسُنا وتُري إجادتَها المجيدَ المحسنا
تغلو ولا تَثني العِنانَ عن الثَّنا وأتتك تمرحُ كالقضيبِ إذا انثنى
مترنّحاً بين الغُصون المُيَّدِ

قد أعْمَلَتْ في المدحِ ثاقبَ ذهنِها ترجو الحلولَ لدى قَرارةِ أمنها
وعسى إذا غُذِيَتْ بتربة عَدْنِها يجلو لك الإحسانُ بارعَ حُسنها
والحسنُ يجلوها وإن لم تُنْشَدِ

مدحي لخيرِ العالمين عقيدتي ومطيّتي بل طيبتي ونشيدتي
ونتيجتي وهدى اليقين مفيدتي ولئن مدحتُ محمّداً بقصيدتي
فلقد مدحتُ قصيدتي بمحمّدِ

يا خيرَ خَلْقِ الله دعوةَ حائرٍ يشكو إليك صُروفَ دهرٍ جائرِ
واللهُ يعلمُ في هواكَ سرائري وهو الذي أرجو لعَفْوِ جرائري
متوسّلاً بجنـــابك المتأطّدِ

لولا حقوقٌ عُيِّنَتْ بمغاربِ لمكثتُ عندك كي تُتَاحَ مآربي
ويكونَ في الزرقاء عَذبُ مشاربي حتى أُحَلّيَ من ثراك ترائبي
وأنالَ دَفْناً في بقيع الغرْقَدِ

وعليكَ من ربٍّ حَبَاك صَلاتُهُ وسلامُهُ وهِباتُهُ وصِلاتُهُ
ما أمَّ بابَكَ مَنْ هدتْه فَلاتُهُ لعلاك حتى زُحْزِحَتْ عِلاّتُهُ
فأُتيحَ حُسْنُ الختم دون تردُّدِ .

ثم ودَّعته صلى الله عليه وسلم والقلبُ من فراقه سقيم ، ووقعت من البعد عن تلك المعاهد في المُقعِدِ المُقيم ، وأنا أرجو أن يكون شكل منطقي غير عقيم ، وأن أحْشَرَ في زُمْرة مَنْ سَلَكَ الصراطَ المستقيم [1] :

يا شفيعَ العُصاةِ أنت رجائي — كيف يَخْشَى الرجاءُ عندك خَيْبَهْ
وإذا كنتَ حاضراً بفؤادي — غيبةُ الجسم عنك ليستْ بغيبَهْ
ليس بالعيشِ في البلادِ انتفاعٌ — أطيبُ العيش ما يكون بطَيْبَهْ

* * *

[زيارة بيت المقدس]

ثم عدتُ إلى مصر ، وقد زال عني ببركته صلى الله عليه وسلم الإصْر ، وذلك في محرّم سنة ١٠٢٩ ، ثم قصدت زيارة بيت المقدس في شهر ربيع من هذا العام ، وقد شملتني بفضل الله جوائز الإنعام ، وتذكرت عند مشاهدة تلك المسالك الصعبة ،قولَ حافظ الحفّاظ ابن حجر العسقلاني — رحمه الله تعالى — وهو ممّا زادني في هذه الزيارة رغبة :

إلى البيتِ المقدَّسِ جئتُ أرجو — جِنانَ الخُلْدِ نُزْلاً مِنْ كريمِ
قَطَعْنا في مسافته عِقاباً — وما بعدَ العِقابِ سوى النعيمِ

فلمّا دخلتُ المسجد الأقصى ، وأبصرتُ بدائعه التي لا تُستَقْصى ، بهرَني جماله الذي تجلى الله به عليه ، وسألت عن محل المعراج الشريف فأُرشدت إليه ، وشاهدت محلاً أَمَّ فيه صلى الله عليه وسلم الرسلَ الكرامَ الهداة ، وكان حقّي أن أنشد هنالك ما قاله بعضُ الموفقين وهو ممّا ينبغي أن ترزمزم به الحُدَاة :

---

[1] الأبيات في خلاصة الأثر ١ : ٣٠٥ .

إن كنتَ تسألُ أين قَدْ ... رُ محمّدٍ بَيْنَ الأنامْ
فأصِخْ إلى آياتِـــهِ ... تَظْفَرْ بِرِيّكَ في الأُوامْ
أكْرِمْ بعبدٍ سلّمَتْ ... تقديمَهُ الرُّسُلُ الكرامْ
في حضرةٍ للقُدْسِ وا ... فَاها بِعِزٍّ واحترامْ
صفّوا وصَلّوا خلفَه ... إنّ الجماعةَ بالإمامْ
للشُّهْبِ نورٌ بَيِّنٌ ... والفضلُ للقَمَرِ التّمامْ
سِلْكُ النُّبوّةِ باهرٌ ... وبأحمدٍ خُتِمَ النظامْ
هذا الكتابُ دلالةٌ ... تبقى إلى يومِ القيامْ
شهِدَتْ له من بعدِ عجـ ... زٍ ألسنُ اللُّدِّ الخصامْ
خَيْرُ الوَرَى وأجلُّ آ ... ياتٍ له خيرُ الكلامْ
فَعَلَيْهِ من ربّ الورى ... أزكى صلاةٍ مَعْ سلامْ

وربّما يقول من يقف على سَرْد هذه الأمداح النبوية : إلى متى وهذا الميدان تكلّ فيه فرسان البديهة والرَّوِيّة ؟ فأنشده في الجواب ، قولَ بعض من أمّ نهج الصّواب :

لأديمنّ مديحَ المُصْطَفى ... فِعْلَ مَنْ في الله قوّى طَمَعَهْ
فَعَسَى أنْعَمُ في الدُّنيا بِهِ ... وعَسَى يحشرني اللهُ مَعَهْ

وإذا كان القريضُ في بعض الأحيان كذباً صُرّاحا ، والموفّق مَنْ تركه والحالة هذه رغبةً عنه وله اطّراحا، فخيره ما كان حقّاً وهو مدح الله ورسوله ، وبذلك يَحْصُل للعبد منتهى سُولِهِ :

ليس كلُّ القريض يقبلُه السمـ ... عُ وتُصْغي لذكره الأفهامُ
إنّ بعضاً منَ القريضِ هراء[1] ... ليس شيئاً ، وبعضُهُ أحكامُ

١ ق : إن بعض القريض تلقاه هزءاً ؛ ك : ما كان هزءاً ؛ ط : يلشا هراء .

وأجلُّ الكلامِ ما كان في مد ح ِ شفيعِ الورى عليه السّلامُ
طيّبَ العَرْفِ دائمَ الذكرِ لا تأ تي الليالي عليه والأيامُ
مثل زَهْرٍ قد شُقّ عنه كمامٌ أو كمسكٍ قد فُضّ عنه خِتامُ
ليس تحصَى صفاتُ أحمدَ بالعدّ كما لَمْ تُحِطْ بها [1] الأوهامُ
ولَوَ انّ البحارَ حبرٌ وما في الـ أرض من كلِّ نابتٍ أقلامُ
فطويلُ المديحِ فيهِ قصيرٌ وحُسَامٌ ماضٍ لديه كَهَامُ
ولسانُ البليغ للعِيّ يُنْمى وكذا صَيِّبُ الفصيحِ جَهَامُ
كيفَ يُحصى مديحُ مولًى عليه الـ له أثنى وذِكْرُهُ مُستدامُ
وله المعجزاتُ والآيُ تبدو لا يغطّي وجوهَهنّ لِثَامُ
فمن المعجزاتِ أنْ سار ليلاً وجميعُ الأنامِ فيهِ نيامُ
راكباً للبرَاقِ حتى أتى القُد سَ وفيه رُسْلُ الإله الكرامُ
فاستَوَوْا خلفَه صفوفاً وقالوا صلِّ يا أحمدٌ فأنتَ الإمامُ
فعليه من ربّه صَلَوَاتٌ زاكياتٌ مع صَحبه وسلامُ

* * *

[عود إلى مصر ثم إلى القدس]

ثم رجعت إلى القاهرة ، وكرّرت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة ، فدخلت لهذا التاريخ الذي هو عام تسعة وثلاثين [2] وألف مكةَ خمس مرات ، وحصلت لي بالمجاورة فيها المسرّات ، وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة ، والله يجعل أيام العمر بالعود إليها مَديدة ، ووفدت على طَيْبَة المعظّمة مُيَمّماً مناهجها السديدة ، سبع مرار ، وأطفأت بالعود إليها ما بالأكباد الحرار ، واستضأت

١ ق ك ط : به .
٢ هامش ط : كذا في الأصل والصواب عشرين ليوافق ما تقدم له .

بتلك الأنوار ، وألَّفْتُ بحضرته صلى الله عليه وسلم بعضَ ما منّ الله به عليَّ في ذلك الجوار ، وأمْلَيْتُ الحديثَ النبوي بمَرْأى منه عليه الصلاة والسلام ومَسْمع ، ونلت بذلك وغيره – ولله المنّة – ما لم يكن لي فيه مَطْمح ولا مطمع ، ثم أبْتُ إلى مصر مفوّضاً لله جميعَ الأمور ، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور ، وكان عَوْدِي من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة[١] ، فتحركتْ همتي أوائلَ رجب هذه السنة للعَوْد للبيت المقدس ، وتجديد العهد بالمحلّ الذي هو على التقوى مؤسس ، فوصلتُ أواسط رجب ، وأقمت فيه نحو خمسةٍ وعشرين يوماً بَدا لي فيها بفضل الله وجهُ الرشد وما احتجب ، وألقيت عدةَ دروسٍ بالأقصى والصخرة المنيفة ، وزُرْتُ مقامَ الخليل ومن معه من الأنبياء ذوي المقاماتِ الشريفة ، وكنتُ حقيقاً بأن أنشد قولَ ابن مَطْروح[٢] ، في ذلك المقام الذي فَضْلُه معروف وأمره مشروح :

خليلَ الله قد جئناكَ نرجو ... شفاعتَكَ التي ليست تُرَدُّ
أنِلْنا دعوةً واشفعْ تُشَفَّعْ ... إلى من لا يخيبُ لديه قصدُ
وقلْ يا ربّ أضيافٌ ووَفْدٌ ... لهُمْ بمحمّدٍ صِلةٌ وعَهْدُ
أتَوا يستغفرونك من ذنوبٍ ... عِظامٍ لا تُعَدُّ ولا تُحَدُّ
إذا وُزِنَتْ بيَذْبُلَ أو شمامٍ ... رجحن ودونها رَضْوَى وأُحْدُ
ولكنْ لا يضيقُ العَفْوُ عنهم ... وكيف يضيقُ وَهْوَ لهم مُعَدُّ
وقد سألوا رضاكَ على لساني ... إلهي ما أُجيبُ[٣] وما أرُدُّ
فيا مولاهُمُ عَطْفاً عَلَيْهِمْ ... فهُمْ جَمْعٌ أتوك وأنت فَرْدُ

* * *

١ هامش ق : فيه ما فيه من المغايرة بين التاريخين ، فانظر .
٢ هو جمال الدين يحيى بن عيسى (– ٦٤٩) شاعر مصري خدم الصالح أيوب وديوانه مطبوع (انظر وفيات الأعيان ٥ : ٣٠٢ والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٧) .
٣ ق ج : أخيب .

[الرحلة إلى دمشق]

ثم استوعبت أكثر تلك المزارات المباركة كمَزَار موسى الكَليم ، على نبيّنا وعليهم وعلى سائر المرسلين والأنبياء أجمعين أفضَلُ الصلاة والتسليم ، ثمّ حَدَثَ لي منتصفَ شعبان ، عزمٌ على الرحلة إلى المدينة التي ظهر فضلها وبان ، دِمَشْق الشام ، ذاتِ الحسن والبهاء والحياء والاحتشام ، والأدواح المتنوّعة ، والأرواح المتضوّعة ، حيث المشاهدُ المكرّمة ، والمعاهدُ المحترمة ، والغُوطةُ الغنّاء والحديقة ، والمكارمُ التي يُبَاري فيها المرء شانئه وصديقه ، والأظلالُ الوَرِيفة والأفنان الوريقة ، والزهر الذي تخاله مَبْسِماً والندى ريقه ، والقُضْبانُ المُلْدُ ، التي تشوق رائيها لجنّة الخلد :

بحيثُ الروضُ وَضّاحُ الثنايا أنيقُ الحسنِ مَصْقولُ الأديمِ

وهي المدينة المستولية على الطباع ، المعمورة البقاع ، بالفضل والرباع :

تَزِيدُ على مرّ الزمانِ طَلاوَةً دِمَشْقُ التي راقت بحُلْو المشاربِ
لها في أقاليم البلادِ مشارقٌ مُنَزّهةٌ أقمارُهَا عن مغاربِ

ودخلتها أواخرَ شعبان المذكور ، وحُمِدَتِ الرحلةُ إليها وجعلها اللهُ من السعي المشكور :

وجدتُ بها ما يملأُ العينَ قُرّةً ويُسْلِي عن الأوطانِ كلَّ غريبِ

وشاهدت بعض مغانيها الحسنة ، ومبانيها المستحسَنة :

نزلنا بها نَنْوِي المقامَ ثلاثةً فطابت لنا حتّى أقمنا بها شهرا

ورأينا من محاسنها ما لا يستوفيه من تأنّقَ في الخطاب ، وأطال في الوصف

وأطاب ، وإن ملأ من البلاغة الوِطاب ، كما قلت[1] :

محاسنُ الشام أجْلى من أن تسام[2] بحدٍّ
لولا حمى الشرع قلنا ولم نقفْ عِنْدَ حَدٍّ :
كأنّهـــا معجزاتٌ مقرونةٌ بالتحـــدّي

فالجامعُ الجامع للبدائع يبهر الفِكَر ، والغُوطة المنوطة بالحسن تسحر الألباب لا سيما إذا حيّاها النسيم وابتكر :

أحبُّ الحِمى من أجل مَنْ سكن الحِمى حَدِيثٌ حديثٌ في الهوَى وقَدِيمُ

فللّه مرآها الجميلُ الجليل ، وبيوتُها التي لم تخرجْ عن عَروض الخليل ، ومخبرها الذي هو على فضلها وفضلِ أهلها أدلُّ دليل ، ومنظرها الذي ينقلب البصرُ عن بهجته وهو كَليل :

والروضُ قد راق العيونَ بحُلّة قَدْ حاكَها بسَحابه آذارُ
وعلى غصونِ الدَّوْح خُضْرُ غلائلٍ والزهْرُ في أكْمامه أزرارُ

فكم لها من حسن ظاهر وكامن ، كما قلت موطِّئاً للبيت الثامن :

أمّا دِمَشْقُ فخضرةٌ[3] لعبتْ بألبابِ الخلائقْ
هِيَ بهجةُ الدُّنيا التي مِنْها بديعُ الحسنِ فائقْ
لله مِنْها الصالحيّـ ـةُ فاخَرَتْ بذوي الحقائقْ
والغُوطَةُ الغنّاء حَيّـ ـتْ بالورود وبالشقائقْ
والنهرُ صافٍ والنسيـ ـمُ اللّدْنُ للأشواقِ سائقْ

---

١ الأبيات في خلاصة الأثر ١ : ٣٠٦ .
٢ خلاصة الأثر : تقاس ؛ ك : تحاط .
٣ ك : فجنة .

والطيرُ بالعيدانِ أبـ ـدتْ في الغنا أحلى الطرائقْ
ولآلىء الأزهارِ حلّـ ـتْ جيدَ غُصْنٍ فهو رائقْ
ومرَاوِدُ الأمطارِ قد كُحِلَتْ بها حدقُ الحدائقْ
لا زال مغناها مصو نًا آمناً كلَّ البوائقْ

وكما قلت مرتجلاً أيضاً مضمّناً الرابع والخامس :

دمشقُ راقتْ رُوَاءً وبهجـــةً وغَضَارهْ
فيها نسيمٌ عَليلٌ صحّ فوافتْ بشارهْ
وغُوطَةٌ كعروسٍ تُزْهى بأعجبِ شَارَهْ
يا حُسنها من رياضٍ مثل النّضار نَضَارهْ
كالزهرِ زهراً وعنها عَرْفُ العبيرِ عِبَارَهْ
والجامعُ الفردُ منها أعْلى الإلهُ مَنَارهْ
وحاصلُ القول فيها لمَن أرادَ اختصارَهْ
تذكيرُها من رآها عَدْناً وحَسْبي إشارهْ
دامتْ تفوقُ سواها إنَالَـــةً وإنارهْ

وكما ارتجلت فيها أيضاً [١] :

قال لي ما تقولُ في الشام حَبْرٌ كلّما لاحَ بارقُ الحسنِ شامَهْ
قلتُ ماذا أقول في وَصْفِ قُطْرٍ هُوَ في وَجْنَةِ المحاسنِ شامَهْ

وقلت أيضاً :

قال لي صِفْ دمشقَ مَوْلًى رئيسٌ جمّلَ الله خَلْقَهُ واحتشامَهْ
قُلتُ كَلَّ اللسانُ في وصفِ قُطرٍ هُوَ في وجنة البسيطةِ شامَهْ

---

١ أبيات المقري هذه في خلاصة الأثر (١ : ٣٠٦) .

وقلت أيضاً :

وإذا وصفْتَ محاسنَ الدُّنيا فلا   تبْدأ بِغَيْر دمشقَ فيها أوّلا
بلدٌ إذا أرسلتَ طَرْفَكَ نحوه   لم تلقَ إلاّ جَنّةً أو جَدْوَلا
ذا وصفُ بعضِ صفاته [1] وهي التي   تُعيي البليغَ [2] وإن أجادَ وطوّلا

والغاية [3] في هذا الباب، من الوصف لبعض محاسنها الفاتنة الألباب، قولُ أبي الوَحْش سَبُعِ [4] بن خلف الأسدي يصف أرضَها المشرقة، ورياضها المورقة، ونسيمَها العليل، وزهرها النديّ [5] البَليل [6] :

سقى دمشقَ الشام غيثٌ مُمْرِعٌ   من مُستهلّ ديمةٍ دَفّاقِها
مدينةٌ ليس يُضَاهى حُسْنُها   في سائرِ الدُّنيا ولا آفاقِها
تودُّ زوراءُ العراقِ أنّها   تُعْزَى إليها لا إلى عِرَاقِها
فأرضُها مثلُ السماء بهجةً   وزهرُها كالزُّهْرِ في إشراقِها
نسيمُ ريّا روضِها متى سَرَى   فكّ أخا الهمومِ منْ وَثاقِها [7]
قدْ ربَعَ الربيعُ في ربوعها   وسيقتِ الدُّنيا إلى أسواقِها
لا تسأمُ العيونُ والأنوفُ مِنْ   رؤيتها يوماً ولا انتشاقِها

---

١ ك : صفاتها .
٢ ك : يعيا البليغ .
٣ ق : والغاية القصوى .
٤ في جميع النسخ : سبعي .
٥ الندي : سقطت من ك .
٦ هذه الأبيات من قصيدة في الخريدة (قسم الشام ١ : ٢٤٨) منسوبة لفتيان بن علي الشاغوري ووردت في رحلة ابن بطوطة ١ : ٨٦ لسبع بن خلف وهو الأديب أبو الوحش أحد شعراء الخريدة (قسم الشام ١ : ٢٤٢) .
٧ سقط البيت من ق .

وقول شمس الدين الأسدي الطيبي :

إذا ذُكِرَتْ بقاعُ الأرض يوماً فقُلْ سَقْياً لِجِلّقَ ثم رَعْيا
وقلْ في وصفها لا في سواها : بها ما شئتَ من دينٍ ودُنيا

وكأن لسان الدين ذا الوزارتين بنَ الخطيب ، عنّاها بقوله المصيب :

بلدٌ تحفُّ به الرياضُ كأنّه وجهٌ جميلٌ والرياضُ عِذارُهُ
وكأنّما واديهِ معْصَمُ غادةٍ ومن الجُسُورِ المحكماتِ سوارُهُ

وكنت قبل رحلتي إليها ، والوفادة[1] عليها ، كثيراً ما أسمع عن أهلها زاد الله في ارتقائهم ، ما يشوّقني إلى رؤيتها ولقائهم ، ويُنْشقني على البعد أريجَ الأدب الفائق من تلقائهم ، حتى لقيتُ بمكةَ المعظّمة ، أوحدَ كبرائها الذين فرائدهم بِلَبّة الدهر منظّمة ؛ عينُ الأعيان ، وصدرُ أرباب التفسير بها والبيان ؛ صاحبُ القلم الذي طبّقَ الكلى والمفاصل ، والفتاوى التي حكمها بين الحق والباطل فاصل ، والتآليف التي وَصْفُها بالإجادة من باب تحصيل الحاصل ؛ وارثُ العلم عن غير كَلالة ؛ ذو الحسب المُشرق بدْرُه في سماء الجلالة ؛ صاحب المعارف التي زانت خلاله ، وساحب أذيال العوارف التي أبانت على[2] فضله دَلالة ، مفتي السلطان في تلك الأوطان ، على مذهب الإمام النُّعمان ، مولانا الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام عماد الدين[3]، لا زالَ سالكاً سبيل المهتدين ؛ فكان جمّلَ الله به عصراً وأواناً ، لقضية هذا القياس عنواناً ، فلمّا حَلَلْتُ بدارهم ، ورأيت ما أذهلني من سَبْقهم للفضل وَبِدارهم ، صَدّقَ الخُبْرُ الخبَرَ[4] ، وتمثّلت

١ ك : ووفادتي .
٢ ك : عن .
٣ هو عبد الرحمن العمادي الدمشقي (– ١٠٥١) . (انظر خلاصة الأثر ٢ : ٣٨٠ – ٣٨٩)
٤ الخبر : سقطت من ك .

فيهم بقول بعض من غَبَرَ :

أَلَمَّتْ بِنا أوصافُهم فامتلا الفضا عَبيراً وأَضْحى نُورُهُ متألّقا
وقد كانَ هذا مِنْ سماع حديثهم بلاغاً فصحَّ النقْلُ إذ حصل اللّقا

وقابلوني أسماهم الله بالاحتفال والاحتفاء ، وعرّفني بديعُ بِرّهم فنَّ الاكتفاء :

غمرتْني المكارمُ الغُرُّ منهمْ وتوالَتْ عليّ مِنْها فنونُ
شَرْطُ إحسانِهِمْ تحقّقَ عِندي لَيْتَ شِعري الجزاء كيف يكونُ

وقابلوني بالقَبول مُغْضين عن جهلي[1] :

وما زال بي إحسانُهُمْ وجميلهُمْ وبِرّهُمُ حتى حَسِبتهمُ أهلي

بل الأولى أن أتمثّل فيهم بما هو أبلغُ من هذا المقول في آل المهلّب ، وهو قول بعض مَنْ نزل بقومٍ بَرْقُ قَصْدهم غير خُلّب ، في زمن به تقلّب[2] :

ولمّا نَزَلْنا في ظِلال بُيُوتهم أمِنّا ونلنا الخِصْبَ في زمن محلٍ[3]
ولو لَمْ يَزِدْ إحسانُهم وجميلُهم على البر من أهلي حسبتهمُ أهْلي

لا سيّما المولى الذي أمداحه تُحلّي أجيادَ الطّروسِ العاطلة ، وسَماحُه يُخجلُ أنواء الغيوثِ الهاطلة ، صدرُ الأكابرِ الأعاظم ، الحائز قَصَبِ السَّبْق في ميْدان الإجادة بشهادة كل ناثر وناظم ، الصديقُ الذي بودّه أغتبط ،

---

١ أحد بيتين حماسيين ، والأول منهما (المرزوقي ١ : ٣٠٢) :

نزلت على آل المهلب شاتياً غريباً عن الأوطان في زمن محل

٢ البيتان للقاضي الرشيد أحمد بن علي الأسواني (انظر الوافي ٧ الورقة ١٠٧) .

٣ ك : المحل .

والصَّدُوقُ الذي بأسباب عَهْده أرتبط ، الأوحدُ الذي ضربتِ البراعةُ رِوَاقَها بناديه ، والماجدُ الذي لم يزل بديعُ البلاغة من كَثَبٍ يناديه ، السريُّ الحائز من الخلال ما أبان تفضيله ، اللَّوْذعيُّ الذي لم تزل أوصافُه تحكم له بالسؤدد وتقضي له ، والحقُّ أبلج لا يحتاج إلى زيادة بَرَاهين ، الأجلُّ المولى أحمد أفندي بن شاهين[1] ، لا زالت العزةُ مُقيمةً بِوَادِيه ، ولا برحَتْ حضرتُه جامعةً لبواطن الفخر وبَوَادِيه ، والسَّعدُ يراوحُ مقامه ويُغاديه ، والمجدُ يترنَّم بذكره حاديه ، فكم له أسماه الله ولغيره من أعيان دمشق لديَّ من أياد ، يعجز عن الإبانة عنها لو أراد وصفَها قُسُّ إياد ، ولو تعرضتُ لأسمائهم وحُلاهم ، أدام الله تعالى سعودهم[2] وعُلاهم ، لضاق عن ذلك هذا النِّطاق ، وكان من شِبْهِ التكليف بما لا يطاق ، فليتَ شعري بأيِّ أسلوب ، أؤدي بعضَ حقهم المطلوب ؟ أم بأيِّ لسان ، أثني على مزَايَاهم الحسان ؟ وما عسى أن أقول في قوم تَسَقَّوا الفضائلَ وِلاء ، وتعاطَوْا أكوابَ المحامد وَلاء[3] ؟ وسحبوا من المجد مَطارف ومُلاء ، وحازوا المكارمَ ، وبَذُّوا المُوادِدَ والمُصارِمَ ، سؤدداً وعلاء :

فَمَا رِياضُ زَهَرِ الرَّبيعِ إذا بَدَتْ في وَشْيِها البديعِ
ضاحكةً عن شَنَبِ الأقاحِ عِندَ سُفورِ طَلْعَةِ الصَّبَاحِ
غَنَّى بِها مُطَوَّقُ الحَمامِ وصافَحَتْهـا راحَـةُ الغمامِ
وباكَرَتْها نَسْمَةٌ مِنَ الصَّبَا فأصْبَحَتْ كأنَّها عَهْدُ الصِّبَا
نَضارةً ورَوْنَقـاً وبَهْجَـهْ تُفْدَى بكلِّ ناظرٍ ومُهْجَهْ

---

١ ـ أصل والده من جزيرة قبرس وتتلمذ أحمد على عبد الرحمن العمادي وغيره وهو إلى شهرته بالشعر كاتب مترسل وكان يدرس بالجقمقية ولما ورد المقري دمشق أنزله فيها ، وبينهما مطارحات ومراسلات ستأتي في الباب الخامس ؛ توفي سنة ١٠٥٣ (انظر خلاصة الأثر ١ : ٢٠) .

٢ ك : سؤددهم .

٣ ك : ملاء .

أطْيَبُ من ثنائهم عَبيرا بينَ الوَرَى ، واسألْ به خَبيرا
دامَتْ مَعَاليهم على طول الزَّمَنْ يُروَى حديثُ الفضلِ عنها عَنْ حسَنْ
وثابِتٍ وقُرَّةٍ وسَعْدِ وأسْعِفُوا بنيلِ كلّ وَعْدِ

فهم الذين نَوَّهوا بقدري الخامل ، وظنّوا مع نقصي أن بحرَ معرفتي وافرٌ كامل ، حسبما اقتضاهُ طبعهم العالي :

فلو شَرَيْتُ بعُمْري ساعةً ذهبَتْ من عيشتي معهم ما كان بالغالي

فمتعيّنٌ حقّهم لا يُتْرَك ، وحُبّهم لا يخالَطُ بغيره ولا يُشْرَك ، وإن أطلتُ الوصفَ فالغاية في ذلك لا تُدْرَك :

يَزدادُ في مَسْمَعي تَردادُ ذكرهِمُ طيباً ويحسُنُ في عيني مُكَرَّرُهُ

وإذا كان المديح الصادق لا يزيدهم رفعة قدر ، فهم كما قال الأعرابي الذي ضَلّتْ ناقته في مدح البدر[1] ، والبليغ وذو الحَصَر في ذلك سيّان ، والحق أبلجُ ، والباطل لَجْلَج ، وليس الخبر كالعيان :

هَبِ الرَّوْضَ لا يُثني على الغيثِ نَشرُهُ أتحسبُهُ تخفى مآثرُه الحُسنَى

وقد تذكرتُ بلادي النائيه ، بذلك المرأى الشاميّ الذي يَبْهَرُ رائيه ، فما شئتَ من أنهارٍ ذاتِ انسجام ، أُتْرِعَ بها من جِرْيال الأنس جام ، وأزهارٍ متوّجة للأدواح ، مُرَوّحةٍ للنفوس بعاطرِ الأرواح ، وحدائقَ تُعْشي أنوارُها الأحداق ، وعيانها للخبر عنها مِصْداق وأيّ مصداق :

١ يشير إلى قول الأعرابي للقمر :
ماذا أقول وقولي فيك ذو حصر وقد كفيتني التفصيل والجملا
إن قلت لا زلت مرفوعاً فأنت كذا .. أو قلت زانك ربي فهو قد فعلا

فهيَ التي ضَحِكَ البهارُ صباحَها وَبكَتْ عشيتَها عيونُ النرجسِ
واخضَرَّ جانبُ نهرها فكأنَّهُ سَيفٌ يُسلُّ وغمدُه من سُندُسِ

وجنان ، أفنانُها في الحُسن ذوات افتنان :

صافحَتْها الرياحُ فاعتنق السَّرْوُ وَمالَتْ طِوالُه للقِصارِ
لائذٌ بعضُهُ ببعضٍ كقومٍ في عتابٍ مُكَرَّرٍ واعتذارِ

وبِطاح راقَ سناها ، وكَمُلَ حُسنها وتناهى ، كما قلت مضمّناً في ذلك المنحى ، لقول بعض من نال في البلاغة منّاً ومنحا :

دِمَشْقٌ لا يُقاسُ بها سواها ويمتنعُ القياسُ مع النّصُوصِ
حُلاها راقتِ الأبصارَ حُسْناً على حكمِ العُمومِ أوالخُصوصِ
بِساطُ زمرّدٍ نُثِرَتْ عَلَيْه من الياقوت ألوانُ الفُصُوصِ

ولله درُّ القائل ، في وصفِ تلك الفضائل[1] :

إن تَكُنْ جنّةُ الخلود بأرضٍ فدمَشْقٌ، ولا يكون سِوَاها
أو تكنْ في السماء فَهْيَ عليها قد أمدّت هَواءها وهواها
بَلَدٌ طيّبٌ وربٌّ غَفورٌ فاغْتَنِمْها عشيّةً أو ضُحاها

وعند رؤيتي لتلك الأقطار ، الجليلةِ الأوصافِ العظيمةِ الأخطار ، تفاءلتُ بالعَوْد إلى أوطانٍ لي بها أوطار ، إذ التشابه بينهما قريبٌ في الأنهار والأزهار ، ذاتِ العَرْف المِعْطار ، وزادتْ هذه بالتقديس الذي هَمَعَت عليها منه الأمطار ، وتمثلتُ بقول الأصفهاني ، وإن غيرتُ يسيراً منه لما أسفرت وجوه التهاني[2] :

١ انظر رحلة ابن بطوطة : ٨٤ .

٢ بعض هذا الشعر ورد في قصة رواها الحميدي في الجذوة : ٦٨ .

لمّا وَرَدْتُ الصَّالحيّةَ حيثُ مُجْتَمَعُ الرِّفاقِ [1]
وشمِمْتُ من أرضِ الشآمِ نسيمَ أنفاسِ العِرَاقِ
أيقَنْتُ لي ولمن أحبُّ بجَمْعِ شملٍ واتّفاقِ
وضحكتُ مِنْ فرَحِ اللّقاءِ كما بكيتُ مِنَ الفِراقِ
لَمْ يَبْقَ لي إلاّ تجشُّمُ أزمُنِ السّفرِ البواقي
حتّى يَطولَ حديثُنا بصفاتِ ما كنّا نلاقي

وكنت قبل حلولي بالبقاع الشامية مُولَعاً بالوطنِ لا سواه ، فصار القلب بعد ذلك مُقَسَّماً بهواه :.

ولي بالحِمى أهلٌ وبالشِّعْبِ جيرةٌ وفي حاجرٍ خِلٌّ وفي المنحنى صَحْبُ
تَقَسَّمَ ذا القلبُ المتيَّمُ بينَهُمْ سألتكمُ بالله هل يُقْسَمُ القلبُ

فيا لك من صَبٍّ مُراعٍ للذمام ، منقادٍ لشوقه بزمام ، يخيَّلُ له أنه سمع صَوْتَ قيان ، بقول الأول :

إلى اللهِ أشكو بالمدينة حاجَةً وبالشامِ أخرَى كيف يلتقيانِ

وفردٍ تعدّدت جموعُه ، وَوَشَتْ ، بما أكنّتْ ضلوعُه ، دموعُه ، فأنشد وقد تحير ، ما بدّل فيه من عظم ما به وغيَّر :

كتمتُ شأن الهوَى يوم النوى فوَشَى بسرِّه من جُفوني أيُّ نَمّامِ
كانت لَيالِيَّ بِيضاً في دنوّهِمُ فلا تسَلْ بَعْدهم عن حالِ أيّامي
ضَنيتُ وَجداً بهِم والناسُ تحسبُ بي سُقْماً فأُبْهِمَ حالي عندَ لُوّامي
وليس أصْلُ ضَنَى جسمي النحيلِ سِوَى فَرْطِ اشتياقي لأهلِ الغَرْبِ والشامِ

---

[1] الأصل : لما وردنا القادسية ، وغيره المؤلف ليوافق ما أراد من مدح دمشق . وكذلك غير في البيت التالي « وشممت من أرض الحجاز » .

وحصل التحير ، حيث لم يمكن الجمع ولا الخلوّ عند التخير ، كما قال ابن دقيق العيد[1] ، في مثل هذا الغرض البعيد[2] :

إذا كنتُ في نَجْدٍ وطيبِ نَعيمه تذكّرْتُ أهلي باللّوى فمُحَسَّرِ
وإنْ كنتُ فيهم زِدتُ شوقاً ولَوْعَةً إلى ساكني نَجْدٍ وعيلَ تَصبُّري
فقد طال ما بين الفريقَيْنِ مَوْقفي فمن لي بنَجْدٍ بين أهلي ومعشري

وبالجملة فالاعتراف بالحق فريضة ، ومحاسنُ الشام وأهله طويلةٌ عريضة ، ورياضُه بالمفاخر والكمالات أريضة ، وهو مقرّ الأولياء والأنبياء ، ولا يجهل فضله إلاّ الأغمار الأغبياء ، الذين قلوبهم مريضة :

أنّى يرَى الشَمْسَ خُفّاشٌ يلاحِظُها والشمسُ تَبْهَرُ أبصارَ الخَفافيشِ

ولله درُّ من قال في مثل هذا من الأرضياء :

وَهَبْني قلتُ إنَّ[3] الصبحَ ليلٌ أيَعْمَى العالمون عنِ الضّياء

وقال آخر فيمن عن الحق ينفر :

إذا لم يكنْ للمرء عَيْنٌ بصيرةٌ فلا غَرْوَ أن يرتابَ والصُّبْحُ مسفرُ

وحَسْب الفاضل اللبيبِ ، أن يروي قول البدر بن حبيب[4] :

---

١ هو محمد بن علي بن مطيع القشيري المشهور بابن دقيق العيد (- ٧٠٢) كان عالماً فقيهاً (راجع ترجمته في الطالع السعيد : ٢٢٩ ومسالك الأبصار ٣ : ٤٣٣ وطبقات السبكي ٦ : ٢ وتذكرة الحفاظ : ١٤٨١) .

٢ لم ترد الأبيات في مجموعة شعره الملحقة بدراسة الأستاذ علي صافي حسين عنه .

٣ ك : هذا .

٤ هو بدر الدين الحسن بن حبيب الحلبي (- ٧٧٩) ولد في دمشق وانتقل إلى حلب ثم إلى مصر ، ثم عاد يتنقل في بلاد الشام وله عدة مؤلفات (الدرر الكامنة ٢ : ٢٩) .

عَرِّجْ إذا ما شِمْتَ برقَ الشآمْ　　وحَيِّ أهْلَ الحيِّ وَاقْرَ السلامْ
وانزلْ بإقليمٍ جزيلٍ الحَيا　　باركَ فيه اللهُ رَبُّ الأنام
العزُّ والنصرُ لديه ، وَما　　لعُرْوَة الإسلام عنه انْفِصام
من أولياء الله كم قد حَوَى　　رُكْناً بمرآهُ يطيبُ المُقام
وَهْو مَقَرُّ الأنبياء الأُلى　　والأصْفِياء الأتقياء الكرام
كم من شهيدٍ في حِماهُ وكم　　من عالمٍ فَرْدٍ وكم من إمام

ولذلك اعتنت الجهابذة بتخليد أخباره في الدواوين ، وابتنت الأساتذة بيوتَ افتخاره المنيفة الأواوين ، وتناقلت أنباءه البديعة ألْسُنُ الراوين ، وهامت بأماكنه المَريعة هُداةُ الشريعة فضلاً عن الشعراء الغاوين ، ومع ذلك فهم في التعبير عن عجائبه غيرُ متساوين ، أوَلا يرى أنهم يأتون من مَقُولهم ، على قدر رأيهم وعقولهم ، ولم يبلغ جمعٌ منهم ما كانوا له ناوين :

على قدرِكَ الصَّهباءُ توليكَ نشوةً　　بها سيء أعداءٌ وسُرَّ صِحابُ
ولو أنها تُعْطيكَ منها بقدرها　　لضاقَتْ بك الأكوانُ وَهيَ رِحابُ

* * *

[ابن شاهين يقترح على المؤلف تأليف كتاب عن لسان الدين]

وكنا في خلال الإقامة بدمشق المحوطة ، وأثناء التأمّل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغُوطَة ، كثيراً ما ننظم في سلك المذاكرة درر الأخبار الملقوطة ، ونتفيأ من ظلالِ التبيان مع أولئك الأعيانِ في مجالسَ مَغْبوطة ، نتجاذبُ فيها أهدابَ الآداب ، ونشربُ من سَلْسال الاسْرسال ونتهادى لُباب الألباب ، ونمدّ بساطَ الانبساط ونسدلُ أطنابَ الإطناب ، ونقْضي أوطار الأقطار ، ونستدعي أعلام الأعلام ، فينجرُّ بنا الكلام والحديث شجون ، وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون ، إلى ذكرِ البلاد الأندلسية ، ووصفِ

رياضها السندسية ، التي هي بالحسن مَنُوطة ، وقضاياها الموجَّهة التي لا يستوفيها المنطق مع أنها ضرورية وممكنة ومشروطة ، والفِطَر[1] السليمة ، والأفهام المستقيمة ، بتسليم براهينها قاضيةٌ لا سيما إن كانت بالإنصاف مربوطة ، فصِرْتُ أورد من بدائع بُلَغائها ما يجري على لساني ، من الفيض الرحماني ، وأَسْرُدُ من كلام وزيرها لسانِ الدين بن الخطيب السَّلْماني ، صبَّ الله عليه شآبيبَ رحماهُ وبلّغهُ من رضوانه الأماني ، ما تُثيره المناسبة وتقتضيه ، وتميل إليه الطباعُ السليمة وترتضيه ، من النظم الجَزْل ، في الجدّ والهزل ، والإنشاء ، الذي يُدْهِشُ به ذاكِرُهُ الألبابَ إن شاء ، وتصرُّفِهِ في فنونِ البلاغة حالَتي الولايةِ والعزل ، إذ هو — أعني لسان الدين — فارسُ النظم والنثر في ذلك العصر ، والمنفردُ بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر ، وكيف لا ونظمه لم تستولِ على مثله أيدي الهَصْرِ ، ونثره تزري صورته بالخريدةِ ودُمْيَة القصر .

فلمّا تكرر ذلك غَيْرَ مرّةٍ على أسماعهم ، لهِجُوا به دون غيره حتى صار كأنّه كلمةُ إجماعهم ، وعَلِق بقلوبهم ، وأضحى منتهى مطلوبهم ، ومُنْية آمالهم وأطماعهم ، وصاروا يقطفون بيد الرغبة فنونه ، ويعترفون ببراعته ويستحسنونه ، ويستنشقون من أزهاره كلَّ ذاكٍ ، فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك ، وهو الماجد المذكور ، ذو السعي المشكور ، أن أتَصَدَّى للتعريف بلسان الدين في مُصَنَّف يُعرب عن بعض أحواله وأنبائه ، وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ، ومَفاخره التي قُلِّد بها جيدُ الزمان ولَبّتُه ، ومآثره التي أرِجَ بها مَسْرى الشّمال وهَبّتُه ، وبعض ما له من النّثار والنظام ، والمؤلفات الكبار العظام ، الرائقة للأبصار ، الفائقة على كلام كثير من أهل الأمصار ، السائرة مسير القمر والشمس ، المعقودة

---

[1] ق : والفطن .

عليها الخناصر[1] بل الخمس ، كيما يكون ذلك لهذه الأغراض مُشيعا ، ويخلع على مطالعه بهذه البلاد المشرقية من أغراضه البديعة ومنازعه وَشيعا .

* * *

[اعتذار المؤلف عن تلبيته للمطلب]

فأجبته أسْمى الله قدرَهُ الكبير ، وأدام عَرْفَ فضائله المُزْري بالعنبر والعَبير ، بأن هذا الغرض غير سهل ، ولست علِمَ الله له بأهْل ، من جهات عديدة ، أوّلها قصوري عن تحمل تلك الأعباء الشديدة ، إذ لا يوفّي بهذا الغرض إلا الماهِرُ بطرق المعارف السديدة ، وثانيها عدمُ تيسّرِ الكتب المستعان بها على هذا المرام لأنّي خلّفتها بالمغرب ، وأكثرها في المشرق كعَنْقاء مُغْرب ، وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة ، الجالبة للفكر غالب[2] الكُرْبة ، وتقسُّم البال ، بين شغل عائق وبلبال ، وأنّى يطيق ، سلوكَ هذا المضيق ، مَنِ اكتحلت جفونه بالسهاد ، ونَبَتْ جنوبه عن المِهاد ، وسدّد نحوه الأسفُ سَهْمه ، وشغل باله ووهمه ، وبث في قلبه تبريحاً ، وعناه لم يجد منه إلا أن يَلْطُفَ الله تَسْريحاً ، فما شام بارقةَ أملٍ إلا في النادر ، ولا وردَ منهلَ صفاء إلاّ وكدّره مَكْرُ غادر ، وقد كثر الجفاء ، وبَرِحَ بلا شكّ الخفاء ، واستَوْخَمَتِ المواردُ والمصادر ، والقلبُ مكلوم ، واللبّ[3] غير مَلُوم ، إذا كان على تلفيق ما يليقُ غيرَ قادر ، ولا مؤنس إلاّ شاكي دهر بلسان صريح ، أو باكي قاصمةِ ظَهْرٍ بجَفْنٍ قَريح ، أو مُناضل في معتركِ العجز طريح ، أو فاضل دُفن من الخمول في ضريح ، إذ رمته سهام الأوهام الصوائب ، وعَضّت منه إبهامَ

---

١ ك : المعقود . . . بالخناصر .

٢ ك : غاية .

٣ ك : وذو اللب .

الإبهام بنابيها النوى والنوائب ، فقلوبه من تقلُّباتِ أحواله ذوائب ، وكم شابت من أمثاله بصروف الدهر وأهواله ذوائب :

عَلى أنها الأيام قد صِرْنَ كُلُّها   عجائبَ حتى ليس فيها عَجائِبُ[1]

وَأدْمَعَ أحجارَها ، تسلّطُ فُجّارِها ، فكم من عدوّ منهم في ثياب صديق ، وحَسُود لنظره إلى نعم الله على عباده تحديق ، لا تخدعه المُدَاراة ، ولا تَرْدَعُهُ المماراة ، يتتبع العثَرات ، ويقنع بألم البثَرات ، ويتبسم ، وقلبه من الغلّ يتقسم ، ويتودد ، ومكايدُه تتجدّد فتتعدّد :

لا تَرُمْ من مماذِق الودّ خَيراً   فبعيدٌ من السّراب الشرابُ
رَوْنَقٌ كالحَبابِ يَعْلو على الما   ء ولكن تَحْتَ الحبَاب الحُبابُ
عَظُمَتْ في النفاق ألسِنةُ القَوْ   م وفي الألْسنِ العِذابِ العَذابُ

والصديقُ الصدوق في هذا الزمن قليل ، وقد ألفَ بعضُ العلماء « شفاء الغليل ، في ذم الصاحب والخليل »[2] . وهو غيرُ محمولٍ على الإطلاق ، وإن قال به بعضُ من رَهَنَهُ من أبناء عصره ذو إغلاق :

أبناء دَهْرِكَ فالقَهُمْ   مثلَ العِدَا بِسلاحكا
لا تغترِرْ بِتبسُّمٍ   فالسَّيْفُ يقتل ضاحكا

وداء الحسد أعيا الأوّل والآخر ، وقد عظم الأمرُ في هذا الأوَانِ وكثر المزري[3] والساخر ، مع أن أسواقَ الدفاتر كاسدة ، وأمزجة المحابر فاسدة :

---

١ البيت لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي .

٢ هذا الكتاب من تأليف علي بن ظافر الأزدي مؤلف كتاب « بدائع البداله » وغيره من الكتب ، وقد سماه في كشف الظنون « شفاء العليل » بالعين المهملة ، وقال إن السيوطي اختصره وسماه « الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب » ؛ وقد نشر المختصر بدمشق (١٣٦٨) .

٣ ك : المزدري .

والدهرُ دهرُ الجاهليـ ـنَ وأمرُ أهلِ العلم فاترْ
لا سُوق أكسَدُ فيه من سُوقِ المحابرِ والدفاترْ

فالمنسوبُ للعلم في هذا الزمن زَمِين ، وهو بأن ينشد قول الأول قَمِين :

لأيّ وَمِيضِ بارقةٍ أشِيمُ وَمرعى[1] الفضلِ عندهمُ هشيمُ

وليت شعري علامَ يُحسَدُ من أبدلَ الاغترابُ شارتَه ، وأضعف الاضطرابُ إشارتَه ، وأهلَ[2] بالدموع أنواءه ، وقلّل أضواءه ، وكثّر علله وأدواءه ، وغيّرَ عند التأمّل رُوَاءه ، وثنى عن المأمولِ عِنانَه ، وأرهفَ بالخمولِ سِنانَه ، حتى قدح الذكرُ حَنانَه ، وملأ الفكرُ جأشه وجَنانَه ، فهو في ميدانِ التروح مستبق ، ومن راحةِ التعب مصطبح ومغتبق :

له أنّةُ المشتاقِ في كلّ ساعةٍ تمرُّ وما للثاكلاتِ من الحُزْنِ
ومن مُرْسَلاتِ الدمع واقعةُ الأسى ومن عادياتِ البينِ قارعةُ السنّ

تثير الذكرى منه كوامنَ الشُّجُون ، وتدير عليه جامَ الهُيام ولو كان بين الصَّفا والحَجُون :

وتحتَ ضُلُوعِ المُستهامِ كآبة يخافُ على الأحشاء منها التفطّرَا
ولو أن أحشاء تبُوحُ بما حوَت لتمتلئنَّ الأرضُ كُتُباً وأسْطُرا

وشتّان ما بين الاقتراب والاغتراب ، والسكونِ في الركونِ والنبوّ عنها والاضطراب ، فذاك تسهلُ غالباً فيه الأغراض والمآرب ، وهذا تتعفّر فيه المقاصدُ وتتكدّرُ المشارب :

١ ك ط : ورعي .
٢ ك : وانهل .

وما أنا عن تَحْصِيل دُنيا بعاجزٍ ولكِنْ أرى تحصيلَها بالدنيّةِ
وإن طاوَعَتْني رقةُ الحالِ مَرَّةً أبَتْ فعلَها أخلاقُ نَفْسٍ أبيّةِ

وكما قلتُ ، عندما صرت إلى الاغتراب وأَلْتُ :

تركتُ رسومَ عِزِّي في بلادي وصِرْتُ بمصرَ مَنْسِيَّ الرسومِ
ورُضْتُ النفسَ بالتجريد زُهْداً وقلتُ لها عن العَلْياء صُومي
مخافةَ أن أرَى بالحرصِ ممن يكونُ زمانُهُ أحَدَ الخصومِ

وكما قال بعض الأكابر ، من أهل الزمان الغابر :

لا عارَ إن عَطِلَتْ يَدايَ من الغنى كم سابقٍ في الخيل غير مُحَجَّلِ
صان اللئيمُ ، وصُنْت وجهي، مالَهُ دوني ، فلم يبذلْ ولم أتبَذَّلِ
أبكي لهمٍّ ضافني متأوِّباً إنَّ الدموعَ قِرَى الهموم النُّزَّلِ
لا تُنْكِرُوا شيباً ألَمَّ بمَفْرِقي عجِلاً كأنَّ سَنَاهُ سَلّةُ مُنْصُلِ
فلقد دُفِعْتُ إلى الهموم تنوبني منها ثلاثُ شدائدٍ جُمِّعن لي
أسَفٌ على ماضي الزمانِ ، وحَيْرَةٌ في الحالِ منه ، ووَحْشَةُ المستقبلِ
ما إنْ وصَلْتُ إلى زمانٍ آخرٍ إلا بكيتُ على الزَّمانِ الأوّلِ
لله عهدٌ بالحمى لم أنْسَهُ أيام أعْصِي في الصبابة عُذَّلي

ويرحم الله ابن قلاقس الإسكندري[1] ، إذ قال في معنى التمني المصدري :

---

١ ابن قلاقس الإسكندري : هو نصر الله بن عبد الله بن علي الازهري (- ٥٦٧) كان كثير الرحلة ، دخل صقلية في حكم النورمنديين ثم توجه إلى اليمن وتوفي في عيذاب ، وكان مختصاً بالسلفي كثير المدائح فيه (انظر ترجمته في الخريدة ١ : ١٤٥ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٢٦ ووفيات الأعيان ٥ : ٢١ ومسالك الأبصار ١٢ : ٢٣) وقد نشر خليل مطران ديوانه وهذا المنشور لا يمثل إلا جانباً يسيراً من شعره . والأبيات التالية غير موجودة في هذا الديوان .

لعلّ زماني بالعُذَيْبِ يَعُودُ فيقرُبَ قربٌ أو يصدّ صُدُودُ
وأبصرَ كُثْباناً وهزَّ رَوَادفٍ عليهنّ أغصانٌ وهُنّ قُدُودُ
وأقطف وَرْدَ الخدّ وهو مُضَرَّجٌ وأجني أقاحَ الثغرِ وهو بَرُودُ
وأدني ذراعي للعِناق ذريعةً فتَنْهى عن الإفراط فيه نُهُودُ
ويَسْري إليّ البَدْرُ وهو مُمَنَّعٌ ويَغْدُو إليّ الظبيُ وهو شَرُودُ
ونكرع في شكوى الفراقِ كأنّنا فَوَارطُ هِيمٌ راقهنّ وُرُودُ
وأكبر مقدارَ الهوى عن كبيرةٍ وأحمي عفَافي دونَهُ وأذودُ

وفرق ما بين الجوهرِ والعَرَض ، والصحّةِ البيّنة والمرض ، والدُّرّ والحصى ، والحسامِ والعصا . والرجوعُ إلى التفويض للأقدار ، في أمورِ هذه الدار ، الكثيرة الأكدار ، هو المطلوبُ ، والمرجوُّ من الله سبحانه جَبْرُ القلوب :

يا ربّ نفّسْ هُمومي واكْشِفْ كُرُوبي جميعا
فقَدْ رَجَوْتُ كريماً وقَدْ دَعَوْتُ سَميعا

* * *

[إصرار ابن شاهين على رأيه]

ولم يجعل لي المذكور — حفظه الله — فسحةً ولا مندوحة ، بعد هذه الأعذار المحمودة في الصدق الممدوحة ، ولسانُ حالي وقالي ، يثبتان عجزي عن أداء هذا الحقّ بشهادة من هو وادٌّ وقالي ، إذ مَنْ كان بصفة ، غير متمكنة ممّا تكون به متصفة ، واتّسم بنعوتٍ مختلفة ، وارتسم في غير ذوي الأحوالِ المؤتلفة ، كيف يحير في التصنيف جواباً ، أو ينتحي من التأليف صواباً ؟ ومَنْ جَفْنه هامٍ هامل ، وقصورُه عامٌّ شامل ، كيف يقبضُ بالأنامل ، على ماء البحر الوافر الكامل ؟ ومَنْ لبس من العيّ مُلاه ، لا يعبّرُ عمّن طَبّق مفاصل

الكلام وكُلاه ، وقصرت ألسن البلغاء عن عُلاه ، وزانَتْ صدورَ الدواوين حُلاه ، وجمع خلالاً حِساناً ، وكان للدين لساناً ، وزاحمتْ مفاخرُهُ بالمناكبِ الكواكب ، وازدانت بمرآه النوادي والمواكب ، ونفحاتُ الأزهارِ من آدابه ، ونَسَماتُ الأسحارِ عِطْرُ أذياله وأهدابه ، والسِّحر من كتابته ، والسَّحَر من كنايته ، ورَوْحُ النسيم من تعريضه ، والنثرةُ من نثره ، والشِّعْرَى من شعره وقريضه ، وحُلَلُ المجدِ لباسُه ، وأنوار العلم اقتباسُه :

له ذِهْنٌ يَغُوص ُبِبَحْرِ علمٍ فيأتي مِنهُ بالدُّرِّ النظيمِ
مَعانيه الرياضُ ، لأجلِ هذا سَرتْ ألفاظُهُ مثلَ النسيمِ

ومباهيه النجوم ، ومُضاهيه الغَيْث السَّجوم ، إلى آباء يحسدهم البدر [1] والشمس ، وإباء لو كان للمشرَفيّ لما تحيّفه لَمْس ، وشرفٍ لا مُدَّعًى ولا مُنْتَحَل ، وهمّةٍ لو نالها البدر لاستخذى له زُحَل ، وبراعة أرهَفَتْ سنانَ قلمه ، ويراعةٍ سارت أمراؤها تحت عَلَمه ، فكم فَتَحَ بفكرهِ أقفالها ، ووَسَم بذهنه الثاقبِ أغفالها ، وسبَك معانيها في قالبِ قلبه إبريزاً ، ورَقَمَ بيانُ لسانه برود إحسانه بلفظه البديع تطريزاً ، فرَفَعَ في ميْدانِ الإجادةِ لواؤه ، وأُتيحَ من أنهار البراعة العذبة إرواؤه ، ونال سبقاً وتبريزاً :

وما زَمنُ الشّباب وأنتَ تَجْري مع الأحباب في لَهْوٍ وطِيبِ
ووَصلٍ من حبيبٍ بعد هَجْرٍ بأحْلى من كلام ابن الخطيبِ

فقصائده أرْخَصَتْ جواهرَ البحور ، المنظومةَ قلائد للَّبّات [2] والنحور ، من حسان العقائل الحور :

....

1 ك : القمر .
2 ك : في قلائد اللبات .

مَعانٍ وألفاظٌ تنظَّمُ منهما عقودُ لآلٍ في نُحُورِ الشمائل
وزهْرُ كَلامٍ كالحدائق نَسْجُهُ غَنِينا به عن حُسْن زَهْرِ الخمائل

وكلماته غدت للإبداع إقليداً ، وجَمَعَتْ طريفاً من البلاغة وتليداً :

كسون عَبِيداً ثيابَ العبيد وأضحى لبيدٌ لديها بَلِيدا

ومقطّعاته ألذُّ في الأسماع ، من مُطْرب السماع ، وأبهى في الأحداق والنواظر ، من الحدائق ذوات الأغصانِ المُلْد النوَاضر ، يعترف بفضلها من انتحلَ الإنصاف ديناً ، وانتخل الأوصافَ فاختار العدلَ منها خَدِيناً :

رَقِيقات المَقاطع مُحْكمات لوَ انَّ الشعر يُلْبَسُ لارْتُدِينا

ورسائله كنَقْط العروس اللائحة في البياض ، أو كوَشْي الربيع أو قِطَع الرياض ، برزت أغصانها الحالية وتبرجت ، وتضوّعت أفنانها العالية وتأرَّجَت ، وقد ألبسها القطر زَهَراً ، وفَجّر خلالها نَهَراً ، فأخذت زخرفها وازَّيَّنَتْ ، ولاحَتْ محاسِنها غير محتجبة وتبينتْ ، فبهرت من لها قابَلَ ، أستغفر الله لا بل :

هِيَ الحديقَةُ إلاّ أن صَيِّبَها صَوْبُ النُّهى وجَناها زهرة الكَلِمِ

وقوافيه ، ريشَتْ بها قوَادِمُ الإتقان وخَوافيه ، نبالُ مُجاريها تستدبر الحَصَر ، وباعُ مُباريها يستشعر القِصَر :

خَطُّها رَوْضَةٌ ، وألفاظها الأز هارُ يَضْحَكْنَ ، والمعاني ثِمارُ

تُبْدي لمبصرها وتُري ، ما قال أبو عبادة البُحتُري [1] :

وكلامٌ كأنّه الزهَرُ النا ضِرُ في رَوْنق الربيع الجَديدِ

---

١ الأبيات في ديوانه ١ : ٦٣٧ .

مُشْرِقٌ في جوانب السمع ما يخـ　لقه عَوْدُه على المستعيدِ
ومَعانٍ لو فصَّلَتْها القوافي　هجَّنَتْ ما لجَرْوَل من نَشيدِ [1]
حُزْنَ مستعمَلَ الكلام اختياراً　وَتجنَّبْنَ ظلمــةَ التعقيدِ

بل هي أجلُّ ممّا وصف عند التحقيق، وإمعان النظر الصحيح والتدقيق:

أيْنَ زَهْرُ الرياض وهْوَ إذا ما　طال عَهْداً بالغَيْثِ عادَ هشيما
مِنْ قوافٍ كأنّها الأنجمُ الزُّهْـ　رُ سناها زانَ الظلامَ البَهيما

وناهيك بمن أطلعته العلوم على جلائلها ودقائقها، وأرَتْه الفنونُ ما شاء من يانعاتِ حدائقها، وحَيَّتْهُ [2] الحِكَمُ الرياضيةُ بأزاهرها وشقائقها، وأرضعته الوزارة من ثُديِّها، وحلّتْ به الإمارةُ صدر نَديِّها، وجعلته المرجوعَ إليه في تمييز جيّد الأمور ورديّها، فغرَسَ في أرضِ الرياسة من نخل السياسة ووَدِيِّها [3]، وأعلى عَلَمَ العدل وأغمد سيفَ الانتقام، ودفع تنّينَ الفتنة الذي فَغَرَ فاهُ للالتقام، والعهدُ إذ ذاك قريب، في وطن الأندلس الغريب، باختلال الحال، وتوالي الإمحال، والتجرّي على قتل الملوك، والتحرّي لقَطْع الطرق ومنع السلوك، حيث أهواء المارقين ذاتُ افتراق، وضلوعُ الصادِقين في قَلَقٍ واحتراق، وأيدي الإحَن باطشة، وسيوفُ المحن إلى الدماء عاطشة، وعَرْش الحماية مثلول، وصارم الكفاية مَفلول، ونِطاقُ الرعاية محلول، ودم الوقاية مطلول [4]، وجَيْبُ النصيحة مَسْلول، والتَّنُّور السلطاني بنار اختلاف الكلمة ملتهب، والعدوُّ ينتهزُ الفرصةَ ويسلبُ [5] الأنفُسَ والأموال وينتهب،

---

١ ديوانه: هجنت شعر جرول ولبيد.
٢ ك ج: وحبته.
٣ الودي: فسيل النخل وصغاره.
٤ ك: ونطاق الرعاية مطلول.
٥ ك: ويستلب.

وليس له في غير قَطع شأفة المسلمين ابتغاء ، وإن عُقِدَ المهادنة في بعض الأحيان فهو يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء ، وكلابُ الباطل في دماء أهل الحق والغة ، ولله سبحانه وتعالى في خَلْقه إرادة نافذة وحكمة بالغة ، فرقع لسان الدين ثوب الأندلس ورَفاه ، وأرْغَم — رحمه الله — الكفر الذي فغر فاه ، وشَمَّر عن ساعد اجتهاده ، وحض باللسان وباليد على دفاعه وجهاده ، حتى لاحت للنصر بَوَارق ، وأمنت بالحزم الطوارىء والطوارق ، ثم ضرب الدهرُ ضَرَبانه ، وأحرق الحاسِدُ بنار أحقاده أنْضَرَ بانة ، وأظهر ما في قلبه على لسان الدين وأبانه ، وتقرّب الوشاة ، وهم ممّن كان يخدمه ويَغْشاه ، إلى سلطانه الذي كان عِزّةَ أوطانه الذي كان يأمنه ولا يخشاه ، حتى فَسَدَ عليه ضميرُه ، وتكدّر — ومَن يَسْمَعْ يَخَلْ — نَميرُه ، فأحسَّ بظاهر التغير ، وصار في الباطن من أهل التحير ، وأجال قِداح آرائه ، والتفت إلى جهة العدوّ من ورائه ، ففرّ مشمراً عن ذَيْله ، في لُمّةٍ من خيله ، إلى أسد العرين ، سلطان بني مَرين ، وكان إذ ذاك بتِلِمْسان ، وهو من أهل العلم والعدل والإحسان ، فاهتز لمَقْدمه ، ولقيه بخاصته وخدمه ، وأكرم مَثْواه ، وجعله صاحب نَجْواه ، ثم أدرك السلطانَ الحِمَام ، وكُسِفَ بدره وقتَ التمام ، فرجَع لسان الدين إلى فاس ، واستنشق بها أطْيَبَ الأنفاس ، وكثرت بعد ذلك الأهوال ، وتغيرت بسببه بين رؤساء العُدْوة والأندلس الأحوال ، فما نجا من مكر العدا ولا سلم ، وآل أمره من الاغتيال وما نَفَعَ الاحتيالُ إلى ما علم ، على يَدِ[1] بعض أعدائه ، الذين كانوا يتربصون الدوائرَ لإردائه ، فأصبح كأمْسِ الذاهب ، وصارت أموالُه وضِياعُه عُرْضَةً للناهب ، وغَصّ بذلك من كان من أودّائه ، وأخذ الله ثاره ، من بعض من حرّك عليه المكر وأثاره ، وتسبب في هلاكه ، حتى انتثرت جواهر أسلاكه ، ومات بدائه . فالعيون إلى هذا الوقت على لسان الدين باكية ، ونفوسُ

١ ك : يدي .

الأكابر وغيرهم مما فُعل به شاكية ، والألسنة والأقلام لمقاماته في الإسلام حاكية .

فمَنْ كان بهذه السّمات وأكثرَ منها موصوفاً ، لا يَقْدر مثلي على تحبير التعبير عنه ويَخْشى أن تكون فكرته كخرقاء نقضت قُطْناً أو صوفاً .

* * *

[اعتزام المقري إجابة ابن شاهين إلى مطلبه]

ثم إنّي لما تكرر عليّ في هذا الغرضِ الإلحاح ، ولم تُقْبَلْ أعذاري التي زَنْدُها شَحَاح ، عزمتُ على الإجابة لما للمذكور عَلَيّ من الحقوق ، وكيف أقابل برّه حفظه الله بالعقوق ، وهو الذي يَرْوِي من أحاديث الفضل الحسانَ والصحاح ، فوَعَدْته بالشروع في المطلب عند الوصولِ إلى القاهرة المعزّيّة ، وأزمعت السَّيْرَ عن دمشق المعروفة المَزِيّة ، وألبسني السفر منها من الخلع زِيّه ، ورَحَلْنا عن تلك الأرجاء المتألقة ، والقلوبُ بها وبمن فيها متعلقة :

حللنا دياراً للغرام سَرَتْ بِها إلَيْنا صَبَا نجدٍ بطيبِ نسيمِ
وبانَ رَدى الأشجان لما تجاذَبَتْ أكُفُّ المنى فيها رِداءَ نعيمِ
فما أنشبتنا العيسُ أن قذَفَتْ بنا إلى فُرْقَةٍ والعهدُ غَيْرُ قديمِ
فإن تَكُ ودَّعْنا الديارَ وأهلَها فما عهدُ نجدٍ عندنا بذَميمِ

* * *

[وداع الشام]

فخرج معنا – أسماه الله – مع جملة من الأعيان إلى داريّا ، المضاهية للدارينَ في ريّاها وحبّذا ريّا ، فألفيناها [1] :

ريّا من الأنداء طيّبة لها القدْرُ الجليلْ
تُهْدي لنا أرْجاؤها أرَجاً من الزّهر البليلْ
وبها الغُصُون تمايَلَتْ مَيْلَ الخليل على الخليلْ

ووصلنا عند الظّهيرة ، وسرّحنا العُيونَ في بدائعها [2] الشهيرة :

مَنْزِلٌ كالرّبيع حلّتْ عليه حالياتُ السّحاب عِقْدَ النّطاق
يُمتِعُ العينَ من طرائِقِ حُسْنٍ تتجافى بهـا عن الإطراق

وقلنا بها ، لما نزلنا بجنابها [3] :

وبِتْنا والسرورُ لنا نَديمٌ وماءُ عُيونِهِ الصّافي مُدَامُ
يُسايره النّسيمُ إذا تغنّتْ حمائمهُ ويَسْقيه الغَمامُ

فيا لك من ليلة أرْبَتْ في طيب النفح ، على ليلة الشّريف الرضيّ بالسّفْح [4] :

ونحنُ في رَوْضةٍ مُفَوَّفةٍ قد وُشّيَتْ بالغمائم الوُكُفِ .
نُغْفي على زَهْرها فيوقظُنا وَهْناً هديرُ الحمائمِ الهُتُفِ

---

١ ق : فألفيتها .
٢ ك : محاسنها .
٣ ق ك : بجانبها .
٤ يشير إلى قول الشريف الرضي :

يا ليلة السفح ألا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم

ودَوْحُها من نداهُ في وُشُحٍ ومن لآلي الأزْهار في شُنُفِ
والغُصْنُ من فوقه حَمامته كأنّها هَمْزَةٌ على ألِفِ

وما أقرب قول الوزير ابن عمار ، من وصف ذلك المضمار ، الجامع للأقمار [1] :

يــا لَيْلَةً بِتْنا بهــا في ظلّ أكناف النّعيمِ
من فَوْق أكمامِ الرّيا ضِ وتحتَ أذيال النّسيمِ

وناهيك بمَحَلّ قَرُبَ من دمشق الغرّاء ، فخلعت عليه حلل الحُبور والسّرّاء ، وأمدّته بضيائها ، وأودعته برْقَ حَيَاها وماءَ حيائها ، فصار ناضرَ الدّوْحات ، عاطر الغَدَوات والرّوْحات ، مونِقَ الأنفاس والنفحات ، مُشْرِق الأسِرّة والصفحات ، هذا والقلوب من الفراق في قَلَق ، ولسانُ الحال ينشد :

وبي عَلاقَةُ وَجْدٍ لَيْس يَعْلَمُها إلاّ الذي خلَق الإنسانَ من عَلَقِ

ويحث على انتهاز فرصة اللقاء إذ هي غنيمة ، ويذكّر بقول من قال وأكُفُّ الدهر موقظة ومُنيمة [2] :

تَمَتّع بالرُّقادِ على شِمالٍ فسَوْفَ يطول نَوْمُك باليمينِ
ومَتّعْ من يُحِبُّك باجتماعٍ فأنتَ من الفراقِ على يقينِ

ثمّ حضر بعد تلك الليلة موقف الوَداع ، والكلّ ما بين واجم وباك وداع ، فتمثلتُ بقول مَنْ قَلْبه لفراق الأحباب في انْصِداع :

وَدّعْتُهُمْ ودُمُوعي على الخدود غِزَارُ
فاستكثروا دَمْعَ عَيْني لمّا استقلّوا وساروا

---

1 لم يرد البيتان في ديوانه الملحق بدراسة الدكتور خالص .
2 البيتان من شعر ابن الخياط شاعر صقلية قبل الفتح النورماني (انظر : الشعر الصقلي في المغرب لابن سعيد) .

وقول آخر :

يا وَحْشَةً من جيرةٍ مُذْ نأوْا   عُلُوُّ قدري في الهوى انْحَطّا
حكتْ دموعي البحرَ من بُعدِهم   لمّا رأتْ منزلَهُمْ شَطّا[1]

وحقّ لي أن أتمثل في ذلك بقول العزازي[2] :

لا تَسَلْني عمّا جَنَاهُ الفراقُ   حمّلَتْني يَداه ما لا يُطاقُ
أين صَبْرِي أم كيف أملكُ دمعي   والمَطايا بالظاعنينَ تُساقُ
قفْ معي نَنْدُبُ الطّلول فهذي   سُنّةٌ قبلُ سَنّها العُشّاقُ
وأعِدْ لي ذكرَ الغُوَيْرِ فكم ما   لَ بعِطْفي نسيمُه الخفّاقُ
في سبيل الغرَام ما فعلَتْ بالْ   عاشِقِينَ القُدودُ والأحْدَاقُ
يومَ وَلّتْ طلائعُ الصَّبْر منّا   ثم شَنّتْ غاراتِها الأشْوَاقُ

وبقول غيره :

كنّا جميعاً والدارُ تجمعُنا   مثلَ حروفِ الجَميعِ مُلتصِقَهْ
واليومَ صارَ الوداعُ يجعلُنا   مثلَ حُرُوفِ الوداعِ مفترِقَهْ

وقول آخر :

عيّرُوني أنّي سَفَحْتُ دُموعي   حين هَمّ الحبيبُ بالتّوْديعِ
لم يذوقوا طَعْمَ الفراقِ ولا ما   أحرقَتْ لوعةُ الأسى من ضلوعي

---

١ في كلمة « شط » تورية فهي تعني الشاطىء لمماثلة البحر ، وهي بمعنى « بعد » .
٢ العزازي : شهاب الدين أحمد بن عبد الملك أبو العباس (- ٧١٠) كان تاجراً بالقاهرة أديباً ظريفاً يجمع بين القصيد والموشح ، وله ديوان مخطوط (دار الكتب رقم ٤٧٩ ، ٥٥٩ أدب) انظر ترجمته في المنهل الصافي ١ : ٣٤٠ وقد اضطرب الاسم في النسخ ففي ق : الاعزازي ، وفي ط : الفزاري ، وفي ج : أن أتمثل في ذلك المزار .

كيف لا أسفحُ الدموع على رَبْـ ـعٍ حوَى خيرَ ساكنٍ وجُموعِ
هبْكَ أنّي كتمتُ حالي أتَخْفى زفَرَاتُ المتيَّمِ المَصْدُوعِ
إنّما يُعْرَفُ الغَرامُ بمَنْ لا حَ عليه الغرامُ بين الرُّبوعِ

وقول من قال :

أقولُ لَهُ عِنْدَ تَوْديعِهِ وكُلٌّ بعَبرتـه مُبْلِسُ
لئن قَعَدَتْ عَنْكَ أجْسادُنا لقد سافَرَتْ مَعَكَ الأنفُسُ

وقول الصابي[1] :

ولمّا حَضَرْتُ لتَوْدِيعِهِ وطَرْفُ النّوَى نحونا أشْوَسُ
عكسْتُ له بَيْتَ شعرٍ مَضَى يليقُ به الحالُ إذ يُعْكَسُ
لئن سافَرَتْ عَنْكَ أجسادُنا لَقَد قعَدَتْ مَعَكَ الأنفُسُ

وقول المهذَّب بن أسعد الموصلي[2] :

دَعْني وما شاء التفرّقُ والأسَى واقْصِدْ بلومك من يطيعُكَ أو يعي
لا قلبَ لي فأعي الملامَ فإنّني أودَعْتُهُ بالأمس عِنْدَ مُوَدِّعي
هَل يعلمُ المتحمّلُون لنُجْعَة أن المنازلَ أخْصَبَتْ من أدْمُعي
كم غادروا جَزَضاً وكم لوداعِهِم بينَ الجوانحِ منْ غرامٍ مُودَعِ
والسقمُ آيةُ ما أُجِنُّ من الجَوَى والدمْعُ بَيّنَةٌ على ما أدَّعي

---

١ الصابي هو إبراهيم بن هلال بن هارون الكاتب المترسل المشهور في القرن الرابع . راجع ترجمته في وفيات الأعيان ١ : ٣٤ ومعجم الأدباء ٢ : ٩٤ واليتيمة ٢ : ٢٤٢ .
٢ المهذب بن أسعد الموصلي : أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى ، ابن الدهان الموصلي، قصد مصر ومدح الصالح بن رزيك ، ثم تولى التدريس بحمص . انظر ترجمته في الخريدة — القسم الشامي — ٢ : ٢٧٩ ومصادر أخرى في الحاشية ؛ والأبيات من قصيدة له أوردها أبو شامة في الروضتين ٢ : ١٦ ، ٢٩ .

وقول الكمال التَّنُوخي :

كم ليلةٍ قد بتُّها أرعى السُّها | جَزَعاً لفُرْقتِهِم بمُقْلة أرمَدِ
قَضَّيْتُها ما بين نوم نافرٍ | وزفير مَهْجُورٍ وقلب مُكمَدِ
لم أنسَ أيّامَ السّرورِ وطيبَها | بين السَّديرِ وبين بُرْقة ثَهْمَدِ[1]
والروضُ قد أبْدى بدائع نَوْره | مِنْ أزرقٍ ومُفضَّضٍ ومورَّدِ
والماءُ يَبْدُو كالصّوارم سارياً | فيعيدُه مَرُّ الصَّبا كالمبرَدِ
والطيرُ بين مُسَجِّعٍ ومُرَجِّعٍ | ومُغَرِّدٍ ومُعَدِّدٍ ومُرَدِّدِ

وقول القاضي بهاء الدين السنجاري[2] :

أحبابَنا ما لي على بُعد المدَى | جَلَدٌ ومَنْ بَعْدَ النّوَى يتجلّدُ
لله أوقاتُ الوصالِ ومَنْظَرٌ | نَضِرٌ وغُصْنُ الوَصلِ غضٌّ أمْلدُ
أنّى يُطيقُ أخو الهوى كِتمانَهُ | والخدُّ بالدمع المصون مُخَدَّدُ
ما بَعْدَ مفترَقِ الركابِ تصبُّرٌ | عمّن أحبُّ فهل خليلٌ يُسْعِدُ ؟
يا سَعْدُ ساعِدْ بالبكاء أخا هوًى | يومَ الوداعِ بَكَى عليه الحسّدُ

وقول ابن الأثير :

لم أنسَ ليلةَ ودّعوا | صَبّاً وساروا بالحُمولِ
والدمعُ من فرطِ الأسى | يجري فيعثُرُ بالذيولِ

وقول الأرّجاني[3] :

---

١ قهج : بين الصرير ؛ ط : بين الصريم .
٢ بهاء الدين أسعد بن يحيى بن موسى السنجاري (– ٦٢٢) فقيه غلب عليه الشعر . (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١ : ١٩٣) .
٣ الأرجاني : أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الملقب ناصح الدين (– ٥٤٤) ، من شعراء الخريدة، كان قاضياً بتستر وعسكر مكرم ، وقال ابن خلكان : له شعر رائق في نهاية الحسن.=

ولمّا وَقَفْنا للوَداع عَشيَّةً وطَرْفي وقلبي هامعٌ وخَفُوقُ
بكيتُ فأضحكتُ الوُشاة شماتَةً كأنّي سَحابٌ والوشاةُ بُروقُ

وقول ابن نُباتة السّعدي[1] :

ولمّا وقَفْنا للوَداع عشيّةً ولَمْ يبقَ إلا شامتٌ وغيُورُ
وقفنا فمن باكٍ يُكفكفُ دَمْعَه وملتزمٍ قلباً يكادُ يَطيرُ

وقول بعضهم :

لمّا حَدا الحادِي بتَرْحالهم هَيّجَ أشْواقي وأشجاني
ورَاح يَثْني القلبَ عن غَيْرِهم فَهْوَ لهُمْ حادٍ ولي ثاني

وقول الصفَدي :

لمّا اعْتَنَقْنا لوَداع النّوى وكدتُ من حرّ الجوى أحْرَقُ
رأيتُ قلبي سار قُدّامَهُمْ وأدمُعي تجري ولا تلحَقُ

وقوله أيضاً :

تذكّرْتُ عيشاً مرّ حُلواً بكم فهل لأيامنا تلك الذواهبِ واهبُ ؟
وما انْصرَفتْ آمالُ نفسي لغيركم ولا أنا عن هذي الرغائب غائبُ
سأصْبرُ كَرْهاً في الهوَى غيرَ طائعٍ لعلّ زماني بالحبايبِ آيبُ

= (راجع ترجمته في وفيات الأعيان ١ : ١٣٤ وطبقات السبكي ٤ : ٥١ وشذرات الذهب ٤ : ١٣٧) .

[1] هو أبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نباتة (– ٤٠٥) من شعراء اليتيمة (٢ . ٣٨٠ وانظر له ترجمة في وفيات الأعيان ٢ : ٣٦٢) ؛ وهذان البيتان سقطا من ق ط ج .

وقول ابن نُباتة المصري[1]

في كَنَفِ الله وفي حِفْظِهِ مَسْرَاكَ والعَوْدُ بعزمٍ صريحْ .
لو جازَ أن تسلكَ أجفانَنا كُنّا فرشنا كلَّ جَفْنٍ قريحْ
لكنّها بالبُعْدِ مُعْتَلَّةٌ وأنتَ لا تَسْلُكُ إلا الصحيحْ

وقول الحافظ أبي الحسن عليّ بن الفضل[2] :

عجِبْتُ لنفسي بَعْدهم ما بقاؤها ولم أحْظَ من لُقْياهمُ بمُرادي
لعمْرُكَ ما فارَقْتُهم مُنْذ ودَّعوا ولكِنّما فارقتُ طيبَ رقادي
وقد منَعوا مني زيارَةَ طَيْفهم وكيفَ يزورُ الطيفُ حلفَ سُهادِ؟
وأعجب ما في الأمر شوقي إليهمُ وهُمْ في سوادَي[3] ناظري وفؤادي

وقوله رحمه الله تعالى :

رعى الله أيامَ المُقامِ بِرَوْضَةٍ تروحُ عَلَيْنا بالسرور وتَغْتدي
كأنَّ الشَّقيقَ الغَضَّ بين بِطاحِها نجومُ عقيقٍ في سماء زَبَرْجَدِ

وقول القاضي الرشيد الأسواني[4] :

.. ..

١ ابن نباتة المصري : محمد بن محمد بن محمد ، أبو بكر جمال الدين (– ٧٦٨) شاعر مترسل ، وله شرح مفيد على رسالة ابن زيدون الهزلية (ترجمته في الدرر ٤ : ٢١٦ والنجوم الزاهرة ١١ : ٩٥ وطبقات الشافعية ٦ : ٣١) ، وديوانه مطبوع . ولفظة « المصري » لم ترد إلا في ك .
٢ أبو الحسن علي بن الفضل (– ٦٢٧) فقيه شاعر أندلسي من معاصري ابن سعيد ، وكان أهله أعيان أوريوله ، وهو من أصحاب التوشيح . (انظر اختصار القدح : ١٠٨ والمغرب ٢ : ٢٨٦) . وفي ط ج : ابن المفضل .
٣ ق : سويدا .
٤ القاضي الرشيد الأسواني : أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير ، كان عالماً شاعراً حاول أن يدعو–

رَحلوا فلا خَلَتِ المنازلُ منهمُ ونأوا فلا سَلَتِ الجوانحُ عنهمُ
وسرَوا وقد كتموا الغَداةَ مسيرَهمْ وضياءُ نور الشمسِ ما لا يُكتمُ
وتبدَّلوا أرضَ العقيقِ عنِ الحمى روَّتْ جفوني أيَّ أرضٍ يَمَّمُوا
نزلوا العُذَيْبَ وإنَّما هو مهجتي رَحلوا وفي قلبِ المتيَّم خيَّموا
ما ضَرَّهم لو وَدَّعوا مَنْ أوْدَعُوا نارَ الغرام وسلَّموا من أسلَموا
هُمْ في الحَشا إن أعرَقوا أو أيْمنوا أو أشأموا أو أنجدُوا أو أتْهموا

وقول الشاعر أبي طاهر الأصفهاني ، المعروف بالوثّابي [1] :

أشاعُوا فقالوا وَقْفَةٌ ووَداعُ وزُمَّتْ مَطايا للرحيل سِراعُ
فقلتُ وَداعٌ لا أُطيقُ عِيانَهُ كفاني من البين المُشِتِّ سَماعُ
ولم يَمْلِكِ الكتمانَ قلبٌ ملكته وعِندَ النّوى سرُّ الكتوم مُذاعُ

وقول أبي المجد قاضي ماردينَ :

رعى الله رَبعاً أنتم فيه أهلُه وجاد عليه هاطلٌ وهتُونُ
ولا زال مخضرَّ الجوانبِ مُترَعَ الـ حياضِ وفيه للنّعيم فُنُونُ
لئن قَدَّرَ الله اللّقاء وأيْنعَتْ غصُونُ التداني فالبعادُ يهُونُ
وإن حكمتْ أيدي الزمان بعُسرة فكم قُضِيَتْ للمعسرين ديونُ

وقول آخر :

= لنفسه باليمن ثم قتل سنة ٥٦٣ . (ترجمته في الخريدة – قسم مصر – ١ : ٢٠٠ ووفيات الأعيان رقم ٦٤ والطالع السعيد : ٥٢ ومعجم الأدباء ٤ : ٥١ وترجم له الصفدي في الوافي) والأبيات من قصيدة وردت في معجم الأدباء ٤ : ٦٢ – ٦٣ .

١ هو إسماعيل بن محمد بن أحمد الوثابي الأصفهاني الأديب ، له شعر حسن ونظم رائق ، روى عن أبي عمرو بن منده وغيره وتوفي سنة ٥٣٢ (اللباب ٣ : ٢٦٢) وفي ج : المعروف بالوشاء ، وفي ك : بالوثاني .

غبتم فما لي في التصبّر مطمعٌ عَظُمَ الجوى واشتدّتِ الأشواقُ
لا الدارُ بعدكمُ كما كانَتْ ولا ذاك البَهاءُ بها ولا الإشراقُ
أشتاقُكم ، وكذا المحبُّ إذا نأى عنهُ أحبّةُ قلبِه يشتاقُ

وقول أبي الحسن الهمداني [1] :

ويومَ تَوَلّتِ الأظعانُ عنّا وقوّضَ حاضرٌ وأرَنّ بادي
مَدَدتُ إلى الوَداعِ يداً وأُخرى حَبَسْتُ بها الحياةَ على فُؤادي

وقول ابن الصائغ [2] :

قد أودَعُوا القلبَ لمّا وَدّعوا حُرَقاً فظلّ في الليل مثلَ النجم حيرانا
رَاوَدْتُه يستعيرُ الصّبرَ بعدهمُ فقال : إنّي استعرْتُ اليومَ نيرانا

وقول الصدر بن الأدَمي مكتفياً [3] :

يَوْمَ توديعي لأحبابي غَدا ذكرُ ميٍّ شاغلي عن كلّ شيْ
فرنَتْ نحوي وقالت : يا تُرَى أنتَ حيٌّ في هوانا ؟ قلت : ميْ [4]

وقول غيره :

ولي فُؤادٌ مذ نأى شخصُهم ظلّ كئيباً مُدْنَفاً موجَعا
ومُقلةٌ مَهْما تذكّرتُهُمْ تَذْرِفُ دَمْعاً أرْبَعاً أربعا

---

١ ك : الهمذاني .

٢ ينصرف الاسم إلى غير واحد ، وأظن المعني هنا هو محمد بن حسن الجذامي (حوالي ٧٢٣) وهو شاعر مؤلف توفي بدمشق. (انظر الدرر الكامنة ٣ : ٤١٩ والفوات ٢ : ٣٨٠ والوافي ٢ : ٣٦١)

٣ صدر الدين علي بن محمد بن محمد أبو الحسن الأدمي (– ٨١٦) شاعر مترسل ، كان قاضياً بدمشق (الضوء اللامع ٥ : ٣٢٨) .

٤ مي : ميت ، وهذا هو الاكتفاء ببعض الكلمة ؛ وفي ج : فدنت .

وليس لي من حيلةٍ كلّما   لجّتْ بيَ الأشواقُ إلا الدُّعا
أسألُ من ألطف ما بيْنَنا   وقدَّرَ الفُرْقَةَ أن يجمعا

وقول الرُّعَيْني الغرناطي :

محاسنُ رَبعٍ قد مَحاهنَّ ما جرى   من الدمع لمّا قيل قد رَحَلَ الرَّكبُ
تناقَضَ حالي مذ شَجاني فراقُهُم   فمِن أضْلعي نارٌ ومن أدمعي سكْبُ

وفي معناه قوله أيضاً[1] :

وقائلةٍ : ما هذه الدُّرَرُ التي   تُساقِطها عَيناك سِمطَيْنِ سمطينِ
فقلت لها : هذا الذي قد حَشا به   أبُو مُضَرٍ أذْني تَساقطَ من عيني

وقول الزمخشري :

لم يُبْكني إلا حديثُ فراقِهِم   لمّا أسرَّ به إليَّ مُوَدِّعي
هو ذلك الدُّرُّ الذي أودعتُمُ   في مسمعي أجريتُهُ من مَدْمَعي

وقول الزُّغاري :

قد بعثْتُهُمْ قَلْبيَ يوم بَيْنِهِم   بنظرة التوديعِ وَهْوَ يحترقْ
ولَمْ أجِدْ من بعدها لِرَدِّهِ   وَجْهاً وكان الردُّ لو لم نفترقْ

وقول بعض الأندلسيين :

سارُوا فودَّعهم طَرْفي وأودَعَهُمْ   قلبي فما بَعُدُوا عني ولا قَرُبُوا
همُ الشموس ففي عَيْنَيّ إذا طَلَعوا   في القادمين وفي قلبي إذا غَرَبُوا

---

١ هذا عكس ما أورده ابن خلكان (٤ : ٢٥٨) ، فهذان البيتان نسبهما للزمخشري ، ونسب البيتين بعدهما للقاضي الأرجاني . وقد سقط البيتان الأولان من ط ج ق .

وقلت أنا مضمّناً بديهة :

لا كان يومُ فراقٍ ساقَ الشجونَ إلَيْنا
فكَمْ أذلَّ نفوساً يا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنا [1]

وقلت أيضاً مضمّناً :

سلا أحبّته مَنْ لم يَذُبْ كمداً يوم الوداع وإن أجرى الدموعَ دَما
يا مَنْ يعزُّ علينا أن نُفارِقَهُمْ من بُعدِكم هُدّ ركنُ الصبر وانهدما
وإنْ نأى الجسم كرْهاً عن منازلكمْ فالقلبُ ثاوٍ بها لم يصحبِ القَدَما
وما نسينا عهوداً للهوَى كَرُمَتْ نَعَمْ قرَعْنا عليها سِنّنا نَدَما
وأظلمت بالنّوَى أرجاءُ مَقْصِدِنا وصار وِجْدانُ إلفٍ غيركم عَدَما [1]

وقلت أيضاً مضمّناً :

لم أنسَ بالشام أنساً شِمْتُ بارِقَهُ جادت معاهدَهُ أنواءُ نيسانِ
ففي لعَيْشٍ قضَيْنا في مشاهدها ما بَيْنَ حُسْنٍ من الدنيا وإحسانِ

وقلت كذلك :

يا جيرةً بانُوا وأبقوا حسرةً تجري دموعي بعدهم وفْقَ القَضا
كم قلتُ إذ ودّعتُهُمْ والأنسُ لا يُنْسى وعَهْدُ ودادِهِم لن يُرْفَضا
يا مَوْقفَ التوديع إنّ مدامعي فُضّتْ وفاضَتْ في ثرى ذاك الفضا

وكم[2] تفاءلتُ بقول الأول ، مع علمي بأن على الله المعوّل :

---

[1] ضمن قول المتنبي :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

[2] ج : وقد ؛ وتكررت « وكم » في ط .

إذا رأيتَ الوَداعَ فاصبِرْ ولا يَهْمُمْنَكَ البعادُ
وانتظرِ العَوْدَ عن قريبٍ فإنّ قَلْبَ الوَداعِ عادُوا

وضاقت بي الرّحاب ، حين[1] مفارقة أعيان الصّحاب[2] ، وكاثرت دموعي من بينهم السحاب ، وزنّد التذكر يقدح الأسف فيهيج الانتحاب ، وقد تمثلنا إذ ذاك والجوانح من الجوَى في التهاب ، وذخائر الصبر ذات انتهاب ، بقول بعض من مزّق البعدُ منه الإهاب[3] :

ولمّا نزّلنا منزلاً طلّهُ النّدى أنيقاً وبُستاناً من النّورِ حاليا
أجدّ لنا طيبُ المكانِ وحُسْنُهُ مُنّى فتمنّينا فكانوا الأمانيا
وقدْ طُفتُ في شرقِ البلادِ وغرْبِها وسيّرْتُ خيلي بينها وركابيا
فلم أرَ مِنْها مثلَ بغدادَ منزلاً ولم أرَ فيها مثلَ دِجْلَةَ واديا
ولا مثلَ أهْليها أرقّ شَمائلاً وأعذبَ ألفاظاً وأحلى مَعانيا

ويقول من تأسّف على مغاني التداني ، وهو أبو الحجاج الأندلسي الداني[4] :

أبى الله إلاّ أن أفارق منزلاً يطالِعُني وَجْهُ المُنى فيه سافِرَا
كأنّ على الأيامِ حين غَشِيتُهُ يميناً فلَمْ أحْلُلْهُ[5] إلا مسافرا

١ ك : عند .
٢ ك : أعيان الأحباب والصحاب .
٣ البيتان الأولان من هذه المقطوعة في حماسة أبي تمام لأبي بكر بن عبد الرحمن الزهري (أو عبد الرحمن الزهري كما عند المرزوقي : ١٣٢٢) ويبدو أن المقري قد خلطهما بأبيات لشاعر آخر . وقد سقط الأول منهما من ق ج ط .
٤ أبو الحجاج يوسف بن عبد الله بن أيوب الفهري من أهل دانية ، سكن بلنسية وولي بها الأحكام وتوفي سنة (٥٩٢) ؛ وترجمته والبيتان في المقتضب من تحفة القادم : ٧٨ .
٥ المقتضب : فما أغشاه .

وتخيلنا أن إقامتنا بدمشق وقاها الله كل صَرْف ، ما كانت إلا خَطْرة طيف مُلم أو لمحة طَرْف :

وَقَفْنا ساعةً ثمَّ ارتحلْنا وما يُغْني المشوقَ وقوفُ ساعه ؟
كأنَّ الشملَ لم يكُ في اجتماعٍ إذا ما شتّتَ البينُ اجتماعَهْ

وطالما عللت النفس بالعَوْد إليها ثم إلى بقاعي ، منشداً قولَ الأديب الشهير بابن الفقّاعي [1] :

متى عاينَتْ عيناي أعلامَ حاجرٍ جعلتُ مَوَاطي العيسِ فوق محاجري
وإن لاحَ من أرضِ العَوَاصم بارقٌ رجعَتْ بأحشاء صَوادٍ صَوادِرِ
سقى اللهُ هاتيكَ المواطِنَ والرُّبى مَوَاطِرَ أجفانٍ هوامٍ هَوَامِرِ
وحيّا الحيا من ساكني الحيّ أوجُهاً سفَرْنَ بأنوار زوَاهٍ زواهِرِ
بحيثُ زمانُ الوصلِ غَضٌ وروْضُهُ أريضٌ بأزهارٍ بوَاهٍ بواهِرِ
وحيْثُ جفونُ الحاسدِينَ غضيضةٌ رمَقْنَ بآماقٍ سوَاهٍ سَواهِرِ

ثمَّ حاولت خاطري الكليل ، فيما يشفي بعض الغليل ، فقال على طريق التضمين ، وقد غلب عليه الشوق والتخمين :

بأبي من أوْدَعُوا مذ وَدَّعُوا قلبيَ الشَّوْقَ وللعيس ذَميلُ
جيرةٌ غُرٌّ كِرامٌ خيرَةٌ كلُّ شيء منهمُ يبدو جَميلُ
وعلى الجُمْلة ما لي غيرُهم لو أرادوا أن يملّوا أو يميلُوا

ثمَّ قلت وقد سدد التنائي إليّ نَبْله ، موطئاً للبيت الثالث كما في الأبيات قبله :

---

[1] هو محمد بن غازي الموصلي (– ٦٢٩) شاعر دمشقي ينسب إلى الفقاع وهو نوع من الشراب (انظر الدارس ٢ : ٨٥ والوافي ٤ : ٣٠٦) .

يا دمَشْقاً حيّاكِ غيثٌ غزيرُ ووقاكِ الإلهُ ممّا يَضيرُ
حُسنُكِ الفَرْدُ والبدائعُ جَمعٌ متناهٍ فيهِ فعزَّ النظيرُ
أين أيامُنا بظلّكِ والشمْلُ جميعٌ ، والعيشُ غضٌ نضيرُ

ثم أكثرت الالتفات عن اليمين وعن الشمال ، وقد شبهت البَيْداء والشوق ببدل الكل والاشتمال ، وتنسمت من نواحي تلك الأرجاء أريجَ الشَّمال ، وضمّنت في المعنى قول بعض من ثنى الحبُّ عِطْفَهَ وأمال :

تنسَّمْتُ أرواحاً سرَتْ من ديارِ منْ بِهِمْ كان جمعُ الشَّمْلِ لمحةَ حالمِ
وجاوَبْتُ من يلحى على ذاك جاهلاً بقولِ لبيبٍ بالعواقب عالمِ
وما أنْشَقُ الأرواحَ إلاّ لأنّها تمرُّ على تلك الرُّبى والمعالمِ

وما أحسن قول الآخر :

سرَتْ من نواحي الشام لي نَسْمةُ الصَّبا وقد أصبحتْ حَسرى من السير ظالعَه[1]
ومن عَرَقٍ مَبْلُولةَ الجَيْبِ بالنّدَى ومنْ تَعَبٍ أنفاسُها مُتتابعَهْ

وقلت أنا :

حَمِدتُ وحقّ الله للشام رحلَةً أتاحت لعَيْنَيَّ اجتلاءَ مُحَيّاهُ
وبَعدَ التنائي صِرْتُ أرتاحُ للصَّبا لأنّ الصَّبا تَسْري بعاطِرِ رَيّاهُ
فللّه عَهْدٌ قد أتاح بجِلّقٍ سروراً فحيّاها[2] الإله وحَيّاهُ

واستحضرت عند جد السير ، قولَ صفوان بن إدريس المُرْسيّ ذكره الله تعالى بالخير :

---

١ ق ط : هالعة .
٢ ك : فحياه .

أينَ أيامُنا اللواتي تَقَضَّتْ إذ زَجَرْنا للوصْلِ أيمَنَ طَيْرِ

ثمَّ قول غيره ممن حَنَّ وأنَّ ، وقلِق قلبُه وما اطمأنَّ :

أحِنُّ إلى مشاهِدِ أُنس إلفي وعَهْدي من زيارته قريبُ
وكنتُ أظنُّ قربَ العهد يُطْفي لهيبَ الشوق فازداد اللهيبُ

وربما تجلدت مغالطاً ، متعلّلاً بقول من كان لإلفه مخالطاً :

حَضَرْتَ فكنتَ في بَصَري مُقيماً وغِبْتَ فكُنْتَ في وَسَطِ الفؤادِ
وما شَطَّتْ بنا دارٌ ولَكِنْ نُقِلْتَ من السَّواد إلى السَّوادِ

وقول غيره :

وكن كما شئْتَ من قُرْبٍ ومن بُعُدٍ فالقَلْبُ يرعاكَ إن لم يَرْعَكَ البصرُ

وبقول الوَداعي :

يا عاذلي في وَحْدَتي بعدهُمْ وأنَّ رَبْعي ما به مِنْ جَليسْ
وكيفَ يشكو وَحْدةً مَنْ له دَمْعٌ حَميمٌ وأنينٌ أنيسْ

ثم رَدَّدْتُ هذه الطريقة ، بقول بعض من لم يُبْلِغْه السلُوُّ رِيقَه :

لا رَعَى اللهُ عَزمَةً ضمنت لي .سَلْوةَ القلبِ والتصبّر عَنْهُمْ
ما وَفَتْ غيرَ ساعةٍ ثم عادتْ مثلَ قلبي تقولُ لا بُدَّ منهمْ

وبقول ابن آجروم[1] ، في مثل هذا الغرض المَرُوم :

يا غائباً كان أُنسي رَهْنَ طلعته كيف اصطباري وقد كابدتُ بينهما

---

[1] المشهور بهذا الاسم هو محمد بن محمد بن داود الصنهاجي (– ٧٢٣) وهو نحوي وله في النحو مؤلف سمي « الاجرومية » . (بغية الوعاة : ١٠٢) .

دعواي أنّك في قلبي يُعارضها   شوقي إليك ، فكيف الجمعُ بينهما

ثم جدّ بي السير إلى مصر واستمرّ ، فتذكرت قول الصفدي وقد اشتدّ بالرمل الحرّ :

أقولُ وَحَرُّ الرملِ قد زاد وَقْدُهُ   وما لي إلى شَمّ النسيم سَبيلُ
أظُنُّ نسيمَ الجوّ قد ماتَ وانقَضَى   فَعَهْدي به في الشام وهو عَليلُ

وقول ابن الخيّاط[1] :

قَصَدْتُ مصراً من رُبَى جِلّقٍ   بهمّةٍ تَجْري بتَجْريبي
فلمْ أرَ الطُرّةَ حتى جرَت   دموعُ عيني بالمُرَيْزيبِ[2]

وحين وصلت مصر لم أنس عهدَ الشام المرعي ، وأنشدت قولَ الشهاب الحنبلي الزرعي[3] :

أحِبّتَنا واللهِ مذ غبتُ عنكمُ   سُهادي سميري والمدامعُ مِدْرارُ
وواللهِ ما اختَرْتُ الفراقَ ، وإنّه   برَغْمي، ولي في ذلك الأمرِ أعذارُ
إذا شام بَرْقَ الشام طَرْفي تتابعَتْ   سحائبُ جَفْني والفؤادُ به نارُ
ألا ليت شعري هل يعُودَنّ شملُنا   جميعاً وتحوينا رُبوعٌ وأقطارُ ؟

---

١ سيورد المؤلف هذين البيتين في الباب الخامس عند الحديث عن دمشق وما قيل فيها من شعر ، وقد بين هنالك أنهما لمحمد بن يوسف بن عبد الله الخياط معاصر الصفدي (توفي سنة ٧٥٦) ، وهو الملقب بالضفدع ، ووصفه الصفدي بأنه كان طويل النفس في الشعر ، وكان أميل إلى الهجاء . (انظر الدرر الكامنة ٤ : ٣٠٠ والبدر الطالع ٢ : ٢٨٦) .

٢ ط ق : بالمزيريب .

٣ لعل المعني هنا شهاب الدين أحمد بن هلال الزرعي الحنبلي المتوفى سنة ٧١٩ (ذيل ابن رجب ٢ : ٤٧١) .

وقول ابن عُنَين [1] :

دمَشْقُ بنا شوقٌ إليكِ مُبَرِّحٌ — وإن لجَّ واشٍ أو ألحَّ عَذُولُ
بلادٌ بها الحَصْباء دُرٌّ ، وتُربُها — عَبيرٌ ، وأنفاسُ الرياح شمولُ
تسَلْسلَ منها ماؤها وَهْوَ مطلقٌ — وصَحَّ نسيمُ الروضِ وَهْوَ عليلُ

وقول آخر :

نَفْسي الفِداءُ لأُنسٍ كنتُ أعْهدُهُ — وطيبِ عيشٍ تَقَضَّى كُلُّهُ كَرَمُ
وجيرةٍ كان لي إلفٌ بوَصْلِهمُ — والأُنسُ أفضلُ ما بالوَصْلِ يُغتَنَمُ
بالشام خلّفْتُهم ثمَّ انصَرَفْتُ إلى — سِواهُمُ فاعتراني بَعْدَهُمْ ألَمُ
كانوا نعيمَ فؤادي والحياةَ لَهُ — والآن كلٌّ وجودٍ بعدهم عَدَمُ

فإن أنشد لسان الحال ، فيما اقتضاه معنى البعد عنها والارتحال :

يا غائباً قد كنتُ أحسَبُ قَلْبَهُ — بِسِوَى دمَشْقَ وأهلها لا يَعْلَقُ
إن كان صَدّكَ نيلُ مصرٍ عنهمُ — لا غَرْوَ فهو لنا العدُوُّ الأزرَقُ

أتيتُ في جوَابه ، بقول بعض من بَرّح الجوى به :

لله دهرٌ جَمَعَنْا شَمْلَ لذّتِهِ — بالشام أعْذَبَ من أمْنٍ على فَرَقِ
مَرّتْ لياليهِ والأيامُ في خَلَسٍ — كأنّما سَلَبَتْهُ كفُّ مسترِقِ
ما كانَ أحْسَنَها لولا تنقّلُها — مِنَ النّعيم إلى ذاكِ مِنَ الحُرَقِ
رقَّ العذُولُ لحالي بعدها وَرَثَى — لي في الجَوَى والنوى والشجوِ والأرقِ

---

[1] ابن عنين : أبو المحاسن محمد بن نصر الدين الأنصاري الملقب شرف الدين (– ٦٣٠) كوفي الأصل ، دمشقي المولد ، شاعر مجيد هجاء نفاه السلطان صلاح الدين من دمشق بسبب وقوعه في الناس فتنقل في البلاد وبلغ الهند ؛ نشر ديوانه بتحقيق الأستاذ خليل مردم (دمشق : ١٩٤٦) .

وبالجملة فتلك الأيام من مواسم العمر محسوبة ، والسعود إلى طوالعها منسوبة :

وكانَتْ في دِمَشْقَ لنا ليالٍ ... سَرَقْناهنَّ من رَيْبِ الزّمانِ
جعلنــاهنَّ تــاريخَ اللّيــالي ... وعُنْوانَ المسرَّةِ والأماني

وهي مغاني التهاني التي ما نسيناها ، وأماني زماني التي نعمتُ بطور سيناها ، عليها وعلى وطني مقصورة ، والقلبُ في المعنى مقيمٌ بهما وإن كان في غيرهما بالصورة ، والأشواق إليهما قضاياها مُوَجَّهة وإن كانت غيرَ محصورة :

ولله عهدٌ قد تقضّى فإن يَعُدْ ... فإنّي عن الأيام أعفُو وأصفَحُ
بقلبيَ من ذكراه ما لَيْس ينقضي ... ومن بُرَحاء الشوق ما ليس يبرَحُ
إذا مَسَحَتْ كفّي الدموعَ تستُّراً ... بدَتْ زفرةٌ بين الجوانح تقدَحُ
فإن جمَعَتْ شَمْلي الليالي بقربهم ... تجمَّعَ غيلانٌ وميٌّ وصَيْدَحُ
على أنّها الأيامُ جِدٌ مُزَاحُها ... ورُبَّ مجدٍ في الأذى وهو يمزحُ

وكثيراً ما يلهج اللسان بقول من قال :

وما تَفْضُلُ الأوقاتُ أُخْرى لذاتها ... ولكنّ أوقاتَ الحِسانِ حِسَانُ

ويردد قول من شوقه متجدد :

سقى مَعْهَدَ الأحباب ناقعُ[1] صَيِّبٍ ... من المزن عن مَغْناه ليس يَرِيمُ
وإن لم أكن من ساكنيه فإنّه ... يحُلُّ به خِلٌ عليٌّ كريمُ

وينشد من يلوم ، قولَ مَنْ في حَشاه وَلَهٌ وفي قلبه كُلوم :

قد أصبح آخرُ الهوى أوّلَهُ ... فالعاذلُ في هواك ما لي ولَهُ
بالله عليكَ خلِّ ما أوّلَهُ ... وارحم دَنِفاً لدى حشاهُ ولَهُ

* * *

١ ط ج : نافع .

[شروعه في التصنيف بمصر]

وقد امتدّ بنا الكلام ، وربما يجعله اللاحي ذَريعة لزيادة الملام ، فلنرجع إلى ما كنا بصَدَده ، من إجابة المولى الشاهيني ، أمده الله سبحانه بمدده ، فأقول ، مستمدّاً من واهب العقول :

إنّي شرعت بعد الاستقرار بمصر في المطلوب ، وكتبتُ منه نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب ، وسلكت في ترتيبه أحسن أسلوب ، وعرضت في سُوقه كلّ نفيس غريب من الغرب إلى الشرق مجلوب ، تستحسن الأبصار ما عليه احتوى ، وتعرف الأفكار أنّه غير مُجْتوى ، ثم وقف بي مركب العزم عن التمام واستَوَى ، فأخَّرته تأخير الغريم ، لدين الكريم ، وصدّتني أعراض ، عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض ، وأضربْتُ برهة عمّاً له من مَنْحى ، لاختلاف أحوال الدهر نفعاً ودفعاً ومنعاً ومنحا ، ومرقَتْ عن هدَف الإصابة نبال ، وطرقت في سُدَف ليالي الكتابة أمور لم تكن تخطر ببال .

* * *

[رسالة من ابن شاهين تحثه على المضي في التأليف]

فجاءتني من المولى المذكور آنفاً ، رسالة دَلّتْ على أنّه لم يكن عن انتجاز الوعد متجانفاً ، فعُدْت لقضاء الوَطَر مستقبلاً وللجملة مستأنفاً ، وحداني خطابه الجسيم للإتمام وساقني ، وراقني كتابه الكريم لهاتيك الأيام وشاقني ، وذكرني تلك الليالي التي لم أنْسَها ، وحركني لهاتيك المعاهد التي لم أزل أذكر أنْسَها :

الإلف لا يصبر عن إلفه إلاّ كما يطرف بالعينِ
وقد صبرنا عنهمُ مــدّةً ما هكذا شأن المحبَّيْنِ

فيا له من كتاب[1] أعرب عن ودّ صميم ، وذكّر بعهدٍ غير ذمّيم ، وود طيب العَرْف والشّميم ، يخجل ابن المعتز لبلاغته وابن المعز تميم :

ولم تَرَ عَيْنايَ مِنْ قبله كتاباً حوَى بعضَ ما قد حوَى
كأنَّ المباسمَ ميماته ولاماته الصُّدْغُ لمّا التوَى
وأعيُنُه بعيونٍ[2] الحِسانِ تُغازِلُنا عند ذكر الهوَى
كتابٌ ذكَرْنا بألفاظه عهوداً زكَتْ بالحمى واللوَى

فكأنّه الروض المطّرِد الأنهار ، والدّوْح المدبّج الأزهار :

رأيْنا به رَوْضاً تدبّجُ وَشْيَهُ إذا جاد من تلك الأيادي غمائمُ
به ألِفاتٌ كالغصون وقد علا علَيْها من الهَمْزِ المطلّ حمائمُ

وقد سقيت بأنهار البراعة السّلْسالة ، حدائق حلّت بها غانية تلك الرسالة ، لتشفي صَبّها بالزيارة ، وتشرّف بدنوّها دياره :

زارت الصّبَّ في ليالٍ من البُعْـ ـد فلمّا دنت رأى الصبح يلْمَحْ
قلّدَتْ بالعِقْيانِ جيدَ بيَانٍ ليس فيه للفَتْح من بعدُ مطْمحْ[3]

فشفت النفس من آلامها ، وأحيَت ميت الهوى مذ حيّتْ[4] بعذب كلامها :

كلامٌ كالجواهر حين يَبْدُو وكالنّدّ المعَنْبر إذ يفُوحُ
له في ظاهر الألفاظ جسمٌ ولكنّ المعاني فيه رُوحُ

---

١ ك : كتاب كريم .
٢ ك : كعيون .
٣ يشير إلى الفتح بن خاقان وكتابيه : قلائد العقيان ومطمح الأنفس .
٤ مذ حيت : سقطت من ط .

فصيرت لي ذلك الكتاب سميراً ، ووردت من السرور مَشْرَعاً نميراً ، وتمثلت بقول بعض من أخلص في الود ضميراً :

يا مفرداً أهدى إليَّ كتابُهُ   جُمَلاً يحارُ الذهنُ في أثنائها
كالدُّرّ أشرق في سُموط عقوده   والزهرِ والأنوار غبَّ سمائها
فأفادني جَذَلاً وبالي كاسدٌ   وأجار نفسي من جوَى بُرَحائها
وحسبتُ أيام الشّباب رجَعن َ لي   فلبستُ حَلْيَ جمالها وبهائها
لا يعدمُ الإخوانُ منكَ محاسناً   كلٌّ المفاخر قطرةٌ من مائها

فأكرم به من كتاب جاء من السَّرِيِّ العلي ، والماجد الأخ الولي [1] :

فضَضْتُ ختامَهُ فتَبَيَّنَتْ لي   مَعانيه عن الخبر الجلي [2]
وكان ألذَّ في عيني وأندى   على كبِدي من الزَّهرِ الجَنيِّ
وضُمِّنَ صَدْرُهُ ما لم تُضَمَّنْ   صدورُ الغانياتِ من الحليِّ

وأعرب عن اعتمادٍ متماد ، ووداد مزداد ، وأطاب حين أطال ، وأدَّى دَيْنَ الفصاحة دون مطال ، واشتمل من فُصول العبارة على أحسن من الحدق المراض [3] ،وأتى من أصول البراعة ببراهين ابن شاهين التي لا خُلْفَ [4] فيها ولا افتراض [5] ، ورويتا من غيث أنامله الهَتُون ، ورَوَيْنا عنه مسند أحمد حَسَنَ الأسانيد والمتون ، وحَثّنا على العَوْد والرجوع ، وكان أجدى من الماء الزلال لذي ظمإ والمشتهى من الطعام لذي سَغَب وجوع :

---

[1] الأبيات لأبي تمام من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب (ديوانه : ٣٠٧ ط . بيروت ١٨٨٧) .
[2] الديوان : فتبلجت لي .
[3] ج : واشتمل من أحسن العبارة على أفضل . . . المراض .
[4] ج : لا اختلاف .
[5] ك : اعتراض .

وأشهى في القلوب من الأماني، وأحلى في العيون من الهُجوعِ

وجلا بنوره ظلام استيحاشي ، وحشر إليَّ أشتاتَ المسرات دون أن يحاشي ، ووجدني في مكابدة شغوب ، وأشغال أشربت القلبَ الكسلَ واللغوب ، وحيرت الخواطر ، وصيرت سُحُبَ الأقلام غير مَوَاطر ، فزحزح عني الغموم وسلاّني ، وأولاني — شكر الله صنيعه — من المسرات ما أولاني :

حديثُه أو حديثٌ عنه يُطْرِبني هذا إذا غاب أو هذا إذا حَضَرَا
كلاهُما حَسَنٌ عندي أُسَرُّ به لكنّ أحلاهما ما وافق النّظَرا

وقال آخر[1] :

لستُ مُسْتَأنِساً بشيءٍ إذا غبـ ـتَ سوى ذكرك الذي لا يَغيبُ
أنْتَ دون الجلاّس عندي وإن كنـ ـتَ بعيداً فالأنسُ منك قريبُ

وضَمّنْتُ فيه لمّا ورد مع جملة كتب من تلك الناحية ، وأنوارُ أهلها ذوي الفضائل الشهيرة أظهرُ من شمس الظهيرة في السماء الصاحية[2] :

قلتُ لمّا أتَتْ من الشام كُتُبٌ من أجلاّءَ نورُهُمْ يتألّقْ
مَرْحباً مَرْحَباً وأهلاً وسهلاً . بعيُونٍ رأت محاسِنَ جِلّقْ

وقلت أيضاً :

قلت لمّا وافت من الشام كُتْبٌ والليالي تُتيحُ قُرباً وبُعْدا
مرحَباً مرحباً وأهلاً وسهلاً بعيونٍ رأت محاسنَ سُعْدى

* * *

١ سقط البيتان من ق ط ج .
٢ سقط البيتان من ج .

وكان من فصول الكتاب الوارد ، من المولى[1] الشاهيني الذي اقتنص بفضله كلّ شارد ، ما نصّه : « وممّا استخلص قلبي من يَدَيْ تَرَحي ، وجدّد سُروري ونبّه فرحي ، حديثُ الكتاب وما حديث الكتاب ، حديثٌ نسخ بحلاوته مَرَارة العتاب ، وأنساني حرارة المصاب ، في الأنْسال والأعقاب ، وقضى به من حق لسان الدين ، دينه الذي تبرع به غَريم مَلِيءٌ من البلاغة وهو غير مدين ، حتّى كأنّني يا سيدي بهذه البشرى ، أحرزت سواريْ كسرى ، وكان في مسمعي كل حرف إليها منسوب ، قميص يوسف في أجفان يعقوب ، وحتّى كدت أهجر أهلي وبيتي ، وأسْرجُ لاستقبال هذه البشرى أشْهَبي وكُمَيْتي ، وحتى إنّني حاربت نومي وقومي ، وعزمت على أنْ أرحل ناقتي في وقتي ويومي ، وإن ذلك التغليس والتهجير ، في جنب ما بُشّرت به لحقير ، وإن موقعها لدى هذا العبد الحقير لخطير . وقد كنت سألت شيخي حين ورد دمشق الشام ، واشْتمّ منها العَرَار والبَشام ، وشرّفني فعرفني ، وشاهدني فعاهدني ، على أن يجري ما دار بيننا لدى المجاورة ، من المسامرة والمحاورة ، في ديباجة ذلك الكتاب ، الذي فتن العقول خبره وسحر الألباب ، وما قَصَدْتُ إلا أن يجري اسمي على قلمه ، ويرقم رسمي في مطاوي تحريره ورقمه ، ويكون ذكري مختلطاً بذكره ، كما أن سرّي مرتبطٌ في المحبّة بسره ، فرأيت شيخي لم يتصدّ في أثناء هذه البشرى ، لما يُفْهمني بالذكرى ، لأنتظر النجاح في الأخرى ، ولم يساعدني على ذلك الملتمَس ، وحبَس عِنانَ القلم فاحتبس ، فانكسرت سَوْرة سروري بفتوري ، وتبين لنفسي عن بلوغ ذلك الأمل تخلّفي وقصوري » انتهى .

ثم قال بعد كلام[2] لم نذكره لعدم تعلّقه بهذا الغرض ، ما صورته :

١ المولى : سقطت من ق .
٢ ك : كلام طويل .

«وحسبت أن سيدي-وحاشاه ، نسيَ مَنْ ليس ينساه ، وظننت به الظنون ، لأمور تكونُ أو لا تكون ، وهل يكره شيخي[1] أن يهدى الدنيا في طبق ؟ ثمّ الأخرى على ذلك النسق ، ولا شك أن خطّه هو الروضة الغنّا ، لا بلْ جنّة المأوى ، فطوبى لنفسي إن جنيت ثمرته طوبى ، ولعَمْرُ شيخي إنّي بذلك لجدير ، وإنّي كنت أملك به الخورنق والسدير » انتهى ما يتعلّق بالمطلوب[2] من ذلك الرقيم ، الذي شكل منطقه غير عقيم ، سلك الله تعالى بي وبمن وجّهه الصراطَ المستقيم .

وأتى في المكتوب بأنواع من البلاغة ، مما تركت ذكره هنا لعدم تعلّقه بهذا الأمر الخاص الذي ييسر لكارع[3] الأدب مَساغه ، وختمه بقصيدة نفيسة من نظمه يستنجز فيها ذلك الوعد ، وأشهد أنّه قد حاز فيها قصبَ السبق والمجد ، وما قلت إلا بالذي علمتْ سَعْدُ[4] ، وهذه صورتها :

يا سيّداً أفْديه بالأكْثَرِ   من أصْغَرِ العالم والأكبرِ
ويا وحيداً قَلَّ قولي له   عُطارد أنتَ مع المشتري
ويا مجيداً لَيْس عندي لَهُ   إلاَّ مقالُ المادحِ المُكْثِرِ
أقسمتُ بالبيت العتيق الذي   حجّتْ إليه الناسُ والمَشْعرِ
ما للعلا والعلم إلا أبو الـ   ـعبّاس شيخي أحمدُ المقّري
ذاك الذي آثرني منه بالـ   ـعلم الذي للغَير لَمْ يؤثرِ
وخَصّني منهُ بأشياء لَمْ   يفُزْ بها غَيري ولَمْ يعثرِ
فرُحْتُ عبداً ذا وفاء لَهُ   معترفاً بالرقّ لا أمتري

---

١ ك : سيدي وشيخي .
٢ ك : بالغرض .
٣ ق : لكاره ؛ ج ط : لمكاره .
٤ عجز بيت للحطيئة ، وصدره : وتعذلني أبناء سعد عليهم .

فيا أبا العبّاس يا مَنْ غدا أعظمَ في نفسيَ من مَعْشَرِي
ومَنْ إذا ما غاب عن ناظري كان سَميرَ القلب للمحضَرِ
هات أفِدْني سيدي عن علا الـ مَوْلى لسانِ الدين ذاكَ السَّري
ذاك الوحيدُ الفذُّ في عَصْرِهِ بل أوحَدُ الأدهُرِ والأعصُرِ
ذاك الذيَ أخبرني سيدي عنه مزَايا بعدُ لم تُحْصَرِ
ذاك الذي العَيُّوقُ لا يَعْتلي إلى مَعاليه ولا يَجْتري
ما قد وَعَدْتَ العبد في جَمْعِهِ من خَبَرٍ عَنْ فضله مُسْفِرِ
بخطّك الوضّاحِ وَهْوَ الذي مَخْبَرُه يُرْبي على المَنْظَرِ
والشيءُ لا يُرجى إذا ما غَدا مَنْظَرُه يُرْبي على المَخبرِ
نقشٌ على طِرْسٍ بياضٍ كما لاحَتْ عيونُ الرشإِ الأحْوَرِ
وأسطرٌ قد سُلْسلت مثلما لاح عِذارُ الشادِنِ المقمرِ[1]
ونزهةُ الأنفسِ مَعْنًى غدا ما بينَها ينسابُ كالكوثرِ
عذبٌ رقيقٌ مثلُ ظَبْيٍ غدا يلوحُ طاوي الكَشْحِ أو جؤذَرِ
آثارُ أقلامِكَ وَهْيَ التي أغنتْ عَنِ الأبيض والأسمرِ
يَرَاعُكَ الجامعُ راوٍ غَدا يروي اللُّغى عن لفظك الجوْهرِي
ينثرُ مِسْكاً تارة ناظماً وينظمُ الجوهَرَ بالعَنْبرِ
هذا ابنُ شاهينَ الفتَى أحمدٌ عن ذكرك المأنوس لم يَفْتُرِ
فاجعلْ له ذكراً كريماً به يَزْدانُ مغبوطاً إلى المحشرِ
واذكر بويتاقي[2] وكلٌّ الذي كتبتُه نحوك في دفتري
أنت جَديرٌ بمديحي فكُنْ ذاكِرَ عبدٍ بالوفا أجْدرِ
وهاكَها سيّارةٌ أعْنَقَتْ على جوادٍ كان للبحتري

. . . .

١ ك : الأخفر .
٢ ك : بيوتاتي .

طِرْفٍ كريمٍ سابِقٍ صافنٍ مُطَهَّمٍ ذي أدبٍ أوْفَرِ
ورِثْتُـــه منــه ولكنّمـــا من شاعرٍ وافى إلى أشْعَرِ
ما للفَتَى الطائيِّ شَوْطٌ امرىء يَصْطادُ نسرَ الجوِّ بالمِنْسَرِ
واسْلَمْ لعبدٍ لا يرى سيّداً سوى الذي في ثوبك الأطهرِ
في كرم العنصر فرداً غدا طبعُكَ فاشكرْ كرَمَ العُنْصُرِ
ما حَنَّ مشتاقٌ أخو صَبْوةٍ إلى خليل في الهَوى مُفْكِرِ

انتهت .

* * *

[تهمم المؤلف لاستئناف التصنيف]

فلمّا وصلني هذا الخطاب ، الذي ملأ من الفصاحة الوِطاب ، وحَلا في عيني وقلبي وطاب[1] ، تحركت دواعي الوجد ، لذلك المجد ، الذي ولعت به ولوع ابن الدمينة بصَبا نجد ، وأثار من الهيام والأوار ، ما يزيد على ما حصل للفرزدق لما فارق النوار ، وتضاعف الشوق إلى تلك الأنجاد والأغوار ، مُنْشِداً قول الأول : « لعل أبي المغوار »[2] ، وتذكرت والذكرى شجون وأطوار ، تلك الأضواء والأنوار ، المشرقة بقطر أزهر بالمحاسن ، وجرى نهره غير آسن ، فلم يذم فيه الجوار :

وإنّ اصطباري عن مَعاهد جلّقٍ غريبٌ فما أجفى الفراقَ وأجفاني
سقى الله أرضاً لو ظفرتُ بتربها كحلتُ بها من شدة الشوق أجفاني

وحصل التصميم ، على التكميل للتأليف والتتميم ، رَعْياً لهذا الوليّ الحميم ،

١ وحلا . . . وطاب : سقطت من ق ط ج .
٢ من قول كعب بن سعد الغنوي :
فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة لعل أبي المغوار منكَ قريب

أفاض الله تعالى عليه غيثَ البر العميم ، وأبقى ظل عزه ممدودا ، وخلّى[1] سؤدده مودودا ، وأناله من الخيرات ما ليس محصوراً ولا معدودا ، وجمعني وإيّاه ، وأطلع لي بِبشر مُحيّاه ، وأنشقني عَرْف اجتماعه وريّاه ، وكيف لا أستديم أمدَ بُقْياه ، وأعتقد البشائر في لقياه ، وأسقي غروس الود بسُقْياه ، وهو الصدر الذي أصفى لي الوداد ، والركن الذي لي بثبوته اعتداد[2] :

فعَلَيْه من مُصْفي هواه تحيّةٌ كالمِسْكِ لما فُضَّ عَنْهُ ختامُ

تَتْرَى بساحته السنيّةِ ما دَعَتْ فوقَ الغُصُون هديلَهُنَّ حَمامُ

ودامتِ فضائله ظاهرةً كالشمس ، محروسة بالسبع المثاني معوَّذة بالخمس :

ولا انفكَّ ما يَرْجُوه أقربَ من غدٍ ولا زال ما يَخْشاه أبعدَ من أمسِ

وبقي من العناية في حرم أمين ، آمين .

ولما حصل لي كمال الاغتباط ، بما دل على صحة حال الارتباط ، نَشَرتُ[3] بساط الانبساط ، وحدثت لي قوّة النشاط ، وانقشعت عني سحائب الكسل والمجابت ، وناديتُ فكرتيَ فلبّتْ مع ضعفها وأجابت ، فاقتدحْتُ من القريحة زَنْداً كان شَحاحا ، وجمعت من مُقَيّداتي حساناً وصحاحا ، وكنت كتبت شَطْره ، وملأت بما تيسر هامِشَهُ وسَطْره ، ورقَمْتُ من أنباء لسان الدين ابن الخطيب حُللاً لا تُخْلِقُ جدّتَها الأعصرُ ، وسلكت من التعريف به رحمه الله مهامِهَ تكلُّ فيها واسعات الخطا وتقصر . فحَدث لي بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس جملة ومن كان يعضد بها الإسلام وينصر ، وبعض مفاخرها الباسقة ، ومآثر أهلها المتناسقة ، لأن كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا يحصر ، وجئت

---

١ ك : وحل .

٢ ك : اعتماد واعتداد .

٣ ك : نشر .

من النظم والنثر بنبذة توضح للطالب سبله ، وتُظهر علمه ونبله ، وتُترعُ محاسنه من راح المذاكرة وإناءه ، حتى يرى إيثار هذا المصنَّف وإدناءه[1] ، وكنت في المغرب وظلالُ الشباب ضافية ، وسماء الأفكار من قَزَعِ الأكدار صافية ، معتنياً بالفحص عن أنباء[2] الأندلس ، وأخبار أهلها التي تنشرح لها الصدور والأنفس ، وما لهم من السبق في ميدان العلوم ، والتقدّم في جهاد العدوّ الظَّلوم ، ومحاسن بلادهم ، ومواطن جدالهم وجلادهم ، حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الأفاضل الأخاير ، وانتقيت جواهر : فرائدُها للعقول بَوَاهر ، واقتطفت أزاهر ، أنجُمها في أفق المحاضرة زواهر ، وحَصَّلت فوائد بواطن وظواهر ، طالما كانت أعين الألبّاء لنيلها سواهر ، وجمعت من ذلك كَلِماً عالية ، لو خاطب بها الداعي صُمَّ الجلامد لانبَجَس حجرها ، وحِكَماً غالية ، لو عامل بها الأيام ربح متجرها ، وأسجاعاً تهتز لها الأعطاف ، ومواعظ يعمل بمقتضاها من حَفَّت به الألطاف ، وقوافيَ موفورة القَوادم والخوافي ، يُثني عليها مَنْ سلم من الغَباوة والصمم ، ويعترف ببراعتها من لا يعتريه اللَّمم ، وطالما أعرض الجاهل الغَمْر بوجهه عن مثلها وأشاح ، وأنصت لها الحَبْرُ إنصات السِّوار لجَرْس الحلي ونَغَم الوشاح ، وفرح إن ظفر بشيء منها فرحَ الصائد بالقنيص ، والساري العاري ذي البطن الخميص ، بالزاد والقميص ، وتركتُ الجميع بالمغرب ، ولم أستصحب معي منه ما يبين عن المقصود ويُعْرب ، إلا نَزْراً يسيراً علق بحفظي ، وحَلَيت بجواهره جيدُ لفظي ، وبعض أوراق سعد في جواب السؤال بها حظي ، ولو حضرني الآن ما خلَّفته ، ممّا جمعت في ذلك الغرض وألَّفته ، لقَرَّت به عيون وسُرَّت ألباب ، إذ هو والله الغاية في هذا الباب ، ولكن المرء ابنُ وقته وساعته ، وكلٌّ ينفق على قدر وُسْعه

---

١ ك : وتترع كأس محاسنه . . . حتى يرى حسن هذا التأليف أبناء هذا التصنيف وأدباؤه .

٢ ك : أنباء أبناء .

واستطاعته ، وعذر مثلي باد ، للمنصفين من العباد ، إن قصّرت فيما تبصّرت ، أو تخلّفت في الذي تكلّفت ، أو أضعت تحرير ما وضعت ، والتقمتُ ثديَ التقصير ورَضَعْتُ ، أو أطعتُ داعي التّواني فتأخرتُ عمن سبق وانقطعتُ ، ﴿ إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت ﴾[1] ، ومَنْ كانَتْ بضاعته مُزْجاة ، فهو عن الإنصاف بمنجاة ، إذ أتى بالمقدور ، وتبرأ من الدعوى في الورود والصدور ، وعينُ الرضا عن كل عيب كَليلة ، والسلامة من الملامة متعذرة أو قليلة ، وقد قال إمامُنا مالكٌ صاحبُ المناقب الجليلة : «كل كلام يؤخذ منه ويُرد إلاّ كلام صاحب هذا القبر » صلى الله عليه وسلم أزكى صلاة وأتم سلام وشفَى بجاهه من الآلام قلوبَنا العليلة ، وجَعَلنا ممن كان اتّباعُ سنّته رائدَه ودليله ، آمين .

والحمد لله الذي يَسّر لي هذا القدر ، مع ضيق الصدر ، وقلة بضاعتي ، وكثرة إضاعتي ، فإن حَمْده جل جلاله تتضوّع به المطالب طيباً ، وتقضى ببركته[2] المآرب فيرقَى صاحبها على منبر القبول خطيباً ، وتعذُب به المشارب فتُنْبِتُ في أرض القرطاس ، من زاكي الغراس ، ما يروق منظراً نضيراً ويورق غُصْناً رطيباً ، وقد أتيت من المقال ، بما يُقِرُّ إن شاء الله تعالى عينَ وامق ويُرْغم أنفَ قال ، وإن كنتُ ممن هو في ثوب العيّ رافل ، وعن نسبته للقصور غير غافل ، وممن جعل النفسَ هَدَفاً[3] ، وصيّر مكان الدُّرِّ صَدَفاً ، إذ لسانُ الدين بن الخطيب إمام هذه الفنون ، المحقّق لذوي الآمال الظنون ، المستخرج من بحار البلاغة درّها المكنون ، وله اليَدُ الطولى في العلوم على اختلاف أجناسها ، والألفاظ الرائقة التي تزيح وحْشَةَ الأنفس بإيناسها :

---

١ سورة هود : ٨٨

٢ ج : به .

٣ يريد قولهم : « من ألف فقد استهدف » .

ناهيك من فَرْدٍ أغرَّ ممدَّحٍ رَحْبِ الذَّرا حُرُّ الكلام محسَّدِ
بهَرَ الأنامَ رياسةً وسياسةً وجلالةً في المنتَمى والمَعْدُدِ[1]
وأتى بكلِّ بديعة في نوعها لم تُخترَعْ وغريبةٍ لم تُعْهَدِ
ما شئتَ من شعرٍ أرقَّ من الصَّبا وكتابةٍ أزهى من الزهر النَّدي
وبديعِ قرطاسٍ توشَّح مَتْنُه بمُنَمْنَمٍ من رَقْمه ومنجَّدِ
بهِجٍ كأنَّ الحسن حلَّ أديمَهُ فكساه رَيْعانَ الشباب الأغْيَدِ
وكأنَّما سال العِذارُ عليْهِ أو خطَّتْهُ أيدي الغانيات بإثمدِ
يختالُ بين مُوصَّلٍ ومُفَصَّلٍ ومُطرَّزٍ ومُنَظَّمٍ ومُنَضَّدِ
كالبُرْدِ في توشيعه ، والسِّلك في ترْصيعه ، والوَشْي نُمِّقَ باليَدِ[2]
قد قيَّدَ الأبصارَ والأفكارَ من ألفاظه بمثقَّفٍ ومُقَيَّدِ
ما فيه مَغْرزُ إصْبَعٍ إلا وفيـ ـه نتيجَةٌ لمفرَّعٍ ومُوَلَّدِ
ولكُلِّ جزء حكمةٌ أو مُلْحةٌ أو بدْعةٌ لمرسَّلٍ ومُقَصَّدِ
أوَليس مثلي قاصراً عن وَصْفه والحقُّ نورٌ واضحٌ للمهتدي

وكما قلت وقد عجزت عن أداء الواجب وحاولت المَسْنُون ، وفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده ليس بممنوع ولا ممنون :

لَيْتَ شِعْرِي أيُّ العبارات تُوفي واجبَ ابنِ الخَطيب ممّا أرُومُ
وأنا عاجزٌ عنِ البَعْضِ منها لقُصُوري وما العَيِيُّ مَلومُ
وَهْوَ يُدْعَى لسانَ دين وناهيـ ـكَ افتخاراً به تَتِمُّ الرُّسُومُ
فبأيِّ الحُلَى أحلّي عُلا من نالَ فَضْلاً روَتْهُ عُرْبٌ ورُومُ
وعلى الفَرْض ما الذي أنتحي منـ ـه لَدَى الوَصْفِ أن يخص العُمومُ
ألحِفْظٍ قد ارْتَوى من مَعينٍ لصَوابٍ علَيْهِ كلٌّ يحومُ
...

١ ك : والمحتد .
٢ وقع قبل البيتين السابقين ، في ك .

أم لفَهْمٍ يستخرج الدرّ غَوْصاً   من بحارٍ يَخْشَى بها من يعُومُ
أم لفـكرٍ مؤلّفٍ في فنون   عِدّةٍ ما[1] به تُداوى الكُلُومُ
أم لنظمٍ كأنّه جَوْهرُ السِّلْـ   ـكِ غَلا قَدْرُهُ على من يسومُ
تتباهى بـه الصُّدورُ حُلِيّاً   وتروقُ العيونَ منه نجومُ
أم لنثرٍ وافى بِسِحْرِ بيانٍ   فَهْوَ كالرُّوح والمعاني جُسومُ
وأظـلّتْهُ للبـديعِ سَماء   تتلالا في جانِبَيْها العُلُومُ
فاستزادَتْ منه النفوسُ رَشاداً   واستزانَتْ منه النُّهى والحُلُومُ
أم لخطّ مُنَمْنَمٍ فاقَ حُسْناً   مثلَ وَشْيٍ تلوحُ منهُ الرُّقومُ
أو كزَهْرٍ في بَهْجة ورُوَاء   وأريج به تُزاحُ الغُمومُ
والغصون الأقلامُ ، والطِرْسُ رَوضٌ   ناضِرٌ ، والمِدادُ غَيْثٌ سَجُومُ
تلك سِتٌّ أعْجَزْن وَصْفي فإنّي   بسِوَاها ممّا يجلّ أقُومُ

ولم يكن جمعي – علم الله – هذا التأليف لرِفْد أستهديه ، أو عَرَض نائل أستجديه ، بل لحقّ وُدّ أؤديه ، ودَيْن وعد أقدّمه وأبديه ، ووقوف عند حد لا يجوز تعدّيه ، وتلبية داعٍ أحييه وأفديه :

إنّ مَن يرجو نوالاً ونَدًى   من بني الدنيا لذو حَظّ غَبين
فلقَدْ كانَ على غَيرِ الهُدى   مَنْ يُسَوّيهم بربّ العالمين
ويُرَجّي منهمُ الرزقَ فهل   خالق الكلّ فقيرٌ أو ضَنين
أنُخلّي قَصْدَ ربّ مالكٍ   ونُرَى للخلقِ جَهْلاً قاصدين
ما لنا من مَخْلصٍ نأتي به   غير جاهِ المصطفى الهادي الأمين
سَيّد الخلق العمادِ المرتَجَى   للمُلِمّات شَفيع المذنبين
فعلَيْهِ صَلَواتٌ تنتحي   حضْرَةً حلّ بها في كل حين

---

[1] ك : من دهاه .

والرضى من بَعْدُ عن أربعةٍ هم بحقٍّ أمراء المؤمنين
فيميناً إنَّ من يَهْواهمُ ليكونَنَّ مِنَ اَصحابِ اليمين
وَسْطَ جنّاتٍ تحيّيه بها آنساتٌ قاصراتُ الطَّرفِ عِين
بقَوَارير لُجَينٍ شُرْبُه وأباريقَ وكأسٍ من مَعِين
والذي شَرَّفهم يَمْنَحُنا حُبَّهُم والكونَ معهم أجمعين .

فدونك أيها الناظر في هذا الكتاب ، المتجافي عن مَذهب النقد والعتاب ، كلماتٍ سوانح ، اختُلِسَتْ مع اشتغال الجوانح ، وتضاد الأمور الموانع والموانح ، وألفاظاً بوَارح اقتُنصت بين أشغال الجوارح ، وطُرَفاً أسَمْتُ الطَّرْفَ في مَرْعاها وكانت هَمَلاً غير سَوارحٍ ، وتحفاً يحصلُ بها لناظره الإمتاع ، ولا يعدّها من سَقَط المتاع المبتاعَ ، ويلهج بها المرتاح ويستأنس المستوحش المرتاع .

* * *

[منهج الكتاب]

وبعد أن خمنت تمام[1] هذا التصنيف ، وأمعنت النظر فيما يحصل به التقْريطُ لسامعه والتشنيف ، قسمته قسمين ، وكل منهما مستقل بالمطلوب فيصح أن يسمَّيا باسمين :

القسم الأول ـ فيما يتعلّق بالأندلس من الأخبار المترعة الأكواب ، والأنباء المتنحية صَوْبَ الصواب ، الرافلة من الإفادة في سوابغ الأثواب ، وفيه بحسب القصد والاقتصار ، وتحرّي التوسّط في بعض المواضع دون الاختصار ، ثمانية من الأبواب :

١ ق : ختمت اتمام ؛ ج : خفست اتمام .

الباب الأول : في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها ووُفور خيرها وكمالها واستوائها ، واشتمالها على كثير من المحاسن[1] واحتوائها ، وكرم نباتها الذي سقته سماء البركات من جنباتها بنافع أنوائها ، وذكر بعض مآثرها المجلوّة الصُّوَر ، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكُوَر ، المستمدّة من أضوائها .

الباب الثاني : في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقياد ، وفتحها على يد مُوسَى بن نُصَيْر ومولاه طارق بن زياد ، وصَيرورتها ميداناً لسَبْق الجياد ، ومحطّ رحال الارتياء والارتياد ، وما يتبع ذلك من خبَر حصل بازديانه ازدياد[2] ، ونيل وصل إليه اعتيامٌ وتقرر بمثله اعتياد .

الباب الثالث : في سَرْد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي العماد ، والقهر للعدوّ في الرواح والغدوّ والتحرك للهدوّ البالغ غاية الآماد ، وإعمال أهلها للجهاد ، بالجدّ والاجتهاد ، في الجبال والوهاد ، بالأسنّة المُشْرَعة والسيوف المستَلّة من الأغماد .

الباب الرابع : في ذكر قُرْطُبَة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة ، وجامعِها الأمويّ ذي البدائع الباهية الباهرة ، والإلماع بحَضْرَتي الملك : الزهراء الناصرية والعامرية الزاهرة ، ووصف جملة من متنزهات تلك الأقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهرة ، وما يجرّ إليه شجونُ الحديثِ من أمور تقضي بحسن إيرادها القرائحُ الوقادة والأفكار الماهرة .

الباب الخامس : في التعريف ببعض من رحَل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق

---

١ ك : المنافع والمحاسن .
٢ ك : زياد .

الداكية العَرّار والبَشام ، ومَدْح جماعة من أولئك الأعلام ، ذوي الألباب الراجحة والأحلام ، لشامةِ وَجْنَةِ الأرض دِمَشْق الشام ، وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها وأرباب بيانها ذوي السؤدد والاحتشام ، ومُخاطباتهم للمؤلف الفقير حين حلّها عام سبعة وثلاثين وألف وشاهد بَرْقَ فضلها المبين وشام .

الباب السادس : في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المَشْرق ، المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء المُشْرِق ، والأكابر الذين حلّوا منها بحلولهم فيها الجيدَ والمَفْرِق ، وافتخروا برُؤية قُطْرِها المونِقِ على المُشْئم والمُعْرِق .

الباب السابع : في نبذة ممّا منّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقّدِ الأذهان ، وبَذْلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عزّ أو هان ، وحَوْزهم في ميدان البراعة من قَصَب السَبْقِ خَصْلَ الرهان ، وجملة من أجوبتهم الدالة على لوذعيتهم ، وأوصافهم المؤذنة بألمعيتهم ، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فَضْلهم أوضح بُرْهان .

الباب الثامن : في ذكر تغلّب العدوّ الكافر على الجزيرة بعد صَرْفه وجوه الكيد إليها ، وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره ، واستعماله في أمرها حِيَلَ فكره ، حتى استولى — دمّره الله — عليها ، ومحا منها التوحيدَ واسْمَه ، وكتب على مشاهدها ومعاهدها وَسْمَه ، وقرر مذهب التثليث والرأي الخبيث لديها ، واستغاثة مَنْ بها بالنظم والنثر ، أهلَ ذلك العصر ، من سائر الأقطار ، حين تعذرت بحصارها ، مع قلة حُماتها وأنصارها ، المآربُ والأوطار ، وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها ، أعاد

الله تعالى إليها كلمة الإسلام ، وأقام فيها شريعة سيد الأنام ،
عليه أفضل الصلاة والسلام ، ورفع يد الكفر عنها وعمّا
حوَاليها ، آمين .

ولم أخلِ باباً في هذا القسم من كلام لسان الدين بن الخطيب وإن قلّ ، مع أن القسم الثاني بذلك كما ستقف عليه قد استقلّ ، وهذا آخر ما تعلّق بالقسم الأول ، وعلى الله سبحانه المتّكل والمعوّل .

القسم الثاني – في التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، وذكر أنبائه التي يَرُوق سماعها ويتأرج نَفْحها ويَطيب ، وما يُناسِبُها من أحوال العلماء الأفراد ، والأعلام الذين اقتضى ذكرَهم شجونُ الكلام والاستطراد ، وفيه أيضاً من الأبواب ثمانية ، موصلة إلى جنّات أدبٍ قُطُوفُها دانية ، وكل غصن منها رطيب :

الباب الأول : في أولية[١] لسان الدين وذكر أسلافه ، الذين وَرِثَ عنهم المجدَ وارتضع دَرَّ أخلافه ، وما يناسب ذلك مما لا يذهب المنصفُ إلى خلافه .

الباب الثاني : في نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ، ومُساعدة الدهر له ثم قَلْبه له ظهرَ المِجَنّ على عادته ، في مُصافاته ، ومنافاته ، وارتباكه ، في شباكه ، وما لقي من إحَنِ الحاسد ، ذي المذهب الفاسد ، ومحن الكايد المستأسد وآفاته ، وذكر قصوره وأمواله ، وغير ذلك من أحواله ، في تقلباته عندما قابله الزمان بأهواله ، في بَدْئه وإعادته إلى وفاته .

الباب الثالث : في ذكر مشايخه الجِلّة ، هُداة الناس ونجوم المِلّة ، وما يتصل

---

١ ك : في ذكر أولية .

بذلك من الأخبار الشافية للعلة ، والمواعظ المنجية من الأهواء المُضِلة ، والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة .

الباب الرابع : في مخاطبات الملوك والأكابر الموجّهة إلى حضرته العليّة ، وثناء غير واحد من أهل عصره عليه ، وصَرْف القاصدين وجوهَ التأميل إليه ، واجتلائهم أنوار رياسته الجليّة[1] .

الباب الخامس : في إيراد جملة من نَثْره الذي عَبِق أريجُ البلاغة من نَفحاته ، ونظمه الذي تألّق نور البراعة من لمحاته وصفحاته ، وما يتصل به[2] من بعض أزجاله ومُوَشّحاته ، ومناسبات رائقة من فنون الأدب ومُصْطلحاته .

الباب السادس : في مُصَنّفاته في الفنون ، ومؤلّفاته المحقّقة للواقف عليها الآمالَ والظنون ، وما كمل منها أو اخترمَتْه دون إتمامه المَنون .

الباب السابع : في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه ، المستدلّين به على المنهاج ، المتلقين أنواع العلوم منه ، والمقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهّاج .

الباب الثامن : في ذكر أولاده الرافلين في حُلَل الجلالة ، المقتفين[3] أوصافه الحميدة وخِلالَه ، الوارثين العلم والحلم والرياسة والمجد عن غير كَلالة ، ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا ، المشتملة على النصائح الكافية ، والحِكَم الشافية ، من كل مَرَض بلا ثُنْيا ، المنقذة من أنواع الضلالة ، وما يتبع ذلك من المناسبات القوية ، والأمداح النبوية ، التي لها على حسن الختام أظهر دَلالة .

---

١ ق ج ط : الجليلة .

٢ ك : بذلك .

٣ ج : الموافقين .

وقد كنت أولاً سمّيته بـ « عَرْف الطِّيب ، في التعريف بالوزير ابن الخطيب » ، ثم وسمته حين ألحقت أخبار الأندلس به بـ « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » .

وله بالشام تعلُّق من وجوه عديدة ، هادية متأملها [1] إلى الطرق السديدة :

أوّلها : أن الداعي لتأليفه أهل الشام — أبقى الله مآثرهم وجعلها على مرّ الزمان مديدة .

ثانيها : أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ذوو الشَّوْكة [2] الحديدة .

ثالثها : أن غالب أهل الأندلس من عَرَب الشام الذين اتخذوا بالأندلس وطَناً مستأنَفاً وحَضْرة جديدة .

ورابعها : أن غَرْناطة نزل بها أهل دمشق ، وسمّوها باسمها لشبهها بها في القصر والنهر ، والدَّوْح والزهْر ، والغُوطة الفيحاء ، وهذه مناسبة قوية العُرَى شديدة .

• • •

[خاتمة المقدمة]

هذا ، وإنّي أسأل ممن [3] وقف عليه ، أن ينظر بعين الإغضاء إليه ، كما أطلب ممن كان السبب في تصنيفه ، والداعي إلى تأليفه وتَرْصيفه ، استناداً لركن الثقة ، واعتماداً على الود والمِقَة ، أن يصفح عمّا فيه من قصور ويَسْمح ، ويُلاحظه بعين الرضى الكَليلة ويَلْمح ، إذ ركِبْتُ شكل منطقه والأشجان غالبة ، وقضية الغربة ، موجبة للكربة ، ولبعض الآمال سالبة ، وهو — وإن لم يُوفِ

---

١ ك : لمتأمله ؛ ق ط : متأمله .

٢ ك : ذوو النجدة والشوكة .

٣ ط : من .

بكل الغرض — فلا يخلو من فائدة ، وقد يُستَدل على الجوهر بالعرَض ، فإن أديتُ المفترض وذاك المـرَام الذي أرتضيه ، ويُوجب الود ويقتضيه :

وإلا فحسبي أن بذلتُ به جهدي وأنفقت من وُجْدي على قدر ما عندي

وقد توهـّمت أنّي لم أسبق إلى مثله في بابه ، إذ لم أقف له على نظيرٍ أتعلق بأسبابه ، ورَجَوْت أن يكون هـَديّة مستملحة مستعذبة ، وطُرْفة مقبولة مستغربة :

هَديّتي تقصرُ عن هِمّتي وهِمّتي أكْثَرُ من مالي
وخالصُ الود ومحض الإخا أكثرُ ما يُهْديه أمثالي

وأوردت فيه من نظم وإنشاء ، ما يكفي المقتصرَ عليه إن شاء ، ومن أخبار ملوك ورؤساء ، وطبقات مَن أحسن أو أساء ، ما فيه اعتبار للمتأمّل ، وادّكار للراحل المتحمّل ، وزينة للذاكر المتجمل ، وتنكيت على أهل البـَطَر ، وتبكيت لمن خرج من دنياه ولم يقض من الطاعة الوَطَر :

أرى أولادَ آدمَ أبْطَرَتْهُمْ حظوظُهُمُ من الدنيا الدَّنيّهْ
فلِمْ بَطِرُوا وأوّلهم مَنيّ إذا نُسبوا وآخرهم مَنيّهْ

وفيه إيقاظ لمثلي من سِنَة الغفلة ، وحَثٌّ على عدم الاغترار بالمهلة ، وتنبيه للابس بُرْد الشباب القشيب ، أنّه لا بدّ من حادث الموت قبل أو بعدَ المشيب :

لله درُّ الشيبِ من واعظٍ وناصحٍ منهاجُهُ واضحُ[1]
كلُّ امرِيء يعجبه شأنه وحادث الدهر له فاضحُ

---

[1] جمع فيه بيتَي أبي نواس :

لله در الشيب من واعظ وناصح لو حظيء الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

فكَمْ باكٍ على عَصْر الشباب ، وشاكٍ لفراق عَهْد الصِّبا والأحباب ، أنساه طارقُ الزمان سُلَيمى والرّباب :

مضَى عَصْرُ الشباب كلَمْحِ بَرْقٍ وعَصْرُ الشيب بالأكدار شِيبا
وما أعددتُ قبلَ الموتِ زاداً ليَومٍ يجعل الولدان شِيبا

وما أحسن قول بعض الأعلام :

مَضَى ما مَضَى من حُلْو عيشٍ ومُرّهِ كأنْ لم يَكُنْ إلا كأضغاث أحْلامِ

وقول من أرشد سفيها :

إنّما هذه الحياةُ متاعٌ فالجهولُ الجهولُ من يَصْطفيها
ما مَضَى فات والمؤمَّلُ غَيْبٌ ولك الساعةُ التي أنتَ فيها

وفي معناه لغيره :

دُنْياكَ شيئان فانْظُرْ ما ذانِكَ الشّيْئانِ
ما فات منها فَحُلْمٌ وما بقي فأماني

وما أحكم قولَ ابن حِطان ، مع وقوعه من البِدْعة في أشطان [1] :

يأسفُ المرء عَلى ما فاتَهُ من لُبانات إذا لَمْ يَقْضِها
وتَراه ضاحكاً مُسْتَبْشِراً بالتي أمْضَى كأن لم يُمْضِها
إنها عندي كأحلام الكَرَى لَقَريبٌ بَعْضُها من بَعْضِها

ولغيره :

والله لو كانتِ الدنيا بأجمعها تَبْقَى علينا ويأتي رزْقُها رَغَدا
ما كان من حَقّ حُرّ أن يذلّ لها فكيف وَهْي متاعٌ يَضْمحلّ غَدا

---

١ انظر مجموعة شعر الخوارج : ١٩ (القطعة : ٣٣) .

ولآخر :

لا حَظَّ في الدُّنيا لمُستَبْصِرٍ يَلْمحُها بالفِكرة الباصِرَهْ
إن كدّرت مَشْرَبَهُ مَلّها وإنْ صَفَتْ كدَّرت الآخرهْ

ويعجبني قولُ الوزير ابن المغربي[1] :

إنّي أبثُّك من حَدِيـ ـثي والحديثُ له شُجونُ
فارَقْتُ موضِعَ مَرْقَدي ليلاً ففارَقني السكونُ
قُلْ لي فأوّلُ لَيْلَةٍ للقبر كيف تُرَى أكونُ

وقول ماميه[2] :

تأمّل في الوُجُود بعَين فِكْرٍ تَرَ الدُّنيا الدنيّةَ كالخَيال
ومَنْ فيها جَميعاً سوف يَفْنى ويَبْقى وجهُ ربِّك ذو الجَلال

وقول بعض العارفين :

استَعِدّي يا نفسُ للموت واسعَيْ لنجـاةٍ فالحـازمُ المُستَعِدُّ
قَدْ تبيَّنتِ أنّهُ لَيْسَ للحيِّ خُلُودٌ وما مِنَ الموتِ بُدُّ
إنّما أنتِ مُستعيرةٌ ما سوْ فَ تَرُدّينَ والعَوَارِي تُرَدّ
أنتِ تَسْهينَ والحوادثُ لا تسـ ـهُو وتَلْهينَ والمَنايا تَجِدّ

---

١ هو أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين المغربي (– ٤١٨) ، شارك في الفتن السياسية في عصره ، وبينه وبين المعري مراسلة وإليه وجه المعري رسالة المنيح (وفيات الأعيان ١ : ٤٢٨ والشذرات ٣ : ٢٠١) والأبيات في ابن خلكان : ٤٣٠ .

٢ هو المعرف بماميه الرومي واسمه محمد بن أحمد بن عبد الله (– ٩٨٨) ولد في الاستانة ونشأ بدمشق ، وكان من الينكجرية ، وله ديوان شعر (شذرات الذهب ٨ : ٤١٣) . وفي ج : وقول أمية .

أيُّ ملك في الأرض أو أيُّ حظّ ٍ   لامرىء حظُّه من الأرض لحدُ
لا ترجّي البقاء في معْدِن المو   تِ ودارٍ حتوفُها لك وِرْدُ
كيف يرْجُو امرؤ لذاذة أيا   مٍ عليْهِ الأنفاسُ فيها تُعَدُّ

وأسأل من مُبْلِغ السائلين ما يرجون : أن يصفح عن زلاّتي ويسامحني فيما أوردت في هذا الكتاب من الهزل والمجون ، الذي جرَّت المناسبة إليه[1] والحديثُ شجون ، وما القصْد منه إلا ترويح قلوب الذين يسوقون عِيسَ الأسمارِ ويُزْجُون ، وفيما أوردت من المواعظ والنصائح ، وحكايات الأولياء الذين طيبُ زهرِ مناقبهم فائحْ ، والتوسّل بمحاسن الأمداح النبوية أن يستر بفضله سبحانه القبائح ، ويُرِينا وجهَ القبول بلا اكتتام ، ويمنحنا الزُّلفَى وحُسنَ الختام :

ومــن يتوسل بالنبي محمد   شفيع البرايا السيد السند الأسنى
فذاك جدير أن يُكَفَّرَ ذنبه   ويمنح نيل القصد والختم بالحسنى

وهذا أوانُ الشروع ، في الأصول من هذا الكتاب والفروع ، وعلى الله سبحانه أعتمد ، ومن مَعُونته أستمدّ .

---

[1] ق : جرته المناسبة .

القسم الأول

فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المترَعَة الأكواب ،
والأنباء المنتحية صَوْبَ الصواب ، الرافلة من
الإفادة في سوَابغ الأثواب ، وفيـــه
ــ بحسب القَصْد والاختصار ، وتحرِّي
التوسط في بعض المواضع دون
الاختصار ــ ثمـــانيةٌ
من الأبواب

الباب الاول

في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها ووفور خيراتها واستوائها ، واشتمالها على كثير من المحاسن واحتوائها ، وكرم بُقْعتها التي سَقتها سماء البركات بنافع أنوائها ، وذكر بعض مآثرها المجلوّة الصورَ ، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكُوَر ، المستمدة من أضوائها

فأقول :

محاسن الأندلس لا تُستَوْفى بعبارة ، ومجاري فَضْلها لا يشق غُباره ، وأنّى تُجارَى وهي الحائزة قَصَبَ السّبق ، في أقطار الغرب والشرق .

• • •

[مقدمات عامة في مزايا الأندلس]

قال ابن سعيد : إنّما سميت بأندلس بن طوبال [1] بن يافث بن نوح ، لأنّه نزلها ، كما أن أخاه سَبْتَ بن يافث نزل العُدْوة المقابلة لها ، وإليه تُنسب سَبْتة . قال : وأهل الأندلس يحافظون على قَوام اللسان العربي ، لأنّهم إمّا عرب أو متعربون ، انتهى .

وقال ابن غالب [2] : إنّه أندلس بن يافث ، والله تعالى أعلم .

وقال الوزير لسان الدين بن الخطيب — رحمه الله تعالى — في بعض كلام له

---

١ ط : بالأندلس ؛ ج : بن طوفان .

٢ هو محمد بن أيوب بن غالب صاحب كتاب « فرحة الأنفس » الذي ينقل عنه المقري في مواضع ، وقد بقيت من الكتاب قطعة نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات ١ : ٢٧٢–٣١٠ ؛ وعبارته المنقولة تقع على الصفحة ٢٨١ .

أجرى فيه ذكر البلاد الأندلسية ، أعادها الله تعالى للإسلام ببركة المصطفى عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ما نصّه : خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرَّيْع وغَدَق السُّقْيا ، ولذاذة الأقوات ، وفَرَاهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العُمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحّة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونُبْل الأذهان ، وقبول[1] الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، وإحكام التمدّن والاعتمار ، بما حُرِمَهُ الكثيرُ من الأقطار ممّا سواها ، انتهى .

قال أبو عامر السالمي[2] ، في كتابه المسمى بـ « درر القلائد وغرر الفوائد » : الأندلس من الإقليم الشامي ، وهو خير الأقاليم ، وأعدلها هواء وتراباً ، وأعذبها ماء ، وأطيبها هواء وحيواناً ونباتاً ، وهو أوسط الأقاليم ، وخير الأمور أوسطها ، انتهى .

قال أبو عبيد البكري[3] : الأندلس شامية في طيبها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عِطْرِها وذكائها ، أهوازية في عظم جِبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عَدَنية في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة ، وكان من ملوكهم الذين أثّروا الآثار بالأندلس هرقلس ، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس وصنم جِلِّيقِيَّةَ ، والأثر في مدينة طَرَّكُونة[4] الذي لا نظير له .

* * *

---

١ ك : وفنون .

٢ أبو عامر السالمي (ق ك ط ج : السلمي) محمد بن أحمد بن عامر : كان أديباً تاريخياً حافظاً ، صنف في الحديث والآداب والتواريخ مصنفات كثيرة مفيدة وكتابه « درر القلائد وغرر الفوائد » في أخبار الأندلس وأمرائها وطبقات علمائها وشعرائها ، وقف منه ابن عبد الملك على السفرين الأول والثاني . (انظر ترجمته في التكملة : ٤٩٥ والذيل والتكملة ، الورقة ٣ من مخطوطة المتحف البريطاني) .

٣ انظر هذا النص في الروض المعطار : ٣ ، والمنتقى من فرحة الأنفس : ٢٨١ مع بعض اختلاف .

٤ طركونة (Tarragona) : مدينة على ساحل البحر الشامي بينها وبين لاردة خمسون ميلا .

[مساحتها وأبعادها]

قال المسعودي [1] : بلاد الأندلس تكون مسيرةُ عمائرها ومدنها نحو شهرين ، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة ، انتهى باختصار .

ونحوه لابن اليسع [2] إذ قال : طولها من أرْبُونة إلى أشْبُونة [3] وهو قطْع ستين يوماً للفارس المجدّ ، وانتقد بأمرين : أحدهما أنّه يقتضي أن أرْبُونة داخلة في جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثاني أن قوله : « ستين يوماً للفارس المجدّ » إعياء وإفراط ، وقد قال جماعة : إنّها شهر ونصف .

قال ابن سعيد : وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجدّ ، والصحيح ما نص عليه الشريف [4] من أنها مسيرة شهر ، وكذا قال الحجاري [5] ، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حساباً بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بنيّف قليل .

قال الحجاري في موضع من كتابه : إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشْبُونة ألف ميل ونيّف ؛ انتهى .

وبالجملة فالمراد التقريب من غير مشاححة ، كما قاله ابن سعيد ، وأطال في ذلك ، ثم قال بعد كلام : ومسافة الحاجز الذي بين بحر الزُّقاق والبحر المحيط أربعون ميلاً ، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق ، ولقلّته سميت

---

١ راجع مروج الذهب ١ : ١٦٢ .

٢ ابن اليسع : اليسع بن عيسى بن اليسع أبو يحيى صاحب كتاب المعرب في آداب المغرب كتبه بمصر للسلطان صلاح الدين الأيوبي (راجع المغرب ٢ : ٨٨ والحاشية) .

٣ أربونة (Narbonne) آخر ما استولى عليه العرب من جهة الساحل الأندلسي الشرقي ، وأشبونة هي التي تسمى اليوم لشبونة (Lisbon) أو ليسبوا عاصمة البرتغال .

٤ يعني الشريف الإدريسي مؤلف كتاب « نزهة المشتاق » لرجار ، ملك صقلية .

٥ صاحب كتاب « المسهب في فضائل المغرب » ألفه لبني سعيد ، وهو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم وعلى أساس كتابه ألف المغرب . (انظر ترجمته في المغرب ٢ : ٣٥) .

جزيرة وإلاّ فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة ، وعرضُ جزيرة الأندلس في مَوسطتها [1] عند طُلَيْطلَة ستة عشر يوماً . واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا في الركن الذي في الشرق والجنوب في حيز أرْبُونَةَ ، فممن قال إنّه في أربونة وإن هذه المدينة تقابلها مدينة بُرْذيل [2] التي في الركن الشرقي الشمالي أحمدُ بن محمد الرازي وابنُ حَيّان ، وفي كلام غيرهما أنّه في جهة أربونة ، وحقق الأمر الشريف ، وهو أعرف بتلك الجهة لتردده في الأسفار برّاً وبحراً إليها وتفرّغه لهذا الفن .

قال ابن سعيد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبروني أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف ، وأن أربونة وبَرْشِلُونة [3] غير داخلتين في أرض الأندلس ، وأن الركن الموفي على بحر الزقاق بالمشرق بين بَرْشِلُونة وطرّكونة في موضع يُعرف بوادي رنلقاطو [4] ، وهنالك الحاجز الذي يفصل بين الأندلس [5] والأرض الكبيرة ذات الألسن [6] الكثيرة ، وفي هذا المكان جبل البرت الفاصل في الحاجز المذكور وفيه الأبواب التي فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق في البر . وذكر الشريف أن هذه الأبواب يقع في مقابلتها في بحر الزقاق البحرُ الذي بين جزيرتي مَيُورْقَةَ ومَنُورْقَةَ [7] ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية ، ومسافة هذا

---

١ ك : موسطها ؛ ج : متوسطها .

٢ برذيل : مدينة في بلاد جليقية وتقع على نهر جرونة ، (الروض المعطار : ٤١) .

٣ برشلونة (Barcelona) : مدينة بينها وبين طركونة خمسون ميلا وهي إلى الشمال منها .

٤ ق ط : زنقلطو ، ك : زنلقطو ؛ ويرى محقق الجزء الأول من الطبعة الأوروبية أن الصواب ربلقاطو (Rubricatus) .

٥ ج : أرض الأندلس .

٦ ج : الأنساب .

٧ ميورقة (Majorca) ومنورقة (وربما كتبت دون واو «منرقة») (Minorca) أكبر جزيرتين في مجموعة جزائر البليار في البحر المتوسط ، وكانتا في عصر ملوك الطوائف تحت حكم مجاهد العامري .

الجبل الحاجز بين الركن الجنوبي والركن الشمالي أربعون ميلاً .

قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة بُرْذِيل ، وهي من مدن الإفرنجة مطلة على البحر المحيط في شماليّ الأندلس ، قال : ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن إلى الشمال في بلاد الفرنجة ، ولهم به جزائر كثيرة . وذكر أن[1] الركن الشمالي[2] عند شنت ياقوه[3] من ساحل الجلالقة في شمال الأندلس الغربي[4] ، حيث تبتدىء جزيرة برطانية الكبيرة فيتصوّر هنالك بحر داخل بين أرضين ، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجاً من البحر المحيط لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عند مدينة بُرْذيل .

وذكر الشريف أن عند شنت ياقوه[5] في هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنماً مطلاً مشبهاً بصنم قادس .

والركن الثالث بمقربة من جبل الأغر[6] حيث صنم قادس ، والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحرُ الزقاق من البحر المحيط ماراً مع ساحل الأندلس الجنوبي إلى جبل البرت المذكور ، انتهى ؛ والكلام في مثل هذا طويل الذيل .

قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي[7] : بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب ، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصْبُ

---

١ ك : ودوكرا من .

٢ ج : الباقي .

٣ شنت ياقوه ، ويقال فيها شنت ياقوب (Santiago de Compostela) في أقصى الشمال الغربي من شبه جزيرة ايبرية بمنطقة جليقية ، وفيها كنيسة مقدسة يحجون إليها .

٤ الغربي : زيادة من ق ط .

٥ ق : بابت ياقوة ؛ ج ط : بليانت يقوه (ياقوه) .

٦ ق ك ط ج : الأغن ؛ وهذا هو ما لا يزال يسمى « الطرف الأغر » (Trafalgar)، وقد ذكره ابن حوقل باسم الجبل الأغر .

٧ أحمد بن محمد بن موسى الرازي : من كبار المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين في الفترة الأموية وهو جد عيسى الرازي الذي يعتمده ابن حيان في المقتبس ؛ (انظر الجذوة : ٩٧ ومجلة المعهد : : ٢٥٢ — ٢٥٥ من المجلد ٧ — ٨) .

الجناب ، مُنْبجس بالأنهار[1] الغزار والعيون العِذاب ، قليل الهوام ذوات السُّموم ، معتدل الهواء والجوّ والنسيم ، ربيعه وخريفه ومَشْتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، وسِطة من الحال ، لا يتولد في أحدها فَضْل[2] يتولّد منه فيما يتلوه انتقاص ، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة ، أمّا الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره ، وأما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره ، فمادة الخيرات بالبلد متمادية في كل الأحيان ، وفواكهه على الجملة غير معدومة في كل أوان ؛ وله خواصّ في كرم النبات يوافق في بعضها أرضَ الهند المخصوصة بجواهر الانبات[3] : منها أن المحلب — وهو المقدّم في الأفاويه والمفضّل في أنواع الأشنان — لا ينبت بشيء من الأرض إلا بالهند والأندلس ؛ وللأندلس المدن الحصينة ، والمعاقل المنيعة ، والقلاع الحريزة ، والمصانع الجليلة ، ولها البر والبحر ، والسهل والوَعْر ، وشكلها مثلث ، وهي معتمدة على ثلاثة أركان : الأول هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالأندلس ، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامي الآخذ بقبليّ الأندلس ، والركن الثاني هو بشرقي الأندلس بين مدينة نُرْبُونَةَ[4] ومدينةُ بُرْذِيلَ مما بأيدي الفرنجة اليوم بإزاء جزيرتي مَيُورقة ومَنُورقة بمجاورة من البحرين : البحر المحيط والبحر المتوسط ، وبينهما البر الذي يُعرف بالأبواب ، وهو المدخل إلى بلد[5] الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد إفرنجة ، ومسافته بين البحرين مسيرة يومين ، ومدينة نُرْبُونَةَ[6] تقابل البحر المحيط ، والركن الثالث منها هو ما بين الجوف[7] والغرب من حيز جِلِّيقية ، حيث الجبل الموفي على البحر ، وفيها الصنم

١ ك : الأنهار .

٢ ق ك ج : فصل .

٣ ك : بكرم النبات وجواهره .

٤ ربونة : أربونة (Narbonne) . وفي ق ط ك : بربونة .

٥ ك : بلاد .

٦ ق ك ط ج : برنونة .   ٧ ق : الجنوب .

العالي المشبه بصنم قادس ، وهو الطالع على بلد برطانية .

قال : والأندلس أندلسان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربي ، وأندلس شرقي ، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي ، ويُمطر بالرياح الغربية ، ومبتدأ[1] هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شَنْتَمَرِيَّة[2] طالعاً إلى حَوْز أغريطة المجاورة لطليطلة مائلاً إلى الغرب ومُجاوراً للبحر المتوسط الموازي لِقَرْطاجَنّة الحلفاء التي من بلد لُورْقَة[3] ، والحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى ، وتجري[4] أوديته إلى الشرق ، وأمطاره بالريح الشرقية ، وهو من حدّ جبل البشكنس[5] ، هابطاً مع وادي إبره[6] إلى بلد شنت مرية[7] ، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط ، وفي القبلة منه البحرُ الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام ، وهو البحر المسمّى ببحر تيران[8] ، ومعناه الذي يشق دائرة الأرض ، ويسمى البحر الكبير ، انتهى .

قال أبو بكر عبدُ الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام[9] : بلد الأندلس

---

١ ج : ومنتهى .

٢ شنتمرية (وتكتب أيضاً : شنت مرية) : يعرف بهذا الاسم مدينتان شنتمرية الغرب (Santa Maria de Algarve) وتسمى اليوم (Faro) وهي بالبرتغال والثانية شنتمرية الشرق وهي السهلة (Albarracin) الأولى وهي المقصودة هنا .

٣ قرطاجنة الحلفاء (Carthagenna) (وكتبها في الروض المعطار وطبعة ليدن : الخلفاء) وهي فرضة مدينة مرسية . أما لورقة (Lorca) فهي من منطقة تدمير ، وقد تفتح راؤها .

٤ ق ط : وتجرى .   ٥ ك : البشكنش .

٦ ابره (Ebro) نهر ينبع من جبال كنتبرية ويشرق فيصب في البحر المتوسط ، ومن أشهر المدن عليه سرقسطة وطرطوشة .

٧ المراد هنا شنتمرية الشرق .

٨ تيران (Terran) = اختصار لكلمة (Medi — Terran) أو (Mare Terrhenum) أي يتوسط الأرض .

٩ ابن النظام : ترجم له ابن الأبار في التكملة : ٧٨٨ ولم يزد على قوله : « كان أديباً إخبارياً تاريخياً يحكي عنه ابن حيان في كتابه ، وهو من أهل قرطبة » .

عند علماء أهله أندلسان : فالأندلس الشرقي منه ما صَبَّت أوديته إلى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق ، وذلك ما بين مدينة تُدْمير [1] إلى سَرَقسطة ، والأندلس الغربي ما صَبَّت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل ذلك [2] الحدّ إلى ساحل المغرب ، فالشرقي منهما يُمْطَرُ بالريح الشرقية ، ويصلح عليها ، والغربي يُمْطَرُ بالريح الغربية وبها صلاحه ، وجبالُه هابطة إلى الغرب جَبَلاً بعد جبل . وإنّما قسمته الأوائل جزءين لاختلافهما في حال أمطارهما ، وذلك أنّه مهما استحكمت الريحُ الغربيّة كثر مطر الأندلس الغربي وقَحِطَ الأندلس الشرقي ، ومتى استحكمت الريح الشرقية مُطِرَ [3] الأندلس الشرقي وقَحِطَ الغربي ، وأودية هذا القسم تجري من الشرق إلى الغرب بين هذه الجبال . وجبال الأندلس الغربي تمتدّ إلى الشرق جبلاً بعد جبل تقطع من الجوف إلى القبلة ، والأودية التي تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها إلى القبلة وبعضها إلى الشرق ، وتنصبُّ كلّها إلى البحر المتوسط للأندلس [4] القاطع إلى الشام ، وهو البحر الرومي ، وما كان من بلاد جوفي الأندلس من بلاد جِلّيقيّة وما يليها فإن أوديته تنصبُّ إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف . وصفة الأندلس [5] شكل مركن على مثال الشكل المثلث : ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادس ، وركنها الثاني في بلد جِلّيقيّة حيث الصنم المشبه صنم قادس مقابلَ جزيرة برطانية ، وركنها الثالث بين مدينة نُرْبونة ومدينة بُرذيل من بلد الفرنجة بحيث يقرب البَحْرُ المحيط من البحر الشامي المتوسط ، فيكادان يجتمعان في ذلك الموضع ،

---

١ ط ق : جزيرة تدمير...
٢ ك : أسفل من ذلك .
٣ ك : كثر مطر .
٤ ك : المحيط بالأندلس .
٥ راجع هذا النص عند ابن عذاري ٢ : ١ (ط . بيروت) . والبكري : الورقة ٢١٩ .

فيصير بلد الأندلس جزيرة بينهما في الحقيقة ، لولا أنّه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب ، منه المدخلُ إلى الأرض الكبيرة التي يقال لها الأبواب ، ومن قِبَله يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ذات الألسن المختلفة .

* * *

[الأمم التي استوطنت الأندلس]

قال [1] : وأوّل مَنْ سكن الأندلس [2] على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون [3] من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يُعرفون بالأندلش [4] — معجمة الشين — بهم سُمّي المكان ، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة ، كانوا الذين عَمَروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهراً ، على دين التمجس والإهمال والإفساد في الأرض ، ثم أخذهم الله بذنوبهم ، فحبس المطر عنهم ، ووالى القحْطَ عليهم ، وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها ، وغارت عيونها ، ويبست أنهارها ، وبادت أشجارها ، فهلك أكثرهم ، وفَرَّ مَنْ قدر على الفرار منهم ، فأقفرت الأندلس منهم ، وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة [5] ، وذلك من حدّ بلد الفرنجة إلى حدّ بحر الغرب الأخضر ، وكان عدّة ما عمرتها هذه الأمة البائدة مائة عام وبضع عشرة سنة . ثمّ ابتعث الله لعمارتها الأفارقة ، فدخل إليها بعد إقفارها تلك المدّةَ الطويلة قومٌ منهم أجلاهُم ملك إفريقية

---

١ هذا يدل على أن النقل متصل عن ابن النظام ، ولكن ما جاء في هذه الفقرة لا يخرج في مجمله عما نقله الحميري عن الرازي (الروض : ٤ — ٥) إلا أن النص فيه مختصر . وانظر أيضاً ابن عذاري ٢ : ١ .

٢ ك : بالأندلس .

٣ ط : نقلته الأخبار .

٤ عند البكري « الأندليش » و « الأندالش » أي (Vandali) .

٥ وبضع . . . سنة : سقطت من ق ط ج .

مخففاً منهم لإمحال توالى على أهل مملكته ، وتردد عليهم حتى كاد يفنيهم ، فحمل منهم خلقاً في السفن مع قائد من قِبَله يدعى أبطريقس فأرْسَوْا بريف الأندلس الغربي ، واحتلوا بجزيرة قادس ، فأصابوا الأندلس قد أمطرت وأخصبت ، فجرت أنهارها ، وانفجرت عيونها ، وحييت أشجارها ، فنزلوا الأندلس مغتبطين ، وسكنوها معتمرين ، وتوالدوا فيها فكثروا واستوسعوا في عمارة الأرض ما بين الساحل الذي أرْسَوْا فيه بغربيها إلى بلد الإفرنجة من شرقيها ، ونصّبوا من أنفسهم ملوكاً عليهم ضبطوا أمرهم وتوالوا على إقامة دولتهم ، وهم — مع ذلك — على ديانة من قبلهم من الجاهلية ، وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب اليوم من أرض إشبيلية اخترعها ملوكهم وسكنوها ، فاتسق ملكهم بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عاماً إلى أن أهلكهم الله تعالى ، ونسخهم بعَجَم رومة ، بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة في مدّتهم تلك أحد عشر ملكاً . ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة وملكهم إشبان[1] بن طيطش ، وباسمه سميت الأندلس إشبانية ، وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فأحيل بلسان العجم ، وقيل : بل كان مولده بأصبهان فغلب اسمها عليه ، وهو الذي بنى إشبيلية ، وكان إشبانية اسماً خالصاً لبلد إشبيلية الذي كان ينزله إشبان[2] هذا ، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كلّه ، فالعجم إلى الآن يسمونه إشبانية لآثار إشبان هذا فيه ، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا ، وكان غزّا الأفارقة عندما سلّطه الله عليهم في جموعه ، ففض عساكرهم ، وأثخن فيهم ، ونزل عليهم بقاعدتهم طالقة وقد تحصنوا فيها منه ، فابتنى عليهم مدينة إشبيلية اليوم ، واتصل حصره وقتاله لهم حتى فتحها

١. ق : إلى اشبان .

٢ لفظة إسبانيا (Hispania) أقدم اسم أطلق على شبه الجزيرة الايبرية ، وبعضهم يرده إلى أصل فينيقي معناه « ساحل الأرانب البرية » ثم قيل إن ذلك نسبة إلى اشبان (Sphan) وتحرفت الكلمة إلى أصبهان ، ومن صيغ الاسم أيضاً (Hispalia) وعرب إلى إشبيلية .

الله عليه ، وغلبهم[1] ، واستوت له مملكة الأندلس بأسْرها ، ودانَ له مَنْ فيها ، فهدم مدينة طالقة ، ونقل رخامها وآلاتها إلى مدينة إشبيلية ، فأستمّ بناءها ، واتخذها دار مملكته ، واستغلظ سلطانه في الأرض ، وكثرت جموعه ، فعلا وعظم عتوّه ، ثم غزا إيليا — وهي القدس الشريف[2] — من إشبيلية بعد سنتين من ملكه ، خرج إليها في السفن فغنمها وهدمها ، وقتل فيها من اليهود مائة ألف ، واسترقّ مائة ألف ، وانتقل[3] رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس ، وقهر الأعداء ، واشتدّ سلطانه . انتهى .

وذكر بعض المؤرخين[4] أن الغرائب التي أصيبت في مغانم الأندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة وقُلَيْلَة الدر التي ألفاها موسى بن نُصَير بكنيسة ماردة وغيرهما من طرائف الذخائر إنّما كانت مما صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس ، إذ حضر فتحها مع بُخْتَنصر ، وكان اسم ذلك الملك بريان ، وفي سهمه وقع ذلك ومثله مما كانت الجن تأتي به نبيّ الله سليمان ، على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء[5] الصلاة والسلام . انتهى .

وقال غير واحد من المؤرخين : كان أهل المغرب الأقصى يضرُّون بأهل الأندلس ، لاتصال الأرض ، ويَلْقَوْنَ منهم الجَهْد الجهيد في كل وقت ، إلى أن اجتاز بهم الإسكندر ، فشكوا حالهم إليه ، فأحضر المهندسين ، وحضر إلى الزقاق ، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي ، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامي بشيء يسير ، فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر

---

١ وغلبهم : سقطت من ق ج ط .

٢ وهي . . . الشريف : سقطت من ق ج .

٣ ك : ونقل .

٤ انظر تتمة النص عن الرازي في الروض المعطار : ٥ وابن عذاري ٢ : ٢ — ٣ .

٥ ق : الأنبياء والمرسلين .

الشامي ، ونقلها من الحضيض إلى الأعلى ، ثمّ أمر بحَفْر ما بين طَنْجة وبلاد الأندلس من الأرض ، فحفُرت حتى ظهرت الجبال السفلية ، وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناء محكماً وجعل طوله اثني عشر ميلاً ، وهي المسافة التي كانت بين البحرين ، وبنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طَنْجة ، وجعل بين الرصيفين سَعَة ستة أميال ، فلمّا كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم ، وأطلق فَمَ الماء بين الرصيفين ، فدخل في البحر الشامي ، ثم فاض ماؤه فأغرق مُدُناً كثيرة ، وأهلك أمماً عظيمة كانت على الشطين ، وطفا الماء على الرصيفين إحدى عشرة قامة ، فأمّا الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنّه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهوراً بيّناً مستقيماً على خط واحد ، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، وأما الرصيف الذي[1] من جهة العُدْوة فإن الماء حمله في صدره ، واحتفر ما خلفه من الأرض اثني عشر ميلاً ، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسَبْتة وطَنْجة ، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما والجزيرة الخضراء ، وبين سَبْتة والجزيرة الخضراء عرض البحر . انتهى ملخصاً ، وقد تكرّر بعضه مع ما جلبناه ، والعذر بيّن لارتباط الكلام بعضه ببعض .

* * *

[موقع الأندلس من الأقاليم]

وقال ابن سعيد : ذكر الشريف أنْ لا حظّ لأرض الأندلس في الإقليم الثالث ، قال : ويمر بجزيرة الأندلس من الأقاليم الرابع[2] على ساحلها الجنوبي وما قاربه من قُرْطُبة وإشبيلية ومُرْسية وبَلَنْسية ، ثم يمر على جزيرة صِقِلية وعلى ما في سَمْتها من الجزائر ، والشمس مُدَبِّرة له .

---

١ الذي : سقطت من ق ط ج .

٢ ك : الإقليم الرابع .

والإقليم الخامس يمر على طُلَيْطلة وسَرَقُسْطة وما في سَمْتهما إلى بلاد أرْغُون التي في جنوبيها بَرْشلُونة ، ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومُدَبِّرته الزُّهرة .

والسادس يمر على ساحل الأندلس الشمالي الذي على البحر المحيط وما قاربه وبعض البلاد الداخلة في قَشْتالة وبُرْتُقال وما في سَمْتها ، وعلى بلاد بُرْجان والصقالبة والروس ، ومدبِّره عُطارد .

ويمر الإقليم السابع في البحر المحيط الذي في شماليّ الأندلس إلى جزيرة انقلطرة [1] وغيرها من الجزائر وما في سَمْتها من بلاد الصقالبة وبُرْجان . قال البيهقي : وفيه تقع جزيرة تُولى وجزيرتا أجبال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة [2] في الشمال والبلغار ، ومُدَبِّرُهُ القمر ، انتهى .

وقال بعض العلماء : إنّ النصارى حُرموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنّة الدُّنيا بستاناً متصلاً من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية ، وعندهم عموم شاه بلوط والبندق والجوز والفستق وغير ذلك ممّا يكون أكثر وأمكن في الأقاليم الباردة ، والتمر عندهم معدوم ، وكذا الموز وقصب السكر ، وربما يكون شيء من ذلك في الساحل ، لأن هواء البحر يدفيء ، انتهى .

* * *

[رجع إلى الأمم التي استوطنتها]

قال ابن حيّان في المقتبس [3] : ذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف بإشبان [4] المذكور وهو يحرث الأرض بفُدُن له أيام حراثته ، فقال له :

١ ك ق ط : انقطرة ؛ ج : القنطرة ، ويبدو أن «أنقطرة» هي الصورة الشائعة للاسم .
٢ الداخلة : سقطت من ك .
٣ انظر الروض المعطار : ٥
٤ ك : على اشبان .

يا إشبان ، إنّك لذو شان ، وسوف يحظيك زمان ، ويعليك سلطان ، فإذا أنتَ غلبت على إيليا فارفُق بذرية الأنبياء ، فقال له إشبان : أساخرٌ[1] رحمك الله ؟ أنّى يكون هذا مني وأنا ضعيف ممتَهَن حقير فقير ليس مثلي ينال السلطان؟ فقال له : قد قدّر ذلك فيك من قدّر في عصاك اليابسة ما تراه ، فنظر إشبان إلى عصاه ، فإذا بها قد أورقت ، فريعَ لما رأى من الآية ، وذهب الخضر عنه ، وقد وقع الكلام بخَلَده ، ووقرَتْ في نفسه الثقة بكونه ، فترك الامتهان من وقته ، وداخَلَ الناس ، وصحب أهل البأس منهم ، وسَما به جَدّه فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيماً ، وكان منه ما كان . ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله ، وكان ملكه كلّه عشرين سنة ، وتمادى ملك الإشبانيين بعده إلى أن مَلَك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً .

ثمّ دخل على هؤلاء الإشبانيين[2] من عَجَم رومة أمّة يُدعون البشتولقات[3] ، وملكهم طلوبش[4] بن بيطه ، وذلك زمن بَعْث المسيح بن مريم عليه السلام ، أتوا الأندلس من قِبَل رومة ، وكانوا يملكون إفرنجة معها ، ويبعثون عمالهم إليها ، فاتخذوا دار مملكتهم بالأندلس مدينة مارِدَة ، واستولوا على مملكة الأندلس ، واتصل ملكهم بها مدّة إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً .

ثم دخل على هؤلاء البشتولقاتِ أمّةُ القُوط مع ملك لهم ، فغلبوا على الأندلس ، واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة ، وتفرّدوا بسلطانهم ، واتخذوا مدينة طُلَيطلة دار مملكتهم ، وأقروا بها سرير ملكهم ، فبقي بإشبيلية عَلَم الإشبانيين ورياسة أوليتهم .

وقد كان عيسى المسيحُ[5] عليه السلام ، بعث الحَوَاريين في الأرض يَدْعون

---

١ ك : أساخر بي .
٢ ط ق ج : الاشبان .
٣ في الروض : الشبونقات ، وفي ابن عذاري : البشترلقات ؛ وفي ط : البشتونقات .
٤ ج : طلويش .
٥ ق : عيسى بن مريم ؛ ج : المسيح عيسى .

الخلق إلى ديانته ، فاختلف الناس عليهم ، وقتلوا بعضهم ، واستجاب لهم كثير منهم ، وكان من أسرعهم إجـابة لمن جاءه من هؤلاء[1] الحواريـين خشندش[2] ملك القُوط ، فتنصر ، ودعا قومه إلى النصرانية ، وكان من صميم أعاظمهم وخير من تنصر من ملوكهم ، وأجمعوا على أنّه لم يكن فيهم أعدل منه حكماً ، ولا أرشد رأياً ، ولا أحسن سيرة ، ولا أجود تدبيراً ، فكان الذي أصَّل النصرانية في مملكته ، ومضى أهلُها على سنَّته إلى اليوم ، وحكموا بها ، والإنجيلات في المصاحف[3] الأربعة التي يختلفون فيها من انتساخه وجَمْعه وتثقيفه ، فتناسقت ملوك القُوط بالأندلس بعده إلى أن غلبتهم العربُ عليها ، وأظهر الله تعالى دين الإسلام على جميع الأديان .

فوقع في تواريخ العجم القديمة أن عدّة ملوك هؤلاء القُوط بالأندلس من عهد أتاناوينوس الذي ملك في السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصري لمضي أربعمائة وسبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم إلى عهد لُذَرِيق آخرهم الذي ملك في السنة التاسعة والأربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر ، وهو الذي دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط ، ستة وثلاثون ملكاً ، وأن مدّة أيام ملكهم[4] بالأندلس ثلاثمائة واثنتان وأربعون سنة ، انتهى .

وقال جماعة : إن القوط غير البشتولقات ، وإن البشتولقات من عجم رومة ، وإنهم جعلوا دار ملكهم ماردة ، واتصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً ، ثم دخل عليهم القوط ، واتخذوا طُلَيْطلة دار مملكة ، ثم ذكر تنصر مَلِكهم خشندش مثل ما تقدّم ، ثم ذكر أن عدّة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكاً .

---

١ هؤلاء : سقطت من ق .
٢ الروض المعطار : دخشوش ، وفي بعض أصوله « خنشوش » ؛ وفي ابن عذاري : وخشندش .
٣ الروض : والمصاحف .
٤ ق : مدة ملكهم .

وذكر الرازي أن القوط من ولد يأجوج بن يافث بن نوح ، وقيل غير ذلك ، انتهى .

* * *

[مناخها وخيراتها]

وقال[1] الرازي في موضع آخر نحو ما تقدم وزيادة ، ونصّه : أن الأندلس في آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة[2] التي هي رُبْع معمور الدنيا فهي موسطة من البلدان ، كريمة البقعة ، بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مخصبة القاعة ، منبجسة العيون الثرّار ، منفجرة بالأنهار[3] الغزار ، قليلة الهوامّ ذوات السموم ، معتدلة الهواء أكثرَ الأزمان لا يزيد قَيْظها زيادة منكرة تضر بالأبدان وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسُّط من الحال ، وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم ، لأن الساحل ونواحيه يبادر بباكوره ، كما أن الثغر وجهاته والجبال التي يخصُّها برد الهواء وكثافة الجوّ تستأخر بما فيها من ذلك ، حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان ، فمادة الخيرات فيها متصلة كلّ أوان . ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد المقدّم على أجناسه في الطيب والصبر على النار ، وبها شجر المحلب المعدود في الأفاويه المقدم في أنواع الأشنان كثير واسع ، وقد زعموا أنه لا يكون إلا بالهند وبها فقط ، ولها خواص نباتية يكثر تعدادها ، انتهى .

وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال[4] : يوجد في ناحية دلاية من إقليم

---

١ ك : وذكر .

٢ زاد بعد لفظة السبعة في ك : التي تقدم ذكرها .

٣ ك : الأنهار .

٤ ورد كثير من هذا النص في كتاب عنوانه « ذكر بلاد الأندلس » لمؤلف مجهول ، وهو بالخزانة العامة بالرباط رقم (ج : ٨٥) وسنعارض به النص الذي جاء في النفح متخذين رمزه (مخطوط الرباط) والنص يشغل الصفحات ٧ — ١٠ ؛ وانظر أيضاً الإحاطة ١ : ١٠٤ — ١٠٥ فهناك تشابه بين النصين .

البشرة[1] عود الألَنْجُوج ، لا يفوقه العود الهندي ذكاء وعطرَ رائحة ، وقد سيق منه إلى خَيران الصقلبي صاحب المَرية[2] ، وأن أصل مَنْبته كان بين أحجار هنالك ، وبأكْشُونبة[3] جبل[4] كثيراً ما يتضوّع ، ريحُه ريح العود الذكي إذا أرسلت فيه النار ، وببحر شَذُونة[5] يوجد العنبر الطيب الغربي ، وفي جبل مُنْت ليُون[6] المحلب ، ويوجد بالأندلس القُسْط الطيب ، والسنبل الطيب ، والجَنْطيانة تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق ، وهو عُقار رفيع[7] ، والمر الطيب بقلعة أيوب[8] ، وأطيبُ كهرباء الأرض[9] بشذونة ، درهم منها يَعْدِل دراهم من المجلوبة ، وأطيب القرمز قرمز الأندلس ، وأكثر ما يكون بنواحي إشبيلية ولَبْلَة وشذونة وبَلَنْسية ، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق ، وبناحية

---

١ دلاية (Dalias) : من عمل المرية ؛ والبشرة أو البشرات أو البشارات (Alpujarras) هي منطقة جبال سيرانفادا ، وفي مخطوط الرباط « من كورة تدمير » والتحديد واحد وإن اختلفت التسمية ، فتدمير هو الاسم القديم لكورة مرسية (Murcia) .

٢ خيران الصقلبي من أوائل الفتيان الذين أعلنوا استقلالهم بعد انهيار الدولة الأموية بالأندلس على أثر الفتنة البربرية (٣٩٩) واتخذ المرية مركزاً له . راجع أعمال الأعلام : ٢١٠ – ٢١٥ .

٣ اكشونبة – بالباء الموحدة بعد النون – (Ocsonoba) (كتبت في ك ق ط أكشونية حيثما وقعت): مدينة وكورة تتصل بأحواز الاشبونة وتحتل الركن الغربي الجنوبي من شبه الجزيرة ، ولها عدة حصون وأقاليم وأشهر مدنها شلب .

٤ مخطوط الرباط : يعرف بجبل الخفة (أو الخنة) .

٥ شذونة (Medina Sidonia) : كورة متصلة بكورة مورور ، نزلها جند فلسطين من العرب ، وهي في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة إلى الشمال الغربي من الجزيرة الخضراء .

٦ مخطوط الرباط : منتلون (Mentileon) وتتمة النص : المحلب الذي لا يعدل به غيره .

٧ القسط (أو القسطس) عود هندي وعربي يتداوى به ، والهندي غليظ أسود مر المذاق والعربي أبيض خفيف قوي الرائحة ؛ والسنبل هو سنبل الطيب ويسمى أيضاً : العصافير ، وقال ابن الحشاء : والرومي منه غير محقق بالمغرب . والجنطيانة – ويكتب بالألف بدل الماء – نبات لا يوجد بالمغرب إلا بجبال غرناطة . وفي مخطوط الرباط : وهو عقار رفيع يوجد بلبلة ؛ وزاد فيه : « والبرباريس العجيب يوجد بنواحي المنتلون » .

٨ قلعة أيوب (Caltayud) وهي بقرب مدينة سالم وبينها وبين دروقة ثمانية عشر ميلا .

٩ كهرباء الأرض : مادة صمغية توجد عند سواحل البحر بالأندلس ، وخاصة عند أصول الدوم ، والنوع الأندلسي منها أصفر وأصلب من المشرقي ، وتدخل في تحضير بعض أنواع الأدوية .

لورقة من عمل تُدْمير يكون حجر اللازَوَرْد الجيد ، وقد يوجد في غيرها ، وعلى مقربة من حصن لُورقة[1] من عمل قُرْطُبة معدن البلور ، وقد يوجد بجبل شحيران وهو شرقي يبره ، والحجر البجادي[2] يوجد بناحية مدينة الأشبونة في جبل هنالك يتلألأ فيه ليلاً كالسراج ، والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن منت ميور[3] من كورة مالقة إلا أنّه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال لصغره ، ويوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية بَجّانة[4] في خندق يُعرف بقرية ناشرة[5] أشكالاً مختلفة كأنّه مصبوغ ، حَسَن اللون ، صَبُور على النار ، وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تُدْمير ، وحجر الشاذنة بجبال قرطبة كثير ، ويُستعمل في دلك التذاهيب[6] ، وحجر اليهودي في ناحية حصن البونت[7] ، وهو أنفع شيء للحَصاة ، وحجر المرقشيثا[8] الذهبية في جبال أُبّدة[9] لا نظير لها في الدنيا ، ومن الأندلس تُحمل إلى جميع الآفاق لفضلها ، والمغنيسيا بالأندلس كثير ، وكذلك حجر الطَّلْق[10] ، ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة بَرْشلُونة إلا أنّه جامد اللون ، ويوجد المرجان بساحل بيرة من عمل المَرية[11] ،

١ ك : حضرة لورقة .
٢ ك : حجر النجادي ، ط : النجاد ، وفي دوزي : البيجادي . وفي الجماهر : البيجاذي .
٣ مخطوط الرباط : متيور .
٤ بجانة : مدينة كانت من أهم قرى أرش اليمن أي الإقليم الذي نزل عليه بنو سراج القضاعيون وكانوا يأخذون أرشه ، وهي قريبة من المرية بينهما ستة أميال ، وقال ابن سعيد : محدثة بنيت في عهد بني أمية .
٥ مخطوط الرباط : في خندق بغربي قرية ناشر ، وأظنه أصوب .
٦ الشاذنة : حجر يستعمل في مداواة العين وخشونة الأجفان ، أما التذاهيب فلم يلح لي معناها .
٧ حصن البونت (Alpuente) : شمال غربي بلنسية .
٨ المرقشيثا من المعادن الكبريتية (وتصحفت الكلمة في الأصول) .
٩ أبذة (Ubeda) : إلى الشمال الشرقي من بياسة ، بينهما سبعة أميال .
١٠ حجر الطلق : حجر براق يتحلل إذا دق إلى طاقات صغار دقاق ويشبه الشب اليماني ، وإذا ألقي في النار لم يحترق ، ولذلك كانوا يطلون به المواضع التي قد تصيبها النار لكي لا تحترق .
١١ المرية (Almeria) : مدينة بنيت أيام عبد الرحمن الناصر وازدهرت في أيام المرابطين واشتد فيها الرخاء ، وتقع على الساحل الشرقي إلى الجنوب الشرقي من بجانة .

أقل[1] ما لُقط منه في أقل من شهر نحو ثمانين ربعاً ، ومعدن الذهب بنهر لاردة يُجمع منه كثير ، ويجمع أيضاً في ساحل الأشبونة ، ومعادن الفضة في الأندلس كثيرة في كورة تُدْمير وجبال حَمّة بَجّانة[2] ، وبإقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل ، وبأكشونبة معدن القصدير لا نظير له يشبه الفضّة ، وله معادن بناحية إفرنجة وليون ، ومعدن الزئبق في جبل البرانس ، ومن هنالك يتجهز به إلى الآفاق ، ومعادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة ، ومعدن التوتيا الطبية بساحل إلبيرة بقرية تسمى بَطِرْنَة[3] ، وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس ، وبجبال قرطبة توتيا ، وليست كالبطرنية ، ومعدن الكحل المشبه بالأصفهاني بناحية مدينة طُرْطُوشة[4] يحمل منها إلى جميع البلاد ، ومعادن الشبوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى ، وما ذكرت هنا وإن تكرّر بعضه مع ما سبق أو يأتي فهو لجمع النظائر ، وما لم نذكره أكثر ، والله تعالى أعلم .

ومن خواص طليطلة : أن حنطتها لا تتغير ولا تتسوّس على طول السنين ، يتوارثها الخلف عن السلف ، وزعفران طليطلة هو الذي يعم البلاد ويتجهز به الرفاق إلى الآفاق ، وكذلك الصبغ السماوي ، انتهى .

وقال المسعودي في « مروج الذهب » بعد كلام ما نصّه : والعنبر كثير ببحر الأندلس ، يجهز إلى مصر وغيرها ، ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال

١ أقل : سقطت من ج ط ك .

٢ جاء في الروض المعطار : وبشرقي بجانة على ثلاثة أميال جبل شامخ فيه معادن غريبة وفيه الحمة العجيبة الشأن . . . الخ .

٣ البيرة (Elvira) كورة نزلها جند دمشق ، وكانت مدينة البيرة قريبة من غرناطة ، بينهما ستة أميال ؛ أما بطرنة فقد عدها ابن سعيد من قرى بلنسية (المغرب ٢ : ٣٥٥) .

٤ طرطوشة (Tortosa) من مدن الثغر الأعلى ينسب إليها أبو الوليد الطرطوشي نزيل الإسكندرية وصاحب « سراج الملوك » .

له شنترين[1] وشذونة ، تبلغ الأوقية منه بالأندلس ثلاثة مثاقيل ذهباً ، والأوقية بالبغدادي وتباع بمصر أوقيته بعشرة دنانير[2] ، وهو عنبر جيّد ، ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء . وبالأندلس معدن عظيم للفضّة ، ومعدن للزئبق ليس بالجيّد يجهز إلى سائر بلاد[3] الإسلام والكفر ، وكذلك يحمل من بلاد الأندلس الزعفران وعروق الزنجبيل . وأصول الطيب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ، والعنبر ، والزعفران ، وكلها تُحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلاّ الزعفران والعنبر ، انتهى ، وهو وإن تكرّر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة ، والله تعالى أعلم .

وذكر البعض أن في بعض[4] بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة وهي : الرصاص من زحل ، والقصدير الأبيض من المشتري ، والحديد من قسم المريخ ، والذهب من قسم الشمس ، والنحاس من الزهرة ، والزئبق من عُطارد ، والفضة من القمر .

* * *

[الأندلسيون والأمم المجاورة]

وذكر الكاتب إبراهيم بن القاسم القَرَوي المعروف بالرقيق[5] بَلَدَ

---

١ شنترين (Santarem) مدينة معدودة في كورة باجة من منطقة الغرب أي البرتغال وتبعد ٦٧ كيلومتراً عن الاشبونة شمالا .

٢ ك : بعشرين ديناراً .

٣ بلاد : سقطت من ط ق .

٤ بعض : سقطت من ك .

٥ الرقيق ، إبراهيم بن القاسم القروي : نسبة إلى القيروان ؛ مؤرخ أديب تولى الكتابة في الدولة الصنهاجية ، ثم رحل إلى مصر ٣٨٨ بهدية من زيري بن باديس إلى الحاكم ، وقد أثنى عليه ابن خلدون في مقدمته بقوله : « مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلد » (انظر الأعلام للزركلي ١ : ٥١ والمصادر في الحاشية) .

الأندلس ، فقال : أهله أصحاب جهاد متصل يحاربون من أهل الشرك المحيطين بهم أمّة يُدعون الجلالقة يُتاخمون حَوْزهم ما بين غرب إلى شرق ، قوم لهم شدّة ولهم جمال وحُسن وجوه ، فأكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال والفراهة منهمّ ليس بينهم وبينهم دَرْب ، فالحرب متصلة بينهم ، ما لم تقع هدنة ؛ ويحاربون بالأفق الشرقي أمّة يقال لهم الفرنجة هم أشد عليهم من جميع من يحاربونه من عدوّهم ، إذ كانوا خلقاً عظيماً في بلاد كثيرة واسعة جليلة متصلة العمارة آهلة تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عدداً من الجليقيين وأشدّ بأساً وأحدّ شوكة وأعظم أمداداً[1] ، وهذه الأمّة يحاربون أمّة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم في الديانة فيَسْبُونَهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلهم هنالك[2] كثرة ، وتَخْصيهم للفرنجة يهودُ ذمّتهم الذين بأرضهم ، وفي ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خِصْيانهم من هنالك إلى سائر البلاد ، وقد تعلّم الخِصاء قومٌ من المسلمين هناك ، فصاروا يخصون ويستحلّون المُثْلَة .

* * *

[بحر المجاز]

قال ابن سعيد : ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام هو بساحل الأندلس الغربي بمكان يقال له الخضراء ما بين طَنْجة من أرض المغرب وبين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما[3] زعموا ثمانية عشر ميلاً ، وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سَبْتة ، وهناك كانت القنطرة التي يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبرَ عليها من بر الأندلس إلى بر العُدْوة ،

١ قارن هذا بقول ابن حوقل في الفرنجة : « غير أن الذي يلي المسلمين منهم ضعيفة شوكتهم ، قليلة عدتهم وعدتهم . . . والجلالقة أحسن وأصدق محاسن وأقل طاعة وأشد بأساً وقوة وبسالة » . (صورة الأرض : ١٠٦) .
٢ ط : بذلك ؛ ج : لذلك .
٣ كما : زيادة من ك .

ويُعرف هذا الموضع بالزقاق ، وهو صعب المجاز لأنّه مجمع البحرين لا تزال الأمواج تتطاول فيه والماء يدور ، وطول هذا الزقاق الذي عرضه ثمانية عشر ميلاً مضاعف ذلك إلى ميناء سَبْتة ، ومن هناك يأخذ البحر في الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد ، ومُنْتهاهُ مدينة صور من الشام ، وفيه عدد عظيم من الجزائر . قال بعضهم : إنها ثمان وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة [1] وغيرهما ، انتهى ، وبعضه بالمعنى . وقال بعضهم [2] عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سَبْتة ، ما صورته : ثم يتّسع كلّما امتد حتى يصير إلى ما لا ذرع له ولا نهاية .

* * *

[نبذة عن خراجها]

وقال بعضهم : وكان مبلغ خراج الأندلس الذي كان يؤدى إلى ملوك بني أميّة قديماً ثلاثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة قوانين ، وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم ، فكانوا يُعْطُون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار ، وينفقون في أمورهم ونوائبهم ومؤن أهليهم مائة ألف دينار ، ويدّخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار ، انتهى .

وذكر غيره أن الجباية كانت بالأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط ألفَ ألفِ دينارٍ في السنة ، وكانت قبل ذلك [3] لا تزيد على ستمائة ألف ، حكاه ابن سعيد ، وقال : إن الأندلس مسيرة شهر مدن وعمائر .

* * *

---

١ ق ط ج : وجزيرة مالطة .
٢ ق ط : وقال غيره .
٣ ذلك : زيادة في ك .

[خبر ابن خلدون عن الأمم التي استوطنتها]

وقال قاضي القضاة ابن خَلْدون الحضرمي في تاريخه الكبير ، ما صورته [1] :
كان هذا القطر الأندلسي من العُدْوة الشمالية من عُدْوتي البحر الرومي وبالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الأندلوش ، وتسكنه أمم من إفرنجة المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالقة ، وكان القُوطُ قد تملّكوه وغلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الإسلام ، بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط إلى الأندلس ، فصاروا إليها وملكوها . ولما أخذ الروم واللطينيون بملة النصرانية حملوا مَنْ وراءهم بالمغرب من أمم الفرنجة والقُوطِ عليها فدانوا بها ، وكان ملوك [2] القوط ينزلون طُلَيْطلة ، وكانت دار ملكهم ، وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة وإشبيلية وماردة ، وأقاموا كذلك نحواً من أربعمائة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح ، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لُذَرِيقَ ، وهو سِمَة لملوكهم ، كما هو جرجير [3] سِمَة لملوك صقلية ، انتهى .

* * *

[شيء عن غرناطة وأعمالها]

ومن أشهر بلاد الأندلس غَرْناطة ، وقيل : إن الصواب أغرناطة ـ بالهمز ـ ومعناه بلغتهم الرُّمّانة ، وكفاها شَرَفاً ولادةُ لسان الدين بها .
وقال الشقندي [4] : أما غَرْناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس ، ومَسْرح

١ انظر العبر ٤ : ١١٦ – ١١٧ .
٢ ملوك : سقطت من ق .
٣ جرجير : (Gregorius) ؛ وفي ك : كما أن جرجير .
٤ الشقندي أبو الوليد اسماعيل بن محمد (– ٦٢٩) صاحب كتاب الطرف ورسالة مشهورة في تفضيل الأندلس على بر العدوة ، عارض بها أبا يحيى زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن ، وقد احتفظ بها المقري في النفح في الباب السابع من القسم الأول ، وهذا النص منها مأخوذ على سبيل =

الأبصار ، ومطمح الأنفس ، ولم تخلُ من أشراف أماثل ، وعلماء أكابر ، وشعراء أفاضل ، انتهى ؛ ولو لم يكن لها إلا ما خصّها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها .

وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته : وما لمصر تفخر بنيلها وألفٌ منه في شنيلها[1] ؟ يعني أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف ، فقولنا شنيل إذا اعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل ، انتهى ؛ وفيها قيل :

غَرْناطَة ما لها نَظيرٌ ما مصرُ ما الشام ما العراقْ ؟
ما هي إلا العروسُ تُجْلى وتلك من جُمْلَةِ الصَّداقْ

وتسمى كورة إلبيرة التي منها غَرْناطة ، دمشق ، لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح ، وقيل : إنما سُميت بذلك لشبهها بدمشق في غَزَارة الأنهار ، وكثرة الأشجار ، حكاه صاحب مناهج الفكر[2] ، قال : ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقل أهلها إليها فصارت المصر المقصود ، والمعقل الذي تَنْضَوي إليه العساكر والجنود . ويَشُقّها نهر عليه قناطر يُجازُ عليها ، وفي قبليها جبل شَلِير[3] ، وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفاً وشتاء ، وفيه سائر النبات الهندي ، لكن ليس فيه خصائصه ، انتهى .

ومن أعمال غرناطة قطر لَوْشَة[4] ، وبها معدن للفضة جيد ، ومنها ، أعني لوشة ، أصل لسان الدين بن الخطيب . وهذا القطر ضخم ينضاف إليه من الحصون

= الاختصار . (انظر ترجمة الشقندي في المغرب ١ : ٢١٣) .

١ شنيل (أو سنجيل) هو نهر غرناطة ، كما سيأتي بعد سطور ، وهو يصب في نهر الوادي الكبير .

٢ سنعرف به فيما يلي ص : ١٥٩ .

٣ شلير أو جبل الثلج هو ما يسمى سيرا نفادا ، وشلير من اللاتينية (Solarius) أي المشمس ، لانعكاس أشعة الشمس على ثلوجه ، أما سيرا نفادا فتعني الجبال الثلجية .

٤ لوشة (Loja) على بعد خمسة وخمسين كيلومتراً إلى الغرب من غرناطة .

والقرى كثير ، وقاعدته لَوْشَة ، بينها وبين غرناطة مرحلة ، وهي ذات أنهار[1] وأشجار ، وهي على نهر غَرْناطة الشهير بشِنيل .

ومن أعمال غرناطة الكبار عمل باغُه[2] ، والعامة يقولون بيغُه ، وإذا نسبوا إليه قالوا بيغي ، وقاعدته باغه طيبة الزرع ، كثيرة الثمار ، غزيرة المياه ، ويجود فيها الزعفران .

ومن أعمال غرناطة وادي آش[3] ، ويقال : وادي الأشات . وهي مدينة جَليلة قد أحدقت بها البساتين والأنهار ، وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر ، وفيها يقول أبو الحسن بن نزار[4] :

وَادي الأشاتِ يهيجُ وَجْدي كلّما ... أذكرتُ ما قضّتْ[5] بك النعماء

لله ظلُّكَ والهجيرُ مُسَلَّطٌ ... قد بَرَّدَتْ لفحاتِهِ الأنداء

والشمسُ ترغب أن تفوزَ بلَحظة ... منه فتطرفُ طرفَها الأفياء

والنهرُ يَبْسِمُ بالحَباب كأنّهُ ... سِلْخٌ نَضَتْهُ حيّةٌ رَقْشاء

فلذاك تحذرُهُ الغُصُونُ فميلُها ... أبداً على جَنَباتِهِ إيماء

ومن أعمال وادي آش حصن جِلْيانة ، وهو كبير يُضاهي المدن ، وبه التفاح الجلياني الذي خص الله به ذلك الموضع[6] ، يَجْمع عظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء ، وبين الحصن المذكور ووادي

---

١ أنهار : سقطت من ج .

٢ باغة (Priego) بلدة تقع إلى الشمال من لوشة في ولاية جيان .

٣ وادي آش (أو وادي الأشات Guadix) تقع على نهر ينحدر من جبل شلير عند السفح الشمالي لجبل الثلج (سيرانفادا) ، قريباً من غرناطة على بعد ٥٣ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي منها .

٤ سيترجم له المقري ، وله موشحة في المغرب ٢ : ١٤٧ ، ويقول فيه ابن سعيد : حسيب وادي آش (٢ : ٢٦٤) .

٥ ك : أفضت .

٦ المغرب ٢ : ١٤٨ خصه (أي حصن جليانة Juliana) الله بالتفاح الذي يضرب به المثل في الأندلس ؛ وذكر ابن سعيد أن بني البراق كانوا أعيان هذا الحصن .

آش اثنا عشر ميلاً .

ومن غرائب الأندلس أن به شجرتين من شجر القسطل ، وهما عظيمتان جداً إحداهما بسَنَد وادي آش[1] والأخرى ببَشرة غَرْناطة ، في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب ، وهذا أمر مشهور قاله أبو عبد الله بن جُزَيّ وغيره .

وكانت إلبيرة هي المدينة قبل غَرْناطة ، فلمّا بنى الصِّنْهاجي[2] مدينة غَرْناطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس إليها ، ثم زاد في عمارتها ابنه باديسُ بعده .

* * *

[شهرة سرقسطة و برجة ومالقة وأشبونة]

وذكر غير واحد[3] أن في كورة سَرَقُسْطة الملح الأندراني الأبيض الصافي الأملس الخالص ، وليس في الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح .

قال : وسَرَقُسْطَة بناها قيصر ملك رومة الذي تؤرخ من مدته مدة الصفر قبل مولد المسيح على نبيّنا وعليه وعلى سائر الأنبياء[4] الصلاة والسلام ، وتفسير اسمها قصر السيد ، لأنّه اختار ذلك المكان بالأندلس .

وقيل : إن موسى بن نُصَيْر شرب من ماء نهر جِلّق بسرقسطة فاستعذبه ، وحكم أنّه لم يشرب بالأندلس أعذبَ منه ، وسأل عن اسمه ، فقيل : جِلّق ، ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبّهها بغوطة جِلّق الشام ، وقيل : إنها من بناء الإسكندر ، والله أعلم .

وبمدينة بَرْجَة[5] — وهي من أعمال المَرية — معدن الرصاص ، وهي على واد مبهج يُعرف بوادي عذراء ، وهو محدق بالأزهار والأشجار ، وتسمى

---

١ هذا السند يسمى اليوم (Marquezado del Zenete) .

٢ يعني حبوس بن ماكسن الصنهاجي ، عندما استقل بالأمر بعيد سقوط الدولة الأموية .

٣ انظر مثلا المنتقى من فرحة الأنفس : ٢٨٨ ، والروض : ٩٧ .

٤ وعلى . . . الأنبياء : سقطت من ق ط ج .

٥ برجة : (Berja) تقع غربي المرية على مقربة من ساحل البحر .

برجة : « بهجة » لبهجة منظرها ، وفيها يقول أبو الفضل بن شرَف القَيْرَواني ، رحمه الله تعالى[1] :

رياضٌ تعشَّقَها سندس توشّتْ معاطفُها بالزَّهَرْ
مدامعُها فوق خدّيْ ربىً لها نَضْرَةٌ فتنَتْ مَنْ نَظَرْ
وكُلٌّ مكان بها جَنّةٌ وكُلٌّ طريق إليها سقَرْ

وفيها أيضاً قوله :

حُطَّ الرحالَ ببرجَهْ وارْتَدْ لنفسك بَهجَهْ
في قَلْعةٍ كسلاحٍ ودَوْحَةٍ مثل لُجَّهْ
فَحِصنُها لك أمْنٌ ورَوْضُها لك فُرْجَهْ
كلُّ البلادِ سواها كعُمْرَةٍ وهيَ حَجَّهْ

وبمالقة التينُ الذي يُضرب المثل بحسنه ، ويُجلب حتى للهند والصين ، وقيل : إنّه ليس في الدنيا مثله ، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلَوي المالقي حسبما أنشده غير واحد منهم ابن سعيد[2] :

مالقة حُيّيتَ يا تينَها الفُلْكُ من أجلك ياتينها
نهى طبيبي عنهُ في عِلّتي ما لِطَبيبي عن حياتي نهى

وذيَّل عليه الإمام الخطيبُ أبو محمد عبد الوهاب المنشي بقوله :

وحِمْص لا تَنْسَ لها تينها واذكر مع التين زَياتينَها

---

١ أبو الفضل جعفر بن شرف هو ابن الشاعر القيرواني أبي عبد الله ابن شرف المهاجر إلى الأندلس ، وقد ولد في برجة وقيل بل دخل به أبوه الأندلس صغيراً ، (ترجمته في الذخيرة ٣ : ٢٧٦ والقلائد : ٢٥٢ والصلة : ١٣١ والمغرب ٢ : ٢٣٠) .

٢ في الروض : ١٧٩ أن الطلبة خرجوا للقاء أبي محمد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصاري لما ولي القضاء بمالقة ، فأنشدهم هذين البيتين ، وانظر رحلة ابن بطوطة : ٦٦٩ حيث نسبهما للخطيب أبي محمد عبد الوهاب بن علي المالقي ، أما ابن عبد الملك فهو مؤلف الذيل والتكملة .

وفي بعض النسخ :

لا تَنْسَ لاشبيليّةٍ تينَها [1] واذكر مع التين زياتينها

وهو نحو الأول ، لأن حمص هي إشبيلية ، لنزول أهل حمص من المشرق بها ، حسبما سنذكره .

ونسب ابن جُزَيّ في ترتيبه لرحلة ابن بَطّوطة البيتين الأولين للخطيب أبي محمد عبد الوهاب المالقي ، والتذييل لقاضي الجماعة أبي عبد الله بن عبد الملك ، فالله أعلم .

وقال ابن بطوطة [2] : وبمالقة يُصنع الفَخّار المذهب العجيب ، ويُجْلَب منها إلى أقاصي البلاد ، ومسجدها كبير الساحة ، شهير البركة [3] ، وصَحْنه لا نظير له في الحسن ، وفيه أشجار النارنج البديعة ، انتهى .

وقال قبله [4] : إن مالقَةَ إحدى قواعد الأندلس ، وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه ، رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ، ورُمّانها المرسيّ الياقوتي لا نظير له في الدنيا ، وأما التين واللوز فيُجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب ، انتهى .

وبكورة أشبونة المتصلة بشَنْتَرين معدن التبر ، وفيها عسل يجعل في كيس كتان فلا يكون له رطوبة كأنّه سكر ، ويوجد في ريفها العنبر الذي لا يشبهه إلا الشّحْرِي .

* * *

١ ق ج ط : ولا تنس تين إشبيلية .
٢ الرحلة : ٦٧٠ .
٣ ك : كثير البركة شهيرها .
٤ الرحلة : ٦٦٩ .

[نبذة عن قرطبة وشهرتها]

ومن أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة – أعادها الله تعالى للإسلام – وبها الجامع المشهور ، والقنطرة المعروفة بالجسر .

وقد ذكر ابن حيّان أنّه بني على أمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، ونصه ، وقام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الأكبر الذي ما يُعْرف في الدنيا مثله ، انتهى .

وفيها يقول بعض علماء الأندلس[1] :

بأربعٍ فاقتِ الأمصارَ قُرْطُبَةٌ منهنّ قنطرةُ الوادي ، وجامِعُها
هاتان ثنتان ، والزهراء ثالثة ، والعلم أعظم شيء ، وَهْو رابعُها

وقال الحجاري في « المسهب » : كانت قرطبة في الدولة المروانية قبّة الإسلام ، ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقرّ سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعديّة واليمانيّة ، وإليها كانت الرّحْلة في الرواية إذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتنَفٌ بديباج المروج مطرز بالأزهار ، تَصْدَح في جَنَباته الأطيار ، وتنعر النواعير ويَبْسم النُّوّار ، وقرطاها الزاهرة والزهراء ، حاضِرتا الملك وأفقا النعماء والسرّاء . وإن كان قد أخنى عليها الزمان ، وغيّر بهجة أوجهها الحسان ، فتلك عادتُه وسَلِ الخَوَرْنَقَ والسَّديرَ وغُمْدان ؛ وقد أعذر بإنذاره إذ لم يزل ينادي بصُرُوفه : لا أمان لا أمان ، وقد قال الشاعر :

وما زلتُ أسمَعُ أنّ الملو ك تَبْني على قدر أخطارها

انتهى

[1] سيورد المقري البيتين في الباب الرابع وينسبهما إلى أبي محمد بن عطية المحاربي .

وقال السلطان يعقوب المنصور [١] ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي لأحد رؤساء أجنادها : ما تقول في قرطبة ؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلامُ عامّة الأندلس بقوله : جوفُها شِمام ، وغربيها قُمام ، وقبلتها مُدام ، والجنّة هي والسلام .

يعني بالشّمام جبال الورد ، ويعني بالقمام ما يؤكل إشارة إلى محرث الكنبانيّة [٢] ، ويعني بالمدام النهر .

ولما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي [٣] : ما عندك في قرطبة ؟ قال له : ما كان لي أن أتكلّم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها ، فقال السلطان : إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرةَ مملكتهم لعلى بصيرة ، الديار المنفسحة الكثيرة [٤] ، والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة المشيدة ، والنهر الجاري ، والهواء المعتدل ، والخارج الناضر ، والمحرث العظيم ، والشَّعْراء الكافية ، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها ، قال : فقلت : ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول .

قال ابن سعيد : ولأهلها رياسة ووقار ، لا تزال سِمَة العلم والملك متوارثة فيهم ، إلا أن عامّتها أكثر الناس فضُولاً ، وأشدّهم تشغيباً ، ويُضرب

---

١ السلطان يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ – ٥٩٥) من أعاظم خلفاء الموحدين، كان جواداً شجاعاً كريماً عالماً . (انظر له ترجمة في وفيات الأعيان ٦ : ٤ وروض القرطاس : ١٦٠ (ط . فاس) وأخباره في المعجب والبيان المغرب وغيرهما من المصادر التاريخية) .

٢ الكنبانية : قال فيها ياقوت : ناحية بالأندلس قرب قرطبة ، وهذا تعريف قاصر ، فإن الكنبانية هي الأراضي السهلة الزراعية أينما كانت ، وقد ذكر ابن الخطيب الكنبانية في الحديث عن غرناطة (١ : ١٠٢) وأصلها من الكلمة اللاتينية (Campania) أي الحقل أو المحرث كما يسميها الأندلسيون ، وتكتب أحياناً بالقاف . (انظر ملحق دوزي : قنبانية) .

٣ السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ – ٥٨٠) ثاني خلفاء الموحدين ؛ أما موسى بن سعيد فهو والد علي صاحب المغرب ، كان شغوفاً بالتاريخ وولي للموحدين بعض الأعمال وتوفي بالإسكندرية (٥٧٣) . راجع المغرب ٢ : ١٧٠ .

٤ ك : الكبيرة .

بهم المثل ما بين أهل[1] الأندلس في القيام على الملوك ، والتشنيع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم ، حتى إن السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال : مثل الجمل ، إن خففت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته صاح ، ما ندري أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجتنبه ، وما سلط الله عليهم حجّاج الفتنة حتى كان عامتها شرّاً من عامة العراق ، وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية ، وإنّي إن كُلّفت العَوْد إليها لقائل : لا يُلدغُ المؤمن من جحر مرتين ، انتهى .

وقال أبو الفضل التيفاشي : جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوبَ بين الفقيه أبي الوليد بن رُشْد والرئيس أبي بكر بن زُهْر ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول ، غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيعُ كتبه حُملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُملت إلى إشبيلية ، قال : وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً ، انتهى .

وحكى الإمام ابن بَشْكُوال عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طُلَيطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي ، قال : فسألنا : من أين ؟ فقلنا : من قرطبة ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها ، فقال : اقربا إليّ أشمّ نسيم قرطبة ، فقربنا منه ، فشمّ رأسي وقبّله ، وقال لي : اكتب:

أقرطُبَةُ الغرّاء هل ليَ أوْبَةٌ ... إليك ؟ وهل يَدْنُو لنا ذلك العَهْدُ

سقى الجانبَ الغربيَّ منكِ غمامة ... وقَعْقَع في ساحات دَوْحاتك الرعدُ

لياليكِ أسحارٌ ، وأرضُك رَوْضَةٌ ، ... وتُرْبك في استنشاقها عَنْبرٌ وَرْدُ

وكتب الرئيس الكاتب أبو بكر بن القبطرنة للعالم أبي الحسين بن سراج بقوله[2] :

---

١ أهل : زيادة من ك .

٢ أبو بكر بن القبطرنة (ويكتب أيضاً القبطورنة) أحد ثلاثة إخوة يعرفون ببني القبطورنة ، والاسم من (Cap-torno) (أي الرأس المستدير) وأبو بكر منهم هو عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز=

يا سيّدي وأبي هوًى وجلالة ورسُول وُدّي إن طلبتُ رسولا
عرّجْ بقرطبةٍ إذا بلّغتَها بأبي الحسين ونادهِ تمويلا[1]
وإذا سعِدْتَ بنظرة من وَجهِهِ أهْدِ السلامَ لكفّه تقْبيلا
واذكر له شوقي وشكري مجمَلاً ولَوِ استطعتُ شرحتُهُ تفصيلا
بتحيّةٍ تُهدى إليه كأنّما جَرّتْ على زهر الرياض ذُيُولا

وفي باب اليهود بقرطبة يقول أبو عامر بن شُهَيد[2] :

لقد أطْلَعُوا عند باب اليهو د بدراً أبي الحُسنُ أن يُكْسَفا
تراه اليهودُ على بابها أميراً فتحسبُه يُوسُفا

واستقبحوا قولهم « باب اليهود » فقالوا « باب الهدى » ، وسنذكر قرطبة والزهراء والزاهرة ومسجدها في الباب المنفرد بها إن شاء الله تعالى ، وكذلك القنطرة .

* * *

[إشبيلية وإقليمها]

ومن أعظم مدن الأندلس إشبيلية – قال الشقندي : من محاسنها اعتدال

= البطليوسي كان كاتباً للمتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس (وتوفي سنة ٥٢٠ ﻫ) وقد ترجم له ولأخويه ابن بسام (الذخيرة القسم الثاني : ٢٨٩) والمغرب ١ : ٣٦٧ والقلائد : ١٤٨ والمطرب : ١٨٦ والإحاطة ١ : ٥٢٨ ، وسيرد له ذكر في النفح ؛ وهذه الأبيات الواردة هنا في الذخيرة : ٢٩٣ والقلائد ١٥٢ . أما أبو الحسين بن سراج فهو سراج بن عبد الملك ابن سراج كان والده من علماء اللغة في عصره ، ونشأ ابنه كذلك بقرطبة . (انظر ترجمته في الذخيرة ١ – ٢ : ٣١٩ والقلائد : ١١٦ والمغرب ١ : ١١٦ والديباج المذهب : ١٢٦ وبغية الوعاة : ٢٥١) .

١ ناده تمويلا : قل له « يا مولاي » .

٢ أبو عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك (– ٤٢٦) من أكابر الشعراء بعيد الفتنة القرطبية وصاحب التوابع والزوابع ، انظر دراسة عنه في تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة : ٢١٥ والمصادر مذكورة هنالك ؛ وقد جمع ديوانه الأستاذ شارل بلا ؛ والبيتان في ديوانه : ١٠٠ .

الهواء ، وحُسن المباني ، ونهرها الأعظم الذي يصعد المدّ فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسر ، وفيه يقول ابن سَفَر[1] :

شَقّ النسيمُ عليه جَيْبَ قميصه فانسابَ من شَطّيْه يطلب ثارَهُ
فتضاحكَتْ وُرْقُ الحَمام بدَوْحها هُزُءاً فضمّ من الحياء إزارَهُ

وقيل لأحد من رأى مصر والشام : أيهما رأيت أحسن ؟ أهذان أم إشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل إشبيلية : شَرَفُها غابة بلا أسَد ، ونهرها نيل بلا تمساح ، إنتهى .

ويقال : إن الذي بنى إشبيلية اسمه يوليش[2] ، وإنّه أول من سُمّي قيصر ، وإنّه لما دخل الأندلس أعجب بساحاتها وطيب أرضها وجبلها المعروف بالشَّرَف[3] فردم على النهر الأعظم مكاناً ، وأقام فيه المدينة ، وأحدق عليها بأسوار من صخر صَلْد ، وبنى في وسط المدينة قصبتين بديعتي الشأن تُعرفان بالأخوين ، وجعلها أمّ قواعد الأندلس ، واشتق لها اسماً من رومية ، ومن اسمه ، فسمّاها رومية يوليش ، انتهى .

وقد تقدّم شيء من هذا .

وكان الأوّلون من ملوك الأعاجم يتداولون بسُكناهم أربعة[4] من بلاد الأندلس : إشبيلية ، وقُرْطُبة ، وقَرْمُونة[5] ، وطُلَيْطلة ، ويقسمون أزمانهم على الكَيْنُونة بها .

---

١ ابن سفر : أبو عبد الله محمد بن سفر الأديب (ويكتب اسمه أيضاً بالصاد) وهو من ناحية المرية وسكن إشبيلية ، وسيترجم له المقري . (انظر تحفة القادم : ١٠١ والوافي ٣ : ١١٤ والمغرب ٢ : ٢١٢) . وبيتاه في التحفة . وفي ج : ابن سعيد .
٢ ق ك ط : توليس ، ج : يولوس ؛ وهو يوليس قيصر (Julius Caesar) .
٣ سيأتي وصف « شرف إشبيلية » في النصوص التالية ، وانظر أيضاً الروض المعطار : ١٩ .
٤ ك : أربعة بلاد .
٥ قرمونة (Carmona) مدينة إلى الشمال الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٥ كيلومتراً وكانت كورة واسعة تضم عدة مدن وحصون . (راجع الروض المعطار : ١٥٨) .

وأما شَرَفُ إشبيلية فهو شريف البقعة ، كريم التربة ، دائم الخضرة ، فرسخ في فرسخ طولاً وعرضاً ، لا تكاد تُشْمِس فيه بقعة لالتفاف زيتونه .

واعلم أن إشبيلية لها كُوَر جليلة ، ومدن كثيرة ، وحصون شريفة ، وهي من الكُوَر المجندة ، نزلها جند حمص ولواؤهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق . وانتهت جباية إشبيلية أيام الحكم بن هشام إلى[1] خمسة وثلاثين ألفَ دينارٍ ومائة دينار .

وفي إقليم طالقة من أقاليم إشبيلية وُجدت صورة جارية من مرمر معها صبي ، وكأن حيّة تريده ، لم يُسمع في الأخبار ولا رُئيَ في الآثار صورة أبدع منها ، جُعلت في بعض الحمامات وتعشّقها جماعة من العوام[2] .

وفي كورة ماردة[3] حصنٌ شنت أفرج في غاية الارتفاع ، لا يعلوه طائر البتة لا نسر ولا غيره .

ومن عجائب الأندلس البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليش[4] ، فإن طول كل جائزة[5] منه مائة شبر وأحد عشر شبراً ، وهي مربعة منحوتة مستوية الأطراف .

وقال بعض من وصف إشبيلية[6] : إنها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة ، وعليه جسر مربوط بالسفن ، وبها أسواق قائمة ، وتجارات رابحة ، وأهلها ذوو أموال عظيمة ، وأكثر متاجرهم الزيت ، وهو

---

١ إلى : سقطت من ق ط ج ، وكتب فيها « خمسة وثلاثون » .

٢ انظر الروض المعطار : ١٢٢ في وصف طالقة ، ونصاً تفصيلياً عن الصورة المذكورة : ١٢٣ .

٣ ماردة : مدينة كبيرة بينها وبين بطليوس عشرون ميلا ، قال الرازي : كانت قاعدة الأندلس وقرارة الملك ، بنيت في زمن قيصر اكتبيان (Octavian) وهي على نهر آنة ، وفي عملها كثير من المدن ، وكان لها من القرى والحصون ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية كلها متصلة بعضها ببعض بالعروسات والأشجار والزيتون والعنب (مخطوط الرباط : ٤٨) .

٤ اقليش : (Ucles) قاعدة كورة شنتبرية .

٥ الجائزة : الخشبة التي تحمل خشب البيت ، أي الدعامة ، وفي اللسان « الجائز » دون تاء التأنيث .

٦ انظر الروض المعطار : ١٩ ومخطوطة الرباط : ٥٣ .

يشتمل على كثير من إقليم الشّرَف ، وإقليمُ الشرف على تلٍّ عالٍ من تراب أحمر مسافته أربعون ميلاً في مثلها ، يمشي بها[1] السائر في ظل الزيتون والتين ، ولها — فيما ذكر بعضُ الناس — قُرًى كثيرة ، وكل قرية عامرة بالأسواق والديار الحسنة والحمّامات وغيرها من المرافق .

وقال صاحب مناهج الفكر[2] ، عند ذكر إشبيلية : وهذه المدينة من أحسن مدن الدُّنيا ، وبأهلها يُضرب المثل في الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعةَ بعد الساعة ، ويعينهم على ذلك واديها الفرج ، وناديها البهج ، وهذا الوادي يأتيها من قرطبة ، ويجزر في كل يوم ، ولها جبل الشّرَف ، وهو تراب أحمر طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلاً ، وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلاً ، يشتمل على مائتين وعشرين قرية ، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت ، انتهى

* * *

[شهرة باجة وجبل طارق]

ولكورة باجة[3] من الكُوَر الغربية التي كانت من أعمال إشبيلية أيام بني عبّاد خاصيّةٌ في دباغة الأديم وصناعة الكتان ، وفيها معدن فضة ، وبها وُلد المعتمد بن عبّاد ، وهي متصلة بكورة ماردة .

وبجبل طارق حوز قصب السبق بنسبته إلى طارق مولى موسى بن نُصَير ،

....

١ ك : به .

٢ هنالك كتاب باسم « مباهج الفكر ومناهج العبر » لمحمد بن عبد الله الأنصاري ، عاد فذكره حاجي خليفة باسم « مناهج الفكر » وقال إن الاسم الصحيح بالنون ، ومؤلفه جمال الدين محمد ابن إبراهيم الوطواط (–٧١٨) ويقول الأستاذ خير الدين الزركلي إنه في الكيمياء والطبيعة وهو في ستة مجلدات ، قلت : وقد اطلعت على المجلدين الثالث والرابع منه بالخزانة العامة بالرباط وهما يشملان النبات والحيوان (وفي ك : منهاج الفكر) .

٣ باجة (Beja) في البرتغال وتقع على بعد ١٤٠ كيلومتراً جنوب شرقي الاشبونة وكانت تضم كورة واسعة .

إذ كان أوّل ما حل به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح ، ولذا شُهِر بجبل الفتح ، وهو مقابل الجزيرة الخضراء ، وقد تجوّنَ [1] البحر هنالك مستديراً حتّى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء ، وفيه يقول مطرّف شاعر غرناطة [2] :

وأقوَدَ قد ألقى على البحر مَتْنَهُ   فأصبحَ عن قُودِ الجبال بمعزِلِ [3]
يُعَرِّضُ نحو الأفق وَجْهاً كأنّما   تراقِبُ عينَاه كواكبَ منزلِ

وإذا أقبل عليه المسافرون من جهة سَبْتَةَ في البحر بان كأنّه سرج ، قال أبو الحسن علي [4] بن موسى بن سعيد : أقبلت عليه مرة مع والدي فنظرنا إليه على تلك الصفة ، فقال والدي [5] : أجز :

انظر إلى جَبل الفَتْـ   ـح راكباً مَتْنَ لُجّ

فقلت :

وقد تَفَتّحَ مثل الـ   أفْنانِ في شكل سَرْج

وأما جزيرة طريف فليست بجزيرة ، وإنّما سميت بذلك الجزيرةُ التي أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراءِ ، وطريف المنسوبة إليه بَرْبَرِيٌّ من موالي موسى بن نُصَير ، ويقال : إن موسى بعثه قبل طارق في أربعمائة رجل ، فنزل بهذه الجزيرة في رمضان سنة إحدى وتسعين ، وبعده دخل طارق ، والله أعلم .

* * *

١ ك : تجوف ؛ ق : تجوز ؛ ج : تجور .
٢ هو أبو الحسن مطرف بن مطرف (– ٦٠٩) من أهل غرناطة ، قتل في وقعة « العقاب » . (انظر المغرب ٢ : ١٢٠ وتحفة القادم : ٩٨ والرايات : ٥٩).
٣ الأقود : الطويل على الأرض ، وجمعه : قود ، وقد عنى به الجبل .
٤ علي : سقطت من ق .
٥ والدي : سقطت من ق .

[كورة طليطلة وما تشتهر به]

ومن أعظم كور الأندلس كورة طُلَيْطلة[1] ، وهي من متوسط الأندلس ، وكانت دار مملكة بني ذي النّون من ملوك الطوائف ، وكان ابتداء ملكهم صدرَ المائة الخامسة ، وسمّاها قيصر بلسانه بزليطة[2] ، وتأويل ذلك : أنت فارح ، فعرّبتها العرب وقالت : طليطلة ، وكانوا يسمّونها وجهاتها في دولة بني أميّة بالثغر الأدنى ، ويسمون سَرَقُسْطة وجهاتها بالثغر الأعلى ، وتسمى طليطلة مدينة الأملاك لأنها فيما يقال ملكها اثنان وسبعون إنساناً ، ودخلها سليمان بن داود ، عليهما السلام ، وعيسى بن مريم ، وذو القرنين ، وفيها وجد طارق مائدة سليمان ، وكانت من ذخائر أشبان ملك الروم الذي بنى إشبيلية ، أخذها من بيت المقدس كما مر ، وقُوّمت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار ، وقيل : إنها كانت من زمرد أخضر ، ويقال : إنها الآن برومة ، والله أعلم بذلك .

ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة[3] ، منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، وإيوان ممتلىء من أواني الذهب والفضة ، وهو كبير ، حتى قيل : إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه ، وقد قيل : إن أواني المائدة من الذهب وصحافها من اليَشْم والجزْع ، وذكروا فيها غير هذا ممّا لا يكاد يصدّقه الناظر فيه .

وبطليطلة بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، مختلفة الطعوم والألوان ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، ورساتيق مريعة ،

---

١ طليطلة : (Toledo) كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طارق ، وهي مشرفة على ما يليها من الأندلس إلى الجنوب ، وكانت من أولى المدن التي انتزعت من يد العرب إذ استولى عليها الفونش السادس عام ٤٧٨ وجر ذلك إلى معركة الزلاقة .

٢ تصحفت الكلمة هنا ؛ وصورتها الصحيحة « توليطة » وفي الروض المعطار « تولاطو » قال : ومعناه : فرح ساكنوها ، وفي هذا إشارة إلى الأصل اللاتيني : (Tu ledo) بمعنى « أنت فارح » ، وفي ك ط وردت : بزليطلة — برليطلة .

٣ قارن بما ورد في الروض المعطار : ١٣٦ .

وضياع بديعة ، وقلاع منيعة ، وبالجملة فمحاسنها كثيرة ، ولعلّنا نُلِمّ بيعض متنزهاتها فيما يأتي من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وطليطلة قاعدة ملك القوطيين ، وهي مُطِلّة على نهر تاجُه ، وعليه كانت القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قَوْس واحد تكنفه فرختان[1] من كل جانب ، وطولُ القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعاً ، وخربت أيام الأمير محمد لما عصى عليه أهلها فغزاهم ، واحتال في هدمها ، وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس[2] :

أضْحَتْ طُلَيْطلةٌ مُعَطّلةً   من أهلها في قبضة الصقر
تُرِكَتْ بلا أهلٍ تؤهّلها   مَهْجورةَ الأكنافِ كالقبر
ما كان يُبْقي الله قنطرةً   نُصبت لحمل كتائب الكفر

وسيأتي بعض أخبار طليطلة .

* * *

[مدينة المرية وما تشتهر به]

ومن مشهور مدن الأندلس المَرِيّة ، وهي على ساحل البحر ، ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران ، بناها عبد الرحمن الناصر ، وعظمت في دولة المنصور بن أبي عامر ، وولى عليها مولاه خَيْران ، فنُسبت القلعة إليه ، وبها من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد ، وفيها دار الصناعة ، وتشتمل كُوَرتُها على معدن الحديد والرخام ، ومن أبوابها باب العُقاب عليه صورة

---

١ ك : فرجتان .

٢ عباس بن فرناس التاكرني حكيم الأندلس ، بربري الأصل من موالي بني أمية ، كان صاحب اختراعات وتوليدات (توفي ٢٧٤) ، انظر ترجمته في الجذوة ٣٠٠ وبغية الملتمس (رقم : ١٢٤٧) والمغرب ١ : ٣٣٣ . وله أخبار في المقتبس (تحقيق مكي) ؛ والأبيات فيه ص ٣٠٦ — ٣٠٧

عُقاب من حجر قديم عجيب المنظر .

وقال بعضهم[1] : كان بالمَرِيّة لنسج طُرُز الحرير ثمانمائة نَوْل ، وللحُلَل النفيسة والديباج الفاخر ألف نَوْل ، وللأسقلاطون كذلك ، وللثياب الجرجانية كذلك ، وللأصفهانية مثل ذلك ، وللعنابي والمعاجر المدهشة والستور المكللة . ويُصْنَع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف . وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حُسناً ، وساحلها أفضلُ السواحل ، وبها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة ، وقد ألف فيها أبو جعفر ابن خاتمة تاريخاً حافلاً سمّاه بـ « مزية المرية ، على غيرها من البلاد الأندلسية »[2] في مجلد ضخم تركته من جملة كتبي بالمغرب ، والله سبحانه المسؤول في جمع الشمل ، فله الأمر من بعدُ ومن قَبل .

ووادي المرية طوله أربعون ميلاً في مثلها كلها بساتين بهجة ، وجنات نضرة ، وأنهار مطردة ، وطيور مغردة .

قال بعضهم : ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالاً من أهل المرية ، ولا أعظم متاجر وذخائر ، وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف ، وهي بين الجبلين بينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة ، وعلى الآخر رَبَضُها ، والسور محيط بالمدينة والربض ، وغربيها رَبَضٌ لها آخر يسمى ربض الحوض ذو فنادق وحمّامات وخنادق وصناعات ، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة ، وأحجار أولية ، وكأنما غُربلت أرضها من التراب ، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار ، انتهى .

* * *

١ انظر جانباً من هذه المعلومات في الروض المعطار : ١٨٤ والمنتقى من فرحة الأنفس : ٢٨٣ .

٢ ذكره ابن الخطيب في الإحاطة ١ : ٩١ وصاحب نيل الابتهاج : ٥١ والسخاوي ، ويبدو أنه من الكتب التي لا تزال مفقودة .

[شنترة وخواصها]

وقال ابن اليسع، عند ذكره مدينة شنترة [1] : إن من خوّاصّها أن القمح والشعير يُزرعان فيها ويحصدان عند مضي أربعين يوماً من زراعته، وإن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر، قال لي أبو عبد الله الباكوري، وكان ثقة: أبصرت عند المعتمد بن عبّاد رجلاً من أهل شنترة أهدى إليه أربعاً من التفاح ما يُقِلُّ الحاملُ على رأسه غيرها، دور كل واحدة خمسة أشبار، وذكر الرجل [2] أن المعتاد عندهم أقل من هذا، فإذا أرادوا أن يجيء بهذا العظم [3] قطعوا أصلها وأبقوا منه عشراً أو أقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب، انتهى.

* * *

[شنش وسهيل وتدمير]

وبحصن شَنَش [4] على مرحلة من المرية التوت الكثير، وفيها الحرير والقرمز، ويُعرف واديها بوادي طبرنش.

وبغربي مالَقَة عملُ سهيلٍ، وهو عمل عظيم كثير الضياع، وفيه جبل سهيل لا يُرى نجم سهيل بالأندلس إلا منه.

ومن كُوَر الأندلس الشرقية تُدْمير، وتسمى مصر أيضاً [5] لكثرة شبهها بها، لأن لها أرضاً يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة، ثم ينضُب عنها، فتزرع كما تُزرع أرض مصر، وصارت القصبة بعد تدمير مُرْسيَة، وتسمى البستان، لكثرة جنّاتها المحيطة بها، ولها نهر يصب في قبليها.

* * *

١ شنترة (Centra) في البرتغال من مدائن الأشبونة (لشبونة) إلى الشمال الشرقي منها، على نهر تاجه، وقد ردد السلفي الحديث عن تفاحها (تراجم وأخبار أندلسية: ٤٠).

٢ زاد بعده في ك: بحضرة ابن عباد.

٣ زاد في ك: وهذا القدر.

٤ المغرب ٢ : ٢٢٥.

٥ أيضاً: زيادة من ك.

[أقاليم الأندلس وكور كل إقليم]

واعلم أن جزيرة الأندلس – أعادها الله للإسلام – مشتملة على موسطة وشرق، وغرب :

فالموسطة فيها من القواعد الممصرة التي كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام وأقطار متسعة : قرطبة ، وطليطلة ، وجيّان ، وغرْناطة ، والمَرِيّة ، ومالقة ؛ فمن أعمال قرطبة إستجَةُ وبلكُونة وقَبْرة ورُنْدة وغافق والمدور وأسطبة وبيّانة واليُسّانة والقُصَيْر[1] وغيرها ، ومن أعمال طليطلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة وغيرها[2] ، ومن أعمال جيّان أُبّذَة وبيّاسة وقَسْطَلّة وغيرها[3] ، ومن أعمال غرناطة وادي آش والمنكّب[4] ولَوْشة وغيرها ،

---

١ هذه التقسيمات هي التي أوردها ابن سعيد أيضاً في المغرب ولم يسقط المقري منها سوى « كزنة ومراد » وسيعود إلى ذكرها في الباب الرابع ، وإلى تبيان المسافات بينها وبين قرطبة ؛ وللتعريف بها أقول : استجة (Ucija) على بعد ٥٦ ميلا جنوب قرطبة ؛ وبلكونة (Balcuna) مركز كورة باسمها وكانت في زمن ابن سعيد آهلة بالسكان ؛ وقبرة (Cabra) مركز كورة وتقع على بعد ثلاثين ميلا جنوب شرقي قرطبة ؛ ورندة (Rônda) من مدن تاكرنا على نهر ينسب إليها يصب في نهر لكه ؛ وغافق (Gafic) بغرب حصن بطروش ؛ والمدور (Almodavar) بينه وبين قرطبة ستة عشر ميلا ؛ واسطبة (أو استبة) (Estepa) بينها وبين قرطبة ستة وثلاثون ميلا ؛ وبيانة (Baena) إلى الشمال من قبرة ؛ واليسانة (Lucana) بينها وبين قرطبة أربعون ميلا وكانت تسمى مدينة اليهود لكثرتهم بها ؛ والقصير (Al-Kosair) وهي كورة بينها وبين قرطبة ثمانية عشر ميلا ، وكان أهم أعمالها في زمن ابن سعيد هو حصن القصير في شرقي قرطبة على النهر .

٢ طلمنكة : (Salamanqua) مدينة بثغر الأندلس بينها وبين وادي الحجارة عشرون ميلا بنيت زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (الروض المعطار) .

٣ جيان : (Jaen) على بعد ٩٧ كيلومتراً شمالي غرناطة ؛ وبياسة (Beaza) بينها وبين جيان عشرون ميلا ، وتطل على النهر الكبير ، استولى عليها الروم سنة ٦٢٣ هـ ؛ وقسطلة (Calzalilla) تبعد نحو عشرين ميلا إلى الشمال من جيان .

٤ المنكب : (Al-Munecar) كان حصناً قوياً ، وهو اليوم فرضة صغيرة على البحر تابعة لمركز مطريل في مديرية غرناطة .

ومن أعمال المرية أنْدَرَش[1] وغيرها ، ومن أعمال مالَقَة بلّش والحامة[2] وغيرهما ، وببلّش من الفواكه ما بمالقة ، وبالحامة العين الحارة على ضفة واديها .

وأمّا شرق الأندلس ففيه من القواعد : مُرْسية ، وبَلَنْسية ، ودانية ، والسهلة ، والثغر الأعلى ؛ فمن أعمال مُرْسية أوريولة والقنت ولورقة وغير ذلك[3] ، ومن أعمال بلنسية شاطبة ويُضرب بحسنها المثل ويُعمل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شُقْر وغير ذلك[4] ، وأما دانية فهي شهيرة ولها أعمال ، وأمّا السهلة[5] فإنّها متوسطة بين بلنسية وسَرَقُسطة ولذا عدّها بعضهم من كُوَر الثغر الأعلى ولها مدن وحصون ، ومن أعمال الثغر الأعلى : سرقسطة وهي أم ذلك الثغر ، وكورة لاردة ، وقلعة رباح[6] ، وتسمى بالبيضاء ، وكورة تُطيلة ، ومدينتها طرسونة ، وكورة وَشْقَة[7] ، ومدينتها تمريط ، وكورة مدينة سالم ، وكورة قلعة أيوب ، ومدينتها مَلْيانة[8] ، وكورة بربطانية[9] ، وكورة باروشة .

---

١ أندرش : (Andarax) من أعمال المرية على نهر باسمها .

٢ بلش : (Velez Malaga) ؛ والحامة (Alahama) .

٣ مرسية : (Murcia) اختطت سنة ٢١٦ هـ ، فخلفت تدمير وأصبحت الكورة تسمى كلها باسمها وكانت القاعدة قبلها أوريولة (Orihuela) ؛ أما القنت (أو لقنت) فكانت مدينة من كورة تدمير وقيل في وصفها : مدينة صغيرة وهي اليوم عاصمة مديرية بحرية تسمى باسمها تقع جنوبي مديرية بلنسية وشرقي مديريّ البسيط ومرسية ، وتعد من أكبر موانئ الساحل الشرقي .

٤ بلنسية : (Valencia) من أكبر مدن الساحل الشرقي ازدهاراً في العصور الإسلامية ، إلى الشمال من دانية على شاطئ البحر ؛ وكانت تسمى مدينة التراب ؛ وحصن شاطبة (Sativa) إلى الشمال من لقنت ؛ وأما جزيرة شقر (Jucar) فهي مدينة على جزيرة في مصب نهر شقر (وادي شقر) وتسمى اليوم Al-cira وهي في مديرية بلنسية .

٥ السهلة تسمى أيضاً شنتمرية الشرق (سهلة بني رزين – Santa Maria de Albarracin) وهي من كبار معاقل كورة شنتبرية (Santaver) وتمتد من كورة سرقسطة الجنوبية حتى كورتي وادي الحجارة وطليطلة .

٦ قلعة رباح : مدينة تابعة لطليطلة وموضعها يسمى اليوم (Castillo de Caltarava la Vieja)

٧ وشقة : (Huesca) من كور الثغر الأعلى ، بينها وبين سرقسطة خمسون ميلا وتقع إلى الشمال الشرقي منها .

٨ ق ك : بليانة .

٩ ق ك ج : برطانية ؛ ط : برطيانة .

وأما غرب الأندلس ففيه : إشبيلية ، وماردة ، وأشبونة ، وشِلْب ؛ فمن أعمال إشبيلية شَرِيش والخضراء ولَبْلَة وغيرها ، ومن أعمال ماردة بَطَلْيوس ويابرة وغيرهما ، ومن أعمال أشبونة شَنْتَرين وغيرها ، ومن أعمال شِلْبَ شنت مرية[1] وغيرها .

* * *

[الجزر البحرية]

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة قادس ، وهي من أعمال إشبيلية ، وقال ابن سعيد : إنها من كورة شَرِيش ، ولا منافاة لأن شريشاً من أعمال إشبيلية كما مر ، قال : وبيد صنم قادس مفتاح ، ولما ثار بقادس ابن أخت القائد أبي عبد الله بن ميمون — وهو عليّ بن عيسى قائد البحر بها — ظن أن تحت الصنم مالاً فهدمه فلم يجد شيئاً[2] ، انتهى .

وهي — أعني جزيرة قادس — في البحر المحيط ؛ وفي المحيطِ الجزائر الخالدات السبع ، وهي غربي مدينة سَلا تلوح للناظر في اليوم الصاحي الخالي الجوّ من الأبخرة الغليظة ، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين ، تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها . وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات ، وفيها من المدن والقُرَى ما لا يحصى ، ومنها يخرج قوم يقال لهم المجوس على دين النصارى : أولها جزيرة برطانية ، وهي بوسط البحر المحيط بأقصى شمال الأندلس ، ولا جبال فيها ، ولا عيون ، وإنّما يشربون من ماء المطر ، ويزرعون عليه .

قال ابن سعيد : وفيه جزيرة شَلْطيش[3] ، وهي آهلة وفيها مدينة ، وبحرها

---

١ ق ك ط : شنت رية ؛ ج : شنتمونية .

٢ انظر الروض المعطار : ١٤٧ .

٣ شلطيش : (Saltes) جزيرة تقع على مقربة من شلب ، وكانت في عصر ملوك الطوائف من أملاك البكريين أسرة العالم اللغوي الجغرافي أبي عبيد البكري ؛ وهي اليوم من مديرية ولبة . (وفي النسخ : شليطش) .

كثير السمك ، ومنها يُحمل مُمَلَّحاً إلى إشبيلية ، وهي من كورة لَبْلَة [1] مضافة إلى عمل أونَبَة ، انتهى .

* * *

[قرطاجنة وخواصها]

وقال بعضهم ، لما أجرى ذكر قَرْطاجنة من بلاد الأندلس : إن الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمَطْرة واحدة ، وبها أقواس من الحجارة المقربصة [2] ، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة ، ومن أعجب بنائها الدواميس [3] ، وهي أربعة وعشرون على صف واحد من حجارة مقربصة ، طولُ كل داموس مائةٌ وثلاثون خطوة في عرض ستين خطوة ، وارتفاع كل واحد أكثر [4] من مائتي ذراع ، بين كل داموسين أنقاب محكمة تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض في العلوّ الشاهق بهندسة عجيبة وإحكام بديع ، انتهى .

قلت : أظن هذا غلطاً ، فإن قَرْطاجنة التي بهذه الصفة قرطاجنة إفريقية [5] ، لا قرطاجنة الأندلس ، والله أعلم .

وقال صاحب مناهج الفكر ، عندما ذكر قَرْطاجنة : وهي على البحر الرومي مدينة قديمة بقي منها آثار ، لها فحص طوله ستة أيام وعرضه يومان

---

١ لبلة : (Niebla) كانت قاعدة كورة تسمى باسمها وهي على بعد خمسين كيلومتراً غربي إشبيلية وتتبع مديرية ولبة (Huelva) .

٢ مقربصة أو مقربسة بمعنى محكمة الأساس ؛ يقال قربص البيت : قاس طوله وعرضه ليساوي بين كل حائط وما يقابله .

٣ الدواميس هنا : بمعنى الأحواض أو ما يشبه « المواويس » ، جمع داموس ، وقد تستعمل بمعنى « السجن » ومنه الديماس .

٤ ج ط ق : أطول .

٥ انظر جغرافية البكري – المغرب في ذكر بلاد إفريقية : ٤٤ ففيه وصف لقرطاجنة إفريقية يؤكد أن المقري على صواب .

معمور بالقرى ، انتهى .

وذكر قبل ذلك في لورَقَة أن بناحيتها يوجد حجر اللازَوَرْد .

وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا مَيُورقة ومَنُورقة ، وبينهما خمسون ميلاً ، وجزيرة مَيُورقة مسافة يوم ، بها مدينة حسنة ، وتدخلها ساقية جارية على الدوام ، وفيها يقول ابن اللبّانة [1] :

بَلَدٌ أعارَتْهُ الحمامَةُ طَوْقَها وكَساهُ حُلَّةَ ريشه الطاووسُ [2]

فكأنّما الأنهار فيه مُدامةٌ وكأنّ ساحات الديار كؤوسُ

وقال يخاطب ملكها [3] ذلك الوقت :

وغمَرْتَ [4] بالإحسان أرض مَيُورقةٍ وبَنَيْتَ ما لم يَبْنِهِ الإسْكَنْدَرُ

وجزيرة يابسة .

واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ، ولو تُتُبِّع لكان تأليفاً مستقلاً ، وما أحسن قول ابن خَفاجَة [5] :

....

١ ابن اللبانة : أبو بكر محمد بن عيسى شاعر دولة المعتمد وصاحب المراثي فيه ومؤلف كتاب سقيط الدرر ولقيط الزهر في شعر ابن عباد ، توفي سنة ٥٠٧ بميورقة وسيرد ذكره في النفح كثيراً . (راجع ترجمته في المغرب ٢ : ٤٠٩ والمعجب : ٢٠٨ والقلائد : ٢٤٥ والوافي ٤ : ٢٩٧ والذخيرة (القسم الثالث ٢٠٩) والمطرب : ١٧٨ وفوات الوفيات ٢ : ٥١٤ والتكملة : ٤١٠ وله موشحات في دار الطراز .

٢ البيتان في « المقتطفات » : ٤٠ وينسب البيتان لابن قلاقس الإسكندري ، قالهما في مدينة مسينة بصقلية حين زارها ، وهما في ديوانه : ٥٦ وكذلك ينسبان لابن حمديس (ديوانه : ٥٥٣) حسبما ورد في مسالك الأبصار ، ونسبهما صاحب المغرب (٢ : ٤٦٦) لابن اللبانة .

٣ كان صاحب ميورقة في زمن ابن اللبانة هو مبشر بن سليمان الملقب ناصر الدولة .

٤ ق ج : وعمرت .

٥ أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة شاعر الطبيعة الأكبر ، توفي سنة ٥٣٣ ؛ نشر ديوانه بتحقيق الدكتور السيد مصطفى غازي (الإسكندرية ١٩٦٠) وفي ص : ٤٣٧ ثبت جامع للمصادر التي ترجمت لابن خفاجة أو أوردت ذكره وشعره ؛ وهذه الأبيات في الديوان : ١٣٦ .

إنّ للجنّة بالأندلس مُجتلى حُسْنٍ وريّا نَفَسِ
فَسَنا صُبْحَتِها من شَنَبٍ ودُجى ليلتِها من لَعَسِ
وإذا ما هَبّتِ الريحُ صَباً صِحتُ واشَوْقي إلى الأندلسِ

وقال بعضهم في طُلَيطلة :

زادت طُلَيطلةٌ على ما حَدّثوا بَلَدٌ عليه نَضْرَةٌ ونَعيمُ
الله زَيّنَه فوشّحَ خَصْرَهُ نهرُ المجرّة والغصونُ نجومُ

* * *

[رسالة أبي البحر في تغاير مدن الأندلس]

ولا حرج إن أوردنا هنا ما خاطب به أديبُ الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس الأميرَ عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، فإنّه مناسب ، ونصّه[1] : مولاي ، أمتع الله ببقائك الزمانَ وأبناءه ، كما ضمّ على حبّك أحناءهم وأحناءه ، ووصل لك ما شئت من اليُمن والأمان ، كما نظم قلائد فخرك على لَبّة الدهر نَظْمَ الجُمان ، فإنّك الملك الهمام ، والقمر التمام ، أيّامك غُرر وحُجُول ، وفرِنْدُ بهائها في صَفحات الدهر يَجُول ، ألبستَ الرعية بُرودَ التأمين ، فتنافست فيك من نفيسٍ ثمين ، وتلقّت دَعوات خُلْدك لها باليمين ، فكم للناس ، من أمنٍ بك وإيناس ، وللأيام ، من لَوْعة فيك وهُيام ، وللأقطار ، من لُبانات لديك وأوطار ، وللبلاد ، من قراع لها على تملكك لها وجلاد ، يتمنّون شَخْصك الكريم على الله ويقترحون ، ويغتبقون في رياض ذكرك العاطر بمدام حبّك ويصطبحون ، ﴿ كلُّ حزْبٍ بما لديهم فَرِحُون ﴾ (الروم : ٣٢) محبةً من الله ألقاها لك حتى على الجماد ، ونَصْراً

---

١ وردت هذه الرسالة في أوراق مخطوطة رقم ٤٢١ بالاسكوريال ، وهي مقتطفات لعلها من نفح الطيب ويحال عليها بلفظة « المقتطفات » .

مؤزَّراً تنطق[1] به ألسنة السيوف على أفواه الأغماد ، ومن أسَرَّ سريرة ألبسه الله رداءها ، ومَنْ طوى حسن نية ختم الله له بالجميل إعادتها وإبداءها ، ومَنْ قدّم صالحاً فلا بدّ أن يوازيه ، ومَنْ يفعل الخير لا يعدم جوَازيه[2] . ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار ، وطال بها الوقوفُ على حبِّك والاقتصار ، كلُّها يُفْصِح قولاً ، ويقول : أنا أحقّ وأولى ، ويُصيخ إلى إجابة دعوته ويُصْغي ، ويتلو إذا بُشّر بك ﴿ ذلك ما كنّا نَبْغِ ﴾ (الكهف : ٦٤) ، تَنَمَّرَتْ حمصُ غيظاً ، وكادت تفيظ فيظاً ، وقالت : ما لهم يزيدون وينقصون ، ويطمعون ويحرصون ﴿ إن يتَّبعون إلاّ الظنَّ وإنْ هُمْ إلاّ يَخْرُصُون ﴾ (يونس : ٦٦) . لي[3] السّهْم الأسدّ ، والساعد الأشَدّ ، والنهر الذي يتعاقب عليه الجَزْر والمدّ ، أنا مصر الأندلس والنيل نَهري ، وسماءُ[4] التأنّس والنجوم زهري ، إن تجاريتم في ذلك[5] الشرف ، فحسبي أن أفيض في ذكر الشرف[6] ، وإن تبجحتم[7] بأشرف اللبوس ، فأي إزار اشتملتموه كشنتبوس[8] ، لي ما شئت من أبنية رِحاب ، وروضٍ يستغني بنَضْرَته عن السّحاب ، قد ملأت زهراتي وِهاداً ونِجادا ، وتوشّحَ سيف نَهري بحدائقي نِجادا ، فأنا أولاكم بسيّدنا الهمام وأحَقّ ، ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحقّ ﴾ (يوسف : ٥١) .

فنظرتها قرطبة شَزْرًا ، وقالت : لقد كَثُرْتِ نَزْرًا ، وبَذَرْتِ في الصخر

---

١ ج : أنطق .

٢ من قول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

٣ ك : ألم .

٤ ك : وسمائي .

٥ ق ج : ذكر .

٦ يعني ما يسمى «شرف إشبيلية» ؛ راجع ص : ١٥٨ – ١٥٩

٧ ك : تبجبجتم .

٨ ط : كشلبوس . ج : كشوش .

الأصمُّ بزرا ، كلامُ العِدى ضربٌ من الهذيان [1] ، وأنّى للإيضاحِ والبيان ، متى استحال المستقبَحُ مستحسَناً ، ومن أودع أجفان المهجور وَسَناً ﴿ أفمَنْ زُيّن لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرَآهُ حَسَناً ﴾ (فاطر : ٨) . يا عجباً للمراكز تُقدَّم على الأسنّة ، وللأثفار تُفضَّل على الأعنّة ، إن ادَّعيتم سبقا ، فما عِنْدَ الله خَيْرٌ وأبْقى : لي البيت المطهَّر الشريفُ ، والاسم الذي ضَرب عليه رِوَاقَهُ التعريفُ ، في بقيعي محل الرجال الأفاضل ، فليرغم أنف المناضل ، وفي جامعي مَشاهد ليلة القدر ، فحسبي من نَباهة القدر ، فما لأحدٍ أن يستأثر عليَّ بهذا السيِّد الأعلى ، ولا أرتضي [2] له أن يوطىء غيرَ ترابي نعلا ، فأقِرُّوا لي بالأبوّة ، وانقادوا على حكم البنوَّة ، ﴿ ولا تكونوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بعدِ قُوَّة ﴾ (النحل : ٩٢) وكُفّوا عن تباريكم ﴿ ذَلِكُمْ خيرٌ لَكُمْ عندَ باريكم ﴾ (البقرة : ٥٤) .

فقالت غَرْناطة : لي المعقل الذي يمتنع ساكنه [3] من النجوم ، ولا تجري إلا تحته جِيادُ الغيم [4] السَّجوم ، فلا يلحقني من مُعاند ضَرَرٌ ولا حيف ، ولا يهتدي إليَّ خيالٌ طارق ولا طيف ، فاستسلموا قولاً وفعلا ، فقد أفلح اليومَ مَنِ استَعْلى ، لي بِطاح تقلدت من جداولها أسلاكاً ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكاً ، ومياه تسيل على أعطافي كأدمع العشاق، وبرد نسيم يردُّ ذَماءَ [5] المستجير بالانتشاق ، فَحُسْني لا يطمع فيه ولا يحتال ، فدعوني فكل ذات ذيل تختال ، فأنا أولى بهذا السيِّد الأعدل ، وما لي به من عِوَض ولا بدل ، ولِمَ لا يعطف عليَّ عِنان مجده ويَثْني ، وإن أنشد يوماً فإياي يَعْني [6] :

---

١ من قول المتنبي يمدح كافوراً :

وَلله سر في علاك وإنما ... كلام العدا ضرب من الهذيان

٢ ك : أرضى .

٣ المقتطفات : يمنع صاحبه .

٤ ك : الغيث .

٥ ط : دماء .

٦ من شعر بعض الأعراب ، وقبله :

أحب بلاد الله ما بين منعج ... إلي وسلمى أن يصوب سحابها

بلاد بِها عقّ الشبابُ تمائمي وأولُ أرضٍ مَسّ جلدي ترابُها

فما لكم تعتزُون لفخري وتنتمون ، وتتأخرون في ميداني وتتقدمون ، تبرأوا إليّ مما تزعمون ﴿ ذَلِكُمْ خيرٌ لَكُمْ إن كنتم تَعْلَمون ﴾ (التوبة : ٤١) .

فقالت مالقة : أتتركوني بينكم هَمَلا ، ولم تعطوني في سيّدنا أملا ، ولِمَ ولي البحر العجاج ، والسُّبلُ الفِجاج [1] ، والجنّات الأثيرة ، والفاكهة الكثيرة ؛ لديّ من البَهْجَة ما تستغني به الحمامُ عن الهَدِيل ، ولا تجنَحُ الأنفس الرقاق الحواشي إلى تعويض عنه ولا تبديل ، فما لي لا أُعطى في ناديكم كلاما ، ولا أنشر في جيش فخاركم أعلاما ؟

فكأن الأمصار نظرتها ازدراء ، فلم ترَ لحديثها في ميدان الذكر إجراء ، لأنها مَوْطِن لا يحلى منه بطائل ، ونظن البلاد تأوَّلَتْ فيها قول القائل :

إذا نَطَقَ السفيهُ فلا تُجِبْهُ فخيرٌ من إجابته السُّكُوتُ

فقالت مُرْسِية : أمامي تتعاطَوْنَ الفَخْر ، وبحضرة الدُّرّ تُنَفّقون الصخر؟ إن عُدّت المفاخر ، فلي منها الأول والآخر ، أين أوشالُكم من بَحْرِي ، وخَرَزُكم من لؤلؤ نَحْري ، وجَعْجَعَتُكم من نَفَثات سِحْرِي ؟ فلي الروض النّضير ، والمرأى الذي ما له من نظير ، وزنقاتي [2] التي سار مَثَلها في الآفاق ، وتبرقع وَجْهُ جَمالها بغُرّة الإصفاق ، فمن دَوْحات ، كم لها من بكور ورَوْحات ، ومن أرجاء ، إليها تُمدُّ أيدي الرجاء ، فأبنائي فيها [3] في الجنة الدنيوية مُودعون ، يتنعمون فيما يأخذون ويَدَّعُون ، ولهمْ فيها ما تَشْتَهي أنْفُسُهُمْ ولهمْ فيها ما يَدَّعُون . فانقادوا لأمري ، وحاذروا اصطلاء جمري ، وخلّوا

---

١ في نسخة بهامش ك : والسيل الثجاج .
٢ الزنقات من متفرجات مرسية . (انظر المغرب ٢ : ٢٤٦) .
٣ ط ك : فيه .

بيني وبين سيّدنا أبي زيد ، وإلا ضربتكم ضرب زيد [1] ، فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم ﴿ وما يُلَقّاها إلاّ ذو حَظّ عَظيم ﴾ (فصلت : ٣٥) .

فقالت بَلَنْسِيَة : فيمَ الجدال والقِراع ؟ وعلامَ الاستهام والاقتراع ؟ وإلامَ التعريض والتصريح ؟ وتحت الرَّغْوة اللبنُ الصريح [2] ، أنا أحوزه من دونكم ، فأخمدوا ناريْ تحرُّككم وهدونكم ، فلي المحاسن الشامخة الأعلام ، والجنات التي تُلْقي إليها الآفاق يَدَ الاستسلام ، وبِرُصافتي وجِسْري أعارض مدينة السلام [3] ، فأجمعوا على الانقياد لي والسلام ، وإلاّ فَعَضُّوا بنانا ، واقْرَعوا أسنانا ، فأنا حيث لا تدركون وأنّى ، ومولانا لا يُهْلِكُنا بما فعل السفهاء منّا .

فعند ذلك ارتمت جَمْرَةُ تُدْمِيرَ بالشَّرار ، واستدّت [4] أسهُمها لنحور الشَّرار ، وقالت : عِشْ رَجَبا ، تَرَ عَجَبا ، أبَعْدَ العصيان والعقوق ، تتهيئين لرُتَبِ ذوي الحقوق ؟ هذه سماء الفخر فمن ضمنكِ أن تعرجي ، ليس بعُشّك فادرجي [5] ، لك الوَصَبُ والحَبْلُ ﴿ آلآنَ وقد عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ (يونس : ٩١) ، أيّتها الصانعة الفاعلة ، من أدّاك أن تَطِرّي وما أنت ناعلة [6] ؟ ما الذي يُجْديكِ الروضُ والزَّهْرُ ؟ أم ما يفيدكِ الجدول والنهر ؟ وهل يُصْلح العطّارُ ما أفسد الدَّهْر [7] ؟ هل أنتِ إلاّ مَحَطٌّ رحل النفاق ، ومنزلٌ ما

---

١ إشارة إلى قول النحويين : « ضرب زيد عمراً » .

٢ هذا من أمثالهم ؛ أي أن الظاهر لا يحجب الحقيقة .

٣ تشتهر بلنسية برصافتها وجسرها ، وكذلك بغداد كما في قول علي بن الجهم : « عيون المها بين الرصافة والجسر » .

٤ ط ق ج : واشتدت .

٥ من أمثالهم ؛ أي ليس هذا من الأمر الذي لك فيه حق فدعيه . (انظر فصل المقال : ٣١٩) .

٦ ك : أدراك أن تضربي وما أنت فاعلة ؛ ق ك ط ج دوزي : أن تضربي ؛ ج : فاعلة . وكله خطأ في الجميع ، وصوابه من المثل « أطري فإنك ناعلة » أي خذي طرر الوادي وهي نواحيه . (فصل المقال : ١٤٧ وفهرسته) .

٧ من قول الشاعر في عجوز :

تروح إلى العطار تبغي صلاحها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

لِسُوق الخِصْب فيه من نَفاق ؟ ذَرّاكِ لا يكتحل الطرفُ فيه بهجوع ، وقِرّاكِ لا يُسْمن ولا يغني من جوع ، فإلامَ تبرز الإماء في منصّة العقائل ؟ ولكن اذكري قول القائل[1] :

بلَنْسيةٌ بيني عَنِ القلب سَلْوَةً فإنّكِ رَوْضٌ لا أحِنُّ لزَهْرِكِ
وكَيْفَ يحبُّ المرء داراً تقَسّمَت على صارمَيْ جوعٍ وفتنةِ مُشرِكِ

بَيْدَ أنّي أسأل الله تعالى أن يُوقِدَ من توفيقك ما خمد ، ويُسيل من تسديدك ما جَمَد ، ولا يُطيل عليك في الجهالة الأمد ، وإيّاه سُبْحانه نسأل أن يردّ سيّدنا ومولانا إلى أفضل عوائده ، ويَجْعَلَ مصائب أعدائه من فوائده ، ويمكّن حُسامه من رقاب المشغّبين ، ويُبقيه وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ، ويَصِل له تأييداً وتأبيداً ، ويُمَهّدَ له الأيام حتى تكون الأحرار لعبيد عبيده[2] عبيداً ، ويمد على الدنيا بساط سَعْده ، ويَهَبَهُ مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده :

آمين آمين لا أرْضى بواحدَةٍ حتّى أُضيفَ إليها ألفَ آمينا

ثم السلام الذي يتأنّق عَبَقاً ونَشْراً ، ويتألّق رَوْنَقاً وبِشْراً ، على حضرتهم العليّة ، ومطالع أنوارهم الجليّة[3] ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

* * *

[عود إلى ذكر غرناطة]

ولما ألمّ الرحّالة ابنُ بَطوطة في رحلته بدخوله لبلاد[4] الأندلس — أعادها

---

١ سينسبهما المقري ص : ١٨٠ لابن عياش (وهما له في زاد المسافر : ٩٤) وفي ياقوت (بلنسية) : أنهما لابن حريق .
٢ ط ق والمقتطفات : لعبيده عبيداً .
٣ ك : السنية الجلية .
٤ ك : بدخوله بلاد .

الله تعالى للإسلام – قال[1] : فوصلْتُ إلى بلاد الأندلس – حرسها الله تعالى – حيث الأجر موفور للساكن ، والثواب مذخور للمقيم والظاعن ، إلى أن قال عند ذكره[2] غَرناطة ما نصّه : قاعدة بلاد الأندلس ، وعروس مدنها ، وخارجُها لا نظير له في الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلاً ، يخترقه نهر شِنيل المشهور ، وسواه من الأنهار الكثيرة ، والبساتين[3] والجنّات والرياضات والقصور ، والكُرُوم مُحْدِقة بها من كل جهة ، ومن عجيب مواضعها عينُ الدمع ، وهو جبل فيه الرياضات والبساتين ، لا مثل له بسواها ، انتهى .

وقال الشقندي : غَرْناطة دمشقُ بلاد الأندلس ، ومَسْرَح الأبصار ، ومَطْمح الأنفس ، ولم تخلُ من أشرافٍ أماثِلَ ، وعلماء أكابر ، وشعراء أفاضل ، ولو لم يكن بها إلا ما خصّها الله تعالى به من كونها قد نَبَغَ فيها النساء الشواعر كنَزْهُونَ القلعية[4] والرَّكُونية[4] وغيرهما ، وناهيك بهما في الظَرْف والأدب ، انتهى .

ولبعضهم يتشوّق إلى غَرناطة فيما ذكر بعض المؤرخين ، والصواب أن الأبيات قيلت في قُرْطُبة كما مرّ[5] ، والله أعلم :

أغَرْناطَةُ الغرّاء هَلْ لي أَوْبَةٌ ... إليك ؟ وهل يَدْنُو لنا ذلك العهدُ ؟
سقَى الجانبَ الغربيَّ منكِ غَمائمٌ[6] ... وقَعْقَع في ساحات رَوْضتك الرَّعْدُ
لياليك أسحارٌ ، وأرضُك جنّةٌ ، ... وتُرْبُكِ في استنشاقها عَنْبرٌ وَرْدُ

وقال ابن مالك الرُّعَيْني :

---

١ رحلة ابن بطوطة : ٦٦٥ ، ٦٧٠ .
٢ ق : عند ذكر .
٣ ك : والبساتين الجليلة ؛ وسقطت اللفظتان من ج .
٤ سيجيء التعريف بهما وبكثير من شواعر الأندلس في النفح .
٥ انظر ص : ١٥٥ فيما تقدم .
٦ ك : غمامة .

رَعَى اللهُ بالحَمراء عَيشاً قَطَعْتُهُ   ذهبتُ به للأنس ، والليلُ قد ذهَبْ
ترى الأرضَ منها فِضَّةً فإذا اكْتَسَتْ   بشَمْسِ الضُّحى عادت سبيكَتُها ذهبْ

وهو القائل :

لا تَظنّوا أنَّ شَوْقي خَمدا   بعدَكُمْ أو أنَّ دمْعي جَمَدا
كيفَ أسلو عن أناسٍ مثلُهُمْ   قلَّ أنْ تُبْصِرَ عَيْني أحَدا

وغرناطة من أحسن بلادِ الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنّها أشبه شيء بها ، ويَشُقّها نهر حدره ، ويُطِلُّ عليها الجبل المسمى بشلير الذي لا يَزُول الثلج عنه شتاء وصيفاً ، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصَّلد ، وفي أعلاه الأزاهر الكثيرة ، وأجناسُ الأفاويه الرفيعة ، ونزل بها أهلُ دمشق لمّا جاءوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور ، وقرى غَرْناطة — فيما ذكر بعض المتأخرين — مائتان وسبعون قرية .

وقال ابن جُزَيّ مرتِّب رحلة ابن بطوطة ، بعد ذكره كلامه ، ما نصّه : قال ابن جزيّ[1] : لولا خشية أن أُنسَبَ إلى العصبية لأطلت القول في وصف غَرْناطة ، فقد وجدت مكانه ، ولكنَّ ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه ، ولله درُّ شيخنا أبي بكر ابن محمد بن شبرين السبتي[2] نزيل غَرْناطة حيث يقول :

رَعى الله من غَرْناطة مُتَبَوَّأً   يَسُرُّ حزيناً أو يُجير طَريدا
تبرَّمَ منها صاحِبي عندَما رَأى   مَسارِحَها بالثلج عُدْنَ جَليدا

١ رحلة ابن بطوطة : ٦٧٠ .
٢ ابن شبرين (وورد خطأ : شيرين وفي ج : بشرين) هو محمد بن أحمد بن محمد بن شبرين (– ٧٤٧) ولد بسبتة وأهله من إشبيلية أصلا ، كان تاريخياً شاعراً كاتباً ، وهو من شيوخ لسان الدين . (انظر الإحاطة ٢ : ١٧٤ – ١٨٢) . وأبياته في الإحاطة (١ : ١٠٤ تحقيق عنان) .

هيَ الثّغْر صان الله مَن ْ أهلَتْ به وما خيْرُ ثغرٍ لا يكون بَرُودا ؟!

وقال ابن سعيد عندما أجرى ذكر قرية نارجة ــ وهي قرية كبيرة تضاهي المدن ، قد أحدقت بها البساتين ، ولها نهر يفتّن الناظرين ، وهي من أعمال مالَقَةَ ــ : إنّه اجتاز مرة عليها مع والده أبي عمران موسى ، وكان ذلك زمانَ صباغة [1] الحرير عندهم ، وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خيماً ، وبعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب ، وسألوا : بمَ يُعرف ذلك الموضع ؟ فقالوا : الطراز . ، فقال والدي : اسم طابقَ مسمّاه ، ولفظ وافق معناه ،

وقدْ وجَدْتَ مكان القوْل ذا سعةٍ فإنْ وَجَدْتَ لساناً قائلاً فقُلِ

ثم قال أجز : بنارجةٍ حيثُ الطرازُ المنمنمُ
فقلت : أقِمْ فَوْقَ نهرٍ ثغرُه يتبَسّمُ

فقال : وسَمْعَكَ نحو الهاتفات فإنّها
فقلت : لما أبصرت من بَهْجَة تترَنّمُ

فقال : أيا جنّة الفردوس لسْتُ بآدمٍ
فقلت : فلا يَكُ حظّي من جنَاك التندُّمُ

فقال : يعزُّ علَيْنا أن نزورك مثل ما
فقلت : يزور خيالٌ من سُلَيْمَى مُسَلّمُ

فقال : فلو أنني أُعْطى الخيارَ لما عدَتْ
فقلت : محلّك لي عيْنٌ بمرْآك تنْعَمُ

فقال : بحيثُ الصَّبا والطّلُّ مِنْ نَفَثاتها

---

[1] ك : صناعة .

فقلت : وَقَتْ لَسْعَ رَوْض فيه للنهر أرْقَمُ
فقال : فوا أسَفي إنْ لَمْ تكن لي عَوْدَة
فقلت : فكُنْ مالكاً إنّي عليك مُتَمّمُ
فقال : فأحْسَبُ هذا آخرَ العهدِ بيننا
فقلت : وقَدْ يلحظُ الرّحْمن شوقي فيرْحَمُ
فقال : سَلامٌ سلامٌ لا يزالُ مُرَدَّداً
فقلت : عليك ولازالت بك السُّحبُ تَسجُمُ

* * *

[بلنسية وبعض قراها]

وقال ابن سعيد[1] : إن كورةَ بلَنْسية من شرق الأندلس تنبت الزعفران[2] ، وتُعرف بمدينة التراب ، وبها كمّثرى تسمى الأرزة[3] في قدر حبّة العنب ، قد جَمعَ مع حلاوة المطعم[4] ذكاء الرائحة ، إذا دخل داراً عُرِف بريحه ، ويقال : إن ضوء بلَنْسية يزيد على ضوء سائر بلاد بالأندلس ، وبها مَنازه[5] ومسارح ، ومن أبدعها وأشهرها الرُّصافة ومُنْية ابن أبي عامر .

وقال الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغرْناطي من أبيات فيها :

هيَ الفِرْدَوْسُ في الدنيا جَمالاً لساكِنِها وكارِهِها[6] البَعُوضُ

وقال بعضهم فيها[7] :

١ انظر جانباً من هذا الوصف في المغرب ٢ : ٢٩٧ – ٢٩٨ .
٢ ك : ينبت بها الزعفران .
٣ دوزي : الأزرة . وفي التعليقات محاولة للربط بينها وبين لفظة (azerola) المشتقة من الزعرور .
٤ ك : الطعم . ٥ ك : منارة .
٦ دوزي : مكارهها ، ولعل فيه إشارة إلى الحديث « حفت الجنة بالمكاره » .
٧ سيرد البيتان في الباب السابع من هذا الكتاب .

ضاقَتْ بَلَنْسِيَةُ بي   وذادَ عَنّي غموضي
رَقْصُ البراغيثِ فيها   عَلَى غِناء البَعُوضِ

وفيها لابن الزقاق البَلَنْسي [1] :

بَلَنْسِيَةٌ – إذا فَكَّرْتَ فيها   وفي آياتها – أسْنَى البِلادِ
وأعْظَم شاهِدي منها عَلَيْها   وأنَّ جمالها للعَيْنِ بادِي
كَسَاها رَبُّها دِيباجَ حُسْنٍ   له عَلَمانِ مِن بَحْرٍ وَوَادي

وقال ابن سعيد أيضاً : أنشدني والدي قال : أنشدني مَرْوان بن عبد الله ابن عبد العزيز ملك بلنسية [2] لنفسه بمراكش قوله [3] :

كأنَّ بَلَنْسِيَةً كاعبٌ   ومَلْبَسُها سُنْدسٌ أخضرُ
إذا جِئْتَها سَتَرَتْ نفسَها   بأكمامِها فَهْيَ لا تَظْهَرُ

وأمّا قول أبي عبد الله بن عياش « بلنسية بيني – البيتين » وقد سبقا [4] ، فقال ابن سعيد : إن ذلك حيث صارت ثغراً يُصابحها العدوّ ويماسيها ، انتهى .

وقال أبو الحسن بن حريق يجاوب ابن عياش [5] :

بَلَنْسِيَةٌ قَرَارَةُ كلّ حُسْنٍ   حَديثٌ صَحَّ في شرقٍ وغَرْبِ

---

١ ديوان ابن الزقاق : ١٣٩ وانظر التخريجات المقطوعة : ٣١ .
٢ ولي بلنسية في آخر عهد المرابطين حتى قام عليه جند بلنسية سنة ٥٣٩ وبايعوا لابن عياض ملك مرسية ، فانتقل إلى ميورقة ومنها إلى مراكش ، وقد أطنب والد ابن سعيد في مدحه (المغرب ٢ : ٣٠٠ – ٣٠١) .
٣ البيتان في ياقوت : (بلنسية) .
٤ انظر ما تقدم ص : ١٧٥
٥ أبو الحسن علي بن حريق (– ٦٢٢) من شعراء زاد المسافر ؛ ترجمته في التكملة ٢ : ٦٧٩ (كوديرة) وزاد المسافر : ٢٢ وسيرد له ذكر كثير في النفح ، وانظر مقصورة حازم ١ : ١٤٢ وقد وردت أبياته في زاد المسافر : ٩٤ وياقوت : (بلنسية) .

فإن قالوا مَحَلٌ غَلاء سعْرٍ   ومَسْقط ديمَتي طَعْنٍ وَضَرْب
فَقُلْ هيَ جَنَّةٌ حُفَّتْ رُباها   بمكروهَيْنِ من جوعٍ وحَرْب

وقال الرُّصافي في رُصافتها[1] :

وَلا كالرُّصافة مِنْ مَنْزِلٍ   سقَتْه السحائبُ صَوْبَ الوليّ
أحِنُّ إليها وَمَنْ لي بها   وَأيْنَ السَّريُّ مِنَ المَوْصِليّ

وقال ابن سعيد : وبرُصافة بَلَنْسِيَةَ مناظر وبساتين ومياه ، ولا نعلم في الأندلس ما يسمى بهذا الاسم إلا هذه ورُصافة قُرْطبة ، انتهى .

ومن أعمال بَلَنْسِيَةَ قرية المَنْصَفِ التي منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المنصفي وقبره كان بسَبْتة يزار ، رحمه الله تعالى ، ومن نظمه[2] :

قالَتْ ليَ النَّفْسُ أتاكَ الردى   وأنْتَ في بحر الخَطايا مُقِيمْ
فما ادَّخَرْتَ الزاد، قلت: اقْصِري   هَلْ يُحْمَلُ الزادُ لدار الكَرِيمْ

ومن عمل بَلَنْسِيَةَ قرية بَطَرْنَة ، وهي التي كانت فيها الوقيعة المشهورة للنصارى على المسلمين ، وفيها يقول أبو إسحاق بن مُعَلّى الطرسوني[3] :

لَبِسُوا الحديد إلى الوَغى وَلَبِستُمُ   حُلَلَ الحرير عَلَيكُمُ ألْوَانا
ما كان أقْبَحَهُمْ وأحْسَنَكم بها   لو لم يَكُنْ ببطَرْنَةٍ ما كانا

ومن عمل بَلَنْسِيَةَ متَيطة التي نُسب إليها جماعة من العلماء والأدباء .

---

١ ديوان الرصافي : ١٢٤ نقلا عن النفح .
٢ انظر المغرب ٢ : ٣٥٤ وسيترجم في النفح لأبي الحجاج المنصفي .
٣ إبراهيم بن معلى (ق ك: يعلى؛ ط : علي الطرسوسي) الطرسوني شاعر اشتهر بمدح المقتدر بن هود، وطرسونة بلدة من مدن الثغر (ترجم له في الذخيرة، القسم الثالث : ٢٦٤ والمغرب ٢ : ٤٥٧) وبيتاه في الذخيرة : ٢٦٩ قالهما يصف خروج أهل بلنسية للقاء العدو في غير ثياب الحرب، وتدعى هذه بوقعة بطرنة عام ٤٥٥، وقد فصل ابن عذاري فيها القول ٣ : ٢٥٢ .

ومن عمل بَلَنْسِيَةَ مدينة أُنْدَةَ التي في جبَلها معدنُ الحديد ، وأما رُنْدَة ــ بالراء ــ فهي في متوسط الأندلس ، ولها حصن يُعرف بأندة أيضاً .

* * *

[متفرجات إشبيلية]

وفي إشبيلية ــ أعادها الله ــ من المتفرَّجات والمتنزهات كثير ، ومن ذلك مدينة طَرْيانة ، فإنّها من مدن إشبيلية ومتنزهاتها ، وكذلك تَيْطَل [1] ، فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تَيْطل [1] في المتفرجات .

* * *

[موسى بن سعيد يأبى فراق الأندلس]

وقال أبو عمران موسى بن سعيد في جوابه لأبي يحيى صاحب سَبْتة لما استوزره مستنصر بني عبد المؤمن ، وكتب إلى المذكور يرغبه في النقلة عن الأندلس إلى مَرّاكشَ ، ما نصُّ محلّ الحاجة منه : وأمّا ما ذكر سيّدي من التخيير بين ترك الأندلس وبين الوصول إلى حضرة مراكش ، فكفى الفهمَ العالي من الإشارة قولُ القائل :

والعزّ محمودٌ ومُلْتَمَسٌ   وألذُّه ما نيل [2] في الوطَن

فإذا نلت بك السماء في تلك الحضرة ، فعلى مَنْ أسودُ فيها ؟ ومن ذا أضاهي بها ؟

لا رَقَتْ بي هِمّةٌ إن لم أكن   فيك قد أمّلْتُ فوق [3] الأمل

وبعد هذا ، فكيف أفارق الأندلس وقد علم سيّدي أنها جنّة الدنيا بما

---

١ ط ق ج : قبطل ــ في الموضعين ــ
٢ ك : ما كان .
٣ ك : كل .

حبّاها الله به من اعتدال الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثافة الأفياء ، وأن الإنسان لا يبرح فيها بين قُرّة عين وقرَار نفس :

هيَ الأرضُ لا وِرْدٌ لديها مُكَدَّرٌ ولا ظِلٌّ مقصور ولا رَوْضَ مجدب

أُفق صقيل ، وبساط مُدَبَّج ، وماء سائح ، وطائر مترنم بليل ، وكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة ؟ فيا سَمَوْأل الوفاء ، ويا حاتم السماح ، ويا جَذِيمة الصفاء ، كَمّلْ لمن أمّلكَ النعمة بتركه في موطنه ، غير مكدّر لخاطره بالتحرك من معدنه ، ملتفتاً إلى قول القائل[1] :

وسَوَّلَتْ ليَ نَفْسي أنْ أفارِقَها والماء في المُزْنِ أصفى منه في الغُدُرِ

فإن أغناه اهتمام مؤمّله عن ارتياد المَراد ، وبلّغه دون أن يشد قَتَباً ولا أن يُنْضِي عِيساً غاية المُراد ، أنشد ناجِحَ المرغوب ، بالغ المطلوب :

ولَيْسَ الذي يَتّبَعُ الوَبْلَ رائداً كمَنْ جاءه في داره رائِدُ الوَبْلِ

وربّ قائل إذا سمع هذا التبسط على الأماني : ما لَهُ تشطّط ، وعدل عن سبيل التأدب وتبسّط ؟ ولا جواب عندي إلاّ قولُ القائل :

فَهذِهِ خُطّة ما زلْتُ أرقُبها فاليومَ أبْسطُ آمالي وأحتكمُ

وما لي لا أنشد ما قاله المتنبي في سيف الدولة[2] :

ومَنْ كُنْتَ بحْراً له يا عليّ لم يَقْبَلِ الدُّرَّ إلاّ كبارَا

انتهى المقصود منه .

* * *

---

١ هذا البيت من شعر الأعمى التطيلي يقوله في إزماعه مفارقة إشبيلية . (انظر ديوانه : ٤٩) .
٢ شرح الواحدي : ٥١٣ .

[شريش ومجبناتها]

وقال الحجاري : إن مدينة شَرِيش[1] بنت إشبيلية ، وواديها ابن واديها ، ما أشبه سعدى بسعيد ، وهي مدينة جليلة ضخمة الأسواق ، لأهلها همم ، وظرف في اللباس ، وإظهار الرفاهية ، وتخلُّق بالآداب ، ولا تكاد ترى بها إلاّ عاشقاً ومعشوقاً ، ولها من الفواكه ما يعم ويفضل ، وممّا اختصت به إحسان الصنعة في المجبنات ، وطيبُ جبنها يعين على ذلك ، ويقول أهل الأندلس : من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم ، انتهى .

(والمجبنات : نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها ، وتقلى بالزيت الطيّب)[2] .

* * *

[شلب وكورة أكشونبة]

وفي شِلْب[3] يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو[4] بن مالك بن سيدمير :

أشَجاكَ النسيمُ حين يَهُبُّ ... أم سَنى البرقِ إذ يخُبُّ ويخبُو
أم هَتوفٌ على الأراكة تَشْدُو ... أم هَتونٌ من الغَمامة سَكْبُ
كلُّ هذاكَ للصَّبابة داعٍ ... أيُّ صبٍّ دموعُهُ لا تصُبُّ
أنا لَوْلا النسيمُ والبَرْقُ والوُرْ ... قُ وصَوْبُ الغمام ما كنتُ أصْبو
ذكرَتْني شِلباً وهيهات مِنّي ... بَعْدما استحكم التّباعدُ شِلْبُ

وتسمى أعمال شِلْب كورة أكشونبة ، وهي متصلة بكورة أشبونة ، وهي — أعني أكشونبة — قاعدة جليلة ، لها مدن ومعاقل ، ودار ملكها قاعدة شِلْب ،

١ شريش (Jerez) إلى الجنوب الشرقي من بطليوس ، وتشتهر اليوم بنبيذها .
٢ والمجبنات . . . الطيب : سقطت من ق ط ج .
٣ شلب (Silves) قاعدة كورة أكشونبة ، وهي في البرتغال الحالية .
٤ في ج : أبو عمر ؛ والأبيات في « المقتطفات » : ٤٣ .

وبينها وبين قرطبة سبعة أيام ، ولما صارت لبني عبد المؤمن ملوك مراكش أضافوها إلى كورة إشبيلية ، وتفتخر شِلْب بكون ذي الوزارتين ابن عمّار منها[1] ، سامحه الله .

ومنها القائد أبو مروان عبد الملك بن بَدْرُان ، وربما قيل « ابن بدرُون »[2] الأديب المشهور ، شارح قصيدة ابن عَبْدُون التي أولها[3] :

الدَّهرُ يَفْجَعُ بعد العين بالأثرِ   فما البكاء على الأشْباح والصُّوَرِ

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد المشرقية ، ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله :

العِشْقُ لذَّتُهُ التَّعْنيقُ والقُبَلُ   كما مُنَغِّصُه التثْريبُ والعَذَلُ
يا ليتَ شِعريَ هل يُقْضى وصالكمُ   لولا المُنى لم يكن ذا العمرُ يتَّصِلُ

ومنها نحويُّ زمانه وعلاّمته أبو محمد عبد الله بن السِّيد البَطَلْيَوسي[4] ، فإن شلباً بَيْضته ، ومنها كانت حركته ونهضته ، كما في الذخيرة ، وهو القائل :

إذا سألونيَ عَنْ حالتي   وحاولْتُ عُذراً فلم يمكنِ
أقولُ : بخيرٍ ، ولكنّهُ   كلامٌ يدورُ على الألْسنِ
وربُّك يعلم ما في الصُّدور   ويَعْلم خائنةَ الأعيُنِ

* * *

١ ابن عمار من شلبوس وهي قرية صغيرة من قرى شلب . راجع ترجمة ابن عمار في المغرب ٢ : ٣٨٩ والحاشية .
٢ ق : ابن زيدون — في الموضعين — وهو خطأ واضح .
٣ أبو مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي الشلبي ، كان كاتباً بليغاً من أهل العناية التامة بالآداب تاريخياً ، توفي ببلده بعد سنة ٦٠٨ (ترجمته في الذيل والتكملة ٥ : ٢١ والتكملة رقم : ١٧٢٧ والتحفة : ١٠٨ وشرحه لقصيدة ابن بدرون هو « كمامة الزهر وصدفة الدرر » نشره دوزي بليدن عام ١٨٦٠ ثم نشر بمصر سنة ١٣٤٠ ، أما ابن عبدون فهو شاعر بني الأفطس الذي رثاهم بهذه القصيدة وهو من يابرة . (انظر المغرب ١ : ٣٧٤ والحاشية في مصادر ترجمته) .
٤ ابن السيد البطليوسي (– ٥٢١) نسب إلى بطليوس لأنه لازمها كثيراً . انظر ترجمته في المغرب ١ : ٣٨٥ والحاشية ؛ وأبياته التالية في المغرب ١ : ٣٨٦ .

[أشعار في بطليوس وشاطبة وبرجة]

وقال الوزير أبو عمرو بن الفَلاَّس[1] يمدح بَطَلْيَوْسَ بقوله :

بطليوسُ لا أنساكِ ما اتّصل البعدُ فللّهِ غَوْرٌ في جَنابكِ أو نَجْدُ
ولله دوحاتٌ تحفُّكِ بينها تفجَّرَ واديها كما شُقِّقَ البردُ

وبنو الفَلاَّس من أعيان حضرة بَطَلْيوس ، وأبو عمرو المذكور أشهرهم ، وهو من رجال الذخيرة والمسهب ، رحمه الله تعالى .

وفي شاطبة يقول بعضهم[2] :

نِعْمَ مُلقى الرَّحْلِ شاطِبَةٌ لِفَتًى طالت به الرِّحَلُ
بَلْدَةٌ أوقاتُها سَحَرٌ وَصَباً في ذيْلِه بَلَلُ
ونَسيمٌ عَرْفُه أرِجٌ ورياضٌ غصنها ثَمِلُ
وَوُجُوهٌ كُلُّها غُرَرٌ وكلامٌ كلّه مثلُ

وفي بَرْجَة يقول بعضهم :

إذا جئتَ برجَةَ مُسْتَوْفِزاً فخُذْ في المُقام وخَلِّ السَّفرْ
فكلُّ مكانٍ بها جنّةٌ وكلُّ طريقٍ إليها سَقَرْ

وقد تقدّم هذان البيتان[3] .

* * *

[رسالة للسان الدين في تفضيل الجهاد على الحج]

واعلم أنّه لو لم يكن للأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد

---

١ المغرب ١ : ٣٦٣ وانظر ترجمة ابن الفلاس في الذخيرة (القسم الثالث : ١٣٩) وفي ك : الفلاس .
٢ بعض هذه الأبيات في « المقتطفات » : ٤٣ .
٣ أنظر ص : ١٥١ فيما تقدم ، والبيت الأول لم يرد هنالك .

لكان كافياً ، ويرحم الله لسان الدين بن الخطيب حيث كتب على لسان سلطانه إلى بعض العلماء العاملين ما فيه إشارة إلى بعض ذلك، ما نصّه : من أمير المسلمين فلان ، إلى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا ، وَصَلَ الله له سعادةً تجذبُهُ ، وعنايةً إليه تقرّبه ، وقبولاً منه يدعوه إلى خير ما عند الله ويندبه ، سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته ، أمّا بعدَ حمدِ اللهِ المرشد المثيب ، السميع المجيب ، معوّد اللطف الخفي والصنع العجيب ، المتكفّل بإنجاز وعد النصر العزيز والفتح القريب ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذي القدر الرفيع والعز المنيع والجناب الرحيب ، الذي به نرجو ظهور عَبَدَة الله على عَبَدَة الصليب ، ونستظهر منه على العدو بالحبيب ، ونَعُدُّه عُدّتنا لليوم العَصِيب ، والرضا عن آله وصحبه الذين فازوا من مُشاهدته بأوفى النصيب ، ورَمَوْا إلى هَدَف مرضاته بالسّهْم المُصِيب ، فإنّا كتبناه إليكم — كتَبَ الله تعالى لكم عملاً صالحاً يختمُ الجهادُ صحائفَ بره ، وتتمحّض لأن تكون كلمة الله هي العليا جوامعُ أمره ، وجعلكم ممن تهنى في الأرض التي فتح فيها أبواب الجنة حصة[1] عمره — من حمراء غَرْناطة — حرسها الله تعالى — ولطفُ الله هامي السحاب ، وصنعه رائق الجناب ، واللهُ يَصِلُ لنا ولكم ما عوّده من صلة لطفه عند انْبتاتِ الأسباب ، وإلى هذا أيها المولى[2] الذي هو بركة المغرب المشار إليه بالبنان ، وواحده في رفعة الشان ، المؤثر ما عند الله على الزخرف الفتّان ، المتقلّل من المتاع الفان ، المستشرف إلى مقام العرفان ، من درج الإسلام والإيمان والإحسان ، فإنّنا لما نؤثره من بركم الذي نَعُدُّه من الأمر الأكيد ، ونضمره من ودكم الذي نحلّه[3] محل الكنز العتيد ، ونلتمسه من دعائكم التماس العدة والعديد ، لا نزال نسأل

-----

١ ك : مدة .

٢ ق ج : الولي .

٣ ق ج : محله .

عن أحوالكم التي ترقّتْ في أطوار السعادة ، ووصلت جناب الحقّ بهَجْر العادة ، وألقت إلى يد التسليم لله والتوكل عليه بالمَقادة ، فنسرّ بما هيأ الله تعالى لكم من القبول ، وبلّغكم من المأمول ، وألهمكم من الكلَف بالقرب إليه والوُصُول ، والفوز بما لديه والحصول . وعندما رد الله تعالى علينا ملكنا الرد الجميل ، وأنالنا فضله الجزيل ، وكان لعثارنا المُقيل ، خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا ، ومحلّكم من حسن اعتقادنا ، ووَجّهنا إلى وجهة دعائكم وَجْهَ اعتدادنا ، والله ينفعنا بجميل الظن في دينكم المتين ، وفَضْلكم المبين ، ويجمع الشَمْل بكم في الجهاد عن الدين . وتعرّفنا الآن ممّن له بأنبائكم اعتناء ، وعلى جلالكم حمدٌ وثناء ، وبالجناب ودّكم اعتزاء وانتماء ، بتجاول عزمكم بين حجّ مبرور ترغبون من أجره في ازدياد ، وتجددون العهد منه بأليف اعتياد ، وبين رباط في سبيل الله وجهاد ، وتوثير مهاد بين رُبَّى أثيرة عند الله وَوِهاد ، يُحْشَرُ يوم القيامة شهداؤها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين ، فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ ، والله أصدقُ القائلين[1] الصادقين ، حيث لا غارة لغير عدوّ الإسلام تُتَّقى ، إلاّ لابتغاء ما لدى الله تُرْتَقَى ، حيث رحمة الله قد فتحت أبوابها ، وحُورُ الجنان قد زينت أترابها ، دارُ العرب الذين قَرَعُوا باب الفتح ، وفازوا بجزيل المَنْح ، وخلدوا الآثار ، وأرْغَمُوا الكفار ، وأقالوا العثار ، وأخذوا الثار ، وأمنوا من لَفْح جهنم بما علا على وُجُوههم من ذلك الغبار ، فكَتَبْنا إليكم هذا نقوّي بصيرتكم على جهة الجهاد من العزْمَيْنِ ، ونهيبُ بكم إلى إحدى الحُسْنَيين ، والصبحُ غير خافٍ على ذي عَيْنَيْن ، والفضلُ ظاهر لإحدى المنزلتين ، فإنكم إذا[2] حَجَجْتم أعدتم فرضاً أديتموه ، وفضلاً ارتَدَيْتُمُوه ، فائدتُهُ عليكم مقصورة ، وقضيته فيكم محصورة ، وإذا أقمتم الجهاد جلبتم إلى

---

١ القائلين : سقطت من ط ج ى .

٢ ك : فإنكم إن .

حسناتكم عملاً غريباً ، واستأنفتُم سعياً من الله قريباً ، وتعدّت المنفعة إلى ألوف من النفوس ، المستشعرة لباس البؤس ، ولو كان الجهاد بحيث يخفى عليكم فضلُهُ لأطنَبْنا ، وأعِنّة الاستدلال أرسلنا ، هذا لو قدمتم على هذا الوطن وفضلكم غُفْل من الاشتهار ، ومَنْ به لا يوجب لكم ترفيع المقدار ؛ فكيف وفَضْلكم أشهر من مُحيّا النهار ، ولقاؤكم أشهى الآمال وآثر الأوطار ، فإن قوِيَ عزمُكم والله يقوّيه ، ويعيننا من برّكم على ما نَنْويه ، فالبلادُ بلادكم ، وما فيها طريفكم وتِلادكم ، وكهولها إخوانكم ، وأحْداثها أولادُكم ، ونرجو أن تجدوا لذكركم الله في رُباها حلاوة زائدة ، ولا تعدموا من رَوْح الله فيها فائدة ، وتتكيّف نفسكم فيها تكيُّفاتٍ تقصر عنها خلوات السلوك ، إلى ملك الملوك ، حتّى تغتبطوا بفضل الله الذي يوليكم ، وترَوْا أثر رحمته فيكم ، وتخلفوا فخر هذا الانقطاع إلى الله في قبيلكم وبنيكم ، وتَختِموُا العمرَ الطيبَ بالجهاد الذي يُعليكم ، ومن الله تعالى يُدنيكم ، فنبيُّكم العربيّ صلوات الله عليه وسلامه نبيّ الرحمة[1] والملاحم ، ومُعْمِل الصوارم ، وبجهاد الفرنج ختم عمل جهاده والأعمالُ بالخواتم ، هذا على بعد بلادهم من بلاده ، وأنتم أحقّ الناس باقتفاء جهاده ، والاستباق إلى آماده ، هذا ما عندنا حثثناكم عليه ، وندبناكم إليه ، وأنتم في إيثار هذا الجوار ، ومُقارضة ما عندنا بقدومكم على بلادنا من الاستبشار ، بحسب ما يخلق عنكم من بيده مَقادة الاختيار ، وتصريف الليل والنهار ، وتقليب القلوب وإجالة الأفكار ، وإذا تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للأبرار ، والدار الآخرة دار القرار ، وخيرُ الأعمال عملٌ أوصل إلى الجنّة وباعَدَ من النار ، ولتعلموا أن نفوس أهل الكشف والاطّلاع ، بهذه الأرجاء والأصقاع ، قد اتفقَتْ أخبارُها ، واتحدت أسرارُها ، على البشارة بفَتْحٍ قَرُبَ أوانُه ، وأظلّ زمانُه ، فنرجو الله أن تكونوا ممّن يحضر مدعاه ،

---

[1] الرحمة : سقطت من ق ط ج .

ويكرم فيه مَسْعاه ، ويسلف فيه العمل الذي يشكره الله ويرعاه ، والسلام الكريم يخصّكم ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

* * *

[تشبيه الأندلس بالعقاب]

ولما دخل الأندلسَ أميرُ المسلمين عليّ ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللّمْتُوني ملك المغرب والأندلس ، وأمعن النظر فيها ، وتأمّل وصفها وحالها ، قال : إنها تُشْبه عُقاباً مَخالِبُهُ طُلَيطلة ، وصَدْره قلعة ربّاح ، ورأسه جيّان ، ومنقاره غرْناطة ، وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب ، وجناحه الأيسر باسط إلى المشرق ، في خبر طويل لم يحضرني الآن ، إذ تركته مع كتبي بالمغرب ، جمعني الله بها على أحسن الأحوال .

* * *

[المخزومي الأعمى ولزهون الغرناطية]

ومع كون أهل الأندلس سُبّاقَ حَلْبة الجهاد ، مُهْطعين إلى داعيه من الجبال والوهاد ، فكان لهم في التّرَف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محلٌ وثير المهاد ، وسيأتي في الباب السابع من هذا القسم من ذلك وغيره ما يشفي ويكفي ، ولكن سنَح لي أن أذكرهنا حكاية أبي بكر المخزومي الهجّاء المشهور الذي قال فيه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة [1] : إنّه كان أعمى شديد الشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلطاً على الأعراض ، سريعَ الجواب ، ذكي الذهن ، فطناً للمعاريض ، سابقاً في ميدان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره . والحكاية هي ما حكاه أبو الحسن ابن سعيد في الطالع السعيد ، إذ قال حكاية عن أبيه فيما أظن : قدم المذكورُ - يعني المخزومي - على غرْناطة أيامَ ولاية أبي بكر ابن سعيد ،

---

١ الإحاطة ١ : ٤٣٢ - ٤٣٥ .

ونزل قريباً مني ، وكنت أسمع به بنار صاعقة يُرسلها الله على مَنْ يشاء من عباده ، ثم رأيت أن أبدأه بالتأنيس والإحسان ، فاستدعيته بهذه الأبيات :

يا ثانياً للمَعَرّي في حُسْنِ نَظْمٍ ونَثْرِ
وفَرْطِ ظَرْفٍ وَنُبْلٍ وغَوْصِ فهْمٍ وفِكْرِ
صِلْ ثمّ وَاصِلْ حفِيّاً بكلّ برّ وَشُكْرِ[1]
ولَيْس إلاّ حَدِيثٌ كما وهي عقدُ دُرّ
وَشادِنٌ يَتَغَنّى على رباب وَزَمْرِ
وما يُسامح فيه الـ ـغفورُ من كأس خمْرِ
وَبَيْنَنا عَهْدُ حِلْفٍ لياسِرٍ حلف كفْرِ
نعم فجدّده عَهْداً بطيبِ سُكْرٍ[2] وَيُسْرِ
والكأسُ مثلُ رضاعٍ وَمَنْ كَمثلِكَ يدري

ووجّه له الوزير أبو بكر[3] ابن سعيد عبداً صغيراً قاده ، فلمّا استقر به المجلس ، وأفعمته روائح النّدّ والعود والأزهار ، وهزّت عِطْفَه الأوتار ، قال :

دارُ السّعِيديّ ذي أم دارُ رِضْوانِ ما تَشْتَهي النفسُ فيها حاضِرٌ دَاني
سَقَتْ أباريقها للندّ سحبُ نَدَى تُحْدَى برَعْد لأوتارٍ وَعِيدانِ[4]
والبرْقُ من كلّ دَنّ ساكبٌ مطَراً يحيا به مَيْتُ أفكارٍ وأشْجانِ
هذا النّعيمُ الذي كُنّا نُحَدّثُهُ ولا سَبيلَ لَهُ إلاّ بآذانِ

فقال له أبو بكر ابن سعيد : وإلى الآن لا سبيل له إلاّ بآذان ؟ فقال : حتى

---

١ ق والإحاطة : بكل شكر وبر .
٢ في النسخ : شكر . دوزي : فقم نجدده .
٣ أبو بكر : سقطت من ق .
٤ ق ط ج : وألحان .

يبعث الله ولد زلي كلما أنشدت هذه الأبيات قال : إنّ قائلها أعمى ، فقال : أمّا أنا فما أنطق بحرف ، فقال : مَنْ صمت نَجا . وكانت نَزْهُون بنت القِلاعي حاضرة فقالت : وتَرّاك يا أستاذ قديمَ النعمة بمجمر ندّ وغناء وشراب ، فتعْجَبَ من تأتّيه وتشبهه بنعيم الجنّة ، وتقول : ما كان يعلم إلاّ بالسماع ، ولا يبلغ إليه بالعيان ؟ ولكن مَنْ يجيء من حصن المدوَّر ، وينشأ بين تيوس وبقر ، من أين له معرفة بمجالس النعيم ؟ فلما استوفَتْ كلامَها تنحنح الأعمى[1] ، فقالت له : ذبحة ، فقال : من هذه الفاضلة ؟ فقالت : عجوز مقام أمك ، فقال : كذبتِ ، ما هذا صوت عجوز ، إنّما هذه نغمة قَحْبَة محترقة تشم روائح هنها على فرسخ ؛ فقال له أبو بكر : يا أستاذ ، هذه نزهون بنت القِلاعي الشاعرة الأديبة ، فقال : سمعت بها ، لا أسمعها الله خيراً ، ولا أراها إلاّ أيراً . فقالت له : يا شيخ سوء تناقضت ، وأيُّ خير للمرأة مثل ما ذكرت ؟ ففكرَ ساعة ثمّ قال :

على وَجْهِ نَزْهونِ مِن الحسنِ مَسْحةٌ ... وإن كان قَدْ أمْسى من الضوء عارِيا
قَوَاصِدُ نزهونٍ تَوارِكُ غيرِها ... ومَنْ قَصَدَ البَحْرَ استقلَّ السَّواقيا

فأعملت فكرها ثمّ قالت :

قُلْ للوَضيع مَقالاً ... يُتْلى إلى حين يُحْشَرْ
مِن المدوَّر أنْشِئْـ ... ـتَ والخَرا منهُ أعْطَرْ
حَيْثُ البَداوَةُ أمْسَتْ ... في مَشْيِها تَتَبَخْتَرْ
لذاكَ أمْسَيْتَ صَبّاً ... بِكلّ شيء مُدَوَّرْ
خُلِقْتَ أعْمى ولكِنْ ... تَهيمُ في كلّ أعْوَرْ
جازَيْتُ شِعْراً بِشِعْرٍ ... فقل لعمري مَنَ أشْعَرْ

---

[1] الأعمى : سقطت من ك .

إن كنتُ في الخَلق أنثى فإنّ شِعْرِي مُذَكَّرْ

فقال لها اسمعي :

ألا قُلْ لنَزْهُونَةٍ ما لها تجُرُّ من التّيه أذْيالها
ولو أبْصَرَتْ فَيْشة شمّرتْ – كما عوَّدَتْنِيَ – سِرْبالها

فحلف أبو بكر ابن سعيد أن لا يزيد أحدهما على الآخر في هجوه كلمةً ، فقال المخزومي : أكونُ هجّاء الأندلس وأكفُّ عنها دون شيء ؟ فقال : أنا أشتري منك عرضَها فاطلب ، فقال : بالعبد الذي أرسلته فقادني إلى منزلك ، فإنّه لين اليد رقيق المشي ، فقال أبو بكر : لولا كونه صغيراً كنت أبلغك به مرادك ، وأهبه لك ، ففهم قصده وقال : أصبر عليه حتى يكبر ، ولو كان كبيراً ما آثرتني به على نفسك ! فضحك أبو بكر ، وقال : إن لم تَهجُ نظماً هجوت نثراً ، فقال : أيّها الوزير لا تبديل لخلق الله . وانفصل المخزومي بالعبد بعدما أصلح الوزير بينه وبين نزهون ، انتهى .

وفي كتاب « الدر المنضد ، في وفيات أعيان أمة محمد » تأليف الأمير صارم الدين إبراهيم بن دُقْماق[1] ، قال أبو القاسم بن خلف : كان – يعني المخزومي المذكور – حيّاً بعد الأربعين وخمسمائة ، انتهى .

* * *

[قصة استطرادية]

ونقلت من كتاب « قطب السرور »[2] لابن الرقيق المغربي ، ما ملخصه[3] :

---

١ إبراهيم بن محمد بن أيدمر بن دقماق القاهري صارم الدين (– ٨٠٩) مؤرخ مصر ، كان مكثراً من التأليف في التاريخ ، وهو صاحب كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » في تاريخ مصر (الضوء اللامع ١ : ١٤٥) ؛ وفي ك : الإمام صارم الدين .

٢ قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور . (انظر تكملة بروكلمان ١ : ٢٥٢ ومنه جزء بخزانة الرباط) .

٣ ورد النص في « المقتطفات » : ٤٣ وما بعدها .

وممّن أدركته وعاشرته عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب ، وذكرته هنا لأنّه ملحق بالأمراء المتقدمين غير خارج منهم ولا مقصر عنهم ، بل كان واحد عصره في الغناء الرائق ، والأدب الرائع ، والشعر الرقيق ، واللفظ الأنيق ، ورقة الطبع ، وإصابة النادر ، والتشبيه المصيب ، والبديهة التي لا يُلْحَق فيها ؛ مع شرف النفس ، وعلوّ الهمة ، وكان قد قطع عمره ، وأفْنَى دهره ، في اللهو واللعب ، والفكاهة والطرب ، وكان أعلم الناس بضرب العود ، واختلاف طرائقه ، وصنعة اللحون ، وكثيراً ما يقول المعاني اللطيفة في الأبيات الحسنة ، ويَصُوغ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة ، اختراعاً منه وحِذْقاً ، وكانت له في ذلك قريحة وطبع ، وكان إذا لم يَزُرْه أحد من إخوانه أحضر مائدته وشرابه عَشرة من أهل بيته ، منهم ولده وعبد الله ابن أخيه وبعض غلمانه ، وكلهم يُغَنّي فيجيد ، فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب ، فيدعو بالعُود ويغني لنفسه ولهم ، وكان بشارة الزامر الذي يزمر عليه من حُذّاق زَمَرة المشرق ؛ وكان بعيدَ الهمّة سَمْحاً بما يجد ، تُغِلُّ عليه ضياعُه كلَّ عام أموالاً جليلة ، فلا تحولُ السنةُ حتى ينفَدَ جميعُ ذلك ويستسلف غيره ، فكان لا يطرأ من المشرق مُغَنّ إلا سأل من يقصد بهذا الشأن ، فيدل عليه ، فمَن وصلَه منهم استقبله بصنوف البر والإكرام ، وكساه وخلطه بنفسه ولم يَدَعْه إلى أحد من الناس ، فلا يزال معه في صَبُوح وغَبُوق ، وهو مُجَدِّد له كل يوم كرامة ، حتى يأخذ جميع ما معه من صَوْتٍ مُطْرِب أو حكاية نادرة .

وجلس يوماً وقد زاره رجلان من إخوانه ، وحضر أقرباؤه ، فَطَعِمُوا وشربوا وأخذوا في الغناء ، فارتَجَّ المجلس ، إذ دخل عليه بعض غِلْمانه فقال : بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر ، ذكر أنّه ضيف ، فأمر بإدخاله ، فإذا رجل أسمر سِناط [1] ، رث الهيئة ، فسلّم عليه ، قال : أين بلد الرجل ؟

---

[1] سناط : ليس في عارضيه شعر .

قال : البصرة ، فرحّب به ، وأمره بالجلوس ، فجلس مع الغلمان في صُفّة ، وأُتي بطعام فأكل وسُقي أقداحاً ، ودار الغناء في المجلس ، حتى انتهى إلى آخرهم ، فلمّا سكتوا اندفع يغني بصوت نَدِيّ وطبع حَسَن :

ألا يا دارُ ما الهَجْرُ لِسُكّانِكِ مِنْ شاني
سُقِيتِ الغيثَ من دارٍ وإن هَيّجْتِ أشجاني
ولو شئتُ لما استَسْقَيْتُ غيثاً غيرَ أجفاني
بنَفْسي حَلّ أهْلُوكِ وإن بانُوا بِسُلْواني
وَما الدّهْرُ بمأمونٍ على تشتيتِ خِلاّني

فطرب عبد الوهاب وصاح ، وتبين الحذقَ في إشارته ، والطيبَ في طبعه ، وقال : يا غلام ، خذ بيده إلى الحمّام ، وعجّل عليّ به ، فأُدخل الحمّام ، ونظف، ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فأُلقيت عليه ، ورفعه فأجلسه عن يساره ، وأقبل عليه وبسطه ، فغنى له :

قومي امزجي التبر باللُّجَيْنِ واحتَمِلي الرطل باليَدَيْنِ
واغتنمي غفلَةَ اللّيالي فرُبّما أيْقظَتْ لِحَيْنِ
فقَدْ لعَمْرِي أقرَّ مِنّا هِلالُ شَوّال كلَّ عَيْنِ
ذاتُ الخَلاخيلِ أبْصرَتْهُ كنِصْفِ خَلْخالها اللُّجَيْني

فطرب وشرب ، واستزاده ، فغنّاه :

مَنْ لي على رَغْمِ الحسُودِ بقَهْوةٍ بِكرٍ رَبِيبَةِ حانة عَذْراء
مَوْج من الذهب المُذاب تَضُمُّهُ كأسٌ كقِشْرِ الدُّرَّة البَيْضاء
والنجمُ في أُفُقِ السماء كأنّهُ عَيْنٌ تخالسُ غَفْلَةَ الرُّقَباء

فشرب عبد الوهاب ثمّ قال : زدني ، فغنّاه :

وَأنْتَ الذي أشْرَقْتَ عَيْنِي بمائِها وَعلّمتَها بالهَجْرِ أن تَهْجُرَ الغُمْضا
وأغْرَقْتَها بالدمْعِ حتى جُفُونُها لَيُنْكِرُ من فَقد الكرى بَعضُها بعضا

فمرّ يوم من أحسن الأيام وأطيبها ، ووصله وأحسن إليه ، ولم يزل عنده مُقَرَّباً مكرّماً ، وكان خليعاً ماجِناً مشتهراً بالنبيذ ، فخلاّه وما أحبّ ، ثمّ وصف له الأندلس وطيبها ، وكثرة خمورها ، فمضى إليها ومات بها ، وعلى نحو هذه الحال كان يفعل بكل طارىء يطرأ من المشرق ، ولو ذكرتهم لطال بهم الكتاب ، انتهى .

وغرضي من إيراد هذه الحكاية هنا كونه وصف للمشرقيّ الأندلس وطيبها ، وذلك أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، والله المسئول في حسن المتاب .

* * *

[قصر باديس بغرناطة]

ورأيت في بعض كتب تاريخ الأندلس في ترجمة السلطان باديس الصنْهاجيّ صاحِب غَرْناطة ، ما نصّه : وهو الذي أكمل ترتيب قصبة مالَقَة ، وكان أفرس الناس وأنبلهم ، ذا مروءة ونجدة ، وقصره بغَرْناطة ليس ببلاد الإسلام والكفر مثله ، فيما قيل ، انتهى .

وهذا القصر هو الذي عناه لسان الدين بن الخطيب في قصيدته السينية المذكورة في الباب الخامس من القسم الثاني من هذا الكتاب ، فلتراجع ثمة .

* * *

[سرقسطة وخواصها]

وذكر غير واحد من المحدثين والمؤرخين أن مدينة سَرَقُسْطة لا يدخلها الثعبان من قبل نفسه ، وإذا أدخله أحد لم يتحرك ، ونظيرُ هذا المعنى في بعض الحيوانات بالنسبة إلى بعض البلاد كثير ، وذلك برصد أو طِلَّسْم ، وقد استطرد بعضُ علماء أصول الدين ذلك عندما تكلموا على السحر حسبما قرّر في محله ،

والله أعلم .

هكذا رأيت في كلام بعض علماء المشارقة ، والذي رأيته لبعض مؤرخي المغرب في سَرَقسطة [1] أنّها لا تدخلها عقرب ولا حيّة إلا ماتت من ساعتها ، ويؤتى بالحيّات والعقارب إليها حيّةً فبنفس ما تدخل إلى جوف البلد تموت ، قال : ولا يتسوّس فيها شيء من الطعام ولا يعفن ، ويوجد فيها القمح من مائة سنة ، والعنب المعلّق من ستة أعوام ، والتين والخوخ وحب الملوك والتفاح والإجاص اليابسة من أربعة أعوام ؛ والفولُ والحمّص من عشرين سنة ، ولا يسوّس فيها خشبٌ ولا ثوب صوفاً كان أو حريراً أو كتّاناً ، وليس في بلاد الأندلس أكثر فاكهة منها ، ولا أطيب طعماً ، ولا أكبر جِرماً ، والبساتينُ مُحْدِقة بها من كل ناحية ثمانية أميال ، ولها أعمال كثيرة : مدن وحصون وقرى مسافة أربعين ميلاً ، وهي تضاهي مدنَ العراق في كثرة الأشجار والأنهار ، وبالجملة فأمرها عظيم ، وقد أسلفنا ذكرها .

* * *

[السمّور بالأندلس]

واعلمْ أن بأرض الأندلس من الخِصْب والنّضْرة وعجائب الصنائع وغرائب الدُّنيا ما لا يوجد مجموعُه غالباً في غيرها ، فمن ذلك ما ذكره الحجاري في المسهب : أن السّمّور الذي يُعمل من وَبَره الفراء الرفيعة يُوجَد في البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية ، ويُجْلب إلى سَرَقُسْطة ويُصنع بها . ولمّا ذكر ابنُ غالب وَبَر السّمّور الذي يُصنع بقرطبة قال : هذا السمّور المذكور هنا لم أتحقق ما هو ، ولا ما عني به ، إن كان هو نباتاً عندهم أو وبر الدابة المعروفة ، فإن كانت الدابة المعروفة فهي دابة تكون في البحر ، وتخرج إلى البر ، وعندها قوّة ميّزٍ . وقال حامد بن سمجون الطبيب صاحبِ كتاب الأدوية

[1] انظر مخطوطة الرباط : ٦٢ .

المفردة[1] : هو حيوان يكون في بحر الروم ، ولا يحتاج منه إلاّ إلى خُصَاه ، فيخرج الحيوان من البحر في البر ، فيؤخذ وتقطع خُصَاه ، ويطلق ، فربّما عرض للقَنّاصين مرّة أخرى[2] ، فإذا أحَسّ بهم وخشي أن لا يفوتهم استلقى على ظهره وفَرّجَ بين فخذيه ليُرى موضع خُصْيَيه خالياً ، فإذا رآه القناصون كذلك تركوه ، قال ابن غالب : ويسمى هذا الحيوان أيضاً ابجندبادستر[3] ، والدواء الذي يُصْنَع من خُصْيَيه من الأدوية الرفيعة ، ومنافعه كثيرة ، وخاصيته في العلل الباردة ، وهو حارّ يابس في الدرجة الرابعة .

* * *

[فراء القنلية]

والقَنْلية[4] حيوان أدق من الأرنب وأطيب في الطعم وأحسن وبراً ، وكثيراً ما تُلبس فراؤها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولا توجد في برّ البربر إلا ما جُلب منها إلى سَبْتة فنشأ في جوانبها ، قال ابن سعيد : وقد جُلبت في هذه المدّة إلى تونس حضرةِ إفريقية .

* * *

[سائر حيواناتها وطيورها]

ويكون بالأندلس من الغزال والأيل وحمار الوحش وبَقَره وغير ذلك ممّا يوجد في غيرها كثير[5] ، وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة ، ولا الفيل والزرافة

---

١ أبو بكر حامد بن سمجون (– ٣٩٢) طبيب أندلسي ، متميز في قوى الأدوية المفردة وكتابه فيها كان مشهوراً بالجودة وقد بالغ فيه وأجهد نفسه في تأليفه ، وقد كتبه للمنصور بن أبي عامر . (انظر ابن أبي أصيبعة ٢ : ٥١ – ٥٢) .

٢ ق : ثانية .

٣ ابجندبادستر : حيوان كهيئة الكلب ويسمى القندر ، ويسمى السمور أيضاً ، وهو على هيئة الثعلب أحمر اللون وذنبه طويل (الدميري ١ : ٢٤٣ ونخبة الدهر : ١٤٧) .

٤ شبيه بالأرنب ويسمى بالإيطالية (Coniglio) . وفي ط : القلنية .

٥ ك : مما لا يوجد . . . كثيراً .

وغير ذلك ممّا يكون في أقاليم الحرارة ، ولها سَبُع يُعرف باللّب[1] أكبر بقليل من الذئب في نهاية من القِحة ، وقد يفترس الرجلَ إذا كان جائعاً .

وبغالُ الأندلس فارهة ، وخيلُها ضخمة الأجسام ، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدوِ في خيل البرّ الجنوبيّ .

ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول ، وكذلك حيوان البحر ، ودوابّ بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض .

قال ابن سعيد : عاينتُ من ذلك العجب ، والمسافرون في البحر يخافون منها لئلا تقلب المراكب ، فيقطعون الكلام ، ولها نَفْخٌ بالماء من فيها يقوم في الجو ذا ارتفاع مفرط .

* * *

[أنواع الأفاويه فيها]

وقال ابن سعيد : قال المسعودي في « مروج الذهب » : في الأندلس من أنواع الأفاويه خمسة وعشرون صنفاً : منها السنبل ، والقرنفل ، والصندل ، والقرفة ، وقصب الذريرة ، وغير ذلك .

وذكر ابن غالب أن المسعودي قال : أصول الطيب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ، والعنبر ، والزعفران ، وكلها من أرض الهند ، إلاّ الزعفران والعنبر ، فإنهما موجودان في أرض الأندلس ، ويوجد العنبر في أرض الشِّحْر .

قال ابن سعيد : وقد تكلموا في أصل العنبر[2] ، فذكر بعضهم أنّه عيون تنبع في قعر البحر يصير منها ما تبلعه الدواب وتقذفه . قال الحجاري : ومنهم من قال : إنّه نبات في قعر البحر .

وقد تقدم قول الرازي إن المحلب — وهو المقدم في الأفاويه ، والمفضل في

---

١ هو ما يسمى بالإسبانية (Lobo) وباللاتينية (Lupus) ، وقد أطلق الاسم علماً على كثير من الرجال المترجم بهم في كتب التراجم الأندلسية .

٢ انظر مختلف الأقاويل في أصل العنبر في ابن البيطار ٣ : ١٣٤ .

أنواع الأشنان — لا يوجد في شيء من الأرض إلاّ بالهند والأندلس .

قال ابن سعيد : وفي الأندلس مواضع ذكروا أن النار إذا أطلقت فيها فاحتْ بروائح العود وما أشبهه ، وفي جبل شلير أفاويه هندية .

* * *

[ثمارها وفواكهها]

قال : وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعدُ بلاد الله بكثرتها ، ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز ، المعدومان[1] في الأقاليم الباردة ، ولا يعدم منها إلا التمر ، ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقلّ ، كالتين القوطيّ والتين الشعري[2] بإشبيلية .

قال ابن سعيد : وهذان صنفان لم ترَ عيني ولم أذق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يفضلهما ، وكذلك التين المالَقيّ والزبيب المُنَكَّبيّ والزبيب العسليّ والرمان السفري[3] والخوخ والجوز واللوز ، وغير ذلك ممّا يطول ذكره .

* * *

[معادنها وأحجارها وقرمزها]

وقد ذكر ابن سعيد أيضاً أن الأرض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة ، وأنّها في الأندلس التي هي بعض تلك الأرض ، وأعظم معدن للذهب بالأندلس في جهة شَنْت ياقُوه قاعدة الجلالقة على البحر المحيط ، وفي جهة قُرْطُبة الفضة والزئبق ، والنحاسُ في شمال الأندلس كثير ، والصُّفْر الذي يكاد يُشْبه الذهب، وغير ذلك من المعادن المتفرقة في أماكنها .

---

١ ك : ويوجدان .

٢ ك : السفري .

٣ الرمان السفري : حدث الخشني (قضاة قرطبة) : ٣٢ كيف دخل الأندلس ، وقال إن الذي زرعه رجل اسمه «سفر» ، وهذا الرمان يعرف بالإسبانية باسم (Zafari) وسيتحدث عنه المقري بتفصيل في الباب الرابع .

والعينُ التي يخرج منها الزاج في لَبْلَة مشهورة ، وهو كثير مفضل في البلاد منسوب ، وبجبل طليطلة جبل الطَّفْل الذي يجهز إلى البلاد ، ويفضل على كل طَفْل بالمشرق والمغرب .

وبالأندلس عدة مَقاطع للرخام ، وذكر الرازي أن بجبل قُرْطُبَة مقاطع الرخام الأبيض الناصع [1] والخمري ، وفي ناشِرَة مقطع عجيب للعُمُد ، وبباغه من مملكة غَرْناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة مُوَشاة في حمرة وصفرة ، وغير ذلك من المقاطع التي بالأندلس من الرخام الحالك والمجزَّع .

وحَصَى المريّة يُحمل إلى البلاد فإنّه كالدر في رَوْنَقه ، وله ألوان عجيبة ، ومن عادتهم أن يَضَعوه في كيزان الماء .

وفي الأندلس من الأمنان التي تنزل من السماء القرمز الذي ينزل على شجر البَلّوط فيجمعه الناسُ مِنَ الشَّعرا ويصبغون به ، فيخرج منه اللون الأحمر الذي لا تفوقه حمرة .

* * *

[مصنوعاتها]

قال ابن سعيد : وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل ، وللمتعصبين لها في ذلك كلام كثير ، فقد اختصت المريّةُ ومالَقَةُ ومُرْسية بالوشي [2] المذهب الذي يتعجب من حسن صنعته أهلُ المشرق إذا رأوا منه شيئاً ، وفي تَنْتالَةَ من عمل مُرْسِية تُعمل البُسُط التي يُغالى في ثمنها بالمشرق ، ويُصنع في غرناطة وبَسْطة من ثياب اللباس المحررة الصنفُ الذي يُعرف بالملبد المختّم ذو الألوان العجيبة ، ويُصنع في مُرْسِية من الأسِرَّة المرصعة والحصر الفَتّانة الصنعة وآلات الصُّفْر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهّبة وغير ذلك من آلات العروس

---

١ ك : الناصع اللون .

٢ ك : بالموشى .

والجنديّ ما يَبْهر العقل ، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها . ويُصنع بها وبالمريّة ومالقة الزجاجُ الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب ، ويُصنع بالأندلس نوع من المفصّص[1] المعروف في المشرق بالفُسَيْفساء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يُعرف بالزُّلَيْجي[2] يشبه المفصّص ، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملوّن الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذَرْوَانِ ، وما يجري مجراه .

* * *

[الأسلحة]

وأمّا آلات الحرب من التّراس والرّماح والسّروج والألجم[3] والدروع والمغافر فأكثر همم أهل الأندلس — فيما حكى ابنُ سعيد — كانت مصروفة إلى هذا الشأن ، ويُصنع منها في بلاد الكفر ما يبهر العقول ، قال : والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة ، وبرذيل : آخر بلاد الأندلس[4] من جهة الشمال والمشرق ، والفولاذ الذي بإشبيلية إليه النهاية ، وفي إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره .

* * *

[الآثار الأولية بالأندلس]

وقد أفرد ابن غالب في « فرحة الأنفس » للآثار الأولية التي بالأندلس من كتابه مكاناً ، فقال : منها ما كان من جَلْبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحيّ التي بِطَرَّكُونَةَ على وزن لطيف وتدبير محكم حتّى طحنت به ، وذلك من أعجبِ ما صنع . ومن ذلك ما صنعه الأُول أيضاً من جَلْب الماء في البحر المحيط

١ ك : المفضض .
٢ هو ما يسمى بالإسبانية : (Azulejo) ؛ وفي ق : بالزلنجي ، وهو خطأ .
٣ ج : واللجم .
٤ ق ط ج : آخر الأندلس .

إلى جزيرة قادس من العين التي في إقليم الأصنام ، جلبّوه في جوف البحر في الصخر المجوّف ذكراً في أنثى وشقّوا به الجبال ، فإذا وصلوا به إلى المواضع المنخفضة بنَوْا له قناطر على حنايا ، فإذا جاوزها واتصل بالأرض المعتدلة رجعُوا إلى البنيان المذكور ، فإذا صادف سبخة بني له رصيف وأُجري عليه ، هكذا إلى أن انتُهي به إلى البحر ، ثمّ دخل به في البحر ، وأُخرج في جزيرة قادس ، والبنيان الذي عليه الماء في البحر ظاهر بيِّن ، قال ابن سعيد : إلى وقتنا هذا .

ومنها الرصيف المشهور بالأندلس[1] ، قال في بعض أخبار رومية : إنّه لما وليَ يوليش المعروف بجاشر ، وابتدأ بتذريع الأرض وتكسيرها ، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها وإلى المغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب ، ثمّ بدأ بفرشِ المبلّطة[2] ، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الأندلس وركزها شرقي قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار ، ثمّ ابتدأها من باب القَنْطرة قبليّ قرْطبة إلى شَقُنْدَةَ إلى إسْتِجَةَ إلى قرمونة إلى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية ، وذكر أنه أراد تسقيفها في بعض الأماكن راحة للخاطرين من وَهَج الصيف وهول الشتاء ، ثم توقّع أن يكون ذلك فساداً في الأرض وتغييراً للطرق[3] عند انتشار اللصوص وأهل الشرّ فيها في المواضع المنقطعة النائية عن العُمْران ، فتركها على ما هي عليه . وذكر في هذه الآثار صنم قادس الذي ليس له نظير إلا الصنم الذي بطرف جِلّيقية ، وذكر قنطرة طُلَيْطلة وقنطرة السيف وقنطرة ماردة ، وملعب مُرْبيْطَر .

قال ابن سعيد : وفي الأندلس عجائب ، منها الشجرة التي لولا كثرة ذكر العامة لها بالأندلس ما ذكرتها ، فإن خبرها عندهم شائع متواتر ، وقد رأيت من

---

١ ومنها . . . بالأندلس : سقطت من ق .
٢ ك : المبطلة .
٣ ق : للطريق .

يَشْهد بخبرها ورؤيتها ، وهم جمٌّ غفير ، وهي شجرة زيتون تصنع الورق والنَّوْر والثمر في يوم واحد معلوم عندهم من أيام السنة الشمسية .

ومن العجائب السارية التي بغرب الأندلس ، ما يزعم[1] الجمهور أن أهل ذلك المكان إذا أحبوا المَطَر أقاموها فيمطر الله جهتهم .

ومنها صنم قادس ، طول ما كان قائماً كان يمنع الريح أن تهبَّ في البحر المحيط فلا تستطيع المراكب الكبار على الجري فيه ، فلمّا هُدم في أول دولة بني عبد المؤمن صارت السفن تجري فيه .

وبكورة قَبْرَةَ مَغارة ذكرها الرازي وحكى أنّه يقال : إنّها باب من أبواب الريح لا يُدرك لها قعر .

وذكر الرازي أن في جهة قلعة ورد جَبَلاً فيه شقٌّ في صخرة داخلَ كهفٍ فيه فأسُ حديدٍ متعلق من الشق الذي في الصخرة ، تراه العيون وتلمسه اليد ، ومَنْ رام إخراجه لم يطق ذلك ، وإذا رفعته اليد ارتفع وغاب في شق الصخرة ثم يعود إلى حالته .

وأمّا ما أورده ابن بَشْكُوال[2] من الأحاديث والآثار في شأن فضل الأندلس والمغرب فقد ذكرها ابن سعيد في كتابه المُغْرب ، ولم أذكرها أنا ، والله أعلم بحقيقة أمرها ، وكذلك ما ذكره ابن بَشكُوال من أن فتح القسطنطينية إنما يكون من قِبل الأندلس ، قال : وذكره سيف[3] عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه — والله أعلم بصحة ذلك — ولعلّ المراد بالقسطنطينية رومية ، والله أعلم .

قال سيف : وذلك أن عثمان ندَبَ جيشاً من القيروان إلى الأندلس ، وكتب لهم : أما بعد ، فإن فتح القسطنطينية إنما يكون من قِبل الأندلس ، فإنّكم إن

---

١ سقطت « ما » من ك .

٢ ما ينقله المقري عن ابن بشكوال إنما هو من كتاب له في تاريخ الأندلس لم يصلنا ، وقد وردت هذه الأحاديث في مخطوطة الرباط : ١٠ .

٣ يعني الاخباري « سيف بن عمر » أحد الرواة الذين اعتمدهم الطبري .

فتحتموها كنتم الشركاء في الأجر ، والسلام ، انتهى .

قلت : عهدة هذه الأمور على ناقلها ، وأنا بريء من عهدتها ، وإن ذكرها ابن بَشْكُوال وصاحب المُغْرب وغير واحد فإنّها عندي لا أصل لها ، وأيّ وقت بَعَثَ عثمان إلى الأندلس ؟ مع أن فتحها بالاتفاق إنّما كان زمانَ الوليد ، وإنّما ذكرت هذا للتنبيه عليه ، لا غير ، والله أعلم .

* * *

[وصف ابن سعيد للأندلس]

قال ابن سعيد : وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ، فأكثرت فيها الخِصْب والعمارة من كل جهة ، فمتى سافرْتَ من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة . وممّا اختصّت به أن قُرَاها في نهاية من الجمال لتصنّع أهلها في أوضاعها وتبييضها، لئلا تنبو العيون عنها ، فهي كما قال الوزير ابن الحمارة فيها[1] :

لاحَتْ قُراها بين خُضْرَة أَيْكِها ... كالدُّرّ بينَ زَبَرْجَدٍ مَكْنونِ

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قُراها التي تكدّر العين بسوّادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها ، وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصّرة من مثلها ، والمثال في ذلك أنّك إذا توجهت من إشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعضِ آخر مدينةُ شَرِيش ، وهي في نهاية من الحضارة والنّضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالَقَةُ ، وهذا كثير في الأندلس ، ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدوّ ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين ، وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما ينيّف

---

١ محمد بن الحمارة الغرناطي أبو عامر ، تلميذ ابن باجة ، كان بارعاً في علم الألحان وصناعة الأعواد (ترجمته في بغية الملتمس ص : ١٧ ه والمغرب ٢ : ١٢٠ وسيذكره المقري باسم «أبو الحسين علي بن الحمارة» ، فلعله شخص آخر .

على عشرين سنة لامتناع معاقلها ، ودُرْبَة أهلها على الحرب ، واعتيادهم لمجاورة العدوّ بالطعن والضرب ، وكثرة ما تنخزن الغلة في مطاميرها ، فمنها ما يطول صبره عليها نحواً من مائة سنة . قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن ، وإن كان العدوّ قد نقَصَها من أطرافها ، وشارك في أوساطها ففي البقية منعة عظيمة ، فأرض بقي فيها مثل إشبيلية وغَرْناطة ومالقة والمريّة وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الممصّرة الرجاء فيها قويّ بحول الله وقوته ، انتهى .

قلت : قد خاب ذلك الرجاء ، وصارت تلك الأرجاء للكفر مَعْرجاً ، ونسأل الله تعالى الذي جعل للهمّ فرَجاً ، وللضيق مخرجاً ، أن يعيد إليها كلمة الإسلام حتى يَسْتَنْشِق أهلُه منه فيها أرَجاً ، آمين .

* * *

[بيلتا طليطلة]

ومن غرائب الأندلس : البيلتان [1] اللتان بطُلَيطلة ، صَنعهما عبدُ الرحمن [2] لما سمع بخبر الطِّلَّسْم الذي بمدينة أرِينَ من أرض الهند ، وقد ذكره المسعودي ، وأنّه يدور بإصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة في بيت مجوّف في جوف النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين ، ومن عجبهما أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أن أوّل انهلال الهلال يخرج فيهما يسيرُ ماء ، فإذا أصبح كان فيهما [ربع] [3] سبعهما من الماء ، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتّى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال ، فيكون

---

١ البيلة : حوض النافورة ، وترادفها في الاستعمال أحياناً لفظة « خصة » وهي بالإسبانية والإيطالية (Pila) ، وخبر البيلتين ووصفهما مذكور بتفصيل في مخطوطة الرباط : ٣٨ .

٢ يعني أبا القاسم عبد الرحمن الزرقال ، كما جاء في مخطوطة الرباط .

٣ زيادة لازمة عن مخطوطة الرباط سقطت من النسخ .

فيهما نصفهما ، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر ، فإذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نقَصَتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع [حتى يتم القمر واحداً وعشرين يوماً فينقص منهما نصفهما ولا يزال كذلك ينقص في كل يوم وليلة نصف سبع][1] فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء ، وإذا تكلف أحدٌ حين تنقصان أن يملأهما وجَلَب لهما الماء ابتلعتا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما إلاّ ما كان فيهما في تلك الساعة ، وكذا لو تكلّف عند امتلائهما إفراغهما ولم يُبقِ فيهما شيئاً ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين . وهما أعجب من طِلَّسْم الهند ، لأن ذلك في نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار ، وأمّا هاتان فليستا في مكان الاعتدال ، ولم تزالا في بيت واحد حتى ملك النصارى — دمّرهم الله — طُلَيْطلة ، فأراد الفُنْشُ أن يعلم حركاتهما ، فأمر أن تُقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتي إليها الماء ، وكيف الحركة فيهما ، فقلعت ، فبطلت حركتهما ، وذلك سنة ٥٢٨ . وقيل : إن سبب فسادهما حُنَيْن اليهودي[2] الذي جَلَب حَمام الأندلس كلها إلى طليطلة في يوم واحد ، وذلك سنة ٥٢٧ ، وهو الذي أعلم الفُنْشَ أن ولده[3] سيدخل قرطبة ويملكها ، فأراد أن يكشف حركة البيلتين ، فقال له : أيها الملك ، أنا أقلعهما وأردُّهما أحسن ممّا كانتا ، وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتَحْسِران في الليل ، فلما قلعت لم يقدر على ردها ، وقيل : إنّه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت ، ولم تزل الأخرى تعطي حركتها ، والله أعلم بحقيقة الحال .

* * *

١ سقطت من ك و ط وهي مثبتة في دوزي ومخطوطة الرباط وق و ج .
٢ سماه في مخطوطة الرباط : حنين بن ربوة اليهودي المنجم .
٣ مخطوطة الرباط : أن حفيده .

[عود إلى ذكر إشبيلية]

وقال بعضهم في إشبيلية : إنها قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها ، ومدينة الأدب واللهو والطرب ، وهي على ضفة النهر الكبير ، عظيمة الشأن ، طيبة المكان ، لها البر المديد ، والبحر الساكن ، والوادي العظيم ، وهي قريبة من البحر المحيط ، إلى أن قال : ولو لم يكن لها من الشرف إلا موضع الشّرَف المقابل لها المطلّ عليها المشهور بالزيتون الكثير الممتد فراسخ في فراسخ لكفى[1] ، وبها منارة في جامعها بَناها يعقوبُ المنصور ، ليس في بلاد الإسلام أعظم بناء منها . وعسل الشرف يبقى حيناً لا يترمّل ولا يتبدّل ، وكذلك الزيت والتين .

وقال ابن مفلح[2] : إن إشبيلية عَروسُ بلاد الأندلس ، لأن تاجها الشرف ، وفي عنقها سمط النهر الأعظم ، وليس في الأرض أتم حسناً من هذا النهر ، يُضاهي دجلة والفرات والنيل ، تسير القوارب فيه للتزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار ، وتغريد الأطيار ، أربعة وعشرين ميلاً ، ويتعاطى الناسُ السُّرجَ من جانبيه عشرة فراسخ في عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة ، وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى . وبالجملة فهي قد حازت البر والبحر ، والزرع والضّرْع ، وكثرة الثمار من كل جنس ، وقصب السكر ، ويجمع منها القرمز الذي هو أجلّ من اللّك[3] الهندي ، وزيتونُها يخزن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة ، ثم يُعْتصر فيخرج منه أكثر ممّا يخرج منه وهو طري ، انتهى ملخصاً .

ولما ذكر ابن اليسع الأندلس قال : لا يتزوّد فيها أحد ماءً حيث سلك ، لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد أربعَ مدائن ، ومن

---

١ لكفى : سقطت من ط ج ق ، اكتفاء ، وفي دوزي : لكفاها .
٢ لعله المؤرخ إبراهيم بن محمد بن مفلح (– ٨٨٤) قاضي دمشق (الضوء اللامع ١ : ١٥٢) .
٣ قد تقدم ذكر القرمز وأنه نوع من المن الذي يجمع عن الشجر ، أما اللك فإنه مادة شبيهة به تدخل في تركيب الأدوية (ابن البيطار ٤ : ١١٠)

المعاقل والقُرَى ما لا يحصى ، وهي بِطاح خُضْر ، وقصور بيض . انتهى .

* * *

[مقارنة ابن سعيد بين الأندلس وسواها]

قال ابن سعيد : وأنا أقول كلاماً فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطُفْتُ في بر العُدْوة ، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وَسَبْتة ، ثم طُفْتُ في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجايةَ وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفُسطاط ، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلَب وما بينهما — لم أر ما يُشْبِهُ رَوْنَق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ، وفي حَماة مَسْحة أندلسية ، ولم أر ما يشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع ، إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن ، وبعض أماكن في تونس ، وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ، ولكن الإسكندرية أفسحُ شوارعَ وأبسطُ وأبدع ، ومباني حلب داخلة فيما يُستحسن ، لأنها من حجارة صلبة ، وفي وضعها وترتيبها إتقان ، انتهى .

* * *

[أشعار في وصف الأندلس]

ومن أحسن ما جاء من النظم في الأندلس قولُ ابن سفر المَريني ، والإحسانُ له عادة :

في أرض أندلسٍ تُلْتذُّ نَعْماءُ ولا يفارِقُ فِيها القلبَ سرّاءُ
وليس في غيرها بالعيشِ مُنتفَعٌ ولا تقومُ بحقّ الأنسِ صَهباء
وأين يُعْدَلُ عن أرضٍ تَحُضُّ بها على المُدَامة أمواهٌ وأفْياء
وكيف لا يبهجُ الأبصارَ رؤيتُها وكلُّ رَوضٍ بها في الوَشْيِ صَنعاء
أنهارُها فضةٌ ، والمسكُ تُرْبَتُها والخزُّ رَوْضتها ، والدُّرُّ حَصْباء

وللهواء بها لطفٌ يرقُّ به   مَنْ لا يرقُّ ، وتَبْدُو منهُ أهواء
ليس النسيمُ الذي يَهْفُو بها سَحَراً   ولا انتثارُ لآلي الطَّلِّ أنداء
وإنّما أرَجُ النَّدّ استَثارَ بها   في ماء وَرْدٍ فطابت منهُ أرْجاء
وأين يَبْلُغُ منها ما أصَنّفُهُ   وكيف يَحْوِي الذي حازته إحْصاء
قد مُيِّزت من جهات الأرض حين بدت   فريدَةً وتولّى مَيْزَها الماء
دارَتْ عليها نِطاقاً أبحُرٌ خفقَتْ   وَجْداً بها إذ تبَدّتْ وَهْيَ حَسناء
لذاكَ يَبْسِمُ فيها الزَّهْرُ من طرَبٍ   والطيرُ يَشْدُو وللأغصان إصْغاء
فيها خلَعْتُ عِذاري ما بها عِوَضٌ   فهيَ الرّياضُ ، وكلُّ الأرض صَحراء

ولله دَرُّ ابن خفَاجة حيث يقول :

إن للجنّة بالأندلُسِ   مُجْتَلى مرأى ورَيّا نَفَسِ
فَسَنا صُبْحَتِها من شَنَبٍ   ودُجى ظلمتها من لَعَسِ
فإذا ما هَبَّتِ الريحُ صَباً   صِحْتُ واشوقي إلى الأندلسِ

وقد تقدمت هذه الأبيات[1] .

قال ابن سعيد : قال ابن خفاجة هذه الأبيات وهو بالمغرب الأقصى في برّ العُدْوَة ، ومنزله في شرق الأندلس بجزيرة شقر .

* * *

[وعاء الأندلس كما يصفه ابن حوقل]

وقال ابن سعيد في المغرب ما نصّه : قواعد من كتاب « الشهب الثاقبة ، في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة »[2] أولُ ما نقدم الكلام على قاعدة السلطنة

---

١ انظر ص : ١٧٠ من هذا الكتاب .

٢ لم يصلنا هذا الجزء من المغرب ، ولكن العمري أورد منه فقرات كثيرة في مسالك الأبصار الجزء الثالث ، القسم الأول ، قال : والمناظرة بين المشرق والمغرب تحتمل كتاباً وقد صنفته بالشام لضرورة دعت إلى ذلك من شدة إلحاح المشارقة على المغاربة من كل جهة . . . وسميت الكتاب—

بالأندلس ، فنقول : إنها مع ما بأيدي عُبّاد الصَّليب منها أعظم سَلْطنة كثرت ممالكها ، وتشعبت في وجوه الاستظهار للسلطان إعانتها ، وندَعُ كلامنا في هذا الشأن ، وننقل ما قاله ابن حَوْقل النصيبي في كتابه لما دخلها في مدة خلافة بني مَرْوان بها في المائة الرابعة ، وذلك أنّه لما وصفها قال[1] : وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة ، طولها دون الشهر في عرض نيّف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر ، والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولما هي به من أسباب رَغَد العيش وسَعَته وكثرته ، يملك ذلك منهم مَهينُهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنتهم وصلاح معاشهم وبلادهم . ثم أخذ في عظم سلطانها ووصف وُفور جباياته وعظم مَرَافقه ، وقال في أثناء ذلك : ومما يُدَل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضَرْبه على الدراهم والدنانير دَخْلُها في كل سنة مائتا ألف دينار ، وصَرْفُ الدينار سبعة عشر درهماً ، هذا إلى صدقات البلد وجباياته ، وخراجاته وأعشاره وضماناته والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك .

وذكر ابن بَشْكُوال أن جباية الأندلس بلغت في مدّة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً ، ثمّ[2] من السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار .

ثم قال ابن حَوْقل : ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على مَنْ هي في يده مع صغر أحلام أهلها ، وضَعَة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبُعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومِراس الأنجاد والأبطال ، مع علم أمير المؤمنين بمحلّها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها . .

* * *

= « الشهب الثاقبة في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة » (الورقة : ١٠٤) .

١ صورة الأرض : ١٠٤ ، وفي النص بعض اختلاف عما أثبته ابن سعيد .

٢ ثم : سقطت من ك .

[ردّ ابن سعيد على بعض كلام ابن حوقل]

قال علي بن سعيد مكمل هذا الكتاب : لم أر بدّاً من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى ، ولسانُ الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة ، وليت شعري إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقولَ والآراء والهمم والشجاعة فمَن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مُراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ؟ ومَن الذين حمَوْها ببَسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب ؟ وإنّي لأعجب منه إذ كان في زمان قد دَلَفَتْ فيه عبّاد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العَيْثِ في بلاد الإسلام ، حيث الجمهور والقبة العظمى ، حتى إنهم دخلوا مدينة حلب ، وما أدراك ، وفعلوا فيها ما فعلوا ، وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة ، إلى غير ذلك ممّا هو مسطور في كتب[1] التواريخ ، ومن أعظم ذلك وأشدّه أنهم كانوا يتغلبون على الحِصْن من حصون الإسلام التي يتمكنون بها من بسائط بلادهم ، فيَسْبُون ويأسِرُون ، فلا تجتمع هممَ الملوك المجاورة على حَسْم الداء في ذلك ، وقد يستعين به بعضُهم على بعض ، فيتمكن من ذلك الداء الذي لا يُطَبّ ، وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهره ، وذلك موجود في تاريخ ابن حيّان وغيره ، وإنّما كانت الفتنة بعد ذلك : الأعلامُ بيّنة ، والطريق واضح .

فلنرجع إلى ما نحن بسبيله :

* * *

[ابن سعيد يقدم سرداً لتطوّر التاريخ الأندلسي]

كانت سلطنة الأندلس في صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها

---

١ كتب : سقطت من ق ط ج .

من سلاطين إفريقية ، واختلافُ الولاة داعٍ إلى الاضطراب ، وعدم تأثّل الأحوال وتربية الضخامة في الدولة ، ولما صارت الأندلس لبني أمية وتوارثوا ممالكها وانقاد إليهم كل أبيّ فيها وأطاعهم كل عَصِيّ عظمت الدولة بالأندلس ، وكبرت الهمم وترتبت[1] الأحوال ، وترتبت القواعد ، وكانوا صَدْراً من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف ، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة ، وملكوا من برّ العُدْوة ما ضخمت به دولتهم ، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة ، وتمكن الناموس من قلوب العالم ، ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور ، وتعظيم العلماء ، والعمل بأقوالهم ، وإحضارهم في مجالسهم واستشارتهم ، ولهم حكايات في تاريخ ابن حيّان : منها ما هو مذكور من توجّه الحُكْم على خليفتهم أو على ابنه أو أحدِ حاشيته المختصين ، وأنهم كانوا في نهاية من الانقياد للحق[2] لهم أو عليهم ، وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة . ولما خرقوا هذا الناموس كان أول ما تهتّك أمرهم ، ثم اضمحل ، وكانت ألقابُ الأُول منهم الأمراء أبناء الخلائف ، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين ، إلى أن وقعت الفتنة بحَسدِ بعضهم لبعض ، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي رتبت عليه ، فاستبدّت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها ، وسُمُّوا بملوك الطوائف واستبدوا[3] ، وكان فيهم مَنْ خَطَب للخلفاء المَرْوانيين وإن لم يبق لهم خلافة ، ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمَعِ على إمامتهم ، وصار ملوك الطوائف يتباهَوْنَ في أحوال الملك ، حتى في الألقاب ، فآل أمرهم إلى أن تلقّبوا بنُعُوت الخلفاء ، وترفّعوا إلى طبقات السلطنة العظمى ، وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفّهِ والضخامة التي تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم ، وتنهض بهم للمباهاة . ولأجل توثبهم على النعوت العباسيّة ، قال ابن رشيق القيرواني[4] :

---

١ ق ج : وترتيب .
٢ ك : إلى الحق .
٣ واستبدوا : سقطت من ك .
٤ ديوان ابن رشيق : ٥٩ ، وهما في وفيات الأعيان ٤ : ٥٢ لابن عمار الأندلسي .

ممّا يزهّدُني في أرض أندَلُسٍ   تلقيبُ معتضِدٍ فيها ومُعْتَمِدِ
ألقابُ مملكةٍ في غير مَوْضعها   كالهرّ يحكي انتفاخاً صَوْلةَ الأسدِ

وكان عبّاد بن محمد بن عبّاد قد تلقب بالمعتضد ، واقتفى سيرة المعتضد العباسي أمير المؤمنين ، وتلقّب ابنُه محمد بن عبّاد بالمعتمد ، وكانت لبني عبّاد مملكة إشبيلية ثم انضاف إليها غيرها .

وكان خلفاء بني أمية يظهرون للناس في الأحيان على أبَّهة الخلافة ، وقانون لهم في ذلك معروف ، إلى أن كانت الفتنة ، فازدرت العيونُ ذلك الناموس ، واستخفّت به .

وقد كان بنو حَمّودٍ من ولد إدريس العَلَوي الذين توثّبُوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون ، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس ، وكانوا إذا حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب ، والحاجبُ واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة ، ولما حضر ابن مقّانا الأشبونيّ أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمّودي الذي خطب له بالخلافة في مالَقَة ، وأنشده قصيدته المشهورة النونية التي منها قوله [1] :

وكأنّ الشّمْسَ لمّا أشْرَقَتْ   فانثنَتْ عنها عيونُ الناظرينْ
وَجْهُ إدريس بن يحيى بن علي   بن حمّودٍ أميرِ المؤمنينْ

وبلغ فيها إلى قوله :

انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكم   إنّه من نور رَبّ العالمينْ

رفع الخليفة الستر بنفسه ، وقال : انظر كيف شئت ، وانبسطَ مع الشاعر ، وأحسن إليه .

---

[1] عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني القبذاقي أبو زيد من شعراء الذخيرة (القسم الثاني : ٣٠١ ، وانظر المغرب ١ : ٤١٣ والحاشية في مصادر ترجمته) .

ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسّطون للخاصّة وكثيرٍ من العامة ، ويُظهرون مداراة[1] الجند وعوام البلاد ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ، ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مُباريه في الرياسة .

ومذ وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن إمام الجماعة ، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانُها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ، ومرّنوا على ذلك ، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد ، وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع ، إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبنيه ، وتلك القواعد في رؤوسهم كامنة ، والثوّار في المعاقل تثور[2] ، وتروم الكَرّة ، إلى أن ثار ابن هود ، وتلقّب بالمتوكل ، ووجد قلوباً[3] منحرفة عن دولة بر العُدْوة ، مهيأة للاستبداد ، فملكها بأيسر محاولة ، مع الجهل المفرط وضعف الرأي ، وكان مع العامة كأنّه صاحب شَعْوَذة ، يمشي في الأسواق ويضحك في وجوههم ويبادرهم بالسؤال . وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان ، فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء ، وكان كما قيل :

أمورٌ يَضْحَكُ السفهاء منها ويَبْكي من عَوَاقبها الحليمُ

فآل ذلك إلى تَلَفِ القواعد العظيمة ، وتملُّك الأمصار الجليلة ، وخروجها من يد الإسلام .

والضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً يبرّع الفرسان أو جواداً يبرّع الأجواد تهافتوا في نُصْرته ، ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة ، آل الأمرُ إلى ما يؤول إليه ، وبعد أن يكون الملك في مملكة

---

١ ق ج ط : لمداراة .
٢ ط ق : تثور .
٣ ك : القلوب .

قد تُوُورثت وتدوولت ، ويكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفسٍ للأجناد ومراعاة ، قدّموه ملكاً في حصن من الحصون ، ورَفَضوا عيالهم وأولادهم — إن كان لهم ذلك — بكرسيّ الملك ، ولم يزالوا في جهاد وإتلافِ أنفس حتى يظفر صاحبهم بطَلِبَتِه . وأهلُ المشرق أصوبُ رأياً منهم في مراعاة نظام الملكِ ، والمحافظة على نِصابه ، لئلاّ يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحلّ الأوضاع .

ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه : لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس تمخّضَتْ عن رجل من حصن يقال له أرْجُونَة ، ويُعرف الرجل بابن الأحمر ، كان يكثر مُغاورة العدو من حصنه ، وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة ، إلى أن سار[1] اسمه في الأندلس ، وآل ذلك إلى أن قدّمه أهلُ حصنه على أنفسهم ، ثم نهض فملك قرطبة العظمى ، وملك إشْبِيلِيَةَ ، وقتل ملكها الباجيّ ، وملك جَيّان أحصنَ بلد بالأندلس وأجلّه قدراً في الامتناع ، وملك غَرْناطة ومالقةَ ، وسَمّوه بأمير المسلمين ، فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه .

* * *

[ابن سعيد يصف الخطط الأندلسية : ١ — الوزارة]

وأمّا قاعدة الوزارة بالأندلس فإنّها كانت في مدة بني أميّة مشتركة في جماعة يُعَيّنهم صاحبُ الدولة للإعانة والمشاورة ، ويخصّهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسمّيه بالحاجب ، وكانت هذه المراتب لضَبْطها عندهم كالمتوارَثة في البيوت المعلومة لذلك ، إلى أن كانت ملوكُ الطوائف ، فكان الملكُ منهم — لعظم اسم الحاجب في الدولة المَرْوانية ، وأنّه كان نائباً عن خليفتهم — يسمّى بالحاجب ، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تُنوفس فيه وظُفر به ، وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم . وصار

---

١ ك : طار .

اسم الوزارة عامّاً لكل من يُجالس الملوك ويختص بهم ، وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يُعرف بذي الوزارتين ، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب ، وقد لا يكون كذلك ، بل عالماً بأمور الملك خاصة .

[٢ – الكتابة]

وأما الكتابة فهي على ضربين : أعلاهما : كاتب الرسائل ، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب ، وبهذه السّمة يخططه[١] من يعظمه في رسالة . وأهلُ الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السّمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهُه ولا مكانه من سلطانه من تسلّط الألسن في المحافل والطّعْن عليه وعلى صاحبه . والكاتبُ الآخر كاتب الزمام ، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ، ولا يكون بالأندلس وبرّ العدْوة لا نصرانيّاً ولا يهوديّاً البتّة ، إذ هذا الشغل نبيه يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوهُهم .

[٣ – الخراج]

وصاحبُ الأشغال الخراجية في الأندلس أعظمُ من الوزير ، وأكثر أتباعاً وأصحاباً وأجْدى منفعةً . فإليه تميلُ الأعناق ، ونحوه تمد الأكف ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار ، ومع هذا إن تأثلّتْ حالته واغتر بكثرة البناء والاكتساب نُكِب وَصُودر ، وهذا راجع إلى تقلب الأحوال وكيفية السلطان .

[٤ – القضاء]

وأما خُطّة القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلّقها بأمور الدين ، وكون السلطان لو توجّه عليه حكم حَضَر بين يدي القاضي ، هذا

---

١ ك : يخصه .

وضعها في زمان بني أمية ، ومن سلك مسلكهم ، ولا سبيلَ أن يتسمّى بهذه السّمة إلاّ مَنْ هو والٍ للحكم الشرعي في مدينة جليلة ، وإن كانت صغيرة فلا يُطلْق على حاكمها إلا مسدّد ، خاصة ، وقاضي القضاة يقال له : قاضي القضاة ، وقاضي الجماعة .

[٥ — خطة الشرطة]

وأما خطة الشّرْطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن ، معروفة بهذه السّمة ، ويُعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القَتْل لمن يجب[1] عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذي يحدّ على الزّنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرّر عليها رضا القاضي ، وكانت[2] خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك .

[٦ — الحسبة]

وأمّا خطّة الاحتساب فإنّها عندهم موضوعة في أهل العلم والفِطَنِ ، وكأن صاحبها قاض ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكباً على الأسواق ، وأعوانُه معه ، وميزانُه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان ، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم ، وكذلك للثُّمن ، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبيّ الصغير أو الجارية الرعْناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان ، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون[3] ما حَدّ له المحتسب في

١ ك : وجب .
٢ ق : وكان .
٣ ق ودوزي : أن يبيع بدون .

الورقة ، ولا يكاد تخفى خيانته ، فإن المحتسب يدس عليه صبيّاً أو جارية يبتاع أحدهما منه ، ثم يختبر الوزنَ المحتسبُ ، فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حالته مع الناس ، فلا تسأل عمّا يلقى ، وإن كثر ذلك منه ولم يَتُبْ بعد الضرب والتجريس[1] في الأسواق نُفي من البلد . ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها[2] ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه ، لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات وتتفرع إلى ما يطول ذكره .

[٧ – خطة الطواف بالليل]

وأمّا خطة الطواف باللّيل وما يقابل من المغرب أصحاب أرباع في المشرق فإنهم يُعرفون في الأندلس بالدرّابين ، لأن بلاد الأندلس لها دُروب بأغلاق تُغلق بعد العتمة ، ولكل زُقاق بائتٌ فيه ، له سراج معلّق وكلب يسهر وسلاح معدّ ، وذلك لشطارة عامّتها وكثرة شرّهم ، وإغيائهم[3] في أمور التلصص ، إلى أن يظهروا على المباني المشيدة ، ويفتحوا الأغلاق الصعبة ، ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يقرّ عليهم أو يطالبهم بعد ذلك ، ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع « دار فلان دُخلت البارحة » و « فلان ذبحه اللصوص على فراشه » وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدّة الوالي ولينه ، ومع إفراطه في الشدّة وكون سيفه يقطر دماً فإن ذلك لا يعدم ، وقد آل الحالُ عندهم إلى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كَرْم وما أشبه ذلك ، فلم ينته اللصوص .

• • •

[الأندلسيون والتشريع]

وأمّا قواعد أهل الأندلس في ديانتهم فإنّها تختلف بحسب الأوقات والنظر

١ التجريس : الفضح والتشهير .
٢ يتداولونها : سقطت من ق ط ج .
٣ ك : وإعيائهم .

إلى السلاطين ، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود ، وإنكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان ، وقد يلج السلطانُ في شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبأون بخيله ورَجْله حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير في أخبارهم . وأمّا الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يَعْدِلوا فكلّ يوم .

* * *

[الأندلسيون والتصوف]

وأمّا طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدَّرْوزة[1] التي تُكْسِلُ عن الكد وتحوج[2] الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية[3] ، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبّوه وأهانوه ، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه ، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر .

* * *

[الأندلسيون والعلوم والآداب]

وأمّا حالُ أهل الأندلس في فنون العلوم[4] فتحقيقُ الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرصُ الناس على التميز ، فالجاهل الذي لم يوفّقْه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يُرَى فارغاً عالةً على الناس ؛ لأن هذا عندهم في نهاية القبح ، والعالم عندهم معظّم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ويحال عليه ، وينَبُه قدره وذكره عند الناس ، ويُكْرَم في جوار أو ابتياع حاجة ، وما أشبه ذلك . ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرءون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرءون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جارياً ،

١ ك : الدورة ؛ والدروزة من الفارسية « دريوزه » أي الكدية والشحذ .
٢ ك : وتخرج .
٣ ك : النهاية .
٤ ق : العلم .

فالعالم منهم بارع لأنّه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه ، وينفق من عنده حتّى يعلم ، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظّاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يُتظاهر بهما خوف العامة ، فإنّه كلّما قيل « فلان يقرأ الفلسفة » أو « يشتغل بالتنجيم » أطلقت عليه العامة [1] اسم زنديق ، وقيّدَتْ عليه أنفاسه ، فإن زلّ في شبهة رجَموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري ، والله أعلم .

وقراءةُ القرآن بالسبع وروايةُ الحديث عندهم رفيعة ، وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم . وسِمَةُ الفقيه عندهم جليلة ، حتّى إن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه ، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السّمات . وعلم الأصول عندهم متوسط الحال ، والنحو عندهم في نهاية من علوّ الطبقة ، حتّى إنهم في هذا العَصْر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لا يَزْداد مع هَرَم الزمان إلا جِدّةً ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم في أيّ علم لا يكون متمكناً من علم النحو – بحيث لا تخفى عليه الدقائق – فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالم من الازدراء ، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عمّا تقتضيه أوضاع العربية ، حتّى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي عليّ المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غرّبت تصانيفه

---

[1] العامة : سقطت من ك .

وشَرَّقَتْ وهو يُقْرِىء درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه ؛ والخاصُّ منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يَجْرِي على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ؛ ولكن ذلك مراعًى عندهم في القراءات والمخاطبات بالرسائل . وعلمُ الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبلُ علم عندهم ، وبه يُتقرب مِنْ مجالس ملوكهم وأعلامهم ، ومَنْ لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غُفْلٌ مستثقَل .

والشعر عندهم له حظ عظيم ، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، ولهم عليهم وظائف ، والمجيدون منهم يُنْشِدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ، ويوقّع لهم بالصّلات على أقدارهم ، إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين مّا ، ولكنْ هذا الغالبُ . وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنّه يَتَعَظَّمُ في نفسه لا محالة ويسخف ويُظهر العُجْبَ ، عادةٌ قد جُبِلوا عليها .

* * *

[الزي الأندلسي في السلم والحرب]

وأما زيُّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم ، لا سيما في شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلاّ وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ، ولقد رأيت عزيز بن خطاب[1] أكبر عالم بمُرْسِية ، حضرةِ السلطان في ذلك الأوان ، وإليه الإشارة ، وقد خُطب له بالملك في تلك الجهة ، وهو حاسِرُ الرأس ، وشَيْبُه قد غلب على سواد شعره . وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تَرَاه بعمّة في شرق منها أو في غرب ، وابنُ هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة ، وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده ، وكثيراً

---

١ عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب القيسي ، أبو بكر مرسي سرقسطي الأصل ، كان زاهداً عابداً ناشراً للعلم حتى امتحن برياسة بلده فلم تحمد سيرته ، قتل سنة ٦٣٦ . (ترجمته في الذيل والتكملة ٥ : ١٤٤ وفي الحاشية ثبت بالمصادر) .

ما يتزيّا سلاطينُهم وأجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم ، فسلاحهم كسلاحهم ، وأقبيتهم من الإشكرلاط [1] وغيره كأقبيتهم ، وكذلك أعلامهم وسُروجهم .

ومحاربتهم بالتِّراس والرّماح الطويلة للطعن ، ولا يعرفون الدبابيس ، ولا قِسيّ العرب ، بل يعدون قِسيّ الإفرنج للمحاصرات في البلاد ، أو تكون للرجّالة عند المصافقة للحرب ، وقليلاً [2] ما تصبر الخيل عليهم أو تمهلهم لأن يُوتِرُوها ، ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم مَنْ يمشي دون طَيْلَسان ، إلاّ أنّه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظّمون ، وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حُمْراً وخُضراً ، والصُّفر مخصوصة باليهود ، ولا سبيل إلى يهودي [3] أن يتعمّم البتّة ، والذؤابة لا يرخيها إلاّ العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنّما يُسْدِلونها من تحت الأذن اليسرى . وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس ، وإن رأوا في رأس مشرقيّ داخلٍ إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك في تفصيل الثياب .

* * *

[تدبير الأندلسيين ومروءتهم]

وأهل الأندلس أشدُّ خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك ممّا يتعلّق بهم ، وفيهم مَنْ لا يكون عنده إلا ما يقوته يومَهُ ، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعةً على حالة تنبو العين عنها .

وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذلّ السؤال ، فلذلك قد يُنسبون للبخل ، ولهم مروءات على عادة بلادهم ، لو فطن لها حاتم

---

١ الاشكرلاط ، ويقال أيضاً الاشكيلاط (écarlate) نوع من الجوخ ، قرمزي أحمر .

٢ ك : وكثيراً .

٣ ك : ليهودي .

لفضّل دقائقها على عظائمه ؛ ولقد اجتزت مع والدي على قَرْيَة من قُرَاها ، وقد نال منّا البرد والمطر أشدّ النَّيل ، فأوَيْنا إليها ، وكنّا على حالٍ ترقّبٍ من السلطان وخلوّ من الرفاهية ، فنزلنا في بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة متقدمة ، فقال لنا : إن كان عندكم ما أشتري لكم فحماً تسخنون به فإنّي أمضي في حوائجكم ، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشترى به فحماً ، فأضرم ناراً ، فجاء ابنٌ له صغير ليصطلي ، فضربه ، فقال له والدي : لم ضربته ؟ فقال : يتعلّم استغنام مال[1] الناس والضّجَرَ للبرد من الصغر ، ثم لما جاء النوم قال لابنه : أعطِ هذا الشابّ كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه ، فدفع كساءه إليّ ، ولما قمنا عند الصباح وجدتُ الصبيّ منتبهاً ويدُه في الكساء ، فقلت ذلك لوالدي ، فقال : هذه مروءات أهل الأندلس ، وهذا احتياطهم ، أعطاك الكساء وفضّلك على نفسه ، ثم أفكّر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص ، فلم يطب له منامَ حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالكِ بها وهو نائم ، وعلى هذا الشيء الحقير فقس[2] الشيء الجليل ؛ انتهى كلام ابن سعيد في « المغرب » باختصار يسير .

* * *

[منهج كتاب المغرب لابن سعيد]

ولله درّه ، فإنّه أبدع في هذا الكتاب ما شاء ، وقسمه إلى أقسام ، منها :

كتاب « وشي الطرس ، في حلى جزيرة الأندلس » وهو ينقسم إلى أربعة كتب :

الكتاب الأول : كتاب « حَلي العرس ، في حلى غرب الأندلس » .

الكتاب الثاني : كتاب « الشفاه اللُّعْس ، في حلى موسطة الأندلس » .

---

١ ك : أموال .

٢ ق : قس .

الكتاب الثالث : كتاب « الأنس في حلى شرق الأندلس » .

الكتاب الرابع : كتاب « لحظات المريب ، في ذكر ما حماه من الأندلس عُبّاد الصليب » .

والقسم الثاني كتاب « الألحان المسلية ، في حلى جزيرة صقلية » وهو أيضاً ذو أنواع .

والقسم الثالث كتاب « الغاية الأخيرة ، في حلى الأرض الكبيرة » وهو أيضاً ذو أقسام ، وصوّر — رحمه الله تعالى — أجزاء الأندلس في كتاب « وَشْي الطرس » وقال أيضاً : إن كلاًّ من شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب في قدر المساحة بعضُه من بعض ، وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ، ليصدق التثليث في القسمة ، وهذا دون ما بقي بأيدي النصارى .

وقدم — رحمه الله — كتاب « حَلْي العرس ، في حلى غرب الأندلس » لكون قُرْطبة قطبِ الخلافة المروانية وإشبيلية التي ما في الأندلس، أجملُ منها فيه ، وقسمه إلى سبعة كتب [1] ، كل كتاب منها يحتوي على مملكة منحازة عن الأخرى :

الكتاب الأول : كتاب « الحلة المذهبة ، في حلى مملكة قرطبة » .

الكتاب الثاني : كتاب « الذهبية الأصيلية ، في حلى المملكة الإشبيلية »

الكتاب الثالث : كتاب « خدع المُمالقة ، في حلى مملكة مالَقَة » [2] .

الكتاب الرابع : كتاب « الفردَوْس ، في حلى مملكة بَطَلْيَوْس » .

الكتاب الخامس : كتاب « الحِلْب ، في حلى مملكة شِلْب » .

الكتاب السادس : كتاب « الديباجة ، في حلى مملكة باجَة » .

الكتاب السابع : كتاب « الرياض المَصُونة ، في حلى مملكة أُشْبُونة » وقد

---

١ راجع المغرب ١ : ٣٤ .

٢ جاء هذا الكتاب « سابعاً » حسب ترتيب المغرب المطبوع .

ذكر – رحمه الله تعالى – في كل قسم ما يليق به ، وصوّر أجزاءه على ما ينبغي ، فالله يجازيه خيراً ؛ والكلام في الأندلس طويل عريض .

* * *

[خاتمة في نبذة جغرافية]

وقال بعض المؤرخين : طول الأندلس ثلاثون يوماً ، وعرضها تسعة أيام ، ويشقها أربعون نهراً كباراً[1] ، وبها من العيون والحمامات والمعادن ما لا يحصى ، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد من ثلثمائة من المتوسطة ، وفيها من الحُصُون والقُرَى والبروج ما لا يحصى كثرة ، حتى قيل : إن عدد القُرَى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية ، وليس في معمور الأرض صُقْع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعاً من يومه إلا بالأندلس ، ومن برَكتها أن المسافر لا يسير[2] فيها فرسخين دون ماء أصلاً ، وحيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والشعاري[3] والأودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة .

وذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الأندلس مسيرة أربعين يوماً طولاً في ثمانية عشر يوماً عرضاً ، وهو مخالف لما سبق .

وقال ابن سيده : أخذت الأندلسُ في عرض الإقليمين الخامس والسادس من البحر الشامي في الجنوب إلى البحر المحيط في الشمال ، وبها من الجبال سبعة وثمانون جبلاً ، انتهى .

* * *

[مقطعات في مدح الأندلس]

ولبعضهم :

لله أندلسٌ وما جَمَعَتْ بها ... من كل ما ضمّت لها الأهواءُ

١ كباراً : سقطت من ق .
٢ ك : لا يسافر .
٣ ك : والصحاري .

فكأنّما تلك الديار كواكب ... وكأنّما تلك البقاعُ سماء
وبكلّ قُطر جَدْولٌ في جنّة ... ولعت به الأفياء والأنداء

وقال غيره :

في أرض أندلسٍ تُلتذُّ نَعْماءُ ... ولا يُفارق فيها القلبَ سَرَّاءُ
وليس في غيرها بالعيش مُنْتَفَعٌ ... وَلا تقومُ بحقٍّ الماء[1] صَهْباء
وأين يُعْدَلُ عن أرض تحض بها ... على الشهادة أزواج وأبناء
وَأَيْنَ يُعْدَلُ عن أرض تحُثُّ بها ... على المُدامة أفياء وأنداء[2]
وكيف لا تُبهِجُ الأبصارَ رؤيتُها ... وكلُّ أرض بها في الوَشْيِ صَنعاء
أنهارها فضة ، والمسك تُرْبتُها ... والخزّ رَوْضتها ، والدُّرُّ حَصْباء
وللهواء بها لطف يرقّ به ... من لا يرقُّ ، وتَبْدُو منه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سَحَرَاً ... ولا انتشار لآلي الطلّ أنداء
وإنّما أرَجُ الندّ استثار بها ... في ماء وَرْدٍ فطابت منه أرْجاء
وأين يبلغ منها ما أُصَنّفُه ... وكيف يحوي الذي حازته إحصاء
قد مُيِّزتْ من جهات الأرض ثم بدت ... فريدةً ، وتولّى مَيْزَها الماء
دارت عليها نطاقاً أبحرٌ خَفَقَتْ ... وَجْداً بها إذ تبدّتْ وَهْيَ حسناء[3]
لذاك يبسِمُ فيها الزهرُ من طرَبٍ ... والطيرُ يشدو ، وللأغصان إصغاء
فيها خلعتُ عِذاري ما بها عوض ... فهي الرياض وكل الأرض صَحراء

وقد تقدمت هذه القصيدة[4] .

وقال آخر :

حبّذا أندلس من بلد ... لم تزل تُنْتِجُ لي كلَّ سُرُورْ

. . . . . .

١ ك : الأنس .
٢ ك : أمواه وأفياء .
٣ هذا البيت وأربعة قبله سقطت من ق ط ح .
٤ انظر ص : ٢٠٩ – ٢١٠ في ما تقدم .

طائر شادٍ ، وظلٌّ وارفٌ ومياهٌ سائحات وقُصُورْ

وقال آخر :

يا حسن أندلس وما جُمِعَتْ لنا فيها من الأوطار والأوطانِ
تلك الجزيرة لست أنسى حُسنها بتعاقُب الأحيان والأزمانِ
نَسَجَ الربيعُ نباتَها من سُنْدُس مَوْشِيّة ببدائع الألوانِ
وغدا النسيمُ بها عليلاً هائماً برُبُوعها وتلاطَمَ البحرانِ
يا حُسْنَها والطلّ ينثر فوقها دُرَراً خلالَ الوَرْد والرَّيحانِ
وسواعِدُ الأنهار قد مدّت إلى نُدَمائها بشقائق النُّعمانِ
وتجاوَبَتْ فيها شَوَادي طَيْرِها والتفّتِ الأغصانُ بالأغصانِ
ما زُرْتُها إلاّ وحَيّاني بها حَدَقُ البَهارِ وأنمُلُ السُّوسانِ
من بعدها ما أعجبتني بلدة مَعَ ما حللتُ به من البلدانِ

* * *

[من خصائص الأندلس]

وحكى بعضهم أن بالجامع من مدينة أقْليشَ بلاطاً فيه جوائز منشورة مربعة مستوية الأطراف ، طول الجائزة منها مائة شبر وأحد عشر شبراً .

وفي الأندلس جبل مَنْ شربَ من مائه كثر عليه الاحتلام ، من غير إرادة ولا تفكر ، وفيها غير ذلك ممّا يطول ذكره ، والله أعلم .

ولنُمْسِكِ العِنانَ في هذا الباب ، فإن بحر الأندلس طويل مديد ، وربما كررنا الكلام لارتباط بعضه ببعض ، أو لنقل صاحبه المروي عنه ، أو لاختلاف مّا ، أو غير ذلك من غرض سَديد .

الباب الثاني

في إلقاء الأندلس للمسلمين بالقياد ، وفتحها على يد موسى بن نُصَير ومولاه طارق بن زياد ، وصيرورتها ميداناً لِسَبْق الجياد ، ومحطَّ رَحْل الارتباء[1] والارتياد ، وما يتبع ذلك من خبر حصل بازديانه ازدياد ، ونبإ وصل إليه اعتيام وتقرر بمثله اعتياد

اعلم أنّه لما قضى الله سبحانه بتحقيق قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم : « زُوِيَتْ لي مشارق الأرض ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمّتي ما زوي لي منها » وقع الخلافُ بين لُذَرِيقَ ملكِ القُوط وبين ملك سَبْتة الذي على مجاز الزُّقاق ، فكان ما يُذكر من فتح الأندلس على يد طارق وطَرِيف ومولاهما الأمير موسى ابن نُصَير ، رحم الله الجميع .

* * *

[أخبار الفتح حسب مختلف الروايات]

وذكر الحجاري وابنُ حيّان وغيرُهما أن أوّل مَنْ دخل جزيرة الأندلس من المسلمين برسم الجهاد طريفٌ البربريُّ مولى موسى بن نُصَير الذي تُنسب إليه جزيرةُ طريف التي على المجاز ، غزاها بمَعُونة صاحب سَبْتَةَ يُلْيانَ النصراني ، لحقده على لُذَرِيقَ صاحب الأندلس ، وكان في مائة فارس وأربعمائة راجل ، جاز البحر في أربعة مراكب ، في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ، وانصرف

---

١ في جميع الأصول : الارتياء ، والصواب ما أثبته ، والارتباء : هو تقديم الربيئة أي الطليعة وهو موافق للارتياد .

بغنيمة جليلة ، فعقد موسى بن نُصَير صاحبُ المغرب لمولاه طارق بن زياد على الأندلس ، ووجَّهه مع يُلْيان صاحب سَبْتة ، انتهى .

وسيأتي في أمر طريف وغيره ما يخالف هذا السياق [1] ، وهي أقوال .

وقال ابن حيّان : إن أول أسباب فتح الأندلس كان أن ولّى الوليدُ بن عبد الملك موسى بنَ نُصَير مولى عمّه عبد العزيز على إفريقية وما خَلْفَها سنة ثمان وثمانين فخرج في نفر قليل من المُطوّعة ، فلمّا ورد مصر أخرج معه من جندها بعثاً ،وفعل ذلك في إفريقية ، وجعل على مقدمته مولاه طارقاً ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مَداائنهم ، حتّى بلغ مدينة طَنْجة ، وهي قصبة بلادهم وأم مدائنهم ، فحصرها حتّى فتحها ، وأسلم أهلُها ، ولم تكن فُتحت قبله ، وقيل : بل فُتحت ثم استغلقت .

وذكر ابن حيّان أيضاً استصعاب سَبْتة على موسى بتدبير صاحبها الداهية الشجاع يُلْيان النصراني ، وأنّه في أثناء ذلك وقع بينه وبين لُذَريق صاحب الأندلس ، ثم سرد ما يأتي ذكره .

وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله : وحديثُ الفتح ، وما مَنّ الله به على الإسلام من المنح ، وأخبار ما أفاء الله من الخير ، على موسى بن نُصَير ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ، مملول قُصَّاص وأوراق ، وحديث أفول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ، وعَظْم امتشاش ، وآلة معلّقة في دكان قَشّاش ، انتهى .

وقال في المغرب : طارق بن زياد من إفريقية .

وقال ابن بَشْكُوال : إنّه طارق بن عمرو ، فتح جزيرة الأندلس ودوّخها ، وإليه يُنسب جبل طارق الذي يعرفه العامة بجبل الفتح ، في قِبلة الجزيرة الخضراء ، ورحل مع سيّده بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره ، انتهى .

---

١ ك : الانسياق .

وقال أيضاً : إن طارقاً كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كَتْبه . وأما المعارف السلطانيّة فيكفيه ولاية سلطنة الأندلس وما فتح فيها من البلاد إلى أن وصل سيده موسى بن نُصير .

ومن تاريخ ابن بَشْكُوال : احتلّ طارق بالجبل المنسوب إليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين في اثني عشر ألفاً غير اثني عشر رجلاً من البربر ، ولم يكن فيهم من العرب إلاّ شيء يسير . وإنّه لما ركب البحر رأى وهو نائم النبيّ . صلّى الله عليه وسلّم ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القِسِيّ ، فيقول له رسول الله . صلّى الله عليه وسلّم : يا طارق . تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه . فهبّ من نومه مستبشراً . وبَشّر أصحابه . وثابَتْ نفسُه ببشراه . ولم يشكّ في الظفر . فخرج من الجبل . واقتحم بسيط البلد شانّاً للغارة . وأصاب عجوزاً من أهل الجزيرة فقالت له في بعض قولها : إنّه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدّثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا فيغلب عليه ، ويصف من نعته أنّه ضَخْم الهامة . فأنت كذلك ، ومنها أن في كتفه اليسرى شامة عليها شَعَر ، فإن كانت فيك فأنت هو . فكشف ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرت . فاستبشر بذلك ومَنْ معه .

ومن تاريخ ابن حيّان : لما حرّض يُلْيانُ النصرانيُّ صاحبُ سَبْتة ، للأمر الذي وقع بينه وبين صاحب الأندلس ، موسى بنَ نُصَير على غزو الأندلس جهز لها مولاه طارقاً المذكور في سبعة آلاف من المسلمين ، جُلّهم من البربر ، في أربع سفن ، وحط بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين ، ولم تزل المراكب تعود حتى توافى جميعُ أصحابه عنده بالجبل . قال : ووقع على لُذَريق صاحب الأندلس الخبرُ . وأن يُلْيان السبب فيه ، وكان يومئذ غازياً في جهة البُشْكَنس . فبادر في جموعه وهم نحو مائة ألف ذوي عَدَدٍ وعُدّة[1] ،

[1] ك : عدة وعدد .

وكتب طارق إلى موسى بأنّه قد زحف إليه[1] لُذَريق بما لا طاقة له به ، وكان عمل من السفن عِدّة ، فجهّز له فيها خمسة آلاف من المسلمين ، فكملوا بمن تقدّم اثني عشر ألفاً ، ومعهم يُلْيانُ صاحبُ سَبْتة في حَشْده يدلّهم على العَوْرات ، ويتجسّس لهم الأخبار ، وأقبل نحوهم لُذَريق ومعه خيار العجم وأملاكها وفرسانها ، وقلوبهم عليه ، فتلاقوا فيما بينهم ، وقالوا : إن هذا الخبيث غلب على سلطاننا ، وليس من بيت الملك ، وإنّما كان من أتباعنا ، ولسنا نعدم من سيرته خَبالاً واضطراباً ، وهؤلاء القوم الذين طرّقوا لا حاجة لهم في إيطان بلدنا ، وإنّما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنّا ، فهلمّ فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم ، فلعلهم يكفوننا أمره ، فإذا هم انصرفوا عنّا أقعدنا في ملكنا مَنْ يستحقّه ، فأجمعوا على ذلك ، انتهى .

وقال ابن خلدون[2] — بعد ذكره أن القوطيين كان لهم ملك الأندلس ، وأن مَلِكهم لعهد الفتح يسمى لُذَريق — ما نصّه : « وكانت لهم خَطْوة وراء البحر في هذه العُدْوة الجنوبية خَطَوْها من فُرْضة المجاز بطَنْجة ، ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر ، واستعبدوهم ، وكان ملك البرابرة بذلك القطر الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى يُلْيان ، فكان يَدِينُ بطاعتهم وبملّتهم ، وموسى بن نُصَير أمير المغرب[3] إذ ذاك عامل على إفريقية من قِبَل الوليد بن عبد الملك ، ومنزلُه بالقَيْروان ، وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ، ودَوّخ أقطاره ، وأثخن[4] في جبال طَنْجة هذه حتى وصل خليج الزّقاق ، واستنزل يُلْيان لطاعة الإسلام ، وخلف مولاه طارق بن زياد الليثي والياً بطَنْجة ، وكان يُلْيان ينقم على لذريق ملكِ القوط لعهده بالأندلس فعلةً فعلها زعموا

---

١ ك : زحف عليه .
٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١١٧ .
٣ ابن خلدون و ق : أمير العرب .
٤ ابن خلدون : وأوغل .

بابنته الناشئة في داره على عادتهم في بنات بطارقتهم ، فغضب لذلك ، وأجاز إلى لذريق ، وأخذ ابنته منه ، ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورةَ القوط ودلّهم على عورة[1] فيهم أمكنت طارقاً فيها الفرصةُ فانتهزها لوقته ، وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نُصَيْر في نحو ثلثمائة من العرب ، واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف ، فصيرهم عسكرين : أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح ، فسمّي جبل طارق به ، والآخر على طريف بن مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طريف ، فسمّي به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصّن ، وبلغ الخبرُ إلى لُذَرِيقَ فنهض إليهم يجرّ أمم الأعاجم وأهلِ ملّة النصرانية في زُهاء أربعين ألفاً ، وزحفوا إليه ، فالتقوا بفَحْص شَرِيشَ ، فهزمه الله ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم ، وكتب طارق إلى موسى بن نُصَيْر بالفتح وبالغنائم ، فحركته الغيرة ، وكتب إلى طارق يتوعّده إن توغّل بغير إذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، واستخلف على القَيْرَوَان ولدَه عبدَ الله ، وخرج ومعه حبيب بن أبي عبيدة[2] الفهري ، ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم من وجوه العرب الموالي[3] وعُرَفاء البربر ، ووافى خليج الزُّقاق ما بين طَنْجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز إلى الأندلس ، وتلقّاه طارق فانقاد واتبع ، وأتمّ موسى الفتحَ ، وتوغّل في الأندلس إلى بَرْشِلُونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف، وصنم قادس في الغرب ، ودوّخ أقطارها ، وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دُروبه ودُروب الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحماً

....

١ ابن خلدون : غرة .

٢ كذا في دوزي ؛ وفي ق : حبيب بن سعيدة ؛ وفي ك : حبيب بن مندة؛ وفي ط : بن بندة؛ وفي ج : ميدة ؛ وفي ابن خلدون : حسين بن أبي عبد الله المهدي الفهري .

٣ ج ودوزي : والموالي .

لهم . إلى أن يلحق بدار الخلافة ، ونمي الخبر إلى الوليد فاشتدّ قَلَقُه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنّ ما همّ به موسى غَرَرٌ بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع [1] ، وكتب له بذلك عهده ، ففتّ ذلك في عَزْم موسى ، وقَفَل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها ، وأنزل ابنه عبدَ العزيز لسدّها وجهاد عدوّها [2] ، وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة . واحتلّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين ، وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العَجَل والظَّهْر ، يقال : إن من جملتها ثلاثين ألفَ رأسٍ من السبي ، وولّى على إفريقية ابنَه عبدَ الله ، وقدم على سليمان بن عبد الملك فسَخِطَه ونَكَبَه ، وثارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز بإغراء سليمان فقتلوه لسنتين من ولايته ، وكان خيّراً فاضلاً ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة ، ووليَ من بعده أيوبُ بن حبيب اللخمي ، وهو ابن أخت موسى بن نُصَير ، فوليَ عليها ستة أشهر ، ثم تتابعت وُلاةُ العرب على الأندلس : تارة من قبل الخليفة ، وتارة من قبل عامله بالقَيروان ، وأثخنوا في أمم الكفر ، وافتتحوا بَرْشِلُونة من جهة المشرق ، وحصون قَشْتالة وبسائطها من جهة الجوف ، وانقرضت أمم القُوطِ ، وأرز [3] الجلالقةُ ومَنْ بقي من أمم العجم إلى جبال قَشْتالة وأرْبُونة وأفواه الدُّروب فتحصّنوا بها ، وأجازت عساكر المسلمين ما وراء بَرْشلونة من دروب الجزيرة حتى احتَلّوا البسائط وراءها ، وتوغّلوا في بلاد الفرنجة ، وعصفت ريح الإسلام بأمم الكفر من كل جهة ، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلافٌ وتَنازعٌ أوجَدَ للعدو بعضَ الكَرَّة ، فرجع الإفرنجُ ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد بَرْشلونة لعهد ثمانين

١ ابن خلدون . إن لم يرجع هو .
٢ ابن خلدون . لغزوها وجهاد أعدائها .
٣ ك : وأوى ؛ وأرز بمعنى لجأ وأوى .

سنة من لدن فتحها ، واستمر الأمر على ذلك » .

« وكان محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك – لما بلغه مَهْلِكُ عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر – بعث إلى الأندلس الحرَّ بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فقدم الأندلس ، وعزَل أيوبَ بن حبيب ، ووليَ سنتين وثمانية أشهر » .

« ثمَّ بعث عمرُ بن عبد العزيز على الأندلس السَّمْحَ بن مالك الخوْلاني على رأس المائة من الهجرة ، وأمرهُ أن يخمس أرضَ الأندلس ، فخمسها وبنى قنطرة قرطبة ، واستُشهد غازياً بأرض الفرنجة سنة ثنتين ومائة ، فقدّم أهل الأندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي إلى أن قدم عَنْبَسَةُ بن سُحَيم الكلبي من قِبَل يزيد بن أبي مسلم عامل إفريقية ، فقدمها في صفر سنة ثلاث ومائة ، فاستقام أمر الأندلس ، وغزا الفرنجة ، وتوغّل في بلادهم ، واستُشهد سنة سبع ومائة لأربع سنين وأربعة أشهر » .

« ثم تتابعت وُلاةُ الأندلس من قِبَل أمراء إفريقية : فكان أولهم يحيى بن سلمة الكلبي ، أنفذه بِشْرُ بن صَفْوان الكلبي والي إفريقية ، لمّا استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عَنْبَسَة ، فقدمها آخر سنة سبع ، وأقام في ولايتها سنتين ونصفاً ، ولم يغزُ ، وقدم إليها عثمان بن أبي نسعة الخثعمي [1] والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السُّلَمي صاحب إفريقية ، وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص القيسي فوافاها سنة عشر ، وعُزِل قريباً يقال : لسنة من ولايته ، واختلف : هل تقدّمه عثمان أو هو تقدّم عثمان ؛ ثمَّ وليَ بعده الهيثم بن عبيد الكلابي من قبل عُبَيدة بن عبد الرحمن أيضاً ، قدم في المحرم سنة إحدى عشرة ، وغزا أرض مَقوشة [2] فافتتحها وتوفّي سنة ثلاث عشرة ومائة لسنتين من ولايته ، وقدم بعده محمد بن عبد الله الأشجعي ، فوليَ شهرين ، ثمَّ قدم عبد الرحمن بن

. . . .

١ اللخمي في جميع النسخ .

٢ كذا في الأصول وابن خلدون ، ويبدو أن صوابه : « منوسة » كما في دوزي .

عبد الله الغافقي من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية ، فدخلها سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجة ، وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة ، في موضع يُعرف ببلاط الشهداء ، وبه عُرفت الغزوة ، وكانت ولايته سنة وثمانية أشهر ، ثم ولي عبدُ الملك بن قَطَن الفِهْري ، وقدم في رمضان سنة أربع عشرة فولي سنتين — وقال الواقدي : أربع سنين — وكان ظلوماً جائراً في حكومته ، وغزا أرض البُشْكَنْس سنة خمس عشرة ومائة ، فأوقع بهم وغنم ، ثم عُزل في رمضان سنة ست عشرة ، وولي عُقْبَةُ بن الحجاج السَّلُولي من قبل عُبَيْد الله بن الحبحاب ، فأقام خمس سنين محمودَ السيرة مجاهداً مظفَّراً ، حتى بلغ سكنى المسلمين أرْبُونة ، وصار رِباطُهم على نهر رودنة[1] ، ثمّ وثب عليه عبد الملك بن قَطَن الفهري سَنَةَ إحدى وعشرين ، فخلعه وقتله ، ويقال : أخرجه من الأندلس وولي مكانه إلى أن دخل بَلجُ بن بشر بأهل الشام سنة أربع وعشرين ، فغلب عليه ، وولي الأندلس سنة أو نحوها » .

« وقال الرازي : ثار أهل الأندلس بأميرهم عُقْبة في صفر سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا عليهم عبد الملك بن قَطَن ولايتَه الثانية ، فكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفّي بقرقشونة[2] في صفر سنة ثلاث وعشرين ، واستقام الأمر لعبد الملك ، ثم دخل بَلْجُ بن بشر القُشَيري بجند الشام ناجياً من وَقْعة كلثوم بن عياض مع البربر بملوية[3] ، فثار على عبد الملك ، وقتله وهو ابن سبعين سنة ، واستوثق له الأمر بعد مقتل عبد الملك ، وانحاز الفِهْريون إلى جانب ، فامتنعوا عليه ، وكاشفوه ، واجتمع إليهم مَنْ أنكر فعلته بابن قَطَن ، وقام بأمرهم قَطَن وأميّة ابنا عبد الملك بن قَطَن ،

---

١ في الأصول (حيثما وقع) وابن خلدون : ردونة ، والتصويب عن دوزي .

٢ ك : بقرمونة وفي ق : بقرشونة .

٣ يريد انتصار البربر على العرب عند بليدة بقدورة (أو نقدورة) على مقربة من تاهرت ، وكان العرب بقيادة كلثوم بن عياض القشيري .

والتقوا فكانت الدائرة على الفهريين وهلك بَلْجٌ من الجراح التي نالته في حربهم ، وذلك سنة أربع وعشرين لسنة أو نحوها من إمارته ، ثم ولي ثعلبة بن سلامة الجُذامي ، وغلب على إمارة الأندلس بعد مَهْلك بلج ، وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه ، وولي سنتين أظهر فيهما العدل ودانت له الأندلس عشرة أشهر ، إلى أن مالت به العصبية في يمانيته ، ففسد أمره ، وهاجت الفتنة ، وقدم أبو الخطّار حُسام بن ضِرار الكلبي من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية ، ركب إليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين ، فدانَ له أهل الأندلس وأقبل إليه ثعلبة وابن أبي نسعة وابنا عبد الملك ، فلقيهم وأحسن إليهم ، واستقام أمره ، وكان شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم ، وكَثُرَ أهل الشام عنده ، ولم تحملهم قرطبة ، ففرقهم في البلاد ، وأنزل أهل دمشق إلبيرة لشبهها بها ، وسمّاها دمشق ، وأنزل أهل حمص إشبيلية ، وسمّاها حمص ، وأهلَ قنسرين جيّان ، وسمّاها قنسرين، وأهل الأرْدُنّ رية ومالقة[1] ، وسمّاهما الأرْدُنّ ، وأهلَ فلسطين شَذُونة — وهي شَريشُ — وسمّاها فلسطين ، وأهلَ مصر تُدْميرَ ، وسمّاها مصر ، وقفَل ثعلبةُ إلى المشرق ، ولحق بمَرْوان بن محمد ، وحضر حروبه ، وكان أبو الخطار أعرابيّاً عصبيّاً أفرط عند ولايته في التعصب لقومه من اليمانية ، وتحامل على المضرية ، وأسخط قَيْساً ، وأمر في بعض الأيّام بالصُّميل بن حاتم كبير القَيْسية — وكان من طوالع بلج ، وهو الصميل بن حاتم بن شَمِر بن ذي الجوشن ورأسَ على المضرية — فأقيم من مجلسه ، وتقنع ، فقال له بعض الحجّاب وهو خارج من القصر : أقم عمامتك يا أبا الجوشن ، فقال : إن كان لي قوم فسيقيمونها ، فسار الصميل بن حاتم أميرهم يومئذ وزعيمهم ، وألبَّ عليه قومَه ، واستعان بالمنحرفين عنه من اليمانية ، فخُلع أبو الخطار سنة ثمان وعشرين لأربع سنين وتسعة أشهر من ولايته ، وقدم مكانه ثَوَابة بن سلامة الجُذامي ،

. . . .

١ دوزي : وهي مالقة .

وهاجت الحرب المشهورة ، وخاطبوا بذلك عبدَ الرحمن بن حبيب صاحب إفريقية ، فكتب إلى ثوابة بعهده على الأندلس مُنْسَلَخَ رجب سنة تسع وعشرين ، فضبط الأندلس ، وقام بأمره الصُّميل ، واجتمع عليه الفريقان ، وهلك لسنة من ولايته ، ووقع الخلاف بإفريقية والتاث أمر بني أميّة بالمشرق ، وشغلوا عن قاصيةِ الثغور بكثرة الخوارج ، وعظم أمر المسوِّدة فبقي أهل الأندلس فَوْضَى ، ونصبوا للأحكام خاصّة عبدَ الرحمن بن كثير ، ثمَّ اتفق جندُ الأندلس على اقتسام الإمارة بين المضرية واليمانية وإدالتها بين الجندين سنةً لكل دولة ، وقدّم المضريّةُ على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري سنة تسع وعشرين ، واستتمّ سنةَ ولايتهِ بقرطبة دار الإمارة ، ثم وافته اليمانية لميعاد إدالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم ، فبيّتهم يوسفُ بمكان نزولهم في شَقَنْدَةَ من قرى قُرْطُبة بممالأة من الصُّميل بن حاتم والقيسية وسائر المضريّة ، فاستلحموهم ، وثار أبو الخطار فقاتله الصُّميل وهزمه وقتله سنة تسع وعشرين ، واستبدّ يوسفُ بما وراء البحر من عُدْوَة الأندلس . وغلب اليمنية على أمرهم ، فاستكانوا لِغَلَبهِ ، وتربّصُوا الدوائر إلى أن جاء عبدُ الرحمن الداخل . وكان يوسف ولّى الصُّميل سَرَقُسْطة ، فلما ظهر أمرُ المسوِّدة بالمشرق ثار الحُباب الزهري بالأندلس داعياً لهم ، وحاصر الصميلَ بسَرَقُسْطة ، واستمد يوسف ، فلم يمده رجاء هلاكه لما كان يغصّ به ، وأمدته القيسية ، فأفرج عنه الحبابُ ، وفارق الصميل سَرَقُسْطة فملكها الحباب ، وولى يوسف الصميل على طليطلة إلى أن كان من عبد الرحمن الداخل ما كان » . انتهى كلام وليّ الدين بن خلدون ببعض اختصار .

وقال بعضُ المؤرخين [1] : إن عبد الله بن مَرْوَان أخا عبد الملك كان والياً على مصر وإفريقية ، فبعث إليه ابنُ أخيه الوليدُ الخليفةُ يأمره بإرسال موسى

. . . . .

[1] انظر ابن خلكان : ٤ : ٤٠٢ .

ابن نُصَير إلى إفريقية ، وذلك سنة سبع وثمانين للهجرة[1] ، فامتثل أمره في ذلك .

وقال الحميديّ في « جذوة المقتبس »[2] : إن موسى بن نُصَير ولي إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين فقدمها ومعه جماعة من الجند ، فبلغه أن بأطراف البلاد مَنْ هو خارج عن الطاعة ، فوجّه ولده عبد الله ، فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا ، ثم ولده مروان إلى جهة أخرى ، فأتاه بمائة ألف رأس ، وقال الليث بن سعْد : بلغ الخمس ستين ألف رأس ، وقال الصَّدفي : لم يُسمع في الإسلام بمثل سبَايا موسى بن نُصَير ، ووجد أكثر مدن إفريقية خاليةً لاختلاف أيدي البربر عليها . وكانت البلاد في قَحْط شديد ، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البَيْن ، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ، وفرق بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والصّراخ والضجيج ، وأقام على ذلك إلى مُنْتَصَفِ النهار ، ثمّ صلى وخطب الناسَ ولم يذكر الوليدَ بن عبد الملك ، فقيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ فقال : هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى ، فسُقوا حتى رَوُوا ثمّ خرج مُوسَى غازياً ، وتتبع البربر ، وقتل فيهم قتلاً ذَريعاً ، وسبى سَبْياً عظيماً . وسار حتى انتهى إلى السُّوس الأدنى لا يُدافعه أحد ، فلمّا رأى بقيةُ البربر ما نزل بهم استأمنوا ، وبَذَلُوا له الطاعة فقبل منهم ، وولّى عليهم والياً . واستعمل على طَنْجة وأعمالها مولاه طارقَ بن زياد البربري . ويقال : إنّه من الصَّدِفِ ، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعُدّة الكاملة . وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى عندهم خَلْقاً يسيراً من العرب ليُعَلّموا البربر القرآن وفرائض الإسلام ، ورجع إلى إفريقية . ولم يبقَ بالبلاد مَنْ يُنازِعه من البربر ولا من الروم . ولمّا استقرّت له القواعد كتب إلى طارق وهو بطَنْجة يأمره بغَزْو بلاد الأندلس . فغزاها في اثني عشر ألفاً من البربر خلا اثني عشر رجلاً ، وصعد على الجبل المنسوب إليه

١ ابن خلكان : تسع وثمانين .

٢ نقل ابن خلكان هذا النص ، وفي الجذوة : ٣١٧ أنه وليها سنة تسع وسبعين .

يوم الاثنين خامس رجب سنة اثنتين وتسعين ، وذكر عن طارق أنّه كان نائماً في المركب وقت التعدية ، فرأى النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد ، هكذا ذكر ابن بَشْكُوال .

وقيل : إن موسى ندم على تأخّره ، وعلم أن طارقاً إن فتح شيئاً نُسب الفتح إليه دونه ، فأخذ في جمع العساكر ، وولّى على القيروان ابنَه عبدَ الله ، وتبع طارقاً فلم يدركه إلاّ بعد الفتح . وقال بعض العلماء : إن موسى بن نُصَيْر كان عاقلاً شجاعاً كريماً تقيّاً لله تعالى ، ولم يُهزم له قَطُّ جيش ، وكان والده نُصَيْر على جُيوش[1] معاوية ، ومنزلته لديه مكينة ، ولمّا خرج معاويةُ لصفين لم يخرج معه ، فقال له : ما منعك من الخروج معي ولي عندك يدٌ لم تكافئني عليها ؟ فقال : لم يمكني أن أشكرك بكفري مَنْ هو أولى بشكري منك ، فقال : من هو ؟ فقال : الله عزّ وجلّ ، فأطرق مليّاً ثم قال : أستغفر الله ، ورضي عنه .

رجع إلى حديث طارق — قال بعض المؤرخين[2] : «كان لُذَريق ملك الأندلس استخلف عليها شخصاً يقال له تُدْمير ، وإليه تُنسب تُدْمير بالأندلس ، فلمّا نزل طارق من الجبل كتب تُدْمير إلى لُذَريق : إنّه قد نزل بأرضنا قومٌ لا ندري أمِنَ السماء هم أم من الأرض ، فلمّا بلغ لُذَريقَ ذلك — وكان قصد بعض الجهات البعيدة لغَزْوٍ له في بعض أعدائه — رجع عن مقصده في سبعين ألفَ فارسٍ ، ومعه العَجَل تحمل الأموال والمتاع ، وهو على سريره بين دابتين ، وعليه مِظَلّة مكللة بالدرّ والياقوت والزبرجد . فلمّا بلغ طارقاً دنوُّه قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ حثّ المسلمين على الجهاد ، ورغّبهم ثم قال : أيّها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدوُّ أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضْيَعُ

---

١ ابن خلكان : على حرس .

٢ عود إلى النقل عن ابن خلكان بشيء من التصرف ، وانظر الإمامة والسياسة (ملحق ابن القوطية : ١٣٧) .

من الأيتام ، في مأدُبَة اللئام ، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواتُهُ موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلاّ مـا تستخلصونه من أيدي عدوّكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم ، وتعوّضت القلوب من رُعْبها منكم الجراءةَ عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمُناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينتُهُ الحصينة ، وإنّ انتهاز الفُرْصَة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنّي لم أحذّركم أمراً أنا عنه بنَجْوة ، ولا حملتكم على خُطة أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ [إلاّ وأنا][1] أبدأ بنفسي ، واعلموا أنّكم إن صَبرتم على الأشقّ قليلاً ، استمتعتم بالأرْفَه الألذّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حَظّكم فيه بأوفى من حظّي ، وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحورِ الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمَرْجان ، والحُلَل المنسوجة بالعقْيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُرْبانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة صهاراً وأختانا ، ثقةً منه بارتياحكم للطّعان ، واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفُرْسان ، ليكون حظّه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَغْنَمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وليٌّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين ، واعلموا أنّي أوّل مجيبٍ إلى ما دعوتكم إليه ، وأنّي عند مُلْتَقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لُذَريق فقاتِلُه إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يُعْوزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخْذلون » .

« فلمّا فرغ من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لُذَرِيقَ وأصحابه وما

[1] زيادة من ابن خلكان .

وعدهم من الخير الجزيل انبسَطَتْ نفوسُهم ، وتحققت آمالهم ، وهبّت رياحُ النصر عليهم ، وقالوا له : قد قطعنا الآمال ممّا يخالِفُ ما عزمتَ عليه ، فاحضر إليه فإنّنا معك وبين يديك ، فركب وأصحابُهُ فباتوا ليلتهم في حَرَس إلى الصبح ، فلمّا أصبح الفريقان تكتّبوا وعبّوا جيوشهم ، وحُمل لُذَريقُ وهو على سريره ؛ وقد حُمل على رأسه رواقُ ديباج يظلّله ، وهو مُقبل في غابة من البنود والأعلام ، وبين يديه المقاتلة والسلاح ، وأقبل طارق في أصحابه عليهم الزَّرَدُ ، من فوق رؤوسهم العمائم البيض ، وبأيديهم القِسِيّ العربية ، وقد تقلّدوا السيوف ، واعتقلوا الرماح ، فلمّا نظر إليهم لُذَرِيق حلف وقال : إن هذه الصور هي التي رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا ، فداخلَه منهم الرُّعْبُ ، فلمّا رأى طارق لُذَرِيق قال : هذا طاغية القوم ، فحمل وحمل أصحابه معه ، فتفرقت المقاتلة من بين يدي لُذَريق ، فخلص إليه طارق فضربه بالسيف على رأسه ، فقتله على سريره ، فلمّا رأى أصحابُه مصرعَ صاحبهم اقتحم الجيشان ، وكان النصر للمسلمين ، ولم تقف هزيمة العدو على موضع ، بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومَعْقِلاً معقلاً » .

« ولمّا سمع موسى بن نُصَير بما حصل من النصرة لطارق عَبَر الجزيرة بمن معه ، ولحق بمولاه طارق ، فقال له : يا طارق ، إنّه لن يجازيك الوليدُ بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك [1] الأندلس ، فاستبِحْهُ هنيئاً مريئاً ، فقال له طارق : أيّها الأمير ، والله لا أرجع عن قَصْدي هذا ، ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي ، يعني البحر الشمالي الذي تحت بنات نعش ، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه إلى أن بلغ إلى جِلّيقيّةَ وهي ساحل البحر المحيط » ، انتهى .

وقال الحافظ الحميدي في كتابه « جذوة المقتبس » [2] : « إن موسى بن نُصَير

---

١ ابن خلكان : يبيحك .

٢ انظر هذا النص في الجذوة – ترجمة طارق بن زياد : ٢٣٠ وقد نقله ابن خلكان أيضاً .

نَقَمَ على مولاه طارقٍ إذ غزا بغير إذنه ، وَهَمّ بقتله ، ثم ورد عليه كتاب الوليد بإطلاقه ، فأطلقه وخرج معه إلى الشام » انتهى .

* * *

[خبر بيت الحكمة بالأندلس]

« وقولُ لُذريق : إن هذه الصور هي التي رأيناها في بيت الحكمة إلخ » أشار به إلى بيت حكمة اليونان ، وكان من خبره[1] — فيما حكى بعض علماء التاريخ — أن اليونان ، وهم الطائفة المشهورة بالحكم ، كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الإسكندر ، فلمّا ظهرت الفرسُ ، واستولت على البلاد ، وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك ، انتقَلَ اليونان إلى جزيرة الأندلس ، لكونها طرفاً في آخر العمارة ، ولم يكن لها ذكر إذ ذاك ، ولا مَلَكَها أحدٌ من الملوك المعتبرة ولم تكُ عامرة ، وكان أوّلَ من عَمّر فيها واختطّها أندلسُ بن يافث بن نوح عليه السلام ، فسميت باسمه ، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة منها عندهم على شكل طائر رأسُه المشرق ، والجنوب والشمال رجلاه ، وما بينهما بطنه ، والمغربُ ذَنَبُه ، وكانوا يزدَرُونَ المغربَ لنسبته إلى أخسّ أجزاء الطير . وكانت اليونان لا ترى فَناء الأمم بالحروب لما فيها من الأضرار والاشتغال عن العلوم التي كان الاشتغال بها عندهم من أهم الأمور ، فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس إلى الأندلس ، فلمّا صاروا إليها أقبلوا على عمارتها ، فشقّوا الأنهار ، وبَنَوا المعاقل ، وغرسوا الجنّات والكروم ، وشيّدوا الأمصار ، وملؤوها حرثاً ونسلاً وبنياناً ، فعظمت وطابت ، حتى قال قائلهم لما رأى بَهْجتها : إن الطائر الذي صُوّرت هذه العمارة على شكله وكان المغرب ذنبه كان طاووساً معظمُ جماله في ذنبه » .

وحكي أن الرشيد هرونَ — رحمه الله — لمّا حضر بين يديه بعضُ أهل

---

1 عاد إلى النقل عن ابن خلكان ٤ : ٤٠٦ .

المغرب قال الرشيد : يقال : إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب ، فقال الرجل : صدقوا يا أمير المؤمنين ، وإنّه طاووس ، فضحك أمير المؤمنين الرشيد ، وتعَجّب من سُرْعة جواب الرجل وانتصاره لقطره .

رجع – قال[1] : « فاغتبط اليونان بالأندلس أتمّ اغتباط ، واتخذوا دار الحكمة والملك بها طُلَيْطلة لأنها أوسط البلاد ، وكان أهمّ الأمور عندهم تحصينها عمّن يتصل به خبرها من الأمم ، فنظروا فإذا هو أنّه لا يحسدهم على رَغَد العيش إلا أرباب الشّظَف والشقاء والتعب ، وهم يومئذ طائفتان : العرب ، والبربر ، فخافوهم على جزيرتهم العامرة ، فعزموا على أن يتّخذوا لهذين الجنسين من الناس طِلّسْماً ، فرصدوا لذلك أرصاداً ، ولمّا كان البربر بالقرب منهم وليس [بينهم] سوى تعدية البحر ويَرِدُ عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع ، خارجة عن الأوضاع ، ازدادوا منهم نفوراً ، وكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة ، حتى ثبت ذلك في طباعهم ، وصار بعضه مركّباً في غرائزهم ، فلمّا علم البربر عَداوَة أهل الأندلس وبُغْضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم ، فلم تجد أندلسيّاً إلا مبغضاً بربريّاً ، وبالعكس ، إلاّ أن البربر أحوجُ إلى أهل الأندلس ، لوجود بعض الأشياء عندهم وفَقْدها ببلاد البربر » .

« وكان بنَواحي غرب الأندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها « قادس » وكانت له ابنة في غاية الجمال ، فتسامع بها ملوكُ الأندلس ، وكانت الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة أو بلدتين ملك ، فخطبوها ، وخشي أبوها إن زوّجها من واحد أسخط الباقين ، فتحير ، وأحضر ابنته ، وكانت الحكمة مركّبة في طباع القوم ذكورِهم وإناثهم ، ولذا قيل : إن الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهلِ الأرض : أدمغة اليونان ، وأيدي أهل الصين ، وألسنة العرب ؛ فقال لها : يا بُنَيّة ، إنّي أصبحت على حَيْرة في أمرك ممّن يخطبك

[1] يعني ابن خلكان .

من الملوك ، وما أرضيت واحداً إلا أسخطت الباقين ، فقالت له : اجْعَلِ الأمرَ إليَّ تخلُصْ ، فقال : وما تقترحين ؟ فقالت : أن يكون ملكاً حكيماً ، فقال : نِعم ما اخترتِـهِ لنفسك . فكتب في أجوبة الملوك الخُطّاب ، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم ، فلمّا وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيماً ، وكان في الملوك الخاطبين حكيمان ، فكتب كل واحد منهما : أنا الملك الحكيم ، فلمّا وقف على كتابيهما قال لها : يا بنية ، بقي الأمر على إشكال ، وهذان ملكان حكيمان ، أيّهُما أرضيتِ أسخطت الآخر ، فقالت : سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتي به ، فأيهما سبق إلى الفراغِ ممّا التمستُ كنت زوجته ، قال : وما الذي تقترحين عليهما ؟ قالت : إنّا ساكنون بهذه الجزيرة ، ومحتاجون إلى أرحِيٍّ تدور بها ، وإنّي مقترحة على أحدهما إدارتَها بالماء العَذب الجاري إليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر أن يتخذ لي طِلّسْماً نحصّن به جزيرة الأندلس من البربر . فاستظرف أبوها ذلك ، وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته ، فأجاباه إلى ذلك ، وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحد منهما في عمل ما أسند إليه من ذلك » .

« فأمّا صاحب الرُّحِيِّ فإنّه عمد إلى أشكال اتخذها من الحجارة تَضّد بعضها إلى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الأندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزُقاق سَبْتَةَ . وسدّد الفُرَج التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة ، وآثارهُ باقيةٌ إلى اليوم في الزُّقاق الذي بين سَبْتة والجزيرة الخضراء — وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قَنْطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبُرَ عليها الناسُ من سَبْتة إلى الجزيرة ، والله أعلم أي القولين أصح ، غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثاني — فلمّا تم تنضيدُ الحجارة للملك الحكيم جَلَبَ الماء العذب من جبل عالٍ في البر الكبير وسلّطه من ساقية محكمة وبنى بجزيرة الأندلس رَحًى على هذه الساقية » .

« وأمّا صاحب الطِّلّسْم فإنّه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصَد الموافق لعمله ،

غير أنّه عمل أمره ، وأحكمه ، وابتنى بنياناً مربعاً من حجر أبيض على ساحل البحر في رملٍ عالجٍ حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت ، فلمّا انتهى البناء المربّع إلى حيث اختار صَوَّر من النحاس الأحمر والحديد المصفّى المخلوطين بأحكم الخلط صورةَ رجلٍ بربري ، وله لحية ، وفي رأسه ذؤابة من شعر جَعْد قائمة في رأسه لجعودتها ، وهو متأبط بصورة كساء قد جَمَع طَرَفيه على يده اليسرى بألطف تصنوير وأحكمه ، في رجله نَعْل ، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف[1] بمقدار رجليه فقط ، وهو شاهق في الهواء ، طولُه نيّفٌ عن ستين أو سبعين ذراعاً ، وهو محدود[2] الأعلى ، إلى أن ينتهي ما سَعَته قدرُ ذراع ، وقد مدّ يده اليمنى بمفتاح قُفْل قابضاً[3] عليه مشيراً إلى البحر كأنّه يقول : لا عبور ، وكان من تأثير هذا الطّلّسْم في البحر الذي تجاهه أنّه لم يُرَ قَطُّ ساكناً ولا كانت تجري فيه قَطُّ سفينة ببربر حتى[4] سقط المفتاح من يده . وكان الملكان اللذان عملا الرُّحيّ والطلسم يتسابقان إلى فراغ العمل ، إذ بالسَّبْق يستحق زواج المرأة ، وكان صاحب الرُّحيّ فرغ أولاً لكنّه أخفى أمره عن صاحب الطّلّسْم لئلا يترك عمله فيبطل الطّلّسم ، لتحظى المرأة بالرُّحيّ والطلسم ، فلمّا علم باليوم الذي يَفْرُغ صاحبُ الطلسم في آخره أجرى الماء في الجزيرة من أوّله وأدار الرُّحيّ ، واشتهر ذلك ، فاتصل الخبرُ بصاحب الطلسم وهو في أعلى القبة يَصْقُل وجهه ، وكان الطّلّسْم مذهباً ، فلمّا تحقق أنّه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتاً ، وحصل صاحب الرحيّ على المرأة والرحيّ والطّلّسْم ، وكان مَنْ تقدم من ملوك اليونان يخشى على الأندلس من البربر للسبب الذي قدمنا ذكره ، فاتفقوا وجعلوا الطّلّسْمات في أوقات

---

١ ابن خلكان : مستدق .
٢ ك : محدودب .
٣ في الأصول : قابض .
٤ في الأصول : إلا .

اختاروا أرصادها ، وأودعوا تلك الطّلّسْمات تابوتاً من الرخام ، وتركوه في بيت بطُلَيْطلة ، وركّبوا على ذلك الباب قفلاً تأكيداً لحفظ ذلك البيت ، فاستمر أمرهم على ذلك »[1] .

« ولمّا حان وقتُ انقراض دَوْلة من كان بالأندلس ودخول العرب والبربر إليها ، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطُلَيْطلة ، وكان لُذَرِيقُ المذكور آنفاً هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم ، فلمّا اقتعد أريكة الملك قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأي منهم : قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلاً شيء ، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه ، لأنه لم يُعْمل عبثاً ، فقالوا : أيها الملك، صدقْتَ ، إنه لم يُصنع عبثاً ، ولم يُقفل سُدًى ، والرأي والمصلحة أن تلقي أنت أيضاً عليه قفلاً أسْوَة بمن تقدمك من الملوك ، وكان آباؤك وأجدادك لم يُهْمِلوا هذا فلا تهمله ، وسر سيرهم ، فقال لهم : إن نفسي تُنازعني إلى فَتْحه ، ولا بد لي منه ، فقالوا له : إن كنت تظن أن فيه مالاً فقدّره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ، ولا تُحْدِث علينا بفتحه حادثاً لا نعرف عاقبته ؛ فأصَرَّ على ذلك ، وكان رجلاً مَهيباً ، فلم يقدروا على مراجعته ، وأمر بفتْح الأقفال ، وكان على كل قُفْل مفتاحه معلقاً ، فلمّا فتح الباب لم يرَ في البيت شيئاً إلاّ مائدة عظيمة من ذهب وفضّة مُكَلّلة بالجواهر ، وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، ورأى في البيت ذلك التابوت ، وعليه قُفْل ، ومفتاحه مُعَلّق ، ففتحه ، فلم يجد فيه سوى رَقّ ، وفي جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب ، وعليهم الفِراء ، وهم مُعْتَمّون على ذوائب جُعْد ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وهم متقلدون السيوفَ المحلاّة ، معتقلون الرماح ، فأمر بنشر ذلك الرّق ، فإذا فيه : متى فُتح هذا البيت وهذا

[1] ابن خلكان : وركبوا على ذلك البيت باباً وأقفلوه ، وتقدموا إلى كل من ملك منهم بعد صاحبه أن يلقي على ذلك الباب قفلا . . . الخ .

التابوت المقفلان بالحكمة دخلَ القومُ الذين صُوَرُهم في التابوت إلى جزيرة الأندلس ، وذَهَب ملك مَنْ فيها من أيديهم ، وبطلت حكمتهم ، فلمّا سمع لُذَرِيق ما في الرَّق ندم على ما فعل ، وتحقق انقراضَ دَوْلَتهم ، فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جَهّزه ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس »[1] انتهى .

فهذا هو بيت الحكمة الذي أشار إليه لُذَرِيق ، والله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك كلّه .

على أن في هذا السياق مخالفةً لما سنذكره عن بعض ثقات مؤرخي الأندلس وغيرهم في شأن المائدة وغيرها ، وما ذكر في هذه القصّة من جَلْب الماء من برِّ العُدْوة إلخ . فيه بُعْد عندي ، لأن بلاد الأندلس أكثر بلاد الله مياهاً وأنهاراً ، فأنّى تحتاج إلى جَلْب الماء إليها من العُدْوة الأخرى ؟ إلاّ أن يقال : إن المرأة أرادت تعجيزَ الرجل بذلك ، أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الأمر الغريب ، وعِلْم الله من وراء ذلك كلّه ، وفوق كل ذي علم عليم ، ومنتهى العلم إلى الله الحكيم .

* * *

[عود إلى أخبار الفتح]

وقال ابن حيّان في « المقتبس » : «ذكروا أن لُذَرِيق لم يكن من أبناء الملوك ، ولا بصحيح النسب في القوط ، وأنّه إنما نال الملك من طريق الغصب والتسوّر عندما مات إغطشة[2] الملكُ الذي كان قبله ، وكان أثيراً لديه ، مكيناً ، فاستصغر أولاده لمكانه ، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه ، فانتزع الملك من أولاد إغطشة واستبقاهم ، فكانوا هم الذين دَبّروا عليه — فيما ذكر — عندما لقي

١ انتهى النقل عن ابن خلكان .
٢ ك : غيطشة .

رجال العرب المقتحمين عليه بالأندلس من تلقاء بحر الزُّقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نُصَيْر طماعةً منهم في أن يودي ويخلص إليهم ملك أبيهم ، فالتقوا بموضع يدعى وادي لَكَّةَ من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلي مكان عُبُورهم ، وذلك لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، فانهزم القوط أعظَمَ هزيمة ، وقُتل ملكهم لُذَريق، وغلبت العرب على الأندلس ، فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب ، ومصداقَ موعد نبيهم ، صلى الله عليه وسلّم ، الكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوَحْي الله تعالى إليه أنجزه لهم بفتح الأندلس ، ولله القوّة » .

قال : « وقام بأمر العرب بالأندلس منذ فتحت الأمراء المرسَلُونَ منهم عليها من قبل أئمة المسلمين بالمشرق طَوَالَ دولة بني أمية ، رضي الله تعالى عنهم ، إلى أن طرأ إليها فَلُّهم عند غلبة بني العبّاس عليهم ، وذلك[1] عبدُ الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان ، فملكها وأعاد إليها الدولة الأموية التي أورثها عَقِبَهُ حِقْبة ، فكانت عدّة هؤلاء الأمراء من لدن أوّلهم طارق بن زياد إلى آخرهم يوسفَ بن عبد الرحمن الفِهْري عشرين عاملاً ، وعدّة سنيهم بالشمسي خمس وأربعون سنة ، وبالقمري سبع وأربعون سنة غير أشهر » انتهى .

وقال في موضع آخر ، نقلاً عن الرازي : « وافتُتحت الأندلس في أيام الوليد ابن عبد الملك ، فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت في ظهور الملّة الحنيفية ، وكان عمر بن عبد العزيز – رضوان الله عليه – متهمّماً بها ، معتنياً بشأنها ، وقد حوّلها عن نظر والي إفريقية وجَرَّد إليها عاملاً من قبله اختاره لها ، دلالةً على مَعْنِيته بها ، ووقعت المقاسمُ فيها عن أمره وبفضل رأيه » انتهى .

* * *

١ ك : ودخل .

[ملخص خبر الفتح من الكتاب الخزائني وغيره]

وفي الكتاب الخزائني وغيره سياقة فتح الأندلس على أتم الوجوه ، فلنذكر ملخصه ، قالوا : استعمل أميرُ المؤمنين الوليدُ بن عبد الملك — رحمه الله تعالى — موسى بن نُصَير مولى عمّه عبد العزيز بن مروان ، ويقال : بل هو بَكْري ، وذلك أن أباه نُصَيْراً أصلُه من عُلُوج أصابهم خالدُ بن الوليد — رضي الله عنه — في عين التَمْر ، فادعوا أنهم رُهُن ، وأنهم من بكر بن وائل ، فصار نُصَير وصيفاً لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، فمن هذا يختلف فيه ، وقيل : إنّه لَخْميٌّ ؛ وعقد له على إفريقية وما خَلْفها في سنة ثمان وثمانين ، فخرج إلى ذلك الوَجْه في نفر قليل من المطّوّعة ، فلمّا ورد مصر أخرج معه من جُنْدها بعثاً ، وأتى إفريقية عملَه ، فأخرج من أهلها معه ذوي القوّة والجلد ، وصيّر على مقدّمته طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويَفُضّ جموعهم ، ويفتح بلادهم ومدائنهم ، حتّى بلغ طَنْجَة ، وهي قصبة ملك البربر وأمّ مدائنهم ، فحصرها حتّى افتتحها — وقيل : إنها لم تكن افتُتحت قبله ، وقيل : افتتحت ثم ارتجعت — فأسلم أهلها ، وخطها قيرواناً للمسلمين . ثمّ ساروا إلى مدائنَ على شطّ البحر فيها عمالٌ لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن سَبْتة ، وعليها علج يسمى يُلْيان ، قاتله موسى فألفاه في نَجْدَة وقوّة وعدّة فلم يُطِقْه ، فرجع إلى مدينة طَنْجة فأقام بمن معه ، وأخذ في الغارات على ما حَوْلهم والتضييق عليهم ، والسفنُ تختلف إليهم بالميرَة والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غَيْطَشة ، فهم يَذُبّون عن حريمهم ذَبّاً شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة ، إلى أن هَلَك غيطشة ملك الأندلس ، وترك أولاداً لم يرضهم أهلها للملك ، فاضطرب حبل أهل[1] الأندلس ، ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لُذَريق مجرّب شجاع بطل ، ليس من بيت أهل الملك ، إلاّ

[1] أهل : سقطت من ق .

أنّه من قوّادهم وفُرْسانهم ، فولّوه أمرهم ، وكانت طُلَيْطلة دار الملك بالأندلس حينئذ ، وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الأيام ، عليه عِدّة من الأقفال يلزمه قوم من ثقات القوط ، قد وُكّلوا به لئلاّ يُفْتح ، وقد عهد الأول في ذلك إلى الآخر ، فكلّما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكّلون بالبيت فأخذوا منه قُفْلاً وصيروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفلَ مَنْ تقدّمه ، فلمّا قعد لُذَريقُ هذا ، وكان متهمّماً يقظاً ذا فكر ، أتاه الحراسُ يسألونه أن يُقْفل على الباب ، فقال لهم : لا أفعل أو أعلَمَ ما فيه ، ولا بد لي من فتحه ، فقالوا له : أيها الملك ، إنّه لم يفعل هذا أحد ممّن قبلك ، وتناهَوْا عن فتحه ، فلم يلتفت إليهم ، ومشى إلى البيت ، فأعظمت ذلك العجمُ وضَرِعَ إليه أكابرُهم في الكف فلم يفعل ، وظن أنّه بيت مال ، ففضّ الأقفال عنه ودخل ، فأصابه فارغاً لا شيء فيه ، إلاّ تابوتاً عليه قُفْل ، فأمر بفتحه يحسب أن مضمونه يُقْنعه لفاسةً ، فألفاه أيضاً فارغاً ليس فيه إلا شُقّة مدرجة قد صُوّرت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيولُ العِراب متقلّدي السيوف متنكبي القِسِيّ رافعي الرايات على الرماح ، وفي أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية ، فقرئت فإذا فيها : إذا كُسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فإن هذه الأمة المُصَوَّرة في هذه الشّقّة تدخل الأندلس ، فتغلب عليها وتملكها ، فوَجَم لُذَريق وندم على ما فعل ، وعظم غمُّه وغمُّ العجم بذلك ، وأمر برد الأقفال وإقرار الحرس على حالهم ، وأخذ في تدبير الملك ، وذُهِل عمّا أنذر به .

وقد كان من سِيَر أكابر العجم بالأندلس وقوّادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم إلى بلاد الملك الأكبر بطُلَيْطلة ليصيروا في خدمته ، ويتأدّبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى إذا بلغوا أنكح بعضَهم بعضاً استئلافاً لآبائهم ، وحمل صَدُقاتِهم ، وتولّى تجهيزَ إناثهم إلى أزواجهن . فاتفق أن فعل ذلك يُلْيان عامل لُذَريق على سَبْتة ، وكانت يومئذ في يد صاحب الأندلس ، وأهلُها على النصرانية ، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه ، فلمّا

صارت عند لُذَريق وقعَت عينُه عليها فأعجبته وأحبها حبّاً شديداً ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضّها ، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سرّاً ، بمكاتبة خفية ، فأحفظه شأنها جدّاً ، واشتدّت حميّته ، وقال : ودينِ المسيح لأزيلَنّ سلطانه[1] ، ولأحفِرَنّ تحت قدميه ، فكان امتعاضُه من فاحشة ابنته هو السببَ في فتح الأندلس بالذي سبق من قَدَر الله تعالى .

ثم إن يُليان ركبَ بحرَ الزُّقاق من سَبْتة في أصعب الأوقات في ينير[2] قلب الشتاء ، فصار بالأندلس ، وأقبل إلى طُلَيْطلة نحو الملك لُذَريق ، فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت ، وسأله عمّا لديه[3] ولم جاء في مثل وقته ؟ فذكر خيراً ، واعتلّ بذكر زوجته ، وشدّة شوقها إلى رؤية بنتها التي عنده ، وتمنيها لقاءها قبل الموت ، وإلحاحها عليه في إحضارها ، وأنّه أحبّ إسعافها ، ورجا بلوغها أمنيتها منه ، وسأل الملك إخراجها إليه ، وتعجيلَ إطلاقه للمبادرة بها ، ففعل ، وأجاز الجارية ، وتوثّقَ منها بالكتمان عليه ، وأفضل على أبيها ، فانقلب عنه . وذكروا أنّه لما ودّعه قال له لذريق : إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشُّذانِقاتِ[4] التي لم تزَلْ تُطْرفنا بها فإنها آثر جوارحنا لدينا ، فقال له : أيّها الملك ، وحقّ المسيح لئن بقيتُ لأدخِلَنّ عليك شُذانقاتٍ ما دخل عليك مثلها قط — عرّض له بالذي أضمره من السعي في إدخال رجال العرب عليه وهو لا يَفْطِن — فلم يتنهنه يليان عندما استقرّ بسَبْتة عمله أن تهيّأ للمسير نحو موسى بن نُصَير الأمير ، فمضى نحوه بإفريقية ، وكلمهُ في غزو الأندلس ، ووصف له حُسْنها وفضلها ، وما جمعت من أسباب[5] المنافع ، وأنواع المرافق ،

---

١ ك : ملكه وسلطانه .

٢ « ينير » اسم الشهر : (Enero) = كانون الثاني ، وفي ك : صنبر ، وصنبر : تعني شدة البرد .

٣ زاد في ك : وما جاء فيه .

٤ الشذانقات : الصقور .

٥ ك : أشتات .

وطيب المزارع ، وكثْرة الثمار ، وثَرارة[1] المياه وعذوبتها ، وهَوَّن عليه مع ذلك حالَ رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلّة الغَنَاء ، فشوّق موسى إلى ما هناك ، وأخذ بالحزم فيما دعاه إليه يُلْيان ، فعاقده على الانحراف إلى المسلمين ، واستظهر عليه بأن سامه مُكاشَفَةَ أهل مِلّته من الأندلس المشركين والاستخراج إليهم بالدخول إليها وشَنِّ الغارة فيها ، ففعل يُلْيان ذلك ، وجمع جمعاً من أهل عمله ، فدخل بهم في مركبين وحَلَّ بساحل الجزيرة الخضراء ، فأغار وقتل وسبى وغنم ، وأقام بها أيّاماً ، ثمّ رجع بمن معه سالمين ، وشاع الخبر عند المسلمين ، فأنِسُوا بيُلْيان واطمأنّوا إليه ، وكان ذلك عقبَ سنة تسعين ، فكتب موسى بن نُصَيْر إلى أمير المؤمنين الوليدِ بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه إليه يُلْيان من أمر الأندلس ، ويستأذنه في اقتحامها ، فكتب إليه الوليد : أن خُضْها بالسرايا حتّى ترى وتختبر شأنها ، ولا تُغَرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فراجعه أنّه ليس ببَحْر زَخّار ، وإنّما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه ، فكتب إليه : وإن كان فلا بدَّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذلك رجُلاً من مواليه من البرابرة اسمه طَرِيف يكنى أبا زُرْعة في أربعمائة رجل معهم مائة فرس سار بهم في أربعة مراكب ، فنزل بجزيرة تُقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء التي هي اليوم مَعْبَر سفائنهم ودارُ صناعتهم ، ويقال لها اليوم « جزيرة طريف » لنزوله بها ، وأقام بها أيّاماً حتّى تتامّ[2] إليه أصحابه ، ثم مضى حتّى أغار على الجزيرة فأصاب سَبْياً لم ير موسى ولا أصحابُه مثله حُسْناً ، ومالاً جسيماً ، وأمتعة ، وذلك في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ، فلمّا رأى الناسُ ذلك تسرّعوا إلى الدخول ، وقيل : دخل طريف في ألف رجل ، فأصاب غنائم وسَبْياً ، ودخل بعده أبو زُرْعة شيخ من البرابرة ، وليس بطريف ، في ألف رجل منهم أيضاً فأصابوا أهلَ الجزيرة قد تفرّقوا عنها ، فضَرّمُوا عامّتها بالنار ،

[1] ج : وغزارة .
[2] ك : التأم .

وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظّمة ، وأصابوا سَبْياً يسيراً ، وقتلوا وانصرفوا سالمين .

وقال الرازي : هو أبو زرعة طريف بن مالك المَعافِري ، الاسم طبق الكنية .

قالوا : ثمّ عاود يُليان القدومَ على موسى بن نُصَير محركاً في الاقتحام على أهل الأندلس ، وخَبّرَه بما كان منه ومن طريف وأبي زُرْعة ، وما نالوه من أهلها ، وباشروه من طيبها ، فحمد الله على ذلك ، واستجدّ عَزْماً في إقحام المسلمين فيها ، فدعا مولًى له كان على مُقَدّمته يسمّى طارقَ بن زياد بن عبد الله فارسيّاً هَمَذانياً — وقيل : إنّه ليس بمولى لموسى ، وإنّما هو رجل من صَدِف ، وقيل : مولى لهم ، وقد كان بعض عقبه بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكاراً شديداً ، وقيل : إنّه بربري من نَفْزَةَ — فعقد له موسى ، وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جُلُّهُم البربر والموالي ، وليس فيهم عرب إلا قليل ، وَوَجّه معه يُلْيان ، فهيّأ له يُلْيان المراكب ، فركب في أربع سفن لا صناعة له غيرها ، وحَطّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم سبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين ، في شهر أغشت[1] ، ثم صرف المراكب إلى مَنْ خلفه من أصحابه ، فركب من بقي من الناس ، ولم تزل السفائن تختلف إليهم حتّى توافى جميعهم عنده بالجبل ، وقيل : حلّ طارق بجبله يوم الاثنين لخمس خلون من رجب من السنة في اثني عشر ألفاً غير ستة عشر رجلاً من البرابرة[2] ، ولم يكن فيهم من العرب إلاّ يسير ، أجازهم يُلْيان إلى ساحل الأندلس في مراكب التجار من حيث لم يُعلم بهم ، أوّلاً أوّلاً ، وركب أميرهم طارق آخرهم ..

قيل[3] : وأصاب طارق عجوزاً من أهل الجزيرة ، فقالت له في بعض قولها : إنّه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدّثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا ،

١ ك : أغسطس .
٢ ق : البربر .
٣ انظر ما تقدم ص : ٢٣١ .

ويغلب عليه ، ويصف من نعته أنّه ضخم الهامة ، فأنت كذلك ، ومنها أن في كتفه الأيسر شامة عليها شَعَر ، فإن كانت بك هذه العلامة فأنت هو ، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرته العجوز ، فاستبشر بذلك هو ومَنْ معه .

وذكر عن طارق أنّه كان نائماً في المركب فرأى في منامه النبي ، صلى الله عليه وسلّم ، والخلفاء الأربعة أصحابه عليهم السلام يمشون على الماء حتى مرّوا به ، فبشّره النبي ، صلى الله عليه وسلّم ، بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين ، والوفاء بالعهد . وقيل : إنّه لما ركب البحرَ غلبته عينه فكان يرى النبي ، صلى الله عليه وسلّم ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتنكبوا القسيّ ، فيقول له رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم : يا طارق ، تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه ، فهَبَّ من نومه مستبشراً ، وبشّر أصحابه ، وثابت إليه نفسُه ثقةً ببُشْراه ، فقويَتْ نفسُه ، ولم يشكَّ في الظفر ، فخرج من البلد ، واقتحم بسيط البلاد شانّاً للغارة .

قالوا : ووقع على لُذَريقَ الملكِ خبرُ اقتحام العرب ساحلَ الأندلس ، وتوالي غاراتهم على بلد الجزيرة ، وأن يُلْيان السبب فيها ، وكان يومئذ غائباً بأرض بَنْبَلُونَةَ في غَزَاة له إلى البُشْكَنْسِ لأمر كان استصعب عليه بناحيتهم ، فعظم عليه ، وفهم الأمر الذي منه أُتي ، وأقبل مبادراً الفَتْقَ في جموعه ، حتى احتل بمدينة قُرْطُبة من الموسطة[1] ، ونزل القصرَ المدعوَّ بها ببلاط لُذَريق المنسوب إليه ، وليس لأنّه بناه أو اخترعه — وهو بناء مَنْ تقدمه من الملوك اتخذوه لمنزلهم في قرطبة إذا أتوها — إلا أن العرب لما غلبوا لُذَريق وهذا القصر من مَواطنه نسبوه إليه ، إذ لم يعرفوا مَنْ بناه . ويزعم العجم أن الذي بناه ملك منهم كان ساكناً بحصن المدور أسفلَ قرطبة ، وخرج يوماً يتصيد حتى

...

١ ك : المتوسطة .

وذكرها ابن دِحْية بمخالفة لما سَرَدْناه .

قال عتبة التاجر : وجَّهني الأمير الحكم وابنه عبد الرحمن إلى المشرق وعبد الله بن طاهر أمير مصر من قِبل المأمون ، فلقيته بالعراق ، فسألني عن هذه القصيدة هل أحفظها للغزّال ؟ قلت : نعم ، فاستنشدنيها ، فأنشدته إياها ، فسُرّ بها وكتبها ، قال عتبة : ونلت بها حظّاً عنده .

والبهنانة : المرأة الطيبة النفس والأرج ، كما في الصّحاح ، وقيل : اللينة في منطقها وعملها ، وقيل : الضحّاكة المتهللة ، والرعبوب : السّبْطة البيضاء ، والسبطة : الطويلة .

وقال سامحه الله تعالى :

سألْتُ في النَّوْم أبي آدماً فقُلْتُ والقلبُ به وامِقُ
إبْنك بالله أبو حازم ؟ صَلّى عليك المالك الخالقُ
فقال لي : إن كانَ مني ومن نَسْلي فحوّا أمّكم طالِقُ

وقال رضي الله تعالى عنه :

أرى أهْلَ اليَسار إذا تُوُفّوا بَنَوْا تلك المقابرَ بالصخور
أبَوْا إلا مُباهاة وفخراً على الفقراء حتّى في القبور
فإن يكن التفاضل في ذُراها فإن العدل فيها في القُعور
رَضِيتُ بمن تأنّقَ في بناء فبالغَ فيه تصريف الدهور[1]
ألمّا يبصروا ما خربته الد هور من المَدائنِ والقُصُور
لعَمْرُ أبيهمُ لو أبصروهم لمَا عُرِفَ الغنيُّ من الفقير
ولا عرفوا العبيد من الموالي ولا عرَفُوا الإناث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوبَ صوفٍ منَ البَدنِ المُباشِر للحَرير

---

١ ج : تصريف الأمور .

نهرها قبالَةَ القصر ، ولم يطمئنّوا إلى الدخول على لُذَرِيق أخذاً بالحزم ، إلى أن استتبَّ جهاز لُذَريق وخرج ، فانضموا إليه ، ومَضوْا معه وهم مُرْصِدون لمكروهه . والأصح — والله أعلم — ما سبق أن مُلْكَ القوط اجتمع للُذَريق ، واختُلف في اسمه فقيل : رُذَرِيق — بالراء أوله — وقيل : باللام لُذَرِيق وهو الأشهر ، وقيل : إن أصله من أصبهان ويسمّى الإشبان ، والله أعلم [1] .

قالوا : وعسكر لُذَريق في نحو مائة ألف ذوي عَدَد وعُدَّة ، فكتب طارق إلى موسى يستمدّه ويعرّفه أنّه فتح الجزيرة الخضراء فُرْضَةَ الأندلس ، وملَكَ المجاز إليها ، واستولى على أعمالها إلى البحيرة ، وأن لُذَريق زحف إليه بما لا قِبَلَ له به ، إلا أن يشاء الله ، وكان موسى منذ وجّه طارقاً لوجهه ، قد أخذ في عمل السفن حتّى صار عنده منها عِدَّة كثيرة ، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مَدَداً كملت بهم عدة مَنْ معه اثني عشر ألفاً أقوياء على المغانم ، حِراصاً على اللقاء ، ومعهم يُلْيان المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله يَدُلهم على العَوْرات ، ويتجسس لهم الأخبار ، وأقبل نحوهم لُذَريق في جموع العجم ، وملوكها وفرسانها ، فتلاقَوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض : إن هذا ابنَ الخبيثة قد غلب على سلطاننا ، وليس من أهله ، وإنّما كان من أتباعنا ، فلسنا نعدم من سيرته خَبالاً في أمرنا ، وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا ، وإنّما مُرَادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنّا ، فهلمَّ فلننهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلّهم يكفوننا إيّاه ، فإذا انصرفوا عنّا أقعدنا في ملكنا من يستحقّه ، فأجمعوا على ذلك ، والقضاء يُبْرِم ما ارتأَوْه .

وكان لُذَريق ولّى ميمنته أحد ابني غيطشة ، وميسرته الآخر ، فكانا

[1] وقيل ... أعلم : هذه الجملة موجودة في جميع الأصول وهي قلقة ولا تلتئم مع ما تقدم من حديث عن إشبان .

رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة ، وأداهما إلى ذلك طمع رجوع ملك والدهما إليهما .

وقيل : لما تقابل الجيشان أجمع أولادُ غيطشة على الغدر بلُذَريق ، وأرسلوا إلى طارق يُعْلمونه أن لُذَريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مَهْلكه وأنّهم غير تاركي حقهم لديه ، ويسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وأن يسلّم إليهم إذا ظفر ضياعَ والدهم بالأندلس كلّها ، وكانت ثلاثة آلاف ضَيْعة نفائس مختارة ، وهي التي سميت بعد ذلك صَفايا الملوك ، فأجابهم إلى ذلك ، وعاقَدَهم عليه ، فالتقى الفريقان من الغَد ، فانحاز الأولاد إلى طارق ، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح ، وكان الالتقاء على وادي لَكّة من كورة شَلونة ، فهزم الله الطاغية لُذَريق وجموعَه ، ونصر المسلمين نصراً لا كفاء له ، ورمى لُذَريق نفسه في وادي لَكّة وقد أثقلته السلاح[1] ، فلم يُعْلَم له خبر ولم يوجد .

وقيل : نزل طارق بالمسلمين قريباً من عسكر لُذريق منسلَخَ شهر رمضان سنة ٩٢ ، فوجّه لُذَريق عِلْجاً من أصحابه قد عَرَف نجْدَته ووثق ببأسه ليشرف على عسكر طارق فيحزِرَ عددهم ويعاين هيئاتهم ومراكبهم ، فأقبل ذلك العلج حتى طلع على العسكر ، ثمّ شدّ في وجوه مَنِ استشرفه من المسلمين ، فوثبوا إليه ، فولّى منصرفاً راكضاً ، وفاتهم بسَبْق فرسه ، فقال العلج للذَريق : أتتك الصور التي كشف لك عنها التابوت ، فخذ على نفسك ، فقد جاءك منهم مَنْ لا يريد إلا الموت أو إصابةَ ما تحت قدميك ، قد حرَقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلّق بها ، وصفوا في السهل مُوَطّنين أنفُسَهم على الثبات ، إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب ، فرُعب وتضاعف جزعه ، والتقى العسكران بالبحيرة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، إلى أن انهزمَتْ ميمنة لُذَريق وميسرته ،

---

١ ك : الجراح .

انهزم بهما. أبناء غيطشة ، وثبت القلبُ بعدهما قليلاً وفيه لُذَريق ، فعَذَّر[1] أهلُه بشيء من قتال ، ثم انهزموا ولُذَريقُ أمامهم ، فاستمرّت هزيمتهم ، وأذرع المسلمون القتل فيهم ، وخفي أثر لذريق فلا يدرى أمره ، إلاّ أن المسلمين وجدوا فَرَسَه الأشهبَ الذي فُقد وهو راكبه ، وعليه سَرْج له من ذهب مُكَلّل بالياقوت والزبرجد ، ووجدوا أحد خفّيه وكان من ذهب مُكَلّل بالدرّ والياقوت[2] ، وقد ساخ الفرسُ في طين وحَمْأة ، وغرق العلج ، فثبت أحد خفّيه في الطين فأُخذ ، وخفي الآخر ، وغاب شخص العِلْج ولم يوجد حيّاً ولا ميتاً ، والله أعلم بشأنه .

وقال الرازي : كانت الملاقاةُ يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لخمس خَلَوْن من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين ، فقُتِل منهم خلق عظيم[3] ، أقامت عظامُهم بعد ذلك بدَهْر طويل ملبسة لتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجلّ قَدْرُه ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكَهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ويعرفون مَنْ دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس ، فجمع طارق الفَيْء وخَمَّسَه ، ثمّ اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع ، وتسامع الناسُ من أهل برّ العُدْوَة بالفتح على طارق بالأندلس وسَعَة المغانم[4] فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وَجْه ، وخَرَقُوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهلُ الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهارَبُوا من السهل ولحقوا بالجبال ، ثم أقبل

---

١ ق ك ط ودوزي : فغدر . وعذر : دفع عن نفسه اللوم بفعل كأنه تقصير ؛ وسقط من ج : فعذر . . . وخفي أثر لذريق .

٢ زاد في ك : والزبرجد .

٣ ك : خلق كثير عظيم .

٤ ج : الغنائم .

طارقٌ حتى نزل بأهل مدينة شَذُونة ، فامتنعوا عليه ، فشدَّ الحصر عليهم حتى نَهَكَهم وأضرّهم ، فتهيّأ له فتحها عَنْوة ، فحاز منها غنائم ، ثمَّ مضى منها إلى مورور[1] ، ثمَّ عطف إلى قَرْمُونة فمر بعينه المنسوبة إليه ، ثم مال على إشبيلِيَةَ فصالحه أهلُها على الجزية ، ثمَّ نازل أهل إسْتِجَة وهم في قوّة ومعهم فَلّ عسكر لُذَريق ، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثمَّ إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يَلْقَ المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعِلْج صاحبها ، وكان مغترّاً سيىء التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلمّا كاشَفَه اعترف له بأنّه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحَبَّ ، وضرب عليه الجِزْية ، وخلّى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه ، وقذف الله الرُّعْبَ في قلوب الكفرة لما رأوا طارقاً يُوغِل في البلاد ، وكانوا يحسِبُونه راغباً في المغنم عاملاً على القُفُول ، فسُقِط في أيديهم ، وتطايَرُوا عن السهول إلى المعاقل ، وصعد ذَوُو القوّة منهم إلى دار مملكتهم طُلَيْطلة ، قيل : وكان من إرهاب طارق لنصارى الأندلس وحيله أن تقدّم إلى أصحابه في تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسْرَاهم وطبخها في القدور ، يُرُونَهم أنهم يأكلونها ، فجعل من انطلق من الأسرى يحدّثون مَنْ وراءهم بذلك فتمتلىء منه قلوبهم رُعْباً ويُجْفِلُون فراراً ، قالوا : وقال يُلْيان لطارق : قد فضَضْتَ جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مَهَرَة ، ففرّقْ جيوشَك معهم في جهات البلاد ، واعْمِد أنْت إلى طُلَيْطلة حيث مُعْظَمهم ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولي رأيهم ، ففرّق طارق جيوشَه من إسْتِجَةَ ، فبعث مغيثاً الروميّ مولى الوليد بن

---

[1] ك : مدور ؛ ومورور : (Moron) كورة متصلة بأحواز قرمونة .

عبد الملك إلى قُرْطُبة ، وكانت من أعظم مدائنهم ، في سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيلَ العجم ، ولم يبق فيهم راجلٌ ، وفَضَلَت عنهم الخيلُ ، وبعث جيشاً آخر إلى مالَقَةَ ، وآخر إلى غَرْناطة مدينة إلبيرة ، وسار هو في معظم الناس إلى كورة جَيّان يريد طُلَيْطلة ، وقد قيل : إن الذي سار لقُرْطبة طارق بنفسه ، لا مغيث ، قالوا : فكمنوا بعُدْوة نهر شَقُنْدَة في غَيْضَة أرْزٍ شامخة ، وأرسلت الأدلاء فأمسكوا راعيَ غنمٍ فسُئل عن قرطبة فقال : رحل عنها عظماء أهلها إلى طُلَيْطلة ، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس[1] من حُماتهم مع ضعفاء أهلها ، وسُئل عن سورها فأخبر أنّه حَصين عالٍ فوق أرضها إلا أنّه فيه ثُغْرة ووصَفها لهم[2] ، فلمّا أجَنّهم الليل أقبلوا نحو المدينة ووطّأ الله لهم أسبابَ الفتح بأن أرسل السماء برَذاذٍ أخفى دقدقة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قُرطُبة ليلاً ، وقد أغفل حَرَسُ المدينة احتراسَ السور ، فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد ، فترجّل القومُ حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل[3] ، وراموا التعلّق بالسور فلم يجدوا متعلّقاً ، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها ، فأراهم إياها ، فإذا بها غير متسهلة التسنّم ، إلا أنّه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها من التعلّق بها ، فصعد رجل من أشِدّاء المسلمين في أعلاها ، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفَها ، وأعان بعضُ الناس بعضاً حتى كثروا على السور ، وركب مغيث ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نفراً منهم ، وكسروا أقفال الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيث ومَنْ معه وملكوا المدينة عَنْوة ، فصمد إلى البلاط منزلِ الملك ومعه أدلاؤه ، وقد بلغ الملك دخولهم

١ فارس : سقطت من ق ط ج .
٢ لهم : سقطت من ط ح ق .
٣ أو أقل : سقطت من دوزي .

المدينة فبادر بالفرار عن البلاط في أصحابه، وهم زهاء أربعمائة ، وخرج إلى كنيسة بغربيّ المدينة ، وتحصن بها ، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سَفْح جبل ، ودافعوا عن أنفسهم ، وملك مغيث المدينةَ وما حولها ؛ وقال مَنْ ذهب إلى أن طارقاً لم يحضر فتح قرطبة وأن فاتحها مغيث : إنّه كتب إلى طارق بالفتح ، وأقام على محاصرة العِلْج بالكنيسة ثلاثة أشهر ، حتى ضاق من ذلك وطال عليه ، فتقدّم إلى أسود من عبيده اسمه رَباح ، وكان ذا بأس ونَجْدة ، بالكمُون في جنان إلى جانب الكنيسة ملتفة الأشجار ؛ لعلّه أن يظفر له بعلج يقف به على خبر القوم ، ففعل ، ودعاه ضعف عقله إلى أن صعد في بعض تلك الأشجار ، وذلك أيّام الثمر ، ليجني ما يأكله ، فبصر به أهل الكنيسة ، وشدّوا عليه ، فأخذوه فملكوه[1] ، وهم في ذلك هائبون له منكرون لخلقه ، إذ لم يكونوا عاينوا أسوّد قبله ، فاجتمعوا عليه ، وكثر لَغَطهم وتعجبهم من خلقه ، وحسبوا أنّه مصبوغ أو مطليّ ببعض الأشياء التي تُسَوِّد ، فجردوه وسط جماعتهم ، وأدنوه إلى القناة التي منها كان يأتيهم الماء ، وأخذوا في غَسْله وتدليكه بالحبال الحُرْش ، حتى أدموه وأعْنَتُوه ، فاستغاثهم ، وأشار إلى أن الذي به خِلْقة من بارئهم ، عزّ وجلّ ، ففهموا إشارته[2] ، وكَفّوا عن غسله[3] واشتد فزعهم منه ؛ ومكث في إسارهم سبعةَ أيام لا يتركون التجمّع عليه والنظر إليه إلى أن يسّر الله له الخلاص ليلاً ، ففرّ وأتى الأميرَ مغيثاً فخبره بشأنه وعرّفه بالذي اطلع عليه من موضع[4] الماء الذي ينتابونه ، ومن أي ناحية يأتيهم ، فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة في الجهة التي أشار إليها الأسود حتى أصابوها ، فقطعوها عن جَرْيتها إلى الكنيسة ، وسدّوا منافذها ، فأيقنوا

١ دوزي : وملكوه .
٢ ق ط ج : ففهموا عنه .
٣ ك : وكفوا عنه وعن غسله .
٤ ك : اطلع عليه من شأنهم وموضع .

بالهلاك حينئذ ، فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية ، فأبوا عليه ، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسمّيت كنيسة الحرقى ، والنصارى تعظّمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدّة البلاء ؛ غير أن العِلْج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند إيقان الهلاك ، ففرّ عنهم وحده ، وقد استغفلهم ورام اللحاق بطُلَيْطلة ، فنمي [1] خبره إلى مغيث ، فبادر الركض خلفه وحده ، فلحقه بقرب قرية تَطَنْليرة [2] هارباً وحده ، وتحته فرس أصفر ذريع الخطو ، وحرك مغيث خلفه ، فالتفت العِلجُ وَدُهِش لما رأى مغيثاً قد رَهِقه ، وزاد في حَثّ فرسه فقصر به ، فسقط عن الفرس واندقت عنقه ، فقعد على ترسه مستأسراً قد هاضته السقطة ، فقبض عليه مغيث ، وسلبه سلاحه ، وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد ، ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره ، لأن بعضهم استأمن وبعضهم هرب إلى جِلّيقيّة . وفي رواية أن مغيثاً استنزل أهل الكنيسة بعد أسره لملكهم ، فضرب أعناقهم جميعاً ، فمن أجل ذلك عُرِفت بكنيسة الأسرى وأن مغيثاً جمع يهود قُرْطُبة فضمهم إلى مدينتها استنامةً إليهم ، دون النصارى ، للعداوة بينهم ، وأنّه اختار القصر لنفسه ، والمدينة لأصحابه .

وأمّا مَنْ وُجّه إلى مالَقَة ففتحوها ، ولجأ عُلُوجها إلى جبال هنالك ممتنعة ، ثمّ لحق ذلك الجيشُ بالجيش المتوجّه إلى إلبيرة ، فحاصروا مدينتها غَرْناطة ، فافتتحوها [3] عَنْوَة ، وضموا اليهود إلى قصبة غَرْناطة ، وصار ذلك لهم سُنّة متبعة [4] في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضي معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجدوا يهوداً وفّروا عدد المسلمين المخلّفين لحفظ ما فتح ، ثم صنعوا عند فتح كورة رَيّة التي منها مالَقَةُ مثل ذلك .

١ ك : فبلغ
٢ كذا في ق ك ط ج ، ولعلها : طلبيرة .
٣ ك : فاقتحموها .
٤ متبعة : سقطت من ك .

ومضى الجيش إلى تُدْمير ، وتدمير : اسم العلج صاحبها ، سميت به ، واسم قصبتها أريولة ، ولها شأن في المَنَعة . وكان ملكها علجاً داهية ، وقاتلهم مضحياً[1] ، ثمّ استمرت عليه الهزيمة في فَحْصِها ، فبلغ السيفُ في أهلها مَبْلغاً عظيماً أفنى أكثرهم ولجأ العلج إلى أريولة في يسير من أصحابه لا يُغْنُونَ شيئاً ، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القَصَب والظهور على السور في زيّ القتال متشبهات بالرجال ، وتصدر قُدّامهن في بقية أصحابه يُغالط المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مِرَاسَه لكثرة مَنْ عاينوه على السور ، وعرضوا عليه الصلح ، فأظهر الميل إليه ، ونكّر زيه ، فنزل إليهم بأمان على أنّه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم ، فلمّا تمّ له من ذلك ما أراد عرّفهم بنفسه ، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه ، وأخذَهم بالوفاء بعَهْدِه ، وأدخلهم المدينة ، فلم يجدوا فيها إلاّ العيال والذرّية ، فندموا على الذي أعْطَوْه من الأمان ، واسترجحوه فيما احتال به ، ومضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم ، فسلمت كورة تُدْمير من مَعَرَّة المسلمين بتدبير تُدْمير ، وصارت كلّها صلحاً ليس فيها عَنْوة ، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح ، وخلفوا بقصبة البلد رجالاً منهم ، ومضى معظمهم[2] إلى أميرهم لفتح طُلَيْطلة .

قال ابن حيّان : وانتهى طارق إلى طُلَيْطلة دارِ مملكة القُوط ، فألفاها خالية قد فرّ أهلها عنها[3] ولجأوا إلى مدينة بها خلف الجبل ، فضم اليهود إلى طُلَيْطلة ، وخلف بها رجالاً من أصحابه[4] ، ومضى خلف مَنْ فر من أهل طُلَيْطلة فسلك إلى وادي[5] الحجارة ، ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمّي به

١ ق ك ط ج ودوزي : مصحياً ، واللفظة تحتاج تصويباً ، واقترح مراجع ط . ليدن أن تقرأ « مضحياً » بمعنى « في وقت الضحى » .

٢ ق ط ج : المعظم .

٣ ك : عنها أهلها .

٤ من أصحابه : سقطت من ق .

٥ ك : فسلك وادي .

بعد ، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل ، وهي المنسوبة لسليمان بن داود عليهما السلام ، وهي خضراء من زَبَرْجَدة [1] حافاتها منها وأرجلها ، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رِجْلاً ، فأحرزها عنده ، ثمّ مضى إلى المدينة التي تحصّنوا بها خلف الجبل ، فأصاب بها حلياً ومالاً ، ورجع ولم يتجاوزها إلى طُلَيْطلة سنة ثلاث وتسعين . وقيل : إنّه لم يرجع ، بل اقتحم أرض جِلّيقية واخترقها حتى انتهى إلى مدينة اسْتُرقة ، فدوخ الجهة ، وانصرف إلى طُلَيْطلة ، والله أعلم .

وقيل : إن طارقاً دخل الأندلس بغير أمر مولاه موسى بن نُصَير ، فالله أعلم . قال بعضهم : وكانت إقامته في الفتوح وتدويخ البلاد إلى أن وصل سيّده موسى ابن نُصَير سنة ، وكان ما سيُذكر .

وأنشد في « المسهب » وابنُ اليسع في « المعرب » لطارق من قصيدة قالها في الفتح :

ركبنا سَفيناً بالمجاز مُقَيَّرا　　عسى أن يكون الله منّا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنّة　　إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسّرا
ولسنا نُبالي كيف سالتْ نفوسُنا　　إذا نحن أدركنا الذي كان أجْدرا

قال ابن سعيد : وهذه الأبيات ممّا يُكتب لمراعاة قائلها ومكانته ، لا لعلوّ طبقتها [2] ، انتهى .

وأما أولاد غيطشة فإنّهم لما صاروا إلى طارق بالأمان ، وكانوا سببَ الفتح حسبما تقدم ، قالوا لطارق [3] : أنت أمير نفسك أم فوقك أمير ؟ فقال : بل على رأسي أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم ، فاستأذنوه باللّحاق بموسى بن نُصَير بإفريقية ليؤكّد سببهم به ، وسألوه الكتاب إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهده ، ففعل ، وساروا نحو موسى فتَلَقّوْه في انحداره إلى الأندلس بالقرب [4]

١ ك : زبرجد .
٢ ق ط ج ودوزي : لعلو طبقته .
٣ انظر ابن القوطية : ٢٩ — ٣٠ .
٤ في ق « بالعرب » وفي بعض الأصول « بالمغرب » ولعل الصواب « بالغرب » وهو ما ثبت في ك ط .

من بلاد البربر وعرّفوه بشأنهم ، ووقف على ما خاطبه به طارق في ذِمّتهم وسابقتهم ، فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق ، وكتب إليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم ، فلمّا وصلوا إلى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهد طارق في ضِياع والدهم ، وعقد لكل واحد منهم سجلاً ، وجعل لهم أن لا يقوموا لداخلٍ عليهم ، فقدموا الأندلس ، وحازوا ضِياعَ والدهم أجمع ، واقتسموها على موافقة منهم ، فصار منها لكبيرهم أَلْمُند[1] ألف ضيعة في غرب الأندلس ، فسكن من أجلها إشبيلية مقترباً منها ، وصار لأرطباش[2] ألف ضيعة ، وهو تلوه في السن ، وضياعه في موسطة الأندلس ، فسكن من أجلها قُرْطُبة ، وصار لثالثهم وَقِلَةَ[3] ألفُ ضيعةٍ في شرقيّ الأندلس وجهة الثغر ، فسكن من أجلها مدينة طُلَيْطلة ، فكانوا على هذه الحال صَدْر الدولة العربية ، إلى أن هلك ألمند كبيرهم ، وتخلّف[4] ابنته سارة المعروفة بالقُوطية وابنين صغيرين ، فبسط يده أرطباشُ على ضياعهم ، وضمها إلى ضياعه ، وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، فأنشأت سارة بنت ألمند مركباً بإشبيلية حصيناً كامل العدة ، وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتّى نزلت بعَسْقَلان من ساحلها ثمّ قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق ، فأنهَتْ خبرها ، وشكت ظُلامتها من عمّها واستعدت عليه[5] ، واحتجت بالعهد المنعقد لأبيها وأخويه[6] على الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فأوصلها هشام إلى نفسه ، وأعجبه صورتها[7] وحزمها ،

١ ألمند : (Olmundo) .

٢ أرطباس ويكتب أحياناً « أرطبان » وهو أردبست بن غيطشة : (Ardabast) .

٣ دوزي : رمله على أنها تعريب (Romulus) وكذلك هي عند ابن القوطية ولكن يبدو أن الصواب « وقله » وهو تعريب أخيلا : (Aquila) .

٤ ك : وخلف .

٥ ك : وتعديه عليها .

٦ ق ك ط ج : وإخوته .

٧ صورتها : ليست كذلك في النسخ وإنما وردت في ق ط : ضروها ، وفي أصول أخرى : ضروها ، صرمها ؛ ولعل الأخيرة أصوب بمعنى « الحزم » .

وكتب إلى حَنْظَلَة بن صَفْوَان عامله بإفريقية بإنصافها من عمّها أرطباش وإمضائها وأخويها [1] على سُنّة الميراث فيما كان في يدِ والدها ممّا قاسم فيه أخويه، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عمّه ، فتم لها ذلك ، وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مُزَاحم [2] ، فابتنى بها بالشام ، ثم قدم بها إلى الأندلس ، وقام لها في دفاع عمها أرطباش عن ضياعها ، فنال بها نعمة عظيمة، وَوُلِدَ له منها ولداه إبراهيم وإسحاق فأدركا الشرف المؤثّل والرياسة بإشبيلية ، وشُهرا ولسلتهما بالنسبة إلى أمهما سارة القوطية . وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الداخل بعدُ إلى الأندلس ، وعرفها ، فتوسّلت بذلك [3] إليه لمّا مَلَكَ الأندلس ووفدت إليه ، فاعترف بذمامها وأكرمها ، وأذن لها في الدخول إلى قصره متى جاءت إلى قرْطبة فيجدّد تكرمتها ولا يحجب عياله منها ، وتوفّي زوجها عيسى [4] في السنة التي ملك فيها عبدُ الرحمن الأندلس ، فزوّجها عبد الرحمن من عمير بن سعيد .

وكان لها ولأبيها ألمند وعمّها أرطباش في صدر الدولة العربية بالأندلس أخبارٌ ملوكية : فمنها ما حكاه الفقيه محمد بن عمر بن لبابة المالكي [5] أنّه قصد أرطباشَ يوماً إلى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصُّميل وابن الطُّفيل وأبو عَبْدة وغيرهم ، فأجلسهم على الكراسي ، وبالغ في تكريمهم ، ودخل على أثرهم ميمون العابد جد بني حَزْم ، وكان في عداد الشاميين ، إلاّ أنّه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وَوَرَعه ، فلمّا بَصُرَ به أرطباش قام إليه دونهم إعظاماً ، ورقاه إلى كرسيه الذي كان يجلس عليه ، وكان مُلَبَّساً صفائح الذهب ، وجذبه

---

١ ق لك ط : وإخوتها .

٢ عيسى بن مزاحم : من موالي عمر بن عبد العزيز ؛ انظر ترجمة ابن القوطية في ابن خلكان ٤ : ٤ — ٦ وفيه خبر سارة القوطية في إيجاز .

٣ بذلك : سقطت من ك .

٤ عيسى : سقطت من ق .

٥ انظر هذا الخبر في ابن القوطية : ٦١ .

ليجلسه مكانه ، فامتنع عليه ميمون ، وقعد على الأرض ، فقعد أرطباش معه عليها ، وأقبل عليه قبلهم ، فقال له : يا سيدي ، ما الذي جاء بك إلى مثلي ؟ فقال له : ما تسمعه ، إنا قدمنا إلى هذا البلد غُزَاة نحسب أن مقامنا فيه لا يَطُول ، فلم نستعدّ للمقام ولا كَثّرنا من العدة ، ثمّ حدث[1] بعدنا على موالينا وفي أجنادنا ما قد أيِسْنا معه من الرجوع إلى أوطاننا ، وقد وَسّع الله عليك ، فأحب أن تدفع إلي ضياعاً من ضياعك أعتمرها بيدي ، وأؤدي إليك الحق منها وآخذ الفضل لي طيباً أتعيش منه ، فقال : لا أرضى لك بالمساهمة ، بل أهَبُ لك هبة مسوّغة ، ثمّ دعا بوكيل له فقال له : سلّم إليه المَجْشَر[2] الذي لنا على وادي شُوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك ، وادفع إليه الضيعة التي بجَيّان ، فتسلّم ميمون الضيعتين وورثهما ولده ، وإليهم نُسبت قلعة حزم ، فشكره ميمون وأثنى عليه ، وقام عنه . وقد أنف الصُّميل من قيامه إليه ، فأقبل على أرطباش وقال له : كنت أظنّك أرجح وَزْناً ، أدخُلُ عليك وأنا سيدُ العرب بالأندلس في أصحابي هؤلاء ، وهم سادة الموالي ، فلا تزيدنا من الكرامة على الإقعاد على أعوادك هذه ، ويدخل هذا الصُّعلوك فتصير من إكرامه إلى حيث صرت ؟ فقال له : يا أبا جوشن ، إن أهل دينك يخبروننا أن أدبهم لم يُرْهِفْك ولو كان لم تنكر عليّ ما فعلته ، إنكم أكرمكم الله إنّما تكرمُونَ لدنياكم وسلطانكم ، وهذا إنّما أكرمته لله تعالى ؛ فقد روينا عن المسيح ، عليه السلام ، أنّه قال : من أكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه ، فكأنّما ألقمه حجراً . وكان الصُّميل أمّيّاً ، فلذلك عرّض به ، فقال له القوم : دعنا من هذا ، وانظر فيما قصدنا له ، فحاجتنا حاجة الرجل الذي قصدك فأكرمته ، فانظر في شأننا ، فقال له : أنتم ملوك الناس ، وليس يرضيكم إلاّ الكثير ، وها أنا أهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشراً عشراً ، وكتب لهم بها ، وأمر وكلاءه بتسليمها

١ ك : وحدثت ، وفي بقية الأصول : ثم حدثت .

٢ المجشر : المرعى .

إليهم ، فكان القوم يرونها من أطيب أملاكهم ، انتهى .

قال ابن حيّان وغيره : ولمّا بلغ موسى بن نُصَيْر ما صنعه طارق بن زياد وما أُتيح له من الفتوح حَسَدَه ، وتهيّأ للمسير إلى الأندلس فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم ، وقيل : إنّهم كانوا ثمانية عشر ألفاً ، وقيل : أكثر ، فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وتنكب الجبل الذي حلّه طارق ، ودخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى ، فلمّا احتل الجزيرة الخضراء قال : ما كنت لأسلك طريق طارق ، ولا أقفو أثره ، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يُلْيان : نحن نسلك بك[1] طريقاً هو أشرف من طريقه ، وندلك على مدائن هي أعظم خطراً وأعظم خَطْباً وأوسع غُنْماً[2] من مدائنه ، لم تُفْتَحْ بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى ، فملىء سروراً . وكان شفوف طارق قد غمّه ، فساروا به في جانب ساحل شَذُونة ، فافتتحها عَنْوة ، وألقوا بأيديهم إليه ، ثمّ سار إلى مدينة قَرْمُونة ، وليس بالأندلس أحصَنُ منها ، ولا أبعد على من يَرُومها بحصار أو قتال ، فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلْيان ، دخلوا إليهم كأنّهم فُلاّل وطرقهم موسى بخيله ليلاً ففتحوا لهم الباب ، وأوقعوا بالأحراس ، فملكت المدينة . ومضى موسى إلى إشبيلية جارتها فحاصرها ، وهي أعظم مدائن الأندلس شأناً ، وأعجبها بنياناً ، وأكثرها آثاراً ، وكانت دارَ الملك[3] قبل القوطيين ، فلمّا غلب القوطيون على ملك الأندلس حولوا السلطان إلى طُلَيْطلة ، وبقي رؤساء الدين فيها أعني إشبيلية ، فامتنعت أشهراً على موسى ، ثم فتحها الله عليه ، فهرب العلوج عنها إلى مدينة باجَة ، فضم موسى يهودَها إلى القصبة ، وخلّف بها رجالاً ، ومضى من إشبيلية إلى

١ ك : نسلكك .
٢ بعض الأصول : هي أوسع خطراً وأعظم خطباً . . . الخ ؛ وقد سقطت « أعظم خطراً » من ق ط ؛ وفي ج : هي أعظم وأوسع مغنماً .
٣ ق ك : المملكة .

لَقُنْتْ[1] إلى مدينة ماردة ، وكانت أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر ، وهي ذات عزّ ومَنَعة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف ، فحاصرها أيضاً ، وكان في أهلها مَنَعة شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات ، وآذوهم ، وعمل موسى دَبّابة دبّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلمّا قلعوا الصخر أفْضَوْا بعده إلى العمل المدعو بلسان العجم ألاشه ماشه[2] ، فنبَتَتْ عنه مَعاولهم وعدَدُهم ، وثار بهم العدو على غفلة ، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمّي ذلك الموضع برجَ الشهداء ، ثم دعا القوم إلى السلم ، فترسل إليه في تقريره قوم من أماثلهم أعطاهم الأمان واحتال في توهيمهم في نفسه ، فدخلوا عليه أوّل يوم ؛ فإذا هو أبيض الرأس واللّحية كما نَصَل خضابه ، فلم يتفق لهم معه أمر ، وعاودوه قبل الفطر بيوم ، فإذا به قد قَنأ لحيته بالحنّاء فجاءت كضِرام عرْفج ، فعجبوا من ذلك ، وعاودوه يوم الفطر ، فإذا هو قد سَوَّد لحيته ، فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : إنّا نقاتل أنبياء يتخلّقون كيف شاءوا ، ويتصورون في كل صورة أحبّوا ؛ كان ملكهم شيخاً فقد صار شابّاً ، والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله ، فما لنا به طاقة ، فأذْعَنُوا عند ذلك ، وأكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جِلّيقيّة وأموال الكنائس وحليها للمسلمين[3] ، ثم فتحوا له المدينة

١ في ك ط : ألقنت والتصحيح عن دوزي ، وهي تقابل (Fuente de Cantos) إذ لا يمكن أن تكون هي «لقنت» في جنوب الشاطىء الغربي من الجزيرة وقرأها بعض الباحثين لاكانتوس ، وهي تعني « عين كانتوس » .

٢ ألاشه ماشه : (Argamasa) أي الإسمنت ، كما أثبت ذلك في حواشي ط . ليدن ؛ وفي معجم بيدرو دالكالا أن (Laxmāx = Argamasa) .

٣ في هذا النص اضطراب إذ يبدو أن شروط الصلح على هذا النحو لا يمكن أن يقبل بها أهل ماردة ؛ وقد جاء في أخبار مجموعة : ١٨ « فصالحوه على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها له » وإذا قرأت « لها » بدل « له » كان هذا النص أصوب ، فيما أرى .

يوم الفطر سنة أربع وتسعين فملكها . ثم إن عجم إشبيليّة انتقضوا على المسلمين ، واجتمعوا من مدينتي باجَة ولَبْلَة إليهم ، فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً ، وأتى فَلّهم الأمير موسى وهو بمارِدَة فلمّا أن فتحها وجّه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إليهم ففتح إشبيلية وقتل أهلها ، ونهض إلى لَبْلَة ففتحها ، واستقامت الأمور فيما هنالك ، وعلا الإسلام ، وأقام عبد العزيز [1] بإشبيلية ، وتوجّه الأمير موسى من مارِدَة في عقب شوال من العام المؤرخ يريد طُلَيْطلة ، وبلغ طارقاً خبرُه ، فاستقبله في وجوه الناس ، فلقيه في موضع من كورة طَلَبِيرة ؛ وقيل : إن موسى تقدّم من ماردَة فدخل جِلّيقية من فج نُسب إليه ، فخرقها حتى وافى طارقَ بن زياد صاحب مقدمته بمدينة استُرْقَة ، فغض منه علانية ، وأظهر ما بنفسه عليه من حقد ، والله أعلم ؛ وقيل : لمّا وقعت عينُه عليه نزل إليه إعظاماً له ، فقَنّعه موسى بالسَّوْط ، ووبّخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه . وساروا إلى طُلَيْطلة ، فطالبه موسى بأداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك ، واستعجله بالمائدة ، فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلاً وخبأه عنده ، فسأله موسى عنه ، فقال : لا علم لي به ، وهكذا أصبتها ، فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيدَ الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمّل ، ولم يقدر على أحسن منه ، فأخلّ بها .

وقال ابن الفرضي [2] : موسى بن نصير صاحبُ فتح الأندلس لَخْمِيّ يكنى أبا عبد الرحمن ، يروي عن تميم الداريّ ، وروى عنه يزيد بن مسروق اليحصبي .

وقيل : غزا موسى بن نُصَير في المحرّم سنة ثلاث وتسعين ، فأتى طَنْجة ، ثم عبر إلى الأندلس ، فأداخَها ، لا يأتي على مدينة إلاّ فتحها ونزل أهلُها على حكمه ، ثم سار إلى قُرْطبة ، ثم قفل عن الأندلس سنة أربع وتسعين ، فأتى إفريقية ، وسار عنها سنة خمس وتسعين إلى الشام يؤمّ الوليد بن عبد الملك يجرُّ الدنيا بما

---

١ ق : عبد العزيز بن موسى .

٢ ابن الفرضي ٢ : ١٤٤ وفيه : « يقال : مولى لخم » ، وهو عجيب .

احتمله من غنائم الأندلس من الأموال والأمتعة يحملها على العَجَل والظَّهْر ، ومعه ثلاثون ألف رأسٍ من السبي ، فلم يلبث أن هلك الوليدُ بن عبد الملك[1] وولي سليمان ، فنكب موسى نكباً أداه إلى المَتْرَبة ، فهلك في نكبته تلك بوادي القُرَى سنة سبع وتسعين .

قال ابن حيّان : وهذه المائدة المنوّه باسمها المنسوبة إلى سليمان النبيّ عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وإنّما أصلها أنّ العجم في أيّام ملكهم كان أهل الحسنة منهم إذا مات أحدُهم أوصى بمال للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضّة ، تحمل الشّمامسة والقُسُوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيّام المناسك ، ويضعونها[2] على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطُلَيْطلة ممّا صيغ[3] في هذه السبيل ، وتأنّقت الأملاك في تفخيمها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأوّل ، حتّى برزت على جميع ما اتّخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر مَطاره عنها ، وكانت مَصُوغة من خالص الذهب ، مُرَصَّعة بفاخر الدرّ والياقوت والزمرّد ، لم تر الأعين مثلها ، وبولغ في تفخيمها من أجل دار المملكة ، وأنّه لا ينبغي أن تكون بموضع آلةُ جمالٍ أو متاعُ مباهاةٍ إلا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة طُلَيْطلة ، فأصابها المسلمون هناك ، وطار النبأ الفخم عنها . وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل الذي فعله من غَيْرته على ما تهيّأ له ومطالبته له بتسليم ما في يده إليه ، فاستظهر بانتزاع رِجْلٍ من أرْجُلِ هذه المائدة خبأه عنده ، فكان من فَلَجه به على موسى عدوّه عند الخليفة إذ تنازعا عنده بعد الأثر في جهادهما ما هو مشهور ، انتهى .

١ ابن عبد الملك : سقطت من ق ج ط .
٢ ق ودوزي : ويصفونها .
٣ ط : صنع .

وقال بعض المؤرخين[١] : إن المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضّة ، وكان عليها طَوْق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد ، وكلها مكلّلة بالجواهر ، انتهى .

وما ذكره ابن حيّان من أن الذي نكب موسى بن نُصَيْر هو سليمان بن عبد الملك صواب ، وأمّا ما حكاه ابن خَلّكان من أن المنكب[٢] له الوليد فليس بصحيح ، والله أعلم .

رجع إلى كلام ابن حيّان — قالوا : ثمّ إن موسى اصطلح مع طارق ، وأظهر الرضى عنه ، وأقرّه على مقدمته على رسمه ، وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى إلى الثغر الأعلى ، وافتتح سَرَقُسْطة وأعمالها ، وأوغل في البلاد ، وطارق أمامه لا يمرّان بموضع إلاّ فتح عليهما ، وغنّمهما الله تعالى ما فيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلاّ بطلب الصلح[٣] ، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ، ويكمل ابتداءه ، ويوثّق للناس ما عاهدوه عليه ، فلمّا صفا القطر كلّه وطامن نفوس مَنْ أقام على سلمه ، ووطّأ لأقدام المسلمين في الحلول به ، أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين إلى إفرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا ، حتى انتهوا إلى وادي رُودنة[٤] ، فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم . وقد دوّخت بعوث طارق وسَرَاياه بلد إفرنجة فملكت مدينتي بَرْشِلُونة وأربونة

١ ابن خلكان ٤ : ٤١١ .
٢ جزء ٤ : ٤١٢ ، وليس هناك كلمة « المنكب » وإنما قال ابن خلكان : « ويقال إن الوليد كان قد نقم عليه أمراً فلما وصل ، وهو بدمشق ، أقامه في الشمس يوماً كاملا في يوم صائف حتى خر مغشياً عليه » وعندي أن المنكب تصحيف لكلمة « المبكت » .
٣ ط : صلح .
٤ في الأصول : ردونة ، وهي تقابل نهر الرون ، ويشك المؤرخون في أن يكون موسى قد تغلغل في هذه المناطق .

وصخرة أبنيون[1] وحصن لوذون[2] على وادي رُودنة ، فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جداً ، وذكر أن مسافة ما بين قُرْطُبة وأربونة من بلاد إفرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً ، وقيل : ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً ، ولمّا أوغل المسلمون إلى أربونة ارتاع لهم قارلُه[3] ملكُ الإفرنجة بالأرض الكبيرة ، وانزعج لانبساطهم ، فحشد لهم ، وخرج عليهم في جمع عظيم ، فلمّا انتهى إلى حصن لوذون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه ، وأقبل حتّى انتهى إلى صخرة أبنيون ، فلم يجد بها أحداً ، وقد عسكر المسلمون قُدّامه فيما بين الأجبل المجاورة لمدينة أربونة ، وهم بحال غِرّة لا عُيُون لهم ولا طلائع ، فما شعروا حتّى أحاط بهم عدوّ الله قارله ، فاقتطعهم عن اللجإ إلى مدينة أربونة ، وواضعهم الحرب ، فقاتلوا قتالاً شديداً استشهد فيه جماعة منهم ، وحمّل جمهورُهم على صفوفه حتّى اخترقوها ، ودخلوا المدينة ، ولاذوا بحصانتها ، فنازلهم بها أيّاماً أصيب له فيها رجال ، وتعذّر عليه المقام ، وخامره ذعر وخوف مدد للمسلمين ، فزال عنهم راحلاً إلى بلده ، وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي رُودنة شكّها بالرجال فصيّرها ثغراً بين بلده والمسلمين ، وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس .

وقال الحِجاري في المسهب : إن موسى بن نُصَيْر نصره الله نصراً ما عليه مزيد ، وأجْفَلَتْ ملوك النصارى بين يديه ، حتّى خرج على باب الأندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة ، فاجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم قارله ، وهذه سِمَة لملكهم ، فقالت له : ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس ، حتّى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العُدّة والعَدَد بجمعهم القليل ،

١ ابنيون : (Avinionum) ، إلى الشمال من آرل على نهر الرون .

٢ لودون : (Leon) .

٣ Carlus = Charle .

وقلّة عُدّتهم ، وكونهم لا دروع لهم ، فقال لهم ما معناه : الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خَرْجتهم هذه ، فإنّهم كالسيل يحمل مَن يُصادره ، وهم في إقبال أمرهم ، ولهم نيّات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حَصَانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض[1] ، فحينئذ تتمكّنون منهم بأيسر أمر ، قال : فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميّين والبلديّين والبربر والعرب والمُضَرِيّة واليمانية ، وصار بعضُ المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء ، انتهى .

وقيل : إن موسى بن نُصَير أخرج ابنه عبد الأعلى إلى تُدمير َ ففتحها ، وإلى غَرْناطة ومالَقَة وكورة رَيّة ففتح الكل ، وقيل : إنّه لمّا حاصر مالَقَة — وكان ملكها ضعيفَ الرأي قليلَ التحفظ — كان يخرج إلى جِنان له بجانب المدينة طلباً للراحة من غُمّة الحصار من غير نَصْبِ عَيْن وتقديم طليعة ، وعرف عبد الأعلى بأمره ، فأكمن له في جَنَبات الجنّة التي كان ينتابها قوماً من وجوه فرسانه ذوي رأي وحزم ، أرصدوا له ليلاً فظفروا به وملكوه ، فأخذ المسلمون المدينة[2] عَنْوة ، وملأوا أيديهم غنيمة .

وقيل : كانت نفس موسى بن نُصَير في ذلك كلّه تنزعج[3] إلى دخول دار الكفر جِلّيقية ، فبينما هو يعمل في ذلك ويعدّ له إذ أتاه مغيثٌ الروميُّ رسولُ الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس[4] والإضراب عن الوغول فيها ، ويأخذه بالقفول إليه ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته ؛ إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته ذلك غير جليقية ، فكان شديدَ الحرص

---

١ الصواب : على بعض .

٢ ك : البلد .

٣ ق : فانزعج .

٤ عن الأندلس : سقطت من ق .

على اقتحامها ، فلاطف موسى مغيثاً رسولَ الخليفة ، وسأله إنظاره إلى أن يُنْفِذ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أيّاماً ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل ، ومشى معه حتّى بلغ المفازة ، فافتتح حصن بارو [1] وحصن لُكّ [2] ، فأقام هناك ، وبثّ السرايا حتّى بلغوا صخرة بِلايَ [3] على البحر الأخضر ، فلم تبق كنيسة إلاّ هُدمت ، ولا ناقوس إلا كُسر ، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلّما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حَطّوا به ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس ، وخُذل الشرك ، وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوّة الأمل إذ قدم عليه رسولٌ آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليدُ مُغيثاً لما استبطأ موسى في القفول ، وكتب إليه يوبخه ، ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله إزعاجه ، فانقلع [4] حينئذ من مدينة لُكّ بجليقية ، وخرج على الفج المعروف بفج موسى [5] ، ووافاه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومَضَيا جميعاً ومعهما من الناس من اختار القفول ، وأقام من آثر السكنَى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها ، وقَفَل معهم الرسولان مغيث وأبو نصر حتّى احتلّوا بإشبيلية ، فاستخلف موسى ابنَه عبد العزيز على إمارة الأندلس ، وأقرّه بمدينة إشبيلية لاتصالها بالبحر نظراً لقربه من مكان [6] المجاز ،

---

١ دوزي : بازو ؛ وقد اختار هذه القراءة لتقابل (Viseu) الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أوبورتو . ويرى بعض المؤرخين أن وصول موسى إليها حيث كان ، في وقت قصير ، أمر صعب جداً ، ولذا قدروا أن تكون بارو في منطقة بلد الوليد أي البلدة المسماة (Villabaruz) ويكون الاسم « باروز » .

٢ لك : هي (Lucus Asturum) وتسمى اليوم : (Maria de Lugo) .

٣ صخرة بلاي : (Pena de Pelayo) وهي أقصى نقطة من أشتريس على المحيط الأطلسي (البحر الأخضر) .

٤ ق : فانخلع ، وسقطت « حينئذ » بعدها .

٥ فج موسى : (Valmusa) (أي وادي موسى) .

٦ ك : مكاره .

وركب موسى البحر إلى المشرق بذي حجةِ سنة خمس وتسعين وطارق معه ، وكان مُقام طارق بالأندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر ، وحمل موسى الغنائم والسّبي ، وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة مُنَوّهاً بها ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يُقْدَر قدره ، وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاته ، أسيفٌ على ما لحقه من الإزعاج ، وكان يؤمل أن يخترق ما بقي عليه من بلد[1] إفرنجة ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتّى يتصل بالناس إلى الشام مؤملاً أن يتخذ مُخْتَرَقَه بتلك الأرض طريقاً مَهْيَعاً يسلكه أهلُ الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً ، وقيل: إنّه أوغل في أرض الفرنجة حتّى انتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار ، فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية[2] قُرِئت ، فإذا هي : يا بني إسماعيل ، انتهيتم فارجعوا ، فهاله ذلك ، وقال : ما كُتب هذا إلاّ لمعنى كبير ، فشاوَرَ أصحابه في الإعراض عنه وجَوّازه إلى ما وراءه ، فاختلفوا عليه ، فأخذ برأي جمهورهم ، وانصرف بالناس ، وقد أشرفوا على قطع البلاد وتَقَصّي الغاية .

وحكى الرازي : أن موسى خرج من إفريقية إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين ، واستخلف على إفريقية أسَنَّ ولده عبدَ الله بنَ موسى ، وكان موسى في عشرة آلاف ، قال : وكان عبدُ الملك بن مروان هو الذي أغزى موسى المغرب في خلافته ، ففُتِح له في أهله البرابرة فتوح كبار ، حتّى لقد بعث إلى عبد الملك في الخمس بعشرين ألف سَبِيّةٍ ، ثم أردفها بعشرين ألفاً أخرى ، كل ذلك من البربر ، فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك .

وزعم ابن حبيب[3] : أنّه دخل الأندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة ، وهو

---

[1] ك : بلاد .

[2] كذا في جميع الأصول .

[3] سيأتي الحديث عن التابعين الذين دخلوا الأندلس في أول الباب السادس .

المنيذر ، قال : ودخلها من التابعين ثلاثة : موسى الأمير ، وعلي بن رَباح اللخمي ، وَحَيْوَة بن رجاء التميمي ، وقيل: إن ثالثهم إنّما هو حَنَش ُ بن عبد الله الصنعاني ، صنعاء الشام ، وإنّهم قفلوا عنها بقفول موسى ، وأهل ُ سَرَقُسْطة يزعمون أن حنشاً مات عندهم ولم يَقْفُلْ للمشرق ، وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه ، فالله أعلم .

وقيل : إن التابعين أربعة بأبي عبد الرحمن الحُبلِيّ الأنصاري ، واسمه عبد الله بن يزيد ، والله أعلم ، وخمّسهم بعضهم بحِبّان[1] بن أبي جَبَلة مولى بني عبد الدار وكان في ديوان مصر ، فبعث به عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقّهوا أهلها ، وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عبّاس وابن عمر ، وحدث عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وغيره ، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس، وانتهى معه إلى حصن من حصون العدويقال له قَرْقَشُونة ، وقيل : بل قَفَلَ إلى إفريقية[2] فتوفي بها بعد العشرين ومائة .

وقال بعضهم : إن بين قَرْقَشُونة هذه وبين بَرْشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً ، وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسمّاة شنت مرية ، وقد حكى ابن حيّان أن فيها سبع سَوَارٍ من فضة خالصة لم يَرَ الراؤون مثلها لا يحيط الإنسان بذراعيه على واحدة منها مع طول مُفْرِط .

وحنش الصنعاني المذكور تابعي[3] جليل ، كان مع علي رضي الله عنه بالكوفة ، وقدم مصر بعد قَتْله ، فصار عدادُه في المصريين ، وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه ، وكفى الأندلس شرَفاً دخولُه لها .

وعلي بن رَباح بصري تابعي ، يكنى أبا عبد الله ، وهو لخمي ، وُلد عام اليَرْمُوك سنة خمس عشرة ، قال ابن مَعين : أهل مصر يقولونه بفتح العين ،

---

١ في جميع الأصول : بحيان (حيثما وقع) ؛ وأثبته ابن حجر (التبصير ١ : ٢٧٨) بالباء الموحدة .
٢ وقيل . . . . إفريقية : سقطت من ك .
٣ تابعي : سقطت من ق ، وهو سهو .

وأهل العراق يقولونه بضمّها ، وروى الليثُ عن ابنه موسى بن عليّ ، وكانت لعليّ بن رَباح عند عبد العزيز بن مَرْوان مكانة ، وهو الذي زفّ ابنته أم البنين لزوجها الوليد ، ثمّ عتب عليه عبد العزيز فأغزاه إفريقية .

وأمّا المنيذر الصحابي فلم ينسبه ابن حبيب ، وذكره ابن عبد البر في الصحابة[1] وقال : إنّه المنيذر الإفريقي ، وروى عنه أبو عبد الرحمن الحُبلي ، قال : حدّثنا المنيذر الإفريقي[2] ، وكان سكن إفريقية ، وكان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، أنّه سمعه صلى الله عليه وسلّم يقول : « من قال : رضيت بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلّم نبيّاً ، فأنا الزعيم له ، فلآخُذَنّ بيده ، فلأدخِلنّهُ الجنة » ورواه عنه ابن عبد البر بسنده إليه ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في حق المنيذر مزيدُ بيان[3] .

ولمّا قَفَلَ موسى بن نُصَير إلى المشرق وأصحابه سأل مغيثاً أن يسلم إليه العِلْجَ صاحبَ قُرْطُبة الذي كان في إساره ، فامتنع عليه ، وقال : لا يؤديه للخليفة سواي ، وكان يُدِل[4] بولائه من الوليد ، فهجم عليه موسى فانتزعه منه ، فقيل له : إن سرت به حيّاً معك ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ، فاضطغنها عليه مغيث ، وصار إلْباً مع طارق الساعي عليه ، واستخلف موسى على طَنْجَة وما يليها من المغرب ابنه الآخرَ عبدَ الملك ، وقد كان — كما مرّ — استخلف بإفريقية أكبرَ أولاده عبد الله ، فصار جميعُ الأندلس والمغرب بيد أولاده ، وابنُه عبد الله الذي خلفه بإفريقية هو الفاتح لجزيرة مَيُورقة . وسار موسى فورد الشام ، واختلف الناس : هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده ؟ فمن يقول بالثاني قال : قدم على سليمان حين استُخْلِف ، وكان منحرفاً عنه ، فسبق إليه طارق ومغيث بالشكية

---

١ انظر الاستيعاب : ١٤٨٥ .

٢ وروى . . . . الإفريقي : سقطت سهواً من ق .

٣ يعني في أول الباب السادس .

منه ، ورَمَيّاه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعِلج صاحب قرطبة ، وقالا له : إنّه قد غَلّ جوهراً عظيم القدر أصابه لم تحوِ الملوك من بعدِ فتح فارس مثلَه ، فلمّا وافى سليمان وجده ضغيناً عليه ، فأغلظ له ، واستقبله بالتأنيب والتوبيخ ، فاعتذر له ببعض العذر ، وسأله عن المائدة ، فأحْضَرَها ، فقال له : زعم طارق أنّه الذي أصابها دونك ، قال : لا ، وما رآها قَطُّ إلا عندي ، فقال طارق : فليسأله أمير المؤمنين عن الرِّجْل التي تنقصها ، فسأله ، فقال : هكذا أصبتها ، وعوضتها رِجْلاً صنعتها لها ، فحول طارق يده إلى قَبَائه فأخرج الرِّجْل ، فعلم سليمان صدقه وكذبَ موسى ، فحقّق جميعَ ما رمي به عنده ، وعزله عن جميع أعماله ، وأقصاه وحبسه ، وأمر بتقصّي حسابه ، فأغرمه غرماً عظيماً كشفه فيه ، حتّى اضطره إلى أن سأل العربَ مَعُونَته ، فيقال : إن لخماً حملت عنه في أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً ، وقيل : حمله سليمان غرم مائتي ألف ، فأدى مائة ألف ، وعجز ، فاستجار بيزيد بن المهلب أثير سليمانَ ، فاستوهبه من سليمان ، فوهبه إيّاه ، إلا أنّه عزل ابنه عبد الله عن إفريقية .

وقال الرازي : إن الذي أزعج موسى عن الأندلس أبو نصر رسول الوليد فقبض على عنانه وثَنّاه قافلاً ، وقفل معه من أحَبَّ المشرق ، وكان أكثر الناس قَطَنوا ببلاد الأندلس لطيبها ، فأقاموا فيها .

* * *

[نهاية موسى وابنه عبد العزيز]

وذهب جماعة من أهل التاريخ إلى أن موسى إنّما قدم على الوليد ، وأن سليمان وليّ العهد لمّا سمع بقرب موسى بن نُصَير من دمَشْق — وكان الوليد مريضاً — كتب — أي سليمانُ — إلى موسى يأمره بالتربص ، رجاء أن يموت الوليد قبلَ قدوم موسى فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم

الكثيرة التي ما رئي ولا سُمِع مثلها ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس ، فأبى موسى من ذلك ، ومنعه دينُه منه ، وجَدّ في السير[1] حتى قدم والوليدُ حيٌّ ، فسلّم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر ، فلم يمكث الوليد إلاّ يسيراً بعد قدوم موسى ، وتوفّي ، واستخلف سليمان ، فحقدَ عليه وأهانه ، وأمر بإقامته في الشمس حتى كاد يهلك ، وأغرمه أموالاً عظيمة ، ودسّ إلى أهل الأندلس بقَتْل ابنه الذي استخلفه على الأندلس ، وهو عبد العزيز بن موسى ، وكان تولى الأندلس بعد قُفُول أبيه عنها باستخلافه إيّاه كما سبق ، فضبط سلطانها ، وضمّ نَشَرَها ، وسدّ ثغورها ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة ممّا كان قد بقي على أبيه موسى منها ، وكان من خير الولاة ، إلاّ أن مدّته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم إيّاه عقب سنة خمس وتسعين في خلافة سليمان المُوقِع بأبيه موسى لأشياء نَقَمُوها عليه[2] : منها[3] زعموا تزوّجه لزوجة لُذَريق المكنّاة أم عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية ، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز ، فحظيَتْ عنده . ويقال : إنّه سكن بها في كنيسة بإشبيلية ، وإنّها قالت له : لمَ لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للُذَريق — زوجِها الأول — أهل مملكته ؟ فقال لها : إن هذا حرام في ديننا ، فلم تقنع منه بذلك ، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك ممّا يُزْري بقدره عندها ، فاتخذ باباً صغيراً قُبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه ، فينحنون ، وأفهمها أن ذلك الفعلَ منهم تحية له ، فرضيت بذلك ، فنُمِي الخبر إلى الجند ، مع ما انضم إلى ذلك من دسيسة سليمان لهم في قتله ، فقتلوه ، سامحه الله تعالى .

وذكر بعض المؤرخين أنهم وَجَدُوا في الحجر بعد ما تقدّم من الكتابة التي

---

١ ط : وأجد السير ؛ ج : وجد السير ؛ دوزي : وأغذ السير .

٢ انظر أخبار مجموعة : ٢٠ وابن القوطية : ٣٧ وتاريخ ابن عبد الحكم : ٢٨٥ .

٣ منها : سقطت من ك .

هي « ارجعوا يا بني إسماعيل إلخ » ما معناه : وإن سألتم لمَ ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقابَ بعض ، انتهى .

قال ابن حيّان : وليحيى بن حَكَم الشاعر المعروف بالغزّال في فتح الأندلس ، أرجوزة حسنة مطولة ذكر فيها السبب في غزوها نظماً [1] ، وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها ، وعداد الأمراء عليها وأسماءهم ، فأجاد وتقصّى ، وهي بأيدي الناس موجودة ، انتهى .

وقد عرفت بما سبق تفصيل ما أجمله ابنُ خلدون [2] ، والرواياتُ في فتح الأندلس مختلفة ، وقد ذكرنا نحن بحسب ما اقتضاه الوقت ما فيه كفاية ، وأشرنا إلى بعض الاختلاف في ذلك ، ولو بسطنا العبارة في الفتح لكان وحده في مجلد أو أكثر .

* * *

[عبد الرحمن الداخل]

وعُلم ممّا ألمعنا به من كلام ابن خلدون السابق ذكر الولاة للأندلس من لَدُن الفتح ، وهم من قبل بني مروان بالمشرق المنفردين بإمامة المسلمين أجمعين قبل تفرقهم ، إلى أن انقرضت دولتهم العظيمة التي هي ألف شهر ، فاقتطعَ الأندلسَ عن بني العبّاس الدائلين على بني مروان الناسخين لهم فَلُّ المروانيين عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، واقتعدها دار مملكة مستقلة لنفسه ولأعقابه ، وجمع بها شملَ بني أميّة ومواليهم ، وأورثها بنيه حِقْبَةً من الدهر ، بعد أن قاسى في ذلك خُطوباً ، واجتمع عليه ثم على ذريته من بعده أهل الأندلس أجمعون رضًى بهم دون بني العباس ، بعد أن حاول بنو العباس ملكها بأن وَلّوْا بعضَ رؤساء العرب ، وأمروهم بالقيام على عبد الرحمن والدعاء للعباسيين القاطعين جُرْثومة دولة بني مروان ، فلم يتيسّر ذلك ، وظفر

١ ق : فنظم فيها ذكر السبب في غزوها .
٢ انظر ص : ٢٣٢ — ٢٣٨ من هذا الكتاب .

عبد الرحمن بمن نصب له الحرب في ذلك ، وقتل منهم آلافاً ، وذلك في مدة المنصور كما سيأتي إن شاء الله تعالى عند ذكر عبد الرحمن الداخل في موضع آخر ، وسنذكر قريباً ولاة الأندلس من حين الفتح إلى إمارة الداخل ، وإن سبق في كلام ابن خلدون .

* * *

[مزيد بيان في نهاية موسى وشيء من شخصيته]

وقال بعضهم : كانت ولادة موسى بن نُصَيْر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة تسع عشرةَ من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأجلُّ السلام ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، انتهى .

وقال الحجاري في « المسهب » : يحكى أن موسى بن نُصَيْر ألقى بنفسه على يزيد بن المهلب لمكانه من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وطلب منه أن يكلمه في أن يخفّف عنه ؛ فقال له يزيد : أريد أن أسألك فأصغِ إليّ ؛ قال : سل عمّا بَدا لك ، فقال له : لم أزل أسمع عنك أنّك من أعقل الناس ، وأعرفهم بمكايد الحروب ومُداراة الدنيا ، فقل لي : كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخارَ ، وتيقنت بُعْدَ المرام واستصعابه ، واستخلصت بلاداً أنت افترَعْتها[1] ، واستملكت رجالاً لا يعرفون غير خيرك وشرّك ، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمَعاقل والرِجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيتَ عنقك في يد من لا يرحمك ، ثم إنّك علمت أن سليمان وليّ عهد ، وأنّه المولّى بعد أخيه ، وقد أشرف أخوه على الهلاك لا محالة ، وبعد ذلك خالفته ، وألقيت بيدك إلى التهلكة ، وأحقدت مالكك ومملوكك – قال : يعني سليمان وطارقاً – وما رضى هذا الرجل عنك إلاّ بعيد ، ولكن لا آلو جهداً ، فقال موسى : يا ابن الكرام ، ليس هذا وقت

---

١ ك : اخترعتها .

تعديد ، أما سمعت « إذا جاء الحَيْن ، غطى العين » ؟[1] فقال : ما قصدت بما قلت لك تعديداً ولا تبكيتاً ، وإنّما قصدت تلقيح العقل ، وتنبيه الرأي ، وأن[2] أرى ما عندك ؛ فقال موسى : أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بُعْد ، ويقع في الفخ وهو بمرأى عينه ؟ ثم كلم فيه سليمان ، فكان من جوابه « إنّه قد اشتمل رأسه بما تمكن له من الظهور ، وانقياد الجمهور ، والتحكم في الأموال والأبشار ، على ما لا يمحوه إلا السيف ، ولكن قد وهبت لك دمه ، وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يردّ ما غَلّ من مال الله » . قال : وآلت حاله إلى أن كان يُطاف به ليسأل من أحياء العرب ما يفتكّ به نفسه ، وفي تلك الحال مات ، وهو من أفقر الناس وأذلهم ، بوادي القُرَى ، سائلاً من كان نازلاً به .

وقال أحد غلمانه ممّن وفى له في حال الفقر والخمول : لقد رأيتُنا نطوف مع الأمير موسى بن نُصَيْر على أحياء العرب ، فواحد يجيبنا[3] ، وآخر يحتجب عنّا ، ولربما دفع إلينا على جهة الرحمة الدرهمَ والدرهمين ، فيفرح بذلك الأمير ليدفعه إلى الموكلين به ، فيخففون عنه من العذاب ، ولقد رأيتُنا أيام الفتوح العظام بالأندلس نأخذ السلوك[4] من قصور النصارى ، فنفصل منها ما يكون من الذهب وغير ذلك ونرمي به ، ولا نأخذ إلا الدُّرّ الفاخر ، فسبحان الذي بيده العزّ والذل والغنى والفقر .

قال : وكان له مولى قد وفى له وصبر عليه إلى أن ضاق ذَرْعُه بامتداد الحال ، فعزم على أن يُسْلمه وهو بوادي القُرَى في أسوإ حال ، وشَعَرَ بذلك موسى ، فخضع للمولى المذكور ، وقال له : يا فلان ، أتسلمني في هذه الحالة ؟

---

١ ك : غطى على .
٢ ط : وأنا .
٣ ق ط : يحيينا .
٤ ك : السلوب .

فقال له المولى ، من شدة ما كان فيه من الضجر : قد أسلمك خالقك ومالكك الذي هو أرحم الراحمين ، فدمَعَتْ عيناه ، وجعل يرفعهما إلى السماء خاضعاً مهيناً بشفتيه ، فما سفرت تلك الليلة إلاّ عن قبض روحه ، رحمة الله عليه ، فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يُترحم عليه، وإنّ فِعْلَ سليمان به وبولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه نائباً عنه[1] بالأندلس وقد جيء به من أقصى المغرب بين يديه من وَصَماته التي تُعدّ عليه طول الدهر ، لا جَرَمَ أنّ الله تعالى لم يمتعه بعده بملكه وشبابه .

وذكر ابن حيّان[2] أن موسى كان عربيّاً فصيحاً . وقد سبق من مُراجعة يزيد بن المهلب ما يدل على بلاغته ، ويكفي منها ما ذكره ابن حيّان أنّه كتب إلى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح الأندلس وغنائمها « إنّها ليست الفتوح ، ولكنّها الحشر »[3].

وقال الحجاري : إن منازعةً جرت بينه وبين عبد الله بن يزيد بن أسيد بمَحْضر عبد الملك بن مروان ألجأته إلى أن قال شعراً منه :

جاريت غيرَ سؤومٍ في مُطاولةٍ   لو نازع الحفلَ لم ينزع إلى حَصَرِ

وتقدم ما ذكره غير واحد كابن حيّان أن موسى مولى عبد العزيز بن مروان ، وكذا ذكر الحجاري أنّه[4] تجهز مع أم البنين بنت عبد العزيز حين ابتنى بها الوليد ابن عبد الملك ، فكانت تُنْمي مكانته عند الوليد إلى أن بلغ ما بلغ . وأشهر من كان في صحبة موسى بن نُصَير من مواليه طارق المشهور بالفتوح العظيمة ، وطريف ، وقد جرى ذكرهما في كتابنا هذا بما اقتضاه الاختصار .

---

١ ق : عنه نائباً .
٢ ق : وقال غيره ؛ ط ج : وقيل .
٣ انظر تاريخ ابن عبد الحكم : ٢٨١ .
٤ أنه : سقطت من ك .

وقال ابن سعيد ، بعد ذكره الخلاف في[1] موسى هل هو لخمي صريح أو بالولاء ، أو بربري ، أو مولى لعبد العزيز بن مروان ، ما صورته : وكان في عَقِبِه نَبَاهة في السلطنة ، وولي ابنه عبد العزيز سلطنة الأندلس ، وعبد الملك سلطنة المغرب الأقصى ، وعبد الله سلطنة إفريقية ، وذكر الحجاري[2] أن أصله من وادي القرى بالحجاز ، وأنّه خدم بني مروان بدمشق ، وتنبه شأنه ، فصرّفوه في ممالكهم إلى أن ولي إفريقية وما وراءها من المغرب في زمن الوليد بن عبد الملك ، فدَوّخَ أقاصي المغرب ، ودخل الأندلس من جبل موسى المنسوب إليه المجاور لسَبْتَة ، ودوّخ بلاد الأندلس ، ثمّ أوفده الوليد إلى الشام ، فوافق مرضه ثمّ موته وخلافة أخيه سليمان ، فعذبه واستصفى أمواله ، وآل أمره إلى أن وجّهه إلى قومه بوادي القرى لعلهم يعطفون عليه ويؤدون عنه ، فمات بها ، وقد نصّ ابن بَشْكُوال على أنّه مات بوادي القُرَى .

أمّا معارفه السلطانية فيكفيه ولاية ما خَلْفَ مصر إلى البحر المحيط بين بري البربر والأندلس .

وأما الأدبية فقد جاءت عنه بلاغة في النثر والنظم تُدْخله — مع نَزَارتها — في أصحاب در الكلام . وذكر ابن بَشْكُوال أنّه من التابعين الذين رووا الحديث ، وأن روايته عن تميم الداريّ ، وذكْرُه في كتب الأئمة من المصنفين أنْبَهُ وأوعب من أن يخصّص بذكره واحد منهم ، وهو غُرة التواريخ الأندلسية ، وذكره إلى الآن جديد في ألسن الخاصة والعامة من أهلها .

ومن مُسْهِب الحجاري : كان قد جمع — رحمه الله — من خلال الخير ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيّد ، والذكر الشهير المخلد ، الذي لا يُبْليه الليلُ والنهار ، ولا يُعَفّي جديدَه بلى الأعصار ، إلا أنّه كان يغلب عليه ما لا يكاد رئيسٌ يسلم منه ، وهو الحقد والحسد ، والمنافسة لا تخلو

---

١ ك : في أن .

٢ ق : قال بعضهم ؛ ط ج : وقيل .

من ذلك ، وأنشد بعض الرؤساء :

وليس رئيسُ القوم مَنْ يحمِلُ الحقدا

فقلبه الرئيس وقال « من يترك الحقدا » ثم قال : إن السيد إذا ترك إضمار الخير والشر والمجازاة عليهما اجتُرىء عليه ، ونُسب للضعف والغفلة ، وهل رأيت صفقَةً أخسر من غفلة[1] رئيس أحقده غيره فنسي ذلك أو تناساه ، وعدوّه لا يغفل عنه ، وحاسده لا ينفعه عنده إلاّ الراحة منه ، وهو في واد آخر عنه ، ولله درُّ القائل :

وَوَضْعُ النّدى في مَوْضع السيف بالعُلا مُضِرٌّ، كوَضْعِ السيف في موضع الندى

ولكن الأصوب أن يكون الرأي ميزاناً : لا يزن الوافي لناقصٍ ، ولا يزن الناقص لوافٍ ، ويدبر أمره على ما يقتضيه الزمان ، ويقدر فيه حُسن العاقبة .

ونص ابن بَشْكُوال على أن موسى بن نُصَير مات بوادي القُرَى سنة سبع وتسعين ، وأغزى[2] الأندلس سنة إحدى وتسعين ، ودخلها سنة ثلاث وتسعين ، وقفَل عنها إلى الوليد بن عبد الملك بالغنائم سنة أربع وتسعين ، وذكر أن ولايته على الأندلس بالمباشرة ــ مذ دخلها إلى حين خروجه منها ــ سنة واحدة ، ومكث فيها مولاه طارق سنة ، انتهى . وقد تقدم شيء من ذلك[3] .

* * *

[عود إلى ذكر التابعين في الأندلس]

وذكر ابن بَشْكُوال أيضاً أن ابن حبيب قال عن ربيعة : غلّ الناسُ كلّهم يوم فتح الأندلس ، إلا أربعة نفر فقط كانوا من التابعين : حنش الصنعاني ،

١ ق : صفقة .
٢ ك : وغزا .
٣ وقد ... ذلك : سقطت من ق .

وأبو عبد الرحمن الحُبلي ، وابن شِماسة ، وعياض بن عقبة ، انتهى .

قال ابن سعيد : وممن دخل الأندلس من غير هؤلاء الأربعة من التابعين علي بن رَباح اللخمي ، وموسى بن نُصَير فاتح الأندلس ، وحِبّان بن أبي جبلة القرشي مولاهم ، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي صاحب الأندلس المذكور في سلاطينها ، ومحمد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، وزيد بن قاصد السكسكي ، والمغيرة بن أبي بردة الكناني ، وعبد الله بن المغيرة الكناني ، وحَيْوة بن رجاء التميمي ، وعبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عَوْف ، ومنصور بن خزامة ، وعلي بن عثمان بن خطاب .

وذكر ابن حبيب أن عدة من دخل الأندلس من التابعين سوى من لا يعرف نحو عشرين رجلاً . وفي كتاب ابن بَشْكُوال أنه دخل الأندلس من التابعين ثمانية وعشرون رجلاً ، وهم أسّسُوا قبلة المسجد الجامع بقُرْطُبة ، وسمى الحجاري في المُسْهِب هؤلاء المتقدمين .

وذكر ابن سعيد أنه لم يتحقّق المواضع التي تختص بهؤلاء التابعين من بلاد الأندلس ، مع جزمه بأنهم دخلوا الأندلس وكانوا [1] بها ، وسيأتي ذكر التابعين الداخلين الأندلس بما هو أشمل من هذا ، وقد تقدم غُلولُ من عدا التابعين من الغنائم .

* * *

[مغانم الأندلس]

وقال الليث بن سَعْد ، بعد ذكره أن طارقاً أصاب بالأندلس مغانم كثيرة من الذهب والفضة [2] : إن كانت الطِّنْفِسَةُ لَتُوجد منسوجة بقضبان الذهب ، وتُنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وكان البربر ربما وجدوها فلا يستطيعون حملها حتى يأتوا بالفأس فيضربوا به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها

---

١ ك : وسكنوا .

٢ النص في تاريخ ابن عبد الحكم : ٢٨١ .

والآخر النصف الآخر لنفسه ، ويسير معهم جماعة والناسُ مشتغلون بغير ذلك .

وعن يحيى بن سعيد : لمّا افتتحت الأندلس أصاب الناسُ فيها غنائم ، فغلوا منها غلولاً كثيراً حملوه في المراكب وركبوا البحر ، فسمعوا منادياً يقول : اللّهم غرّق بهم ، وتقلدوا المصاحف ، فما نشبوا أن أصابتهم ريح عاصف ، وضربت المراكب بعضها بعضاً حتى تكسرت ، وغرق بهم ، وأهل مصر ينكرون ذلك ، ويقولون : أهل الأندلس ليس هم الذين غرقوا ، وإنّما هم أهل سردانية ، فالله أعلم بحقيقة الحال .

ورأيت في بعض كتب التاريخ[1] أنّه وُجد في طُلَيْطلة حين فتحت من الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكي ، ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف ، ومائدة سليمان ، وكانت — فيما يُذكر — من زمرّدة خضراء ، وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان ، وإنّما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهلُ الحسنة في دينهم إذا مات أحد منهم أوصى بمال للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم مال له قَدْرٌ صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة ، والكراسي من الذهب والفضّة ، تحمل الشمامسةُ والقُسوسُ فوقها الأناجيل في أيام المناسك ، ويضعونها في الأعياد للمباهاة ، فكانت تلك المائدة بطُلَيْطلة ممّا صُنع في هذا السبيل ، وتأنّق الملوك في تحسينها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتُّخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر بها كلَّ مَطار ، وكانت مَصُوغة من الذهب الخالص مُرَصَّعَة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد ، وقيل : إنّها من زبرجدة خضراء حافاتُها وأرجلُها منها ، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رِجلاً ، وكانت توضع في كنيسة طُلَيْطلة ، فأصابها طارق ، انتهى .

---

١ تقدم ما هو شبيه بذلك ، انظر ص : ٢٧٢ من هذا الكتاب ؛ وفي ك : ورأيت لبعض أهل التاريخ.

وقد ذكرنا فيما مرّ عن ابن حيّان ما فيه نظير هذا ، وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها ما فيه بعض تخالف ، وما ذلك إلاّ لأنّا ننقل كلام المؤرخين ، وإن خالف بعضهم بعضاً ، ومرادنا تكثير الفائدة ، وبالجملة فالمائدة جليلة المقدار ، وإن حصل الخلاف في صفتها وجنسها وعدد أرجلها ، وهي من أجلّ ما غُنم بالأندلس ، على كثرة ما حصل فيها من الغنائم المتنوّعة الأجناس التي ذكْرُها إلى الآن شائع بين الناس .

* * *

[استيطان العرب في الأندلس]

واعلم أنّه لمّا استقرّ قدم أهل الإسلام بالأندلس وتتامّ فتحها صرف أهلُ الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابَهُم إلى أن كان من أمرهم ما كان .

فأمّا العدنانيون فمنهم خِنْدِف ومنهم قريش ، وأمّا بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب في فرحة الأنفس : بالأندلس منهم جماعة كلّهم من ولد إدريس ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، ومن هؤلاء بنو حَمّود ملوك الأندلس بعد انتثار سلك بني أمية [1] ، وأمّا بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس ، قال ابن سعيد : ويُعْرفون هنالك إلى الآن بالقرشيين ، وإنّما عَمّوْا نسبتهم إلى أميّة في الآخر لمّا انحرف الناسُ عنهم ، وذكروا أفعالهم في الحسين رضي الله عنه ، وأمّا بنو زُهْرة فهم [2] بإشبيلية أعيان متميزون ، وأمّا المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومي الأعمى الشاعر المشهور من أهل حصن المدوَّر ، ومنهم الوزير الفاضل في النظم والنثر أبو بكر بن زَيْدون ووالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بني عبّاد . وقال ابن غالب : وفي الأندلس مَن يُنسب إلى جُمَح ، وإلى بني عبد الدار ، وكثير من قريش المعروفون بالفِهْريين من بني مُحارب ....

1 انظر جمهرة ابن حزم : ٥٠ — ٥١ في أنساب الحموديين .

2 في بعض الأصول : فمنهم .

ابن فِهْر ، وهم من قريش الظواهر ، ومنهم عبد الملك بن قَطَن سلطانُ الأندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء ، وبنو الجَدّ الأعيان العلماء . ومن بني الحارث بن فهر يوسفُ بن عبد الرحمن الفهري سلطان الأندلس الذي غلبه عليها عبدُ الرحمن الأموي الداخل ، وجدّ يوسف عقبة بن نافع الفهري صاحب الفتوح بإفريقية ، قال ابن حزم : ولهم بالأندلس عَدَد وثروة . وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلّهم في طُلَيْطلة وأعمالها ، ولهم يُنسب الوَقَّشِيّون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضي أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جُبَيْر العالم صاحب الرحلة ، وقد ذكرناه في محله . وأما هُذَيل بن مدركة بن إلياس بن مُضر فذكر ابنُ غالب أن منزلهم بجهة أرْيُولة من كورة تُدْمير . وأمّا تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر فذكر ابنُ غالب أيضاً أنهم خلق كثير بالأندلس ، ومنهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية . وأمّا ضبة بن أد بن طابخة فذكر أنهم قليلون بالأندلس ، فهؤلاء خندف من العدنانية .

وأما قيس عَيْلان بن إلياس بن مضر من العدنانية ففي الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومنهم من ينتسب إلى سُلَيم بن منصور بن عِكرمة بن خَصَفة بن قيس ، كعبد الملك بن حَبيب السّلمي الفقيه صاحب الإمام مالك رضي الله عنه ، وكالقاضي أبي حَفْص بن عمر قاضي قُرْطُبَة . ومن قيس مَنْ ينتسب إلى هَوازن بن منصور بن عِكْرمة ، قال ابن غالب : وهم بإشبيلية خلق كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هَوَازن ، قال ابن غالب : ولهم منزل بجَوْفيّ بلنسية على ثلاثة أميال منها ، وبإشبيلية وغيرها منهم خلق كثير ، ومنهم بنو حَزْم ، وهم بيت غير البيت الذي منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهري ، وهو فارسي الأصل . ومنهم من ينتسب إلى سعد بن بكر بن هوازن ، وذكر ابن غالب أن منهم بغَرْناطة كثيراً ، كبني جُودِيّ ، وقد رأس بعضُ بني جودي . ومنهم من ينتسب إلى سَلُول امرأةٍ نُسِب إليها بنوها ، وأبوهم مُرّة بن صعصعة

ابن معاوية بن بكر بن هوازن . ومنهم من ينتسب إلى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . ومنهم من ينتسب إلى نُمَيْر بن عامر ابن صعصعة ، قال ابن غالب : وهم بغَرْناطة كثير . ومنهم من ينتسب إلى قُشَيْر بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ومنهم بلج بن بشر صاحب الأندلس وآله ، وبنو رَشِيق . ومنهم من ينتسب إلى فَزَارة بن ذُبْيان بن بَغيض بن رَيْث بن غَطَفان بن سعد بن قيس عَيْلان . ومنهم من ينتسب إلى أشْجَع بن رَيْث بن غطفان ، ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الأشجعي سلطان الأندلس . وفي ثقيف اختلاف ، فمنهم من قال : إنّها قيسية ، وإن ثقيفاً هو قَسِيُّ بن منبه بن بكر بن هوازن ، ومنهم بالأندلس جماعة ، وإليهم ينتسب الحُرُّ بن عبد الرحمن الثقفي صاحب الأندلس ، وقيل : إنّها من بقايا ثمود ؛ انتهى قيس عيلان وجميع مضر .

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار ، قال في فرحة الأنفس : إن إقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجَوْفيّ مدينة وادي آش ، انتهى ؛ والأشهر بالنسبة إلى أسد أبداً بنو أسد بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر . ومنهم من ينتسب إلى مُحارب بن عمرو بن وديعة بن لُكَيْز[1] بن أفصَى بن دُعْمي بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة ، قال ابن غالب في فرحة الأنفس : ومنهم بنو عطية أعيان غَرْناطة . ومنهم من ينتسب إلى النَّمِر بن قاسط بن هِنْب بن أفصَى بن دُعْمي بن جَديلة بن أسد ، كبني عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عُمر بن عبد البر . ومنهم من ينتسب إلى تَغْلب بن وائل بن قاسط بن هِنْب ، كبني حَمْدين أعيان قُرْطُبة ، ومنهم من ينتسب إلى بكر ابن وائل ، كالبكريين أصحاب أونبة وشَلْطيش الذين منهم أبو عُبَيد البَكْري صاحب التصانيف ؛ انتهت ربيعة .

---

١ في الأصول : بكير .

وأما إياد بن نِزَار ، وقد يقال : إنّه ابن معد ، والصحيح الأول ، فينتسب إليهم بنو زُهْر المشهورون بإشبيلية وغيرهم [1] ؛ انتهت العدنانية ، وهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام .

واختُلف في القحطانية : هل هم من ولد إسماعيل أو من ولد هود ، على ما هو معروف ، وظاهر صنيع البخاري الأول ، والأكثر على خلافه ، والقحطانية هم المعروفون باليمانية ، وكثيراً ما يقع بينهم وبين المُضَرية وسائر العَدْنانية الحروب بالأندلس ، كما كان يقع بالمشرق ، وهم الأكثر بالأندلس ، والملك فيهم أرسخ ، إلا ما كان من خلفاء بني أمية ، فإن القرشية قدّمتهم على الفرقتين ، واسم الخلافة لهم بالمشرق ، وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم وقَطْع التحامهم وتعصّبهم في الاعتزاء ، وقدّم القوّاد على الأجناد ، فيكون في جند القائد الواحد فِرَقٌ من كل قبيل ، فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالأندلس ، إلاّ ما جاءت على غير هذه الجهة .

قال ابن حزم : جماع أنساب اليمن من جِذْمين : كَهْلان وحِمْير [ابني سبأ] بن يَشْجب بن يَعْرب بن قَحْطان بن عابر بن شالح بن أرفخشذ ابن سام بن نوح ، وقيل : قحطانُ بنُ الهمَيْسَع بن تَيْمان بن نبت بن إسماعيل ، وقيل قحطان بنُ هود بن عبد الله بن رَباح بن حارف بن عاد بن عَوْص [2] بن إرم بن سام ، والخُلف في ذلك مشهور . فمنهم كهلان بن سبأ بن يَشْجُب ابن يَعْرُب بن قحطان ، ومنهم الأزْدُ بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان ، وإليهم ينتسب محمد بن هانىء الشاعر المشهور الإلبيري ، وهو من بني المهلّب ؛ ومن الأزد من ينتسب إلى غَسّان ، وهم بنو مازن بن الأزد ، وغسّان : ماء شَرِبُوا منه ، وذكر ابن غالب أن منهم بني القُلَيْعي من أعيان

---

1 قال ابن حزم (الجمهرة : ٣٢٧) إن دار إياد بالأندلس هي قرمونة ولبلة .

2 في الأصول : عوص .

غَرْناطة ، وكثير منهم بصالحَة قرية على طريق مالَقَة ؛ ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم ، وهم الجم الغفير بالأندلس .

قال ابن سعيد : والعجب أنّك تَعْدَم هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة ، ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلاّ شيخاً من الخزرج وعجوزاً من الأوس .

قال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طُلَيْطلة ، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها ومغربها ، انتهى .

ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عُبَادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سَعْد بن عُبَادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المشهور بالموشّحات ، وإلى قَيْس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطينُ غَرْناطة الذين كان لسانُ الدين بن الخطيب أحدَ وزرائهم ، وعليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين ، واستولى العدوّ على الجزيرة جميعاً كما يُذكر[1] .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخي الخزرج ، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عَكّ بن عُدْثان بن هزّان بن الأزد ، وقد يقال : عك بن عدنان – بالنون – فيكون أخا معدّ بن عدنان ، وليس بصحيح ؛ قال ابن غالب : من غافق أبو عبد الله بن أبي الخِصال الكاتبُ ، وأكثر جهات شَقُورة ينتسبون إلى غافق[2] . ومن كهلان من ينتسب إلى هَمْدان ، وهو أوْسلة بن مالك بن زيد بن

١ من الأنصار الذين ذكر ابن حزم مواطنهم : بنو ربيع بن محمد بن ربيع من الأوس كانوا بقرطبة يتولون الأهراء (٣٣٣) وبنو عثيم بن سفيان برية (٣٤٧) وبقرطبة ، وكانوا يحملون الألوية لخلفاء بني مروان (٣٤٨) ، وكان من ولد عبادة بن الصامت قوم يسكنون بالمدينة عندنا بباب العطارين بقرطبة يعرفون ببني هارون (٣٥٤) ومن ولد مالك الأغر بنو خبيب وبنو قطنين البيازون الساكنون بقرية اختيانة من قبرة (٣٦٣) ومن ولد النعمان بن بشير قوم بقرية شوش الأنصار من إشبيلية (٣٦٤ – ٣٦٥) ولسعيد بن سعد عقب بالأندلس بقرية يقال لها قربلان من عمل سرقسطة (٣٦٥) .

٢ قال ابن حزم : ودارهم (أي غافق) بالأندلس معروفة باسمهم في الجوف في شمال قرطبة ؛ منهم=

أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان[1] ، ومنزل همدان مشهور على ستة أميال من غَرْناطة ، ومنهم أصحاب غَرْناطة بنو أضْحى[2] . ومن كهلان من ينتسب إلى مَذْحِج ، ومذحج : اسمُ أكَمَة حمراء باليمن ، وقيل : اسم أم مالك وطيء ابني أدد بن زيد بن كهلان ، قال ابن غالب : بنو سِرَاج الأعيان من أهل قُرْطُبة ينتسبون إلى مذحج . ومنزل طيء بقبلي مُرْسية . ومنهم من ينتسب إلى مُراد بن مالك بن أدد ، وحصنُ مراد بين إشْبيليَة وقُرْطُبة مشهور ، قال ابن غالب : وأعرف بمراد منهم خلقاً كثيراً . ومنهم من ينتسب إلى عَنْس بن مالك بن أدد ، ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب « المغرب » وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غَرْناطة . ومن مَذْحج من ينتسب إلى زُبَيْد ، قال ابن غالب : وهو مُنَبّه بن سعد العَشِيرة بن مالك بن أدد . ومن كهلان من ينتسب إلى مُرّة بن أدد بن زيد بن كهلان ، قال ابن غالب : منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غَرْناطة . ومنهم من ينتسب إلى عامِلَة ، وهي امرأة من قُضاعة ولدت للحارث ابن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد ، فنُسب ولدها منه إليها ، قال ابن غالب : منهم بنو سِماك القُضاة من أهل غَرْناطة ، وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبأ ابن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان ، وقيل : هم من قُضاعة . ومن كَهْلان خَوْلان بن عمرو بن الحارث بن مرّة ، وقلعة خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية ، ومنهم بنو عبد السلام أعيان غَرْناطة . ومنهم من ينتسب إلى المَعافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرّة ، ومنهم المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس . ومنهم من ينتسب إلى لَخْم بن عدي بن الحارث بن مرّة ، منهم

— بنو أسلم . . . ومنهم كان أمير الأندلس عبد الرحمن [الغافقي] . . . وله عقب قد شمل بمرنيانة الغافقيين ، بقرب إشبيلية على النهر الأكبر (٣٢٩) .

١ ثبت في طبعة ليدن تصويباً : وهو أوسلة بن ربيعة بن الخيار . . . الخ . وما ثبت هنا أقرب إلى نص عجالة المبتدي (ص ١٢٣) .

٢ قال ابن حزم : ودار همدان بالأندلس البيرة (٣٩٧) وهناك قرية همدان إلى الجنوب من غرناطة ، (الإحاطة ١ : ١١٨) .

بنو عبّاد أصحاب إشبيلية وغيرها ، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة ، ومنهم بنو الباجي أعيان إشبيلية ، وبنو وافد الأعيان . ومنهم من ينتسب إلى جُذام مثل ثوّابة بن سلامة صاحب الأندلس ، وبني هُود ملوك شرقيّ الأندلس ، ومنهم المتوكل بن هُود الذي صحت له سلطنة الأندلس بعد الموحّدين ، ومنهم بنو مرْدَنيش أصحاب شرقي الأندلس ، قال ابن غالب : وكان لجُذام جزء من قلعة رَباح ، واسم جُذام عامر ، واسم لخم مالك ، وهما ابنا عديّ . ومن كهلان مَنْ ينتسب إلى كِنْدَة ، وهو ثَوْر بن عُفير بن عدي [بن الحارث] ابن مرة بن أدد ، ومنهم يوسف بن هرون الرمادي الشاعر . ومنهم من ينتسب إلى تُجيبَ وهي امرأة أشْرَسَ بن السَّكُون بن أشرس بن كندة . ومن كهلان من ينتسب إلى خَثْعم بن أنمار بن اراش بن عمرو بن الغَوْث بن نَبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، ومنهم عثمان بن أبي نِسْعَةَ سلطانُ الأندلس ، وقد قيل : أنمار بن نزار بن معدّ بن عدنان ؛ انتهت كهلان .

وأمّا حمير بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان فمنهم من ينتسب إلى ذي رُعَين ، قال ابن غالب : وذو رُعَين هم ولد عمرو بن حِمْيَر في بعض الأقوال ، وقيل : هو من ولد سَهْل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن قَطَن بن عَريب بن زُهير بن أيمن بن الهَمَيْسع بن حمير ، قال : ومنهم أبو عبد الله الحَنّاط الأعمى الشاعر [1] ، قال الحازمي [2] في كتاب النسب [3] واسم ذي رُعَين يَرِيمُ [4] بن زيد بن سهل ، ووصل

---

١ سنعرف به في موضعه ؛ قال ابن حزم (٤٣٤) : ودار رعين بالأندلس الفحص المنسوب إليهم برية .

٢ هو الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمذاني (— ٥٨٤) راجع ترجمته في ابن خلكان : ٣ : ٤٢١ وطبقات السبكي : ٤ : ١١٩ وهو صاحب كتاب « عجالة المبتدي وفضالة المنتهي » في النسب ؛ حققه الأستاذ عبد الله كنون (القاهرة : ١٩٦٥) .

٣ انظر عجالة المبتدي : ٦٦ .

٤ يريم : كذا هو في دوزي والعجالة ، وفي المخطوطات : عريم .

النسب ، ومنهم من ينتسب إلى ذي أصْبَح ، قال ابن حزم[1] : هو ذو أصبح ابن مالك بن زيد من ولد سبأ الأصغر بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس، ووصل النسب ، وذكر الحازمي[2] أن ذا أصبح من كَهْلان ، وأخبر أن منهم مالك بن أنس الإمام ، والمشهور أنهم من حِمْير ، والأصْبَحيون من أعيان قُرْطُبَة ، ومنهم من ينتسب إلى يَحْصُب ، قال ابن حزم : إنّه أخو ذي أصْبَح وهم كثير بقلعة بني سعيد ، وقد تُعرف من أجلهم في التواريخ الأندلسية بقلعة يَحْصب ، ومنهم من ينتسب إلى هَوزن[3] بن عَوْف بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث ، قال ابن غالب : ومنزلهم بشرفِ إشبيليّة[4]، والهوزنيون من أعيان إشبيلية . ومنهم من ينتسب إلى قُضَاعة بن مالك بن حِمْير ، وقد قيل : إنّه قضاعة بن معدّ بن عدنان ، وليس بمرضي ، ومن قُضَاعة من ينتسب إلى مَهْرَة كالوزير أبي بكر ابن عمار الذي وَثَب على ملك مُرْسية، وهو مَهْرَة بن حَيْدان[5] بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، ومنهم من ينتسب إلى خُشَيْن بن نمر بن وبرة بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، ومنهم من ينتسب إلى تَنُوخ ، قال ابن غالب : وهو ابن مالك بن فَهْم بن نمر بن وَبَرَة بن تغلب ، قال الحازمي[6] : تَنُوخ هو مالك بن فهم بن تَيْم الله بن أسد بن وَبَرة . ومنهم من ينتسب إلى بَلِيّ بن عمرو ابن الحاف بن قُضَاعة ، ومنهم البَلَويّون بإشبيلية[7] . ومنهم من ينتسب إلى جُهَيْنة بن سود بن أسْلَم بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة ، قال ابن غالب :

......

١ انظر الجمهرة : ٤٣٥ .
٢ عجالة المبتدي : ١٧ .
٣ ط ودوزي : هوازن ، وهو خطأ .
٤ قال ابن حزم (٤٣٤) : ودار بني هوزن بالأندلس القريتان المذكورتان بهما بإشبيلية .
٥ ط : سعدان .
٦ عجالة المبتدي : ٣٣ .
٧ حدد ابن حزم (٤٤٢) منازل بلي بقوله : ودار بلي بالأندلس الموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة ، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ، لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم . . . وكانت لهم دار أخرى بكورة موررور أيضاً .

وبقُرْطُبة منهم جماعة . ومنهم من ينتسب إلى كَلْب بن وَبَرَة بن تغلب بن حُلوان كبني أبي عبدة الذين منهم بنو جَهْوَر ملوك قرطبة ووزراؤها . ومنهم من ينتسب إلى عُذرة بن سعد هُذيم بن زيد بن سود بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عُذْرة[1] .

ومن أهل الأندلس مَنْ ينتسب إلى حَضْرمَوْت ، منهم الحضرميون بمُرْسية وغَرْناطة وإشبيلية وبَطَلْيَوس وقُرْطُبة ؛ قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس ، وفيه خلاف ، قيل : إن حضرموت هو ابن قحطان ، وقيل : هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن جَيْدان – بالجيم – بن قطن بن العَرِيب بن الغَزْز[2] بن نَبْت بن أيمن بن الهميسع ابن حمير ، كذا نَسَقَ النسبَ الحازمي[3] .

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى سَلامان ، ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذُكر في محله .

* * *

[ثبت بأسماء الأمراء]

وقد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بني أمية ، وإن تقدّم ويأتي ذكر جملة منهم بما هو أتم ممّا هنا ؛ فنقول :

طارق بن زياد مولى موسى بن نُصَير .

ثمّ الأمير موسى بن نُصَير ، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة .

ثمّ عبد العزيز بن موسى بن نُصَير ، وسريره إشبيلية .

ثمّ أيوب بن حبيب اللخمي ، وسريره قُرْطُبة ، وكل من يأتي بعده فسريره

١ قال ابن حزم (٤٥٠) ودار بني عذرة بالأندلس : دلاية ، وبجيان منهم ، وبالثغر منهم بنو فوارتش ، ولهم عدد بسرقسطة .

٢ عجالة المبتدي : الفزر .

٣ انظر عجالة المبتدي : ٤٩ .

قرطبة أو الزهراء والزاهرة بجانبيها إلى أن انقضت دولة بني مروان على ما ينبه عليه .

ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي .

ثمّ السّمْح بن مالك الخَوْلاني .

ثمّ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي .

ثمّ عَنْبَسَةُ بن سُحَيم الكلبي .

ثمّ عُذْرة[1] بن عبد الله الفِهْري .

ثمّ يحيى بن سلمة الكلبي .

ثمّ عثمان بن أبي نِسْعَةَ الخَثْعَمي .

ثمّ حذيفة بن الأحوص القيسي .

ثمّ الهيثم بن عديّ[2] الكلابي .

ثمّ محمد بن عبد الله الأشجعي .

ثمّ عبد الملك بن قَطَن الفِهْري .

ثمّ بلج بن بشر بن عياض القُشَيري .

ثمّ ثعلبة بن سلامة العاملي .

ثمّ أبو الخطار [حُسامُ] بن ضرار الكلبي .

ثمّ ثوابة بن سلامة الجُذامي .

ثمّ يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري .

وههنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير مُوارثة ، أفراداً ، عددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد ، ولم يتعدّوا في السّمة لفظ الأمير .

قال ابن حيّان : مدتّهم منذ تاريخ الفتح من[3] لُذَريق سلطان الأندلس النصراني — وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين — إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري ، وتغلب عبد الرحمن بن معاوية

1 دوزي : عزرة .

2 في الأصول : عبيد .

3 ق ط ج : في .

المرواني على سريرِ الملك قرطُبة — وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجّة سنة ثمان وثلاثين ومائة — ست وأربعون سنة وخمسة أيام ، انتهى .

* * *

[حكام بني أميّة]

ثمّ كانت دولة بني أمية :

أولهم عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

ثمّ ابنه هشام الرضى .

ثمّ ابنه الحكم بن هشام .

ثمّ ابنه عبد الرحمن الأوسط .

ثمّ ابنه محمد بن عبد الرحمن .

ثمّ ابنه المنذر بن محمد .

ثمّ أخوه عبد الله بن محمد .

ثمّ ابن ابنه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله .

ثمّ ابنه الحكم المستنصر ، وكرسيهما الزهراء .

ثمّ[1] هشام بن الحكم ، وفي أيامه بنى حاجبُه المنصور بن أبي عامر الزاهرة .

ثمّ المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ، وهو أول خلفاء الفتنة ، وهُدمت في أيّامه الزهراء والزاهرة ، وعاد السرير إلى قُرْطُبَة .

ثمّ المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر .

* * *

[الحموديون]

ثمّ تخللت دولة بني حَمّود العلويين :

وأولهم الناصر علي بن حَمّود العَلَوي الحسني الإدريسي .

---

١ ط : ثم المؤيد .

ثمّ أخوه المأمون القاسم بن حمود .
ثمّ المعتلي يحيى بن الناصر علي بن حمود .

* * *

[بقيّة بني أميّة]

ثمّ كانت دولة بني أمية الثانية :
وأولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر .
ثم المستكفي محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر .
ثمّ المعتدّ [1] هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وهو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس ، وحين خُلع أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية .

* * *

[ملوك الطوائف ومن بعدهم]

واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور في قرطبة ، وابن عبّاد بإشبيلية ، وغيرهما ، ولم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد ، إلى أن ملكها يوسف بن تاشفين الملثم من برّ العُدْوَة ، وفتك في ملوك الطوائف ، وبعد ذلك ما خلصت له ولا لولده علي بن يوسف ، لأن بني هود نازعوه في شرقها بالثغر ، إلى أن جاءت دولة عبد المؤمن وبنيه ، فما صفت لعبد المؤمن بمحمد بن مَرْدَنيش الذي كان ينازعه في شرق الأندلس ، ثمّ صفت ليوسف بن عبد المؤمن بموت ابن مَرْدَنيش . ثم لمن بعده من بنيه ، وحضرتهم مَرَّاكش ، وكانت ولاتهم تتردّد على الأندلس وممالكها ، ولم يولوا على جميعها شخصاً واحداً لعظم ممالكها ، إلى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بني هود ملوك سَرَقُسْطة وجهاتها . فملك معظم الأندلس بحيث يُطلق عليه اسم السلطان ، ولم ينازعه فيها إلاّ زيّان بن مَرْدَنيش في بَلَنْسيَة من شرق الأندلس ، وابن هلالة في طبيرة [2] ....

١ ط : المعتمد .
٢ ط : طبرزة .

من غرب الأندلس ، ثم كثرت عليه الخوارج قريبَ مَوْته ، ولمّا قتله وزيره ابن الرُّميمي بالمريّة زاد الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر . وكان أهل غرب الأندلس في المائة السابعة يخطبون لصاحب إفريقية السلطان أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حَفْص ، ثم تقلّصت تلك الظلال ، ودخل الجزيرة الانحلال ، إلى أن استولى عليها حزب الضلال ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وقد ذكرت في هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الأندلس ممّا يصلح للمذاكرة ، وربما سَرَّحت طرف القلم في بعضهم .

وبنو جَهْوَر المشار إليهم قريباً كانوا وُزَرَاء الأمويين ، ثمّ إنّه لمّا انتثر سلك الخلافة استبدّ بقُرْطُبَة الوزير أبو الحزم بن جَهْوَر من غير أن يتعدى اسم الوزارة.

* * *

[جهور بن محمد بن جهور]

قال في «المطمح»[1] : الوزيرُ الأجلُّ جَهْوَر بن محمد بن جهور ، [وبنو جهور] أهل بيت وزارة ، اشتهروا كاشتهار ابن هُبَيْرة في فَزَارة ، وأبو الحزم أمجدهم في المكرمات ، وأنجدهم في الملمّات ، ركب مُتُون الفتون فَرَاضَها ، ووقع في بحور المحن فخاضها ، منبسط غير منكمش ، لا طائشُ اللسان ولا رَعِش ، وقد كان وَزَرَ في الدولة العامرية فشَرُفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلمّا انقرضت وعاقَتِ الفتنُ واعترضت ، تحيز عن التدبير مُدّتها ، وخلّى لخلافه أعباء الخلافة وشدّتها ، وجعل يُقْبل مع أولئك الوزراء ويُدْبر ، وينهل[2] الأمر معهم ويُدَبّر ، غير مظهر للانفراد[3] ، ولا متصرّف[4] في ميدان ذلك الطّراد ، إلى أن بلغت الفتنة مَداها ، وسوّغت ما شاءت رَدّاها ، وذهب مَنْ كان يَخِدُ[5] في

---

١ انظر المطمح : ١٤ .
٢ ك : ويدبر .
٣ ط : إلى انفراد
٤ المطمح : ولا مقصر .
٥ ط ج : يجد .

الرياسة ويخبّ ، ويسعى في الفتنة ويَدِبّ ، ولمّا ارتفع الوبال ، وأدبر ذلك الإقبال ، راسَلَ أهلَ التقوى مستمدّاً بهم ، ومعتمداً على بعضهم ، تحيُّلاً[1] منه وتمويها ، وتداهياً على أهل الخلافة وذَويها ، وعرض عليهم تقديم المعتدّ هشام ، وأومض منه لأهل قُرْطُبَة برق خُلَّب[2] يشام ، بعد سرعة التيامها ، وتعجيل انتكاثها ، فأنابوا إلى الإجابة ، وأجابوا إلى استرعائه الوزارة والحجابة[3]، وتوجهوا مع ذلك الإمام ، وألمّوا بقرطبة أحسن إلمام ، فدخلوها بعد فتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة ، والبلد مُقْفر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير حتى جبذ[4] واضطرب أمره فخُلع ، واختُطف من الملك وانتُزع ، وانقضت[5] الدولة الأموية ، وارتفعت الدولة العلوية ، واستولى على قُرْطُبَة عند ذلك أبو الحَزْم ، ودبّرها[6] بالجد والعَزْم ، وَضَبَطَها ضبطاً أمّنَ خائفَها ، ورفع طارقَ تلك الفتنة وطائفَها ، وخلا له الجوّ فطارِ ، واقتضى[7] اللبانات والأوطار ، فعادت له قُرْطُبَة إلى أكمل حالتها ، وانجلى به نورُ جَلالتها ، ولم تزل به مُشْرقة ، وغصونُ الآمال فيها مُورِقة ، إلى أن توفّي سنة ٤٣٥ فانتقل الأمر إلى ابنه أبي الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ، وكان لأبي الحزم أدب ووقار وحلم سارت بها الأمثال ، وعدم فيها المِثال ، وقد أثبتُّ من شعره ما هو لائق ، وفي سماء الحسن رائق ، وذلك قولُه في تفضيل الورد[8] :

١ في المطمح : تخبيلا .
٢ المطمح : خلابة .
٣ دوزي . فأنابوا إلى دعائه ، وأجابوا إلى استرعائه .
٤ ك : حيد ؛ ط : جيد ؛ ج : جهد .
٥ ك : وانقرضت .
٦ ك : ودبر أمرها .
٧ ك : وقضى .
٨ تابع المقري هنا خطأ الفتح في المطمح ، وقد نبه ابن الأبار في الحلة (١ : ٢٥٠) على هذا الخطأ ، قال : أنشد أبو نصر الفتح بن عبيد الله الإشبيلي في كتاب « مطمح الأنفس ومسرح التأنس في محاسن أهل المغرب والأندلس » من تأليفه أكثر هذه الأبيات والتي قبلها ، ونسبها لأبي الحزم=

الوردُ أحسَنُ ما رأت عيني وأذ ... كى ما سَقى ماءُ السحاب الجائدُ
خضَعَتْ نواوِيرُ الرّياض لحسنه ... فتذللت تنقاد وَهْيَ شَوَارِدُ
وإذا تَبَدّى الوَرْدُ[1] في أغصانه ... يَزْهُو فذا مَيْتٌ وهذا حاسِدُ
وإذا أتى وَفْدُ الرّبيع مُبَشّراً ... بطلوع وفدته فنعم الوافِدُ
ليس المبشِّرُ كالمبشَّرِ باسمه ... خبرٌ عليه من النبوَّة شاهِدُ
وإذا تعرَّى الوردُ من أوراقه ... بقِيَتْ عوارِفُه فهُنَّ خوالدُ

انتهى المقصود منه .

وكأنّه عارض بهذه الأبيات في تفضيل الورد قول ابن الرومي في تفضيل النرجس عليه من قصيدة :

للنرجس الفضلُ المبينُ وإنْ أبى ... آبٍ وحاد عن الحقيقة حائِدُ

وهي مشهورة .

وردّ على ابن الرومي بعضُهم بقوله :

يا من يُشَبِّهُ نَرْجِساً بنواظر ... دُعْجٍ تَنَبَّهْ إنّ فهمَك فاسِدُ

إلخ وهي أيضاً مشهورة .

* * *

[انتقاض حال الأندلس]

رجع إلى ما كنّا فيه — وكانت لأهل الأندلس بين زمان الفتح وما بعده وقائع في الكفّار شَفَت الصدور من أمراضها ، ووفت النفوس بأغراضها ، واستولت على ما كان لملّة الكفر من جواهرها وأعراضها ، ثم وقع الاختلاف ، بعد ذلك

= جهور بن محمد بن جهور رئيس قرطبة المتأخر غلطاً منه ووهماً لا خفاء به وإنما هي لجده جهور ابن عبيد الله [بن أبي عبدة الوزير] . قلت : انظر ترجمة جهور أبي الحزم في الحلة ٢ : ٣٠ .

١ في الأصول : الغصنُ .

الائتلاف ، فعصفت ريحُ العدوّ والحروب سجال ، وأعْيا العِلاجُ حكماء الرجال ، فصار أهل الأندلس يتذكرون موسى بن نُصَير وطارق[1]، ومَنْ بعدهما من ملوك الأندلس الذين راعتِ العدوَّ الكافر منهم طوارق .

* * *

[رسائل أبي المطرف بن عميرة]

وما أحسن ما أعرب الإمام الكاتبُ القاضي أبو المطرف بن عميرة[2] ، عمّا يشمل هذا المعنى وغيره في كتابٍ بَعَثَ به إلى الشيخ أبي جعفر بن أمية ، حين حَلَّ الرُّزْء ببَلَنْسية ، وهو[3] :

ألا أيّها القلبُ المصرَّحُ بالوَجْدِ ... أما لكَ مِنْ بادي الصَّبابة من بُدّ
وهل من سُلُوّ يرتجى لمتيَّمٍ ... له لوْعة الصادي وروْعة ذي الصَّدّ
يحِنُّ إلى نجدٍ ، وهيهات حرَّمت ... صروفُ الليالي أن يعودَ إلى نَجْدِ
فيا جبَلَ الريّان لا ريَّ بَعْدَما ... عدَتْ غيَرُ الأيام عن ذلك الوِرْدِ
ويا أهلَ وُدّي والحوادثُ تقتضي ... خلُوّيَ عن أهل يُضَاف إلى الودّ
ألا متعة يوماً بعاريةِ المُنى ... فإنّا نراها كلّ حين إلى الردّ
أمِنْ بعد رُزْء في بَلَنْسيَةٍ ثوى ... بأحنائنا[4] كالنّار مُضْمَرة الوَقْدِ
يُرَجّي أناسٌ جُنّةً من مصائب ... تطاعنُ فيهم بالمثقّفةِ المُلْدِ

---

١ كذا للسجع ، وحقه أن يكون « وطارقاً » .
٢ أبو المطرف بن عميرة : أحمد بن عبد الله المخزومي ، سيترجم له المقري ، وانظر ترجمته أيضاً في الجزء الأول من الذيل والتكملة لابن عبد الملك ، ولسان الميزان وتحفة القادم : ١٤٥ والوافي ٧ الورقة : ٦٤ والغبريني : ١٧٨ والإعلام بمن حل مراكش ١ : ٣٥٤ ؛ وللأستاذ محمد بن شريفة رسالة جامعة في حياته وآثاره (الرباط : ١٩٦٥) . ورسائله في مجلدين، وبعض رسائله في صبح الأعشى ورحلة التجاني ورحلة العياشي وشرح المقصورة والروض المعطار والذيل والتكملة ج ٥ « ترجمة الرعيني » .
٣ المقتطفات (الورقة : ٨٠) وورد بعضها في الروض المعطار : ٥٠ — ٥١ .
٤ ط : بأحشائنا ؛ ج : بأحيائنا.

ألا ليتَ شِعْرِي هل لها من مَطالع مَعادٌ إلى ما كانَ فيها من السَّعْدِ
وَهَلْ أذنَبَ الأبناءُ ذَنْبَ أبيهمُ فصاروا إلى الإخراج من جنّة الخلدِ

مرحباً بالسَّحاءة ، وما أعارت أفقي من الإضاءة ، وَرَدَتْ تسحرُ النُّهى ، وتسحب ذيلاً على السُّها ، وتهزُّ من المسرة أعْطافاً ، وتردُ من نجوم المجرة نطافاً ، عامت من الظلمة في مَوْجها ، ثم غلبت الشهبَ على أوْجها ، فقلبُ العقرب يجب ، وسُهيل بداره يحتجب ، والطرف غَضيض ، وجَناح الطائر مَهيض ، وصاحب الأخبية يقرض ، والذابح عن ذبيحته يُعْرِض[1] ، ورامح السماكين نخُونه السلاح ، وواقِعُ النَّسْرَين يودُّ أن[2] يُخْفيه الصباح ، بلاغة تفتِنُ كل لبيب ، وتَرْعى روض كل أديب ، وتغضُّ على رَغْم العدوّ من حبيب ، إن من البيان لسحراً ، ويا أيّها الجواد وَجَدْناك بَحْراً ، أدَرَيْتَ ، أيّ بَرْيٍ بريت ، وبأي قمر اهتديت ، ليلة سريت ، افتتحت بأبياتك الحسان ، ونظمتها نظم الجُمان ، فعوذْتُ ستَّتَها[3] بالسبع ، وعرفتُ منها بَرَاعة ذلك الطبع ، ثم نثرت ، على القرطاس [من] شذورَ المنثور ، بل من جواهر النحور ، ما استوقف النُّظّار ، وبَهْرَجَ اللُّجين والنُّضار ، ورأيتك استمددت ولك الباع الأمدّ ، وأعرت محاسنك والعارية تُرَدّ ، وجئت بالرائية[4] تروق أربعتُها ، وتخْرسُ بها قعقعة الأشعار وَجَعْجَعَتُها ، فأدت من حسنها ما يسر ، واجتمع لمن روى القطعتين ما نظم فيها وهو الدر . وأجريت[5] خبر الحادثة التي مَحَقَتْ بدر التمام ، وذهبت بنضارة الأيّام ، فيا من حضر يوم البطشة ، وعُزّي في أنسه بعد تلك

---

١ يريد سعد الأخبية وسعد الذابح .

٢ ك : يود لو أنه .

٣ ق ط ك : ستها ؛ ج : سيتها ، والتصويب عن دوزي ؛ وستها : ستة أبياتها ، والسبع : السبع المثاني .

٤ هذه الكلمة مضطربة في الأصول ما عدا ط ؛ والرائية : القصيدة الرائية ، وفي ك : اللألاءة » . وفي ق : الراية ، وفي ج : بدلالة .

٥ من هنا ورد في الروض المعطار حتى قوله : « لقد طال الأسى عليهم والأسف » .

الوحشة ، أحقـاً أنـه دُكّتِ الأرض ، ونزف المعين والبرْض ، وصَوّح روض المنى ، وصَرّخ الخطب وما كنى ؟ أبِنْ لي كيف فقدت رَجاحة الأحلام ، وعقدت مَناحة الإسلام ، وجاء اليوم العَسِير ، وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر؟ حلم ما نرى ؟ بل ما رَأى ذا حالم ، طوفان يقال عنده لا عاصم ، مَن يُنْصِفنا من الزمان الظالم ؟ الله بما يلقى الفؤاد عالم ؛ بالله أيّ نحو تنحو ، ومَسْطور تُثْبِت وتمحو ، وقد حذف الأصلي والزائد ، وذهبَتِ الصّلة والعائد ، وباب التعجب طال ، وحالُ البائس لا تخشى الانتقال ، وذهبت علامة الرفع ، وفُقِدت سلامة الجمع ، والمعتلّ أعدى الصحيح ، والمثلّثُ أردى الفصيح ، وامتنعت العجمةُ من الصّرْف ، وأمنت زيادتُها من الحذف ، ومالت قواعدُ الملّة ، وصرنا إلى جمع القلّة ، وللشّرك صيال وتَخَمُّط ، ولقرنه في شَرَكه تخبُّط ، وقد عاد الدين إلى غُرْبته[1] ، وشَرِق الإسلام بكربته ، كأن لم يسمع بنصر ابن نُصَير ، وطَرْق طارق بكل خير ، ونَهَشات حنش[2] وكيف أعيت الرُّقَى ، وأدالت بليل السّليم يوم الملتقى ، ولم تخبر عن المروانية وصوائفها ، وفتى مَعافر[3] وتعفيره للأوثان وطوائفها ، لله ذلك السلف ، لقد طال الأسى عليهم والأسف ، وبقي الحَكَم العدل ، والربُّ الذي قولُه الفَصْل ، وبيده الفضل ، ربّنا أمرتَ فعصينا ، ونهيتَ فما انتهينا ، وما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا ، أنت العليم بما أعلنّا وما أخفينا ، والمحيط بما لم نأتِ وما أتينا ، لو أننا فيك أحببنا وقَلَينا ، لم تُرِنا من الفُرْقة ما رأينا ، ولم تُسَلّط عدوّك وعدوّنا علينا ، لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا ، وأكرم من أن لا تهب حقوقك لدينا .

وأشرتَ أيها الأخ الكريم إلى استراحة إليّ ، وتنسم بما لديّ ، لتبرد — كما زعمت — حَرّ نَفَس ، وتقدح زناد قَبَس ، وهيهات صَلِد الزند ، وذَوَى العَرار

---

[1] إشارة إلى الحديث : « بدىء الإسلام غريباً وسيعود غريباً . . . » .

[2] يريد « حنش الصنعاني » الذي تقدم ذكره .

[3] فتى معافر هو المنصور بن أبي عامر .

والزّند ، وأقشع الشؤبوب ، ورَكد ما كان يظن به الهُبوب ، فالقلم دَفينٌ لا يُحشر ، وميّت لا يُنشر ، والطبع قد نكص القهقرَى ، وقلّ منزله أن يُدْعى له النَّقَرَى ، فها هو لا يملك مَبيتاً ، ولا يجد لقلمه تثبيتاً ، وأنت – أبقاك الله عزّ وجلّ – بمقتبل الآدابِ ، طائر مَيْعة[1] الشباب ، وأين سنّ السموّ من سن الانحطاط ، ووقت الكسل من وقت النشاط ، وقد راجعتك لا داخلاً في حَلْبتك ، بل قاضياً حقّ رَغْبتك ، والله تعالى يجعلك بوسيلة العلم مترقياً ، وبجُنّة الطاعة متوقّياً ، ولهناء الأنفس مستقبلاً ومتلقياً ، بمنّه ، والسلام ، انتهى .

وكتب رحمه الله[2] إلى سلطان إفريقية الوارث مُلْك بني عبد المؤمن بتلك النواحي ، المستولي على البلدان والضواحي ، وقد كان لأهل الأندلس أمَلٌ في أخذه بثأرهم ، وضم انتثارهم ، ما صورته :

شاقَهُ غِبَّ الخَيال الواردِ — بارقٌ هاجَ غرامَ الماجدِ
صدَّقا وَعدَ[3] التلاقي ثمَّ مَا — طَرَقا إلا بخُلْفِ الواعدِ
وكلا الزَّوْرَين من طيْف ومن — وافدٍ تحت الدياجي واردِ
لم يكُن بعد السُّرى مُسْتَمْتِع — فيه للرّائي ولا للرائدِ
وشديد بثُّ قلبٍ هائمٍ — يشتكيه عندَ رَبعٍ هامدِ
بالأمير المُرْتَضَى عزّ الهُدى — وثنى عِطْفَ المليّ الواجدِ
وبه أصْحَبَ ما كان يُرى — حاملاً أنفَ الأبيّ الشاردِ
إنّما[4] الفخرُ لمولانا أبي — زكريّاء بن عبد الواحدِ
ملك لَوْلا حُلاه الغُرُّ لَمْ — يَجْرِ بالحَمد لسانُ الحامدِ[5]

-----

١ في الأصول : هيعة .
٢ أورد ستة من الأبيات في المقتطفات : (الورقة : ٨٢) .
٣ في الأصول : صدق وعد ؛ صدق الوعد ؛ صدى عند .
٤ ط : أيها .
٥ هذا البيت والذي بعده سقطا من ط .

وَلَوَ أنَّ العَذْبَ أبْدى رغبةً		عنهُ لم يَشْفِ غليلَ الوارِدِ
فضله مثل سنا الشمس، وهلْ		لسَنا الشمس يُرى من جاحدِ
قَهَرَ البَغْيَ بِجِدٍّ صادعٍ		ما تَعَدَّاه وَجَدَّ صاعدِ
إنّما آلُ أبي حَفْصٍ هُدًى		للوَرَى من غائبٍ أو شاهدِ
قعدوا فوق النجوم الزُّهرِ عن		هِمَمٍ نَبَّهن عزمَ القاعدِ
وعن الإسلام ذادُوا عندما		فلَّ طولُ العهدِ غَرْبَ الذائدِ
أيُّ فخرٍ عُمريٍّ المُنْتَمى		ورِثوه ماجداً عن ماجدِ
ما الفُتُوح الغُرُّ إلاّ لَهُمُ		بين ماضٍ بادىءٍ أو عائدِ
في مُحَيّاً لاحقٍ من سابقٍ		وعلى المولود سيما الوالدِ
وليَحْيى راجحُ الحِلمِ الذي		تَرَكَ الطَّوْدَ بعِطفي مائدِ
عِقْدُ أحسابِهِمُ تمَّ بهِ		مثلُ ما تمَّ حسابُ العاقدِ
أيّها الجامعُ ما قد أحْرَزُوا		جَمْعَ مَنْ هِمّتُه في الزائدِ
هذه الأمّة قد أوسعْتَها		نظراً يكلأُ ليلَ الراقدِ
لم تَزَلْ منك بخيرٍ طارفٍ		ريشُه تالٍ قُدامى تالدِ
ولهُمْ منك ليوم حاضرٍ		وغَدٍ رأيُ البصير الناقدِ
أرشدَ الله لأولى نظرٍ		بالوَرَى رأيَ الإمام الراشدِ
وتولاّه بتوفيق الألى		سَعِدُوا من عاقد أو عاهدِ
وله في الله أوفى كافلٍ		بالذي يبقى وأكفى عاضدِ

نَصَرَ الله تعالى مولانا وأيّده ، وشدَّ ملكه وشيّده ، وأبقى للفضل أيّامه ، وللفصل أحكامه ، وأظفر بأعناق الأشقياء حُسامَه ؛ ووفر من اتساق النعم والآلاء حظوظَه وأقسامَه ؛ والحمد لله ثمَّ الحمد لله على أن جعل به حَرَم الأمّة آمناً ، ووَهَج الفتنة ساكناً ، وأبواب الصلة والمعروف لا تَعْرِفُ إلاّ واصلاً أو آذناً ، وتَلافى فلَّ الإسلام منه بِفَيْئاته التي منها ينتظرون الكر ، وبها يُوعَدون الفتح

الأعز والنصر الأغر ؛ فهم بين جِدَةٍ قبضوها ، وعِدَةٍ رضوها ، وارتقاب للفتح أكبر هممهم منه دَرْك الثار ، وانتصاف لأهل الجنّة من أهل النار ، فأمّا الأوطان فقد أسْلَتْهم عنها جهة تُنبِتُ العز فيما تنبته ، وتنفي من الضيم ما تلك تثبته ، وما ذكر الساخط ، على المحل الساقط ، منازلَ عادت على مبانيها أطلالاً ، ومغانيها مِحالاً ، وللعبد حالٌ يستقبل بها من النظر الكريم ــ أدامه الله تعالى ــ ما أعيُنُ الآمال إليه صُور ، ورجاء الجميع عليه مقصور . انتهى .

والغاية في هذا الباب ما كتب به ــ رحمه الله ــ من جملة كتاب لبعض ذوي الألباب ، ونصُّ محل الحاجة منه : نخصُّ الجهةَ البعيدة الصّيت والاسم ، الشهيرة العمل والعلم ، دُرّة تاجنا ، وضَوْء سراجنا ، ونكتة احتجاجنا ، أبقاها الله تعالى في أعيننا مَناراً ، ولأندلسنا فخاراً ، على أنّه وإن بقيت المَفاخر ، فقد أودى المُفاخر ، وإن أضاء الطالع ، فقد دَجَت المَطالع ، وغلب عليها عُدَاةٌ زوَوْا عنها وجوهَنا ، وأروا فيها مكروهَنا ، حتى إنّي أتيت بشعر فيه استسقاء للديار ، على عادة الأشعار ، فقلت :

زِدْنا على النائينَ عَن أوطانهم ... وإن اشتَركْنا في الصَّبابة والجوَى
إنّا وجَدْناهُمْ قد استَسْقوا لها ... من بعد أن شَطّت بهم عَنها النّوى
ويَصُدّنا عن ذاك في أوطاننا ... مَعَ حُبّها الشِّركُ الذي فيها ثوى
حَسْناء طاعتُها استقامَتْ بعدنا ... لعدوّنا ، أفيستقيم لها الهوى ؟

انتهى .

قلت : وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات في معناها ، العالية في مبناها ، فإن فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى ــ دمرهم الله ــ على تلك الديار ، وثبوت قَدَمهم فيها على طِبْق ما حصل لهم فيه اختيار ، مع إدماج حبّه لها الذي لا يُشَكُّ فيه ولا يُرتاب ، واشتمالها على المحاسن التي هي بغية الرائد ونُجْعة المنتاب ، ولكل أجل كتاب ، وإذا نفذ سهم المقدور فلا عتاب .

وممّا يستولي على الخواطر ، ويروي رياض الأفكار بسحُب بلاغته المواطر ، قولُه — رحمه الله تعالى — يخاطب أبا الحسن الرُّعَيْني سنة ٦٣٤[١] :

يا صاحبي والدهرُ — لولا كَرّة ... منهُ على حفظ الذّمام — ذَميمُ
أمُنازِعي أنت الحديثَ ؟ فإنّه ... ما فيه لا لَغْوٌ ولا تأثيمُ
ومروّضٌ مَرْعى مُناي فنَبتُه ... من طول إخلاف الغُيوم هَشيمُ
طال اعتباري بالزمان ، وإنّما ... داءُ الزمان كما علمتَ قديمُ
مَجْفُوّ حظٍّ لا ينادى ثم لا ... ينفكُّ عنه الحذفُ والترخيمُ
وأرى إمالتَه تدومُ وقَصْرَه ... فعلامَ يُلْغى المدُّ والتفخيمُ
وعلامَ أدعُو والجوابُ كأنّما ... فيه بنصٍّ قد أتى التحريمُ
لم ألقَ إلاّ مُقْعِداً ، غيرَ الأسى ... فلَدَيَّ منه مُقْعِدٌ ومُقيمُ
وشرابيَ الهمّ المعتّق خالصاً ... فمَتى يُساعدني عليه نديمُ
غارات أيّامي عليّ خوارج ... فَعَديُّها في طبعه التحكيمُ
ولَوَاعجٌ يحتاجُ صالي حرّها ... أمراً به قد خُصَّ إبراهيمُ
ولقد أقولُ لصاحبٍ هو بالذي ... أدركتُ من علم الزمان عليمُ
لا يأس من رَوْح الإله وإن قَستْ ... يوماً قلوبُ الخلق فَهْو رحيمُ

ويهزني ، ويستفزني ، ما كتبه — رحمه الله تعالى — من رسالة :

كتبته إلى سيدي وهو السيد حقيقة ، وأخي وقد كتب الدهرُ بذلك وَثيقة ، أبقى الله تعالى جلاله محروساً ، ورَبْع وفائه لا يخشى دُروساً ، من رِباط الفتح وأنا بحقّه عليم ، وعلى عهده مُقيم ، وشأني توقير له وتعظيم ، وحب فيه خالص كريم ، ووَصَلني خطابه الخطير المبرور ، فكنت به كالصّائم رأى الهلال ،

---

١ هو علي بن محمد بن علي بن الفخار أبو الحسن الرعيني (٥٩٢ – ٦٦٦) راجع ترجمته في الذيل والتكملة ٥ : ٣٢٣ ومقدمة كتابه « برنامج شيوخ الرعيني » تحقيق الأستاذ إبراهيم شبوح (دمشق ١٩٦٢) والأبيات في الذيل : ٣٦٣ .

والهائم عاينَ الماءَ الزُّلال ، عِلْق ليس يوازيه علق ، وسحر لكنّه حلال طِلْق ، ونظم لذكر الطائي طاوٍ ، وصنعة لم يرها ولم يروها راءٍ ولا راوٍ ، رَمَتِ ابن الروميّ بالخمول ، وبَشَرت اسم بَشار من الفحول ، وحكمت بأن النمريّ في نَميرَةِ الهَوَانِ مُدْرَج ، والسريّ عن سَرَاوة الإحسان مُخْرَج ، فأمّا النثر فصهيل لا يجاوبه الرُّغاء ، وطِراز لا يحسنه البُلغاء ، ونَقْد تَزِيف معه النقود ، ومَدًى تنقطع دونه الضُّمَّر القُود ، غادر الصابيَّ وصَباه غير ذات هبوب ، والصاحبَ وهو من العجز مع شرّ مصحوب ، والميكاليَّ وميكالُه مرفوض ، والحريريَّ وحريره في سوق الكَساد معروض ، فأمّا بحر رئيس أرّجان ، فقد استخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، وأبقاه في ضَحْضاح ، بل تركه يمشي بأدرجٍ ضاح ، فمن ذا يُجاري فارسَ الصفَّين وإمام الصنفَين؟ أبلغ من خط بقلم ، وأشهر من نار على عَلَم ، وماذا يقال في أنامل تطرز بها الصحف ، وخَمائل تفخر بها الروضة الأنُف ، واسم في شرق البلاد وغربها ظاهر ، ووَسْم بالكتابة والنجابة لم يكن لبني وَهْبٍ وآل طاهر ، فالزمان يأثِر ، ما ينثر ، ويعظّم ، ما ينظِم ، ولو أن الأزمنة قبله عمرت المحاضر بكل ناجم ، ونشرت المقابرَ عن الصَّنَوْبري وكُشاجم ، وجاءت بالكتّاب من كل جيل ، والشعراء رَعِيلاً بعد رَعيل ، لطال هذا العصر بواحده آلافَها ، وأنسى بخَلَفه أسلافَها ، انتهى .

وكتب — رحمه الله تعالى — إلى صاحبين له في معنى ما ألمعنا به آنفاً ، ما صورته :

تحيّــةٌ منكما أتتْني طابت كما طابَ مُرْسِلاها
ويا لها أذكَرَتْ عهوداً قلبيَ والله ما سَلاها
حلَلْتما في البلاد أرْضاً رِيحُ صَباها عني سلاها
لم يَصْبُ قلبي إلى سِواها يوماً ولم يَسْلُ عن سلاها

كتابي أيها الأخَوان اللذان بودهما أقول ، وعن عهدهما لا أحول — أنزلكما

الله تعالى خير منزل ، وجعلكما من النوائب والشوائب بمَعْزِل — من رباط الفتح ولُبِّي قديماً ملكتما رِقّه ، وقلبي تعلُّماً وتعليماً عرفتما صدقه ، كيف حالكما من سَفَر طويتما خبره ، حين تجشمتما غرَرَه ؟ وكيف سَخَتْ نفوسكما بأم الحصون ، وذات الظلال والعيون ؟ تربة الآباء ، ومنزلة الجُمَحيّينَ النُّجباء ، حتى صرمتما حبلَها ، وهجرتما حَزْنَها وسَهْلَها ، وخضتما غُبْرَ الفِجاج ، وخُضْرَ الأمواج ؟ ما ذاك إلا لتغلّب الحادث النُّكر ، وتألّب المعشر الغُدُر ، ومن أجل الداهية النكاد[1] ، والحادثة الشنيعة على البلاد ، أزعجتكم حين أزعجتنا ، وأخرجتكم كما أخرجتنا ، وطوّحت بنا طوائحُها ، واجتاحت ثمرنا وشجرنا جوائحُها ، فشكراً لله تعالى على قضائه ، وتضرعاً فيما نرفعه من دعائه ، وهنيئاً لنا ولكم معشر الشُّرَداء ، المنطوين من الشجن على شرّ داء[2] ، ذلك الطَّوْد الذي إليه أوَيْتُما ، وفي ظلّه ثوَيتُما ، وعن رأيه تَرَيّان ، وبسَعْيه تسعَيان ، فوجهه المبارك لا يعدم رأيه نجحاً ، ولا يعدو لصبحه إذا دجا ليلُ الهمّ صبحاً ، انتهى .

* * *

[تعريف بأبي المطرف]

وكان أبو المطرّف بن عميرة المذكور كما قال فيه بعض علماء المغرب : قدوة البلغاء ، وعمدة العلماء ، وصدر الجِلّة الفضلاء ، وهو أحمد بن عبد الله ابن عميرة المخزومي ؛ ونكتة البلاغة التي قد أحرزها وأودعها ، وشمسُها التي أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها ، مبدع البدائع التي لم يحظ[3] بها قبله إنسان ، ولا ينطق عن تلاوتها لسان ، إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة ، وروية بدرر العلم فصيحة ، ذللت له صعبَ الكلام ، وصدّقت رؤياه حين وَضَعَ سيدُ المرسلين

---

[1] كذا في الأصول ؛ ويقال أيضاً « داهية نآد » .

[2] ط : شر الداء .

[3] ك : يحط .

صلى الله عليه وسلّم وهو الذي أوتي جوامع الكلم[1] في يديه الأقلام ، وأصلُ سلَفه من جزيرة شُقَر ، وولد بمدينة بَلَنْسية ، وروى عن أبي الخطاب بن واجب وأبي الربيع بن سالم وابن نوح والشلوبيني النحوي وابن عات وابن حَوْط الله ، وغيرهم من الحفّاظ ، وأجازه من أهل المشرق جماعة ، وكان شديدَ العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث ، وأخذه عن مشايخ أهله ، ثم تفنن في العلوم ، ونظر في المعقولات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع براعة عُدّ فيها من مجيدي النظم ، فأمّا الكتابة فهو فارسُها الذي لا يُجارى ، وصاحب عينها الذي لا يُبارى ، وله وعظ على طريقة ابن الجَوْزي ، ورسائل خاطب بها الملوك وغيرهم من الموحّدين والحَفْصيّين ، وله تأليف في كائنة ميُورقة وتغلّب الروم عليها[2] نحا في الخبر عنها منحى الإمام الأصبهاني في الفتح القدسي ، وله كتاب تعقّب فيه على الفخر الرازي في كتاب « المعالم » ، وله كتاب ردّ به على كمال الدين الأنصاري في كتابه المسمّى « بالتبيان ، في علم البيان ، المطلع على إعجاز القرآن » وسمّاه « بالتنبيهات ، على ما في البيان من التمويهات » ، وله اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة[3] ، وغير ذلك .

ورد — رحمه الله — حضرة الإمامة مَرّاكُشَ صحبة أمير المؤمنين الرشيد حين قُفُوله من مدينة سَلا ، واستكتبه مدّة يسيرة ، ثم صرفه عن الكتابة ، وقلده قضاء هيلانة ، ثم نقله إلى قضاء سلا ، ثم نقله السعيدُ إلى قضاء مِكْناسة الزيتون ، ثم قصد سبْتة ، وأخذ ماله في قافلة في فتنة بني مَرِين ، ثم توجه إلى بلاد إفريقية ، ووصف حالَه في رسالة خاطب بها ابنَ السلطان أبي زكريا الحَفْصي ، وهو أبو زكريا ابن السلطان أبي زكريا ، وكان صاحب بجاية لأبيه ، ولم يزل — رحمه الله تعالى — مذ فارق الأندلس متطلّعاً لسكنى إفريقية ، معمور القلب بسكناها ، ولمّا

. . . .

١ ط : الكلام .

٢ يعني عام ٦٢٧ هـ .

٣ يريد كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » وقد نشرت قطعة منه (بيروت — ١٩٦٤) .

قدم تونس مال إلى صُحبة الصالحين والزهّاد وأهل الخير بُرهة من الزمان ، ثم استُقضي بالأُربُس[1] من إفريقية ، ثم بقابس مدّة طويلة ، ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر بالله الحَفْصي ، وأحضره مجالسَ أنسه ، وداخله مداخلة شديدة ، حتى تغلّب على أكثر أمره .

ومولده بجزائر شُقَر في شهر رمضان المعظم سنة ٥٨٠ ، وتوفّي ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذي الحجّة سنة ٦٥٨ ، ألحفه الله رضوانه ، وجدد عليه غفرانه .

وقال ابن الأبار في « تحفة القادم »[2] في حق أبي المطرف المذكور : فائدة هذه المائة ، والواحدُ يَفي بالفئة ، الذي اعترف باتحاده الجميع ، واتصف بالإبداع فماذا يتصف به البديع ، ومعاذ الله أن أحابيه بالتقديم ، لما له من حق التعليم ، كيف وسَبْقه الأشهر ، ونطقه الياقوت والجوهر ، تحلت به الصحائف والمهارق ، وما تخلت عنه المغارب والمشارق ، فحسبي أن أجهد في أوصافه ، ثم أشهد بعدم إنصافه ، هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره ، وتناوب المنثور والمنظوم على شكره ؛ ثم أورد له جملة منها قوله :

وأجَلْتُ فكري في وشاحك فانثنى ... شَوْقاً إليك يَجول في جَوّالِ
أنصَفْت غُصْنَ البانِ إذ لم تدعه ... لتأوُّدٍ مَعَ عِطفك الميّالِ
ورحِمْت دُرَّ العقد حين وضعتَه ... متوارياً عن ثَغْرِك المتلالي
كيفَ اللقاء وفِعْلُ وَعْدك سِينُه ... أبداً تخلصُه للاستقبال
وكماة قَوْمِك نارُهُمْ ووقيدُها ... للطارقين أسِنّة وعَوالي

وله ممّا يكتب على قوس قوله :

ما انآد مُعْتَقَلُ القَنا إلاّ لأن ... يَحكي تأطّر قامتي العَوْجاء

......

[1] ط : بالأبرس .

[2] انظر المقتضب من التحفة : ١٤٥ والوافي (ترجمة أبي المطرف ٧ الورقة : ٦٤) .

تَحْنو الضلوع على القلوب وإنّني ضِلَع ثوى فيها بأعْضَل داء

وله وقد أهدى وَرْداً :

خذها إليْكَ أبا عَبْد الإله فَقَدْ جاءتْكَ مثلَ خدود زَانها الخَفَرُ
أتَتْكَ تحكي سَجايا مِنْك قد عَذُبَتْ لَكِنْ تغيّر هذا دونَهُ الغِيَرُ
إن شِمْتَ منها بروقَ الغيث لامعةً فسَوْف يأتيكَ من ماء لها مَطَرُ

قال : وكتب إلي مع تحفة أهداها مكافئاً عن مثلها :

يا واحدَ الأدب الذي قَدْ زَانَهُ بمَناقب جَعَلَتْهُ فارسَ مقنبه[1]
بالفَضْل في الهبة ابتدأتَ فإن تُعِرْ طرفَ القبول لما وَهَبْتُ ختمْتَ به

قال : وله ارتجالاً بقصر الإمارة من بَلَنْسيَة وأنا حاضر في صبيحة بعض الجمع ، وقد حُجم صاحب لنا من أهل النظم والنثر ، وأحسن إلى الحجّام المخصوص[2] :

أرى مَنْ جاء بالموسى مواسّي ورَاحَةَ ذي القريض تعود صِفْرا
فهذا مخفِقٌ إن قصّ شِعْراً وهذا مُنْجِحٌ إن قصّ شَعْرا

وله أيضاً :

هو ما علمتَ من الأمير ، فما الذي تزدادُ منه وفيه لا يُرْتابُ ؟
لا تتّقي الأجنادُ في أيّامه فقراً ، ولا يَرْجُو الغنى الكتّابُ

وله بعد انفصاله من بلنسية عن وَحْشة في ذي القعدة سنة ٦٢٨ :

أسيرُ بأرجاء الرَّجاء ، وإنّما حديثُ طريقي طارق الحَدَثان

١ ك : منصبه .
٢ ك : بالمخصوص .

وأحضر نفسي إن تقدّمت خيفةٌ لغض عِنانٍ أو لعض زمانِ
أيترك حظي للحضيض وقد سرى لإمكانه فوق الذرا جبَلانِ
وأخبطُ في ليل الحوادث بعدما أضاء لعيْنَي منهما القمَرانِ
فيَحْيى لآمالي حيَاة مُعادة وإنّ عزيزاً عزةٌ لمكاني
وقالوا : اقترِحْ إنّ الأمانيَّ منهما وإن كنّ فوق النجم تحت ضَمانِ
فقلت : إذا ناجاهُما بقَضِيّتي ضميريَ لم أحفِلْ بشَرْحِ لساني

وله أيضاً :

سلب الكرَى من مُقْلَتيَّ فلم يجيء مِنْه على نأيٍ خيَالٌ يطرقُ
أهفُو ارتياحاً للنّسيم إذا سرَى إنّ الغَرِيقَ بما يرى يتعلّقُ

انتهى ما لخّص من « تحفة القادم » في ذكر ابن عميرة أبي المطرف .

• • •

[رسالة لأبي المطرف]

وممّا كتب أبو المطرف – رحمه الله – وفي أثنائه إشارة إلى الكفار الغالبين على بلاد الأندلس ، ما نصّه :

ألا إنّ شخصينا على القطْع واحد وجاحِدُ هذا للضرورة جاحد
فإن لم تصدّق ما نَطَقْتُ بصدقه فإنّك لي لاحٍ وللودّ لاحد

ومعاذ الله ، عزّ وجلّ ، أن تلحاني ، أو تمنع أنْفَك ريحَ رَيْحاني ، وكيف تصدّ عني بوجهك ، أو تشحذ لي غَرْبَ نَجْهِك[1] ، وأنا على غَيْبك أمين ، ولشمالك يمين ، ولكم دعوتَ بي فأجبتُ ، واستغنيتَ عني فحجبت ، وأردت الاستبداد فما استطعت ، ونعتّ[2] الوداد فما أحسنت النعت ، وإنّما تُحْمَد

١ النجه : الردع والانتهار .
٢ ج : وأنفت .

فـرّاهةُ الأعوجيّ إن جـرَى ، وتذكر فضيلة ابن السّري إذا سـرَى ، فأمّا الاقتصار على عـَظْـم باد ، والانتظار لعـَيْـن عدمت السواد ، فخطأ من القائل ، وخطل عند العاقل ، ولله در أخيك من مغمض طرف التطرف ، قارىء أدب الصحبة على السبعة الأحرف ، كـَرَعَ في أعزّ مـَوْرِد ، وتواضع في شـَرَف مـَوْلد ، وسـَما بنفسه عن أن يستخفه نسب يرفعه ، وحسب ما منّا أحد يدفعه ، وكذلك الكرام يرون عليهم حقـّاً ، ويتـَوَقـَّوْنَ من لم يكن من الكبر مُوَقـّى ، ولـَعَـهْـدي به وظلُّ الثروة بارد [1] ، وشيطان الشبيبة مارد ، وبشره في الملمات يرفّ ، وقدمه إلى الحاجات تـَخِـفُّ ، يصون عِـرْضَه بماله ، ويخفي صَدَقـَة يمينه عن شماله ، ويقسّم جسمه في جُسوم [2] ، ويقوم بالحقوق غير مَلول ولا ملوم ، تلك المكارم لا قـَعْبان [3] ، وما تستوي البـَدَنة المَهيضة مع غيرها في القربان ، وعرضت بذكر العصر الخالي ، والقصر العالي ، وظل من فنن وَرِيق ، وعيش مع أكرم فريق ، وما تذكر من زمن تولّى ؛ وعهد على أن لا يعود تألّى ، فارقناه أحسن ما كان ، وودعنا به الأطيبين الزمانَ والمكان ، فعفـَتِ الرسوم ، وأفلـَتْ تلك النجوم ، ورَمَتـْنا عن قوسها الروم ، ثمّ خلفتنا في المغاني ، وقسمتنا بين الأسير والعاني ، فأودى القـَتلُ والكـُثر ، واشتفى من الإسلام الكفر ، فكم كأس أنس أرَقـْناه ، ومنزلٍ فرقـَةَ الأبد فارقناه ، وذكرت اجتيازك بين العـَلـَمين [4] ، وقطعك متن اليمّ في يومين ، وأنّك انتقلت من ذوات الألواح ، إلى عـَذَبات الأدواح ، ومن متهافت الشـّراع ، إلى منابت اليـَراع ، ومن سكنى بيت السكان ، إلى منزل به الفلاح والملاح يشتركان ، حيث اجتمع الضبُّ والنون ، وأينع التين والزيتون ،

[1] ج : وارد .

[2] من قول عروة بن الورد :

أقسم جسمي في جسوم كثيرة   وأحسو قراح الماء والماء بارد

[3] من قول أمية بن أبي الصلت :

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

[4] ج : العالمين .

وظُلّلت الساحات ، وذُلّلت الثمار المباحات ، فلا تُشْرِقنا يا أُصَيل ، ولأمّ تلك الأرض الوَيْل ، انتهى .

ووصل هذا الكلام بالأبيات التي تقدّمت قريباً ، وهي قوله « زدنا على الناثين عن أوطانهم إلخ » .

* * *

[رسالة أخرى لأبي المطرف]

وكتب رحمه الله عن أهل شاطِبَةَ أيام كان قاضياً بها ، مهنئاً أمير المسلمين ابن هُود المستولي على الأندلس آخر دولة الموحّدين بوصول الكتاب العباسي الكريم إليه من بغداد بولاية الأندلس ، إذ كان ابن هُود حين ثار على الموحدين يدعو إلى الخليفة العباسي الذي كان أكثر الملوك في ذلك الزمان يَدِينون بطاعته ، بما نصّه بعد الصدر :

أمّا بعد ، فكتَبَ العبيدُ — كتب الله تعالى للمقام العلي المجاهدي المتوكلي سعادة لا تبلغ أمداً إلا تخطته ، ويداً علوها أثبتته أيدي الأقدار وخطته — من شاطبة وبركاتُ الأمر المجاهديّ المتوكليّ ، والعهد الواثقي المعتصمي ، تنسكب كالمطر ، وتنسحب على البشر ، وتقضي بعادة النصر والظفر ، وسعادة الوِرد والصَّدَر ، والحمد لله ، وعند العبيد من أداء فروض الخِدَم ، والقيام بحقوق النِّعَم ، ما عُقِدت عليه ضمائرهم ، وسمت إليه نواظرهم ، واشترك فيه باديهم وحاضرهم ، فجناب أملهم فسيح ، وتَجْرُ[1] خدمتهم ربيح ، وحديث طاعتهم حَسَن صحيح ، وبِسَنا النظر العلي اهتداؤهم ، وفي الباب الكريم رجاؤهم ، وبصدق العبودية اعتزازهم وإليها اعتزاؤهم ، والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية ، ويحملهم على المناهج السّوية ، ووصل الكتاب الكريم متحلّياً بِرُواء الحق ، ناطقاً بلسان الصدق ، واصفاً من التشريف والفَخار المنيف ، ما صدر عن إمام الخلق ، فلا

---

[1] ك : ومتجر .

بيان أعجب من ذلك البيان ، ولا يوم كذلك اليوم تبدّى نظره للعيان ، أو تأدى خبره في أخبار الزمان ، نثرت فيه الخلع العباسيّة في أعلى الصور ، وبرز منها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه في ذيل الحَصَر ، ويهدي سواده سواد القلب والبصر ، فيا لمشهدها ما أعجب ما كان ، ومرآها الذي راع الكفر وراق الإيمان ، وأشبه يومه بالأندلس يوم خرجت الرّايات السّود من خراسان ، وكفى بهذا فخاراً لا يحتاج ثابته مثبتاً ، أن باشرت بُرْداً باشر البدن الذي طاب حيّاً وميتاً ، فهو علو في الإسناد ولا نظير له في العَوالي ، وفخار ضلّت عن مثله العصور الخوالي ، وجَلّت بهجته أن تُخْلِقَ جدّتَها الأيّامُ والليالي ، ودل الكتاب العزيز على التسمية المشتقة من الجهاد ، والسمة من سيف أمير المؤمنين بما لا يدخل في جنس ذوات الأغماد ، وخير الأوصاف ما صدقه الموصوف ، وللكريم النسب نسبةٌ يُباهي[1] بها الدين وتَزْهَى السيوف :

فإن نحن سَمّيناك خِلْنا سيوفَنا من التيه في أغمادها تتبسّمُ

وممّا أفاده الكتاب المبهج بطيب أنبائه ، نص علامة سيدنا صلوات الله عليه وعلى آبائه ، فإنّها تضمّنت صفة لله ، عزّ وجل ، من صفات الكمال ، ودلّت على مذهب أهل السنّة في خلق الله ، عزّ وجلّ ، الأعمال ، وأشعرتنا معشرَ العبيد بعناية سبقت بالمقام المجاهديّ المتوكلي — أحسن الله تعالى إليه — حين تولّى خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فإنّه لمّا شايعه بعزيمة مساعدة ، ونيّة في مَشارع الصفاء والإخلاص واردة ، ألهم زيادة في العلامة شاركت الإمامة في صفة واحدة ، فهذه كرامة في العلامة ، هي علامة الكرامة ، وَهِبَةٌ من مواهب الكشف يجدها من امتثل قوله ﴿ فاستقم كما أُمرت ﴾ (هود : ١١٢) فكان من أهل الاستقامة ، وتضمن الكتاب الكريم بيعة أهل جيّان وما معها ، وإن هذه البشائر وما تبعها ، لفُرُوع عن هذا الأصل الصحيح ، وأقيسة عن هذا النص الصريح ، فأدلّة

---

١ دوزي : يباى .

الخلافة قد استقلت ، وشبهة الخلاف قد بطلت واضمحلت ، والحمد لله على أنْ مَنَحَ جزيل النعماء ، وشرح باليقين صدور الأولياء ، وشرّف هذه الأمّة بإمامة نجل الأئمة الخلفاء ، وابن عمّ سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، والعبيد يهنئون بهذه النّعَم ، التي لا يستقلّ بذكرها قَلَم ، ولا يُقطع عَلَم من وصفها إلا بدا عَلَم ، وبهم من الأشواق إلى مشاهدة المعالم السنيّة ، ولَثْم اليمين الطاهرة العليّة ، ما أكده دنو الدار ، وجدّده ما تجدّد للمقام العالي المتوكلي من نعم الله تعالى الجليلة المقدار ، والشاهدة له بإسعاد الأيّام وإسعاف الأقدار ، فلو أمكنهم الإقدام لأقدموا ، ولو وجدوا رُخْصة في المسير لعزموا ، وهم يستلمون البساط الأشرفي توهّماً ومِنْ أملهم أنهم في الحقيقة قد استلموا ، انتهى .

وبه تعلم أن الدولة العباسية خُطب لها ببلاد الأندلس – أعادها الله للإسلام – ولا يخفاك أن ما جَلَبْناه من ذلك وغيره مناسب للمقام ، فلا انتقاد ولا ملام .

* * *

[رسالة للسان الدين إلى أحمد بن قلاوون]

وقد رأيت أن أذكر هنا مخاطبة صَدَرَتْ من الغني بالله صاحب الأندلس إلى السلطان المنصور أحمد ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من إنشاء الوزير الكبير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله ، لما اشتملت عليه من أحوال الأندلس ، ونصّها : الأبواب التي تُفْتَح لنصرها أبواب السماء ، وتُسْتَدَرّ من آفاقها سحاب النعماء ، وتجلى بأنوار سعدها دياجي الظلماء ، وتعرّف نكرة البلاد والعباد بالانتساب إلى محبتها والانتماء ، على اختلاف العروض وتباين الحدود وتعدّد الأسماء ، ويُجْتزأ من صِلات صَلاتها عند الموانع من كمال حالات صفاتها بالإيماء ، وتحمل لها التحيّة ذوات الدُّسُر والألواح طاعنة نحر الصباح على كتد الماء ، أبوابُ السلطان الكبير ، الجليل الشهير ، الطاهر الظاهر ، الأوحد الأسعد ، الأصعد الأمجد ، الأعلى العادل ، العالم الفاضل الكامل ، سلطان الإسلام والمسلمين ،

عماد الدنيا والدين ، رافع ظِلال العدل على العالمين ، جمال الإسلام ، عَلَم الأعلام ، فخر الليالي والأيّام ، ملك البرين والبحرين ، إمام الحرمين ، مؤمّل[1] الأمصار والأقطار ، عاصب تاج الفخار ، هازم الفرنج والترك والتتار ، الملك المنصور ابن الأمير الرفيع الجادة ، الكريم الولادة ، الطاهر الظاهر ، الكبير الشهير ، المعظم الممجّد الأسمى ، الموقّر الأعلى ، فخر الجلّة ، سيف الملّة ، تاج الإمارة ، عزّ الإسلام ، مستظَلّ الأنام ، قمز الميدان ، أسد الحرب العوّان ، المقدس المطهر ، الأمير أحمد ابن والد السلاطين ، ومالك المسلمين ، وسيف خلافة الله على العالمين ، وولي المؤمنين ، سلطان الجهاد والحج ، ومقيم رسم العجّ والثجّ ، محيي معالم الدين ، قامع المعتدين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، ناصر السنّة ، محيي الملّة ، ملك البرين والبحرين ، سلطان الحرمين ، الملك العادل ، العالم العامل ، المنصور المؤيَّد المعان المرفع المعظم المبجل المؤمل ، المجاهد المرابط الغازي[2] الممجّد المكمّل ، المطهر الكبير الشهير ، المقدس الملك الناصر أبي عبد الله محمد بن قلاوون الصالحي ، جعل الله فُسْطاط دعوته معموداً بعمود الصبح ، وحركات عزمه مبنية على الفتح ، ومجمل سعادته غَنِيّاً عن الشَرْح ، وجياد أوصافه متبارية في ميدان المَدْح ، وزناد رأيه[3] وارية على القَدْح ، من موجب حقّه وجوب الشعائر الخمس ، المرحبَ لأجل أفقه الشرقيّ بوفادة الشمس ، المجدّد في اليوم حكم ما تقرر بين السلف رحمهم الله بالأمس ، أمير المسلمين بالأندلس عبد الله الغني بالله الغالب به محمّد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر : سلام كريم كما زحفت راية الصبح تقدمها طلائع مبشرات الرياح ، يفاوح أرجه زهيرَ[4] الأدواح ، ويحاسن طُرَر الوجوه الملاح ، يخص أبوّتكم التي

....

١ ك : مؤمن .
٢ ك : المغازي .
٣ ط ودوزي : آرائه .
٤ دوزي : زهر .

رتب العز فصولها ، وعضدت نصوص النصر نصولها ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أمّا بعدَ حمدِ الله الذي جعله فاتحة القرآن ، وخاتمة دعاء أهل الجنان ، وشُكره على ما أولى من مواهب الإحسان ، حمداً وشكراً يستخدمان من الإنسان ، ملكَي القلب واللسان ، والصلاة والسلام على سيدنا ونمولانا محمد رسوله زهرة كمامة الأكوان ، وسيد ولد آدم على اختلاف اللغات والألوان ، الذي أذلّ بعزّة الله أنوف الطغيان[1] ، وغطى بـــدينه الحق على الأديان ، وزويت له الأرض فرأى ملك أمته يبلغ ما زُوِيَ له فكان الخبرُ وفق العيان ، والرضا عمّن له من الأصحاب والأحباب والأعمام والأخوال والإخوان ، صلاةً يجدّدها الجديدان ، ويُمليها الملوان ، وتتراحم على تربته المقدسة مع الأحيان ، ما سجعت طيور البراعة من أعواد اليراعة على الأفنان ، والتفتت عيون المعاني ما بين أجفان البيان ، والدعاء لأبوابكم الشريفة جعل الله تعالى عصمته تقيم بها وظيفتَي الحجابة والاستئذان ، وضرب بدعوتها التي هي لذّة الإقامة والأذان على الآذان ، واستخدم بروج الفلك الدوار في أمرها العزيز استخدام[2] الأنصار والأعوان ، حتى يُعْلم ما في المدافعة عن حماها مَخالبَ السّرحان ، وفي الإشادة بعدلها كفّتَي الميزان ، ويهدي لها من الزهرة كُرَةَ الميدان ، ومن الهلال عوَض الصولجان ، وأبقى في عواملها ضمير الأمر والشان ، إلى يوم تعنو وجوه الملوك إلى الملك الديّان ، فإنّا كتبناه إلى تلك الأبواب كتبَ الله لعتبتها النصرة الداخلة ، كما أخجل بمكارمها السحب الباخلة ، وجعل مفارق مناصلها المختضبة من نجيع عداها غير ناصلة[3] ، وقرَن بكل سبب من أضدادها فاصلة ، من دار ملك الإسلام بالأندلس حَمراء غَرْناطَة — وصل الله سبحانه عادة الدفاع عن أرجائها ، وشدّ بأيدي اليقين عُرَى أملها في الله ورجائها — حيث المصاف المعقود ، وثمن النفوس المنقود ، ونار

....

١ ك : الذي أذل بعزة الله نفوس أهل الطغيان .

٢ استخدام : سقطت من ق ط ج ودوزي .

٣ ق ط ج ودوزي : الناصلة .

الحرب ذات الوَقُود ؛ حيث الأفق قد تردّى بالقَتام وتعمّم ، والسيف قد تجرد وتيمّم ، وغُبار الجهاد يقول : أنا الأمان من دخان جهنم ؛ حيث الإسلام من عدوّه كالشامة من جلد البعير ، والتمرة من أوسق العِير ؛ حيث المَصارع تتزاحم الحورُ على شهدائها ، والأبطال يعلو بالتكبير مسمع [1] ندائها ، حيث الوجوه الضاحكة المستبشرة قد زينتها الكلوم بدمائها ، وإن هذا القطر الذي مهدت لسياستنا [2] أكوار مَطَاياه ، وجُعلت بيدنا — والمنّة لله — عِياب عَطاياه ، قطر مستقل بنفسه ، مُرْبٍ يومه في البرّ على أمسه ، زكيّ المنابت عذب المشارب ، متمّم المآمل مكمّل المآرب ، فاره الحيوان ، معتدل السحَن والألوان ، وسيطة في الأقاليم السبعة ، شاهدة لله بإحكام الصنعة ، أما خيله ففارهة ، وإلى الرّكض شارهة ، وأمّا سيوفه فلمواطن الغمود كارهة ، وأمّا أسَلُه فمتداركة الخطف ، وأمّا عَوامله فبيّنة الحذف ، وأمّا نِباله فمحذورة القذف ، إلا أن الإسلام به في سَفَطٍ مع الحيّات [3] ، وذَريعة للمنيّات الوحِيّات ، وهَدَف للنبال ، وأكلة للشّبال ، تطؤهم الغارات المتعاقبة ، وتتحيفهم [4] الحدود المصاقبة ، وتجُوسُ خلالهم العيون المراقبة ، وتريب من أشكال مختطّهم إلا أن يتفضل الله بحسن العاقبة ، فليس إلا الصبر ، والضرب والهبر [5] ، والهمز والنبر ، والمقابلة والجبر ، وقد حال البحر بينهم وبين إخوان ملّتهم ، وأُساة علّتهم ، يقومون بهذا الفرض ، عن أهل الأرض ، ويُقرضون مَلِكَ يوم العرض ، أحسن القرض ، فلولا بُعد المدى ، وغُول الردى ، ولَغَطُ العدا ، وما عدا ممّا بدا ، لسمعتم تكبير الحملات ، وزئير تلك الفَلاّت ، ودوِيّ الحوافر ، وصليل السيوف من فوق المغافر ، وصُرَاخ الثكالى ، وارتفاع الأدعية إلى الله تعالى ، ولو ارتفع قيدُ [6] المكان ، وهو للأولياء مثلكم من حيّز الإمكان ، لمقلتم مقل الأسنّة الزُّرق ، حالّة

١ دوزي : مستمع .   ٢ ق : بسياستنا .
٣ إشارة إلى قول الشاعر : كيف الحياة مع الحيات في سفط
٤ ك : وتخيفهم .   ٥ ق ك ط ج : والضرب الهبر .
٦ ق : بند ؛ ك : هذا ؛ ج : نبذ ؛ ط ودوزي : نبد .

من أطراف قَصَب الرماح محالٌّ الوُرْق ، وأبصرتم القنا الخطّار قد عاد أخلّة ، والسيوف قد صارت فوق بدور الخوذِ أهلّة، وعقود الشهادة عند قاضي السعادة مستقلة ، وكان كما تحصره علومكم الشريفة حدق سور الفتح ، وآخر دلاء ذلك المتح[1] ، عُرِض على الفاروق فاحتاط ، وأغرى به من بعده فاشتاط ، وسرحت خيل ابن أبي سَرْح ، في خبر يَدْعو إلى شرح ، حتى إذا وَلَدُ مروان تقلدوا كُرَتَها التي هَوَتْ ، وخَضموا[2] ما أنضجت ورثة الحق وشوت ، ويدهم على الأمر احتوت ، وفازت منه بما نوت ، نفل ولائده الوليد ، وجلب له الطريف والتليد ، وطرقت خيل طارق ، وضاقت عن أخباره المهارق ، وجلّت الفائدة ، وظهر على الذخيرة التي منها المائدة ، ثم استرسل المَهَبُّ ، ونصر الربُّ ، ويكثر الطير حين ينتثر الحَبُّ[3] ، وصرفَتْ أشرافُ الشام أعِنّتَها إلى التماس خيره ، وطارت بأجنحة العزائم تيمّناً بطَيْره ، وقصدته الطلائع صحبة بَلج بن بشر وغيره ، ففتحت الأقفال ، ونفلت الأنفال ، ونجح الفال ، ووُسمت الأغفال ، وافتُتحت البلاد الشهيرة ، وانتقيت العذارى الخِيرة ، واقتنيت الذخيرة ، وتجاوز الإسلام الدروب وتخطّى ، وخضد الأرْطى ، وأركب وأمطى ، واستوثق واستوطا ، وتثاءب وتمطّى ، حتى تعدّدت مراحل البريد ، وسَخِنت عين الشيطان المَريد ، واستوسق للإسلام ملكٌ ضَخْمُ السُّرادق ، مرهوب البَوَارق ، رفيع العَمَد ، بعيد الأمَد ، تشهد بذلك الآثار والأخبار ، والوقائع الكبار ، والأوراق والأسطار[4] ، وهل يخفى النهار ؟ ولكل هُبوب رُكود ، والدهر حَسُود لمن يَسُود ، فراجعت الفرنج كَرّتَها ، واستدركت مَعَرَّتَها ، فدوّمَت جوارحها وحلّقَتْ ، وأومضت بوارقها وتألقت ، وتشبثت وتعلقت ، وأرسلت

١ ك : وآخر ولاء ذلك المنح .
٢ الخضم : التناول بجميع الفم ، أما القضم فهو بمقدم الفم .
٣ من قول بشار :
يسقط الطير حيث ينتثر الحـ ـب وتغشى منازل الكرماء
٤ ك : والأوداق والأمطار .

الأعنّة وأطلقت ، وراجعت العقائلَ التي طلّقتْ ، حتى لم يبق من الكتاب إلاّ الحاشية ، ولا من الليل إلاّ الناشيّة ، وسقطت الغاشية ، وأخلدت الفئة المتلاشية ، وتقلّصت الظلال الفاشية ، إلا أن الله تدارك بقوم رُجّح من سلّفنا أثبتوا في مستنقع الموت[1] أقدامهم ، وأخلصوا لله بأسَهُم وإقدامهم ، ووَصَلوا سيوفهم الباترة[2] بخُطاهم ، وأعطاهم منشور العزّ من أعطاهم ، حين تعين الدين وتحيز ، واشتد بالمدافعة وتميز ، وعادت الحروب سِجالاً ، وعلم الروم أن لله رجالاً ، وقد أوفد جدّنا — رضي الله عنه — على أبواب سلفكم من وقائعه في العدوّ كل مُبَشّرة ، ووجودية منتشرة ، ضحكت لها ثغور الثغور ، وسَرَتْ بها في الأعطاف حُمَيّا السرور ، وكانت المراجعة عنها شفاء للصدور ، وتَمائم في الدور[3] ، وخَفَراً في وجوه البدور ، فإن ذمام الإسلام موصول ، وفروعه تجمعها في الله أصول ، وما أقرب الحَزْن ممّن داره صُول[4] ، والملّة — والمنّةُ لله — واحدة ، والنفوس لا منكرة للحق ولا جاحِدة ، والأقدار معروفة ، والآمال إلى ما يوصل إلى الله مصروفة ، فإذا لم يكن الاستدعاء ، أمكن الدعاء ، والخواطر فعّالة ، والكل على الله عالّة ، والدين غريب والغريب يحنّ إلى أهله ، والمرء كثير بأخيه على بُعد محلّه .

انتهى المقصود من المخاطبة ممّا يتعلّق بهذا الباب ، والله سبحانه وتعالى الموفّق للصواب ، وإليه المرجع والمآب[5] .

١ ك : الحرب ؛ وهو من قول أبي تمام :

فأثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر

٢ ك : البارقة .

٣ ك : في درر النحور .

٤ من قول الحماسي :

ما أقدر الله أن يدني على شحط ... من داره الحزن ممن داره صول

٥ وإليه ... والمآب : سقطت من ك .

الباب الثالث

في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي العماد ، والقَهْر للعدوّ في الرواح والغدوّ والتحرّك والهدوّ والارتياح البالغ غاية الآماد ، وإعمال أهلها للجهاد ، بالجدّ والاجتهاد ، في الجبال والوهاد ، بالأسنّة المشرّعة والسيوف المستلّة من الأغماد

أقول : قدّمنا في الباب قبل هذا ما كان من نصر المسلمين ، وفتحهم الأندلس ، وما حصل لهم من سُلطان بها إلى مجيء الداخل ، فتقررت القواعد السلطانية ، وعلت الكلمة الإيمانية ، كما نَسْرُده هنا إن شاء الله تعالى .

وذكر غير واحد – منهم ابن حزم[1] – أن دولة بني أمية بالأندلس كانت أنبلَ دول الإسلام ، وأنكاها في العدوّ ، وقد بلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه ، كما سترى بعضه .

* * *

[عبد الرحمن الداخل]

وأصل هذه الدولة – كما قال ابن خلدون[2] وغير واحد – أن بني أمية لمّا نزل بهم بالمشرق ما نزل ، وغلبهم بنو العباس على الخلافة ، وأزالوهم عن كرسيّها ، وقتل عبدُ الله بن عليّ مروانَ بن محمد بن مروان بن الحكم آخرَ خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، وتتبّع بني مروان بالقتل ، فطلّبوا بطن الأرض

---

١ راجع ابن عذاري ٢ : ٥٨ .

٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٢٠ وسيورد المقري ترجمة مسهبة لعبد الرحمن في الباب السادس .

من بعد ظهورها ، وكان ممّنْ أفلَتَ منهم عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وكان قومه يتحيّنُون له ملكاً بالمغرب ، ويرون فيه علامات لذلك يأثرونها عن مَسْلمة بن عبد الملك[1] ، وكان هو قد سمعها منه مشافهة ، فكان يحدّث نفسه بذلك ، فخلص إلى المغرب ، ونزل على أخواله نَفْزَةَ من برابرة طرابلس ، وشعر به عبدُ الرحمن بن حبيب ، وكان قد قتل ابني الوليد ابن يزيد بن عبد الملك لمّا دخلا إفريقية ، فلحق بمُغيلة ، وقيل : بمكناسة ، وقيل : بقوم من زَناتة ، فأحسنوا قبوله ، واطمأن فيهم ، ثم لحق بمَليلة ، وبعث بَدْراً مولاه إلى مَنْ بالأندلس من موالي المروانيين وأشياعهم ، فاجتمع بهم وبَثّوا له في الأندلس دعوة ، ونشروا له ذكراً ، ووافق قدومه ما كان من الإحَن بين اليمنية والمضريّة فأصفقت اليمنية على أمره لكون الأمر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفِهْري وصاحبه الصُّميل ، ورجع بَدر مولاه إليه بالخبر ، فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة في خلافة أبي جعفر المنصور ، ونزل بساحل المنكّب ، وأتاه قوم من أهل إشْبيليَة فبايعوه ، ثم انتقل إلى كورة ريّةَ فبايعه عاملها عيسى ابن مُساور ، ثم إلى شَذُونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي ، ثم إلى موروور فبايعه ابن الصباح ، ونَهَد إلى قُرْطُبة فاجتمعت إليه اليمنية ، ونُميَ خبره إلى والي الأندلس يوسفَ بن عبد الرحمن الفِهري ، وكان غازياً بجلّيقية ، فانفضّ عسكره ، ورجع إلى قُرْطُبة ، وأشار عليه وزيره الصُّميل بن حاتم بالتلطّف له ، والمكر به ، لكونه صغيرَ السن ، حديثَ عهدٍ بنعمة ، فلم يتم ما أراده[2] ، وارتحل عبدُ الرحمن من المنكّب ، فاحتلّ بمالَقَة فبايعه جندها ، ثم برُنْدَة[3] ، ثم بشَريش كذلك ، ثم بإشْبيليَة ، فتوافت إليه جنود الأمصار ، وتسايلت المضرية إليه ، حتى إذا لم يَبْقَ مع يوسف بن عبد الرحمن غيرُ الفهرية والقَيْسية

١ سيورد المقري من بعد طرفاً من هذه الأخبار عن مسلمة .
٢ ابن خلدون : فلم يتم له مراده .
٣ زاد ابن خلدون : فبايعه جندها .

لمكان الصُّمَيل منه زَحَفَ حينئذ عبدُ الرحمن الداخل ، وناجزهم الحرب بظاهر قُرْطبة ، فانكشف يوسف ، ونجا [1] إلى غَرْناطة فتحصَّن بها ، واتبعه الأمير عبدُ الرحمن فنازله ، ثم رغب إليه يوسف في الصلح ، فعقد له على أن يسكن قُرْطُبة ، ثم أقفله معه ، ثمَّ نقض يوسف عهده ، وخرج سنة إحدى وأربعين ومائة [2] ، ولحق بطُلَيطلة ، واجتمع إليه زُهاء عشرين ألفاً من البربر ، وقدَّم الأميرُ عبدُ الرحمن للقائه عبدَ الملك بن عمر المرواني ، وكان وَفَدَ عليه من المشرق ، وكان أبوه عمر بن مَرْوان بن الحكم في كَفالة أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر ، فلمّا دخلت المسوّدة أرضَ مصر خرج عبد الملك يؤمُّ الأندلس في عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة ، حتّى نزل على عبد الرحمن سنة أربعين ، فعقد له على إشبيلِيَةَ ، ولابنه عمرَ بن عبد الملك على مَوْرور ، وسار يوسف إليهما ، وخرجا إليه ولقياه ، وتناجز الفريقان ، فكانت الدائرة على يوسف ، وأبعد المفرَّ ، واغتاله بعض أصحابه بناحية طُلَيْطلة ، واحتزَّ رأسَه ، وتقدم به إلى الأمير عبد الرحمن ، فاستقام أمره ، واستقر بقُرْطُبة ، وثبت قَدَمُه في الملك ، وبنى المسجد الجامع والقَصْر بقرطبة ، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ، ومات قبل تمامه ، وبنى مساجد ، ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق ، وكان يدعو للمنصور ، ثم قطع دَعْوته ، ومَهّدَ الدولة بالأندلس ، وأثّل بها الملك العظيم لبني مروان والسلطان العزيز ، وجَدّد ما طُمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، واستلحم الثوّار عليه على كثرتهم في النّواحي ، وقطع دعوة آل العباس من منابر الأندلس ، وسدَّ المذاهب منهم دونها ، وهلك سنة ثنتين وسبعين ومائة ، وكان يُعْرف بعبد الرحمن الداخل ، لأنّه أول داخل من ملوك بني مروان إلى الأندلس ، وكان أبو جعفر المنصور يُسَمّيه « صَقْرَ قريش » [3]

١ كذا في ط وقد تقرأ « ولجأ » في بقية الأصول .
٢ انظر ابن عذاري ٢ : ٧٣ في تفصيل الخبر عن نهاية يوسف الفهري .
٣ ابن خلدون : صقر بني أمية .

لمّا رأى أنّه فعل بالأندلس ما فعل [1] ، وما ركب إليها من الأخطار ، وأنّه تَهَدَ إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار ، فغلب أهلَها على أمرهم ، وتناول الملك من أيديهم بقوّة شكيمة ، ومَضاء عَزْم حتى انقاد له الأمر ، وجرى على اختياره ، وأورثه عقبه ، وكان يسمّى بالأمير ، وعليه جرى بَنُوه من بعده ، فلم يُدْعَ أحد منهم بأمير المؤمنين تأدّباً مع الخلافة بمقر الإسلام ومُنْتدى العرب ، حتى كان من عقبه عبدُ الرحمن الناصر ، وهو ثامن بني أمية بالأندلس ، فتسمّى بأمير المؤمنين على ما سنذكره ، لما رأى من ضعف خلفاء بني العباس بعد الثلاثمائة ، وغلبة الأعاجم عليهم ، وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم ، وتوارث التلقيب بأمير المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحداً بعد واحد .

قال ابن خلدون [2] : وكان لبني عبد الرحمن الداخل بالعُدْوة الأندلسية مُلْك ضخم ودولة متسعة اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة ، وعندما شُغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوي أمرُ الجلالقة ، واستفحل سلطانهم ، وعمد فرويلة بن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها ، وملكها من أيديهم ، فملك مدينة لُكّ وبرتقال وسَمّورة وشلمنقة وقَشْتالة وشَقُوبِيَة [3] ، وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر آخرَ الدولة ، ثم استعادوها بعده فيما استعادوه من بلاد الأندلس ، واستَوْلَوْا على جميعها حسبما يُذكر ، ولله سبحانه الأمر ؛ انتهى .

وخاطب عبد الرحمن قارله [4] ملكَ الإفرنج ، وكان من طُغاة الإفرنج ، بعد أن تمرّسَ به مدة ، فأصابه صُلْبَ المكسِرِ ، تامّ الرجولية ، فمال معه إلى

---

١ ابن خلدون : لما رأى ما فعل بالأندلس .

٢ كذا في ج ، والنقل عن ابن خلدون ما يزال مستمراً ؛ وفي ق : قال ابن سعيد ؛ وفي ك : قال ابن حيان ؛ وفي ط بياض .

٣ شقوبية : (Segovia) .

٤ قارله : سقطت من ط ؛ وفي ج : فارله .

المداراة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ، ولم تتم المصاهرة .

قال ابن حيّان[1] : ألفى[2] الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غُفْلاً من حِلْيَة الملك عاطلاً ، فأرْهَفَ أهلها بالطاعة السلطانية ، وحَنّكهم بالسيرة الملوكية ، وأخذهم بالآداب فأكسبهم عمّا قليلٍ المروءةَ ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدوّن الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعْطِية ، وعَقَدَ الألْوِية ، وجَنّدَ الأجناد ، ورفع العِماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عُدّته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحَذِروا جانبه ، وتحاموا حَوْزَته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقلّ له الأمر فيها . فلذلك ما ظلّ عدوّه أبو جعفر المنصور — بصِدْقِ حِسّه ، وبُعْد غَوْره ، وسَعَة إحاطته — يسترجعُ عبدَ الرحمن كثيراً ، ويعْتَدّ له بنفسه ، ويُكثر ذكره ، ويقول : لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مِراسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر فتىً قريش الأحوذيّ الفذ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونَشَبه ، وتسلّيه عن جميع ذلك ببعد مَرْقى همّته ، ومَضاء عزيمته ، حتى قَذَفَ نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرةً شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية[3] الجند ، ضرب بين جُنْدِها بخصوصيته ، وقَمَعَ بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوبَ رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عَصِيُّهُمْ ، وذلّ له أبيُّهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكاً على قطعته[4] ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحَوْزَته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو الفتى كلُّ الفتى لا يكذب مادحه . وجعل ابن حيّان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصّرامة ، والاجتراء

---

١ هكذا في ك ؛ والكلام متصل في ج ؛ وفي ط بياض ؛ وفي ق : وقال في المطمح .

٢ ك : لما ألفى . . . أرهف .

٣ ط : عصبة .

٤ ك : قطيعته .

على الكبائر والقساوة ، وأنّ أم كل واحد منهما بربرية .

وكان الداخل يقعد للعامة ، ويسمع منهم ، وينظر بنفسه فيما بينهم ، ويتوصل إليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة ، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه مَن أدرك وقت طعامه ، ومَن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه .

وفي كتاب ابن زيدون[1] أنّه كان أصْهَب ، خفيفَ العارضين ، بوجهه خالٌ ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، له ضفيرتان ، أعور أخشم ؛ والأخشم : الذي لا يشم ، وكان يلقب « بصقر قريش » لكونه تغرّب وقطع البر والبحر ، وأقام ملكاً قد أدبر وحده .

ولمّا ذكر الحجاري أنّه أعور قال : ما أنشد فيه إلاّ قول امرىء القيس[2] :

لكن عُوَير وَفَى بذمّتِه لا عَوَرٌ شانَهُ ولا قِصَرُ

وقال ابن خلدون[3] : «وفي سنة ست وأربعين سار العَلاء بن مُغيث اليَحْصُبي من إفريقية إلى الأندلس ، ونزل بباجَة الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور ، واجتمع إليه خلق ، فسار عبدُ الرحمن إليه ولقيه بنَوَاحي إشبيلية ، فقاتله أيّاماً ، ثمّ انهزم العَلاء ، وقُتل في سبعة آلاف من أصحابه ، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم إلى القَيْروان ومكّة ، فألقيت في أسواقها سرّاً ، ومعها اللواء الأسود ، وكتاب المنصور للعَلاء[4] » ، فارتاع المنصور لذلك وقال : ما هذا إلا شيطان ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر ، أو كلاماً هذا معناه ، وقد مرّ ذكر ذلك .

---

١ هو كتاب « التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس » لأبي الوليد ابن زيدون (ولعله لابنه أبي بكر) حمله على مثال « كتاب التعيين في خلفاء المشرق » للمسعودي ، ذكره ابن سعيد في تذييله على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس .

٢ ديوان امرىء القيس : ١٣٣ وعوير هو العوير بن شجنة من بني عوف ، مدحه بالوفاء .

٣ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٢٢ وانظر ابن عذاري ٢ : ٧٧ وابن القوطية : ٥٧ .

٤ هنا ينتهي النقل عن ابن خلدون .

وكثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل ، ونافسوه ملكه ، ولقي منهم خطوباً عظيمة ، وكانت العاقبة له ، واستراب في آخر أمره بالعرب ، لكثرة مَن قام عليه منهم ، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم ، واتخاذ الموالي ، ثم غزا بلاد الإفرنج والبُشْكَنْس ومَن وراءهم ، ورجع بالظّفَر ، وكان في نيته أن يجدّد دولة بني مروان بالمشرق ، فمات دون ذلك الأمل ، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر ، إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة ، ومات سنة اثنتين وسبعين ، وقيل : إحدى وسبعين ومائة ، في خلافة الرشيد ، وأمّه أم ولد بَرْبرية اسمها راح ، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة ، بدير حنا من أرض دمشق ، وقيل : بالعلياء من تدمُر ، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثماني عشرة عن إحدى وعشرين سنة ، وكفله وإخوتَهُ جدُّهم هشام ، ووَهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس ، وأقطعه إيّاها ، ووَجّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى ، وقيل : إنّه لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة : بدر مولى أبيه ، وأبو شجاع ، وزياد ، وعمرو ، وقيل : إن بدراً لحقه ولم يخرج معه ، فالله أعلم ، وخلف من الولد عشرين ، منهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث .

وحكى غير واحد أنّه لما هرب من الشام إلى إفريقية قاصداً الأندلس نزل بمُغيلة ، فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ، ويكنى أبا قُرّة ، فاستتر عنده وقتاً ، ولحق به بدر مولى أبيه بجوهرٍ وذهبٍ أنفذته أخته إليه ، فلمّا دخل الأندلس واستتبَّ أمره به سار إليه أبو قرة وانسوس البربري ، فأحسن إليه ، وحَظِي عنده ، وأكرم زوجته تكفات البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه ، فقال لها عبد الرحمن مداعباً حين استظلت بظلّه في الأندلس : لقد عذبتني بريح إبطَيْكِ يا تكفات على ما كان بي من الخوف ، وسعطتني[1] بأنتَنَ من ريح الجيف ، فكان جوابها له مسرعة : بل ذلك

[1] ك : وسطعتني .

كان والله يا سيدي منك خرج ولم تشعر به من فرط فزّعك ، فاستظرف جوابها ، وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك ، وهذا من آفات المزاح .

ومن محاسنه أنّه أدار السور بقرطبة ، رحمه الله تعالى .

* * *

[هشام بن عبد الرحمن]

وتولى الملك بعدَه ابنه هشام بعهد منه إليه ، وأمّه أم ولد اسمها حُلَل [1] ، وأفضى إليه الملك وهو بماردة والٍ عليها ، وكان أبوه يوليه في صباه ويرشحه للأمر ، وكان الداخل كثيراً ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام ، فيذكر له أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال ، وما أشبه ذلك ، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً ، فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصغر سليمان [2] ، وقال يوماً لهشام : لمن هذا الشعر :

وتَعْرِف فيه من أبيهِ شمائلاً ... ومن خاله أو مِنْ يزيد ومن حُجُرْ

سماحة ذا ، وبرَّ ذا ، ووفاء ذا ، ... ونائل ذا ، إذا صحا وإذا سكرْ

فقال له : يا سيدي لامرىء القيس ملك كندة ، وكأنّه قاله في الأمير أعزّه الله ؛ فضمّه إليه استحساناً بما سمع منه ، وأمر له بإحسان كثير ، وزاد في عينه . ثم قال لسليمان على انفراد : لمن هذا الشعر ؟ وأنشده البيتين ، فقال : لعلهما لأحد أجلاف العرب ، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب [3] ؟ فأطرق عبد الرحمن ، وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية .

ولمّا وليَ هشام [4] أشخَصَ المنجم المعروف بالضبي من وطنه الجزيرة الخضراء

---

١ ابن عذاري : جمال ؛ والحميدي : حوراء .
٢ انظر الحلة السيراء ١ : ٤٢ .
٣ ط : أقوال بفصحاء العرب .
٤ ابن القوطية : ٦٤ والمقتطفات (الورقة : ٨٢) .

إلى قُرْطُبة ، وكان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حِذْقاً وإصابة ، فلمّا أتاه خلا به وقال له : يا ضبي ، لست أشك أنّه قد عنّاك من أمرنا إذ بلغك ما لم يُدَّعَ تجديد[1] النظر فيه ، فأنشدك الله إلا ما نبأتنا بما ظهر لك فيه ، فلَجْلَج وقال : أعفني أيها الأمير ، فإنّي ألممت به ، ولم أحقّق النظر فيه بجلالته في نفسي ، فقال له : قد أجّلتك لذلك ، فتفرّغ للنظر فيما بقي عليك منه ، ثمّ أحضره بعد أيّام ، فقال : إن الذي سألتك عنه جدّ منّي ، مع أنّي والله ما أثق بحقيقته ، إذ كان من غَيْب الله الذي استأثر به ، ولكنّي أحبّ أن أسمع ما عندك فيه ، فالنفس طُلَعة ، وألزمه الصّلة أو العقوبة ، فقال : اعلم أيها الأمير أنّه[2] سوف يستقر ملكك ، سعيداً جَدّك ، قاهراً لمن عاداك ، إلا أن مدّتك فيه فيما دل عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها ، فأطرق ساعة ثمّ رفع رأسه وقال : يا ضبي ما أخوفني أن يكون النذير كلّمني بلسانك ، والله لو أن هذه المدّة كانت في سَجْدة لله تعالى لقلّتْ طاعةً له ، ووصَلَهُ وخلع عليه ، وزهد في الدنيا ، والتزم أفعال البرّ[3] .

ومن حكاياته في الجود[4] أنّه كان قاعداً لراحته في عِلّيّة على النهر في حياة والده ، فنظر إلى رجل من قدماء صنائعه من أهل جيّان قد أقبل يوضع السير في الهاجرة ، فأنكر ذلك ، وقدّر شرّاً وقع به من قِبل أخيه سليمان ، وكان والياً على جيّان ، فأمر بإدخاله عليه ، فقال له : مهيم يا كناني ، فلأمر ما جئت ، وما أحسَبُك إلا مزعَجاً لشيء دَهَمك[5] ، فقال : نعم يا سيدي ، قتَل رجل من قومي رجلاً خطأ ، فحملت الدية على العاقلة ، فأخذ بها من كنانة عامة ، وحُمل[6]

---

١ ك : لم ندع تحديد .   ٢ أنه : سقطت من ق ط ج .
٣ ك : ولزم أفعال الخير والبر .
٤ أخبار مجموعة : ١٢١ – ١٢٤ ، وابن عذاري ٢ : ٩٩ (٦٧ ط . ليدن) .
٥ في ط بياض موضع « مهيم » و « جئت » وفي أخبار مجموعة : ما خبرك يا كناني ، فلا أحسبك إلا قد همك أمر .
٦ أخبار مجموعة وابن عذاري : وحيف .

عليّ من بينهم خاصّة ، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكاني منك ، فمد هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر ، وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها ، وقال له : دونك هذا العقد يا كناني ، وشراؤه عليّ ثلاثة آلاف دينار ، فلا تُخدَعَنّ عنه ، وبعه ، وأدّ عن نفسك وعن قومك ، ولا تمكن الرجل من اهتضامك ، فقال : يا سيدي ، لم آتك مستجدياً ولا لضيق المال عمّا حملته ، ولكنّي لما اعتُمِدْت بظلم صُرَاح أحببت أن يظهر عليّ عِزّ نصرك ، وأثر ذبّك وامتعاضك[1] ، فأتمجّدَ بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك ، فقال هشام : فما وجه ذلك ؟ فقال : أن تكتب إلى أخيك في الإمساك عنّي ، والقيام بذمّتك لي ، فقال : أمسك العقد ، وركب من حينه إلى والده الداخل ، واستأذن عليه في وقت أنكره ، فانزعج ، وقال : ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلاّ أمر مقلق ، ائذنوا له ، فلمّا دخل سلّم عليه ، ومَثَل قائماً بين يديه ، فقال له : اجلس يا هشام ، فقال : أصلح الله الأمير سيدي ، وكيف جلوسي بهمّ وذل مزعج ، وحُقّ لمن قام مقامي أن لا يجلس إلا مطمئناً ، ولن يقعدني إلا طيبُ نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي ، وإلا رجَعْتُ على عقبي ، فقال له : حاشَ لك من انقلابك خائباً ، فاقعد مُجاباً مُشفَّعاً ، فجلس ، فقال له أبوه : فما الحدث المقلق ؟ فأعلمه ، فأمر بحَمْل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال ، فسُرّ هشام وأطنب في الشكر ، وكتب الأمير إلى ولده سليمان في ترك التعرض لهذا الكناني.

ولما دخل الكناني لوداع هشام قال له : يا سيدي قد تجاوزتُ بك حدّ الأمْنية ، وبلغت غاية النصر ، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة ، فتعيده إلى صاحبته ، فأبى من ذلك ، وقال : لا سبيل إلى رجوعه إلينا .

وكان هشام يذهب بسيرته مذهبَ عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم

....

[1] أخبار مجموعة : وأثر عنايتك .

من ثقاته إلى الكُوَر[1] فيسألون الناس عن سِيَر عُمّاله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حَيْف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ، ولم يستعمله بعد .

ولمّا وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال[2] : ليت أن الله تعالى زين مَوْسمنا بمثل هذا[3] .

وفي أيامه فُتحت أُرْبونة الشهيرة[4] ، واشترط على المعاهدين من أهل جليقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أُرْبُونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقُرْطُبة ، وبنى منه المسجدَ الذي قدّام باب الجنان ، وفضلت منه فضلة بقيت مكوّمة .

وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً ، ثم كانت الدائرة له .

وقصد إلى بلاد الحرب غازياً ، وقصد ألبة والقلاع ، فلقي العدوّ وظفر بهم ، وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين[5] . وبعث العساكر إلى جليقية مع يوسف بن بخت[6] فلقي ملكها برمند[7] ، وهزمه ، وأثخن في العدوّ .

وفي سنة ست وسبعين[8] بعث وزيره عبدَ الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدوّ ، فبلغ ألبة والقلاع ، فأثخن في نواحيها ، ثمّ بعثه في العساكر سنة سبع وسبعين إلى أُرْبُونة وجرندة[9] فأثخن فيها ، ووطىء أرض برطانية ، وتوغل

---

١ ابن عذاري ٢ : ٩٨ (٦٦ ط . ليدن) .
٢ أخبار مجموعة : ١٢٠ وابن القوطية : ٦٥ .
٣ ق : ان الله تعالى زين . . . وأخبار مجموعة : وددت أن الله ؛ وسقطت « ليت أن » أو ما يقابلها من ط . وفي ك : نسأل الله أن يزين . . .
٤ كان ذلك عام ١٧٧ .
٥ في ابن عذاري : سنة ١٧٦ .
٦ هكذا في البيان المغرب : ٩٥ وفي ط ق : بن نجبة ؛ وفي ك ج : ابن نجية .
٧ ك : ابن منده ، اقرأ « ابرمنده » وفي البيان : برمود = (Vermudo) .
٨ انظر ابن عذاري ٢ : ٩٥ (٦٤ ط . ليدن) .
٩ جرندة : (Gerona) إلى الشمال الشرقي من برشلونة .

عبدُ الملك في بلاد الكفار وهزمهم ، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع سنة ثمان وسبعين ، ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جليقية ، فانتهى إلى اسْتُرْقَة[1] ، فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك البُشْكَنْس ، ثم خام عن اللقاء ، ورجع أدْراجَه ، واتبعه عبدُ الملك ، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى ، فالتقوا بعبد الملك ، وأثخنوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعضَ الشيء ، ثم خرجوا سالمين ظافرين .

ومن محاسنه أنّه جدّد القنطرة التي يُضْرب بها المثل بقرطبة كما سبق ، وكان بنّاها السَّمْح الخَوْلاني عاملُ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فأحكم هشام بناءها إلى الغاية ، وقال يوماً لأحد وزرائه[2] : ما يقول أهل قرطبة ؟ فقال : يقولون : ما بناها الأمير إلا ليمضي عليها إلى صيده وقَنَصه ، فآلى هشام على نفسه أن لا يسلك عليها ، فلم يمرَّ عليها بعدُ ، ووفى بما حلف عليه .

ومن محاسنه[3] أيضاً إكمال بناء الجامع بقُرْطُبة ، وكان أبوه شَرَع فيه ؛ ومن محاسنه أنّه أخرج المصدّق لأخذ الزكاة على الكتاب والسنّة ، رحمه الله .

ثمَّ توفّي سنة ثمانين ومائة ، لسبع سنين وتسعة أشهرٍ من إمارته ، وقيل : لثمان — وكان من أهل الخير والصلاح ، كثير الغزو والجهاد — وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر ، ووُلد في شوّالَ سنة ١٣٩[4] .

* * *

[الحكم بن هشام]

وولي بعده ابنه الحكم[5] بعهدٍ منه إليه ، فاستكثر من المماليك ، وارتبط

---

١ استرقة أو اشترقة : (Astorga) من منطقة جليقية إلى الغرب في اتجاه الشمال من مدينة لبلة (Niebla) .

٢ ابن عذاري ٢ : ٦ (٦٦ ط . ليدن) .

٣ هذا النص متأخر في أصول النفح عن قوله : « ثم توفي ... الخ » فاصل خبر الوفاة إلى جزئين ، يبدأ الثاني منهما بقوله « وعمره . . . » ولهذا الاضطراب أبحت لنفسي إعادة ترتيبه .

٤ في الأصول : ١٣٧ .

٥ ابن خلدون ٤ : ١٢٥ .

الحيل ، واستفحل ملكه ، وباشر الأمور بنفسه ، وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتنم العدوُّ الكافر الفرصةَ في بلاد المسلمين ، وقصدوا[1] بَرْشِلونة فملكوها سنة خمس وثمانين ، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها ، وبعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مُغيث[2] إلى بلاد الجلالقة ، فأثخنوا فيها ، وخالفهم العدو إلى المضايق ، فرجع على التعبية ، وظفر بهم ، وخرج إلى بلاد الإسلام ظافراً .

وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الرَّبَض[3] من قُرْطُبة لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لَذّاته ، فاجتمع أهلُ العلم والورَع بقُرْطُبة ، مثل يحيى ابن يحيى الليثي[4] صاحب مالك وأحد رواة الموطّإ عنه وطالوت الفقيه[5] وغيرهما ، فثاروا به ، وخلعوه ، وبايعوا بعضَ قرابته ، وكانوا بالرَّبَض الغربيّ من قُرْطُبة ، وكان محلّةً متصلةً[6] بقصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ، ولحقوا بفاس من أرض العُدْوة ، وبالإسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها ، فزحف إليهم عبدُ الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد ، وغلبهم ، وأجازهم إلى جزيرة أقريطِش ، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدّة .

. . . .

١ في الأصول : وقصد

٢ الصواب : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث .

٣ انظر تفصيل الخبر عن هيج أهل الربض أولا سنة ١٨٩ وثانياً سنة ٢٠٢ في ابن عذاري ٢ : ١٠٦ ، ١١٣ وابن القوطية : ٧٢ والحلة السيراء ١ : ٤٤ وأوجز ابن خلدون الخبر عن وقعتهم ٤ : ١٢٦ .

٤ يحيى بن يحيى الليثي : مصمودي سمع من مالك وعاد إلى الأندلس بعلم كثير وأصبح يفتي فيها برأي مالك (توفي سنة ٢٣٣ أو ٢٣٤) راجع ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ١٧٦ والجذوة : ٣٥٩ وبغية الملتمس رقم : ١٤٩٧ وابن خلكان ٥ : ١٩٤ ؛ وسيترجم له المقري في الراحلين إلى المشرق رقم : ٢ .

٥ راجع ترجمة طالوت بن عبد الجبار في الذيل والتكملة ٤ : ١٤٩ وابن القوطية : ٧٥ — ٧٧ والتكملة : ٣٤٥ .

٦ في الأصول : محله متصلا ، والتصويب عن ابن خلدون .

وكانت في أيّام الحكم حروب وفتن مع الثوّار المخالفين له من أهل طُلَيْطلة وغيرهم .

وفي سنة ثنتين وتسعين [1] جمع لُذَريق [2] بن قارْلُه [*] ملك الفرنج جموعَه ، وسار إلى حصار طَرَسُونة [3]، فبعث الحكم ابنَه عبدَ الرحمن في العساكر ، فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافراً .

ولمّا كثر عَيْثُ الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين [4] ، فافتتح الثغور والحصون ، وخرّب النواحي ، وأثخن في القتل والسبي والنهب ، وعاد إلى قُرْطُبة ظافراً .

وفي سنة مائتين [5] بعث العساكر مع ابن مُغيث إلى بلاد الفرنج فخرب وهدم عدّة حصون ، وأقبل عليه أليط [6] ملكُ الجلالقة في جموع عظيمة ، وتنازلوا على نهر ، واقتتلوا عليه أيّاماً ، ونال المسلمون منهم أعظم النَّيل ، وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة ، ثم كثرت الأمطار ، ومدّ النهر ، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين .

وهو أوّل من جنّد الأجناد ، واتخذ العدّة ، وكان أفحل [7] بني أميّة بالأندلس ، وأشدّهم إقداماً ونجدة ، وكان يشبَّه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العبّاس في شدّة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء ، وكان يُؤثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن [8] ، وحضر يوماً عنده ، وقد غضب فيه على خادم له لإيصاله

---

١ ابن عذاري ٢ : ١٠٨ وتاريخ الجملة ١٩٣ .

٢ هكذا في الأصول ودوزي ولعل الأصوب لذويق – بالواو – وهو تعريب (Ludovico) .

٣ البيان المغرب : طرطوشة .

٤ أثبت دوزي سنة ١٩٤ ولا خلاف فإن الغزو اتصل بين عامي ١٩٤ – ١٩٦ كما ورد عند ابن عذاري .

٥ ابن عذاري ٢ : ١١٢ .

٦ أليط : وردت في الأصول ، ولم يرد الاسم في ابن عذاري وأسقطه دوزي .

٧ هذه العبارة إلى قوله «وقمع الأعداء» في المغرب ١ : ٣٨ .

٨ زياد بن عبد الرحمن الملقب بشبطون (١٩٩ أو ٢٠٤) قيل إنه أول من أدخل الأندلس فقه مالك

إليه كتاباً كره وصوله ، فأمر بقطع يده ، فقال له زياد : أصلح الله الأمير ، فإن مالك بن أنس حدّثني في خبر رفعه أن « مَنْ كَظَمَ غيظاً يقدر على إنفاذه ملأه الله تعالى أمناً وإيماناً يوم القيامة » ، فأمر أن يمسك عن الخادم ، ويعفى عنه ، فسكن غضبه ، وقال : آلله إن مالكاً حدّثك بهذا ؟ فقال زياد : ألله إن مالكاً حدّثني بهذا [1] .

وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة [2] ، فأكثر فيها مواساة أهل الحاجات ، وفي ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيري فيه [3] :

نكِدَ الزّمان فآمنَتْ أيّامُه مِنْ أن يكون بِعَصْرِهِ عُسْرُ
ظلع الزّمانُ بأزمة فَجَلا لَهُ تلك الكريهةَ جودُهُ الغَمْرُ

وكان نقش خاتمه « بالله يثق الحكم ويعتصمُ » .

وذكور ولده عشرون ، وإناثهم عشرون ، وأمّه جارية اسمها زخرف .

وكان أسمر ، طُوَالاً ، أشمّ ، نحيفاً .

ومدّة ملكه ست وعشرون سنة ، سامحه الله .

وقال غير واحد : إنّه أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبّهة ، واستعدّ بالمماليك حتّى بلغوا خمسة آلاف : منهم ثلاثة آلاف فارس ، وألفا راجل .

ثمّ توفّي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته ، ومولده سنة ١٥٤ .

وقال ابن خلدون وغير واحد [4] : إنّه أوّل من جنّد بالأندلس الأجناد

= وكانوا قبله على مذهب الأوزاعي (الجذوة : ٢٠٣) .

١ انظر المقتطفات (الورقة : ٨٣) .

٢ يذكر ابن عذاري أنها كانت سنة ١٩٩ .

٣ عباس بن ناصح الجزيري ، ثقفي بالولاء ، رحل إلى المشرق غير مرة ، وكان شاعراً كثير المدح للأمير الحكم ، ثم ولي قضاء الجزيرة الخضراء وشذونة (راجع ترجمته في ابن الفرضي ١ : ٣٤٠ وطبقات الزبيدي : ٢٨٤ والمغرب ١ : ٣٢٤ وبغية الوعاة ٢ : ٢٨) .

٤ انظر ابن خلدون ٤ : ١٢٧ والمغرب ١ : ٣٩ .

والمرتزقة ، وجمع الأسلحة والعُدَد ، واستكثر من الخدم والحواشي والحشم ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وحكى في عدّتهم ما تقدم ، ثم قال : وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين ، وهو الذي وطّأ الملكَ لعقِبه بالأندلس ، انتهى .

وكان له ــ فيما حكى غير واحد ــ ألفا فرس مرتبطة على شاطىء النهر بقِبلِيِّ قصره يجمعها داران . وهو القائل لما قتل أهل الرَّبَض وهدم ديارهم وحرثها[1] :

رأبْتُ صُدُوعَ الأرض بالسيف راقعا ... وقدماً لأمْتُ الشَّعْبَ مذ كنتُ يافِعا
فسائلْ ثغوري هل بها اليومَ ثُغْرَةٌ ... أبادرُها مستنضيَ السيفِ دارعا
تُنَبّيك أني لم أكن في قِرَاعِهِمْ ... بِوانٍ ، وقدماً كنتُ بالسيف قارعا
وهل زدتُ أنْ وفّيْتُهم صاعَ قَرْضِهم ... فوافَوْا منايا قُدّرَتْ ومَصَارِعا
فهذي بلادي ، إنّني قَدْ تركْتُها ... مِهاداً ، ولم أترك عليها مُنازِعا

وقال ابن حزم في حقّه[2] : إنّه كان من المُجاهرين بالمعاصي ، السافكين للدماء ، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء . وقال غيره[3] إنّه تنصّل أخيراً ، وتاب ، سامحه الله .

ومن نظمه قوله متغزلاً[4] :

قُضُبٌ من البانِ ماسَتْ فوقَ كُثْبان ... وَلَّيْنَ عَنّي وقد أزمَعْنَ هِجْرَاني

---

١ الأبيات في ابن عذاري ٢ : ١٠٧ وأخبار مجموعة : ١٣٢ والحلة ١ : ٤٧ ومخطوط الرباط : ١٠٧ والمغرب ١ : ٤٤ .
٢ ورد هذا في نقط العروس : ٧٣ (نشر الدكتور ضيف) وانظر المغرب ١ : ٤٤ ومخطوط الرباط : ١٠٦ .
٣ ك : غير واحد .
٤ انظر الحلة ١ : ٥٠ ومخطوط الرباط : ١٠٦ .

ومنها :

من لي بمُقتَضِباتِ الرُّوحِ من بَدَني   يَغْصِبْنَني في الهوى عِزّي وسُلْطاني

وقيل : إنّه كان يمسك أولاد الناس ويَخْصِيهم ، ونُقلت عنه أمور ، ولعلّه تاب منها كما قدّمنا ، والله أعلم بحقيقة أمره .

ومن بديع أخبار الحكم[1] أن العباس الشاعرَ توجّه إلى الثّغْرِ ، فلمّا نزل بوادي الحِجارة سمع امرأة تقول : واغَوْثاه بك يا حكم ، لقد أهملْتَنا حتى كَلِبَ العدوُّ علينا ، فأيّمنا وأيتمنا ، فسألها عن شأنها ، فقالت : كنت مُقْبلة من البادية في رُفْقة ، فخرجت علينا خيل عدو ، فقتلت وأسرت ، فصنع قصيدته التي أوّلها :

تململْتُ في وادي الحجارة مُسْهَرا   أراعي نجوماً ما يُرِدْنَ تغوُّرا[2]
إليك أبا العاصي نَضَيْتُ مَطِيّتي   تسيرُ بهمّ سارياً ومُهَجِّرا
تداركْ نساء العالمين بنصرة   فإنّك أحْرَى أن تغيثَ وتَنْصُرَا

فلمّا دخل عليه أنشده القصيدة ، ووصف له خوف الثغر واستصراخَ المرأة باسمه ، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد ، فخرج بعد ثلاث إلى وادي الحجارة ومعه الشاعر ، وسأل عن الخيل التي أغارت من أيّ أرض العدوّ كانت ، فأعلم بذلك ، فغزا تلك الناحية وأثخن فيها ، وفتح الحصون ، وخرب الديار ، وقتل عدداً كثيراً ، وجاء إلى وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد ، فأحضر ، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحَضْرتها ، وقال للعباس : سَلْها : هل أغاثها الحكم ؟ فقالت المرأة ، وكانت نبيلة : والله لقد شفى الصدور ، وأنكى العدوّ ، وأغاث الملهوف ، فأغاثه الله ، وأعزّ نصره ؛

. ...

١ ورد هذا الخبر نصاً في مخطوط الرباط ١٠٧ – ١٠٨ وفي المقتطفات الورقة : ٨٣ .
٢ في الأصول ودوزي : تغيرا .

فارتاح لقولها ، وبدا السرور في وجهه وقال :

أَلَمْ ترَ يا عبّاسُ أنّي أجَبْتُها على البُعْدِ أقْتادُ الخميسَ المُظَفَّرا
فأدركتُ أوطاراً وبَرَّدْتُ غلّةً وَنَفّسْتُ مكروباً وأغنيتُ مُعْسِرا

فقال عبّاس : نعم ، جزاك الله خيراً عن المسلمين ، وقبَّل يده .

وممّا عِيبَ به أنّه قتل الفقيه أبا زكريا يحيى بن مُضَر القَيْسي ، وكان قُدْوة في الدين والورع ، سمع من سُفيان ومالك بن أنس ، وروى عنه مالك وقال : حدّثنا يحيى بن مضر عن سفيان الثوري أن الطّلح المنضود هو الموز ، وكان قتل المذكور مع جماعة من العلماء وغيرهم .

* * *

[عبد الرحمن بن الحكم]

وقام بأمره[1] من بعده ابنُه عبد الرحمن ، بعهد منه إليه ، ثم لأخيه المغيرة بعده ، فغزا عبدُ الرحمن لأول ولايته إلى جليقيةَ وأبعد ، وأطال المغيب ، وأثخن في أمم النصرانية هنالك ، ورجع .

وقدم عليه سنة ست ومائتين زرياب المغني من العراق[2] ، وهو مَوْلى المهدي ومتعلم إبراهيم الموصلي ، واسمه علي بن نافع ، فركب بنفسه لتلقّيه ، على ما حكاه ابن خلدون ، وبالغ في إكرامه ، وأقام عنده بخير حال ، وأورث صناعة الغناء بالأندلس وخلّف أولاداً فخلَفَه كبيرُهم عبدُ الرحمن في صناعته وحُظْوته .

وفي سنة ثمان[3] أغزى حاجبَهُ عبدَ الكريم بن عبد الواحد إلى ألبةَ

---

١ سياق الأخبار التاريخية عن عهد عبد الرحمن بن الحكم جار وفق ما أورده ابن خلدون ٤ : ١٢٧– ١٣٠ مع حذف ، ويظل النقل مستمراً حتى قوله « واحتجب عن العامة » .
٢ ستأتي أخبار زرياب في موضعها مفصلة .
٣ ابن عذاري ٢ : ١٢٣ ، قلت : وسياق تاريخ المعارك من بعد يختلف عما أورده ابن خلدون .

والقلاع ، فخرّب كثيراً من البلاد وانتسفها ، وفتح كثيراً من حصونهم ، وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف ظافراً .

وفي سنة أربع وعشرين بعث قريبه عبيد الله بن البَلَنْسِي في العساكر لغزو ألبَةَ والقلاع ، فسار ولقي العدوّ فهزمهم وأكثر القتل والسبي ، ثم خرج لُذَرِيق ملك الجَلالقة ، وأغار على مدينة سالم[1] بالثغر ، فسار إليه فرتون بن موسى ، وقاتَلَه ، فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدو والأسر ، ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهلُ ألبَة بالثغر نكايةً للمسلمين ، فافتتحه وهدمه ، ثم سار عبدُ الرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقية ، فدوّخها وافتتح عدّة حُصون منها ، وجال في أرضهم ، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم .

وفي سنة ست وعشرين بعث عبدُ الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة ، وانتهوا إلى أرض بَرْبطانِيَةَ ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تُطيلَةَ[2] ، ولقيهم العدوّ ، فصبر حتى هزم الله عدوّهم ، وكان لموسى في هذه الغَزَاة مقام محمود .

وفي سنة تسع وعشرين بعث ابنَه محمداً بالعساكر ، وتقدم إلى بَنْبُلونة[3] ، فأوقع بالمشركين عندها ، وقتل غرسيةَ صاحبَها ، وهو من أكبر ملوك النصارى .

وفي أيامه ظهر المجوس[4] ، ودخلوا إشبيلية ، فأرسل إليهم عبدُ الرحمن العساكر مع القوّاد من قُرْطُبة ، فنزل المجوس من مراكبهم ، وقاتلهم المسلمون ،

---

١ مدينة سالم : (Medinacelli) كانت من أعظم مدن الثغر الأوسط وبينها وبين وادي الحجارة خمسون ميلا ، وكانت أولا عاصمة هذا الثغر ثم حلت محلها طليطلة .

٢ تطيلة : (Tudela) من مدن الثغر الأعلى إلى الشمال الغربي من سرقسطة .

٣ بنبلونة : (Pamplona) عند المداخل الغربية من جبال البرت ، وتقع في سهل ريوخه (Rioja) وهي من أوائل المناطق التي استقلت عن الحكم الإسلامي .

٤ المجوس أو الاردمانيون (Nordmani) (النورمان = Norsemen) كانوا يغيرون على الأندلس من المنافذ النهرية ؛ وقد سماهم العرب المجوس لأنهم كانوا يشعلون النيران كثيراً فظن العرب أنهم يعبدونها ؛ انظر ابن عذاري ٢ : ١٣٠ في غارتهم سنة ٢٣٠ هـ .

فهزموهم بعد مقام صعب ، ثم جاءت العساكر مدّداً من قُرْطُبة فقاتلهم المجوس، فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها ، ورحل المجوس إلى شَذُونة فأقاموا عليها يومين ، وغنموا بعض الشيء ، ووصلت مراكب عبد الرحمن إلى إشْبِيلِيَةَ فأقلع المجوس إلى لَبْلَة ، وأغاروا وسَبَوْا ، ثم إلى باجَةَ ثم أشبُونة ، ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أشْبُونة ، وسكنت البلاد ، وذلك سنة ثلاثين ، وتقدّم عبدُ الرحمن بإصلاح ما خربوه من البلاد ، وأكْثَفَ حاميتها .

وفي سنة إحدى وثلاثين [1] بعث العساكر إلى جليقية فدوّخوها ، وحاصروا مدينة لِيُون ورَمَوْها بالمجانيق ، وهرب أهلها عنها وتركوها ، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها ، وأرادوا هَدْم سورها فلم يقدروا عليه ، لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً ، فثَلَموا فيه ثُلْمة ورجعوا .

ثم أغزى عبدُ الرحمن حاجبَه عبدَ الكريم في العساكر إلى بلاد بَرْشِلُونة ، فعاث في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمّى البرت إلى بلاد الفرنجة فدوّخها قتلاً وأسراً وسَبْياً ، وحاصر مدينتها العظمى جَرَنْدَةَ ، وعاث في نواحيها ، وقفَل .

وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم توفلس [2] بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية يطلب مواصلته ويرغّبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمونُ والمعتصم حتى إنّه ذكرهما له في كتابه له وعبّر عنهما بابني مَرَاجل وماردة ، فكافأه الأمير عبدُ الرحمن عن الهدية ، وبعث إليه يحيى الغَزَال [3] من كبار أهل الدولة ، وكان مشهوراً في الشعر والحكمة ، فأحكم

-----

١ ابن عذاري ٢ : ١٣٢ .

٢ توفلس : (Theophilus) .

٣ سيترجم له المقري ؛ وهنا يذكر المقري نقلا عن ابن خلدون خبر سفارته إلى القسطنطينية ، وأطنب ابن دحية في تفصيل سفارته إلى بلاد المجوس ، ولعل تعاقب النصين هو منشأ الوهم حول هذه السفارة . راجع المطرب : ١٢٥ – ١٤١ (وانظر ترجمة الغزال في الجذوة : ٣٥١ ، وبغية الملتمس رقم : ١٤٦٧ ، والمغرب ٢ : ٥٧ ودراستي عنه في تاريخ الأدب الأندلسي : ١١١) ، =

بينهما الوُصْلة ، وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بني العباس .

ويُعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط ، لأن الأول عبدُ الرحمن الداخل ، والثالث عبد الرحمن الناصر .

ثم توفّي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، بربيع الآخر ، لإحدى وثلاثين سنة من إمارته ؛ ومولده بطُلَيْطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة .

وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة ، وكانت أيّامه أيّام هدوء وسكون ، وكثرت الأموال عنده ، واتخذ القصور والمتنزهات ، وجلب إليها المياه من الجبال ، وجعل لقَصْره مصنعاً اتخذه الناس شريعة ، وأقام الجسور ، وبُنيت في أيّامه الجوامع بكُوَر الأندلس ، وزاد في جامع قُرْطُبة رِوَاقَيْنِ ، ومات قبل أن يستتمه[1] ، فأتمّه ابنه محمد بعده ، وبنى بالأندلس جوامع كثيرة ، ورتب رسوم المملكة ، واحتجب عن العامّة .

وعدد ولده مائة وخمسون من الذكور ، وخمسون من الإناث[2] ، ونقش خاتمه « عابد الرحمن بقضاء الله راض » وفي ذلك قيل[3] :

خاتَمٌ للمُلْكِ أضْحى   حُكْمُهُ في الناس ماضي
عابدُ الرحمن فيهِ   بقَضَاء الله راضي

= وقد كتب عن سفارته عدة دراسات آخرها كتاب :

(The Poet And The Spae-Wife, by W. E. D. Allen ; London, 1960) .

١ قال ابن حيان في المقتبس (نسخة القرويين : ١٤٠) نقلا عن الرازي : وزاد الأمير عبد الرحمن ابن الحكم الزيادة الأولى الظاهرة من قبلته للداخل إليه . . . ؛ وقد كانت أبهاء المسجد تسعة أبهاء زاد عليها عبد الرحمن بهوين من كل جانبيه فكملها أحد عشر بهواً ؛ وكان الشروع في هذه الزيادة سنة ٢٣٤ . . . وقال ابن القوطية : مات الأمير عبد الرحمن وقد بقي عليه في هذه الزيادة بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة أتمها الأمير ابنه محمد الوالي في مكانه . (وانظر ابن القوطية : ٨٤) .

٢ ابن عذاري ٢ : ١٢٢ أن الذكور ٤٥ والبنات ٤٢ وجاء ابن سعيد (المغرب ١ : ٤٥) بأرقام أخرى نقلا عن ابن حزم .

٣ انظر ابن عذاري ٢ : ١٢٢ ومخطوطة الرباط : ١١٣ .

وهو أول من أحدث هذا النقش ، وبقي وراثة لمن بعده من ولده .

قال ابن سعيد[1] : وفي أيّامه انتهى مالُ الجباية إلى ألف ألف دينار في السنة ، وكان قبلُ لا يزيد على ستمائة ألف ، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع ما يخالف هذا فليراجَع ، والله أعلم .

ومن توقيعاته[2] : من لم يعرف وَجْهَ طلبه ، فالحرمانُ أولى به .

ومن شعر عبد الرحمن المذكور قوله :

ولَقَدْ تَعارَضُ أوْجُهٌ لأوامر ... فيقودُها التوفيقُ نحو صَوابها
والشيْخُ إن يَحْوِ النُّهى بتجارِب ... فشبابُ رأي القوم عند شَبابها

وفي زيادته في جامع قرطبة يقول ابن المثنى[3] رحمه الله تعالى :

بَنَيْتَ لله خَيْرَ بيتٍ ... يخْرَسُ عن وَصْفه الأنامُ
حجّ إليه بكل أوْبٍ ... كأنّهُ المسجِدُ الحرَامُ
كأنّ مِحْرَابَه إذا ما ... حُفَّ به الركنُ والمقامُ

وقال آخر[4] :

بنى مَسْجِداً لله لَمْ يَكُ مثله ... ولا مثله لله في الأرض مسجدُ
سوى ما ابتنى الرحمن والمسجدِ الذي ... بَناه نبيُّ المسلمين مُحَمَّدُ
له عُمد حُمْر وخُضر كأنّما ... تلوحُ يَوَاقيت بها وزَبَرْجَدُ
ألا يا أمينَ الله ، لا زلتَ سالماً ... ولا زلت في كلّ الأمور تسدّدُ
فيا لَيْتَنا نفديك من كلّ حادث ... وأنّك للدّنيا وللدّين تخلُدُ

. . . .

١ المغرب ١ : ٤٦ .
٢ المغرب ١ : ٤٦ وأخبار مجموعة : ١٣٩ والمقتبس (تحقيق مكي) : ٨٩ .
٣ هو عثمان بن المثنى النحوي ، هاجر إلى المشرق ولقي أبا تمام وروى عنه شعره (انظر طبقات الزبيدي : ٢٨٨ وابن الفرضي ١ : ٣٤٦) وهذا الشعر لابن المثنى ورد في مخطوطة الرباط : ١١٦ .
٤ مخطوطة الرباط : ١١٦ .

وكان كثير الميل للنساء ، وولع بجاريته طَرُوب [1] ، وكلف بها كلفاً شديداً ، وهي التي بنى عليها الباب ببِدَر المال حين تجنّتْ عليه ، وأعطاها حلياً قيمته مائة ألف دينار ، فقيل له : إن مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك ، فقال : إن لابسه أنفس منه خطراً ، وأرفع قدراً ، وأكرم جوهراً ، وأشرف عنصراً ، وفيها يقول :

إذا ما بَدَتْ ليَ شَمْسُ النّهارِ طالِعَةً ذكّرَتْني طَرُوبا
أنا ابن المَيامين من غالبٍ أشُبُّ حُرُوباً وأُطْفي حُرُوبا

وخرج غازياً إلى جليقية فطالت غيبته فكتب إليها :

عَداني عَنْكِ مَزَارُ العِدا وقَوْدي إليهم سِهاماً مُصيبا
فكَمْ قد تخطّيْتُ من سَبْسَبٍ ولاقَيْتُ بعدَ دُروبٍ دُرُوبا
ألاقي بوَجْهي سُمُومَ الهَجيرِ إذ كاد مِنْهُ الحصَى أن يذُوبا
تَداركَ بي اللهُ دِينَ الهُدى فأحْيَيْتُهُ وأمَتُّ الصليبا
وسِرْتُ إلى الشِّرْكِ في جَحْفلٍ ملأتُ الحُزُونَ به والسُّهُوبا

وساق بعض المؤرخين قصة طَروب هذه بقوله : إن السلطان المذكور أغضبها فهجرته ، وصدت عنه ، وأبت أن تأتيه ، ولزمت مقصورتها ، فاشتد قَلَقه لهجرها ، وضاق ذَرْعُه من شوقها ، وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك ، فأرسل من خِصْيانه من يُكرهها على الوصول إليه ، فأغلقت باب مجلسها في وجوههم ، وآلت أن لا تخرج إليهم طائعة ، ولو انتهى الأمر إلى القتل ، فانصرفوا إليه وأعلموه بقولها ، واستأذنوه في كسر الباب عليها ، فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببِدَرِ الدراهم ، ففعلوا ، وبَنَوْا عليها بالبِدَر ، وأقبل حتى وقف بالباب وكلّمها مسترضياً راغباً في المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب ،

١ راجع أخباره مع طروب وشعره فيها في المغرب ١ : ٤٦ وابن عذاري ٢ : ١٣٧ والحلة السيراء ١ : ١١٤ وابن القوطية ٨٢ – ٨٣ والمقتطفات (الورقة : ٨٣ – ٨٤) .

فأجابت وفتحت الباب ، فانهالت البِدَر في بيتها ، فأكبّت على رِجْلِه تقبّلها ، وحازت المال ، وكانت تبرم الأمور مع نصر الخصيّ فلا يردّ شيئاً ممّا تبرمه .

وأحبّ أخرى اسمها مدثّرة فأعتقها وتزوجها ، وأخرى كذلك اسمها الشفاء ، وأمّا جاريته قلم فكانت أديبة ، حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الأدب . وكان مُولعاً بالسماع ، مؤثراً له على جميع لذّاته ، وله أخبار كثيرة ، رحمه الله .

* * *

[محمد بن عبد الرحمن]

ولمّا مات وليَ ابنُه محمد[1] ، فبعث لأوّل ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب تطيلة[2] ، فعاث في نواحي ألبَة والقلاع ، وفتح بعض حصونها ، ورجع ، وبعث عساكر أخرى إلى نواحي بَرْشِلُونة وما وراءها ، فعاثوا فيها وفتحوا حصوناً من بَرْشِلونة ورجعوا .

ولما استمدّ أهلُ طُلَيْطلة المخالفون[3] من أهل بلاد الأمير محمد عليه بملكي جليقية والبُشْكنس لقيهم الأمير محمد على وادي سَليطة[4] ، وقد أكمن لهم ، فأوقع بهم ، وبلغت عدّة القتلى من أهل طُلَيْطلة والمشركين عشرين ألفاً .

وفي سنة خمس وأربعين ظهرت مراكبُ المجوس[5] ، وعاثوا في الأندلس ،

.. .. .. ، ......

١ يتبع المقري في سياق الأحداث ونصها ما أورده ابن خلدون ٤ : ١٣٠ – ١٣٢ . وقارن بما في المقتبس (تحقيق مكي) : ٢٩٢ وما بعدها .

٢ ك ق : طليطلة ، وهو خطأ ، والتصويب عن ابن خلدون و ط .

٣ ثار أهل طليطلة أول ما تولى الإمارة (٢٣٨) فأخرج إليهم في العام التالي ابنه الحكم ثم خرج إليهم بنفسه في العام بعده فاستعانوا بصاحب جليقية (٢٤٠) . انظر ابن عذاري وتفصيل الأخبار عن تمرد طليطلة في حكم الأمير محمد ٢ : ١٤٢ وما بعدها .

٤ ابن خلدون وابن عذاري : وادي سليط : (Auzalete) وهو نهر يصب في التاجه جنوبي طليطلة ، وأثبتنا ما في الأصول .

٥ انظر تفصيل هذا الغزو في المقتبس (تحقيق مكي) : ٣٠٧ – ٣٠٩ .

فلقيهم مراكبُ الأمير محمد ، فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين ، واستُشهد جماعة من المسلمين .

وفي سنة سبع وأربعين [1] أغزى محمد إلى نواحي بَنْبُلُونة ، وصاحبُها حينئذ غَرْسِيَةُ بن ونقه [2] ، وكان يظاهر أردون [3] بن أذفنش ، فعاث في نواحي بَنْبُلُونة ، ورجع وقد دَوَّخها وفتح كثيراً من حصونها ، وأسر فرتونَ ابنَ صاحبها ، فبقي أسيراً بقُرْطُبَة عشرين سنة .

ثم بعث سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر في العساكر إلى نواحي ألبَة والقلاع فعاثوا فيها ، وجمع لُذَرِيقُ للقائهم ، فلقيهم وانهزم ، وأثخن المسلمون في المشركين بالقتل والأسر ، فكان فتحاً لا كِفاء له .

ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى وخمسين بلاد الجلالقة ، فأثخن وخرب .

وفي سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب ، وفي السنة التي بعدها إلى بلاد بَنْبُلُونة فَدَوَّخها ورجع .

وفي سنة ثمان وستين أغزاه أيضاً إلى دار الحرب ، فعاث في نواحيها وفتح حصوناً .

وفي أيام الأمير محمد خربت ماردة وهدمت ولم يبق لها أثر .

وذكر بعضهم أنّه رأى بالمشرق هذه الأبيات قبل أن تخرب ماردة بأعوام ، ولم يعلم قائلها ، وذلك سنة ٢٥٤ :

وَيْلٌ لماردَةَ التي مردت ... وتكَبّرَتْ عن عُدْوَةِ النهرِ
كانت تُرى لهمُ بها زهر ... فخلَتْ من الزهرات كالقفْرِ
فالويلُ ثم الوَيْحُ حين غَزَا ... بجميعهم مِنْ صاحبِ الأمرِ

1 ابن عذارى : وفي سنة ٢٤٦ .

2 (Garcia) ابن (Inigo) ، وفي ف ك ط ج : وبقة .

3 في الأصول أردن ، والاسم (Ordano) .

ثمّ توفّي الأمير محمّد في شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، لخمس وثلاثين سنة من إمارته ، ومولده سنة سبع ومائتين .

* * *

[المنذر بن محمد]

وولي بعده ابنه المنذر [1] ، ولم تطل مدّته ، وأقام في الملك سنتين إلا نصف شهر ، وتوفّي منتصف صفر سنة خمس وسبعين ومائتين ، وفيه قيل :

بالمنـــذر بن محمّـــد صَلُحتْ بلادُ الأندلُسْ

* * *

[عبد الله بن محمد]

ثمّ ولي أخوه عبد الله ، قال ابن خلدون [2] : كان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار : مائة ألف للجيوش ، ومائة ألف للنفقة في النوائب وما يعرض ، ومائة ألف ذخيرة ووفراً ، فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثوّار والمتغلّبين في تلك السنين ، وقلّ الخراج ، انتهى .

ومن نظم الأمير عبد الله قوله [3] :

يا مُهْجَةَ المشتاق ما أوجَعَكْ ويا أسيرَ الحُبّ ما أخْشَعَكْ
ويا رَسُول العين من لحظِها بالردّ والتبليغ ما أسْرَعَكْ
تذهبُ بالسرّ فتأتي بهِ في مَجْلس يخفى على من معَكْ
كم حاجةٍ أنجزتَ إبرازَها تَبارَك الرحمنُ ما أطْوَعَكْ

1 أوجز المقري في أخبار هذا الأمير فراجع ابن خلدون ٤ : ١٣٢ والمغرب ١ : ٥٣ وابن القوطية : ١١٩ وأخبار مجموعة : ١٤٩ ومخطوطة الرباط : ١٢٤ .
2 تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٣٣ وراجع المصادر السابقة في ولاية عبد الله وأخباره ؛ وقد بقي جزء من المقتبس خاص بعهد هذا الأمير ، نشره ملشور أنطونية (باريس ١٩٣٧) .
3 ابن عذاري ٢ : ٢٣٢ والحلة ١ : ١٢١ .

وهذه الأبيات عنوان فضله ، وبَرَاعة استهلال نبله .

وكان الوزراء يُطالعون بآرائهم الخليفةَ في بطاقة ، فطالعه وزيره النَّضْر بن سَلَمة [1] برأيه في أمر في ورقة ، فلمّا وقف عليها لم يعجبه ذلك الرأي ، فكتب [2] :

أنْتَ يا نَضْرُ آبِدَهْ ليس تُرْجى لفائدهْ
إنّما أنتَ عُدّةٌ لكَنيفٍ ومائدهْ

وتوفّي الأمير عبد الله سنة ثلاثمائة ، ومدة ملكه نحو من خمس وعشرين سنة .

* * *

[عبد الرحمن الناصر]

وولي حافِدُهُ عبد الرحمن الناصر [3] ابن ابنه محمد قتيل أخيه المُطَرِّف ؛ وكانت ولايته من الغريب ، لأنّه كان شابّاً ، وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون ، فتصدّى إليها واحتازها دونهم ، ووجد الأندلس مضطربة بالمخالفين ، مضطرمة بنيران المتغلبين ، فأطفأ تلك النيران ، واستنزل أهلَ العصيان ، واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيّف وعشرين سنة من أيّامه ، ودامت أيّامه نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أميّة بتلك الناحية ، وهو أول من تسمّى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين ، عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبدّ مَوَالي الترك على بني العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلاثمائة [4] فتلقب بألقاب الخلافة ، وكان كثير الجهاد بنفسه والغزْو إلى دار الحرب ، إلى أن هُزم عام الخندق سنة ثلاث وعشرين [5] ، ومَحّصَ الله فيها

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٢٨ استقضاه الأمير عبد الله بقرطبة ثم استوزره (توفي سنة ٣٠٢) .
٢ ابن عذاري ٢ : ٢٣١ والحلة ١ : ١٢٢ .
٣ انظر ابن خلدون ٤ . ١٣٧ .
٤ الصواب سنة ٣٢٠ .
٥ اقرأ : سنة ٣٢٧ .

المسلمين ، فقعد عن الغزو بنفسه وصار يردّد الصّوائف في كل سنة ، فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطؤوه قبلُ في أيّام سَلَفه ، ومدّت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يَدَ الإذعان ، وأوفدوا عليه رُسُلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعنّ في مرضاته ، ووصل إلى سُدّته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قَشْتالة وبَنْبُلونة وما يُنسب إليها من الثغور الجوفية ، فقبّلوا يده ، والتمسوا رضاه ، واحتقبوا جوائزه ، وامتَطَوْا مراكبه ، ثم سما إلى ملك العُدْوة فتناول سَبْتَة – قفل الفُرْضَة [1] – من أيدي أهلها سنة سبع عشرة وثلاثمائة [2] ، وأطاعه بنو إدريس أمراء العُدْوة وملوك زَناتة والبربر ، وأجاز إليه الكثير منهم كما يُعلم من أخباره ، وبدأ أمرَه أولَ ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا ، انتهى كلام ابن خلدون .

وفيه يقول ابن عبد ربّه صاحبُ العقد يوم تولّى الملك [3] :

بدا الهلالُ جَديداً ... والملكُ غَضٌ جَديدُ
يا نِعْمَةَ الله زيدي ... إن كان فيك مزيدُ
إن كان للصَّوْم فِطْرٌ ... فأنتَ للدهر عيدُ

وأراد بأوّل الأبيات أنّه وليَ مستهلَّ ربيع الأول كما عُلم .

وما أشار إليه ابنُ خلدون في غَزْوة الخندق فصّله المسعودي فقال [4] ، بعد أن أجرى ذكر مخالفة أمية بن إسحاق على الناصر ودخوله أرض النصارى ودلالته إياهم على عَوْرات المسلمين ، ما ملخصه : وغزا عبدُ الرحمن صاحب الأندلس

١ قفل الفرضة : مضطربة في النسخ فهي في ق : قفل الفرصة ؛ وفي ك : ونقل الفرضة ؛ وفي ط : نفل الفرضة ؛ ج : فغل الفرصة ، وسقطت من طبعة بولاق من تاريخ ابن خلدون .
٢ كذلك عند ابن خلدون ؛ وعند ابن عذاري : (٣١٩) .
٣ ورد منها بيتان في ابن عذاري ٢ : ٢٣٦ والمغرب ١ : ١٧٧ .
٤ مروج الذهب ٢ : ٣٧ .

سمُّورة دارَ الجلالقة ، وكان عبدُ الرحمن في مائة ألف أو يزيدون ، وكانت الوقعة بينه وبين رُذْمير[1] ملكِ الجلالقة في شوّال سنة ٣٢٧ بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر بثلاثة أيّام ، فكانت للمسلمين عليهم ، ثم ثابوا بعد أن حوصروا وأُلجئوا إلى المدينة ، فقتلوا من المسلمين بعد عُبورهم الخندقَ خمسين ألفاً ، وقيل : إن الذي منع رُذْمير من طلب من نجا من المسلمين أميّة بن إسحاق ، وخوّفه الكمين ، ورغّبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعُدّة والخزائن ، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ، ثمّ إن أميّة استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمن وتخلّص من رُذْمير ، وقبله عبد الرحمن أحسنَ قَبول . وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكر مع عِدّة من قوّاده إلى الجلالقة ، فكانت لهم بهم عدّة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعفُ ما قُتل من المسلمين في الوقعة الأولى ، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية ، ورذمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢[2] ، انتهى .

وقال في موضع آخر ما ملخّصه[3] : إن عبد الرحمن غزا في أزيد من مائة ألف من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهي مدينة سمّورة ، وعليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السالفة ، وبين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة ، وافتتح منها سورين ، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم ممّن أدركه الإحصاء وممّن عُرف أربعين ألفاً ، وقيل : خمسين ألفاً ، وكانت للجلالقة والبُشْكَنْس على المسلمين ، انتهى كلام المسعودي .

رجع إلى أخبار الناصر — فنقول : إن الناصر — رحمه الله — كان له نظم ، وممّا نسب إليه بعضهم قوله :

لا يضرُّ الصغيرَ حِدْثانُ سنٍّ   إنّما الشأن في سُعُود الصغيرِ

١ رذمير = (Ramiro)
٢ ط ح ق ودوزي : وهو سنة ٣٣٦ ؛ وما هنا موافق لما في المروج ، وفي ك : ٣٢٩ .
٣ المروج ١ : ١٦٢ .

كم مقيمٍ فازَتْ يداه بغُنْـم لم تَنَلْه بالرَّكْض كفُّ مُغيرِ

هكذا ألفيتُ البيتين منسوبين إليه بخط بعض الأكابر ، ثم كتب بأثره ما نصّه : الصحيح أنهما لغيره ، والله أعلم ، انتهى .

* * *

[هدية ابن شهيد للناصر]

وكان الناصر — رحمه الله — قد استحجب موسى بن محمد بن حُدَيْر ، واستوزر عبدَ الملك بن جَهْور ، وأحمد بن عبد الملك بن شُهَيد ، وأهدى له ابنُ شُهيدٍ هديته المشهورة المتعدّدة الأصناف ، وقد ذكرها ابن حيّان وابن خلدون [1] وغيرهما من المؤرخين ، قال ابن خلدون : وهي ممّا يدل على ضخامة الدولة الأموية ، واتساع أحوالها ؛ وكان ذلك [2] سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، لثمان خلون من شهر جمادى الأولى ، وهي هدية عظيمة الشأن ، اشتهر ذكرها إلى الآن ، واتُّفق على أنّه لم يهادَ أحد من ملوك الأندلس بمثلها ، وقد أعجبت الناصر وأهلَ مملكته جميعاً ، وأقروا أن نفساً لم تسمح بإخراج مثلها ضربةً عن يدها ، وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها استحسنها الناس وكتبوها ، وزاد الناصر وزيره هذا حُظْوة واختصاصاً ، وأسمى منزلتَه على سائر الوزراء جميعاً ، وأضعف له رزق الوزارة ، وبلّغه ثمانين ألف دينار أندلسية ، وبلغ مصروفه إلى ألف دينار ، وثنى له العظمة لتثنيته له الرزق ، فسمّاه « ذا الوزارتين » لذلك ، وكان أول من تسمى بذلك بالأندلس امتثالاً لاسم صاعد بن مَخْلد وزير بني العباس ببغداد ، وأمر بتصدير فراشه في البيت ، وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق أول التسمية ، فعظم مقداره في الدولة جدّاً .

١ ابن خلدون ٤ : ١٣٨ .

٢ أورد المقري الحديث عن هذه الهدية مفصلا أيضاً في أزهار الرياض ٢ : ٢٦١ إلا أنه لم يمزج بين روايتي ابن خلدون وابن الفرضي بل اكتفى بالثانية .

وتفسير هديته المذكورة على ما ثبت في كتاب ابن خلدون على ما يفسر : خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل من التّبر ، ومصارفةً خمسة وأربعون ألف دينار من سبائك الفضّة في مائتي بدرة ، واقتصر ابن الفَرَضيّ على خمسمائة ألف دينار فقط ؛ واثنا عشر رطلاً من العُود الهندي الذي يختم عليه كالشمع ، ومائة وثمانون رطلاً من العود المتخير ، ومائة رطل من العود الشبه المنتقى ، هكذا ذكره ابن خلدون .

وقال ابن الفرضيّ مستنداً إلى الكتاب الذي وجّهه ابن شُهيد مع الهدية : إن العود الغالي من ذلك أربعمائة رطل ، منها في قطعة واحدة مائة وثمانون رطلاً .

وقال ابن خلدون : ومائة أوقية من المسك الذكي المفضل في جنسه ، انتهى .

وقال ابن الفرضيّ ، نقلاً عن الكتاب المصحوب مع الهدية : إن المسك مائتا أوقية ، واثنتا عشرة أوقية . ومن العنبر الأشهب الباقي على خلقته بغير صناعة خمسمائة أوقية ، منها قطعة عجيبة ململمة الشكل وزن مائة أوقية ، هكذا في تاريخ ابن خلدون .

وفي ابن الفرضيّ أن الكل مائة أوقية ، وأن هذه القطعة أربعون أوقية . ومن الكافور المرتفع النقيّ الذكيّ ثلاثمائة أوقية .

قال ابن خلدون : ومن اللباس ثلاثون شُقّة من الحرير المختّم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع ، وعشرة أفرية[1] من عالي جلود الفَنَك الخراسانية .

وخالفه ابن الفرضيّ[2] ، إذ قال : ومن أنواع الثياب ثلاثون شقّة خنج[3] خاصية للباسه بيضاء وملوّنة ، وخمس ظهائر شعيبية[4] خاصية له ، وعشر فراء من

١ أفرية : جمع فروة .
٢ الفقرة من قوله « وخالفه . . . أدرى » كلها سقطت من ق .
٣ خنج لعلها من الفارسية « خنك » بمعنى حرير أبيض ، وهي كذلك في ك ط .
٤ الشعيبية : نوع من الأقمشة .

عالي الفَنَك منها سبعة بيض خراسانية وثلاث ملوّنة ، وستة مَطارف عراقية خاصية له ، وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته ، ومائة ملحفة زهرية لرقاده .

ولم يذكر ابن خلدون ذلك ، وابنُ الفرضي أعرف ، لا سيّما وقد استند إلى كتاب المهدي ، وصاحبُ البيت أدرى .

قال ابن خلدون : وعشرة قناطير شدّ فيها مائة جلد سَمّور ، وقاله ابن الفرضي أيضاً ، وزاد ابن خلدون : وستة من السرادقات العراقية ، وثمانية وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب ، ثم قالا معاً : وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول ، وألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغزال ، وزاد ابن خلدون : وثلاثون شقة من الفريون [1] لسروج الهبات ، وزاد ابن الفرضيّ في الحرير المذكور : قيل : إنّه قبضه منه صاحب الطراز ولم يأت به مع الهدية ، وإنّما دفعه لصاحب الطراز ، وأثبته في الدفتر ، قالا : وثلاثون بساطاً من الصوف مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعاً ، وقال ابن خلدون : منتقاة مختلفة الألوان ، قالا : ومائة قطعة مُصَلّيات من وجوه الفرش المختلفة ، زاد ابن الفرضيّ : الصناعات من جنس البُسُط ، قالا : وخمسة عشر نخّاً [2] من عمل الخز المقطوع شطرها ، قال ابن الفرضيّ : وسائرها من جنس البُسُط الوجوه ، قال ابن خلدون : ومن السلاح والعدّة ثمانمائة من التجافيف المزينة أيام البروز والمواكب ، وقال ابن الفرضي : مائة تجفاف بأبدع الصناعات وأغربها وأكملها ، قالا : وألف تُرْس سلطانية ، ومائة ألف سهم ، زاد ابن خلدون : من النبال البارعة الصنعة ، قال ابن خلدون : ومن الظهر خمسة عشر فرساً من الخيل العِراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النّعوت ، وقال ابن الفرضي : ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العِراب المتخيرة لركابه خمسة عشر فرساً ، وخمس من عرض هذه الخيل مُسْرَجة مُلْجَمة لمراكب الخلافة ......

[1] كذا وردت هذه اللفظة في ق ك ولعلها : « البزيون » وهو سندس .

[2] في ق ك : نوخاً ؛ والنخ : بساط طويل طوله أكثر من عرضه .

مجالسُ سروجها خز عراقي ، وثمانون فرساً ممّا يصلح للوُصفاء والحَشَم ، وقال ابن خلدون : مائة فرس من الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات ، وقال ابن الفرضي : وخمسة أبغل عالية الركاب ، وقال ابن خلدون : وعشرون من بغال الركاب مُسْرجة ملجّمة لمراكب الخلافة مجالسُ سروجها خز جعفري عراقي . قالا : ومن الرقيق أربعون وصيفاً وعشرون جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم ، وقال ابن خلدون في الجواري : متخيرات بكسوتهن وزينتهن ، وقال ابن خلدون : ومن سائر الأصناف قرية تغلُّ آلافاً من أمداد الزرع ، ومن الصخر للبنيان ما أُنفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار ، وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصلبه[1] وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار ، انتهى .

وقال ابن الفرضي نقلاً عن كتاب ابن شُهيد المصحوب مع الهدية عندما ذكر الرقيق ما صورته : وكان قد أمرني[2] — أيّدَهُ الله — بابتياعهم من مال الأخماس ، فابتعتهم من نعمته عندي ، وصيرتهم من بَخْتي ، ومع ذلك عشر قناطير سكر طبرزذ لا سُحاق فيه .

وفي آخر الكتاب : ولمّا علمت تطلّع مولاي — أيده الله تعالى — إلى قرية كذا بالقنبانية[3] المنقطعة الغرس في شرقها ، وترداده — أيده الله تعالى — لذكرها لم أهنأ بعَيْشٍ حتى أعملت الحيلة في ابتياعها بأحوازها ، وأكتبت وكيله ابن بقيّة الوثيقةَ فيها باسمه ، وضمّها إلى ضِياعه ، وكذلك صنعت في قرية شيرَةَ من نظر جيّان عندما اتصل بي من وَصْفه لها وتطلّعه إليها ، فما زلت أتصدّى لمسرّته بها حتى ابتعتها الآن بأحوازها وجميع منازلها وربوعها ، واحتاز ذلك

... .

١ ط ك : وأصيله .

٢ ك : قد أربى .

٣ قد مر التعريف بالقنبانية ، وهي تدل على الحقول ، وإن كانت تطلق علماً على كثير من المواضع بالأندلس أهمها البسائط الواقعة إلى جنوب قرطبة في حوض الوادي الكبير .

كلّه الوكيلُ ابن بقية ، وصار في يده له أبقاه الله سبحانه ، وأرجو أنّه سيرفع فيها في هذه السنة آلاف أمداد من الأطعمة إن شاء الله تعالى . ولمّا علمت نافذَ عزمه – أبقاه الله تعالى – في البنيان ، وكَلَفه به ، وفكرت في عدد الأماكن التي تطلع نفسُه الكريمة إلى تخليد آثاره في بنيانها – مد الله تعالى في عمره ، وأوفى بها على أقصى أمله – علمت أن أسه وقوامه الصخر والاستكثار منه ، فأثارت لي همّتي ونصيحتي حكمة حيلة أحكمها سعدك وجَدُّك اللذان يَبْعثان ما لا يتوهم عليه ، حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عددَ ما كان يقوم على يدي عبدك ابن عاصم في عشرين عاماً ، وينتهي تحصيل النفقة فيه إلى نحو الثمانين ألفاً أعجل شأنه في عام ، سوى التوفير العظيم الذي يُبْديه العيان قبلاً إن شاء الله تعالى ، وكذلك ما ثاب إليّ في أمر الخشب لهذه المنية المكرمة ، فإن ابن خليل عبدَك المجتهد الدؤوب انتهى في تحصيل عدد ما تحتاج إليه إلى ثلاثمائة ألف عود ونيّف على عشرين ألف عود ، على أنّه لا يدخل منه في السنة إلاّ نحو الألفي عود ، ففتح لي سعدُك رأياً أقيم له بتمامه جميعَ هذا الخشب العام على كماله بورود الجليبة[1] لوقتها ، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفاً والستين ألفاً ، انتهى .

* * *

[عود إلى أخبار الناصر]

ومن غريب ما يُحكى[2] عن أمير المؤمنين الناصر المذكور أنّه أراد الفَصْد ، فقعد بالبَهْو في المجلس الكبير المُشْرف بأعلى مدينته بالزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك ، وأخذ الطبيبُ الآلة وجَسّ يد الناصر ، فبينما هو إذ أطل زُرْزور فصعد على إناء ذهب بالمجلس ، وأنشد :

أيّها الفاصدُ رفْقاً بأمير المؤمنينا

١ الجليبة : كذا جاءت في ق ك ، فإن لم تكن تعني « الخشب المجلوب » فلا أدري دلالتها بدقة .
٢ انظر أزهار الرياض ٢ : ٢٦٥ .

إنّما تقصد عِرقاً فيه مَحْيا العالمينا

وجعل يكرّر ذلك المرّة بعد المرة ، فاستظرف أميرُ المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف ، وسُرّ به غايةَ السرور ، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلّم الزُّرْزور ، فذُكر له أن السيدة الكبرى مَرْجانة أم ولده وليّ عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك ، وأعدّته لذلك الأمر ، فوهب لها ما ينيّف على ثلاثين ألف دينار .

وذكر ابنُ بَسّام [1] أن أبا عامر بن شُهَيد أحمد بن عبد الملك الوزير أهدى له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه ، فلمحه الناصر فقال لابن شُهيد : أنّى لك هذا ؟ قال : هو من عند الله ، فقال له الناصر : تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر ، فاستعذر واحتفل في هدية بعثها مع الغلام ، وقال : يا بني كن مع جملة ما بعثت به ، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي ، وكتب معه هذين البيتين [2] :

أمولايَ هذا البدرُ سار لأفقِكُمْ ولَلأفقُ أولى بالبدور من الأرضِ
أرَضّيكمُ بالنفس وَهْيَ نفيسةٌ ولم أرَ قبلي مَنْ بمهجته يُرْضي

فحسن ذلك عند الناصر ، وأتحفه بمال جزيل ، وتمكنت عنده مكانته ، ثم إنّه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا ، فخاف أن يُنْهَى [3] ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام ، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى ، وبعثها معها ، وكتب له :

أمولاي هذي الشمسُ والبدرُ أوّلاً تَقدّم كيما يَلْتَقي القَمَرانِ

---

١ انظر مطالع البدور ١ : ٢٤٠ والمقتطفات (الورقة : ٨٤) .
٢ في الأصول : هذه الأبيات .
٣ ك : ينتهي .

قِرانٌ لعَمْري بالسعادة قد أتى فدُمْ منهما في كوثر وجِنانِ
فما لهُما واللهِ في الحُسْن ثالثٌ وما لكَ في مُلْك البريّة ثاني

فتضاعفت مكانته عنده .

ثمّ إن أحد الوشاة رفع للملك أنّه بقي في نفسه من الغلام حرارة ، وأنّه لا يزال يذكره حين تُحرّكه الشّمول ، ويقرع السن على تعذر الوصول ، فقال للواشي : لا تحرك به لسانك ، وإلاّ طار رأسك ، وأعمل الناصر حيلة في أن كتب على لسان الغلام رقعة منها : « يا مولاي ، تعلم أنّك كنتَ لي على انفراد ، ولم أزل معك في نعيم ، وإنّي وإن كنت عند الخليفة مشارك في المنزلة ، محاذر ما يبدو من سطوة الملك ، فتحيّل في استدعائي منه » ، وبَعَثَها مع غلام صغير السن ، وأوصاه أن يقول : من عند فلان ، وإن الملك لم يكلّمه قط ، إن سأله عن ذلك ، فلمّا وقف أبو عامر على تلك الرسالة واستخبر الخادم علم من سؤاله ما كان في نفسه من الغلام ، وما تكلم به في مجالس المدام ، فكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفاً :

أمن بعد إحكام التجارِبِ يُبتغى لديَّ سقوطُ الطير [1] في غابة الأسَدْ
وما أنا ممّن يغلب الحبُّ قلبَه ولا جاهل ما يدَّعيه أولو الحَسَدْ
فإن كنت رُوحي قد وهبتك طائعاً وكيف يُردُّ الروحُ إن فارق الجسَدْ

فلمّا وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ، ولم يَعُدْ إلى استماع واشٍ به .

ودخل عليه بعد ذلك فقال له : كيف خلصت من الشّرَك ؟ فقال : لأن عقلي بالهوى غير مشترك ، فأنعم عليه ، وزادت محبته عنده ، وممّن ذكر هذه الحكاية صاحب « مطالع البدور ، في منازل السرور » [2] .

١ المطالع : سقوط العير ؛ وهو أقرب إلى الصواب .
٢ هو علاء الدين علي بن عبد الله الغرولي .

[غزوات الناصر]

وأخبار الناصر طويلة جدّاً ، وقد مُنِـحَ الظفر على الثوّار ، واستنزلهم من معاقلهم ، حتى صفا له الوقت ، وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء ، فمن غـزَوَاته أنّه غزا سنة ثمان وثلاثمائة إلى جليقية وملكـُها أردون بن أذفونش ، فاستنجد بالبُشْكَنْس والإفرنجة وظاهر شانجة[1] بن غرسية صاحب بَنْبلُونة أمير البُشكنس ، فهزمهم ، ووطىء بلادهم ، ودوّخ أرضهم ، وفتح معاقلهم ، وخرب حصونهم ، ثم غزا بَنْبلونة سنة ثنتي عشرة ، ودخل دار الحرب ، ودوَّخ البسائط ، وفتح المعاقل ، وخرَّب الحصون ، وأفسد العمائر ، وجال فيها ، وتوغل في قاصيتها ، والعدو يُحاذيه في الجبال والأوعار ، ولم يظفر منه بشيء ، ثم بعد مدّة ظفر ببعض الثوّار عليه ، وكان استمدّ بالنصارى فقتل الناصرُ مَنْ كان مع الثائر من النصارى أهل ألبَةَ ، وفتح ثلاثين من حصونهم ، وبلغه انتفاض طوطة[2] ملكة البُشْكَنْس فغزاها في بَنْبلونة ودوّخ أرضها واستباحها ، ورجع إلى قُرْطُبة ، ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين إلى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون ، وقعد بعدها عن الغزو بنفسه ، وصار يردد البعوث والصوائف إلى الجهاد ، وبعث جيوشه إلى المغرب فملك سَبْتة وفاساً وغيرهما من بلاد المغرب ، وطار صيته وانتشر ذكره كما سبق . ولما هلك غرسية بن شانجة ملك البُشْكَنْس قام بأمرهم بعده أمه[3] طوطة ، وكفلت ولده ، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين ، فغزا الناصر بلادها ، وخرب نواحي بَنْبُلُونة وردد عليها كما مرّ الغزوات ، وكان قبل ذلك سنة ثنتين وعشرين غزا إلى وَخْشَمَة[4] ،

١ شانجة : (Sancho) ملك البشكنس أي منطقة نبره (Navarra) ، وفي ك : شانجة بن فرويلة ؛ وفي ط : شنجة .
٢ طوطة (Teoda) وفي تاريخ بروفنسال (٢ : ٧٣) (Toda) .
٣ ابن خلدون : أخته .
٤ وخشمة : (Osma) وفي ك : خشتمة .

ثم رحل إلى بَنبلونة ، فجاءته طوطة بطاعتها وعقد لابنها غَرْسِيَةَ على بنبلونة ، ثم عدل إلى ألبَة وبسائطها فدوّخها وخرب حصونها ، ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ رُذْمير بن أردون ، فخام عن لقائه ، ودخل وَخْشَمَةَ ، فنازله الناصر فيها ، وهدم بُرْغُش[1] وكثيراً من معاقلهم ، وهزمهم مراراً ، ورجع ، ثم كانت بعدها غزوة الخندق السابقة ، وهابته أمم النصرانية .

* * *

[الوفود على بلاط الناصر]

ثم وفدت عليه سنة ست وثلاثين رسل صاحب قسطنطينية وهديته — وهو يومئذ قسطنطين — واحتفل الناصر لقدومهم في يوم مشهود ، قال ابن خلدون[2] : ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شِكّة ، وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وجُمّل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة ، ورُتب الوزراء والخدمة في مواقفهم ، ودخل الرسُلُ فهالهم ما رأوه ، وقُرّبوا حتى أدّوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ، ويعظّموا من أمر الإسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه ، وذلة عدوّه ، فاستعدّوا لذلك ، ثم بهرهم هَوْل المجلس فوجموا ، وشرعوا في القول فأُرْتِجَ عليهم ، وكان فيهم أبو علي القالي وافدُ العراق ، كان في جملة الحكم ولي العهد ونَدَبه لذلك استئثاراً بفخره[3] ، فلمّا وجَمُوا كلهم قام مُنْذر بن سعيد البَلّوطي من غير استعداد ولا رَوِيّة وما تقدّم له أحد بشيء من ذلك ، فخطب واسحنفر[4] وجَلّى في ذلك القصد ، وأنشد

---

١ برغش : (Burgos) إحدى مدن الحدود الشمالية ؛ وانظر شرحاً لغزوات الناصر في تاريخ بروفنسال ٢ : ٣٣ — ٧٨ .

٢ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٢ وأزهار الرياض ٢ : ٢٥٨ وابن عذاري ٢ : ٣١٩ .

٣ ك : فعجز ؛ وفي ق وابن خلدون : لفخره ؛ وفي ج : لعجزه .

٤ ج ك : واستحضر .

شعراً طويلاً ارتجله في ذلك الغرض[1] ، ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب به الناصر ، وولاّه القضاء بعدها ، وأصبح من رجالات المعالم[2] ، وأخباره مشهورة ، وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيّان وغيره . ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر معهم هشام بن هذيل[3] بهديّة حافلة ليؤكد المودة ويُحْسن الإجابة ، ورجع بعد سنتين وقد أحكم من ذلك ما شاء وجاءت معه رسل قسطنطين .

ثم جاء رسول من ملك الصقالبة — وهو يومئذ هوتو[4] — ورسول آخر من ملك الألمان ، ورسول آخر من ملك الإفرنجة وراء البرت — وهو يومئذ أوقه[5] — ورسول آخر من ملك الإفرنجة بقاصية المشرق — وهو يومئذ كلدة[6] — واحتفل الناصر لقدومهم ، وبعث مع رسول الصقالبة ربيعاً الأسقُفَّ إلى ملكهم هوتو ورجع بعد سنتين .

وفي سنة أربع وأربعين جاء رسول أردونَ يطلب السلم ، فعقد له ، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب إدخال فرذلند قومس قَشْتيلة في عهده ، فأذن له في ذلك ، وأدخل في عهده ، وكان غَرْسِيَةُ بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة[7] ثم انتقض عليه أهل جليقية ، وتولى كبرهم قومس قشتيلة فرذلند المذكور ، ومال إلى أردون بن رذمير ، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البُشْكَنْس ، فامتعضت لحافدها غرسية ، ووفدت على الناصر سنة

١ ط : العرض .
٢ ج : العالم .
٣ ابن خلدون : هشام بن كليب الجاثليق .
٤ هوتو : (Otton) وفي نسخ النفح اضطراب في رسم الاسم بين : دوقو في ق ج ؛ وذوقوة في ك ؛ وذوإقو ؛ وذوفو في غيرهما .
٥ ق ك ط : أوفة ، ج : أرمة ، والصواب ما أثبتناه إذ يقابل : (Hugo) وهو (Hugues d'Arles) مركيز بروفانس .
٦ (Guido) وهو ابن أدلبرت مركيز تسكانية .
٧ فرويلة : (Fruela) .

سبع وأربعين مُلْقية بنفسها في عَقْد السلم لها ولولدها شانجة بن ردمير الملك ، وإعانة حافدها غَرْسية بن شانجة على ملكه ، ونصره من عدوّه ، وجاء الملكان معها ، فاحتفل الناصر لقدومهم ، وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث العساكر مع غَرْسيَةَ ملك جليقية فردّ عليه ملكه ، وخلع الجلالقَةُ طاعة أردون إليه ، وبعث إلى الناصر يشكره على فعلته ، وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك ، وبما ارتكبه فرذلند قومُس قَشْتيلة في نكثه ووثوبه ، ويعيره بذلك عند الأمم ، ولم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك ، ولمّا وصل رسول كلدة ملك الإفرنجة بالشرق كما تقدّم وصل معه رسول ملك بَرشِلونة وطَرّكونة راغباً في الصلح ، فأجابه الناصر ، ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب ؛ انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

ولنفصّل بعض ما أجمله فنقول : ذكر ابنُ حيّان وغيرُ واحد أن ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادَتْهُ الروم ، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبقَ أمّة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى ، فإنّه هاداه ، ورغب في مُوَادعته ، وكان وصول أرساله في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، وتقدّم في كلام ابن خلدون أنّها ست وثلاثون ، فالله أعلم أيهما أصح ، وتأهب الناصر لورودهم وأمر أن يُتلقّوا أعظم تلقٍّ وأفخمه ، وأحسن قبول [1] وأكرمه ، وأخرج إلى لقائهم بِبَجّانة يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق ، فلمّا صاروا بأقرب المحلاّت من قُرْطُبة خرج إلى لقائهم القوّاد في العدد والعدّة والتعبية ، فتلقوهم قائداً بعد قائد ، وكمل اختصاصهم بعد ذلك ، بأن أخرج إليهم الفتَيين الكبيرين الخصيين ياسراً وتماماً ، إبلاغاً في الاحتفال بهم ، فلقياهم بعد القوّاد ،

---

[1] ق ط ج : قبوله .

فاستبان لهم بخروج الفتَيين إليهم بَسْط الناصر وإكرامه ، لأن الفتيان حينئذ هم عظماء الدولة ، لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه وبيدهم القصر السلطانيُّ ، وأنزلوا بمُنْيةولي العهد الحكم المنسوبة إلى نصر [1] بعُدْوة قُرْطُبة في الرَّبَض ، ومُنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ومن ملابسة الناس طُرّاً ، ورُتّب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالي ووُجوه الحَشَم فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلاً لأربع دول ، لكل دولة أربع منهم ، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قُرْطبة لدخول وفود الروم عليه ، فقعَد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة في بَهْو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً ، وقعد عن يمينه وليُّ العهد من بنيه الحكم ثم عبيدُ الله ثم عبد العزيز أبو الأصبغ ثم مروان ، وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان ، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلاً لم يُطِق الحضور ، وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً ، ووقف الحجّابُ من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم ، وقد بُسط صحن الدار أجمع بعتاق البُسُط وكرائم الدرانك [2] ، وظُلّلتْ أبوابُ الدار وحناياها بظُلَل الديباج ورفيع الستور ، فوصل رسُل ملك الروم حائرين ممّا رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون ، وهو في رَقّ مصبوغ لوناً سماويّاً مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي [3] ، وداخل الكتاب مُدْرَجة مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضّة بخط إغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضّة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين

١ ك : نصير ، وهو خطأ .

٢ الدرانك : البسط .

٣ في الأصول : الاغرنقي .

الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جَعْبة ملبسة بالديباج ، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سَطْر منه : قسطنطين ورومانس [1] المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم ، وفي سطر آخر : العظيم الاستحقاق المفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ،أطال الله بقاءه؛ ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحبّ أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه ، وتصف ما تهيّأ من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ولي عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، ويقدّمه أمام نشيد الشعراء ، فأمر الحكم صنيعه الفقيهَ محمد بن عبد البر الكسنياني [2] بالتأهب لذلك ، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدي الخليفة ، وكان يدّعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسْع غيره ؛ وحضر المجلس السلطاني ، فلمّا قام يحاول التكلّم بما رأى هاله وبَهَره هولُ المقام وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لَفْظة، بل غُشي عليه وسقط إلى الأرض ، فقيل لأبي علي البغدادي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب الأمالي والنوادر ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافدُ عليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة : قم فارْقَعْ هذا الوَهْي ، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم – هكذا ذكر ابن حيان وغيره وكلام ابن خلدون السابق يقتضي أن القالي هو المأمور بالكلام أوّلاً والمُعَدُّ لذلك ، ونحوُه في المطْمَح ، والخطبُ سهل – ثم انقطع القول بالقالي ، فوقف ساكتاً مفكراً في كلام يَدْخُل به إلى ذكر ما أريد منه ، وقال في المطمح [3] : إن أبا علي القالي انقطع ، وبُهت وما وصل إلاّ قطع ، ووقف ساكتاً متفكّراً ، لا ناسياً ولا متذكراً ، فلمّا رأى ذلك مُنْذر بن سعيد – وكان ممّن حضر في زمرة الفقهاء – قام من

---

١ ق ك ط ج : ورومانين .
٢ في ج : الكسياني ؛ وفي ط ق ودوزي كما أثبته ، وكذلك ورد في لب اللباب ؛ وفي أزهار الرياض و ك ٢ : ٢٧٣ : الكسيباني .
٣ المطمح : ٣٨ .

ذاته ، بدرجة من مِرْقاته ، فوصل افتتاح أبي علي لأوّل خطبته بكلام عجيب ، ونادى في الإحسان من ذلك المقام كلّ مجيب ، يسحّه سحّاً كأنّما كان يحفظه قبل ذلك بمدة ، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو عليّ البغدادي ، فقال [1] : أمّا بعد حمد الله والثناء عليه ، والتعداد لآلائه ، والشكر لنعمائه ، والصلاة والسلام على محمد صفيّه وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حادثة مقاماً ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، وإنّي قد قمت في مقام كريم ، بين يدي ملك عظيم ، فأصغوا إليّ معشر الملإ بأسماعكم ، والقنوا [2] عني بأفئدتكم ، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت ، وإن الجليل تعالى في سمائه ، وتقدّس بصفاته وأسمائه ، أمر كليمه موسى ، صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكّر قومه بأيّام الله ، جلّ وعزّ ، عندهم ، وفيه وفي رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، أسْوَة حسنة ، وإنّي أذكركم بأيّام الله عندكم [3] ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لَمّتْ شَعَثكم [4] ، وأمّنَتْ سِرْبَكم ، ورفعت فَرَقكم [5] ، بعد أن كنتم قليلاً فكثّركم ، ومستضعَفين فقوّاكم ، ومُسْتَذَلّين فنصركم ، ولاّه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيّام ضربت الفتنةُ سُرادِقَها على الآفاق ، وأحاطت بكم شُعَلُ النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدّة بالرخاء ، وانتقلتم بيُمْن سياسته إلى تمهيد كَنَف العافية بعد استيطان البلاء ، أنشدكم [6] الله معاشر الملإ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقَنَها ، والسبلُ مَخُوفةً فأمّنها ، والأموال منتهَبَة فأحرزها وحَصَّنها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعَمَرها ، وثغور المسلمينَ مهتضَمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيَهُ جَمْع

---

١ نص الخطبة في أزهار الرياض ٢ : ٢٧٣ والمرقبة العليا : ٦٦ والمطمح : ٣٨ .

٢ ك : واتقنوا ؛ ط : والفنوا ؛ ق : والفتوا ؛ وأثبتنا ما في ج والمطمح .

٣ المطمح : وأنا أذكركم نعم الله تعالى عليكم .

٤ لمت شعثكم : سقطت من المطمح .

٥ ك : قوتكم ؛ وفي ق ط : فوقكم ؛ وفي المطمح : خوفكم .

٦ المطمح : ناشدتكم .

كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يداً على عدوّكم ، بعد أن كان بأسكم بينكم ، ناشدتكم[1] الله ألم تكن خلافته قُفْلَ الفتنة بعد انطلاقها من عِقالها ؟ ألم يتلافَ صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ولم يكل ذلك إلى القوّاد والأجناد ، حتى باشره بالقوّة[2] والمُهْجة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدَّعَة وهي محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة ، بطَوِيّة صحيحة[3] ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة[4] نافذة ثاقبة ، وريح هابّة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجَدّ ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عَدْل مشهور ، متحمّلاً للنَّصَب ، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعد شدّتها ، وانكسرت شَوْكة الفتنة عند حدّتها ، ولم يبق لها غارب إلا جبّه ، ولا نجمَ لأهلها قرن إلا جذّه ، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات[5] ، وصارت وفودُ الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصَيْنَ والأدنَيْنَ مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فجّ عميق ، وبلد سَحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، ولن يخلف الله وَعْدَه ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية ، دليلُها قائم ، وجَفْنُها غير نائم ﴿ وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِم ﴾ الآية (النور : ٥٥) وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ،

١ لك : فأنشدكم .
٢ بالقوة : زيادة من لك .
٣ المطمح : خالصة .
٤ ثابتة : زيادة من لك والمطمح .
٥ المطمح : فقد فتح الله تعالى عليكم أبواب البركات وتواترت عليكم أسباب الفتوحات .

ولكل نبإ مستقر ولكل أجل كتاب ، فاحمدوا الله أيّها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نَعْمائه ، فقد أصبحتم بيُمن خلافة أمير المؤمنين أيّده الله بالعصمة والسّداد ، وألهمه بخالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ، أحسنَ الناس حالاً ، وأنعمَهم بالاً ، وأعزّهم قَرَاراً ، وأمنعَهم داراً ، وأكْثَفَهم جمعاً ، وأجملَهم صُنْعاً ، لا تهاجون ولا تذادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيّكم ، صلى الله عليه وسلّم ، فإن من نزع يداً[1] من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومَرَق من الدّين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، وقد علمتم أن في التعلّق بعِصمتها ، والتمسّك بعُرْوتها ، حفظَ الأموال وحقْن الدماء ، وصلاح الخاصّة والدّهْماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود ، وتُوفى العهود ، وبها وُصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ، وبها سدّ الله الخَلَل ، وأمّن السُّبُل ، ووطّأ الأكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القَرَار ، واطمأنّتْ بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنّه تبارك وتعالى يقول ﴿أطيعوا الله وأطيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأمْرِ مِنكُمْ﴾ الآية (النساء : ٥٩)، وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين ، الساعين في شَقّ عصاكم ، وتفريق ملاكم[2] ، الآخذين في مخاذلة دينكم ، وهتك حريمكم ، وتَوْهين دعوة نبيّكم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسَلين ، أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين ؛ مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين .

* * *

١ المطمح : يده .
٢ المطمح : ملتكم ؛ وملاكم مخففة من ملإكم .

[ترجمة منذر بن سعيد البلوطي عن المغرب]

وساقَ ابنُ سعيد في « المغرب » هذه الحكاية فقال ما صورته[1] : منذر بن سعيد البَلّوطي ، قاضي الجماعة بقرطبة ، خطيبٌ مِصْقَع ، ولَهُ كتب مؤلَّفة في القرآن والسنّة والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ، شاعر بليغ ، وُلد سنة خمس وستين ومائتين[2] ، وأوّلُ سببه في التعلّق بعبد الرحمن الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قُرْطُبَة الاحتفال الذي اشتهر ذكره ، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، لذكر جلالة مقعده ، ووَصْف ما تهيّأ له من توطيد الخلافة ، ورمْيِ ملوك الأمم بسهام بأسه ونَجْدَته ، وتقدّمَ إلى الأمير الحكم ابنه ووليّ عهده بإعداد مَنْ يقوم لذلك من الخطباء ، ويقدّمه أمام إنشاد الشعراء ، فتقدّم الحكم إلى أبي عليّ البغدادي ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة ، أن يقوم ، فقام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع ، وبُهت فما وصل ولا قطع ، ووقف ساكتاً مفكراً ، فلمّا رأى ذلك منذرُ بن سعيدٍ قام قائماً بدرجة من مِرْقاة أبي علي ، ووصل افتتاحه بكلام عجيب بَهَر العقول جزَالة ، وملأ الأسماع جلالة ، ثم ذكر الخطبة كما سبق ، وقال بعد إيرادها ما صورته : فصلب العِلْج وغلب على قلبه ، وقال : هذا كبير القوم ، أو كبش القوم ، وخرج الناسُ يتحدثون عن حُسن مقامه ، وثَبات جَنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدّهم تعجباً منه ، وأقبل على ابنه الحكم — ولم يكن يُثْبِت معرفته — فسأله عنه ، فقال له : هذا منذر بن سعيد البلّوطي ، فقال : والله لقد أحسن ما شاء ، ولئن أخرني الله بعدُ لأرْفَعَنّ من ذكره ، فَضَعْ يدك يا حكم عليه ، واستخلصه ، وذكرني بشأنه ، فما للصنيعة مَذْهَب عنه ، ثم ولاّه الصلاة والخطابة في المسجد

1 لم ترد ترجمة لمنذر بن سعيد في المغرب المطبوع .
2 صوابه : ٢٧٣ .

الجامع بالزهراء ، ثم توفّي محمد بن عيسى [1] القاضي فولاّه قضاء الجماعة بقُرْطُبة ، وأقرّه على الصلاة بالزهراء .

ومن شعره في هذه الواقعة قولهُ [2] :

مقالٌ كحدّ السيف وَسْطَ المحافلِ فَرَقْتُ به ما بين حَقّ وباطلِ
بقلبٍ ذكيّ ترتمي جنباتُهُ [3] كبارق رَعْدٍ عند رَعْش الأنامل
فما دَحضَتْ رجلي ولا زلّ مِقْولي ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل
وقد حدّقَتْ حولي عيُونٌ إخالها كمثل سهامٍ أثبتت في المقاتل
لخير إمام كان أو هو كائن لمقْتَبِلٍ أو في العصور الأوائل
ترى الناسَ أفواجاً يؤمّون بابه وكلُّهمُ ما بَيْن راجٍ وآمِل
وفودُ ملوكِ الروم وَسْط فِنائه مخافة بأس أو رَجاءً لنائل
فعِشْ سالماً أقصى حياة مؤمّلاً فأنت غياثُ كلٌّ [4] حافٍ وناعل
ستَمْلكُها ما بين شرق ومغرب إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

انتهى كلام ابن سعيد ، وهو يؤيد كلام ابن خلدون أن المأمور بالخطبة هو القالي .

وذكر أن الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه [5] : لقد أحسن ما شاء ، فلئن كان حبّر خطبته هذه وأعدّها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوَهْي فإنّه

١ الصواب : محمد بن أبي عيسى ، وهو محمد بن عبد الله بن أبي عيسى الذي ظل قاضياً للجماعة حتى سنة ٣٣٩ (انظر ترجمته في الجذوة : ٦٩ وبغية الملتمس رقم : ٢١٨ وابن الفرضي ٢ : ٦١ والخشني : ١٧٢ والمرقبة العليا : ٥٩ ، وسيترجم له المقري في الراحلين رقم : ٣) .
٢ المطمح : ٤٠ .
٣ ك : جمراته .
٤ ك : رجاء الكل .
٥ أزهار الرياض ٢ : ٢٧٦ .

لَبَديع من قدرته واحتياطه ، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنّه لأعجب وأغرب .

قال ابن سعيد : ولما فرغ منذر من خطبته أنشد[1] :

هذا المقام[2] الذي ما عابه فَنَدٌ   لكنّ قائله أزْرَى به البلدُ
لو كُنْتُ فيهم غريباً كنت مُطرّفاً   لكنّني منهمُ فاغتالني النّكدُ

ويروى بدل هذا الشطر :

ولا دهاني لهم بغيٌ ولا حَسَدُ

لولا الخلافة أبقى الله حُرْمَتَها   ما كنتُ أرضى[3] بأرض ما بها أحَدُ

قلت : كأنّه عرّض بأبي علي القالي ، وتقديمهم إيّاه في هذا المقام ، والله أعلم .

ومن نظم منذر بن سعيد قوله :

الموتُ حَوْضٌ وكلّنا نَرِدُ   لم يَنْجُ ممّا يخافُهُ أحدُ
فلا تكن مُغْرَماً برزقِ غدٍ   فلست تَدرِي بما يجيء غَدُ
وخُذْ من الدهر ما أتاك به   ويسلم الروحُ منك والجسَدُ
والخيرُ والشرُّ لا تُذعْهُ فما   في الناس إلا التشنيعُ والحَسَدُ

وله وقد آذاه شخص فخاطبه بالكُنْية ، فقيل له : أيؤذيك وأنت تخاطبه بالكنية ؟ فقال :

لا تعجبوا من أنني كَنّيته   من بعد ما قد سبّنا وأذانا
فالله قد كَنّى أبا لهب وَما   كناه إلاّ خِزْيَةً وهَوَانا

* * *

١ الجذوة : ٣٢٦
٢ الجذوة : المقال .
٣ الجذوة : أبقى .

[ترجمة منذر في المطمح]

وقال في المطمح[1] : منذر بن سعيد البلوطي ، آية حركة وسُكون ، وبركة لم تكن معدّة ولا تكون ، وآية سَفاهة في تحلُّم ، وجَهامة وَرَع في طيّ تبسّم . إذا جدّ وجد[2] ، وإذا هزل نزل ، وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مَرْقَب . ولا اكتسب إثماً ولا احتقَب ، وَلِيَ قضاء الجماعة بقرطبة أيّام عبد الرّحمن . وناهيك من عَدْل أظهر ، ومن فضل أشهر ، ومن جَوْر قبض ، ومن حقّ رفع ومن باطل خفض ، وكان مَهيباً صليباً صارماً غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم ، واستمر في القضاء إلى أن مات الناصر لدين الله ثم ولي ابنه الحكم فأقرّه ، وفي خلافته استعفى مراراً فما أُعفي . وتوفّي بعد ذلك لم يحفظ عنه[3] مدّة ولايته قضية جور ، ولا عُدّت عليه في حكومته زلة ، وكان غزير العلم ، كثير الأدب ، متكلّماً بالحق ، متبيّناً بالصدق ، له كتب مؤلفة في السنّة والقرآن والورع ، والرد على أهل الأهواء والبدع ، وكان خطيباً بليغاً وشاعراً محسناً ، وُلد عند ولاية المنذر بن محمد[4] ، وتوفّي سنة ٣٥٥ ؛ ومن شعره في الزهد قوله :

كم تَصابى وقد علاك المشيبُ ... وتَعَامى عمداً وأنت اللبيبُ ؟
كيف تَلْهُو وقد أتاك نذيرٌ ... أن سيأتي الحِمامُ منك قريبُ ؟
يا سفيهاً قد حان مِنه رَحيلٌ ... بعد ذاك الرحيلِ يومٌ عَصيبُ
إنّ للموت سَكْرةً فارتقِبْها ... لا يُداوِي إذا أتتك طبيبُ
كم تَوَانى حتى تصير رَهيناً ... ثمّ تأتيك دَعْوةٌ فتجيبُ

---

١ المطمح : ٣٧ .
٢ المطمح : تجرد .
٣ المطمح : تحفظ عليه .
٤ زاد في المطمح سنة ثلاث وسبعين ومائتين (وفي طبعة الجوائب : ثلاث وعشرين ، وهو خطأ) .

بأمور المَعاد أنت عليمٌ فاعملَنْ جاهداً له يا أريبُ[1]
وتذكَّرْ يوماً تحاسَبُ فيه إنَّ مَن يدَّكِرْ فسَوْفَ يُنيبُ
لَيْسَ من ساعة من الدهر إلاَّ للمنايا بها عليك رقيبُ

ولعلّنا نذكر شيئاً من أحوال منذر في غير هذا الموضع .

رجع لأخبار الناصر لدين الله – حكي[2] أنّه لما أعذر لأولاد ابنه أبي مروان عبيد الله اتخذ لذلك صنيعاً عظيماً بقصر الزهراء لم يتخلّف أحد عنه من أهل مملكته وأمر أن يُنْذَرَ لشهوده الفقهاء المشاورون ومَنْ يليهم من العلماء والعدول ووجوه الناس ، فتخلف من بينهم المشاور أبو إبراهيم ، وافتقد مكانه لارتفاع منزلته ، فسأل في ذلك الخليفة الناصر ، إذ أبو إبراهيم من أكابر علماء المالكيّة الذين عليهم المدار ، ووجِدَ الناصر بسبب ذلك على أبي إبراهيم ، وأمر ابنَه وليّ العهد الحكَمَ بالكتاب إليه ، والتفنيد له ، فكتب إليه الحكم رقعةً نسختُها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله وتولاك ، وسددك ورعاك ، لمّا امتحن أمير المؤمنين مولاي وسيدي – أبقاه الله – الأولياء الذين يستعدُّ بهم وَجَدَكَ متقدماً في الولاية ، متأخّراً عن الصلة ، على أنّه قد أنذرك – أبقاه الله – خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده ، لا أعدمه الله توالي المسرّة ، ثم أنذرت من قبل إبلاغاً في التكرمة ، فكان منك على ذلك كلّه من التخلّف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أميرُ المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه ، فأعيت عليك عنك الحجّة ، فعرِّفْني – أكرمك الله – ما العذر الذي أوجب توقفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذي سُرَّ به ورغب المشاركة فيه ، لنعرّفه – أبقاه الله – بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة إليه إن شاء الله تعالى » . فأجابه أبو إبراهيم : « سلام على الأمير سيدي ورحمة الله ، قرأت – أبقى الله الأمير

[1] في الأصول ما عدا ج : رييب .
[2] أزهار الرياض ٢ : ٢٨٢ .

سيدي — هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقّفي لنفسي ، إنّما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه ، لعلمي بمذهبه ، وسكوني إلى تقواه ، واقتفائه لأثر سَلَفه الطيّب رضوان الله عليهم ، فإنّهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يَشينها ، ولا بما يغض منها ويطرق إلى تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ، ويتزيّنُون بها عند رعاياهم ومَنْ يفد عليهم من قُصّادهم ، فلهذا تخلفت ، ولعلمي بمذهبه توقفت ، إن شاء الله تعالى » . فلمّا أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جوابَ أبي إبراهيم إسحاق أعجبه ، واستحسن اعتذاره ، وزال ما بنفسه عليه .

وكان الفقيه أبو إبراهيم المذكور مُعَظَّماً عند الناصر وابنه الحكم ، وحُقّ لهما أن يعظماه ؛ وقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مُفَرِّج قال[1] : كنت أختلف إلى الفقيه أبي إبراهيم — رحمه الله تعالى — فيمن يختلف إليه للتفقّه والرواية ، فإنّي لَعِنْده في بعض الأيّام في مجلسه بالمسجد المنسوب لأبي عثمان الذي كان يصلي به قربَ داره بجوفي قصر قُرْطُبَة ، ومجلسُه حافل بجماعة الطلبة ، وذلك بين الصلاتين ، إذ دخل عليه خَصِيّ من أصحاب الرسائل ، جاء من عند الخليفة الحكم ، فوقف وسلّم ، وقال له : يا فقيهُ ، أجِبْ أمير المؤمنين أبقاه الله ، فإن الأمر خرج فيك ، وها هو قاعد ينتظرك ، وقد أُمرت بإعجالك ، فالله الله ، فقال له : سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين ، ولا عَجَلة ، فارجع إليه وعرِّفه وفقه الله عني أنّك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى معي طلابُ العلم أسمِعُهم حديثَ ابن عمّه رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فهم يُقَيِّدُونه عني ، وليس يمكنني تركُ ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته ، فذلك أوكد من مَسيري إليه الساعةَ ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إليّ من هؤلاء المحتسبين في ذات الله الساعين لمرضاته مشيتُ إليه إن شاء الله تعالى . ثم أقبل على

[1] أزهار الرياض ٢ : ٢٨٥ .

شأنه ، ومضى الحصي يُهَيْنِم متضاجراً من توقّفه ، فلم يكُ إلا ريثما أدّى جوابه ، وانصرف سريعاً ساكن الطيش ، فقال له : يا فقيه ، أنهيْتُ قولك على نَصّه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله ، فأصغى إليه ، وهو يقول لك : جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين ، وأمتعهم بك ، وإذا أنت أوعبت [1] فامض إليه راشداً إن شاء الله تعالى ، وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضي شغلك وتمضي معي ، فقال له : حسن جميل ، ولكني أضْعُف عن المشي إلى باب السُّدّة ، ويصعب عليّ ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعضائي ، وباب الصناعة الذي يقرب إليّ من أبواب القصر المكرّم أحْوطُ وأقرب وأرفق بي ، فإن رأى أميرُ المؤمنين – أيّده الله تعالى – أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منه هوّن علي المشي ، ووَدُعَ جسمي ، وأحب أن تعود وتُنهي إليه ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه ، وكذلك تعود إليّ فإنّي أراك فتى سديداً ، فكن على الخير مُعيناً . ومضى عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين وقال : يا فقيه ، قدِ أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت ، وأمر بفتْح باب الصناعة وانتظارك من قبله ، ومنه خرجت إليك ، وأمرت بملازمتك مذكراً بالنهوض عند فراغك ، وقال : افعل راشداً ؛ وجلس الحصيّ جانباً حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه كأفسح [2] ما جرت به عادتُه غيرَ منزعج ولا قَلِق ، فلمّا انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ثمّ مضى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على ذلك الباب ، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه . قال ابنُ مفرّج : ولقد تعمّدنا في تلك العَشِيّة إثر قيامنا عن الشيخ أبي إبراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقُه بدُبْرِ [3] القصر لنرى تجشّم الخليفة له ، فوجدناه كما وصف الحصي مفتوحاً [4] ، وقد حَفّهُ الخدم والأعوان منزعجين ما بين

1 ك : أوعيت .
2 ك : بأكمل وأفسح .
3 في الأصول : بدير .
4 ك : مفتوحاً كما وصف .

كنّاس وفرّاش متأهّبين لانتظار أبي إبراهيم ، فاشتدّ عجبنا لذلك ، وطال تحدثُنا عنه ، انتهى . فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك معهم[1] ، قدس الله تلك الأرواح .

ثم توفّي الناصر لدين الله ثاني — أو ثالث — شهر رمضان ، من عام خمسين وثلاثمائة ، أعظمَ ما كان سلطانه ، وأعزّ ما كان الإسلام بملكه .

قال ابن خلدون : خلف الناصر في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات ، انتهى .

وقال غير واحد[2] : إنّه كان يقسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدّخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكُوَر والقُرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وأمّا أخماس الغنائم العظيمة فلا يُحْصيها ديوان .

وحكي[3] أنّه وجد بخط الناصر — رحمه الله — أيام السرور التي صفت له دون تكدير يومُ كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا ، وعُدّت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً، فاعجب أيها العاقل لهذه الدّنيا وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها ، هذا الخليفة الناصر حلف السعود ، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ، ملكها خمسين سنة وستة — أو سبعة — أشهر وثلاثة أيّام ، ولم تصفُ له إلا أربعة عشر يوماً ، فسبحان ذي العزّة القائمة ، والمملكة الدائمة ، لا إله إلا هو .

ومما يُنسب للناصر من الشعر ، وقيل : لابنِه الحكم ، قولُه[4] :

---

١ ك : مع العلماء .
٢ المغرب ١ : ١٧٩ وأزهار الرياض ٢ : ٢٧١ .
٣ المغرب ١ : ١٧٧ وأزهار الرياض ٢ : ٢٨٢ .
٤ المغرب ١ : ١٧٩ .

ما كُلُّ شيء فَقَدْتُ إلاّ عَوَّضَني الله منه شَيّا
إنّي إذا ما مَنَعْتُ خيري تباعَدَ الخيرُ من يَدَيّا
مَنْ كان لي نِعْمَةٌ عليه فإنّها نعمةٌ عَلَيّا

* * *

[ترجمة أحمد بن عبد الملك بن شهيد]

ومِمّا زيّن الله به دولَةَ الناصر وزراؤه الذين من جملتهم ابن شُهَيد ، قال في المطمح[1] : أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شُهَيد ، مفخر الإمامة ، وزَهْر تلك الكمامة ، وحاجب[2] الناصر عبد الرحمن ، وحاملُ الوزارتين على سُمُوّهما في ذلك الزّمان ، استقلّ بالوزارة على ثقلها ، وتصرف فيها كيف شاء على حدّ نظرها والتفات مُقَلها ، فظهر على أولئك الوزراء ، واشتهر مع كثْرة النظراء ، وكانت إمارة عبد الرحمن أسعد إمارة ، بَعُدَ عنها كلُّ نفس بالسوء أمّارة ، فلم يطرقها صَرْف ، ولم يرمقها محذور بطَرْف ، فقَرَعَ الناس فيها هِضاب الأمانيّ ورُباها ، ورتَعَتْ ظباؤها في ظلال ظُباها ، وهو أسَدٌ على بَرَاثنه رابض ، وبَطَلٌ أبداً على قائم سيفه قابض ، يروع الرومَ طيفُه ، ويجوس خلال تلك الديار خَوْفُه ، ويَرْوَى بل يحسم كلَّ آونة سيفُه ، وابن شُهيد يَنْتج الآراء ويُلْقحها ، ويَنْقُد تلك الأنحاء وينقحها ، والدولة مشتملة بغنائه ، متجملة بسنائه ، وكرمُه منتشر على الآمال ، ويكسو الأولياء بذلك الإجمال ، وكان له أدب تزخَر لُججَه ، وتَبْهَر حُجَجه ، وشعره رقيق لا يُنقد ، ويكاد من اللطافة يُعْقَد ، فمن ذلك قوله :

ترى البَدْرَ منها طالعاً فكأنّما يَجُول وشاحاها على لؤلؤ رَطْبِ

---

١ المطمح : ٩ والمقتطفات (الورقة ٨٥ – ٨٦) وانظر ترجمة الوزير ابن شهيد أيضاً في الحلة ١ : ٢٣٧ وجذوة المقتبس : ١٢٣ (وبغية الملتمس رقم : ٤٣٩) ، وسقطت ترجمته من المغرب المطبوع .

٢ ك : وصاحب .

بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ مُخطفة الحشا ومُفْعمَة الخلخال مُفْعمَة [1] القَلْبِ
من اللاءِ لم يَرْحلْنَ فوق رواحل ولا سِرْنَ يوماً في ركاب ولا ركْبِ
ولا أبرزتْهُنَّ المُدَامُ لنَشْوَة وشدْوٍ كما تشدو القيانُ على الشَّرْبِ

وكان بينه وبين الوزير عبد الملك بن جهور متولي الأمر معه ، ومشاركه في التدبير إذا حضر مجتمعه ، منافسة ، لم تنفصل لهما بها مُداخلة ولا ملابسة ، وكلاهما يتربّصُ بصاحبه دائرة السَّوْء ، ويغص به غَصَصَ الأفق بالنَّوْء ، فاجتاز يوماً على رَبَضه ، ومال إلى زيارته ولم تكن من غَرَضه ، فلمّا استأمر عليه ، تأخّر خروج الإذن إليه ، فثَنَى عِنانه حَنَقاً من حِجابه ، وضجراً من حُجّابه ، وكتب إليه مُعرِّضاً ، وكان يلقّب بالحمار :

أتيناك لا عَنْ حاجة عَرَضَتْ لنا إليكَ ولا قَلْبٍ إليك مَشُوقِ
ولكنّنا زُرْنا بفَضْلِ حُلومنا حماراً تولّى بِرَّنا بعُقُوقِ [2]

فراجعه ابن جهور يغض منه ، بما كان يشيع عنه ، بأن جدّه أبا هشام ، كان بَيْطاراً بالشام ، بقوله :

حَجَبْناك لمّا زرتنا غَيْرَ تائق بقلب عَدُوّ في ثياب صَديقِ
وما كان بَيطارُ الشّآم بِمَوضِع يُباشر فيه بِرَّنا بخَليقِ

ومن شعره قوله يتغزل :

حلفْتُ بمن رَمَى فأصاب قَلْبي وقَلّبَهُ على جَمْرِ الصُّدُودِ
لَقَدْ أوْدى تَذكُّره بقَلْبي ولَسْتُ أشُكُّ أنَّ النفس تودي

---

[1] ط ق : مقمعة .
[2] في ق ك :
ولكننا زرنا بفضل حلومنا فكيف تلاقي برنا بعقوق
والتصحيح عن الحميدي والحلة السيراء .

فَقِيدٌ وَهْوَ موجودٌ بِقَلْبِي   فَوَاعَجَبًا لموجودٍ فقيدِ

وقد تقدّم الكلام على هدية ابن شُهيد وبعض أخباره ، رحمة الله عليه .

* * *

[الحكم المستنصر]

ولمّا توفّي الناصر لدين الله[1] تولى الخلافة بعده وليّ عهده الحكَمُ المستنصر بالله فجرى على رَسْمِه ، ولم يفقد من ترتيبه إلاّ شخصه ، وولي حجابته جَعْفر المصحفي . وأهدى له يوم ولايته هديّة كان فيها من الأصناف ما ذكره ابن حيّان في « المقتبس » وهي : مائة مملوك من الإفرنج ناشئة[2] على خيول صافنة كاملو الشّكة والأسلحة من السيوف والرماح والدّرق والتّراس والقَلانس الهندية ، وثلاثمائة ونيّف وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خُوذة كذلك ، ومائة بَيْضة هنديّة ، وخمسون خوذة خشبية[3] من بيضات الفرنجة من غير الخشب[4] يسمونها الطشطانة[5] ، وثلاثمائة حربة إفرنجية ، ومائة ترس سلطانية[6] ، وعشرة جَوَاشن فضّة مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس ، انتهى .

قال ابن خلدون[7]: ولأوّل وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور ، فغزا الحكم المستنصر بنفسه ، واقتحم بلد فرذلند بن غندشلب[8] ، فنازل شنت اشتيبن[9] .

١ سياق الخبر حسبما ورد في ابن خلدون ٤ : ١٤٤ .
٢ ك : ناشبة .
٣ ق،ك : وخمسون هندية خشبية .
٤ كذا ولعلها : « من غير الخشب » .
٥ ابن خلدون : الطاشانة ؛ والطشطانة (Tistina) كلمة مشتقة من البروفنسالية (Testa) (أي الرأس Tête) وتكتب أيضاً طشتانية وتعني « الخوذة » .
٦ ابن خلدون : سلطانية الجنس .
٧ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٤ والكلام متصل بما قبله في النقل عنه .
٨ فرذلند (Fernando = Ferdinand) ؛ غند شلب (جنثالث) (Gonzalo) .
٩ شنت اشتيبن (وفي ق ك ط قدمت الباء الموحدة على الياء) (San Esteban) وبها يسمى غير موضع بالأندلس ، ولكن المعني هنا المدينة القريبة من وشقة (Huesca) .

وفتحها عَنْوة واستباحها ، وقفل ، فبادروا إلى عَقْدِ السلم معه وانقبضوا عمّا كانوا فيه ، ثمّ أغزى غالباً مولاه بلادَ جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ، ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر بلد فرذلند ودوّخها ، وكان شانجة[1] بن رُذمير ملك البُشْكَنْس قد انتقض ، فأغزاه الحكمُ التجيبيَّ صاحبَ سرقسطة في العساكر ، وجاء ملك الجلالقة لنصره ، فهزمهم ، وامتنعوا بقُورِيَةَ[2] ، وعاثوا في نواحيها ، وقفل ، ثم أغزى الحكمُ أحمدَ بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي إلى بلاد بَرْشِلُونة ، فعاثت العساكر في نواحيها ، وأغزى هُذَيل بن هاشم ومولاه غالباً إلى بلاد القومس ، فعاثا فيها ، وقفلا ، وعظمت فتوحات الحكم وقوّاد الثغور في كل ناحية ، وكان من أعظمها فتح قَلَهُرَّةَ[3] من بلاد البُشْكَنْس على يد غالب ، فعمرها الحكم ، واعتنى بها ، ثمّ فتح قَطُوبِيَة[4] على يد قائد وَشْقَة وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث وفي بسيطها من الغنم والبقر والرَّمَك والأطعمة والسبي ما لا يحصى .

وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألبَةَ ، ومعه يحيى بن محمّد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون ، فابتنى حصن غُرْماج[5] ، ودوّخ بلادهم ، وانصرف .

وظهرت في هذه السنة مراكبُ المجوس في البحر الكبير ، وأفسدوا بسائط أشْبُونَةَ وناشبهم الناسُ القتال ، فرجعوا إلى مراكبهم ، وأخرج الحكمُ

---

١ ق ج ك ط : شنجة .
٢ قورية (Coria) من مدن كورة ماردة وكانت تعرف قبل فتح العرب باسم (Caurium) .
٣ في ك : قلمرية (Coimbra) من مدن البرتغال إلى الغرب من قورية قريباً من الساحل . أما قلهرة (Calahorra = Calagurri) فهي حسب التقسيمات القديمة من قسم طركونة ومن قواعد منطقة نبره (نافار) .
٤ كذا في ق ك ج ط وعند دوزي ، ولعل الصواب : قطريبه (Yerba) .
٥ غرماج (Gormaz) ؛ (وانظر أخباراً عما حدث لهذا الحصن في المقتبس : ٢٣٤ ط. بيروت) .

القوّاد لاحتراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رُماحس بتعجيل حركة الأسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل .

ثمّ كانت وفادة أردون بن أذفونش ملك الجلالقة ، وذلك أن الناصر لمّا أعان عليه شانجة بن رذمير — وهو ابن عمّه ، وهو الملك[1] من قَبْل أردون — وحمل النصرانية على طاعته ، واستظهر أردون بصهره فرذلند قومس قشتيلة ، توقّع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر ، فبادر إلى الوفادة على الحكم مستجيراً به ، فاحتفلّ لقدومه ، وعَبّى العساكر ليوم وفادته ، وكان يوماً مشهوداً وصفه ابن حيّان كما وصف أيّام الوفادات قبله ، ووصل إلى الحكم ، وأجلسه ، ووعده بالنصر من عدوّه ، وخلع عليه ، وكتب بوصوله ملقياً بنفسه ، وعاقده على موالاة الإسلام ، ومقاطعة فرذلند القومس ، وأعطى على ذلك صَفْقة يمينه . ورهن ولده غَرْسية ، ودفعت الصِّلات والحُملان له ولأصحابه ، وانصرف معه وُجوه نصارى الذمّة ليوطّدوا له الطاعة عند رعيته ، ويقبضوا رهنه .

وعند ذلك بعث ابنُ عمّه شانجةُ بن رذمير ببيعته وطاعته مع قواميس أهل جليقية وسَمّورة وأساقفتهم ، يرغب في قبوله ، ويمتّ بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين .

ثمّ بعث ملكا بَرْشِلونة وطَرّكونة وغيرُهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه ، وبعثا بهدية ، وهي : عشرون صبيّاً من الخصيان الصقالبة ، وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أدْرَاعٍ صقلبية ، ومائتا سيف فرنجية ، فتقبل الهدية وعقد لهم على أن يَهْدِمُوا

... ...

[1] ق : المملك .

الحصون التي تضرُّ بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهلَ ملَّتهم ، وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين .

ثم وصلتْ رسُلُ غرسية بن شانجة ملك البُشْكَنْس في جماعة من الأساقفة والقواميس يسألون الصلح ، بعد أن كان توقف وأظهر المكر ، فقعد لهم الحكم ، فاغتبطوا ورجعوا .

ثمّ وفدت على الحكم أم لُذَريق بن بلاشك القومس [1] بالغرب من جليقية ، وهو القومس الأكبر ، فأخرج الحكم لتلقّيها أهلَ دولته ، واحتفل لقدومها في يوم مشهود مشهور ، فوصلت وأسعفت ، وعقد السلم لابنها كما رغبت ، ودفع لها مالاً تقسّمه بين وفدها ، دون ما وصلت به هي ، وحُملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع ، فعاودَها بالصِّلات لسفرها ، وانطلقت .

ثمّ أوطأ عساكره أرضَ العُدْوة من المغرب الأقصى والأوسط ، وتلقّى دعوته ملوك زَناتة من مَغْراوةَ ومِكْناسة ، فبثّوها في أعمالهم ، وخطبوا بها على منابرهم ، وزاحموا بها دعوة الشّيعة فيما بينهم ، ووفد عليه من بني خزر وبني أبي العافية ، فأجزل صلتهم ، وأكرم وِفادتهم ، وأحسن مُنْصَرَفهم ، واستنزل بني إدريس من ملكهم بالعُدْوة في ناحية الرّيف ، وأجازهم البحر إلى قُرْطُبة ، ثم جلاهم إلى الإسكندريّة .

وكان مُحِبّاً للعلوم ، مكرماً لأهلها ، جمّاعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله ، قال أبو محمد بن حزم [2] : أخبرني تليد الخصيُّ — وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان — أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة عشرون ورقة [3] ، ليس فيها

---

١ للذريق بن بلاشك (أو بلشك) (Rodrigo Velasques) وأمه هي : (Oneca) .

٢ انظر الجمهرة : ١٠٠ وابن خلدون ٤ : ١٤٦ .

٣ الجمهرة : خمسون ورقة .

إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير ، وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جُلبت إليها بضائعه من كل قطر . ووفد على أبيه[1] أبو عليّ القالي صاحبُ كتاب « الأمالي » من بغداد فأكرم مثْواه ، وحَسُنت منزلته عنده ، وأورث أهل الأندلس علمَه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه ؛ وكان يبعث في الكتب[2] إلى الأقطار رجالاً من التجار ، ويرسل[3] إليهم الأموال لشرائها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه ، وبعث في كتاب « الأغاني » إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ، وكان نسبه في بني أمية ، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق ، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك. وجمع بداره الحذّاقَ في صناعة النّسْخ والمهَرَة في الضبط والإجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كلّه ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلاّ ما يُذكر عن الناصر العبّاسي بن المستضيء ، ولم تزل هذه الكتبُ بقصر قُرْطُبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر ، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجبُ واضح من موالي المنصور بن أبي عامر ، ونُهِب ما بقي منها عند دخول البربر قُرْطُبة واقتحامهم إياها عَنْوة ، انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

ولنبسط الكلام على الحكم فنقول[4] : إن الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثاني يوم وفاة أبيه يوم الخميس ، وقام بأعباء الملك أتم قيام ، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ، ودعا الناس إلى بيعته ، واستقبل من يومه النظر في تمهيد سلطانه ، وتثقيف مملكته ، وضبط قصوره ، وترتيب أجناده ، وأوّل ما أخذ

١ ك : قال أبو محمد بن خلدون ولما وفد ... أكرم ...
٢ ك : في شراء الكتب .
٣ ج : ويسدي ؛ ط ق : ويسري .
٤ انظر أزهار الرياض ٢ : ٢٨٦ والنص متفق مع النفح حتى آخر قصيدة المرادي ص : ٣٩٤ .

البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر ، كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم ، وتكفّلوا بأخذها على مَنْ وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم ، وأوصل إلى نفسه في الليل دون هؤلاء الأكابرَ من الكتّاب والوصفاء والمقدمين والعُرفاء ، فبايعوه ، فلمّا كملت بيعة أهل القصر تقدّم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض إلى أخيه شقيقه أبي مروان عُبيد الله المتخلف بأن يُلزمه الحضور للبيعة دون معذرة ، وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حُدير بالنهوض أيضاً إلى أبي الأصبغ عبد العزيز شقيقه الثاني ، فمضى إليهما كلٌّ واحد منهما في قَطيع من الجند ، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء . ونفذ غيرهما من وجوه الرجال في الخيل لإتيان غيرهما من الإخوة ، وكانوا يومئذ ثمانية ، فوافى جميعهم الزهراء في الليل ، فنزلوا في مراتبهم بفصلان[1] دار الملك ، وقعدوا في المجلسين الشرقي والغربي ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في البَهْو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التي في السطح الممرّد ، فأوّل مَنْ وصل إليه الإخوة فبايعوه ، وأنصتوا لصحيفة البيعة ، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها ، ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم ، ثمّ أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة ، وقَعَدَ الإخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله ، إلا عيسى بن فُطَيس فإنّه كان قائماً يأخذ البيعة على الناس ، وقام الترتيب على الرسم في مجالس الاحتفال المعروفة ، فاصطف في المجلس الذي قعد فيه أكابرُ الفتيان يميناً وشمالاً إلى آخر البَهْو كلٌّ منهم على قدره في المنزلة ، عليهم الظهائر البيض شعار الحزن ، قد تقلدوا فوقها السيوف ، ثم تلاهم الفتيان الوصفاء ، عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية ، صفين منتظمين في السطح ، وفي الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض ، بأيديهم السيوف ، يتصل بهم مَنْ دونهم من طبقات ......

[1] الفصلان والفصل : جمع فصيل ، ويقابل (Porticus) باللاتينية ، وهو الرحبة عند مدخل البيت ، وتكون الفصلان فيما يبدو على شكل رحاب وصحون متوالية تحددها هيئة الأعمدة .

الخصيان الصقالبة ، ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيّهم وجعابهم ، ثم وصلت صفوفَ هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوفُ العبيد الفحول شاكينَ في الأسلحة الرائقة والعدّة الكاملة ، وقامت التعبية في دار الجند والترتيب من رجّالة العبيد عليهم الجواشن والأقبية البيض ، وعلى رؤوسهم البيضات الصّقيلة[1] ، وبأيديهم التّراس الملوّنة والأسلحة المزينة ، انتظموا صفين إلى آخر الفُصُل ، وعلى باب السُّدّة الأعظم البوّابون وأعوانُهُم ، ومن خارج باب السُّدّة فرسان العبيد إلى باب الأقباء ، واتصل بهم فرسان الحشَم وطبقات الجند والعبيد والرماة ، موكباً إثر موكب ، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء ، فلمّا تمّت البيعة أُذِنَ للناس بالانفضاض ، إلا الإخوة والوزراء وأهل الخدمة فإنّهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتُمل جسد الناصر – رحمه الله – إلى قصر قُرْطُبَة للدفن هنالك في تربة الخلفاء .

وفي ذي الحجّة من سنة خمسين تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبَيْعة والتماس المطالب ، من أهل طُلَيْطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها ، فتوصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء والقاضي مُنْذر ابن سعيد والملأ ، فأُخذت عليهم البيعة ، ووُقّعت الشهادات في نسخها .

* * *

[وفود أردون على المستنصر]

وفي آخر صفر من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله مَوْلَيَيْه محمّداً وزياداً ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقّي غالب الناصري صاحبِ مدينة سالم الموردِ للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث في الدولة المتملك على طوائف من أمم الجلالقة والمنازع لابن عمّه المملَّك قبله شانجة بن رذمير ، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير

[1] ك : الصقلبية ؛ وفي بعض النسخ : الصقلية .

طالب إذن ولا مستظهر بعهد ، وذلك عندما بلغه اعتزامُ الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو إليه ، وأخْذُهُ في التأهّب له ، فاحتال في تأميل المستنصر بالله والارتماء عليه ، وخرج قبل أمانٍ يُعْقَد له أو ذِمّة تعصمه في عشرين رجلاً من وجوه أصحابه ، تكنّفَهم غالب الناصري الذي خرجوا إليه ، فجاء به نحو مولاه الحكم ، وتلقّاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم، ثم تحرّكا بهم ثاني يوم نزولهم إلى قُرْطُبَة ، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشاماً المصحفي في جيش عظيم كامل التعبية ، وتقدّموا إلى باب قُرْطُبَة ، فمرّوا بباب قصرها ، فلمّا انتهى أردون إلى ما بين باب السّدة وباب الجنان سأل عن مكان رَمْسِ الناصر لدين الله فأشير إلى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قَلَنْسُوته ، وخضع نحو مكان القبر ، ودعا ، ثم رَدّ قَلَنْسُوته إلى رأسه . وأمر المستنصر بإنزال أردون في دار الناعورة ، وقد كان تقدّم في فرشها بضروب الغِطاء والوِطاء ، وانتهى من ذلك إلى الغاية ، وتوسّع له في الكرامة ولأصحابه ، فأقام بها الخميسَ والجمعة ، فلمّا كان يومُ السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردونَ ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبية الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صَفّاً في المجلس فيهم القاضي منذرُ بن سعيد والحكام والفقهاء ، فأتى محمّد بن القاسم بن طُمْلُس[1] بالملك أردون وأصحابه وعالي لبوسه[2] ثوبٌ ديباجيٌّ روميٌّ أبيض وبَلْيُوَال[3] من جنسه وفي لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة

....

١ محمد بن قاسم بن طملس : كان يشغل في أيام المستنصر منصب الوزير صاحب الحشم ، وقد قتل في حروب العدوة أول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة بفحص مهران (المقتبس : ٩٦ ط . بيروت).

٢ ق : لباسه .

٣ لعلها من اللفظة (Pluvial) ، أو (Palio) (فتقرأ : بليون) ، وفي ق : ويلبوال ؛ ج : يلنوال ؛ ك : بليوان .

بجوهر ، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن خيزران[1] قاضي النصارى بقُرْطُبَة وعبيد الله بن قاسم مُطْران طُلَيْطلة[2] وغيرهما ، فدخل بين صَفّي الترتيب يُقَلّب الطّرف في نظم الصفوف ، ويُجيل الفكر في كثرتها وتَظاهر أسلحتها ورائق حليتها ، فراعهم ما أبصروه ، وصلّبوا على وجوههم ، وتأمّلوا ناكسي رؤوسهم غاضّين من أجفانهم قد سُكّرت أبصارهم حتى وصلوا إلى باب الأقباء أوّل باب قصر الزهراء ، فترجل جميعُ من كان خرج إلى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصّةُ قوامسه على دوابهم ، حتى انتهوا إلى باب السُّدّة ، فأمر القوامس بالترجّل هنالك والمشي على الأقدام ، فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكباً مع محمد بن طُمْلُس ، فأنزل في بُرْطُل[3] البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التي بدار الجند على كرسي مرتفع مكسوّ الأوصال بالفضّة ، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوّه ومناوئه شانجة بن رُذْمير الوافد على الناصر لدين الله — رحمه الله تعالى — فقعد أردون على الكرسي ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ، فتقدم يمشي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح ، فلمّا قابلَ المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع بُرْنُسَه ، وبقي حاسراً إعظاماً لما بان له من الدنو إلى السرير ، واستُنْهِض فمضى بين الصفين المرتبين في ساحة السطح ، إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو ، فلمّا قابل السريرَ

. . . .

١ كذا في ق ج ط ودوزي ؛ وهو مضطرب في النسخ فهو : خيزان ؛ حيزون (في ك) ؛ خيرون ؛ ولعل الأخيرة « خيرون » هي الصواب ؛ وهذا القاضي فيما يبدو هو الذي أعان على ترجمة كتاب هروشيوش حين أهداه إمبراطور القسطنطينية إلى الناصر (ابن خلدون ٢ : ٨٨) وفي أحداث سنة ٣٦٠ من المقتبس أن قاضي النصارى بقرطبة كان اسمه « أصبغ بن نبيل » (ص : ٦٤ ، ١٤٦) .

٢ سماه في المقتبس (٤٧) مطران إشبيلية ، وكان المستنصر يعتمد عليه في الترجمة وفي مرافقة الوفود وشؤون السفارات .

٣ البرطل : يقابل بالإسبانية (Portal) أي المدخل .

خرَّ ساجداً سُويعةً ، ثم استوى قائماً ، ثم نهض خطواتٍ ، وعاد إلى السجود ، ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة وأهوى إلى يده فناوله إياها وكرَّ راكعاً مقهقراً على عقبه إلى وسادٍ ديباج مُثْقل بالذهب ، جُعل له هنالك ، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ، فجلس عليه . والبَهْرُ قد علاه . وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع وناولهم الخليفة يَدَه فقبّلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم . ووصل بوصولهم وليدُ بن خيزران قاضي النصارى بقُرْطُبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم ، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتاً كيما يُفْرِخ[1] رَوْعُهُ ، فلمّا رأى أن قد خُفّض عليه افتتح تكليمه فقال : ليسرك إقبالك ويغبطك تأميلك ، فلدينا لك من حسن رأينا ورَحْب قبولنا فوق ما قد طلبته ، فلمّا ترجم له كلامه إيّاه تطلّق وجه أردون ، وانحط عن مرتبته ، فقبّل البساط ، وقال : أنا عبد أمير المؤمنين مولاي ، المتوركُ على فضله ، القاصد إلى مجده ، المحكم في نفسه ورجاله ، فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ، ونصيحة خالصة ، فقال له الخليفة : أنت عندنا بمحلّ مَنْ يستحق حسن رأينا ، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك على أهل ملتك ما يغبطك ، وتتعرف به فضل جنوحك إلينا ، واستظلالك بظل سلطاننا ، فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة ، وابتهل داعياً ، وقال : إن شانجة ابنَ عمي تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني ، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأمّلهم ، وكان قَصَدَه قصدَ مضطر قد شنَأته رعيته ، وأنكرت سيرته ، واختارتني لمكانه من غير سعي مني علم الله ذلك ، ولا دعاء إليه ، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطراً مضطهَداً ، فتطوّل عليه — رحمه الله — بأن صرَفه إلى ملكه ،

.. ..

[1] في الأصول : يفرج ..

وقوّى سلطانه ، وأعزّ نصره ، ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التي أُسْدِيَتْ إليه ، وقَصّر في أداء المفروض عليه وحقّه وحق مولاي أمير المؤمنين من بعده ، وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة ، من قرارة سلطاني وموضع أحكامي ، مُحَكّماً له في نفسي ورجالي ومعاقلي ومَنْ تحويه من رعيّتي ، فشتان ما بيننا بقوّة الثقة ومطرح الهمة ، فقال الخليفة : قد سمعنا قولك ، وفهمنا مَغْزاك ، وسوف يظهر من إقراضنا إيّاك على الخصوصيّة شأنه ، ويترادف من إحساننا إليك أضعافُ ما كان من أبينا — رضي الله تعالى عنه — إلى ندّك ، وإن كان له فضلُ التقدّم بالجنوح إلينا والقصد إلى سلطاننا ، فليس ذلك ممّا يؤخرك عنه ، ولا ينقصك ممّا أنلناك ، وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك ، ونشدّ أواخِيَّ ملكك ونُمَلّكك جميع من انحاش إليك من أمتك[1] ونعقد لك بذلك كتاباً يكون بيدك نقرّر به حدّ ما بينك وبين ابن عمّك ، ونَقْبِضُه عن كل ما يصرّفه من البلاد إلى يدك ، وسيترادف عليك من إفضالنا[2] فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكيل .

فكرّر أردون الخضوعَ ، وأسهب في الشكر ، وقام للانصراف مقهقراً لا يولّي الخليفة ظهره ، وقد تكنفه الفتيانُ[3]، فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح ، وقد علاه البَهْر وأذهله الرَّوْع ، من هَوْل ما باشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزّة ، فلمّا أن دخل المجلسَ ووقعت عينُه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه انحطّ ساجداً إعظاماً له ، ثم تقدّم الفتيان به إلى البهو الذي بِجَوْفي هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب ، وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلمّا بصر به قام إليه ، وخنع له[4] ، وأومأ إلى تقبيل يده ،

١ من أمتك : سقطت من ك .
٢ ق : إحساننا .
٣ زاد بعدها في ق : من جملة الفتيان .
٤ ك : وخضع له .

فقبضها الحاجبُ عنه ، وانحنى إليه فعانقه ، وجلس معه ، فغبّطه ، ووعده من إنجاز عِدّات الخليفة له بما ضاعف سروره ، ثم أمر الحاجب جعفر فصبُبّت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة ، وكانت دُرّاعة منسوجة بالذهب ، وبرنساً مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ملأت عين العِلْج تجلة ، فخرّ ساجداً وأعلن بالدعاء ، ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ، وخرّ جميعهم خانعين [1] شاكرين ، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقُدّم لركابه في أوّل البهو الأوسط فرسٌ من عتاق خيل الركاب عليه سَرْج حلي ولجام حلي مفرغ ، وانصرف مع ابن طُمْلُس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أُعِدّ له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون ، واستقر أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش .

واستشعر الناس من مَسَرّة هذا اليوم وعزّة الإسلام فيه ما أفاضوا في التبجّح به والتحدث عنه أيّاماً ، وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حسان ، وإنشادات لأشعار محكمة مِتان ، يطول القول في اختيارها ، فمن ذلك قولُ عبد الملك بن سعيد المرادي من قصيدة حيث يقول[2] :

ملك الخليفة آيةُ الإقبالِ ... وسعودُه مَوْصولَة بتَوالي[3]
والمسلمون بعِزّةٍ وبِرِفعَة ... والمشركون بذِلّةٍ وسَفالِ
ألْقَتْ بأيديها الأعاجمُ نحوَهُ ... متوقّعين لصَوْلَة الرِّئْبالِ
هذا أميرُهُمُ أتاه آخذاً ... منه أواصِرَ ذِمّةٍ وحِبالِ
متواضِعاً لجلالِه متخشّعاً ... متبرّعاً لمّا يُرَعْ بقتالِ
سيَنال بالتأميل للملك الرّضى ... عِزّاً يعمُّ عِداه بالإذلالِ

١ ك : خاضعين .
٢ منها أربعة أبيات في البيان المغرب ١ : ٢٣٥ (ط . ليدن) .
٣ في الأصول : بتوال .

لا يوم أعظمَ للوُلاة مَسَرَّةً وأشدُّه غيظاً على الأقيالِ
من يوم أردونَ الذي إقبالُه أمَلُ المَدى ونهاية الإقبالِ
ملك الأعاجم كلّها ابنُ ملوكها والي الرُّعاة وللأعاجم والي
إن كان جاء ضرورةً فلقد أتى عَنْ عزّ مملكة وطَوْعِ رجالِ
فالحمدُ لله المُنيلِ إمامنا حظَّ الملوكِ بقَدْره المتعالي
هُوَ يومُ حَشْرِ الناس إلاّ أنّهم لم يُسْألُوا فيه عن الأعمالِ
أضْحى القَضاءُ مُقَعَّماً[1] بجيوشه والأفق أقتمَ أغبرَ السِّرْبالِ
لا يَهْتدي الساري لليلِ قتامِه إلا بضَوء صَوارم وعَوَالي
وكأن أجْسام الكُماة تسَرْبَلَتْ مذ عُرِّيَتْ عنه جسُوم صِلالِ
وكأنّما العِقْبانُ عِقْبانُ الفَلا مُنْقَضَّةٌ لتخطُّف الضُّلاّلِ
وكأنّ منتصبَ القَنا مُهْتَزَّةً أشْطانُ نازحة بعيدةِ جالِ[2]
وكأنما قُبُلُ التجافيفِ اكْتسَتْ ناراً توهجها[3] بلا إشْعالِ

* * *

[عود إلى سيرة الحكم]

وقال بعض المؤرخين في حق الحكم المستنصر عن فتاهُ تليد صاحب خزانته العلمية فيما حدّث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم : إن عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط ، انتهى ، وقد قدّمناه عن ابن خلدون[4]، ونقله ابن الأبار في التكملة[5] .

وقال بعض المؤرخين في حق الحكم : إنّه كان حسن السيرة ، مكرماً للقادمين

١ في نسخة : مغيماً .
٢ النازحة : البئر البعيدة الغور ؛ الجال والجول : صفحة البئر .
٣ ك : تؤججها .
٤ ص : ٣٨٥ فيما سبق .
٥ لم أجده في التكملة المطبوعة ، وهو في الحلة السيراء ١ : ٢٠٣ وانظر المقتطفات (الورقة : ٨٦).

عليه ، جمع من الكتب ما لا يُحدُّ ولا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى قيل : إنها كانت أربعمائة ألف مجلد ، وإنّهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها ، وكان عالماً نبيهاً صافي السريرة ، وسمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دُحيم ومحمد ابن عبد السلام الخُشَني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء . وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ودق نظره ، وجمّت استفادته ، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذيّاً نسيج وحْده ، وكان ثقة فيما ينقله ، بهذا وصفه ابن الأبار وبأضعافه ، وقال : عجباً لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكراه وقلّما يوجد كتاب من خزائنه إلاّ وله فيه قراءة أو نظر في أيّ فنّ كان ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن[1] .

ومما يُنسب إليه من النظم قوله[2] :

إلى الله أشكو من شمائلِ مُترف[3] ... عَلَيَّ ظَلُوم لا يَدينُ بما دِنْتُ
نأتْ عَنْه داري فاستزاد صُدُودَه ... وإنّي على وَجْدي القديم كما كُنْتُ
ولو كُنْتُ أدري أنَّ شَوْقيَ بالغٌ ... منَ الوجدِ ما بلغته لم أكُنْ بنْتُ

وقوله[4] :

عجبتُ وقد ودَّعتُها كيف لم أمُتْ ... وكَيْفَ انْثَنَتْ بعد الوَداعِ يدي معي
فيا مقلتي العبْرىٰ علَيْها اسكُبي دماً ... ويا كَبِدي الحَرّىٰ علَيها تقطّعي

---

١ بعض هذا النص موجود في الحلة السيراء .
٢ المغرب ١ : ١٨١ والمقتطفات (الورقة : ٨٦) .
٣ ك : مسرف .
٤ انظر الحلة السيراء ١ : ٢٠٣ والمغرب ١ : ١٨٢ .

وتوفّي – رحمه الله تعالى – بقصر قُرْطبة ثاني صفر سنة ست وستين وثلاثمائة ، لست عشرة سنة من خلافته ، وكان أصابه الفالج ، فلزم الفراش إلى أن هلك – رحمه الله تعالى – وكان قد شدد في إبطال الخمر في مملكته تشديداً عظيماً .

* * *

[خلافة هشام بن الحكم وتسلط المنصور بن أبي عامر]

وولي بعده ابنه هشامٌ صغيراً سنّه تسع سنين ، ولا ينافيه قولُ ابن خلدون : « قد ناهز الحلم » وكان الحكم قد استوزر له محمدَ بن أبي عامر ، ونقله من خطّة القضاء إلى وزارته ، وفوّض إليه أموره ، فاستقل .

قال ابن خلدون [1] : وترقّت حالُ ابن أبي عامر عند الحكم ، فلمّا توفّي الحكم وبويع هشام ولُقّب المؤيد بعد أن قُتل ليلتئذ المغيرة أخو الحكم المرشّح لأمره تناول الفتك به محمد بن أبي عامر هذا بممالأة من جعفر بن عثمان المصحفيّ حاجب أبيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ومن خصيان القصر يومئذ ورؤسائهم فائق وجؤذر ، فقتل ابن أبي عامر المغيرة بممالأة مَن ذُكر ، وتمت البيعة لهشام ، ثم سَما لابن أبي عامر أملٌ في التغلب على هشام لمكانه في السنّ ، وثاب له رأي في الاستبداد ، فمكر بأهل الدولة ، وضرب بين رجالها ، وقتل بعضاً ببعض ، وكان من رجال اليمنية من مَعافر ، دخل جدّهُ عبد الملك مع طارق ، وكان عظيماً في قومه ، وكان له في الفتح أثر ، وعظم ابنُ أبي عامر هذا ، وغلب على المؤيد ، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلاّ في النادر من الأيام يُسلّمون وينصرفون ، وأرْضَخَ للجند في العطاء ، وأعلى مراتب العلماء ، وقمعَ أهلَ البدع ، وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين ، ثمّ تجرّد لرؤساء الدولة ممّن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطّهم عن

---

1 ابن خلدون ٤ : ١٤٧ .

مراتبهم ، وقتل بعضاً ببعض ، كلُّ ذلك عن [أمرِ][1] هشام وخطّه وتوقيعه ، حتّى استأصلهم وفرّق جموعهم ، وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدّام بالقصر ، فحمل الحاجب المصحفيّ على نكبتهم ، فنكبهم وأخرجهم من القصر ، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون ، ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم ، وبالغ في خدمته والتنصّح له ، واستعان به على المصحفيّ فنكبه ومحا أثره من الدولة ، ثم استعان على غالب بجعفر بن عليّ بن حمدون صاحب المَسيلة وقائد الشيعة ممدوح ابن هانىء بالفائية المشهورة وغيرها[2] ، وهو النازعُ إلى الحكم أوّل الدولة بمن[3] كان معه من زَناتة والبربر ، ثم قتل جعفراً بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم ، ثمّ لمّا خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشّحين للرياسة رجع إلى الجند ، فاستدعى أهل العُدْوَة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنداً ، واصطنع أولياء ، وعرّف عُرَفاء من صِنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومِكْناسة وغيرهم ، فتغلّب على هشام وحَجَره ، واستولى على الدولة ، وملأ الدنيا وهو في جوف بيته ، من تعظيم الخلافة ، والخضوع لها ، وردّ الأمور إليها ، وترديد الغزو والجهاد ، وقدّم رجال البرابرة وزَناتة ، وأخّر رجالَ العرب وأسقطهم عن مراتبهم ، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر ، وبنى لنفسه مدينة لنزله سمّاها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ، وقعد على سرير الملك . وأمر أن يُحَيّا بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتبُ والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على

١ زيادة لازمة .
٢ يعني ابن هانىء الأندلسي شاعر العُبيديين ، ومطلع قصيدته الفائية : -
أليلتنا إذ أرسلت وارداً وحفا وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا
٣ في الأصول : وبمن .

المنابر وكَتْب اسمه في السكة والطرز ، وأغفل ديوانه ممّا سوى ذلك ؛ وجنّد البرابرة والمماليك ، واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة ، وقَهْر من تطاول إليها من العلية ، فظفر من ذلك بما أراد ، وردد الغزوَ بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا ستّاً وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية ، ولا فُلّ له جيش ، وما أصيب له بعث ، وما هلكت له سَرِيّة ، وأجاز عساكره إلى العُدْوة ، وضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض ، فاستوثق له ملك المغرب ، وأخبتت له ملوك زَناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا سلطانه ، وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزَر ، ولمّا سخط زيري بن عطية ملكَهم لمّا بلغه ما بلغه من إعلانه بالنَّيْل منه والغَضّ من منصبه والتأفّف لِحَجْر الخليفة هشام أوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين ، ونزل بفاس وملكها ، وعقد للملوك زَناتة على ممالك المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها ، وشرّد زيري بن عطية إلى تاهَرْتَ ، فأبعد المفرّ ، وهلك في مفرّه ذلك ، ثم قفل عبد الملك إلى قُرْطُبة ، واستعمل واضحاً على المغرب ، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً ، وأشدّ استيلاء ، سنة أربع وتسعين وثلاثمائة[1] ، بمدينة سالم مُنْصَرَفَه من بعض غزواته ، ودُفن هنالك ، وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه ، انتهى كلام ابن خلدون ، وبعضه بالمعنى وزيادة يسيرة .

ولا بأس أن نزيد عليه فنقول : ممّا حُكي أنّه مكتوب على قبر المنصور رحمه الله تعالى[2] :

آثاره تنبيك عن أخْبارِه ... حتّى كأنّك بالعيان تَرَاهُ
تالله لا يأتي الزمانُ بمثْله ... أبداً ، ولا يحمي الثغورَ سِوَاهُ

وعن شجاع مولى المستعين بن هود : لمّا توجّهْتُ إلى أذفونش وجدته في

---

١ الصواب : سنة ٣٩٢ .

٢ الحلة السيراء ١ : ٢٧٣ .

مدينة سالم ، وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره ، وامرأتُه متكئة إلى جانبه ، فقال لي : يا شجاع ، أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين ، وجلست على قبر ملكهم ؟ قال : فحملتني الغيرة أن قلت له : لو تنفّس صاحبُ هذا القبر وأنت عليه ما سَمِع منك ما يكره سماعه ، ولا استقر بك قرار ، فهمَّ بي ، فحالت امرأته بيني وبينه ، وقالت له : صدقك فيما قال ، أيفخر مثلك بمثل هذا ؟

وهذا تلخيص ترجمة المنصور من كلام ابن سعيد[1] ، قال رحمه الله :

ترجمة الملك الأعظم المنصور أبي عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ابن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، المَعافري ، من قرية تَرْكَبِش[2] ، وعبد الملك جدّه هو الوافد على الأندلس مع طارق في أوّل الداخلين من العرب ، وأمّا المنصور فقد ذكره ابنُ حيّان في كتابه المخصوص بالدولة العامرية ، والفتحُ في المطمح ، والحِجاري في المُسْهب ، والشَّقُنْدي في الطرف ، وذكر الجميع أن أصله من قرية تَرْكَش ، وأنّه رحل إلى قُرْطُبة ، وتأدب بها ، ثم اقتعد دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمَن يَعِنُّ له كتب من الخدم والمرافعين للسلطان ، إلى أن طلبت السيدة صُبْح أم المؤيد من يكتب عنها ، فعرَّفها به مَنْ كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر ، فترقّى إلى أن كتب عنها ، فاستحسنته ونبّهت عليه الحكم ورغبت في تشريفه بالخدمة ، فولاّه قضاء بعض المواضع ، فظهرت منه نَجابة ، فترقّى إلى الزكاة والمواريث بإشْبيليَة وتمكّن في قلب السيدة بما استمالها به من التُّحَف والخدمة ما لم يتمكّن لغيره ولم يقصر — مع ذلك — في خدمة المصحفيّ الحاجب ، إلى أن توفّي الحكم وولي ابنُه هشام المؤيد، وهو ابن اثنَي عشرة سنة ، فجاشتِ الرومُ ، فجهز المصحفيّ ابنَ أبي عامر لدِفاعهم ، فنصره الله عليهم ، وتمكّن حبّه من قلوب الناس .

. . .

١ راجع المغرب ١ : ٣٩٤ والنص عند المقري مختلف عما ورد في كتاب ابن سعيد ، ولم يقل المقري إنه ينقل عن المغرب ؛ وانظر المقتطفات (الورقة : ٨٦ — ٨٧) .

٢ كذا هنا ، وفي المغرب : « كرتش » وفي المعجب : طرش من أعمال الجزيرة الخضراء .

وكان جواداً عاقلاً ذكياً ، استعان بالمصحفيّ على الصقالبة ، ثم بغالب على المصحفيّ ، وكان غالب صاحب مدينة سالم — وتزوّج ابن أبي عامر ابنتَه أسماء ، وكان أعظم عُرْس بالأندلس — ثمّ بجعفر بن علي الأندلسي ممدوح ابن هانيء على غالب ، ثم بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التّجيبي على جعفر ، وله في الحَزْم والكَيْد والجَلَد ما أفرد له ابن حيّان تأليفاً ، وعَدَدُ غزواته المنشأة من قُرْطُبة نيّف وخمسون غزوة ، ولم تُهْزَم له راية ، وقبره بمدينة سالم في أقصى شرق الأندلس .

ومن شعره[1] :

رَمَيْتُ بنفسي هولَ كلّ عظيمة ... وخاطَرْتُ والحرُّ الكريم يخاطرُ
وما صاحبي إلا جَنانٌ مُشَيَّعٌ ... وأسْمَرُ خَطّيٌّ وأبْيضُ باترُ
فسُدْتُ بنفسي أهلَ كلّ سيادة ... وفاخَرْتُ حتى لم أجِدْ مَنْ أفاخرُ
وما شِدْتُ بنياناً ولكن زيادة ... على ما بَنَى عبدُ المليك وعامِرُ
رفَعْنا المعالي بالعَوالي حديثة[2] ... وأورثَنَاها في القديم مَعَافِرُ

وجوده مع صاعد البغدادي اللغوي مشهور .

وصدر عن بعض غَزَواته فكتب إليه عبدُ الملك بن شُهَيد[3] ، وكان قد تخلّف عنه :

أنا شَيْخٌ والشَّيْخُ يَهْوى الصِّبايا ... يا بنَفْسِي أقيكَ كلَّ الرَّزايا
ورسول الإلهِ أسْهَمَ في الفي ... ء لمَنْ لم يَخِبَّ فيهِ المَطايا

فبعث إليه بثلاث جَوَارٍ من أجمل السبي ، وكتب معهنّ ، وكانت واحدة أجملهنّ ، قوله :

---

١ الحلة ١ : ٢٧٤ وابن عذاري ٢ : ٤٠٩ .
٢ في الأصول : مثلها .
٣ الذخيرة ٤ : ١٨ والحلة ١ : ٢٧٦ .

قد بَعَثْنا بها كشَمْسِ النّهارِ   في ثلاثٍ من المَها أبْكارِ
وامْتَحَنّا بعذرة البكر إن كنـ   ـت تُرَجّي بوادِرَ الإعذارِ
فاجتهدْ وابتَدِرْ[1] فإنّك شيخ   قَدْ جَلا ليلَه بياضُ النهارِ[2]
صانَكَ الله من كلالك فيها   فمنَ العارِ كلة المِسْمارِ

فافتضهنّ من ليلته ، وكتب له بكْرة :

قد فَضَضْنا ختامَ ذاك السّوَارِ   واصْطَبَغْنا من النّجيعِ الجاري
وَصَبَرْنا على دِفاعٍ وحَرْبٍ   فلَعِبْنا بالدُّرّ أو بالدراري[3]
وَقَضَى الشيخُ ما قضى بحُسامٍ   ذي مَضاءٍ عَضْبِ الظُّبا بَتّارِ
فاصْطَنِعْه فليس يجزيك كُفْراً   واتخِذْهُ فَحْلاً على الكفّارِ

وقَدِم بعض التجّار[4] ومعه كيس فيه ياقوت نفيس ، فتجرّد ليسبح في النهر ، وترك الكيس ، وكان أحمر ، على ثيابه ، فرفعته حِدَأة في مخالبها ، فجرى تابعاً لها وقد ذُهِل ، فتغلغلت في البساتين ، وانقطعت عن عينه ، فرجع متحيّراً ، فشكا ذلك إلى بعض مَنْ يأنس به ، فقال له : صف حالك لابن أبي عامر ، فتلطّف في وصف ذلك بين يديه ، فقال : ننظر إن شاء الله تعالى في شأنك ، وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين ، ويسأل خُدّامها عمّن ظهر عليه تبديلُ حال ، فأخبروه أن شخصاً ينقل الزبل اشترى حماراً ، وظهر من حاله ما لم يكن قبل ذلك ، فأمر بمجيئه ، فلمّا وقعت عينه عليه قال له : أحضر الكيس الأحمر ، فتملك الرعبُ قلبه وارتعش ، وقال : دعني آتي به من منزلي ، فوكل به من حمله إلى منزله وجاء بالكيس ، وقد نقص منه ما لا يقدح في

١ الحلة : واتئد .
٢ الحلة : خفي الليل عن بياض النهار .
٣ اختلفت روايته في كل من الذخيرة والحلة .
٤ انظر القصة في ابن عذاري ٢ : ٤٣٥ مع اختلاف في التفصيلات .

مُسَتَرَّةً صاحبه ، فجبره ، ودفعه إلى صاحبه ، فقال : والله لأُحَدِّثَنَّ في مشارق الأرض ومغاربها أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور ويُنْصِف منها ، والتفت ابنُ أبي عامر إلى الزبال فقال له : لو أتيت به أغنيناك ، لكن تخرج كفافاً لا عقاباً ولا ثواباً .

وتوفّي رحمه الله في غزاته للإفرنج بصفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، وحُمل في سريره على أعناق الرجال ، وعسكرُه يحفّ به وبين يديه ، إلى أن وصل إلى مدينة سالم .

ودامت دولته ستاً وعشرين سنة ، غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف ، انتهى كلام ابن سعيد ، وفي بعضه مخالفة لبعض كلام ابن خلدون

* * *

[الحاجب المصحفي عن المطمح]

وقال الفتح في « المطمح » في حق المصحفيّ الحاجب جعفر بن عثمان المصحفيّ ، ما صورته [1] : تجرّد للعَلْيا ، وتمرّد في طلب الدنيا ، حتى بلغ المنى ، وتسوّغ ذلك الجَنَى ، ووصل إلى المُنْتَهى ، وحصل على ما اشتهى ، دون مجد تفرّع من دَوْحَته ، ولا فخر نشأ بين مَغْدَاه ورَوْحَته ، فسما دون سابقة ، ورمى إلى رُتْبَة لم تكن لنفسه [2] مُطابقة ، فبلغ بنفسه ، ونزع عن جنسه ، ولم يزل يستقل ويضطلع [3] ، وينتقل من مطلع إلى مطلع ، حتى التاح في أفق الخلافة ، وارتاح إليها بعِطْفه [4] كنَشْوان السُّلافة ، واستوزره المستنصر ؛ وعنه كان يسمع وبه يُبْصر ، وحَجَبَ الإمام ، وأسكب برأيه ذلك الغمام ، فأدرك لذلك

---

١ المطمح : ٤ — ٨ ونقل ابن عذاري بعض هذه الترجمة ٢ : ٣٧٩ وصدرها بقوله : قال ابن بسام .

٢ المطمح : لبنيته .

٣ ك : يستقل ويطلع .

٤ في الأصول : إليه معظمها .

ما أدرك ، ونصب لأمانيه الحبائلَ والشَّرَك ، فاقتنى اقتناء مدَّخِر ، وأزرى بمن سواه وسخر ، واستعطفه ابنُ أبي عامر ونجمُه غائر لم يَلُح ، وسرّه مكتوم لم يبح ، فما عطف ، ولا جَنَى من روضة دنياه ولا قَطَف ، وأقام في تدبير الأندلس ما أقام وبُرْهانُه مستقيم ، ومن الفتن عَقيم ، وهو يَجْري من السعد في مَيْدانٍ رَحْب ، ويَكْرَع من العزّ في مَشْرَب عذب ، ويَفُضُّ ختام السرور ، وينهض بمُلْكٍ على لَبّتِهِ مزرور ، وكان له أدبٌ بارع ، وخاطر إلى نظم القريض[1] مُسارع ، فمن محاسنه التي بعثها إيناس دهره وإسعاده ، وقاله حين ألهته سَلْماه وسُعاده ، قولُه :

لعَيْنَيك في قَلْبي عليّ عيونُ[2] وبَيْنَ ضُلوعي للشُّجون فُنونُ
نَصيبي من الدنيا هواك ، وإنّه غِذائي ، ولكنّي عليه ضَنينُ

وستأتي هذه الترجمة من المطمح الصغير إن شاء الله تعالى بما فيه بعض زيادة ونقصان في الباب الرابع .

* * *

[ترجمة ابن أبي عامر في المطمح]

وقال في المطمح في حقّ ابنَ أبي عامر[3] : إنّه تمرَّس ببلاد الشِّرك أعظم تمرُّس ، ومحا من طواغيتها كُلَّ تعَجْرُف وتَغَطْرُس ، وغادرهم صَرْعى البقاع ، وتركهم أذلّ من وَتدٍ بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع ، وسدَّد إلى أكبادهم سهام الفجائع ، وأغصّ بالحِمام أرواحهم ، ونغّص بتلك الآلام بكورهم ورَوَاحهم ، ومن أوضح الأمور هنالك ، وأفصح الأخبار في ذلك ، أنّ أحد رسله كان كثير الانتياب ، لذلك الجناب ، فسار في بعض مسيراته إلى غَرْسية

١ هذه رواية المطمح ، وفي المقري : البديع .
٢ في الأصول : شجون .
٣ قد ذكر المقري المطمح الصغير ؛ وهناك مطمح متوسط وآخر كبير ؛ وترجمة ابن أبي عامر هذه غير موجودة في المطمح الذي بين أيدينا ، وقد وردت في ابن عذاري ٢ : ٤٤٤ .

صاحب البُشْكَنْس فوالى في إكرامه ، وتناهى في برّه واحترامه ، فطالت مدّته فلا متنزّه إلا مرّ عليه متفرّجاً ، ولا منزل إلاّ سار عليه مُعَرّجاً ، فحلّ في ذلك ، أكثر الكنائس هنالك ، فبينا هو يَجُول في ساحتها ، ويُجِيل العَيْنَ في مساحتها ، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر ، قويمة على طول الكسر ، فكلمته، وعرّفته بنفسها وأعلمته ، وقالت له : أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بُوسَها ، ويتمتّع بلَبُوس العافية وقد نضت لَبُوسَها ، وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة ، وبكل ذل وصَغار ملبسة ، وناشدته الله في إنهاء قصتها ، وإبراء غُصّتها ، واستحلفته بأغلظ الأيمان ، وأخذت عليه في ذلك أوكد مواثيق الرحمن ، فلمّا وصل إلى المنصور عرّفه بما يجب تعريفه به وإعلامه ، وهو مُصْغٍ إليه حتى تم كلامه ، فلمّا فرغَ قال له المنصور : هل وقفتَ هناك على أمر أنكرته ، أم لم تقف على غير ما ذكرته ؟ فأعلمه بقصّة المرأة وما خرجت عنه إليه ، وبالمواثيق التي أخذت عليه ، فعتبَه ولامه ، على أن لم يبدأ بها كلامه ، ثم أخذ للجهاد من فَوْره ، وعرض مَنْ من الأجناد في نَجْده وغَوْره ، وأصبح غازياً على سَرْجه، مُباهياً مروان يوم مَرْجِه ، حتى وافى ابن شانجة في جمعه ، فأخذت مَهابته ببَصره وسَمْعه ، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجليّة ، ويحلف له بأعظم أليّة ، أنّه ما جَنى ذنباً ، ولا جفا عن مضجع الطاعة جَنْباً ، فعنف أرساله وقال لهم : كان قد عاقدني أن لا يَبْقى ببلاده مأسورةٌ ولا مأسور ، ولو حملته في حواصلها النُّسُور ، وقد بلغني بعدُ بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة ، ووالله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها ، فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها ، وأقسم أنّه ما أبصرهن ولا سمع بهنّ وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها ، قد بالغ في هدمها ، تحقيقاً لقَوْله ، وتضرع إليه في الأخذ فيه بطَوْله ، فاستحيا منه ، وصرف الجيش عنه ، وأوصل المرأة إلى نفسه ، وألحفَ توحّشها بأنسه ، وغَيّر من حالها ، وعاد بسواكب نُعْماه على جَدْبها وإمحالها ، وحملها إلى قومها ، وكحلها بما كان شردَ من نومها ، انتهى .

وقال في المطمح أيضاً في حقّه ما نصّه[1] : فرْد نابه على مَنْ تقدمه ، وصرّفَهُ واستخدمه ، فإنّه كان أمضاهم سِناناً ، وأذكاهم جَناناً ، وأتمهم جَلالاً ، وأعظمهم استقلالاً ، فآل أمره إلى ما آل ، وأوهَمَ العقول بذلك المآل ، فإنّه كان آية الله في اتفاق سَعْده ، وقربه من الملك بعد بُعْده ، بهر برفعة القَدْر ، واستظهر بالأناة وسعة الصَّدْر ، وتحرك فلاحَ نجمُ الهدوّ ، وتملّك فما خفَق بأرضه لواء عدوّ ، بعد خمول كابد منه غَصَصاً وشَرَقاً ، وتعذر مأمول طارد فيه سَهَراً وأرَقاً ، حتى أنجز له الموعود ، وفرَّ نحسُه أمام تلك السعود ، فقام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة ، وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوبَ بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن في كل طريق ، واستشعر اليُمنَ كلُّ فريق ، وملك الأندلسَ بضْعاً وعشرين حِجّة ، لم تُدحض لسعادتها حُجّة ، ولم تزخر لمكروه بها لجّة ، لبست فيه البَهاء والإشراق ، وتنفست عن مثل أنفاس العِراق ، وكانت أيامه أحمدَ أيام ، وسهام بأسه أسَدَّ سهام ، غزا الروم شاتياً وصائفاً ، ومضى فيما يروم زاجراً وعائفاً ، فما مرّ له غير سَنِيح ، ولا فاز إلا بالمعلّى لا بالمنيح ، فأوغل في تلك الشعاب ، وتغلغل حتى راع ليثَ الغاب ، ومشى تحت ألويته صِيدُ القبائل ، واستجرّت في ظلّها بِيضَ الظُّبا وسُمْر الذوابل ، وهو يقتضي الأرواح بغير سَوْم ، وينتضي الصفاح على كل رَوْم ، ويتلف من لا ينساق للخلافة وينقاد ، ويخطف منهم كلَّ كوكب وقّاد ، حتى استبد وانفرد ، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد ، وانتظمت له الأندلس بالعُدْوة ، واجتمعت في ملكه اجتماعَ قريش بدار النَّدْوَة ، ومع هذا لم يخلع اسمَ الحجابة ، ولم يَدَعِ السمعَ لخليفته والإجابة ، ظاهرٌ يخالفه الباطن ، واسم تنافره مواقع الحكم والمواطن ، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر ، وأخمل بهم أولئك الأعلام

[1] ابن عذاري ۲ : ٤٠٧ (۲۷۳ ط . ليدن) .

الأكابر ، فإنّه قاومَهُم بأضدادهم ، واستكثر من أعدادهم ، حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا عنهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوبَ المشهور ، الذي أعاد أكثر الأندلس قفراً يَبَاباً ، وملأها وَحْشاً وذئاباً ، وأعراها من الأمان ، بُرْهَةً من الزمان ، وعلى هذه الهيئة فهو وابنه المظفّر كانا آخر سعد الأندلس ، وحَدّ السرور بها والتأنّس ، وغَزَوَاته فيها شائعة الأثر ، رائعة كالسيف ذي الأثر ، وحَسَبه وافر ، ونسبه مَعافر ، ولذا قال يفتخر « رميت بنفسي ... الأبيات » وزاد هنا بعد قوله « أبيض باتر » بيتاً ، وهو :

وإنّي لزجّاء الجيوش إلى الوّغَى   أسودٌ تلاقيها أسودٌ خَوَادِرُ

وكانت أمّه تميمية ، فحاز الشرف بطرفيه ، والتحف بمِطْرَفَيْه ، ولذا قال القَسْطَلي فيه[1] :

تلاقَتْ عليه من تميم ويَعْرُب   شُمُوسٌ تلالا في العُلا وبُدُورُ
منَ الحِمْيَرِيّينَ الذين أكُفُّهم   سَحائبُ تَهْمي بالنّدَى وبحورُ

وتصرّف قبل ولايته في شتى الولايات ، وجاء من التحدّث بمنتهى أمره بآيات ، حتى صح زَجْره ، وجاء بصُبْحه فَجْره ، تؤثَر عنه في ذلك أخبار ، فيها عَجَب واعتبار ، وكان أديباً محسناً ، وعالماً متفنّناً ، فمن ذلك قولُه يمنّي نفسه بملك مصر والحجاز ، ويستدعي صدورَ تلك الأعجاز[2] :

مَنَع العينَ أن تذوق المناما   حُبُّها أن ترى الصّفا والمقاما
لي ديونٌ بالشرق عند أناسٍ   قد أحَلّوا بالمشْعَرَيْن الحَرَاما
إن قضَوْها نالوا الأماني ، وإلاّ   جَعَلوا دونها رقاباً وَهاما

١ القسطلي أبو عمر ابن دراج ؛ انظر ديوانه : ٣٠١ .
٢ الحلة ١ : ٢٧٥ ، والبيان المغرب ٢ : ٢٧٥ (ط. ليدن) .

عن قريب ترى خيولَ هشام ... يبلغ النِّيلَ خَطْوُها والشآما

انتهى ما نقلته من المطمح .

* * *

[أخبار في سيرة المنصور]

وفي المنصور المذكور أيضاً قال بعض مؤرخي المغرب [1] ، مازجاً كلامه ببعض كلام الفتح ، بعد ذكر استعانته ببعض الناس على بعض ، وذكر قتله لجعفر ابن عليّ ، فقال بعده ما صورته : ثم انفرد بنفسه وصار ينادي صُروفَ الدهر هل من مبارز ، فلمّا لم يجده حمل الدهر على حكمه ، فانقاد له وساعده ، فاستقام أمره منفرداً بمملكة لا سَلَف له فيها ، ومن أوضح الدلائل على سَعْده أنّه لم يُنْكب قطّ في حرب شهدها ، وما توجهت عليه هزيمة ، وما انصرف عن موطن إلاّ قاهراً غالباً ، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء وواجه من الأمم ، وإنّها لخاصّة ما أحسب أحداً من الملوك الإسلامية شاركه فيها ، ومن أعظم ما أُعين به مع قوّة سعده وتمكن جَدّه سَعَةُ جوده ، وكثرة بذله ، فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان ، وأوّل ما اتكأ على أرائك الملوك وارتفق ، وانتشر عليه لواء السعد وخَفَق ، حط صاحبه المصحفيّ ، وأثار له كامن حقده الخفيّ ، حتى أصاره للهُمُوم لبيساً ، وفي غيابات السجن حبيساً ، فكتب إليه يستعطفه بقوله [2] :

هَبْني أسأتُ فأيْنَ العَفْوُ والكَرَمُ ... إذ قادَني نَحْوَكَ الإذعانُ والنَّدَمُ
يا خيرَ مَنْ مُدَّتِ الأيدي إليه أما ... ترثي لشَيْخ رماهُ عندكَ القَلَمُ

---

١ البيان المغرب ٢ : ٤٢٧ وبعضه في أعمال الأعلام : ٧٧ .

٢ قال ابن الأبار (الحلة ١ : ٢٦٥) هذه الأبيات متنازعة ينسبها إلى المصحفي جماعة ، وقد وجدتها منسوبة إلى أبي عمر ابن دراج القسطلي ، وذكر أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق في تاريخه أنها لكاتب إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ؛ قلت انظر البيان المغرب ١ : ١٦١ واسم الكاتب هذا محمد بن حيون ويعرف بابن البريدي .

بالغَنْتَ في السُّخطِ فاصْفحْ صَفحَ مقتدرٍ   إن الملوكَ إذا ما استُرْحِمُوا رَحموا

فما زاده ذلك إلا حنقاً وحقداً ، وما أفادته الأبيات إلا تضرماً ووقْداً ، فراجعه بما أيأسه ، وأراه مَرْمَسَه ، وأطبق عليه محبسه ، وضيّق تروُّحه من المحنة وتنفُّسه :

الآن يا جاهلاً زلّتْ بكَ القَدَمُ   تبغي التكرُّمَ لمّا فاتَكَ الكَرَمُ
أغْرَيْتَ بي مَلِكاً لولا تثبّتُه   ما جاز لي عنْدَهُ نطقٌ ولا كلمُ
فايأسْ من العَيش إذ قد صِرْتَ في طبقٍ   إن الملوك إذا ما استنقموا نَقَمُوا
نَفْسِي إذا سَخِطَتْ ليْسَتْ براضيةٍ   ولو تَشَفّعَ فيكَ العُرْبُ والعَجَمُ

وكان من أخباره الداخلة في أبواب البر والقربة بنيانُ المسجد الجامع ، إلى أن قال[1] :

ومن ذلك بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الأعظم ، ابتدأ بناءها المنصورُ سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وسبعين ، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار ، فعظمت بها المنفعةُ ، وصارت صدراً في مناقبه الجليلة ، وكانت هنالك قطعة أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن للقنطرة عدولٌ عنها ، فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم ، فساوموه بالقطعة ، وعرّفوه وجه الحاجة إليها وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها ، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنّه أنّها لا تخرج[2] عنه بأقل من عشرة دنانير ذهباً كانت عنده أقصى الأمنية ، وشرطها صحاحاً ، فاغتنم الأمناء غفلته ، ونقدوه الثمن ، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ، فضحك من جَهالته ، وأنف من غبنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ،

---

١ البيان المغرب ٢ : ٤٣٠ ، والنقل مستمر حتّى بدء النقل عن كتاب « الأزهار المنثورة » .
٢ البيان : ألا تخرج .

وتُدفع له صحاحاً كما قال ، فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً ، فكاد أن يخرج من عقله ، وأن يُجَنّ عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلاً في شكر المنصور ، وصارت قصّته خبراً سائراً .

ومن ذلك أيضاً بناء قنطرة على نهر إسْتِجَة ، وهو نهر شِنّيل ، وتجشم لها أعظم مؤنة ، وسهل الطريق الوَعْرة والشعاب الصعبة .

ومن ذلك أيضاً أنّه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره يَدْرُس فيه ، ويتبرك به .

ومن قوّة رجائه أنّه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغُبار في غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدَمُ يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله ، حتّى اجتمع له منه صُرّة ضخمة ، عهد بتصييره في حَنُوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه ، توقّعاً لحلولِ مَنيّته ، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغَزْل بناته ، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفّاه في طريق الجهاد ، فكان كذلك .

وكان مُتّسِماً بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه ، وخوفه من ربّه ، وكثرة جهاده ، وإذا ذُكّر بالله ذكر ، وإذا خُوّف من عقابه ازدجر ، ولم يزل متنزهاً عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر ، لكنّه أقلع عنها قبل موته بسنتين[1] ، وكان عَدْله في الخاصة والعامة وبسط الحق على الأقرب فالأقرب من خاصّته وحاشيته أمراً مضروباً به المثل .

ومن عدله أنّه وقف عليه رجل من العامة بمجلسه ، فنادى : يا ناصر الحق ، إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك ، وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة ، وكان له فضلُ محلّ عنده ، ثمّ قال : وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت ، فقال له المنصور : أوَعبد الرحمن بن فطيس بهذا العجز والمهانة ، وكنّا

1 ق ط ج : بسنين .

نظنّه أمضى من ذلك ؟ اذكر مظلمتك يا هذا ، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير تَنصّفٍ ، فقال المنصور : ما أعظم بليّتنا بهذه الحاشية ، ثم نظر إلى الصَّقْلبي وقد ذُهِل عقله ، فقال له : ادفع الدرقة إلى فلان ، وانزل صاغراً ، وسَاوِ خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك ، ففعل ، ومثل بينَ يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به : خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقَدّمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سَجْنٍ أو غيره ، ففعل ذلك ، وعاد الرجل إليه شاكراً ، فقال له المنصور : قد انتصفت أنت ، اذهب لسبيلك ، وبقي انتصافي أنا ممّن تهاون بمنزلتي ، فتناول الصَّقْلبي بأنواع من المذلّة ، وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك[1] قصّة فتاهُ الكبير المعروف بالبورقي[2] مع التاجر المغربي ، فإنهما تنازعا في خصومة توجّهت فيها اليمين على الفتى المذكور ، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور ، وإليه أمر داره وحرمه ، فدافع الحاكم ، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه ، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلماً من الفتى ، فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم ، فأنصفه منه ، وسخط عليه المنصور ، وقبض نعمته منه ونفاه .

ومن ذلك[3] قصة محمد فَصَّادِ المنصور وخادمه وأمينه على نفسه ، فإن المنصور احتاجه يوماً إلى الفَصْد ، وكان كثير التعهد له ، فأنفذ رسوله إلى محمّد ، فألفاه الرسول محبوساً في سجن القاضي محمد بن زرب[4] لِحَيْف ظهر منه على امرأته قدر أن سبيله من الخدمة يَحْميه من العقوبة ، فلمّا عاد الرسول إلى المنصور بقصّته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغَ

١ البيان المغرب ٢ : ٤٣٣ .
٢ البيان : بالميورقي .
٣ المصدر نفسه ، وصدرها بقوله : ومن دهائه .
٤ محمد بن يبقى بن زرب (المرقبة العليا : ٧٧ – ٨٢) .

من عمله عنده ، ثم يرده إلى محبسه ، ففعل ذلك على ما رسمه ، وذهب الفاصدُ إلى شكوى ما ناله ، فقطع عليه المنصور ، وقال له : يا محمّد ، إنّه القاضيْ ، وهو في عَدْله ، ولو أخذني الحق ما أطقت الامتناع منه ، عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحق فهو الذي يطلقك ، فانكسر الحاجم ، وزالت عنه ريح العناية ، وبلغت قصته للقاضي ، فصالحه مع زوجته ، وزاد القاضي شدةً في أحكامه .

وقال ابن حيّان[1] : إنّه كان جالساً في بعض الليالي ، وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر ، فدعا بأحد الفُرْسان وقال له : انهض الآن إلى فج طليارش وأقم فيه فأول خاطر يخطر عليك سُقه إليّ ، قال : فنهض الفارس وبقي في الفج في البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه ، إذ وقف عليه قربَ الفجر شيخ هَرِم على حمار له ، ومعه آلة الحطب ، فقال له الفارس : إلى أين تريد يا شيخ ؟ فقال : وراء حطب ، فقال الفارس في نفسه : هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حَطَباً ، فما عسى أن يريد المنصور منه ؟ قال : فتركته ، فسار عني قليلاً ، ثم فكرت في قول المنصور ، وخفت سَطْوته ، فنهضت إلى الشيخ وقلت له : ارجع إلى مولانا المنصور ، فقال له : وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي ؟ سألتك بالله أن تتركني لطلب معيشتي ، فقال له الفارس : لا أفعل ، ثم قدم به على المنصور ، ومثله بين يديه وهو جالس لم يَنَمْ ليلته تلك ، فقال المنصور للصقالبة : فتّشوه ، ففتّشوه فلم يجدوا معه شيئاً ، فقال : فتّشوا برذعة حماره ، فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليُقْبلوا ويضربوا في إحدى النّواحي الموطومة[2] ، فلمّا انبلج الصبح أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة ، فضُربت أعناقهم ، وضُربت رقبة الشيخ معهم .

---

١ المصدر نفسه : ٤٣٤ .

٢ في ج : المرطومة ؛ والموطومة (قراءة ق ط ك) لعلها الأرض التي كثر فيها الوطم وهو نبات يشبه الاذخر ، وذلك تأويل بعيد ، وأقدر أن تكون مصحفة عن «الموصوفة» أي التي وصفت في الكتاب .

ثم ذكر هذا المؤرخ [1] قصة الجوهري التي قدمنا نقلها من مُغْرب ابن سعيد ، ولكنّا رأينا إعادتها بلفظ هذا المؤرخ ، لأنّه أتمّ مساقاً إذ قال عطفاً على دهائه : ومن ذلك قصّة الجوهري التاجر ، وذلك أن رجلاً جوهريّاً من تجّار المشرق قصد المنصور من مدينة عَدَن بجوهر كثير وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ، ودفع إلى التاجر الجوهريّ صُرّته ، وكانت قطعة يمانيّة ، فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شطّ النهر ، فلمّا توسّطها واليومُ قائظ وعَرَقه منصبٌّ دَعَته نفسه إلى التبرّد في النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصّرّة [2] على الشط ، فمرّتْ حِدَأة فاختطفت الصّرّة تحسبها لحماً ، وصاعدت في الأفق بها ذاهبة ، فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عينُ التاجر ، فقامت قيامته ، وعلم أنّه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة ، فأسرّ الحزن في نفسه ، ولحقه لأجل ذلك علّة اضطرب فيها ، وحضر الدفع إلى التجّار فحضر الرجل لذلك بنفسه ، فاستبان للمنصور ما بالرجل [3] من المهانة والكآبة ، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة ، فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصّته ، فقال له : هلاّ أتيت إلينا بحِدْثان وقوع الأمر فكنّا نستظهر على الحيلة ، فهل هُديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها ؟ قال : مَرّ مشرقاً على سَمْت هذا الجبل الذي يلي قصرك ، يعني الرملة ، فدعا المنصور شُرْطيّه الخاص به ، فقال له : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة ، فمضى وجاء بهم سريعاً ، فأمرهم بالبحث عمّن غيّرَ حالَ الإقلالِ منهم سريعاً ، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج ، فتناظروا في ذلك ثمّ قالوا : يا مولانا ما نعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ويتناولون السَّبْق بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليومَ دابة ، واكتسى هو وولده كسوة متوسّطة ، فأمر بإحضاره من الغد ، وأمر التاجر

---

[1] البيان المغرب ٢ : ٤٣٥ ؛ وانظر ص : ٤٠١ فيما سبق .

[2] بعض النسخ : وترك الصرة .

[3] بعض النسخ : ما نال الرجل .

بالغدوّ إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور ، فاستدناه والتاجر حاضر ، وقال له : سَبَبٌ ضاع منّا وسقط إليك ، ما فعلت به ؟ قال : هوذا يا مولاي ، وضرب بيده إلى حُجْزَة سَرَاويله فأخرج الصُّرة بعينها ، فصاح التاجر طَرَباً ، وكاد يطير فرحاً ، فقال له المنصور : صِف لي حديثها ، فقال : بَيْنا أنا أعمل في جناني تحت نخلة إذ سقطت أمامي ، فأخذتها وراقني منظرها ، فقلت : إن الطائر اختلسها من قَصْرك لقرب الجوار ، فاحترزت بها ، ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوناً كانت معها مصرورة ، وقلت : أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها ، فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر : خذ صُرّتك وانظرها واصدقني عن عددها ، ففعل وقال : وحقّ رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبتها له ، فقال المنصور : نحن أولى بذلك منك ولا نُنَغّص[1] عليك فرحك ، ولولا جَمْعه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه ، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره ، وللجنّان بعشرة دنانير ثواباً لتأنيه عن فساد ما وقع بيده ، وقال : لو بَدَأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء ، قال : فأخذ التاجر في الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه وقال : والله لأبثنّ في الأقطار عظيم ملكك ، ولأنبثنّ[2] أنك تملك طير أعمالك كما تملك إنسها ، فلا تعتصم منك ولا تمتنع ، ولا تؤذي جارك ، فضحك المنصور وقال : اقصد في قولك يغفر الله لك ، فعجب الناس من تلطّف المنصور في أمره وحيلته في تفريج كربته .

ثم حكى هذا المؤرخ[3] غزوة المنصور لمدينة شنت ياقُبَ قاصية غليسية ، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس ، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت

١ ق ط : ننقص .

٢ ق ط : ولأبينن .

٣ البيان المغرب ٢ : ٤٣٩ وهذه بداية ج ، فأما في ق ك فقد بدأ بقوله « ومن ذلك » وذلك خطأ لأن القصة ليست من قصص الدهاء التي مرت أمثلتها . وفي ط بياض .

كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، وللكعبة المثلُ الأعلى ، فبها يحلفون ، وإليها يحجّون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المَزُورَ فيها قبر ياقب الحواري أحد الاثني عشرْ ، وكان أخصّهم بعيسى ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهم يسمّونه أخاه للزومه إيّاه ، وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسْقُفاً ببيت المقدس فجعل يستقري الأرَضين داعياً لمن فيها حتّى انتهى إلى هذه القاصية ، ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رِمّته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره ، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها ولا الوصول إليها ، لصعوبة مدخلها ، وخشونة مكانها ، وبُعد شُقّتها ، فخرج المنصور إليها من قُرْطُبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بقينَ من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ، ودخل على مدينة قُورِية ، فلمّا وصل إلى مدينة غليسية وافاه عددٌ عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة في رجالهم ، وعلى أتم احتفالهم ، فصاروا في عسكر المسلمين ، وركبوا في المُغاوَرَةِ سبيلهم ، وكان المنصور تقدّم في إنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس[1] من ساحل غرب الأندلس ، وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين ، وحمل الأقوات والأطعمة والعُدَد والأسلحة استظهاراً على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دُويره[2] ، فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه ، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسراً بقرب الحصن الذي هنالك ، ووَجّه[3] المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند ، فتوسّعوا في التزود منه إلى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شنت ياقُبَ ، فقطع أرَضين متباعدة الأقطار .

---

١ قصر أبي دانس (Alcacer do Sal) مرسى الأسطول ، على ساحل البرتغال جنوبي الأشبونة (لشبونة) .

٢ نهر دويره (Duero = Duoro) يصب عند بورتو في المحيط الأطلسي .

٣ دوزي : ووزع ؛ لمطابقة المعنى نقلا عن البيان المغرب .

وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بَسائط جليلة من بلاد فرطارش[1] وما يتصل بها ، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوَعْر لا مسلك فيه ولا طريق ، لم يهتد الأدلاّء إلى سواه ، فقدَّم المنصور الفَعَلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه ، فقطعه العسكر ، وعبروا بعده وادي مِنْيُه[2] ، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرَضين أريضة ، وانتهت مغيرتهم إلى دير قسطان[3] وبسيط بلنبو[4] على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلاية[5] ، وغنموه ، وعبروا سِباحَةً إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي ، فسَبَوْا مَنْ فيها ممّن لجأ إليها ، وانتهى العسكر إلى جبل مُراسية[6] المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط ، فتخلّلوا أقطاره ، واستخرجوا مَنْ كان فيه ، وحازوا غنائمه ، ثمّ أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاّء إليهما ، ثمّ نهر أيلة[7] ، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة[8] ، ثمّ انتهوا إلى موضع من مشاهد صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل ، يقصد نُسّاكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما ، فغادره المسلمون قاعاً ، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها ، وهدموا مَصانعها وأسوارها وكنيستها ، وعَفّوْا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقُبَ من يحفظه ويدفع الأذى عنه ، وكانت مَصَانعها بديعة محكمة فغودرت هشيماً

١ البيان المغرب : فلطارش .
٢ منيه = منيو أو منهو (Minho = Rio Mino) .
٣ بعض النسخ : قسان .
٤ البيان المغرب : بلنبوط ، وفي نسخة : بيلنوا .
٥ شنت بلاية : (San Pelayo) .
٦ مراسية (Morrazo) .
٧ أيلة (Ulla) .
٨ زاد في البيان : منها بسيط أونبة وقرجيطة ودير شنت برية .

كأن لم تَغْنَ بالأمس ، وانتسفت بعوثُه بعد ذلك سائرَ البسائط ، وانتهت الجيوش إلى جزيرة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ، ولا وطئها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مَجال ، ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقُبَ وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله ، فجعل في طريقه القصد على عمل برمند بن أردون ليستقريه عائثاً ومفسداً ، حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره ، فأمر بالكف عنها ، ومرَّ مجتازاً حتى خرج إلى حصن بليقية[1] من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم ، وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح من بليقية ، وكان مبلغ ما كساه في غزَاته هذه لملوك الروم ولمن حَسُنَ غَناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمساً وثمانين شُقَّة من صنوف الخز الطّرازي ، وأحداً وعشرين كساء من صوف البحر ، وكساءين عنبريين ، وأحد عشر سقلاطوناً ، وخمس عشرة مريشاً ، وسبعة أنماط ديباج ، وثوبي ديباج رومي ، وفَرْوَيْ فَنَك ، ووافى جميع العسكر قرطبة غانماً ، وعظمت النعمة والمنّة على المسلمين ، ولم يجد المنصور بشنت ياقُبَ إلاّ شيخاً من الرهبان جالساً على القبر ، فسأله عن مقامه ، فقال : أونسُ يعقوبَ ، فأمر بالكف عنه .

قال[2] : وحدّث شعلة قال : قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهو أعلم بما يحرّكه عدم النوم من علّة العصب ، فقال : يا شعلة ، الملك لا ينام إذا نامت الرعيّة ، ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة ؛ انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور .

* * *

---

١ ابن عذاري : مليقه ، ولعلها لميقه = لاميجو (Lamego) .
٢ ليس هذا الخبر في البيان المغرب وإنما هو في أعمال الأعلام : ٧٦ .

[أخبار المنصور من كتاب الأزهار المنثورة]

وقد رأيت أن أذكر هنا أخباراً ، نقلتها من كتاب « الأزهار المنثورة ، في الأخبار المأثورة »[1] .

قال في الزهرة التاسعة والعشرين : تقدم إلى المنصور وانزمار بن أبي بكر البرزالي أحد جند المغاربة ، وقد جلس للعرض والتمييز ، والميدان غاصٌّ بالناس ، فقال له بكلام يُضحك الثكلى : يا مولاي ، ما لي ولك ، أسكنّي فإنّني في الفحص ، فقال : وما ذاك يا وانزمار ؟ وأين دارك الواسعة الأقطار ؟ فقال : أخرجتني عنها والله نعمتُكَ ، أعطيتني من الضياع ما انصبَّ عليَّ منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنها ، وأنا بربري مجوّع حديث عهد بالبؤس ، أتراني أبعد القمحَ عني؟ ليس ذلك من رأيي . فتطلّق المنصور وقال : لله درك من فدّ عَيِيّ ، لَعِيّك في شكر النعمة أبلغ عندنا ، وآخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد وبليغ متفنن ؛ وأقبل المنصور على مَنْ حوله من أهل الأندلس فقال : يا أصحابنا ، هكذا فلتُشكر الأيادي وتستدام النعم[2] ، لا ما أنتم عليه من الجَحْد اللازم ، والتشكي المبرّح ؛ وأمر له بأفضل المنازل الخالية .

وفي الموفية ثلاثين ما نصّه : أصبح المنصور صبيحةَ أحدٍ ، وكان يوم راحة الخَدَمة الذي أعفوا فيه من قصد الخدمة ، في مطر وابل غبٍّ أيام مثله ، فقال : هذا يوم لا عهد بمثله ، ولا حيلة للمواظبين لقصدنا في مكابدته ، فليت شعري هل شذ أحد منهم عن التقدير فأغرب في البكور ؟ اخرج وتأمل ، يقوله لحاجبه ، فخرج وعاد إليه ضاحكاً ، وقال : يا مولاي ، على الباب ثلاثة من البرابرة : أبو الناس ابن صالح واثنان معه ، وهم بحال من البلل إنّما توصف بالمشاهدة ، فقال : أوصلهم إلي وعجل ، فدخلوا عليه في حال الملاّح بللاً

١ لم أهتد إلى مؤلفه ، وأرجح أنه ابن سعيد ، وأنه «كتاب الزهرات» الذي ينقل عنه ابن هذيل في كتابه «عين الأدب والسياسة» وينسبه لابن سعيد .

٢ ق ج ط ودوزي : واستديموا النعم .

ونَدَاوة ، فضحك إليهم وأدنى مجلسهم ، وقال : خبروني كيف جئتم ؟ وعلى أيّ حال وصلتم ؟ وقد استكان كل ذي روح في كنّه ، ولاذ كلُّ طائرٍ بوكْره ، فقال له أبو الناس بكلامه : يا مولانا ، ليس كل التّجار قعد عن سوقه ، وإذا عُذر التجار على طلب الربح بالفلوس فنحن أعذر بإدراكها بالبِدَر ومن غير رؤوس الأموال ، وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذيلون في قصدها ثيابَهُم ، ونحن نأتيك على خيْلك ، ونذيلُ على صَهَواتها ملابسك ، ونجعل الفضلَ في قصدك مضموناً إذا جعله أولئك طمعاً ورجاء ، فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذا ؟ فضحك المنصور ودعا بالكُسا والصِّلات ، فدُفعت لهم ، وانصرفوا مسرورين بغلوتهم .

وفي الزهرة الرابعة والأربعين ما نصّه : كان بقُرْطُبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتى من أهل الأدب قد رَقّتْ حاله في الطلب ، فتعلّق بكتاب العمل ، واختلف إلى الخزانة مدة ، حتّى قُلّد بعض الأعمال ، فاستهلك كثيراً من المال ، فلمّا ضمَّ إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار ، فرفع خبره إلى المنصور ، فأمر بإحضاره ، فلمّا مثل بين يديه ولزم الإقرار بما برز عليه قال له : يا فاسق ، ما الذي جرّأك على مال السلطان تنتهبه ؟ فقال : قضاء غلب الرأي ، وفقر أفسد الأمانة ، فقال المنصور : والله لأجعلنّكَ نكالاً لغيرك ، ليُحْضَر كَبْل وحدّاد ، فأُحضرا ، فكبل الفتى وقال : احملوه إلى السجن ، وأمر الضابط بامتحانه والشدّة عليه ، فلمّا قام أنشأ يقول :

أوّاهُ أوّاهُ وكم ذا أرَى ... أكْثِرُ من تذكار[1] أوّاه
ما لامرىء حَوْلٌ ولا قوّةٌ ... الحَوْلُ والقوّةُ لله

فقال المنصور : ردوه ، فلمّا رُدَّ قال : أتمثلت أم قلت ؟ قال : بل قلت ، فقال : حُلّوا عنه كَبْله ، فلمّا حُلَّ عنه أنشأ يقول :

---

١ ك : تكرار .

أما تَرَى عَفْوَ أبي عامرٍ   لا بُدَّ أن تتبعه مِنّه
كذلك اللهُ إذا ما عَفا   عن عَبْده أدخله الجنّه

فأمر بإطلاقه ، وسوّغه ذلك المال ، وأبرأه من التبعة فيه .

وفي الخامسة والأربعين : عُرِض على المنصور بن أبي عامر اسمُ أحد خدَمه في جملة مَنْ طال سجنه ، وكان شديد الحقد عليه ، فوقّع على اسمه بأن لا سبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأمّه الهاوية ، وعُرّف الرجل بتوقيعه ، فاغتمّ[1] وأجهد نفسه في الدعاء والمناجاة ، فأرق المنصور إثر ذلك ، واستدعى النومَ فلم يقدر عليه ، وكان يأتيه عند تنويمه آتٍ كريهُ الشخص عنيف الأخذ يأمره بإطلاق الرجل ، ويتوعّده على حبسه ، فاستدفع شأنه مراراً إلى أن علم أنّه نذير من ربّه ، فانقاد لأمره ، ودعا بالدواة في مرقده فكتب بإطلاقه ، وقال في كتابه : هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبي عامر ، وتحدث الناس زماناً بما كان منه .

وفي الثامنة والأربعين[2] ما نصُّه : انتهت هَيْبة المنصور بن أبي عامر وضَبْطه للجند واستخدام ذكور الرجال وقُوّام الملك إلى غاية لم يَصِلها ملك قبله ، فكانت مواقفهم في الميدان على احتفاله مثلاً في الإطراق ، حتى إن الخيل لتتمثّل إطراق فرسانها فلا تُكثر الصهيل والحَمْحَمة ، ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سَلّه بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جدّ بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله ، فقال : عليَّ بشاهر السيف ، فمثل بين يديه لوقته ، فقال : ما حملك على أن شهرت سيفك في مكان لا يُشْهر فيه إلا عَنْ إذن ؟ فقال : إنّي أشرت به إلى صاحبي مُغْمَداً فزلق من غمده ، فقال : إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ، وأمر به فضُربت عنقه بسيفه ، وطيف برأسه ، ونودي عليه بذنبه ؛ انتهى .

١ ك : فاهتم واغتم .
٢ ك : وفي السادسة والأربعين .

وحكى غير واحد[1] أن المنصور كان به داء في رجله ، واحتاج إلى الكيّ فأمر الذي يكويه بذلك وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر وينهى ويفْرِي الفَرِيَّ في أموره ، ورجْلُه تُكوى والناس لا يشعرون ، حتى شمّوا رائحة الجلد واللحم ، فتعجّبوا من ذلك وهو غير مكترث .

وأخباره — رحمه الله تعالى — تحتمل مجلدات ، فلنمسك العنان ، على أنّا ذكرنا في الباب الرابع والسادس من هذا الكتاب جملة من أخباره ، رحمه الله تعالى ، فلتُراجَع إلى آخره .

* * *

[عود إلى النقل عن المطمح]

وقال الفتح في المطمح[2] : وكان ممّا أعين به المنصور على المُصْحَفيّ ميل الوزراء إليه ، وإيثارهم له عليه ، وسَعْيُهم في ترقيه ، وأخذهم بالعصبية فيه ، فإنّها وإن لم تكن حَمِيّة أعرابية ، فقد كانت سلفية سلطانية ، يقتفي القومُ فيها سبيلَ سلفهم ، ويمنعون بها ابتذال شرفهم ، غادروها سيرة ، وخلّفوها عادة أثيرة ، تشاحَّ الخلف فيها تشاحَّ أهل الديانة ، وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة ، ورأوا أن أحداً لا يلحق فيها غاية ، ولا يتعاقد لها راية[3] ، فلمّا اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه ، ووَضَعه من أثرته حيث وَضعه ، وهو نزيع بينهم ونابغ[4] فيهم ، حسدوه وذَمّوه ، وخصّوه بالمطالبة وعَمّوه ، وكان أسرعَ صنف الطائفة من أعالي الوزراء وأعاظم الدولة إلى مهاودة المنصور

١ ك : وفي السابعة والأربعين ؛ ق : وفيه ؛ وفي ط بياض .
٢ بياض في ط ؛ وفي ك : وفي الثامنة والأربعين ؛ وفي ج ق : قال في المطمح ؛ والنص في المطمح : ٧ وفي البيان المغرب ٢ : ٤٠٥ (٢ : ٢٧١ ط . ليدن) .
٣ ابن عذاري : لا يدرك . . . . ولا يلحق . ق : ولا يناقد ؛ ط : ولا يتاقد .
٤ دوزي : وتابع ؛ ج : ونابع .

عليه ، والانحراف عنه إليه ، آلُ أبي عبدة وآل شُهَيد وآل فُطَيس من الخلفاء وأصحاب الرّدافة[1] ، من أولي الشرف والإنافة[2] ، وكانوا في الوقت أزِمّة الملك وقُوّام الخدمة ، ومصابيح الأمّة ، وأغير الخلق على جاه وحُرْمة ، فأحْظَوْا محمد بن أبي عامر مشايعة ، ولبعض أسبابه الجامعة متابعة ، وشادوا بناءه ، وقادوا إلى عُنْصُره سَناءه ، حتى بلغ الأمَل ، والتحف بمناه واكتَحَل[3] ، وعند التئام هذه الأمور لابن أبي عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة ، وأيقن بالنكبة ، وزوال الحال وانتقال الرتبة ، وكفّ عن اعتراض محمد وشركته في التدبير ، وانقبض الناسُ من الرواح إليه والتبكير ، وانثالوا على ابن أبي عامر ، فخف موكبه ، وغار من سماء العز كوكبه ، وتوالى عليه سعي ابن أبي عامر وطلبه ، إلى أن صار يغدو إلى قُرْطُبة ويروح وليس بيده من الحجابة إلا اسمها ، وابن أبي عامر مشتمل على رَسْمها ، حتى محاه ، وهتك ظلّه[4] وأضحاه ، قال [محمّد][5] بن إسماعيل : رأيته يُساق إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلاً فأقبل يلهث ، وجَوَارحُه باللواعج تَضْطرم ، وواثقٌ الضّاغطُ ينهره ، والزّمَعُ يقهره ، والبهر والسّنُّ قد هاضاهُ[6] ، وقصّرا خُطاه ، فسمعته يقول : رفقاً بي فستُدْرِك ما تحبّه وتشتهيه ، وترى ما كنت تَرْتَجيه ، ويا ليت أن الموت يُباع فأُغْلِيَ[7] سَوْمَه ، حتى يَرِدَه من أطال عليه حَوْمَه ، ثم قال[8] :

لا تأمنَنَّ منَ الزمانِ تقلّباً إنَّ الزمانَ بأهله يتقلّبُ

....

١ ق ط ج : الردانة .
٢ ق ط ج : والأمانة .
٣ المطمح : والتحف يمينه بمناه واشتمل .
٤ المطمح : ظلاله .
٥ زيادة من المطمح .
٦ المطمح : والزمع والبهر قد هاضاه .
٧ دوزي : فأغلى الله .
٨ انظر أيضاً الحلة ١ : ٢٦٧ .

ولقدْ أراني والليوثُ تخافني فأخافَني من بعدِ ذاك الثعلَبُ
حَسْبُ الكريمِ مذلّةً ومَهانَةً أن لا يزال إلى لئيمٍ يطلبُ

فلمّا بلغ المجلس جلس في آخره دون أن يسلّم على أحد ، أو يومىء إليه بعين أو يد ، فلمّا أخذ مجلسه تسرّع إليه الوزير محمّد بن حَفْص بن جابر فعنفه واستجفاه[1] ، وأنكر عليه تركَ السلام وجفاه ، وجعفر مُعْرِض عنه ، إلى أن كَثُر القول منه ، فقال له : يا هذا ، جهلتَ المبرّة فاستجهلت معلّمها[2] ، وكفرت النّعم[3] فقصدت بالأذى ولم ترهب مقدّمها ، ولو أتيتُ نُكْرا ، لكان غيرك أدرى ، وقد وقعتَ في أمر ما أظنّك تخلص منه ، ولا يَسَعُك السكوت عنه ، ونسيت الأيادي الجميلة ، والمبرات الجليلة ، فلمّا سمع محمّد بن حفص ذلك من قوله قال : هذا البهت بعينه ، وأيّ أياديك الغُرّ التي مننتَ بها ، وعيّنْتَ أداء واجبها ؟ أيدُ كذا أم يد كذا ؟ وعدّد أشياء أنكرها منه أيام إمارته ، وتصرف الدهر طوع إشارته ، فقال جعفر : هذا ما لا يُعرف ، والحق الذي لا يُردُّ ولا يُصرفُ ، دَفعي[4] القطع عن يمناك ، وتبليغي لك إلى مُناك ، فأصَرَّ محمّد بن حَفْص على الجحد ، فقال جعفر : أنشدُ الله من لَهُ علم بما أذكره ، إلا اعترف به فلا ينكره ، وأنا أحوج إلى السكوت ، ولا تحجب دعوتي فيه عن الملكوت ، فقال الوزير أحمد بن عباس[5] : قد كان بعضُ ما ذكرته يا أبا الحسن ، وغيرُ هذا أولى بك . وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك ، فقال : أحرجني الرجل فتكلمت ، وأحوجني إلى ما به أعلمت ، فأقبل الوزيرُ ابن جَهْور على محمد بن حَفْص وقال : أسأت إلى الحاجب ، وأوجبت عليه غيرَ

١ ق ط ج . واستحفاه .
٢ المطمح والبيان : عالمها .
٣ المطمح : وكفرت اليد .
٤ ق ط ج : رفعي .
٥ البيان المغرب : أحمد بن عياش .

الواجب ، أوَما علمت أن منكوب السلطان لا يسلّم على أوليائه لأنّه إن فعل ألزمهم الرد لقوله تعالى ﴿ وإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بأحْسَنَ مِنْها أوْ رُدُّوها ﴾ (النساء : ٨٦) فإن فعلوا لطافَ بهم من إنكار السلطان ما يخشى ويخاف ، لأنّه تأنيس لمن أوحش وتأمين لمن أخاف ، وإن تركوا الرد أسخطوا الله ، فصار الإمساك أحسن ، ومثل هذا لا يخفى على أبي الحسن ؛ فانكسر ابن حفص ، وخجل ممّا أتى به من النقص .

وبلغه أن قوماً توجّعوا له ، وتفجّعوا ممّا وصله ، فكتب إليهم :

أحِنُّ إلى أنْفَاسِكُمْ فَأظنّها ... بواعِثَ أنفاسِ الحياةِ إلى نَفْسِي
وإنّ زماناً صرتُ فيه مُقَيَّداً[1] ... لأثقَلُ من رَضْوَى وأضيَقُ من رمسِ

انتهى ما ترجم به المنصور بن أبي عامر .

* * *

[عبد الملك المظفر الحاجب]

ولنرجع[2] فنقول : ولمّا توفّي المنصور قام بالأمر بعده ابنُه عبد الملك المظفّر أبو مروان فجرى على سَنَن أبيه في السياسة والغزو ، وكانت أيّامه أعياداً دامت مدّة سبع سنين وكانت تسمىَ بالسابع ، تشبيهاً بسابع العروس ، ولم يزل مثل اسمه مظفّراً إلى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في المحرّم ، وقيل : سنة ثمان وتسعين .

وكاتبه المعز بن زيري ملك مَغْرَاوة بعد أن استرجع فاساً والمغرب إثر موت أبيه ، فكتب له العهد على المغرب ، وثارت الطوائف في ممالكهم ، وتحركت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم .

* * *

١ نسخة : مفنداً .
٢ انتهى . . . ولنرجع : سقط من بعض النسخ ؛ وفي ق : انتهى كلام ابن أبي عامر فنقول . وسقطت لفظة « كلام » من ط ج .

[عبد الرحمن شنجول]

قال ابن خلدون[1] : ثمّ قام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وقيل : بالمأمون ، وجرى على سَنَن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام ، والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه ، ثمّ ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة ، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده ، فأجابه ، وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد ، فكان يوماً مشهوداً ، فكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن بُرْد بما نصّه[2] : « هذا ما عهد به هشامٌ المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامّة ، وعاهد اللهَ عليه من نفسه خاصّة ، وأعطى به صَفْقة يمينه بيعةً تامّة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمّه ما جعل الله إليه من الإمامة ، وعَصَب به من أمر المؤمنين ، واتقى حلولَ القدر بما لا يؤمَن ، وخاف نزولَ القضاء بما لا يُصْرف ، وخشي إن هجم محتومُ ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمّة عَلماً تأوي إليه ، وملجأً تنعطف عليه ، أن يكون يلقى ربّه تبارك وتعالى مُفَرّطاً ساهياً عن أداء الحق إليها ، وتقصّى عند ذلك من احياء قريش وغيرها مَنْ يستحق أن يسند هذا الأمر إليه ، ويعوّل في القيام به عليه ، ممّن يستوجبه بدينه وأمانته ، وهَدْيه وصيانته ، بعد اطّراح الهوى ، والتحرّي للحق ، والتزلف[3] إلى الله جل جلاله بما يرضيه ، وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، فلم يجد أحداً أجدَرَ أن يوليه عهده ، ويفوّض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه وكرم خيمه

---

1 تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٨ ؛ وسقطت عبارة « قال ابن خلدون » من ط ج ؛ وفي ج : ولما هلك المظفر قام . . . الخ .

2 انظر هذا العهد أيضاً في أعمال الأعلام : ٩١ والبيان المغرب ٣ : ٤٤ ، وابن برد كاتب العهد هو أحمد بن برد أبو حفص الوزير المعروف بابن برد الأكبر تمييزاً له عن حفيده ابن برد الأصغر ، وكان الجد رئيساً مقدماً في الدولة العامرية توفي سنة ٤١٨ (جذوة المقتبس : ١١١) .

3 ك : والزلفى .

وشرف مرتبته وعلوّ منصبه ، مع تُقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، أبي المطرّف[1] عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد ابن أبي عامر ، وفّقه الله ؛ إذ كان أمير المؤمنين – أيّده الله تعالى – قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ، فرآه مُسارعاً في الخيرات ، سابقاً في الحَلَبات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثُرات ، ومَنْ كان المنصور أباه ، والمظفَّر أخاه ، فلا غَرْوَ أن يبلغ من سُبُل البر مَدَاه ، ويحوي من خلال الخير ما حَوَاه ؛ مع أن أمير المؤمنين – أيّده الله – بما طالع من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، يرى أن يكون وليّ عهده القَحْطاني الذي حدّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : لا تقوم الساعةُ حتى يخرج رجل من قَحْطان يسوق الناس بعصاه . فلمّا استوى له الاختيار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مَذْهَباً ، ولا إلى غيره مَعْدِلاً ، خرج إليه من تدبير الأمور في حياته ، وفوّض إليه الخلافةَ بعد وفاته ، طائعاً راضياً مجتهداً ، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه ، وأنجزه وأنفذه ، ولم يشرط فيه مَثْنَوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء به في سرّه وجهره وقوله وفعله عهدَ الله وميثاقه ، وذمةَ نبيه محمّد صلى الله عليه وسلّم ، وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه ، وذمة نفسه ، أن لا يبدّل ولا يغير ولا يحول ولا يزول[2] ، وأشْهَدَ الله على ذلك والملائكة ، وكفى بالله شهيداً ، وأشهد [من أوقع اسمه في هذا][3] وهو جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المطرّف عبد الرحمن بن المنصور وفّقه الله تعالى ، وقبوله ما قلّده ، وإلزامه نفسَه ما ألزمه ، وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم ، وتسمّى

.. . .

١ في الأصول : أبي المظفر .
٢ أعمال الأعلام : ولا يتأول .
٣ ساقطة من أصول النفح ، مثبتة في أعمال الأعلام .

بعدها بولي العهد[1] .

ونقم عليه أهلُ الدولة ذلك[2] ، فكان فيه حتْفه ، وانقراض دولته ودولة قومه ، وكان أسرع الناس كراهةً لذلك الأمويين والقرشيين . فغصّوا بأمره ، وأسِفوا من تحويل الأمر جملة من المضرية إلى اليمَنية ، فاجتمعوا لشأنهم ، وتمشّت من بعض إلى بعض رجالاتهم ، وأجمعوا أمرهم في غِيبة من المذكور ببلاد الجلالقة في غزَاة من صوَائفه ، ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقُرْطُبة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، وخلعوا هشاماً المؤيد .

* * *

[بيعة المهديّ بالله]

وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء ، ولقّبوه المهدي بالله ، وطار الخبر إلى عبد الرحمن الحاجب ابن المنصور بمكانه من الثّغْر ، فانفضّ جمعُه ، وقَفَل إلى الحضرة مُدِلاً بمكانه ، زعيماً بنفسه ، حتى إذا قرب من الحضرة تسلّل عنه الناس من الجند ووجوه البربر ، ولحقوا بقرطبة ، وبايعوا المهدي القائم بالأمر ، وأغْرَوْه بعبد الرحمن الحاجب ، لكونه ماجناً مستهتراً غير صالح للأمر ، فاعترضه منهم مَنْ قبض عليه ، واحتزّ رأسه ، وحمله إلى المهدي وإلى الجماعة . وذهبت دولة العامريين كأن لم تكن ، ولله عاقبة الأمور .

وفي المهدي يقول بعضهم :

قَدْ قام مَهْدِيُّنا ولكنْ بمِلّةِ الفسق والمُجُونِ

. . . .

[1] في أعمال الأعلام والبيان المغرب : وهذا الكتاب نسختان ، أول الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد ابن عبد الله بن ذكوان ويليه من الوزراء خاصة أسماء تسعة وعشرين رجلا ، يليه أسماء مائة وثمانين رجلا من أصحاب الشرطة وسائر أهل الخدمة .

[2] لا يزال النقل في هذه الفقرة والتي تليها مستمراً عن ابن خلدون .

وشارَكَ الناسَ في حريمٍ   لولاه ما زال بالمصُونِ
مَنْ كان من قبلِ ذا أجمّاً   فاليَوْمَ قد صار ذا قُرُونِ

* * *

[خبر الفتنة البربريّة] [1]

وكان رؤساء البربر [2] وزناتة لحقوا بالمهديّ لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن وانتقاض أمره ، وكانت الأموية تعتدّ عليهم ما كان من مُظاهرتهم العامريين ، وتنسب تغلّب المنصور وبنيه [3] على الدولة إليهم ، فسخطتهم القلوب ، وخزرتهم العيون ، ولولا ما لهم من العَصَبية لاستأصلهم الناس ، ولغطت [4] ألسنة الدهماء من أهل المدينة بكراهتهم ، وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلّحوا ، وردّ بعض رؤسائهم في بعض الأيّام من باب القصر ، فانتهبت العامة دُورَهم ، وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم ، فاعتذر [إليهم] [5] وقتل من اتّهم من العامة في أمرهم ، وهو مع ذلك مُظهر لبغضهم ، مُجاهر بسوء الثناء عليهم ، وبلغهم أنّه يريد الفَتْك بهم ، فتمشّت رجالاتهم ، وأسَرُّوا نجواهم ، واشتَوَرُوا في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، وفشا في الخاصّة حديثُهم ، فعوجلوا عن مرامهم ذلك ، وأغرى بهم السواد الأعظم ، فثاروا بهم ، وأزعجوهم عن المدينة ، وتقبض على هشام وأخيه أبي بكر ، وأُحضرا بين يدي المهدي ، فضرب أعناقهما .

* * *

١ تفصيل الخبر عن هذه الفتنة عند ابن عذاري ٣ : ٥٠ – ١١٩ وفي أعمال الأعلام : ١٠٤–١٢٨ والذخيرة ١ / ١ : ٢٤ – ٤٠ .
٢ انظر تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٥٠ .
٣ ك : وغيره .
٤ ط : ولغظت .
٥ إليهم : سقطت من ق ط ج ك .

[بيعة سليمان المستعين]

ولحق سليمانُ ابن أخيهما الحكم بجنود البربر ، وقد اجتمعوا بظاهر قُرْطُبة وتوامروا ، فبايعوه ولقّبوه المستعين بالله ، ونهضوا به إلى ثغر طُلَيْطلة ، فاستجاش بابن أذفونش ، ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة ، وبرز إليه المهدي في كافة أهل البلد وخاصة الدولة ، فكانت الدائرة عليهم ، واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفاً ، وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسَدَنتها ومؤذنيها عالَم ، ودخل المستعينُ قرطبة ختام المائة الرابعة . ولحق المهدي بطليطلة . واستجاش[1] بابن أذفونش ثانية ، فنهض معه إلى قرطبة ، وهزم المستعينَ والبرابرة بعَقَبة البقر[2] من ظاهر قُرطُبة ، ودخل قرطبة — أعني المهدي — وملكها ، وخرج المستعينُ مع البربر ، وتفرّقوا في البسائط يَنْهبون ولا يُبْقُون على أحد ، ثمّ ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدي ومعه ابن أذفونش لاتّباعهم ، فكرّوا عليهم ، فانهزم المهدي وابن أذفونش ومن معه من المسلمين والنصارى ، واتبعهم المستعين إلى قرطبة ، فأخرج المهدي هشاماً المؤيد للناس ، وبايع له ، وقام بأمر حجابته ، ظنّاً منه أن ذلك ينفعه ، وهيهات ، وحاصرهم المستعينُ والبربر ، فخشي أهل قرطبة من اقتحامهم عليهم ، فأغروا أهلَ القصر وحاشيةَ المؤيد بالمهديّ وأن الفتنة إنّما جاءت من قبله ، وتولى كِبْرَ ذلك واضحٌ العامري ، فقتلوا المهدي ، واجتمع الكافّة على المؤيد ، وقام واضحٌ بحجابته ، واستمر الحصار ، ولم يغن عن أهل قُرطُبة ما فعلوه شيئاً ، إلى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة ، وعُدمت المرافق ، وجَهَدهم الحصار ، وبعث المستعين إلى أهل [ابن] أذفونش يستقدمهم[3] لمظاهرته ، فبعث إليهم هشام وحاجبه واضح يكفّونهم عن ذلك ، بأن ينزلوا لهم عن ثغور قَشْتالة التي كان المنصور

١ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٥١ .

٢ عقبة البقر (El-Vacar) على عشرين كيلومتراً شمالي قرطبة .

٣ ق : يستمدهم ؛ ج : يستمدهم .

افتتحها [1] ، فسكن عن مظاهرتهم عزمُ أذفونش ، ولم يزل الأمر حتى دخل المستعينُ قرطبة ومن معه من البربر عَنْوة سنة ثلاث وأربعمائة ، وقُتل هشام سرّاً ، ولحق بيوتات قرطبة مَعَرّة في نسائهم وأبنائهم .

وظن المستعينُ [2] أنْ قد استحكم أمره ، وتوثبت [3] البرابرة والعبيد على الأعمال ، فولوا المدنَ العظيمة ، وتقلّدوا البلاد [4] الواسعة ، مثل باديس بن حبّوس في غَرْناطة ، والبرزالي في قَرْمُونة ، واليفرني في رُنْدَة ، وخزرون [5] في شَرِيش ، وافترق شَمْل الجماعة بالأندلس ، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة ، مثل ابن عبّاد بإشْبِيليَة ، وابن الأفطس ببَطَلْيَوس ، وابن ذي النون بطُلَيْطلة ، وابن أبي عامر ببَلَنْسِيَة ، وابن هود بسَرَقُسْطة ، ومجاهد العامري بدانيَة والجزائر . . . . [6] وكان مائلاً لبني حَمّود يهجو سليمان المستعين :

لا رحِمَ الله سُلَيْمانكم . فإنّه ضدّ سُلَيْمانِ
ذاكَ به غُلّتْ شياطينُها وحَلَّ هذا كلَّ شَيْطانِ
فباسمهِ ساحَتْ على أرضِنا لهلك سكان وأوْطانِ

وكان من أعظم الأسباب في فساد دولة المستعين أنّه قال هذه الأبيات مستريحاً بها إلى خواصّه ، وهي قوله :

حلفتُ بمن صَلّى وصام وكبّرا لأغمدها فيمن طغى وتجبّرا [7]
وأبصر دين الله تحيا رسومه فبَدّل ما قد لاح منها [8] وغَيّرا

١ ابن خلدون : اقتحمها .
٢ لا يزال النقل عن ابن خلدون مستمراً .
٣ ق : وترتبت .
٤ بعض النسخ : الأعمال .
٥ ق ج ط ك : وهرزون .
٦ بياض في ط ، وفي ك : قال ابن خلدون . وفي ق : وقال الشاعر .
٧ ق : وتكبرا .
٨ ك : كان منه .

فَوَاعجبا من عَبْشَمِيٍّ مملَّكٍ برَغْمِ العَوالي والمعالي تَبَرْبَرَا
فلو أن أمْري بالخيارِ نبذتُهُمْ وحاكمتُهُمْ للسَّيْف حُكماً محرَّرَا
فإمّا حياة تُستلذّ بفَقْدِهِمْ وإمّا حِمَامٌ لا نَرى فيه ما زرى

وقد سلك هذا المسلك المرتضى المرواني فقال :

قَدْ بَلَغَ البربرُ فينا بِنا ما أفسدَ الأحوالَ والنّظما
كالسّهم للطائر لولا الذي فيه مِنَ الرّيشِ لما أصْمى
قُومُوا بنا في شأنهم قَوْمَةً تُزيلُ عنّا العارَ والرَّغْما
إمَّا بها نَمْلكُ، أولا نَرى ما يَرْجِعُ الطَّرْفُ به أعمى

وكان عليٌّ بن حَمّود الحَسَني وأخوه قاسم من عقب إدريس مَلِك فاس وبانيها قد أجازوا مع البربر من العُدْوة إلى الأندلس ، فدَعَوْا لأنْفسهم ، واعصوصب عليهم البربر ، فملكوا قُرْطُبة سنة سبع وأربعمائة ، وقتلوا المستعين ، ومَحَوْا ملك بني أمية ، واتصل ذلك في خَلَفٍ منهم سبع سنين ، ثم رجع الملكُ إلى بني أمية .

وكان المستعين المذكور أديباً بليغاً ، ومن شعره يعارض هرون الرشيد في قوله[1] :

ملك الثلاثُ الآنسات عناني

الأبيات — قولُه :

عجبَاً يهابُ الليثُ حدَّ سِناني وأهابُ سحر[2] فواتِرِ الأجْفانِ
وأُقارِعُ الأهوالَ لا مُتَهَيِّباً منها سوى الإعراض والهِجْرانِ
وتملّكت نفسي ثلاثٌ كالدُّمى زُهْرُ الوجوهِ نواعِمُ الأبدانِ

١ الذخيرة ١ / ١ : ٣٣ والبيان المغرب ٣ : ١١٨ والحلة ٢ : ٨ — ٩ والجذوة : ٢٠ — ٢١ .
٢ ك : لحظ .

ككواكب الظَّلماء لُحنَ لناظري … مِنْ فوقِ أغصانٍ على كُثْبانِ
حاكَيْتُ فيهن السلوَّ إلى الرضى[1] … فقضى بسُلْطانٍ على سلطاني
هذي الهلالُ ، وتلك بنتُ المُشْتَري … حُسْناً ، وهذي أختُ غُصْنِ البانِ
فأبحْنَ من قلبي الحمى وتركنني … في عزّ ملكي كالأسير العاني
لا تعذلوا ملكاً تذلّل في الهوى … ذُلُّ الهوى عِزٌّ وملك ثاني
ما ضَرَّ أنّي عَبْدُهنَّ صبابة … وبنو الزمان وهُنَّ من عبْداني
إنْ لم أُطِع فيهنَّ سلطانَ الهوى … كَلَفاً بهنَّ فلسْتُ من مَرْوانِ

* * *

[بنو حمّود][2]

وولي الأمر بعده علي[3] بنُ حَمّود الحَسني ، تلقّبَ بالناصر ، وخرج عليه العبيدُ وبعض المغاربة ، وبايعوا المرتضى أخا المهدي ، ثم اغتيل المرتضى ، واستقام الملك لعلي بن حَمّود نحو عامين ، إلى أن قتلته صقالبته بالحمّام سنة ثمان وأربعمائة ، فولي مكانه أخوه القاسم ، وتلقّب بالمأمون ، ونازعه الأمرَ بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابنُ أخيه ، وكان على سَبْتة ، فأجاز إلى الأندلس سنة عشر ، واحتل بمالَقَة وكان أخوه إدريس بها منذ عهد أبيهما ، فبعثه إلى سَبْتة ، ثم زحف يحيى إلى قُرْطُبة فملكها سنة ثنتي عشرة وأربعمائة ، وتلقب المعتلي ، وفرَّ عَمّه المأمون إلى إشبيلية وبايع له القاضي ابن عبّاد ، واستجاش بعض البرابرة ، ثم رجع إلى قُرْطُبة سنة ثلاث عشرة وملكها ، ثم لحق المعتلي بمكانه من مالَقَة ، وتغلّب على الجزيرة الخضراء وتغلّب أخوه إدريس على طَنْجة من وراء البحر ، وكان المأمون يعتدُّها حصناً لنفسه ، وفيها ذخائره ،

١ ك : الهوى ؛ دوزي : الصبا .
٢ انظر جذوة المقتبس ٢١ – ٢٤ في الحموديين .
٣ وولي . . . علي : موضعها بياض في ط ؛ وفي ج : ولما ملك علي . . . الخ . وفي ق : ثم إن ابن حمود . . . الخ .

فلمّا بلغه الخبر اضطرب ، وثار عليه أهل قرطبة ، ونقَضُوا طاعته ، وخرج فحاصرهم فدافعوه ، ولحق بإشبيليـَة فمنعوه ، وكان بها ابنه فأخرجوه إليه ، وضبطوا بلدهم ، واستبدّ ابنُ عباد بملكها ، ولحق المأمون بشَريش ، ورجع عنه البربر إلى يحيى المعتلي ابن اخيه ، فبايعوه سنة خمس عشرة ، وزحف إلى عمّه المأمون فتغلّب عليه ولم يزل عنده أسيراً وعند أخيه إدريس بمالَقَة إلى أن هلك بمحبسه سنة سبع وعشرين ، وقيل : إنّه خُنق كما سيأتي ، واستقل المعتلي بالأمر ، واعتقل ابني[1] عمّه القاسم .

وكان المستكفي من الأمويين استولى على قُرْطُبَة في هذه المدّة عندما أخرج أهلها العلوية ، ثم خلع أهل قرطبة المستكفي الأموي سنة ست عشرة ، وصاروا إلى طاعة المعتلي ، واستعمل عليهم ابن عَطّاف من قِبَله ، ثمّ نقضوا سنة سبع عشرة ، وصرفوا عاملهم ، وبايعوا للمعتدّ الأموي أخي المرتضى ، وبقي المعتلي يردّد لحصارهم العساكر إلى أن اتفقت الكلمة على إسلام الحصون والمدائن له ، فعلا سلطانه ، واشتدّ أمره إلى أن هلك سنة تسع وعشرين ، اغتاله أصحابه بدَسيسة ابن عَبّاد الثائر بإشبيلية ، فاستدعى أصحابه أخاه إدريس ابن علي [بن حمود] من سَبْتة وملّكوه ، ولقبوه المتأيّد ، وبايعته رُنْدة وأعمالها والمَرِيّة والجزيرة الخضراء ، وبعث عساكرَه لحرب أبي القاسم إسماعيل ابن عبّاد والد المعتضد بن عباد ، فجاءوه برأسه بعد حروب ، وهلك ليومين بعد ذلك سنة إحدى وثلاثين ، وبويع ابنهُ يحيى ، ولم يتم له أمر ، وبويع حسن المستنصر بن المعتلي ، وفر يحيى إلى قمارش[2] فهلك بها سنة أربع وثلاثين ، ويقال: إنّه قتله نجا ، وهلك حسن مسموماً بيد ابنة عمّه إدريس ، ثأرت منه بأخيها ، وكان إدريس بن يحيى المعتلي معتقلاً بمالَقَة فأخرج بعد خطوب وبويع بها ، فأطاعته غَرْناطة وقَرْمونة ، ولقّب العالي ، وهو الممدوح بالقصيدة

[1] في الأصول : بني .
[2] قمارش (Comares) .

المشهورة بالمغرب التي قالها فيه أبو زيد عبدُ الرحمن بن مقّانا القَبْذاقي[1] الأشبوني من شعراء الذخيرة ، وهي :

ألِبَرْقٍ لائحٍ من أندرينْ ... ذَرَفَتْ عيناك بالماء[2] المَعِينْ
لعبتْ أسيافُــه عــاريَةً ... كمَخاريقَ بأيدي اللاّعبين
ولِصَوْت الرَّعْد زَجْرٌ وحنين ... ولِقَلْبي زَفَرَاتٌ وأنين
وأناجي في الدُّجَى عاذِلَتي ... وَيْكِ لا أسْمَعُ[3] قولَ العاذلين
عَيَّرَتْني بِسَقام وضَنًى ... إنَّ هذَيْن لَدينُ العاشقين
قد بَدا لي وَضَحُ الصبحِ المُبِينْ ... فاسْقِنيها قَبْلَ تكبير الأذِينْ
إسْقِنيها مُزَّةً مَشْمولةً ... لَبِثَتْ في دَنّها بِضْعَ سنين
نَشَرَ المزجُ على مَفْرِقها ... دُرَراً عامَتْ فعادت كالبُرِينْ
مع فِتْيان كرام نُجُبٍ ... يتَهادَوْنَ رياحينَ المجُونْ[4]
شربوا الراح على خَدّ رَشاً ... نَوَّرَ الوردُ بِهِ والياسمين
وجَلَتْ آياتُهُ[5] عامِدَةً ... سَبَجَ الشَّعْرِ على عاج الجبين
لَوَتِ الصُّدْغَ على حاجِبِهِ ... ضمةَ اللاّمِ على عَطْفَةِ نونْ
فترى غصناً على دِعْصٍ نَقاً ... وترى لَيْلاً على صُبْحٍ مبين
وسَيُسْقَوْنَ إذا ما شَرِبُوا ... بأباريقَ وكأسٍ من مَعِينْ

١ تصحفت هذه اللفظة في النسخ فهي الفنداني في ق ط ك ؛ والقنداقي في ج ؛ والغيداني ؛ والقبذاقي ؛ والقيذاني ؛ وقد أثبتها محقق المغرب « القبذاقي » (١ : ٤١٣) فالحرف الأخير منها قاف على التأكيد إذ يوافق سجع ابن سعيد « كتاب حديقة الأحداق في حلى قرية القبذاق » ؛ وهي من قرى أشبونة ويقول ابن بسام إن القبذاق (؟) من ساحل شنترة ، وقصيدة ابن مقانا ورد قسم منها في المغرب ؛ وفي الذخيرة (القسم الثاني ، الورقة : ٣٠٣) .

٢ ق ج : بالدمع .

٣ الذخيرة : لا أقبل .

٤ بعد هذا البيت في الذخيرة :

وعليهم زاجر من حلمهم ... ولديهم قاصرات الطرف عين

٥ اقرأ : رجلت داياته ، وهي رواية المغرب .

ومَصابيحُ الدُّجى قد طُفئت | في بقايا من سَوَاد الليل جُون
وكأنَّ الظلَّ مِسْكٌ في الثَّرَى | وكأنَّ الطَّلَّ دُرٌّ في الغُصُون
والنَّدَى يَقْطُرُ من نَرْجِسِه | كدُمُوعٍ أسبلتهنَّ الجُفُون
والثريّا قد هَوَتْ من [1] أفقها | كقَضيبٍ زاهرٍ من ياسمين
وانْبرَى جنحُ الدُّجى عن صُبحه | كغُرَابٍ طار عن بَيْضٍ كنين
وكأنَّ الشَّمْسَ لمّا أشْرَقَتْ | فانثنت عنها عُيون الناظِرِين
وَجْهُ إدريس بن يَحيى بن علي | بن حَمّودٍ أمير المؤمِنين
مَلِكٌ ذو هَيْبة لَكِنَّهُ | خاشعٌ لله رَبِّ العالمين
خُطَّ بالمسْكِ على أبْوَابه : | ادْخُلُوهــا بسلام آمنين [2]
فإذا ما رُفِعَتْ راياتُهُ | خفقَتْ بين جَناحَيْ جَبْرَئين
وإذا أشكَلَ خطبٌ مُعْضِلٌ | صَدَعَ الشكَّ بمِصْباحِ اليقين
فبيُسْرَاه يَسارُ المعسرين | وبيُمْناهُ لِواء السَّابقين [3]
يا بني أحْمَدَ يا خَيْرَ الوَرَى | لأبيكم كان وفدُ المسلمين
نزلَ الوحيُ عَلَيه فاحتَبي | في الدُّجى فوقهم الرُّوحُ الأمين
خُلقوا من ماء عَدْلٍ وتُقًى | وجَميعُ الناس من ماءٍ وطين
انْظُرُونا نَقْتَبِسْ من نوركم | إنّه من نور ربِّ العالمين

وقيل : إنّه أنشده إيّاها من وراء حجاب اقتفاءً لطريقة خلفاء بني العباس ، فلمّا بلغ إلى قوله :

انْظُرُونا نَقْتَبِسْ من نوركم | إنّه من نور ربِّ العالمين

أمر حاجبه أن يرفع الحجاب ، وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب ،

---

١ الذخيرة : قد علت في

٢ بعده في الذخيرة :

وينادي الجود في آفاقه | يمموا قصر أمير المؤمنين

٣ صدر البيت سقط من ج ط

وأمر له بإحسان جزيل [1] ، فكان هذا من أنبل ما يُحكى عنه .

وخُلع العالي سنةَ ثمانٍ وثلاثين ، وولي ابنُ عمّه محمّد بن إدريس بن علي ، وتلقّب بالمهدي ، وتوفّي سنة أربع وأربعين .

وبويع إدريس بن يحيى بن إدريس ، ولقّب الموفق ، ولم يخطب له بالخلافة وزحف إليه العالي إدريس المخلوع الممدوح بالقصيدة السابقة ، وكان بقُمارش ، فدخل عليه مالَقَةَ ، وأطلق أيدي عبيده عليها لحقده عليهم ، ففرّ كثير منهم ، وتوفّي العالي سنة ست أو سبع وأربعين .

وبويع محمّد بن إدريس ، ولقّب المستعلي ، ثم سار إليه باديسُ بن حبّوس سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، فتغلّب على مالَقَة ، وسار محمّد إلى المَرِيّة مخلوعاً ، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مَليلة [فأجاز إليهم] [2] وبايعوه سنة ست وخمسين ، وتوفّي سنة ستين .

وكان محمد بن القاسم بن حمّود لما اعتُقل أبوه القاسم بمالَقَة سنة أربع عشرة فَرَّ من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها ، وتلقّب بالمعتصم ، إلى أن هلك سنة أربعين ، ثم ملكها بعده ابنُه القاسم الواثق ، إلى أن هلك سنة خمسين ، وصارت الجزيرة للمعتضد بن عبّاد ، ومالَقَةُ لابن حبّوس مزاحِماً لابن عبّاد .

وانقرضت دولة الأشراف الحمّوديين من الأندلس ، بعد أن كانوا يدّعون الخلافة .

* * *

[خلافة المستظهر] [3]

وأمّا قرطبة فإن أهلها لمّا قطعوا دعوة الحمّوديين بعد سبع سنين من ملكهم

١ في نسخة : بمال جزيل .
٢ زيادة من ابن خلدون وفي ق ط ج : إلى مليلة وجازت .
٣ انظر الحلة السيراء ٢ : ١٢ .

وزحف إليهم القاسم بن حمّود في البربر ، فهزمهم أهل قُرْطُبة ، ثم اجتمعوا واتفقوا على ردّ الأمر لبني أميّة ، واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي ، وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة ، ولقّبوه المستظهر وقاموا بأمره ، ومن شعره قوله[1] :

طال عُمْرُ الليلِ عندي مذ[2] تولّعْتَ بصَدّي
يا غزالاً نقض العهـ ـدَ ولم يُوفِ بوَعْدِ
أنَسيتَ العهدَ إذ بتـ ـنا عَلى مَفْرشِ وَرْدِ
واجتمعْنا في وِشاحٍ وانتظَمْنا نظمَ عِقْدِ
ونجومُ الليل تحكي ذَهَبـــاً في لازَوَرْدِ

قال الحِجاري : لو قال « لؤلؤاً في لازوردِ » لكان أحسن تشبيهاً ، وأنشد متمثّلاً :

إنّا عِصابتك الأُلى كنّا نُكابد ما تُكابِدْ
هذا أوانُ بُلُوغنا[3] الـ ـنُّعْمى وإنجازِ المواعِدْ

وكان حسّان بن أبي عبدة[4] من وزراء المستظهر ، ولمّا أكثر المستظهر دونه الاستبداد كتب إليه بقوله[5] :

إذا غِبتُ لم أحضَرْ ، وإن جئتُ لم أسلْ فسيّان مني مَشْهَدٌ ومَغيبُ

١ الحلة ٢ : ١٦ .
٢ ك . : قد .
٣ ج ط ق : بلوغ أواننا .
٤ حسان بن مالك بن أبي عبدة الوزير من الأئمة في الأدب واللغة ، ألف للمنصور كتاباً في الأسمار ووزر للمستظهر ، وتوفي قبل سنة ٤٢٠ (الجذوة : ١٨٣ والبغية رقم : ٦٦٢ والمطمح ٢٦) .
٥ البيتان في المصادر السابقة .

فأصْبَحْتُ تيميّاً ، وما كنتُ قبلها   لِتَيْمٍ ، ولكنَّ الشبيهَ نَسيبُ

يشير إلى قول الأول :

ويُقْضى الأمْرُ حين تغيب تَيْمٌ   ولا يُسْتَأذنُونَ وهُمْ شُهُودُ

وعاتبه أيضاً بقوله :

إذا كان مِثْلي لا يُجازى[1] بصَبْره   فمَنْ ذا الذي بَعْدي يجازى على الصَّبرِ
وكم مَشْهَدٍ حارَبْتُ فيه عَدُوّكم   وأمَّلْتُ في حَرْبي له راحةَ الدَّهْرِ
أخوضُ إلى أعْدائكم لُجَجَ الوَغى   وأسْري إليهم حيثُ لا أحدٌ يَسْري
وقَدْ نام عنهم كلُّ مُسْتَبْطن الحشا   أكول إلى المُمْسَى نؤوم إلى الظُّهْرِ
فما بالُ هذا الأمْرِ أصْبَحَ ضائعاً   وأنْتَ أمينُ الله تحكم في الأمْرِ

وسيأتي إن شاء الله تعالى من كلام الوزير المذكور ما يدلّ على عظيم قدره ، وهناك نذكر تحلية الفتح له .

* * *

[بيعة المستكفي والمعتد]

ثمَّ ثار عليه لشهرين من خلافته محمدُ بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، فاتّبعه الغَوْغاء ، وفتك بالمستظهر ، وتلقّب بالمستكفي ، واستقلّ بأمر قُرْطُبة ، وهو والد الأديبة الشهيرة ولاّدة ، ولعلّنا نُلمُّ ببعض أخبارها إن شاء الله تعالى فيما بعد ، وكان أبوهُ عبد الرحمن قتله المنصور بن أبي عامر لسعيه في الخلاف[2] .

ثم بعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الأمر إلى المعتلي يحيى بن عليّ بن حَمّود سنة ست عشرة ، وخلع أهلُ قرطبة المستكفي ، وولى عليهم

١ ق : يجار ؛ ط ج : يجاز .
٢ ك : الخلافة .

المعتلي من قبله ، وفرَّ المستكفي إلى ناحية الثغر ، ومات في مَفَرّه ، ثم بدا لأهل قُرْطُبة فخلعوا المعتلي بن حَمّود سنة سبع عشرة ، وبايع الوزير أبو محمد جَهْوَر ابن محمد بن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخي المرتضى ، وكان بالثغر في لارِدّةَ عند ابن هُود ، وذلك سنة ثماني عشرة ، وتلقّب المعتدّ بالله ، وأقام متردّداً في الثغر ثلاثة أعوام ، واشتدّت الفتن بين رؤساء الطوائف ، واتّفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقُرْطُبة ، فاستقدمه ابن جَهْور والجماعة ، ونزلها آخِرَ سنة عشرين ، وأقام بها يسيراً ، ثم خلعه الجند سنة ثنتين وعشرين ، وفرَّ إلى لارِدّةَ فهلك بها سنة ثمان وعشرين .

* * *

[انقضاء الأموية وظهور ملوك الطوائف]

وانقطعت الدولة الأمويّة من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائفُ بعد انقراض الخلائف ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات ، واقتسموا خُطّتها ، وتغلّب بَعْضٌ على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجِزَى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع إليهم البحرَ ملكُ العُدْوة وصاحبُ مرّاكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللّمْتُوني ، فخلعهم وأخلى منهم الأرض .

* * *

[ملوك الطوائف]

[١ – بنو عباد وبنو جهور]

فمن أشهرهم بنو عَبّاد ملوك إشبيلية وغرب الأندلس الذين منهم المعتمد ابن عبّاد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق ، وفي الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كافٍ شافٍ .

ومنهم بنو جَهْوَر ، كانوا بقُرْطُبة في صورة الوزارة ، حتى استولى عليهم المعتمد بن عبّاد ، وأخذ قرطبة ، وجعل عليها ولده ، ثم كانت له وعليه حروب وخطوب ، وفرق أبناءه على قواعد الملك ، وأنزلهم بها ، واستفحل أمره بغرب الأندلس ، وعلَتْ يدُه على من كان هنالك من ملوك الطوائف ، مثل ابن حبّوس[1] بغَرْناطة ، وابن الأفطس ببَطَلْيَوس ، وابن صُمادح بالمريّة ، وغيرهم ، فكانوا يخطبون سِلْمه ، ويغلون[2] في مرضاته ، وكلهم يُدارون الطاغية ويتّقونه بالجِزَى ، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين ، واستفحل ملكه ، فتعلّقت آمال الأندلس بإعانته ، وضايقهم الطاغية في طلب الجزْية ، فقتل المعتمدُ اليهوديَّ الذي جاء في طلب الجزية للطاغية ، بسبب كلمة آسَفَه بها ، ثم أجاز البحر صريخاً إلى يوسف بن تاشفين ، فأجاز معه البحر ، والتقوا مع الطاغية في الزلاّقة ، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى ، ونصر الله تعالى الإسلام نصراً لا كفاء له ، حتى قال بعض المؤرخين : إنّه كان عدد النصارى ثلاثمائة ألف ، ولم ينج منهم إلاّ القليل ، وصبر فيها المعتمدُ صَبْرَ الكرام ، وكان قد أعطى يوسفَ بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكن من الجواز متى شاء ، ثم طلب الفقهاء بالأندلس من يوسف بن تاشفين رفْعَ المكوس والظلامات عنهم ، فتقدّم بذلك إلى ملوك الطوائف ، فأجابوه بالامتثال ، حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم ، وهو خلالَ ذلك يُرَدّد عساكره للجهاد ، ثمّ أجاز إليهم وخلع جميعهم ، ونازلت عساكره جميعَ بلادهم ، واستولى على قُرْطُبة وإشبيلية وبَطَلْيَوْس وغَرْناطة وغيرها ، وصار المعتمدُ بن عبّاد كبيرُ ملوك الأندلس في قبضته أسيراً بعد حروب ، ونقله إلى أغْماتَ قرب مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، واعتقله هنالك إلى أن مات سنة ثمان وثمانين ، وسنلمّ بما قاله الوزير لسان الدين بن الخطيب فيه حين زار قبره .

١ في الأصول : ابن باديس .

٢ ويغلون : سقطت من ق ؛ وفي ج ط : ويعلون .

وللمعتمد هذا أخبار مأثورة خصوصاً مع زوجته أمّ أولاده الرميكية الملقّبة باعتماد ، وقد روي أنّها رأت ذات يوم بإشْبِيلِيَة نساء البادية يَبِعْنَ اللبنَ في القِرَب وهنّ رافعات عن سوقهنّ في الطين ، فقالت له : أشتهي أن أفعل أنا وجواريّ مثل هؤلاء النساء ، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد ، وصُيّر الجميعُ طيناً في القصر ، وجعل لها قِرَباً وحبالاً من إبريسم ، وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين ، فيقال : إنّه لمّا خُلع وكانت تتكلّم معه مرّة فجرى بينهما ما يجري بين الزوجين ، فقالت له : والله ما رأيت منك[1] خيراً ، فقال لها : ولا يوم الطين ؟ تذكيراً لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، فاستحيت وسكتت .

ومن أعظم ملوك الطوائف[2] غير من تقدّم بنو رَزِين أصحابُ السَّهْلة ، وبنو الفهري أصحاب البونت ، وتغلّب عليهما أخيراً يوسف بن تاشفين .

[٢ – بنو ذي النون بطليطلة]

ومن أعظم ملوك الطوائف بنو ذي النون ملوك طُلَيْطُلة من الثغر الجَوْفي ، وكانت لهم دولة كبيرة ، وبلغوا في البذخ والترّف إلى الغاية ، ولهم الإعذار المشهور الذي يقال له « الإعذار الذُّنُّوني » وبه يُضرب المثل عند أهل المغرب ، وهو عندهم بمثابة عُرْس بورَان عند أهل المشرق ، والمأمون من بني ذي النون هو صاحب ذلك ، وهو الذي عظم بين ملوك الطوائف سُلْطانُه ، وكان بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة ، وغلب على قُرْطُبة ، وملكها من يد ابن عبّاد المعتمد ، وقتل ابنه أبا عمرو ، وغلب أيضاً على بَلَنْسيَةَ وأخذها من يد بني ابن أبي عامر .

. . . .

١ منك : سقطت من ق ط ج .

٢ ك : وولي بعده غير من تقدم ، وسقط ما يقابله من ط ؛ وفي ج : ومن ملوك . . . الخ ؛ وسقطت « غير من تقدم » من ك .

وفي أيّام حافد المأمون — وهو القادر بن ذي النون — كان الطاغية ابن أذفونش قد استفحل أمره ، لمّا خلا الجوّ من مكان الدولة الخلافية ، وخفّ ما كان على كاهله من إصر العرب ، فاكتسح البسائط ، وضايق ابن ذي النون ، حتى أخذ من يده طُلَيْطلة ، فخرج له عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما سبق ، وشرط عليه أن يظاهره على أهل بَلَنْسِية ، فقبل شرطه ، وتسلّمها [ابن] الفونش ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم .

ومن أعظم ملوك الأندلس الموالي العامريون [1] مثل خيران وزهير وأشباههما . وأخبار الجميع تطول .

* * *

[بنو هود بسرقسطة]

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هُود ملوكُ سَرَقُسْطَة وما إليها ، ومن أشهرهم المقتدر بالله ، وابنه يوسف المؤتمن ، وكان المؤتمن قائماً على العلوم [2] الرياضية ، وله فيها تآليف ، ومنها كتاب الاستكمال [3] والمناظر ؛ وولي بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طُلَيْطلة ، وعلى يده كانت وقعة وَشْقَةَ — زَحَفَ سنة تسع وثمانين في آلاف لا تُحْصَى من المسلمين ليدافع الطاغية عن وَشْقة ، وكان محاصِراً لها ، فلقيه الطاغية وهزمه ، وهلك من المسلمين نحو عشرة آلاف ، وهلك هو شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة ، بظاهر سَرَقُسْطة في زحف الطاغية إليها ، وولي ابنُه عبد الملك عماد الدولة ، وأخرجه الطاغية من سَرَقُسْطة سنة ثنتي عشرة ، وتولى ابنه سَيْف الدولة ، وبالغ في النكاية بالطاغية ، ثمّ اتفق معه ، وانتقل بحَشَمه إلى طُلَيْطلة ، فكان فيها حِمامه .

ومن شعر المقتدر بن هود قولُه رحمه الله في مبانيه :

....

[1] ك : ثم زحف على الموالي العامريين ؛ مع اتصال النص بما قبله .

[2] ق ك : الأمور ؛ والتصويب عن ابن خلدون .

[3] ابن خلدون : الاستهلال .

قَصْرَ السرور ومجلسَ الذَّهَبِ   بكما بَلَغْتُ نهايةَ الأربِ
لو لَمْ يَحُز ملكي خلافكما   كانَتْ لديَّ كفايةُ الطلبِ

* * *

[بنو الأفطس ببطليوس]

ومن مشاهير ملوك الطوائف[1] بنو الأفطس أصحاب بَطَلْيوس وما إليها ، والمظفّر منهم هو صاحب التأليف المسمّى بالمظفّري في نحو الخمسين مجلّداً ، والمتوكّل منهم قُتل على يد جيش يوسف بن تاشفين ، وفيه قال ابن عَبْدُون قصيدته المشهورة :

الدهرُ يَفْجَعُ بعد العَيْن بالأثرِ   فما البكاء على الأشباح والصُّوَرِ

وهي من غرر القصائد[2] .

* * *

[اللمتونيون ثم الموحدون]

فلمّا استولى[3] لَمْتُونة على بلاد الأندلس[4] وأزالوا ملوك الطوائف منها ، وبقيت عمّالهم تتردّد إليها وبنوهم حتى فَشِلَتْ ريحهم ، وهبّت ريح الموحدين ، أعني عبد المؤمن بن عليّ وبنيه ، فحاربوا لَمْتُونَةَ ، واستولوا على ملكهم بالمغرب بعد حروب كثيرة ، ثمّ أجازوا البحر إلى الأندلس ، وملكوا أكثر بلاد الأندلس ، وملك بنو مردنيش شرق الأندلس ، وملخص ذلك أن الأندلس كان ملكها مجموعاً للمتُونَةَ بعد خلعهم ملوك الطوائف ، فلمّا اشتغل لَمْتُونَةُ في العُدْوة بحرب الموحّدين اضطربت عليهم الأندلس ،

. . . .

١ سقطت كلمة « الطوائف » من ط ج ق ك .
٢ ك : القصائد الأندلسية .
٣ ج : أخذ . . . الأندلس .
٤ فلما استولى . . . الأندلس : سقطت هذه الجملة من ك .

وعادت إلى الفرقة بعضَ الشيء ، ثم خلص أكثرها لعبد المؤمن وبنيه بعد حروب منها ما حصل بين عبد المؤمن وبين ابن مَرْدَنيش وقائده ابن همشك[1] بفَحْص غَرْناطة ، وقد استعان ابنُ مردنيش بالنصارى على الموحّدين ، فهزمهم عبدُ المؤمن ، وقتلهم أبْرَحَ قَتْل ، واستخلص غَرْناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة من يد ابن مَرْدَنيش .

* * *

[غزوة الأرك]

وولي الأمر بعد عبد المؤمن ابنُه يوسف ، وأجاز إلى الأندلس ، وكانت له مواقف في جهاد العدوّ ، وولي بعده ابنُه يعقوب المنصور الطائر الصيت ، وكانت له في النصارى بالأندلس نكاية كبيرة ، ومن أعظمها غزوة الأرك التي تُضاهي وقعة الزلاّقة أو تزيد ، والأرك : موضع بنواحي بَطَلْيوسَ ، وكانت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ، وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره ، وكان عدّة مَنْ قُتل من الفرنج — فيما قيل — مائة ألف وستّة وأربعين ألفاً ، وعدّة الأسارى ثلاثين ألفاً ، وعدّة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة ، والخيل ثمانين ألفاً ، والبغال مائة ألف ، والحمير أربعمائة ألف ، جاء بها الكفّار لحمل أثقالهم لأنّهم لا إبل لهم ، وأمّا الجواهر والأموال فلا تحصى ، وبيع الأسير بدرهم ، والسيف بنصف درهم ، والفرس بخمسة دراهم ، والحمار بدرهم ، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ، ونجا الفنش ملكُ النصارى إلى طُلَيْطلة في أسوإ حال ، فحلق رأسه ولحيته ، ونكس صليبه ، وآلى أن لا ينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرساً ولا دابة ، حتى يأخذ بالثأر ، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ ، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه إلى طُلَيْطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيّق عليها ، ولم

[1] ق ك ط : همشكه .

يبق إلا فتحها ، فخرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه وبكَيْنَ بين يديه ، وسألنه إبقاء البلد عليهن ، فرقّ لهن ومَنّ عليهن بها ، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جَلّ ، وردّهُنّ مكرمات ، وعفا بعد القدرة ، وعاد إلى قُرْطُبة ، فأقام شهراً يقسم الغنائم ، وجاءته رسُلُ الفنش بطلب الصلح ، فصالحه ، وأمّنَ الناس مدّته ، وفيه يقول بعض شعراء عصره :

أهْلٌ بأن يُسْعَى إليه ويُرْتَجَى ويُزَار من أقْصَى البلاد على الرّجا
مَنْ قد غدا بالمكرُمات مقلّداً ومُوَشّحاً ومختّماً ومُتَوّجا
عمرتْ مقاماتُ الملوكِ بذكره وتعطّرَتْ منه الرّياحُ تأرُّجا

* * *

[بين صلاح الدين ويعقوب الموحدي]

وهو الذي [1] أرسل له السلطان صلاح الدين بن أيوب شمسَ الدين [2] بن مُنْقذ يستنجد به على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدّسة [3] ، ولم يخاطبه بأمير

١ هذه رواية ج ؛ وفي ن : ولما تغلبت الفرنج على الساحل أرسل السلطان ؛ وفي ط : أرسل ... الخ ؛ وفي ك : ولما أرسل ...

٢ في الروضتين : شمس الدولة ؛ واسمه عبد الكريم (انظر مقدمة ابن خلدون : ٦٣١) .

٣ لدينا من الكتب التي أرسلها صلاح الدين للخليفة الموحدي المنصور كتاب تاريخه سنة ٥٨٥ من إنشاء الفاضل ، وفيه يستجيشه على الفرنج أثناء قتاله معهم حول عكا (صبح الأعشى ٦ . ٥٢٦ – ٥٣٠) يلقبه فيه بأمير المؤمنين ، يتلوه كتاب ثان في ٢٧ شعبان سنة ٥٨٦ بقلم الفاضل أيضاً إلى شمس الدين بن منقذ (الروضتين ٢ : ١٧٠) يطلب فيه المعاونة بإرسال قطع من الأسطول المغربي أثناء حصار الفرنج لعكا ، ويحتوي التعليمات الموجه بها شمس الدين ، ثم خطاب مرسل إلى المنصور (الروضتين ٢ : ١٧١) وهو الذي يشير إليه المقري وبدايته « من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب » (وتاريخه شعبان سنة ٥٨٦) ؛ وهناك كتاب للقاضي الفاضل رفعه إلى صلاح الدين (الروضتين ٢ · ١٧٤) وهو يحاول فيه أن يقنع صلاح الدين بقبول صيغة « من الفقير إلى الله تعالى » ويستقبح أن يكتب « الخادم » ؛ ومن رأي الفاضل أن لا تتم المكاتبة لأن الجواب عنها يستغرق سنتين وفي هذه المدة « فما يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسيء الظن بالله » . وأثناء مقام ابن منقذ في المغرب أرسل إليه كتاب يشرح فيه أخبار القتال حول عكا (الروضتين ٢ : ١٨٨) .

المؤمنين ، فلم يُجِبه إلى ما طلبه ، وكلٌّ ذلك في سنة ٥٨٧ ، ومدحه ابنُ منقذ بقوله من قصيدة :

سأشكُرُ بَحْراً ذا عُباب قَطَعْتُه ... إلى بحر جُودٍ ما لأخراه ساحِلُ
إلى مَعْدِنِ التقْوَى إلى كَعْبَة النّدى ... إلى مَنْ سَمَتْ بالذكر منه الأوائلُ
إليكَ أميرَ المؤمنينَ ولَمْ تَزَلْ ... إلى بابِك المأمولِ تُزْجى الرّواحلُ
قطَعْتُ إليك البرَّ والبحرَ مُوقِناً ... بأنّ نَداك الغَمْرَ بالنُّجْحِ كافلُ
وحُزْتُ بقَصْدِيكَ العُلا فبلَغْتُها ... وأدْنى عطاياك العُلا والفَوَاضِلُ
فلا زلتَ للعَلْياء والجودِ بانياً ... تبلّغك الآمالُ ما أنْتَ آمِلُ

وعدّتها أربعون بيتاً ، فأعطاه بكل بيت ألفاً ، وقال له : إنّما أعطيناك لفضلك ولبيتك .

وكان عنوان الكتاب الذي أرسله صلاح الدين « إلى أمير المسلمين » وفي أوّله « الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب » وبعده من إنشاء الفاضل « الحمد لله الذي استعمل على الملّة الحنيفية من استَعْمَرَ الأرض ، وأغنى من أهلها مَنْ سأله القَرْض ، وأجزى مَنْ أجرى على يده النافلة والفرض ، وزَيّنَ سماء الملّة بدَرَاري الذراري التي بعضُها من بعض » وهو كتاب طويل سأله فيه أن يَقْطع عنه مادّة البحر ، واستنجده على الإفرنج إذ كانت له اليد عليهم ، وعاد ابن منقذ من هذه الرسالة سنة ٥٨٨ بغير فائدة ، وبعث معه هديّة حقيرة ، وأمّا ابن منقذ فإنّه أحسن إليه وأغناه ، لا لأجل صلاح الدين ، بل لبيته وفضله كما مرّ ، وما وقع من يعقوب في صلاح الدين إنّما هو لأجل أنّه لم يُوَفّه حقّه في الخطاب .

* * *

[الموحدون والأندلس]

رجع[1] : ولمّا استفحل أمر الموحّدين بالأندلس استعملوا القَرَابة على الأندلس

١ في ق : رجع إلى أخبار يعقوب ؛ والنص متابع لما ورد عند ابن خلدون ٤ : ١٦٦ .

وكانوا يُستَمَّونهم السادة ، واقتسموا ولاياتها بينهم ، ولهم مواقف في جهاد العدوّ مذكورة ، وكان صاحب الأمر بمراكش يأتي الأندلس للجهاد ، وهزم يعقوبُ المنصورُ كما سبق قريباً بالأرك ابنَ أذفونشَ ملك الجلالقة الهزيمةَ الشنعاء .

* * *

[العقاب والتياث أمر الموحدين]

وأجاز ابنه الناصر الوالي بعده البحرَ إلى الأندلس من المغرب سنة تسع وستمائة ومعه من الجنود ما لا يحصى ، حتى حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب أنّه اجتمع معه من أهل الأندلس والمغرب ستمائة ألف مقاتل ، فمحص الله المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب ، واستُشْهِد منهم عِدّة ، وكانت سببَ ضعف المغرب والأندلس ، أمّا المغرب فبِخَلاء كثير من قُرَاه وأقطاره ، وأمّا الأندلس فبطلب العدوّ عليها ، لأنّه لمّا التاث أمرُ الموحدين بعد الناصر ابن المنصور انتزى السادة بنواحي الأندلس كلٌّ في عمله ، وضعف ملكهم بمراكش ، فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض ، وإسلام حصون المسلمين إليه في ذلك ، فمشت رجالات الأندلس وأعقابُ العرب منذ الدولة الأموية ، وأجمعوا على إخراجهم ، فثاروا بهم لحين واحد وأخرجوهم ، وتولى كبْرَ ذلك محمد بن يوسف بن هود الجُذامي الثائر بالأندلس وابن مَرْدَنيش وثوّار آخرون .

* * *

[ابن هود ومنافسه ابن الأحمر]

قال ابن خلدون[1] : ثم خرج على ابن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضاً وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، وتلقّب محمد هذا بالشيخ ، فجاذبه الحبل ، وكانت لكل واحد منهما دولة أورثها بنيه ، انتهى .

١ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٦٧ .

وكان ابن هود يخطب للعباسي صاحب بغداد ، ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروبٌ وخطوب إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكّل ، فضايقه الفنش والبرشلوني فبعث بالطاعة لابن الأحمر ، فبعث إليه ابن أشقيلولة ، وتسلم مُرْسيةَ منه ، وخطب لابن الأحمر بها ، ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر ، فأوقع به النصارى في طريقه ، ثم رجع الواثق إلى مُرْسية ثالثة ، فلم يزل إلى أن ملكها العدوّ من يده سنة ثمان وستين وستمائة ، وعوّضه عنها حصناً يسمى يُسْر ، وهو من عملها ، فبقي فيه إلى أن هلك . وانقرضت دولة ابن هود ، والله وارثُ الأرض ومَنْ عليها .

* * *

[دولة بني الأحمر]

ولنذكر ملوك بني الأحمر [1] إجمالاً لأن لسان الدين وزير أحدهم ، ولأنهم آخر ملوك الأندلس ، ومن يدهم استولى النصارى على جميعها كما سنذكره . قال ابن خلدون [2] : أصلهم من أرْجُونَةَ من حصون قُرْطُبة ، ولهم فيها سَلَفٌ من أبناء الجند ، ويُعرفون ببني نصر ، وينتسبون إلى سعد بن عُبَادة سيد الخزرج ، وكان كبيرهم لآخر دولة الموحّدين محمّد بن يوسف بن نصر ، ويُعرف بالشيخ ، وأخوه إسماعيل وكانت له وجاهة في ناحيتهم .

ولمّا فشلت ريح الموحّدين ، وانتزى الثوار بالأندلس ، وأعطى السادة حصونها للطاغية ، استقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمُرْسية بدعوة العباسية ، وتغلب على شرق الأندلس أجمع ، فتصدى الشيخ هذا للثورة وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة ، ودعا لأبي زكرياء صاحب إفريقية ، وأطاعته جيّان وشَرِيش سنة ثلاثين بعدها ، واستظهر على أمره بقرابته من

١ في ك : رجع إلى ذكر دولة أولاد الأحمر ؛ وسقطت لفظة « ملوك » من ج .
٢ ابن خلدون ٤ : ١٧٠ .

بني نصر وأصهاره بني أشقيلولة ، ثم بايع لبني هُود سنة إحدى وثلاثين ، عندما بلغه خطاب الخليفة من بغداد ، ثمّ ثار بإشبيلية أبو مَرْوان الباجي عند خروج ابن هود عنها ورجوعه إلى مُرْسِية ، فداخله محمد بن الأحمر في الصلح على أن يزوّجه ابنته ، فأطاعه ، ودخل إشبيلية سنة اثنتين وثلاثين ، ثمّ فتك بابن الباجي فقتله ، وتناول البطش[1] به عليّ بن أشقيلولة ، ثمّ راجع أهل إشبيلية بعدها بشهر دعوة ابن هُود ، وأخرج ابن الأحمر ، ثمّ تغلّب على غَرْناطة سنة خمس وثلاثين بمداخلة أهلها[2] حين ثار ابنُ أبي خالد بدعوته فيها ، ووصلته بيعتها وهو بجَيّان ، فقدم إليها عليّ بن أشقيلولة ، ثم جاء على أثره ، ونزلها ، وابتنى بها حصن الحمراء لنزوله ، ثمّ تغلّب على مالَقَة ، ثم تناول المريّة من يد ابن الرميمي وزير ابن هُود الثائر بها سنة ثلاث وأربعين ، ثمّ بايعه أهلُ لُورقَة سنة ثلاث وستين ، وكان ابن الأحمر أولَ أمره وَصَل يدَه بالطاغية استظهاراً على أمره ، فعضده وأعطاه ابن هُود ثلاثين حصناً في كَفّ غَرْبه بسبب ابن الأحمر ، وليعينه على ملك قُرْطُبة ، فتسلّمها ، ثم تغلّب على قُرْطُبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، أعادها الله ، ثمّ نازل إشبيليةَ سنة ست وأربعين وابنُ الأحمر معه ، ثمّ دخلها صلحاً ، وملك أعمالها ، ثمّ ملك مُرْسِيَة سنة خمس وستين ، ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كورةً كورةً وثغراً ثغراً إلى أن لجأ المسلمون[3] إلى سِيفِ البحر ما بين رُنْدَةَ من الغرب وإلبيرة من شرق الأندلس نحو عشر مَراحل من الغرب إلى الشرق ، وفي قدر مرحلة أو دونها في العرض ما بين البحر والجوف ، ثم سخط ابن الأحمر وطمع في الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنعت عليه ، وتلاحق بالأندلس الغُزَاة من بني مَرِين وغيرهم ، وعقَد ملكُ المغرب يعقوب بن عبد الحق لنحو الثلاثة

١ ابن خلدون . الفتك .
٢ كذلك في ابن خلدون وبعض الأصول ؛ وفي ك . بمداجاة أهلها .
٣ ابن خلدون : ألجأ المسلمين .

آلاف منهم ، فأجازوا في حدود الستين وستمائة ، وتقبَّل ابن الأحمر إجازهم ، ودفع بهم في نَحْر عدوّه ، ورجعوا ، ثم تناسلوا إليه بعد ذلك ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وولي بعده ابنه محمّد الفقيه ، وأوصاه باستصراخ بني مَرِين ، ملوك المغرب بعد الموحدين ، إن طرقه أمر أن يعتضد بهم ، فأجاز الفقيه إلى يعقوب بن عبد الحقّ سلطان فاس والمغرب سنة ثنتين وسبعين ، فأجاب صريخه ، وأرسل ابنه وعساكره معه ، ثمّ أجاز على أثره وتسلّم الجزيرة الخضراء من ثائر كان بها وجعلها ركاباً لجهاده ، ونزل إليه ابنُ الأحمر عن طريف وما إليها من الحصون ، وهزم هو وابنُ الأحمر زعيمَ النصرانية دنّنه[1] وفرق جمعه ، وأوقع بجموع الطاغية من كل جهة ، وبثّ سراياه وبُعوثه في أرض النصرانية ، ثم خاف ابنُ الأحمر على ملكه ، وصالح الطاغية ثمّ عاد ؛ انتهى كلام ابن خلدون ملخَّصاً .

وثبتت قدم عقب ابن الأحمر بالأندلس ، واستولوا على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل الجزيرة وطريف ورُنْدَة التي كانت بيد بني مَرِين .

* * *

[بين دون بطره وأبي الوليد ابن الأحمر]

وبعد مدة ألَبّ ملوكُ النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غَرْناطة ، وجاءها الطاغية دون بِطْرُه[2] في جيش لا يُحْصَى ومعه خمسة وعشرون ملكاً ، وكان من خبر هذه الوقعة أن الإفرنج حَشَدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بِطْرُه إلى طُلَيْطلة ، ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا ، وسجد له ، وتضرّع ، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس ، وأكد عزمه ، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها ، وعزموا على الاستنجاد بالمَرِيني أبي سعيد

١ دنّنه = (Don Nuno) .
٢ دون بطره = (Don Pedro) .

صاحب فاس ، وأنفذوا إليه رُسُلاً ، فلم ينجع ذلك الدواء ، فرجعوا إلى أعظم الأدوية وهو اللّجأ إلى الله تعالى ، وأخلصوا النيّات ، وأقبل الإفرنج في جموعٍ لا تحصى ، فقضى ناصر مَنْ لا ناصر له سِواه بهزم أمم النصرانية ، وقتل طاغيتهم دون بِطْرُه ومن معه ، وكان نصراً عزيزاً ويوماً مشهوداً .

وكان السلطان إذ ذاك بالأندلس الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر رغب أن يحصن البلاد والثغور ، فلمّا بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء ، فانتدب السلطان ابن الأحمر لردّهم ، وجهز الأساطيل والرجال ، فلمّا رأوا ذلك طلبوا إلى طُلَيْطلة ، وعزموا على استئصال بلاد المسلمين وتأهّبوا لذلك غاية الأهبة ، ووصلت الأثقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات في المراكب ، ووصل العدو إلى غَرْناطة ، وامتلأت الأرض بهم ، فتقدم السلطان إلى شيخ الغُزَاة الشيخ العالم أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء المَرِيني بالخروج إلى لقائهم بأنجاد المسلمين وشجعانهم ، فخرج إليهم يوم الخميس الموفي عشرين لربيع الأول .

ولمّا كانت ليلة الأحد أغارت سَرِيّةٌ من العدو على ضيعة من المسلمين ، فخرجت إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة ، فقطعوهم عن الجيش ، وفرّت تلك السرية أمامهم إلى جهة سلطانهم ، فتبعهم المسلمون إلى الصبح ، فاستأصلوهم ، وكان هذا أول النصر .

ولما كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو في خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين ، فلمّا شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلتهم في تلك الجيوش العظيمة ، فركبوا وحملوا بجُمْلتهم عليهم ، فانهزم الفرنج أقبحَ هزيمة ، وأخذتهم السيوفُ ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيّام ، وخرج أهل غَرْناطة لجمع الأموال ، وأخْذِ الأسرى ، فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب — فيما قيل — ثلاثة وأربعون قنطاراً ، ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً ، ومن السّبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك

بعض الغرناطيين إلى الديار المصرية ، وكان من جملة الأسرى[١] امرأة الطاغية وأولاده ، فبذلت في نفسها مدينةَ طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فيما حكى بعض المؤرخين ، فلم يقبل المسلمون ذلك ، وزادت عدّة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفاً ، ويقال : إنّه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد ، لعدم معرفتهم بالطريق ، وأمّا الذين هلكوا بالجبال والشّعاب فلا يحصَون ، وقُتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم ، واستمر البيع في الأسرى والأسباب والدواب ستة أشهر ، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد .

ومن العجب أنّه لم يُقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارساً ، وقيل : عشرة أنفس ، وقيل : كان عسكر الإسلام نحو ألف وخمسمائة فارس ، والرَّجّالة نحواً من أربعة آلاف راجل ، وقيل دون ذلك .

وكانت الغنيمة تفوت الوصف ، وسُلخ الطاغية دون بطنْه وحُشي جلده قطناً ، وعُلّق على باب غَرْناطة ، وبقي معلّقاً سنوات ؛ وطلبت النصارى الهدنة ، فعُقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذي كان من أعمال سلطان فاس والمغرب ، وهو جبل طارق ، ولم يزل بأيديهم إلى أن ارتجعه أمير المسلمين أبو الحسن المَرِيني صاحب فاس والمغرب ، بعد أن أنفق عليه الأموال ، وصرف إليه الجنود والحشود ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه ، وضيقوا به ، إلى أن استرجعوه ليد المسلمين ، واهتم ببنائه وتحصينه ، وأنفق عليه أحمالَ مال في بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره ومخازنه ، ولما كاد يتم ذلك نازله العدوّ برّاً وبحراً ، فصبر المسلمون ، وخيّب الله سعي الكافرين ، فأراد السلطانُ المذكور أن يحصّن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدوّ في منازلته ، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناسُ ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمّال ، فأحاط بمجموعه إحاطةَ

---

١ ك : الأسارى .

الهالَـةِ بالهلال ، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدوّ نيِّفاً وعشرين سنة ، وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر ، وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان ، ولمّا أجاز السلطان أبو الحسن المذكور إلى الأندلس ، واجتمع عليه ابن الأحمر ، وقاتلهم الطاغية ، هزمهم في وقعة طريف ، واستولى على الجزيرة الخضراء ، حتّى قيّض الله من بني الأحمر الغني بالله محمداً الذي كان لسان الدين بن الخطيب وزيره ، فاسترجعها وجملةَ بلاد كجيّانَ وغيرها .

وكانت له في الجهاد مواقف مشهورة ، وامتدّ ملكه واشتدّ حتّى محا دولـةَ سلاطين فاس ممّا وراء البحر ، وملك جبلَ الفتح ، ونصر الله الإسلام على يده ، كما ستقف عليه في بعض مكاتبات لسان الدين — رحمه الله — في مواضع من هذا الكتاب ، وسَعْدُ هذا الغنيّ بالله من العجائب .

وبقي ملك الأندلس في عقبه إلى أن أخذ ما بقي من الأندلس العدوّ الكافر واستولى على حضرة الملك غَرْناطة أعادها الله للإسلام ، كما نبين إن شاء الله ، وخلت جزيرة الأندلس من أهل الإسلام ، وأبدلَتْ من النور بالظلام ، حسبما اقتضته الأقدار النافذة والأحكام[1] ، والله وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين .

* * *

[شيخ الغزاة أيام بني الأحمر]

قال ابن خلدون[2] : واتفق بنو الأحمر سلاطين غَرْناطة أن يجعلوا مشيخة الغُزّاة لواحد يكون من أقارب بني مَرِين سلاطينِ المغرب ، لأنهم أوّل من وليَ الأندلس عند استيلاء بني عمهم على ملك المغرب لما بينهم من المنافسة ،

---

١ سقطت من ق ط ج .
٢ في ق : قلت وكان بنو الأحمر (دون ذكر لابن خلدون) . وفي ج : ولقد كان بنو الأحمر . . . يجعلون .

وكان لهؤلاء في الجهاد مواقفُ مشهورة ، وسأذكر لك ما[1] كتب على قبر شيخ الغُزّاة عثمان بن أبي العلاء لتستدل عند ذلك على ما ذكرناه : «بحمد الله تعالى، هذا قبر شيخ الحُماة ، وصدر الأبطال الكُماة ، واحد الجلالة ، ليث الإقدام والبَسالة ، علم الأعلام ، حامي ذمار الإسلام ، صاحب الكتائب المنصورة ، والأفعال المشهورة ، والمغازي المسطورة ، وإمام الصفوف ، القائم بباب «الجنّة تحت ظلال السيوف» ، سيف الجهاد ، وقاصم الأعاد ، وأسد الآساد ، العالي الهِمَم ، الثابت القَدَم ، الهمام المجاهد الأرضَى ، البطل الباسل الأمْضَى ، المقدّس ، المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير ، الأصيل الشهير ، المقدّس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق ، كان عمره ثمانياً وثمانين سنة أنفقه ما بين رَوْحة في سبيل الله وغَدْوة ، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غَزْوَةً ، وقطع عمره مجاهداً مجتهداً في طاعة الرب ، محتسباً في إدارة الحرب ، ماضي العزائم في جهاد الكفّار ، مُصادماً بين جموعهم تدفّقَ التيّار ، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ، ما سار ذكره في الأقطار ، أشهر من المثل السيّار ، حتى توفّي رحمه الله وغُبار الجهاد طَيَّ أثوابه ، وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه ، فمات على ما عاش عليه ، وفي ملحمة الجهاد قَبَضه الله تعالى إليه ، واستأثر به سعيداً مرتضى ، وسيفه على رأس ملك الروم مُنْتَضى ، مقدّمَةَ قبول وإسعاد ، ونتيجة جهاد وجِلاد ، ودليلاً على نيته الصالحة ، وتجارته الرابحة ، فارتَجّت الأندلس لبُعْده ، أتحفه الله تعالى رحمة من عنده ، توفّي يوم الأحد الثاني لذي الحجّة من عام ثلاثين وسبعمائة» انتهى .

ومنها ما كتب به لسانُ الدين بن الخطيب – رحمه الله – في تولية علي ابن بدر الدين مشيَخَةَ الغزاة ما نصّه : «هذا شيخ الغُزّاة الذي فتح على الإسلام

---

[1] ك : منها ما كتب ؛ وفي ط بياض . وفي ج : فلنذكر منها .

أبواب السرّاء ، وراق طرازاً مذهباً على عاتق الدولة الغرّاء ، وأعمل عوّامل الجهاد ، في طاعة ربّ العباد ، شارعةً لأهل الكفر والعناد ، من باب الإعمال والإغراء ، أمر به فلان صدر صدور أودّائه ، وحسامه المشهور على أعدائه ، ووليه الذي خبّر صدق وفائه ، وجلّى في مضمار الخلوص له مُخْبِّراً في وجوه أكفائه ، شيخ شيوخ المجاهدين ، وقائد كتائبه المنصورة إلى غزْو الكافرين المعتدين ، وعترته التي يُدافع بها عن الدين ، وسابق وُدّه المبرِّز في الميادين ، الشيخ الأجلّ » إلى آخر ما وصفه به ممّا ضاق الوقت عن مثله ، والله وليٌّ التوفيق .

الباب الرابع

في ذكر قُرْطبة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة ، وجامعها الأموي ذي البدائع الباهية الباهرة ، والإلماع بحضْرتي الملك الناصرية الزَّهْراء والعامرية الزاهرة ، ووصف جملة من متنزهات تلك الأقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهرة ، وما يجرّ إليه شُجُون الحديث من أمور تقضي بحُسْن إيرادها القرائح الوقّادة والأفكار الماهرة

[القول في وصف قرطبة]

قال ابن سعيد ، رحمه الله : مملكة قُرْطُبة في الإقليم الرابع ، وإيالته للشمس ، وفي هذه المملكة معدن الفضة الخالصة في قرية كَرْتَنْش ، ومعدن الزئبق والزنجفر في بلد بسطاسة [1] ، ولأجزائها خواصّ مذكورة في متفرّقاتها ، وأرضها أرض كريمة للنبات [2] ، انتهى .

وقدّم ، رحمه الله ، في المغرب الكلام عليها على سائر أقطار الأندلس وقال: إنّما قدمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الأندلسية لكون سلاطين الأندلس الأوّل اتخذوها سريراً لسلطنة الأندلس ، ولم يعدلوا عن حضرتها قرطبة ، ثم سلاطين بني أمية وخلفاؤهم لم يعدلوا عن هذه المملكة ، وتقلّبوا منها في ثلاثة أقطاب [3] أداروا فيها خلافتهم : قرطبة ، والزهراء ، والزاهرة ، وإنّما

١ ج : والزنجفور ... بسطابسة .
٢ ك : كريمة النبات .
٣ ك : أقطار .

اتخذوها لهذا الشأن لما رأوها للذلك أهلاً ، وقُرطبة أعظم علماً وأكثر فضلاً بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها .

ثم قسم ابن سعيد كتاب « الحلة المذهبة ، في حلى ممالك قُرْطُبة » بالنظر إلى الكُوَر إلى أحَدَ عشر كتاباً :

الكتاب الأوّل كتاب « الحلة الذهبية ، في حلى الكورة القرطبية » .

الكتاب الثاني كتاب « الدرر المصونة ، في حلى كورة بلكونة » .

الكتاب الثالث كتاب « محادثة السمير [1] ، في حلى كورة القصير » .

الكتاب الرابع كتاب « الوَشْي المُصَوّر ، في حلى كورة المُدَوّر » .

الكتاب الخامس كتاب « نيل المراد ، في حلى كورة مراد » .

الكتاب السادس كتاب « المُزْنَة ، في حلى كورة كزنة » .

الكتاب السابع كتاب « الدر النافق ، في حلى كورة غافق » .

الكتاب الثامن كتاب « النفحة الأرِجَة ، في حلى كورة إسْتِجَة » .

الكتاب التاسع كتاب « الكواكب الدريّة ، في حلى الكورة القبرية » .

الكتاب العاشر كتاب « رقة المحبة ، في حلى كورة إستبة » .

الكتاب الحادي عشر كتاب « السَوْسانَة ، في حلى كورة اليُسّانة » انتهى .

ثمّ قال ، رحمه الله تعالى : إن العمارة اتّصلت في مباني قُرْطُبة والزهراء والزاهرة ، بحيث إنّه كان يُمْشى فيها لضوء السُّرج المتصلة [2] عشرة أميال حسبما ذكره الشَّقَنْدي في رسالته ، ثم قال : ولكل مدينة من مدن قُرْطُبَة وأعمالها ذكر مختص به ، ثم ذكر المسافات التي بين ممالك قُرْطُبة المذكورة فقال : بين المُدَوّر وقُرْطُبة ستة عشر ميلاً ، وبين قُرْطُبة ومُرَاد خمسة وعشرون ميلاً ، وبين قُرْطُبة والقصير ثمانية عشر ميلاً ، وبين قرطبة وغَافِق مرحلتان ، وبين قرطبة وإسْتَبة ستة وثلاثون ميلاً ، وبين قُرْطُبة وبَلْكُونة

---

١ ك : السير .

٢ ق ط : السراج ؛ ك : المتدة .

مرحلتان ، وبين قُرْطُبة واليُسّانة أربعون ميلاً ، وبين قرطبة وقبرة ثلاثون ميلاً ، وبين قرطبة وبيّانة مرحلتان ، وبين قرطبة وإسْتِجة ثلاثون ميلاً ، وكورة رُنْدة كانت في القديم من عمل قُرْطبة ، ثم صارت من مملكة إشبيلية ، وهي أقرب وأدخل في المملكة الإشبيلية ، انتهى .

ثمّ قسّم رحمه الله تعالى كتاب « الحلّة الذهبية ، في حلى الكورة القرطبية » إلى خمسة كتب :

الكتاب الأول كتاب « النّغَم المُطْربة ، في حلى حضرة قُرْطُبة » .

الكتاب الثاني كتاب « الصّبيحة الغرّاء ، في حلى حضْرة الزهراء » .

الكتاب الثالث كتاب « البدائع الباهرة ، في حلى حضرة الزاهرة » .

الكتاب الرابع كتاب « الوَرْدَة ، في حلى مدينة شَقَنْدة » .

الكتاب الخامس كتاب « الجُرْعة السّيّغة [1] ، في حلى كورة [2] وَزَغة » .

وقال ، رحمه الله تعالى ، في كتاب « النغم المطربة ، في حلى حضرة قرطبة » : إن حضرة قرطبة إحدى عرائس مملكتها ، وفي اصطلاح الكتاب أن للعَرُوس الكاملةِ الزينة مِنَصّة ، وهي مختصّة بما يتعلّق بذكر المدينة في نفسها ، وتاجاً ، وهو مختصّ بالإيالة السلطانية ، وسلكاً ، وهو مختصّ بأصحاب دُرر الكلام من النُّثّار والنُّظّام ، وحُلّة ، وهي مختصّة بأعلام العلماء المصنفين الذين ليس لهم نظم ولا نثر ، ولا يجب إهمال تراجمهم ، وأهداباً ، وهي مختصّة بأصحاب فنون الهَزْل وما ينحو منحاه ، انتهى .

ثمّ فصّل ، رحمه الله تعالى ، ذلك كلّه بما تعدّدت منه الأجزاء ، وقد لخصت منه هنا بعض ما ذكر ، ثمّ أردفته بكلام غيره ، فأقول [3] : قال في كتاب أجار [4] :

١ ج : المسوغة .
٢ ق ط : قرية .
٣ ق : فقلت ذكر ابن خلدون في كتاب أجار ؛ وهو وهم كما ترى .
٤ كتاب أجار هو نزهة المشتاق المعروف بجغرافية الإدريسي ، وأجار هو رجار (Rujjiero) . =

إن قُرْظبة ــ بالظاء المعجمة ــ ومعناه أجِر ساكنها[1] ، يعني عربت بالطاء ، ثمّ قال : ودَوْرُ مدينة قُرْطُبة ثلاثون ألف ذراع ، انتهى .

وقال غيره : إن تكسيرها ومساحتها التي دار السور عليها دون الأرباض طولاً من القبلة إلى الجوْف ألف وستمائة ذراع ، واتصلت[2] العمارة بها أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً ، وذلك من الأميال أربعة وعشرون في الطول ، وفي العرض ستّة ، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير ، وليس في الأندلس وادٍ يُسمّى باسم عربي غيره . ولم تزل قُرْطُبة في الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى سنة أربعمائة ، فانحطت ، واستولى عليها الخرابُ بكثرة الفتن إلى أن كانت الطامة الكبرى عليها بأخذ العدوّ الكافر لها ثالث عشري شوّال سنة ستمائة وثلاث وثلاثين[3] .

ثمّ قال هذا القائل : ودَوْرُ قرطبة أعني المسوّر منها دون الأرباض ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ، ودَوْر قصر إمارتها ألف ذراع ومائة ذراع ، انتهى .

وعدد أرباضها واحد وعشرون ، في كل ربَض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره ، وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية ، في كل واحدة منبر وفقيه مُقلّص[4] تكون الفُتْيا في الأحكام والشرائع له ، وكان لا يجعل القالصَ عندهم على رأسه إلاّ مَنْ حفظ الموطّأ ، وقيل : من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلّم وحفظ المدوّنة ، وكان هؤلاء المقلّصون المجاورون لقُرْطُبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ، ويسلّمون عليه ، ويطالعون بأحوال بلدهم . انتهى .

= (روجر Roger) الذي ألف له الإدريسي الكتاب ، وهو أحد ملوك صقلية النورمنديين ، حسبما مر .

١ الروض المعطار : ١٥٦ وقيل معناه « القلوب المختلفة » .

٢ من هنا حتى آخر الفقرة في مخطوط الرباط : ٢٤ ، ويبدو أن النقل عن ابن حيان .

٣ ك : في ثاني وعشرين شوال سنة ٦٢٣ .

٤ مقلص ــ بالصاد والسين ــ الذي يلبس قلنسوة ؛ وانظر النص في مخطوط الرباط : ٢٧ .

قال : وانتهت جباية [1] قرطبة أيّام ابن أبي عامر إلى ثلاثة آلاف ألف دينار ، بالإنصاف ، وقد ذكرْنا في موضع آخر ما فيه مخالفة لهذا ، فالله أعلم .

وما أحسن قول بعضهم [2] :

دَعْ عنكَ حَضْرَةَ بغدادٍ وبَهْجتَها ... ولا تُعَظّمْ بلادَ الفرسِ والصّينِ

فما على الأرْض قُطْرٌ مثلُ قُرْطُبَة ... وما مشى فوقها مثلُ ابنِ حَمْدينِ

وقال بعضهم [3] : قُرْطُبَة قاعدة الأندلس ودار الملك التي يُجْبى لها ثمرات كل جهة وخيراتُ كلّ ناحية ، واسطة بين الكُوَر ، موفية على النهر ، زاهرة مشرقة ، أحدقت بها المُنى فحسن مرآها ، وطاب جنّاها .

وفي كتاب « فرحة الأندلس » لابن غالب : أمّا قُرْطُبَة فإنّه اسم ينحو إلى لفظ اليونانيين ، وتأويله القلوب المشكّكة .

وقال أبو عبيد البكري [4] : إنّها في لفظ القوط بالظاء المعجمة .

وقال الحجاري : الضبط فيها بإهمال الطاء وضمّها ، وقد يكسرها المشرقيّون [5] في الضبط ، كما يعجمها آخرون . انتهى .

وقال بعض العلماء [6] : أما قُرْطُبَة فهي قاعدة الأندلس ، وقُطبها وقطرها الأعظم ، وأم مدائنها ومساكنها ، ومستقرّ الخلفاء ، ودار المملكة في النصرانيّة والإسلام ، ومدينة العلم ، ومقرّ [7] السنّة والجماعة ، نزلها جُمْلة من التابعين

---

١ مخطوط الرباط : ٢٧ .

٢ المصدر السابق : ٣٥ .

٣ هو أحمد الرازي كما في المنتقى من فرحة الأنفس : ٢٩٥ ؛ وفي ق : وقال غيره ، وسقطت اللفظتان من ط ؛ وفي ج : وفي كتاب الرازي .

٤ انظر مخطوطة المسالك : ٢١٨ (رقم : ٤٨٨ ق بالخزانة العامة بالرباط) .

٥ ط ح : المشرقون .

٦ مخطوط الرباط : ٢٢ .

٧ ك : ومستقر .

وتابعي [1] التابعين ، ويقال : نزلها بعض من الصحابة [2] ، وفيه كلام .

وهي مدينة عظيمة أزلية من بُنْيان الأوائل ، طيبة الماء والهواء ، أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب ، وبها المَحْرَث العظيمُ الذي ليس في بلاد الأندلس مثله [3] ولا أعظم منه بركة .

وقال الرازي : قرطُبة أم المدائن ، وسُرَّة الأندلس ، وقرارة الملك في القديم والحديث والجاهلية والإسلام ، ونهرُها أعظم أنهار الأندلس ، وبها القنطرة التي هي إحدى غرائب الأرض في الصنعة والإحكام ، والجامعُ الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه .

وقال ابن حوقل [4] : هي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة أهل ، وسَعَة محلّ ، وفُسْحَة أسواق ، ونظافة محالّ ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق ، ويزعم قوم من أهلها أنّها كأحد جانبي بغداد ، وإن لم تكن كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به ، وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحالّ حسنة ، وفيها كان سلاطينهم قديماً ، ودورُهم داخل سورها المحيط بها ، وأكثر أبواب القصر السلطاني من البلد وجنوب قرطبة على نهرها .

قال : وقُرْطبة هذه بائنة عن مساكن أرباضها ظاهرة ودُرْتُ بها في غير يوم في قدر ساعة وقد قطعت الشمس خمس عشرة درجة ماشياً .

وقال الحجاري [5] : وكانت قرطبة في الدولة المَرْوانية قبّةَ الإسلام ،

---

١ ق ج ط : وتابع .

٢ مخطوط الرباط : نزلها – فيما نقل – رجل من الصحابة .

٣ ك : الذي ليس له في بلاد الأندلس نظير .

٤ في ك : وقال بعضهم ؛ وفي ق : وقال ابن سعيد رحمه الله في المغرب ؛ وفي ط : وقال الرازي ؛ وفي ج : وفي كتاب ابن حوقل والنص منقول عن ابن حوقل ، انظر صورة الأرض : ١٠٧ – ١٠٨ مع اختلاف في بعض النص .

٥ في ج : وفي المسهب ؛ وفي ق : وقال الفتح في المطمح ؛ وفي ط : قال ابن سعيد .

ومجتمَع علماء الأنام[1] ، بها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدّيّة واليمانيّة ، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء ، إذ كانت مَرْكز الكرماء ، ومَعْدِن العلماء ، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ، ويُباري فيها أصحابُ الكتب أصحابَ الكتائب ، ولم تبرح ساحاتها مَجَرّ عوالٍ ومجرى سوابق ، ومحطّ مَعالٍ وحمى حقائق ، وهي من بلاد الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، والزَّور من الأسد ، ولها الداخلُ الفسيح ، والخارجُ الذي يمتع البصر بامتداده فلا يزال مستريحاً وهو من تردُّد النظر طليح .

وقال الحجاري[2] : حضرة قرطبة منذ استفتحت[3] الجزيرة هي كانت منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وأمّ القرى ، وقرارة أُولي الفضل والتُّقى ، ووطن أُولي العلم والنُّهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجّر العلوم ، وقبّة الإسلام ، وحضرة الإمام ، ودار صَوْب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر دُرر القرائح ، ومن أُفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر ، وبها أُنشئت التأليفات الرائقة ، وصُنِّفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم أن أُفقَهُم القرطبي لم يشتمل قط إلاّ على البحث والطلب ، لأنواع العلم والأدب . انتهى .

قال الإمام عليّ بن سعيد[4] : أخبرني والدي أن السلطان الأعظم أبا يعقوب ابن عبد المؤمن قال لوالده محمّد بن عبد الملك بن سعيد : ما عندك في قُرْطبة ؟ قال : فقلت له : ما كان لي أن أتكلّم حتّى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها ، فقال السلطان : إن ملوك بني أميّة حين اتخذوها حضرةَ ملكهم لَعَلى بصيرة :

١ ك : ومجتمع أعلام الأنام الأعلام .
٢ في ق : وقال أيضاً ؛ وفي ط بياض ؛ وفي ج : وقال في الذخيرة .
٣ ك : افتتحت .
٤ انظر ما تقدم في هذا الكتاب ص : ١٥٤

الديار الكثيرة المنفسحة ، والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة ، والنهر الجاري ، والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحرَثُ العظيم ، والشَّعْراء الكافية ، والتوسّط بين شرق الأندلس وغربها ، قال : فقلت : ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول .

ثم قال ابن سعيد : ومن كلام والدي في شأنها : هي من أحسن بلاد الأندلس مباني ، وأوسعها مسالك ، وأبرعها ظاهراً وباطناً ، وتفضل إشبيلية بسلامتها في فصل الشتاء من كثرة الطين ، ولأهلها رياسة ووقار ، لا تزال سِمة[1] العلم متوارثة فيهم ، إلا أن عامتها أكثر الناس فضولاً ، وأشدهم تشنيعاً وتشغيباً ، ويُضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضى بأمورهم ، حتى إن السيد أبا يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن لما انفصل عن ولايتها قيل له : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ قال : مثل الجمل إن خففت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته به صاح ، ما ندري أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنتجنّبه[2] ، وما سلّط الله عليهم حجّاج الفتنة حتى كان عامتها شراً من عامة العراق ، وإن العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندي ولاية ، وإنّي إن كُلّفت العود إليها لقائل : لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين.

قال والدي : ومن محاسنها ظرف اللباس ، والتظاهر بالدين ، والمواظبة على الصلاة ، وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم ، وكسر أواني الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها عليها ، والتستر بأنواع المنكرات ، والتفاخر بأصالة البيت وبالجندية وبالعلم ، وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة ، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب ، وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني

١ ط : سعة .

٢ ك ط : فنجتنبه .

ليس هو عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به .

قال الحضرمي : أقمت مرّة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح [1] ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ ، إلى أن بلغ فوق حدّه ، فقلت له : يا هذا ، أرني مَنْ يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه ، وقلت له : أعز الله سيّدنا الفقيه ، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، قال : فقال لي : لست بفقيه ، ولا أدري ما فيه ، ولكنّي أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلمّا رأيته حسن الخط جيّد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير ؛ قال الحضرمي : فأحرجني ، وحملني على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلاّ عند مثلك ، يعطى الجوز من لا عنده [2] أسنان ، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به ، يكون الرزق عندي قليلاً ، وتحول قلّة ما بيدي بيني وبينه .

قال ابن سعيد : وجرت مناظرة بين يدي منصور بني عبد المؤمن بين الفقيه العالم أبي الوليد بن رُشْد والرئيس أبي بكر بن زُهْر ، فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه : ما أدري ما تقول ، غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُملت إلى قُرْطُبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مُطْرب بقُرْطُبة فأريد بيع تركته حُملت إلى إشبيلية .

ولما ذكر ابن بَشْكُوال قصر قُرْطُبة قال [3] : هو قصر أوليّ تداولته ملوك

1 ك : بخط فصيح وتفسير مليح ؛ والتسفير : التجليد .

2 ك : من لا له .

3 ك : وسئل ابن بشكوال عن قصر قرطبة فقال .

الأمم من لدن عهد موسى النبيّ، صلى الله على نبيّنا وعليه وسلّم ، وفيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثمّ للروم والقوط والأمم السالفة ما يُعْجِز الوصف ، ثم ابتدع الخلفاء من بني مَرْوان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها — في قصرها البدائعَ الحسان ، وأثروا فيه الآثار العجيبة ، والرياض المونقة[1] ، وأجْرَوْا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتموّنوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر المكرّم[2] ، وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قَنَوات الرّصاص تؤديها منها إلى المصانع صورٌ مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضّة الخالصة والنحاس المموّه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة .

قال : وفي هذا القصر القِصَابُ العالية السمو ، المنيفة العلو ، التي لم يَرَ الراؤون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها .

قال : ومن قصوره المشهورة ، وبساتينه المعروفة : الكامل ، والمجدد ، وقصر الحائر ، والروضة ، والزاهر ، والمعشوق ، والمبارك ، والرشيق ، وقصر السرور ، والتاج ، والبديع .

قال : ومن أبوابه التي فتحها الله لنصر المظلومين ، وغياث الملهوفين ، والحكم بالحق ، البابُ الذي عليه السطح المشرف الذي لا نظير له في الدنيا ، وعلى هذا الباب باب حديد ، وفيه حَلَقٌ لاطون[3] قد أُثبتت في قواعدها ، وقد صورت صورة إنسان فتح فمه ، وهي حلق باب مدينة أرْبُونَة من بلد الإفرنج ، وكان الأمير محمد قد افتتحها ، فجلب حلقها إلى هذا الباب ، وله باب قبلي أيضاً ، وهو المعروف بباب الجنان ، وقُدّام هذين البابين المذكورين على الرصيف

١ ك : الأنيقة .
٢ ك : الكريم ، ق : الكرم .
٣ لاطون (وبالاسبانية Laton) : الأصفر من الصفر (النحاس) .

المشرف على النهر الأعظم مسجدان مشهوران بالفضل كان الأمير هشامٌ الرضى يستعمل الحكم في المظالم فيهما ابتغاء ثواب الله الجزيل ، وله باب ثالث يُعرف بباب الوادي ، وله باب بشماليّه يُعرف بباب قُورِيَةَ ، وله باب رابع يدعى بباب الجامع ، وهو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة إلى المسجد الجامع على الساباط ، وعدّد أبواباً بعد هذا طمست أيام فتنة المهدي ابن عبد الجبّار [1] .

وذكر ابن بَشْكُوال رحمه الله أن أبواب قرطبة سبعة أبواب [2] : باب القنطرة إلى جهة القبلة ويُعرف بباب الوادي وبباب الجزيرة الخضراء وهو على النهر ، وباب الحديد ويُعرف بباب سرَقُسْطَةَ ، وباب ابن عبد الجبّار وهو باب طُلَيْطلة ، وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة الرُّصُف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قَرْمُونة إلى قُرْطُبة إلى سَرَقُسْطَةَ إلى طَرّكُونة إلى أرْبُونة مارَّة في الأرض الكبيرة ، ثم باب طَلَبيرة وهو أيضاً باب لِيُون ، ثم باب عامر القرشي وقدّامه المقبرة المنسوبة إليه ، ثم باب الجوز [3] ويُعرف بباب بَطَلْيَوْس ، ثم باب العطّارين ، وهو باب إشبيلية ، انتهى .

وذكر أيضاً [4] أنّ عدد أرباض قُرْطُبة عند انتهائها في التوسيع [5] والعمارة واحد وعشرون رِبضاً ، منها القبلية بعُدْوَة النهر : ربَض شقنْدَة ، وربض مُنْيَة عَجب ، وأما الغربية فتسعة : ربض حوانيت الريحان [6] ، وربض الرقّاقين ، وربض مسجد الكهف ، وربض بلاط مُغيث ، وربض مسجد الشّفاء ، وربض

١ عدها في مخطوطة الرباط على النحو التالي : باب السدة وباب الجنان وباب العدل وباب الصناعة وباب الملك وباب الساباط (انظر الورقة : ٢٥) .

٢ انظر مخطوطة الرباط في عد أبواب قرطبة : ٢٤ .

٣ مخطوطة الرباط : باب الجوزة .

٤ ذكر أرباض قرطبة في مخطوطة الرباط : ٢٥ .

٥ ك : التوسع .

٦ مخطوطة الرباط : ربض الريحاني ؛ وفي ق ط : الريحاني .

حَمّام الإلْبيري[1] ، وربض مسجد المسرور ، وربض مسجد الرَّوْضة[2] ، وربض السّجن القديم ، وأمّا الشمالية فثلاثة : ربض باب اليَهُود ، وربض مسجد أم سلمة ، وربض الرُّصافة ، وأما الشرقية فسبعة : ربض شَبْلار ، وربض فُرْنِ برِّيل[3] ، وربض البُرْج[4] ، وربض مُنْية عبد الله ، وربض مُنْية المُغيرة ، وربض الزاهرة ، وربض المدينة العتيقة[5] .

قال : ووسط هذه الأرباض قصبة قرطبة التي تختص بالسور دونها ، وكانت هذه الأرباض دون سور ، فلمّا كانت أيّام الفتنة صُنِع لها خندق يدور بجميعها وحائط مانع . وذكر ابن غالب أنّه كان دوْرُ هذا الحائط أربعة عشر ميلاً[6] ، وشَقَنْدَة معدودة في المدينة لأنّها مدينة قديمة كانت مسوّرة .

[منتزهات قرطبة]

قال ابن سعيد في « المغرب » : ولنذكر الآن من منتزهات قرطبة ومعاهدها المذكورة في الألسن نظماً ونثراً ما انتهى إليه الضبط ، من غير تغلغل في غير المشهور منها والأهمّ ، ونُوشّي ذلك بجميع ما يحضرني من مختار النظم في قرطبة ، وما يحتوي عليه نطاقُها المذكور .

فأوّل ما نذكر من المنتزهات منتزه الخلفاء المروانية ، وهو قصر الرُّصافة ؛ قال والدي[7] رحمه الله : كان ممّا ابتناه عبد الرحمن بن معاوية في أول أيّامه لتنزهه وسكناه أكثر أوقاته : مُنْيَةُ الرُّصافة التي اتخذها بشمال قرطبة

---

١ ج ومخطوط الرباط : ربض الأبوري .
٢ ق : وربض الرمضة .
٣ مخطوطة الرباط : فرن بلي .
٤ مخطوطة الرباط : ربض الفرج .
٥ في مخطوط الرباط : « ربط العدوة » وسقط من العدد هنالك ربض مسجد أم سلمة .
٦ في ك : أربعة وعشرين ميلا .
٧ ج : قال ابن حيان .

منحرفة إلى الغرب ، فاتخذ بها قصراً حسناً ، ودحا جِناناً واسعة ، ونقل إليها غرائب الغُرُوس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسَفرٌ رسولاه إلى الشأم من النوى المختار والحبوب الغريبة ، حتى نمت بيُمْن الجدّ وحسن التربية في المدة القريبة أشجاراً مُعْتَمَّة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عمّا قليل بأرض الأندلس ، فاعترف بفضلها على أنواعها . قال : وسمّاها باسم رُصافة جدّه هشام بأرض الشأم الأثيرة لديه، وامتثله في اختيار رصافته هذه[1] ، وكلفه بها وكثرة تردّده عليها ، وسُكناه أكثر أوقاته بها ، فطار[2] لها الذكر في أيّامه ، واتصل مَنْ بعده في إيثارها . قال : وكلّهم فضّلها ، وزاد في عمارتها ، وانبرى وُصّاف الشعراء لها فتناغوا[3] في ذلك فيما هو إلى الآن مأثور[4] عنهم ، مستجاد منهم .

قال ابن سعيد : والرُّمّان السّفري الذي فاض على أرجاء الأندلس ، وصاروا لا يفضلون عليه سواه ، أصله من هذه الرُّصافة . وقد ذكر ابن حيّان شأنه ، وأفرد له فَصْلاً[5]، فقال : إنّه الموصوف بالفضيلة ، المقدم على أجناس الرّمان بعذوبة الطعم ، ورقّة العَجم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة ، وكان رسوله إلى الشأم في توصيل أخيته[6] منها إلى الأندلس قد جلب طرائف منها من رُمّان الرصافة المنسوبة إلى هشام ، قال : فعرضه عبدُ الرحمن على خواص رجاله مُباهياً به ، وكان فيمن حضره منهم سفر بن عبيد الكلاعي من جند الأردُن ، ويقال : هو من الأنصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول الله صلى الله عليه وسلّم في غزواته ، قال : وهم يحملون الألوية بين يدي الخلفاء من بني

---

١ ك : ولميله في اختياره هذه
٢ ك : طار .
٣ في ك : فتنازعوا .
٤ ك : مشهور مأثور .
٥ ج : وأفرد فضله .
٦ في ك : آخيته .

أمية ، فأعطاه من ذلك الرمان جزءاً فَراقه حُسْنه وخُبْره ، فسار به إلى قرية بكورة رَيّةَ ، فعالج عَجمه واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجراً أثمر وأينع ، فنزع إلى عِرْقه ، وأغرب في حسنه ، فجاء به عمّا قليل إلى عبد الرحمن ، فإذا هو أشبه شيء بذلك الرصافي ، فسأله الأمير عنه ، فعرّفه وجْه حيلته ، فاستبرع استنباطه ، واستنبل همّته ، وشكر صنعه ، وأجزل صلته ، واغترس منه بمُنية الرصافة وبغيرها من جناته ، فانتشر نوعه ، واستوسع الناسُ في غِراسه ، ولزمه النسب إليه ، فصار يُعرف إلى الآن بالرمان السّفري .

قال : وقد وصف هذا الرمان أحمد بن فرج[1] الشاعر في أبيات كتب بها إلى بعض مَنْ أهداه له ، فقال :

ولابِسَة صَدَفاً أحْمَرا ... أتَتْك وقد مُلِئَتْ جوهرا
كأنّك فاتحُ حُقّ لطيفٍ ... تضمّن مَرْجانَه الأحْمَرا
حُبُوباً كمثل لِثاتِ الحبيب ... رُضاباً إذا شئتَ أو منْظرا
وللسّفْر تُعْزَى وما سافرت ... فتشكوالنّوىأوتقاسي السُّرى
بلى فارقَتْ أيْكَها ناعماً ... رَطِيباً وأغْصانَها نُضَّرا
وجاءتك مُعْتاضة إذ أتتْك ... بأكرم من عودها عُنْصُرا
بعودٍ ترى فيه ماء النّدى ... ويُورِقُ من قبل أن يُثْمِرا
هديةِ مَنْ لو غدتْ نفسه ... هديّتَه ظَنّه قَصّرا

وقال ابن سعيد : وأخبرني والدي قال : أخبرني الوشّاح المبرِّز المحسن أبو الحسن المَرِيني[2] قال : بينما أنا أشرب مع ندِماني بإزاء الرُّصافة ، إذا بإنسان

---

١ هو ابن فرج صاحب كتاب الحدائق ، الذي ألفه للحكم المستنصر ، من شعراء عصر الخلافة الأموية ، جرى عليه أيام الحكم ما أدى إلى سجنه وتوفي حوالي ٣٦٦ ؛ (انظر ترجمته في الجذوة ٩٧ وبغية الملتمس رقم : ٣٣١ ومعجم الأدباء ٤ : ٢٣٦ والصلة ١١ ، ومسالك الأبصار ١١ : ١٩٥ والمغرب ٢ : ٥٦ والمطمح ٧٩ والوافي ج ٨ الورقة : ٣٤ وله أشعار في اليتيمة) .

٢ هو علي بن المريني أبو الحسن ، شاعر وشاح توفي في مدة منصور بني عبد المؤمن وكان كثير التجول=

رث الهيئة ، مَجْفُوّ[1] الطلعة ، قد جاء فجلس معنا ، فقلنا له : ما هذا الإقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة ؟ فقال : لا تعجلوا علي ، ثمّ فكر قليلاً ورفع رأسه فأنشدنا :

اسْقِنيها إزاء قصر الرُّصافهْ ... واعتَبِرْ في مآلِ أمرِ الخلافهْ
وانظر الأفق كيف بُدّل أرضاً ... كي يطيلَ اللبيبُ فيه اعترافهْ
ويَرى أن كلّ ما هو فيه ... مِن نعيمٍ وعزّ أمرِ سَخافهْ
كلُّ شيء رأيْته غيرَ شيء ... ما خلا لذةَ الهوى والسُّلافهْ

قال المريني : فقبّلت رأسه ، وقلت له : بالله من تكون ؟ فقال : قاسم بن عبّود الرياحي ، الذي يزعم الناس أنّه موسوس أحمق ، قال : فقلت له : ما هذا شعر أحمق ، وإن العقلاء لتعجز عنه ، فبالله إلا ما تمّمت مسرتنا بمؤانستك ومنادمتك ومناشدة طُرَف أشعارك ، فنادم وأنشد ، وما زلنا معه في طيبة عيش إلى أن ودّعناه وهو يتلاطم مع الحيطان سُكراً ، ويقول : اللّهم غَفْراً . انتهى[2] .

= (المغرب ٢ : ٢١٣) وسيورد المقري له موشحة في سد قرطبة ، وفي المغرب موشحة تنازع نسبتها هو واليكي (٢ : ٢١٨) .

١ ج : مجلو.

٢ زاد بعد هذه الكلمة في نسخة (ج) : «فائدة : قال الذهبي في المشتبه : والرصافة مواضع منها رصافة بناها هشام بن عبد الملك بقرب الرقة ورصافة بغداد — محلة كبيرة جداً أنشأها المنصور لابنه المهدي وتلقب بعسكر المهدي، منها أئمة ، ورصافة البصرة قرية منها شيخان رويا ؛ ورصافة قرطبة بليدة أنشأها عبدالرحمن بن معاوية الداخل، سماها باسم رصافة جده هشام خرج منها فضلاء؛ ورصافة الكوفة صغيرة ، ورصافة نيسابور قرية ، ورصافة الأنبار بناها السفاح ، ورصافة بليدة بإفريقية ، والرصافة قلعة أحدثها الإسماعيلية بالشام . انتهى باختصار . قال في القاموس ، في فصل الراء باب الفاء : والرصافة كمكناسة بلد بالشام منه أبو منيع عبد الله بن أبي زياد وابن ابنه الحجاج ، ومحلة ببغداد منها محمد بن بكار بن جعفر بن محمد بن علي ، وبلد بالبصرة منها محمد بن عبد الله بن صيمون ، وقرية بواسط منها عبد المجيد وقرية بنيسابور وبالكوفة وبلد بإفريقية وقرية للإسماعيلية ، وعمي الرصافة موضع بالحجاز ، انتهى . رجع إلى قرطبة ؛ قال ابن سعيد . . . الخ » .

قال : ومن أبدع قصور[1] خارج قرطبة قصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن ، وهو على متن النهر الأعظم ، تحمله أقواس ، وقيل للسيد : كيف تأنقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة ؟ فقال : علمت أنهم لا يذكرون والياً بعد عزله ولا له عندهم قدر ، لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانيّة ، فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر أذكر به على رغمهم .

قال ابن سعيد : وأخبرني والدي أن ناهض بن إدريس[2] شاعر وادي آش في عصره أنشده لنفسه في هذا القصر :

ألا حبّذا القصرُ الذي ارتفعت به ... على الماء من تحت الحجارة أقواسُ
هو المصنَعُ الأعلى الذي أنِفَ الثرى ... ورَفّعَهُ عَنْ لثمهِ المجدُ والباسُ
فأركبَ متنَ النَّهرِ عزّاً ورفعةً ... وفي موضعِ الأقدامِ لا يوجد الراسُ
فلا زالَ معمورَ الجناب وبابه ... يغصُّ وحلّتْ أفقَهُ الدهرَ أعراسُ

وقال الفتح في قلائده ، لمّا ذكر الوزير ابن عمّار[3] : وتنزه بالدمشق بقرطبة ، وهو قصر شيّده بنو أميّة بالصُّفّاح والعَمَد ، وجُرِيَ في إتقانه إلى غير أمد ، وأبدعَ بناؤه ، ونُمّقَتْ ساحاته وفناؤه ، واتخذوه ميدان مراحهم ، ومضمار أفراحهم ، وحكوا به قصرهم بالمَشْرِق ، وأطلعوه كالكوكب المُشْرِق ، وأنشد فيه لابن عَمّار :

كلُّ قصرٍ بعد الدمشقِ يُذَمُّ ... فيهِ طابَ الجنى ولذّ المشَمّ
مَنْظَرٌ رائقٌ ، وماءٌ نَميرٌ ... وثرًى عاطرٌ ، وقصرٌ أشمُّ
بِتُّ فيه والليلُ والفجرُ عِندي ... عَنْبرٌ أشْهبٌ ومِسْكٌ أحمُّ

١ ق : ومن المتنزّهات قصور خارج قرطبة ؛ ط : ومن أعظم قصور . . .
٢ ناهض بن إدريس : من مداح ناصر بني عبد المؤمن (المغرب ٢ : ١٤٥) .
٣ قلائد العقيان : ٨٤ .

وهي منسوبة للحاجب أبي عثمان جعفر بن عثمان المصحفي .

وذكر الحجاري في « المسهب » أن الرئيس أبا بكر محمد بن أحمد بن جعفر المصحفي ، اجتاز بالمُنْية المصحفية التي كانت لجدّه أيّام حجابته للخليفة الحكم المستنصر ، فاستعبر حين تذكر ما آل إليه حال جده مع المنصور بن أبي عامر ، واستيلاءه على ملكه وأملاكه ، فقال :

قفْ قليلاً بالمصحفيّة وَاندُبْ ... مُقلةً أصبحَتْ بلا إنسانِ
واسألنْها عن جعفر وسطاه ... ونداه في سالف الأزمانِ
جعفر مثلُ جعفرٍ حكم الدهْـ ... رُ عليْهِ بعُسْرَة وهوانِ
ولكم حذّر الردى فصميمْنا ... لا أمانٌ لصاحبِ السلطانِ
بيْنَما يَعتَلي غدا خافضاً منْـ ... ـهُ اكتسابٌ ككفّة الميزانِ[1]

ومُنْية الزبير منسوبة إلى الزبير بن عمر الملثّم[2] ملك قرطبة .

قال ابن سعيد : أخبرني والدي عن أبيه قال : خرج معي إلى هذه المُنْية في زمان فتح النوّار أبو بكر بن بقيّ الشاعر[3] المشهور ، فجلسنا تحت سطرٍ من أشجار اللوز قد نوّرتْ ، فقال ابن بقيّ :

سَطرٌ من اللوز في البُستان قابلَني ... ما زادَ شيء على شيء ولا نَقصا
كأنّما كلُّ غُصْنٍ كُمُّ جارية ... إذا النسيمُ ثنى أعطافه رقَصا

---

١ ك : انتساب ؛ ج : اكتساباً .

٢ الزبير بن عمر من ولاة الملثمين (المرابطين) على قرطبة ؛ وقد عده في مفاخر البربر (٨٢) من ولاة غرناطة ولكن ابن سعيد (٢ : ١٢٧) يسميه صاحب قرطبة ، وهو مهجو الشاعر المعروف بالأبيض .

٣ أبو بكر يحيى بن بقي الطليطلي من كبار الشعراء الوشاحين في عصر المرابطين توفي سنة ٥٤٠ (انظر ترجمته في الذخيرة القسم الثاني : ٢٤٤ والقلائد : ٢٧٩ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢١ والتكملة : ٢٠٤٢ ووفيات الأعيان ٥ : ٢٤٨ ومسالك الأبصار ١١ : ٢٨٠ والمغرب ٢ : ١٩ وله موشحات في دار الطراز وفي مخطوطة جيش التوشيح لسان الدين) .

ثم قال شعراً منه :

عجبتُ لمن أبقَى على خَمرِ دنّه غَداةَ رأى لَوْز الحديقة نوَّرا

ولا أذكر بقية الأبيات ، قال جدّي : ثم اجتمعت به بعد ذلك بغَرْناطة ، فذكرته باجتماعه في مُنْيْة الزبير ، فتنهّد وفكّر ساعة وقال : اكتبوا عنّي ، فكتبنا :

سقى الله بُسْتانَ الزبير ، ودام في مجاريه سيلُ[1] النّهر ما غَنّتِ الوُرْقُ
فكائنْ لنا من نعمة في جنابه كَبزّتِه الخضراء طالعُها طَلْقُ
هو الموضِعُ الزاهي على كل مَوْضع أما ظِلّهُ ضافٍ أما ماؤه دَفْقُ
أهيمُ به في حالة القُرْب والنوى وحُقَّ له مِنّي التذكّرُ والعِشْقُ
ومِنْ ذلك النّهر الخفوقِ فُؤاده بقلبيَ ما غُيّبْتُ عن وَجْهه خَفْقُ

قال : فقلت له : جمع الله بينك وبينه على الحالة الّتي تشتهي ، قال : ذلك لك ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : تدفع لي هذا السيف الذي تقلّدت به أتزوّد به إليه ، وأنفق الباقي فيه على ما تعلم ، قال : فقلت له : هذا سيفٌ شرّفني به السلطان أبو زكريّاء ابن غانية ، وما لعطائه سبيل ، ولكن أعطيك قيمته ، فخرج وأتى بشخصٍ يَعْرف قيمة السيوف ، فقدّره وجعل يقول : إنّه سيف السلطان ابن غانية ، ليعظم قدره في عينه فيزيد في قيمته ، ثم قبض ما قدّر به ، وأنشد ارتجالاً :

أطال اللهُ عُمْرَ فتى سعيدٍ وبَقّاهُ ورقّتْهُ السّعُودُ
غَدا لي جودُهُ سَبَباً لعَوْدي إلى وَطَني فَها أنا ذا أعودُ
وألثمُ كفّهُ شُكراً ويَتْلُو طريقي آيَ نُعماهُ النّشيدُ

---

[1] ك ج ط : ذراه سيل .

حبَاني من ذخائره بسَيْفٍ   به لم يَبْقَ للأحزان جيدُ

والقصر الفارسي من القصور المقصودة للنزاهة بخارج قرطبة ، وقد ذكره الوزير أبو الوليد ابن زيدُون في قصيد ضمَّنه من منتزهات قرطبة ما تقف عليه ، وكان قد فرّ من قرطبة أيّام بني جَهْوَر ، فحضره في فِراره عيد ذكّره بأعياد وطنه ومعاهده الأنسيّة مع وَلاَّدة التي كان يهواها ويتغزّل فيها ، فقال[1] :

خليليّ لا فِطْرٌ يسُرُّ ولا أضْحَى   فما حالُ مَنْ أمسى مشُوقاً كما أضْحى

وستأتي هذه القصيدة في هذا الباب ، كما ستأتي قصيدة أبي القاسم ابن هشام القرطبي التي أوّلها :

يا هبّةً باكرتْ من نحو دارين

وفيها كثير من منتزهات قرطبة .

قال ابن سعيد : كان والدي كثيراً ما يأمرني بقراءتها عليه ، ويقول : والله لقد أنبأتْ عن فضلٍ لهذا الرجل ، قال : وكان أبو يحيى الحضرمي يحفظها ، ويزين بها مجالسه ، ويحلف أن لا ينشدها بمحضر جاهل لا يفهم ، أو حاسد لا ينصف في الاهتزاز لها ، وإنّه لجدير بذلك ، وإنّها لمن كنوز الأدب .

ثم قال : والمرج النّضير المذكور بها هو مَرْج الخز ، أخبرني والدي أنّه حضر في زمان الصِّبا بهذا المرج على راحة ، ومعه الرئيس الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبي جعفر الوقّشِي[2] والمسن[4] ابن دريدة[3] المشهور بخفة الروح ، قال : فسبحت أمامنا إوز ، وجعلت تمرح وتنثر ما عليها من الماء فوق المرج ،

١ ديوان ابن زيدون : ١٥٨ .

٢ أبو الحسين الوقشي ، سيذكره صاحب النفح ، وكان ذا صوت بديع عارفاً بالألحان ؛ وقد مر ذكره في المغرب (١ : ٢٢٠) في مجلس مع والد ابن سعيد .

٣ في بعض النسخ : الحسن ؛ وفي نسخة : دويدة ؛ وقد ذكره ابن سعيد في المغرب ٢ : ١٨١ وأورد بعض نوادره ؛ وهو قلعي أي ينسب إلى قلعة بني سعيد ؛ وفي ج : ودريده .

والمرجُ قد أحدق به الوادي ، والشمسُ قد مالت عليه للغروب ، فقال لي أبو الحسين : بالله صِفْ يومَنا وحُسن[1] هذا المنظر ، فقلت : لا أصفه أو تصفه أنت ، فقال : ولك مني ذلك ، فأفكر كلٌّ منّا على انفراد بعدما ذكرنا ما نصف نثراً ، فقال أبو الحسين الوقّشي :

لله يوم بِمَرْج الخزّ طابَ لَنا … فيه النعيمُ بحيثُ الروض والنَّهَرُ
وللإوزّ علَى أرْجائه لعبٌ … إذا جرتْ بُدُّدَتْ ما بيننا الدُّرَرُ
والشمسُ تجنحُ نحو البينِ مائلةٌ … كأنّ عاشقها في الغربِ ينتظرُ
والكأسُ جائلةٌ باللبِّ حائرةٌ … وكُلُّنا غفلاتِ الدهر نبتدرُ

قال : فقلت :

ألا حبّذا يَوْمٌ ظَفِرْنا بِطيبه … بأكناف مرْج الخزّ والنهر يَبْسِمُ
وقد مَرِحت فيه الإوزّ ، وأرسلت … على سُنْدُسٍ دُرّاً به يتَنَظّمُ
ومُدَّ به للشمس فَهْوَ كأنّه … لثامٌ لها مُلقًى من النّور معصمُ
أدرْنا عليه أكؤساً بعثتْ بهِ … من الأنس مَيْتاً عاد وهو يُكلِّمُ
غدوْنا إليْه صامتين سكينةً … فرُحْنا وكلٌّ بالهوى يترنّمُ

فأظهر كلٌّ منّا لصاحبه استحسان ما قال تنشيطاً وتتميماً للمسرّة ، ثم قلنا للمسنّ : ما عندك أنت ما تعارض[2] به هاتين القطعتين ؟ قال : بهذا ، ورفع رجله وحبَق حبقة فرقعت[3] منها أرجاؤه ، فقال له أبو الحسين : ما هذا يا شيخ السوء ؟ فقال : الطلاقُ له لازم[4] إن لم تكن أوزن من شعركما ، وأطيب رائحة ، وأغنّ صوتاً ، وأطرب معنى ، فضحكنا منه أشد ضحك ، وجعلنا نهتز غاية

١ ق : في حسن .
٢ ق ط ج : بما تعارض .
٣ ق ط ج : قرقعت .
٤ ك : يلزمه .

الاهتزاز لموقع نادرته ، فقال : والدليل على ذلك أنكم طربتم لما جئت به أكثر ممّا طربتم من شعركم .

ثم قال ابن سعيد : ومن منتزهات قرطبة المشهورة فحص السرادق ، مقصود للفرجة ، يسرح[1] فيه البصر ، وتبتهج فيه النفس ، أخبرني والدي عن أخيه أبي جعفر بن عبد الملك بن سعيد قال : خرجت مع الشريف الأصم القرطبي إلى بسيط الجزيرة الخضراء — وقد تدبج بالأنوار[2] — فلمّا حركنا حسن المكان ، وتشوقنا إلى الأركان[3] ، قال الشريف : لقد ذكرني هذا البسيط بسيط فحص السرادق ، فقلت له : فهل ثار في خاطرك[4] نظم فيه ؟ قال : نعم ، ثم أنشد :

ألا فَدَعُوا ذكرَ العُذَيْبِ وبارقِ ... ولا تسأموا من ذكرِ فَحصِ السّرادقِ
مجرُّ ذيولِ السُّكرِ من كلّ مُتْرف ... ومجرى الكؤوسِ المترعاتِ السّوابقِ
قصرْتُ عليه اللّحظَ ما دُمْتُ حاضراً ... وفِكريَ في غَيْبٍ لمرْآه شائقي
أيا طيبَ أيّام تقضّتْ بروْضةٍ ... على لمح غُدْرانٍ وشمّ حدائقِ
إذا غرّدَتْ[5] فيها حَمائمُ دوْحِها ... تخيّلْتها الكُتّابَ بينَ المهارقِ
وما باختيار الطّرفِ فارقْتُ حُسْنَها ... ولكن بكيدٍ منْ زمانٍ مُنافقِ

قال أبو جعفر : فلمّا سمعت هذا الشعر لم أتمالك من الاستعبار ، وحرّكني ذلك إلى أن قلت في حَوْر[6] مؤمل سيد منتزهات غَرْناطة ، ولم يذكر هنا ما قاله فيه ، وذكره في موضع آخر لم يحضرني الآن حتى أورده هنا ، والله أعلم .

ومن منتزهات قرطبة السُّد[a] ، قال ابن سعيد : أخبرني والدي أن الشاعر

---

١ ق : ليس .
٢ ك : بالنوار .
٣ لعل الصواب : الأوطان .
٤ ك : خاطركم .
٥ ق : رددت ؛ ط ج : وردت .
٦ بعض النسخ : حوز .

المبرز أبا شهاب المالقي[1] أنشده لنفسه واصفاً يوم راحة بهذا السّد :

ويَوْم لنا بالسّدّ لو رُدّ عيشه   بعيشةِ أيّام الزّمان رددناهُ
بكرنا له والشمسُ في خدر شرقها   إلى أن أجابت إذ دعا الغرب دعواهُ
قطعناه شدواً واغتباقاً ونشوة   ورَجْعَ حديثٍ لو رقى الميتَ أحياهُ
على مثله من منزه تُبْتَغى المُنى   فللّه ما أحلى وأبدع مرآهُ
شدتنا به الأرحا وألقَتْ نثارها   علَيْنا فأصغينا لَهُ وقبلناهُ
لئن بانَ إنّا بالأنينِ لفقده   وبالدّمعِ في إثْرِ الفراق[2] حكيناهُ

وأنشدني والدي موشحة لأبي الحسن المَرِيني معاصره وصاحبه يذكر فيها هذا السد ، وهي[3] :

في نغمة العود والسُّلافهْ   والروض والنهر والنديمْ
أطال من لامني خلافهْ   فظلّ في نصحه مُليمْ

دَعْني على منهج التّصابي   ما قامَ لي العذرُ بالشّبابْ
ولا تُطلْ في المُنى عتابي   فلَسْتُ أصْغي إلى عتابْ
لا تَرْجُ ردّي إلى صواب[4]   والكأسُ تفترُّ عن حَبابْ

والغُصْنُ يُبدي لنا انعطافهْ   إذا هفا فوْقه النسيمْ
والرّوْض أهدى لنا قطافهْ   واختال في بُرْدِه الرقيمْ

١ أبو شهاب المالقي : من شعراء المائة السابعة ، صحبه والد ابن سعيد أيام الشباب ووصفه بأنه كان خليع العذار في شرب العقار (المغرب ١ : ٤٣٧) .
٢ ق : الغرام .
٣ استعمل في ك كلمتي « مطلع » و « دور » للدلالة على القفل وعلى كل غصن من أغصان الموشحة .
٤ ك : إلى جواب ؛ ق : إلى الجواب .

يا حبّذا عهديَ القديمْ ومن به همتُ مُسْعِدي
ريمٌ عن الوصْل لا يَريمُ مُولَّـــعٌ بالتسوَدُّدِ
ما تمّ إلاّ بهِ النعيمُ طوعاً على رغم حُسّدِي

مُعْتدلُ القدّ ذو نَحافهْ أسْقمني طَرْفُهُ السقيمْ
ورام طرْفي به انْتصافهْ فخدّ في خدّهِ الكليمْ

غَضٌّ الصِّبا عاطرُ المقبَّلْ أحلى من الأمْن والأملْ
ظامي الحشا مُفْعَمُ المخلخلْ حُلو اللَّمى ساحرُ المقلْ
لكل من رامه توَصَّلْ لم يخش ردّاً بما فعلْ

أشكو فيُبدي ليَ اعترافهْ إن حاد عن نهجه القويمْ
لا أعدَمُ الدهر فيه رافهْ فحقّ لي فيهِ أن أهيمْ

لله عصرٌ لَنا تقضّى بالسّدّ والمنبر البهيجْ
أرى ادّكاري إلَيْهِ فرضا وشوقه دائماً يهيجْ
فكم خلعْنا عليه غَمْضا وللصِّبا مسرحٌ أريجْ

ورْدٌ أطال المُنى ارتشافَهْ حتى انقضى شربه الكريمْ
لله ما أسْرَع انحرافهْ وهكذا الدهرُ لا يديمْ

يا مَنْ يحثّ المطيَّ غربا عرّجْ على حضرةِ الملوكْ
وانثر بها إن سَفَحْتَ غَرْبا من مدمعٍ عاطل سلوكْ
واسمع إلى من أقام صبّا واحكِ صداه لا فُضَّ فوكْ

بلّغ سلامي قصر الرُّصافهْ وذكّرو[1] عهديَ القديمْ
وحيّ عنّي دار الخلافهْ وقفْ بها وقفة الغريمْ

قال ابن سعيد : والمنبر المذكور في هذه الموشّحة من منتزهات قرطبة ، والسّدُّ هو الأرحا التي ذكرها في زجله قاسم بن عبّود الرياحي ، رَوَيْتُهُ عن والدي عن قائله ، وهو[2] :

بالله أيْنَ نصيبْ من لسْ لي فيه نصيبْ
محبُوبناً مخالف ومعُو رقيبْ

حينْ نقصدْ مكانو يقُمْ فِ المقام
ويبخلْ علَيْنا بِردّ السّلام
أدخلْتْ يا قلْبي رُوحكْ في زحام[3]

سلامتك عِندي هي شي عجيب
وكيفْ بالله يَسْلَمْ مَنْ هُوْ في لهيب

بالله يا حبيبي اترك ذا النّفار
واعملْ أن نطيبوا في هذا النّهار
واخرج معي للوادي لشرب العُقار

نُتمّم نهارنا في لذّهْ وطيب
في الأرحا وإلا في المرج الخصيبْ

---

١ ك : وذكره ؛ والصواب قراءته حسب النطق الدارج « وذكرو » ، وهي قراءة ق .
٢ استعمل أيضاً في ك في تقسيم هذا الزجل لفظتي مطلع ودور .
٣ ج : الزحام .

أَوْ عند النواعيرْ[1]   والروض الشّريقْ[2]
أو قصر الرصافهْ   أو وادي العقيق
رَحيقْ[3] والله دونك   هُو عندي الحريق

وفي حُبّك أمْسيتْ   في أهْلي غريبْ
وما الموت عنْدي   إلاّ حِينْ تغيبْ

اتّكلْ علَى الله   وكنْ فظْ جسُورْ
وإن ريت فُضُولي   وقلْ إين تمورْ
كمّشْ عنّو[4] وجهك   فإن راك نَفُورْ

يهرب عنّك خايفْ   ويبْقى مُريب
وامْش أنت مُوَقّرْ   كأنّك خطيب

ما أعجب حديثي   إشْ هذا الجُنون
نطلب ونُدبّرْ   أمراً لا يكُون
وكمْ ذا نُهوّن   شيئاً لا يَهُون

وإشْ مقدارْ ما نصبْرْ   لبُعْد الحَبيبْ
ربّ اجْمعْني معُو   عاجلاً قريبْ

---

١ ج : النواير .
٢ ج : الرشيق .
٣ ك.ط : حرق ؛ ج : حدق
٤ ك : عني .

[نهرها وقنطرتها]

قال ابن سعيد : وأما نهر قرطبة فإنّه يصغر عن عظمه عند إشبيلية ، بحيث صنع عليه قنطرة من حجارة لا يتأتى مثلها في نهر إشبيلية ، ومنبعه من جهة شَقُورة[1] يمر النصف منه إلى مُرسيَة مشرقاً والنصف إلى قُرْطُبة وإشبيلية مغرباً .

ولما ذكر الرازي قرطبة قال : « ونهرها الساكن في جريه ، اللين في انصبابه ، الذي تؤمَّن مغبة ضرره في حمله » . وقال هذا لأنّه يعظم عند إشبيلية ، فإذا حان حمله في أيام الأمطار أشفت إشبيلية على الغرق ، وتوقّع أهلها الهلاك .

والقنطرة التي على هذا النهر عند قُرْطُبَة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها ، أقواسها سبع عشرة قوساً ، وبانيها — على ما ذكره ابنُ حيّان وغيرُه — السَّمْح ابن مالك الخَوْلاني صاحبُ الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، وشيّدها بنو أميّة بعد ذلك وحسّنوها ، قال ابن حيّان : وقيل : إنّه قد كانتْ في هذا المكان قنطرة من بنيان الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتي سنة أثّرت فيها الأزمان بمكابدة المدود حتّى سقطت حناياها ، ومحيت أعاليها ، وبقيت أرجلها وأسافلها ، وعليها بَنَى السمحُ في سنة إحدى ومائة ، انتهى .

وقال في مناهج الفكر : إن قنطرة قُرْطُبَة إحدى أعاجيب الدنيا ، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقي ، وطولها ثمانمائة ذراع[2] ، وعرضها عشرون باعاً ، وارتفاعها ستون ذراعاً ، وعدد حناياها ثماني عشرة حَنيّة ، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً ، انتهى .

---

١ شقورة : (Segura de la Sierra) مدينة كانت من عمل جيان ، وينسب إليها نهر شقورة وهو نهر مرسية .

٢ ق : باع .

رجع إلى قرطبة

ذكر ابن حيّان والرازي والحجاري أن أكتبيان[1] — ثاني قياصرة الروم الذي ملك أكثر الدُّنيا وصَفّح نهر رومية بالصُّفْر ، فأرّخت الروم من ذلك العهد ، وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة — أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس ، فبُنيت في مدّته قُرْطُبة وإشبيلية وماردة وسَرَقُسْطَة ، وانفرد الحجاري بأن أكتبيان المذكور وَجّه أربعة من أعيان ملوكه للأندلس فبنى كل واحد منهم مدينة في الجهة التي ولاّه عليها ، وسمّاها باسمه ، وأن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماء لأولئك الملوك ، وغيرُ الحجاري جعل أسماء هذه المدن مُشْتَقّة ممّا تقتضيه أوضاعها كما مر ؛ وذكروا أنّه قد تداولت على قرطبة وُلاة الروم الأخيرة الذين هم بنو عيصُو بن إسحاق بن إبراهيم ، على نبيّنا وعليهم الصلاة والسلام ، إلى أن انتزعها من أيديهم القُوطُ من ولد يافث المتغلّبون على الأندلس ، إلى أن أخذها منهم المسلمون . ولم تكن في الجاهلية سريراً لسلطنة الأندلس ، بل كرسيّاً لخاص مملكتها ، وسعدت في الإسلام ، فصارت سريراً للسلطنة العظمى الشاملة ، وقطباً للخلافة المروانية ، وصارت إشبيلية وطُلَيْطلة تبعاً لها ، بعدما كان الأمر بالعكس ، والله يفعل ما يشاء ، بيده الملك والتدبير ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا هو العلي الكبير .

وقال صاحب « نَشْق الأزهار »[2] عندما تعرّض لذكر قرطبة : هي مدينة مشهورة ، دار خلافة ، وأهلها أعيان ناس في العلم والفضل ، وبها جامع ليس في الإسلام مثله ، انتهى .

---

١ ق : اكتنبان ؛ ك : التلبان ؛ والصواب ما أثبتناه فهو (Octavian) المعروف باسم أكتافيوس قيصر .

٢ أظن المراد هنا هو « نشق الأزهار في عجائب الأقطار » لابن إياس الحنفي المتوفى سنة ٩٣٠ .

ومن الأسباب في سَلْب محاسن قرطبة عَيْث البربر بها في دخولهم مع سليمان المستعين الأموي حين استولى على قرطبة في دولته التي افتُتحت بالقهر وسفك الدماء ، وكان من أمراء البربر المعاضدين لسليمان عليّ بن حمود من بني علي بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب — رضي الله عنهم أجمعين — وجدّه إدريس هرب من هرون الرشيد إلى البربر ، فتبربر ولده ، وبنى ابنه إدريس مدينة فاس ، وكان المؤيّد هشام يشتغل بالملاحم ، ووقف على أن دولة بني أميّة تنقرض بالأندلس على يد علوي أول اسمه عين ، فلمّا دخل سليمان مع البربر قرطبة ومَحَوْا كثيراً من محاسنها ومحاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود ، وبلغ هشاماً المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه فدسّ إليه أن الدولة صائرة إليك ، وقال له : إن خاطري يحدّثني أن هذا الرجل يقتلني ، يعني سليمان ، فإن فعل فخذ بثأري ، وكان هذا الأمر هو الذي قوّى نفس ابن حَمّود على طلب الإمامة ، وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد ، فكان المؤيد أحد مَنْ أُخذ بثأره بعد موته .

وتولّى بعد ذلك علي بن حَمّود [1] ، وبويع بقرطبة في قصرها في اليوم الذي قُتل فيه سليمانُ المستعين [2] ، وأخذ الناس بالإرهاب والسطوة ، وأذلّ رؤوس البربر ، وبرقت للعدل في أيّامه بارقة خُلّب لم تكد تقِدُ حتى خَبَتْ ، وجلس للمظالم ، وقدمت له جماعة من البربر في إجرام فضرب رقابهم ، وأهلهم وعشائرهم ينظرون ، وخرج يوماً على باب عامر فالتقى فارساً من البربر وأمامه حمل عنب ، فاستوقفه وقال له : من أين لك هذا ؟ فقال : أخذته كما يأخذ الناس ، فأمر بضرب عنقه ، ووضع رأسه وسط الحمل ، وطيف به في البلد ،

١ انظر تفصيل الخبر عن ولاية علي بن حمود في الذخيرة ١/١ : ٧٩ نقلا عن ابن حيان ، وهذا الذي أورده المقري تلخيص لما جاء هنالك .

٢ وبويع . . . المستعين : سقطت هذه العبارة من ق .

واستمر على هذا مع أهل قرطبة في أحسن عِشْرة نحو ثمانية أشهر ، حتى بلغه قيام الأندلسيين بالمرتضى المرواني في شرق الأندلس ، فتغير عمّا كان عليه ، وعزم على إخلاء قرطبة وإبادة أهلها ، فلا يعود لأئمتهم بها سلطان آخر الدهر ، وأغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء إلى حاله ، وانتزع الإسلام من أهل قرطبة [1] ، وهدم المنازل ، واستهان بالأكابر ، ووضع المغارم ، وقبض على جماعة من أعيانهم وألزمهم بمال ، فلمّا غرموه سرّحهم ، فلمّا جيء إليهم بدوابهم ليركبوها أمر من أخذ الدواب ، وتركهم ينزلون إلى منازلهم على أرجلهم ، وكان منهم أبو الحزم الذي ملك قرطبة بعدُ وصارت دولته بوراثة ولده معدودة في دول الطوائف ، فانجمعت عن عليّ النفوس ، وتوالى عليه الدعاء ، فقتله صبيان أغمار من صقالبة بني مروان في الحمّام ، وكان قتله غرّة ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة ، وكان الصقالبة ثلاثة فهربوا واختفوا في أماكن يعرفونها ، وصح عند الناس موته ، ففرحوا ، وكانت مدّته كما مر نحو عامين ، وحقّقها بعض فقال : أحد وعشرون شهراً وستّة أيّام .

وكان الناصر علي بن حمّود – على عُجمته ، وبُعده من الفضائل – يصغي إلى الأمداح ، ويثيب عليها ، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي ، ومن شعرائه المختصّين به ابن الحنّاط القرطبيّ [2] ، ومن شعره قوله [3] :

راحت تذكّرُ بالنسيم الراحا وطَفاء تكسر للجنُنُوح جناحا
أخفى مسالكها الظلامُ فأوقدت من برقها كي تهتدي مصباحا

.. ..

١ ك : وانتزع أهل قرطبة .
٢ ابن الحناط (وفي ق ك ط ج : الخياط) : محمد بن سليمان بن الحناط الرعيني القرطبي الأعمى ، كان أبوه يبيع الحنطة بقرطبة ، ثم تعهد ابنه بنو ذكوان بالتعليم واتصل بدولة بني حمود ومدح أمراءها وتوفي سنة ٤٣٧ (انظر الذخيرة ١/١ : ٣٨٣ والجذوة : ٥٣ وبغية الملتمس رقم : ١٢٤ والمغرب ١ : ١٢١ والصلة : ٦٤٠ والتكملة : ٣٨٧ .
٣ الذخيرة ١/١ : ٣٩٠ .

وعبادة بن ماء السماء ، وكان معروفاً بالتشيع ، وفيه يقول من قصيدة

أبوكم عليٌّ كان بالشرق بَدْءُ ما ورثتم ، وذا بالغرب أيضاً سميّهُ
فصلُّوا عَلَيْه أجمعُون وسلِّموا لَهُ الأمر إذ ولاّه فيكم وَليّهُ

ومدحه ابنُ دَرّاج القَسْطلّيُّ بقوله[1] :

لعلّكِ يا شمسُ عندَ الأصيلِ شجيتِ لشجو الغريب الذليلِ
فكوني شفيعيَ لابن الشّفيع وكوني رسوليَ لابن الرسولِ

وكان أخوه القاسم بن حمّودٍ أكبر منه بعشر سنين ، وأمهما واحدة ، وهي علوية ، ولمّا قُتل الناصر كان القاسم والياً على إشبيلية ، وكان يحيى بن علي والياً على سَبْتة ، فاختلفت أهواء البربر[2] ، فمال أكثرهم إلى القاسم لكونه غُبِن أوّلاً ، وقُدّم عليه أخوه الأصغر ، وكونه قريباً من قرطبة ، وبينهم وبين يحيى البحر ، فلمّا وصلت رُسُلهم إلى القاسم لم يُظهر فرحاً بالإمامة ، وخاف أن تكون حيلةً من أخيه عليه ، فتقهقر إلى أن اتضح له الحق ، فركب إلى قرطبة ، وبويع فيها بعد ستة أيّام من قتل أخيه ، وأحسن السيرة ، وأحس من البربر الميل إلى يحيى ابن أخيه عليّ صاحب سَبْتة ، فتهالك في اقتناء السودان ، وابتاع منهم كثيراً ، وقوّدهم على أعماله ، فأنفت البرابر من ذلك ، وانحرفوا عنه .

وفي سنة تسع وأربعمائة[3] قام عليه بشرق الأندلس المرتضى عبدُ الرحمن من أعقاب الناصر ، لأن أهل الأندلس صعب عليهم ملك بني حَمّود العَلويين بسبب البرابر ، فأرادوا رجوع الإمامة إلى بني مروان ، واجتمع له أكثر ملوك الطوائف ، وكان معه حين أقبل لقرطبة مُنْذر التجيبيُّ صاحب سَرَقُسْطة

١ ديوان ابن دراج : ٧٥ .
٢ ك : فاختلف هؤلاء البربر ؛ ج : فاختلف أحوال . . .
٣ انظر تفصيل هذه الأحداث في ابن عذاري ٣ : ١٢٥ .

وخَيْران العامري الصَّقْلبي صاحب المَرية ، وانضاف إليهم جمعٌ من الفرنج ، وتأهّب القاسم والبرابرة للقائهم ، فكان منَ الاتفاق العجيب أن فسدت نيّة منذر وخَيْران على المرتضى ، وقالا : أرانا في الأوّل وجْهاً ليس بالوجه الذي نراه حين اجتمع إليه الجم الغفير ، وهذا ماكر غير صافي النيّة ، فكتب خيران إلى ابن زيري الصِّنهاجي المتغلب على غَرْناطة — وهو داهية البربر — وضمن له أنّه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى قرطبة خذّل عن نصرته المَوالي العامريين أعداء المروانيّين وأصحاب رياسة الثغور ، فأصغى ابن زيري إلى ذلك ، وكتب المرتضى إلى ابن زيري يدعوه لطاعته ، فقلب الكتاب ، وكتب في ظهره ﴿ قُلْ يا أيّها الكافِرُون — السورة ﴾ (السورة : ١٠٩) فأرسل إليه كتاباً ثانياً يقول فيه : قد جئتك بجميع أبطال الأندلس وبالفرنج ، فماذا تصنع ؟ وختم الكتاب بهذا البيت :

إنْ كنتَ منّا أبشر بخير أو لا فأيْقِنْ بكل شرّ

فأمر الكاتب أنْ يحوّل الكتاب ويكتب في ظهره ﴿ ألهاكُمُ التكاثُرُ — السورة ﴾ (السورة : ١٠٢) فازداد حنقه ، وحمله الغيظ إلى أن ترك السير إلى حضرة الإمامة قُرْطُبة ، وعدل إلى محاربته ، وهو يرى أنّه يَصْطلمه في ساعة من نهار ، ودامت الحرب أياماً ، وأرسل ابنُ زيري إلى خَيْران يستنجزه وعده ، فأجابه : إنّما توقّفتَ حتّى ترى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو كنّا ببواطننا معه ، ما ثبتَ جمعك لنا ، ونحن ننهزم عنه ونَخْذُلُه في غد .

ولمّا كان من الغد رأى أعلام خَيْران وأعلام منذر وأصحاب الثغور قد ولّتْ عنه ، فسُقِطَ في يد المرتضى ، وثبت حتّى كادوا يأخذونه ، واستحرّ القتل ، وصُرِع كثير من أصحابه ، فلمّا خاف القبض عليه ولّى ، فوضع عليه خيران عيوناً فلحقوه بقرب وادي آش وقد جاوز بلاد البربر وأمن على نفسه ، فهجموا عليه ، فقتلوه وجاؤوا برأسه إلى المَرية ، وقد حل بها خيران ومنذر ،

فتحدث الناس أنّهما اصطبحا[1] عليه سروراً بهلاكه .

وبعد هذه الواقعة أذعن أهل الأندلس للبرابرة ، ولم يجتمع لهم بعدها جمع ينهضون به إليهم ، وضرب القاسمُ بن حمّود سرادقَ المرتضى على نهر قُرْطُبة ، وغشيه خلق من النظارة وقلوبُهم تتقطّع حسرات ، وأنشد عبادة ابن ماء السماء قصيدته التي أوّلها[2] :

لَكَ الخيرُ خيْرانٌ مَضَى لسبيله وأصبَحَ أمرُ الله في ابن رَسُوله

وتمكّنت[3] أمور القاسم ، وولّى وعزل ، وقال وفعل ، إلى أن كشف وجهه في خلع طاعته ابنُ أخيه يحيى بن علي ، وكتب من سبْتة إلى أكابر البرابر بقرطبة : إن عمي أخذ ميراثي من أبي ، ثم إنّه قدّمَ في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيدَ والسودان ، وأنا أطلب ميراثي ، وأولّيكم مناصبكم ، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس ، فأجابوه إلى ذلك ، فجمع ما عنده من المراكب وأعانه أخوه إدريس صاحبُ مالَقَة . فجاز البحر بجمع وافر ، وحصل بمالَقَةَ مع أخيه ، وكتب له خيران صاحبُ المريّة مذكراً بما أسلفه في إعانة أبيه ، وأكّد المودّة فقال له أخوه إدريس : إن خيران رجل خدّاع ، فقال يحيى : ونحن منخدعون فيما لا يضرنا ، ثم إن يحيى أقبل إلى قُرْطُبة واثقاً بأن البرابر معه ، ففرّ القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصّه ليلة السبت ٢٨ من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٢[4] ، وحلّ يحيى بقُرْطُبة ، فبايعه البرابر والسودان وأهل البلد يوم السبت مُسْتَهل جمادى الآخرة ، وكان يحيى من النجباء ، وأمّه فاطميّة ، وإنّما كانت آفته العُجب واصطناع السِّفْلة ،

١ ك : اصطحبا .

٢ ابن عذاري ٣ : ١٣٠ دون نسبة ، وفي الذخيرة ١/١ : ٣٩٦ أن القصيدة لابن الحناط قالها في أبي القاسم بن حمود يصف خيران الصقلبي وقتل المرتضى المرواني .

٣ ق ط : ومشت ؛ ج : وتمت .

٤ ك : ٤١٣ .

واشتط أكابر البرابر عليه ، وطلبوا ما وعدهم من إسقاط مراتب السودان ، فبذل لهم ذلك ، فلم يقنعوا منه ، وصاروا يفعلون معه ما يخرق الهيبة ويفرغ بيت المال ، وفر السودان إلى عمّه بإشبيلية ، ومن البرابر ومن جند الأندلس مَن احتجب عنهم يحيى وتكبر عليهم ، ولم يمل إليه ملوك الطوائف ، وبقي منهم كثير على الخطبة لعمّه القاسم ، إلى أن اختلّت الحال بحضرة قرطبة ، وأيقن يحيى أنّه متى أقام بها قبض عليه ، وكان قد ولّى على سَبْتَة أخاه إدريس ، وبلغه أن أهل مالَقَة خاطبوا خَيْران وكاتبوه ، فطمع خيران فيها ، وفرّ يحيى في خواصه تحت الليل إلى مالَقَة ، ولمّا بلغ القاسمَ فرارُه ركب من إشبيلية إلى قُرْطبة ، فخطب له بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤١٣ ، ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة ، ووقع الاختلاف ، وكان هَوَى السودان معه ، وهوى كثير من البرابر مع يحيى ، وهوى أهل قرطبة مع قائم من بني أميّة يشيعون ذكره ولا يظهر ، وكثر الإرجاف بذلك ، ووقع الطلب على بني أميّة فتفرّقوا في البلاد ، ودخلوا في أغمار الناس ، وأخْفَوْا زيّهم ، ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة ، وتكاثر البلديون ، وأخرجوا القاسم وبرابرته فضرب خيمة بغربيها ، وقاتلهم مدّة خمسين يوماً قتالاً شديداً ، وبنى القرطبيون أبوابَ مدينتهم ، وقاتلوا القاسم من الأسوار إلى أن طال عليهم الحصار ، فهدموا باباً من الأبواب وخرجوا خَرْجَة رجل واحد وصبروا[1] فمنحهم الله تعالى الظفر ، وفر السودان مع القاسم إلى إشبيلية ، وفرّ البرابرة إلى يحيى وهو بمالَقَة ، وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٤١٤ .

وكان ابنُه محمد بن القاسم والياً على إشبيلية ، وثقته المدبرُ لأمره محمد بن زيري من أكابر البرابرة ، وقاضيها محمد بن عباد ، فعمل القاضي لنفسه ، وهو

---

١ في ق ك : وصفروا ؛ وفي بعض النسخ : وظفروا .

جد المعتمد بن عباد ، وأطمع ابنَ زيري في التملك ، فأغلق الأبواب في وجه مصطنعه وحاربه ، فقُتل من البرابر والسودان خلق كثير ، وابنُ عباد يضحك على الجميع ، فيئس القاسم ، وقنع أن يُخْرجوا إليه ابنه وأصحابه ويسير عنهم ، فأخرجوهم إليه ، فسار بهم إلى شَريش . وعندما استقرّ بها وصل إليه يحيى ابنُ أخيه من مالَقَةَ ومعه جمع عظيم وحاصره في المدينة عشرين يوماً كانت فيها حروب صعاب ، وقُتل من الفريقين خلق كثير ، وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمّه وإسلام أهل شَريشَ له ، وفرّ سودانه ، وحصل القاسم وابنه في يد يحيى ، وكان قد أقسم أنّه إن حصل في يده ليقتلنّه ، ولا يتركه حتى يلي الإمامة بقرطبة مرّة ثانية ، فرأى التربّص في قتله حتى يرى رأيه فيه ، فحدّث عنه بعض أصحابه أنّه حمله بقيد إلى مالَقَةَ ، وحبسه عنده ، وكان كلّما سكر وأراد قتله رغّبه ندماؤه في الإبقاء عليه لأنّه لا قدرة له على الخلاص ، وكان كلّما نام رأى والده علياً في النوم ينهاه عن قتله ، ويقول له : أخي أكبر منّي ، وكان محسناً إلي في صغري ومُسلّماً لي عند إمارتي ، الله الله فيه ، وامتدت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقاً بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه ، لأنّه كان قد حبسه في حصن من حصون مالَقَة ، فَنُميَ إليه أنّه قد تحدّث مع أهل الحصن في القيام والعصيان فقال : أوَبقي في رأسه حديث[1] بعد هذا العمر ؟ فقتله سنة ٤٢٧ ، وبقي أهل قرطبة بعد فرار القاسم عنها نيّفاً عن شهرين يَرَوْن رأيهم فيمن يبايعونه بالإمامة .

ولمّا كان يوم الثلاثاء[2] نصف شهر رمضان سنة ٤١٤ أحْضِرَ المستظهر وسليمان بن المرتضى وأموي آخر معه ، فبايعا المستظهر ، وقبّلا يده بعدما كان قد كُتب عَقْدُ[3] البيعة باسم سليمان بن المرتضى على ما ارتضاه الأماثل ،

١ ق : حدث .
٢ قارن هذا بما في الذخيرة ١/١ : ٣٥ — ٣٦ .
٣ ك : قبل البيعة .

فبُشِرَ اسمه ، وكتب اسمَ المستظهر وركب إلى القصر ، وحمل معه ابني عمّه المذكورين فحبسهما ، وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب ، كأبي عامر ابن شُهَيد المنهمك[1] في بطالته ، وأبي محمد ابن حَزْم المشهور بالرد على العلماء في مقالته ، وابن عمّه عبد الوهاب بن حزم الغَزِل المترف في حالته ، فأحقد بذلك مشايخ الوزراء والأكابر ، وبادر المستظهر باصطناع البرابر ، وأكرم مثواهم ، وأحسن مأواهم ، واشتغل مع ابن شُهَيْد وابني حَزْم بالمباحثة في الآداب ، ونظم الشعر والتمسّك بتلك الأهداب ، والناسُ في ذلك الوقت أجهل ما يكون ، وكان جماعة من أهل الشرّ في السجون يتعين أن لا يخرج منهم إنسان ، فأخرج منهم شخصاً يقال له أبو عمران ، وقد كان أشار بعض الوزراء عليه بعدم إخراجه ، فأخرجه وخالفه في ذلك ، ولم يقبل النصيحة ، وفعل ما أداه إلى الفضيحة ، فسعى القوم الذين خرجوا من الحُبُوس ، على إفساد دولته وإبدال فرحه بالبُوس ، لما اشتغل عنهم بالأدباء والشعراء حَسْبما اقتضاه رأيُه المعكوس ، فسعَوْا في خلعه مع البرابر ، وقُتل في ذي القعدة من السنة التي بويع فيها وصار كأمس الدابر ، بعد سبعة وأربعين يوماً من يوم بويع بالخلافة ، وإذا أراد الله أمراً فلا يقدر أحد أن يأتي خلافه ، وعمره ثلاث وعشرون سِنَة كأنّها سِنَة .

ومن شعر المستظهر المذكور ، وهو من القريض الممدوح صاحبه بالبلاغة المشكور[2] :

طال عُمرُ اللّيْلِ عندي　　مُذ تولّعْتَ بِصَدّي

يا غَزالاً نَقَضَ العَهـ　　ـدَ ولَمْ يوفِ بوَعْدِ

أنسيتَ العَهْدَ إذْ بِتْـ　　ـنا على مَفرشِ وَرْدِ

١ ق ط : المنهتك ؛ ج : المتهتك .

٢ مرت هذه الأبيات ص : ٤٣٦ .

واعْتَنَقْنا في وشاحٍ وانْتَظَمْنا نظمَ عِقدِ
ونجُومُ اللّيْلِ تَسْرِي ذَهبـــاً في لازوَرْدِ

وكتب إليه شاعر في طرسٍ مكشوط :

والطِّرْسُ مبشورٌ وفيه بشارَةٌ بِبَقا الإمامِ الفاضِلِ المستظْهِرِ
ملك أعاد العيش غضاً مُلْكُهُ وكذا يكونُ به طوال الأعْصُرِ

فأجزل صلته ، وكتب في ظهر الورقة :

قبلنا العُذْرَ في بَشْرِ الكتابِ لما أحْكمتَ في فصْل الخطابِ

وقد قدَّمنا في الباب الثالث شيئاً من هذه الأخبار ، وما حصل بعد ذلك بقرطبة إلى أن تولّى الأمر ابنُ جَهْور في صورة الوزارة ، ثم ابنه ، إلى أن أخذ قرطبة منه المعتمد بن عباد ، حسبما ذُكر في أخباره .

ثم آل الأمر بعد ذلك كلّه إلى استيلاء ملوك العُدْوَة من الملثّمين والموحّدين، على قرطبة ، إلى أن تسلّمها النصارى ، أعادها الله تعالى للإسلام ، كما يُذكر في الباب الثامن .

وقال صاحب « مناهج الفكر » في ذكر قرطبة ، ما ملخصه : فأمّا ما اشتمل عليه غرب الجزيرة ، من البلاد الخطيرة ، فمنها قُرْطُبة ، وكانت مقر الملك ، ودار الإمارة ، وأُمّ ما عداها من البلاد ، منذ افتتحها المسلمون سنة ٩٢ زمن الوليد بن عبد الملك إلى أن خرجت عن أيديهم ، وتنقلت في أيدي ملوك المسلمين إلى أن وصلت إلى الناصر عبد الرحمن ، فبنى في تجاهها مدينة سمّاها الزهراء ، يجري بينهما نهر عظيم ، انتهى .

[استطراد في وصف المباني العامرة]

واعلم أن المباني دالة على عظيم قدر بانيها ، كما ذكرناه في كلام الناصر

الذي طابت له من الزهراء مجانيها ، ولم يزل البلغاء يصفون المباني ، بأحسن الألفاظ والمعاني ، ورأينا أن نذكر هنا بعض ذلك ، زيادة في توسيع المسالك ، فمن ذلك قول ابن حَمْديس الصقلي[1] يصف دارا[2] بناها المعتمد على الله[3] :

ويا حبّذا دار قَضَى الله أنّها — يُجَدَّدُ فيها كلُّ عِزّ ولا يَبْلى[4]
مُقدَّسَةٌ لو أن مُوسَى كليمَهُ — مَشَى قُدُماً في أرْضِها خلع النَّعْلا
وما هِيَ إلا خُطَّةُ الملك الذي — يَخطُّ إليه كلُّ ذي أمَلٍ رجْلا
إذا فُتحَتْ أبوابُها خِلْتَ أنّها — تقولُ بترحيبٍ لداخِلِها أهْلا
وقد نَقَلَتْ صُنّاعُها من صفاته — إليها أفانيناً فأحْسَنَتِ النَّقْلا
فمن صَدْره رحباً ومن نوره سَناً — ومن صيته فرعاً ومن حلمه أصلا
فأعْلَتْ به في رُتْبَةِ الملك نادياً — وقَلَّ له فوق السّماكين أن يُعْلى
نسيتُ به إيوانَ كسْرَى لأنّني — أراه له مَوْلًى من الحسن لا مِثْلا
كأنَّ سليمان بن داود لَمْ تُبِحْ — مَخافته للجِنّ في صُنْعه مَهْلا
تَرَى الشمسَ فيه ليقةً تستمدّها — أكفٌّ أقامَتْ من تصاويرها شَكْلا
لها حرَكاتٌ أُودِعت في سكونها — فما تبعت في نقلهن يَدٌ رِجْلا
ولمّا عَشينا مِنْ تَوَقّد نورها — تخِذْنا سَنَاهُ في نَوَاظِرنا كحلا

وقال من أخرى يصف داراً بناها المنصور بن أعلى الناس بِبِجاية[5] :

....

١ أبو بكر عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي ، هاجر من بلده إلى الأندلس وأصبح من مداح المعتمد بن عباد ، إلى أن عزل عن ملكه (٤٨٤) فغادر الأندلس إلى المغرب وظل متنقلا يمدح ملوكها إلى أن توفي سنة ٥٢٧ (انظر مقدمة ديوانه ، ط . صادر – بيروت ١٩٦٠) .
٢ ك : في دار ؛ ق : يمدح داراً .
٣ المقتطفات (الورقة : ٢٩) وديوان ابن حمديس : ٣٧٨ .
٤ رواية الديوان :
ويا حبذا دار يد الله مسحت — عليها بتجديد البقاء فما تبلى
٥ المقتطفات (الورقة : ٣٠) وديوان ابن حمديس : ٥٤٥ نقلا عن النفح ونهاية الأرب ومطالع البدور .

اعمُرْ بقَصْرِ الملك ناديكَ الذي ... أضحى بمَجْدِكَ بَيْتُه مَعْمُورا
قصْرٌ لو انّكَ قد كحلْتَ بنوره ... أعمى لعاد إلى المقام بَصيرا
واشْتُقَّ من مَعْنَى الحياة[1] نسيمُهُ ... فيكادُ يُحدث للعظام[2] نُشُورَا
نُسِيَ الصبيحُ مَع المليح[3] بذكره ... وسَما ففاقَ خَوَرْنَقاً وسَدِيرا
ولو انّ بالإيوان قوبِلَ حُسْنُه ... ما كان شيئاً عنده مَذْكُورا
أعيَتْ مصانعُهُ على الفُرْسِ الأُلى ... رَفعُوا البناء وأحكَمُوا التّدبيرا
ومضَتْ على الروم الدهورُ وما بَنَوا ... لملوكهم شَبَهاً لَهُ ونَظِيرا
أذكرتَنا الفِردَوسَ حين أرَيْتَنا ... غُرفاً رفعْتَ بناءها وقُصُورا
فالمحسنون تزيّدُوا أعمالَهُمْ ... ورجَوْا بذلك جَنّةً وحريرا
والمذنبون هُدوا الصّراط وكفّرت ... حَسَناتُهُمْ لذنوبهمْ تكْفيرا
فَلَكٌ من الأفلاك إلاّ أنّه ... حقَرَ البدورَ فأطلعَ المنصورا
أبصَرْتُه فرأيتُ أبدعَ منظرٍ ... ثمّ انثنيتُ بناظري محسورا
وظننتُ أنّي حالِمٌ في جنّةٍ ... لمّا رأيتُ الملك فيه كبيرا
وإذا الولائدُ فتّحتْ أبوابهُ ... جعلتْ ترحّبُ بالعُفاة صريرا
عَضّتْ على حلقاتهنّ ضراغمٌ ... فَغَرَتْ بها أفواهها تكشيرا[4]
فكأنّها لَبَدَتْ لتهصر عندها ... مَنْ لم يكن بدُخُوله مأمُورا
تَجْري الخواطرُ مُطْلَقاتِ أعنّةٍ ... فيه فتكْبُو عنْ مَداه قصُورا
بمُرَخّمِ الساحات تحسبُ أنّه ... فُرِشَ المها وتوشّح الكافورا
ومُحصّبٍ بالدُّرّ تحسبُ تُرْبَهُ ... مسكاً تضوّعَ نَشْرُه وعَبيرا
تستخلف الأبصار منْهُ إذا أتى[5] ... صُبْحاً على غسق[6] الظلامِ مُنيرا

١ ك : الجنان .
٢ ك : بالعظام .
٣ ك : الفصيح .
٤ ك : تكبيرا .
٥ ق ج ط : تستخلف الاصباح منه إذا انقضى .
٦ ق ج ط : عنق .

ثم ذكر بركة فيه عليها أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها المياه ، وتفنن فذكر أسوداً على حافاتها قاذفة بالمياه أيضاً ، فقال[1] :

وضراغم سكنت عرين رياسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ... وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك ... في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعاً فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناي بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت إلى ... سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد صولجت أغصانها فكأنما ... قنصت بهن[2] من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لواقع[3] طيرها ... أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فإن شدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة ... لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موقع قطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه إليك كأنما ... جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الأبواب تبراً نظروا ... بالنقش فوق شكوله[4] تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت ... تلك النهود من الحسان صدورا[5]

١ المقتطفات (الورقة : ٣٠) وديوان ابن حمديس : ٥٤٧ .
٢ ق ج ط : قد صوبحت . . . قبضت بهن . ٣ ك : لوقع .
٤ ق ج ط: بين شكوله .
٥ ق ك ج ط : من الجنان صدورا .

خَلَعَتْ عَلَيْهِ غلائلاً ورْسِيّةً [1] شَمْسٌ تردّ الطَّرْفَ عَنْهُ حَسيرا
وإذا نَظَرْتَ إلى غرائبِ سَقْفِهِ أبْصَرْتَ رَوْضاً في السّماء نَضيرا
وعجبتَ من خُطّاف عَسجده التي حامَتْ لتَبْنيَ في ذُرَاهُ وُكُورا
وضعتْ بهِ صُنّاعُهُ [2] أقْلامَهَا فأرتْكَ كلَّ طَرِيدَةٍ تَصْويرا
وكأنّما للشمس فيهِ لِيقَةٌ مَشَقُوا بها التزويق والتّشْجيرا
وكأنّما باللاّزَوَرْدِ [3] مخرَّمٌ بالخطّ في وَرَق السّماء سُطورا
وكأنّما وَشَوْا عَلَيْهِ مُلاءة تَرَكُوا مكانَ وِشاحها مَقْصُورا

ثم مدح المنصور بعد ذلك ، وختم القصيدة بقوله :

يا مالكَ الأرضِ الذي أضحى لَهُ مَلِكُ السماء على العُداة نَصيرا
كَمْ من قُصُورٍ للملوكِ تقدَّمَتْ واسْتَوْجَبَتْ بِقُصُورِك [4] التأخيرا
فعمرْتَها وملكْتَ كلّ رياسةٍ مِنْها ودمّرْتَ العِدَا تَدْميرا

قلت : لم أر لهذه القصيدة من نظير ، في معناها اليانع النّضير ، ولفظها العذب النّمير ، الذي شمّر فيه قائلها عن ساعد الإجادة أيّ تشمير ، غير أن فيها عندي عيباً واحداً ، وهو ختمها بلفظ التدمير ، وعلى كل حال فالحسن والإحسان ، يُقادان في أرْسان ، لعبد الجبار بن حَمْديس المذكور ذي المقاصد الحسان ، وخصوصاً في وصف المباني والبرَك ، فما أبقى لسواه في ذلك حُسناً ولا تَرَك .

ومن ذلك قولُه في وصف بركة تجري إليها المياه من شاذَرْوان من أفواه

---

١ ق : موشية .
٢ ك : صناعها .
٣ ك : اللازورد فيه .
٤ ق : لقصورك .

طيور وزرافات وأُسود ، وكل ذلك في قصر أطنب في وصفه في قصيدة طويلة [1]

والماء مِنْهُ سَبائكٌ فضيَّةٌ [2] ذابَتْ على دَوْحات [3] شاذَرْوانِ
وكأنّما سيفٌ هناك مُشَطَّبٌ ألقتهُ يومَ الحرب كَفُّ جَبانِ
كم شاخصٍ فيه يُطيلُ تَعَجُّباً من دَوْحَة نبتَتْ [4] من العقيانِ
عَجباً لها تَسْقي الرياضَ ينابِعاً نَبَعَتْ من الثمرات والأغصانِ
خُصَّتْ بِطائرة على فَنَنٍ لها حَسُنَتْ فأفرِدَ حُسْنُها من ثاني
قُسٌّ الطيور الخاشعات بلاغةً وفصاحةً من مَنْطقٍ وبَيانِ
فإذا أُتيحَ لها الكلامُ تكلّمَتْ بِخَرِيرِ ماء دائِمِ الهَمَلانِ
وكأنّ صانعَها استبدّ بصَنْعَةٍ فَخَرَ الجمادُ بها على الحَيَوانِ
أوْفَتْ على حَوْضٍ لها فكأنّها منها على العَجبِ العُجابِ رَوَاني
فكأنّها ظنّتْ حلاوةَ مائها شهْداً فذاقتْهُ بكلِّ لسانِ
وزَرَافة في الجوْف من أنبوبها ماء يُريكَ الجَرْيَ في الطيرانِ
مركوزة كالرمحِ حيثُ ترى له من طعنهِ الخلقَ انْعطافَ سنانِ
وكأنّما تَرْمي السماء ببُنْدُقٍ مُسْتَنبَطٍ من لؤلؤ وجُمانِ
لو عاد ذاك الماء نفْطاً أحرقت في الجوّ مِنهُ قميصَ كلّ عَنانِ
في بِرْكةٍ قامت عَلى حافاتها أُسْدٌ تذلُّ لعزّة السلطانِ
نزّعت إلى ظُلْم النفوس نفوسُها فلذلك انْتُزِعَتْ من الأبدانِ
وكأنّ بَرْدَ الماء مِنْها مُطْفِىء ناراً مُضَرَّمةً من العدوانِ
وكأنّما الحيّاتُ من أفواهها يَطْرَحنَ أنفسهُنّ في الغُدرانِ
وكأنّما الحيتانُ إذ لم تَخْشَها أخذَت من المنصور عقدَ أمانِ

---

[1] المقتطفات (الورقة : ٣٢) وديوان ابن حمديس : ٤٩٥ ، ونهاية الأرب .
[2] ك : من فضة .
[3] ك : درجات .
[4] ق ج ط : بنيت .

وهاتان القصيدتان لابن حمديس – كما في المناهج – مع طولهما تدلان على الإبداع الذي ابتكره ، والاختراع الذي ما ولج سمع أحد من الفضلاء إلا شكره[1] .

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي[2] يصف قصراً بمصر يسمى « منزل العز » بناه حسنُ بن علي [بن يحيى] بن تميم بن المعزّ العُبيدي[3] :

منزلُ العزّ كاسْمه مَعْناهُ ... لا عَدا العزُّ مَنْ به سَمّاهُ
منزلٌ وَدَّت المنازلُ في أعـ ... ـلى ذرّاه لو صُيِّرَتْ إيّاهُ
فأجِلْ فيه لحظَ عينيك تُبْصِرْ ... أيّ حُسْنٍ دون القصورِ حواه
سال في سقْفه النُّضارُ ولكنْ ... جمدت في قرارِه الأمْواه
وبأرْجائه مَجالُ طِرادٍ ... ليس تَنْفَكُّ من وغىً خيْلاه
تُبصر الفارسَ المدجَّج فيه ... ليس تَدْمى من الطعان قناه
وتَرى النابلَ المواصلَ للنز ... ع بَعيداً من قِرْنِه مَرْماه
وصُفُوفاً من الوحوش وطيرِ الـ ... ـجوِّ كُلٌّ مُسْتَحْسَنٌ مرْآه
سكَنَاتٌ تخالُها حَركاتٍ ... واختلافٌ كأنّه إشْباه

... ...

١ زاد في ك : لما أسكره .

٢ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز : ولد بدانية سنة ٤٦٠ ثم رحل إلى الإسكندرية أيام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أبي تميم معد ، وسجن بمصر مدة ، ثم عاد إلى المغرب فاتصل بيحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي ؛ وتوفي سنة (٥٢٩) وكان أبو الصلت طبيباً شاعراً ومن مؤلفاته كتاب الحديقة ، والرسالة المصرية (وقد نشرت هذه بتحقيق عبد السلام هارون في سلسلة نوادر المخطوطات ، القاهرة ١٩٥١) . انظر ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٢ ومعجم الأدباء ٧ : ٥٢ وتحفة القادم ص : ٣ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٠ وتاريخ الحكماء : ٨٠ والمغرب ١ : ٢٥٦ .

٣ كلمة العبيدي هنا مضللة لأن « حسن بن علي بن تميم بن المعز » أحد سلاطين بني زيري بالقيروان وكان المعز عبيدياً بالتبعية أي يدين للعبيديين ولكنه تنكر لهم سنة ٤٤١ وعاد إلى مذهب أهل السنة ؛ وحسن لا يبني قصراً بمصر ، ولا بد من أن يكون المقري قد وهم فذكر قصراً بناه أحد العبيديين بمصر أو بناه حسن بالمهدية . أما الشاعر تميم بن المعز العبيدي فكان عقيماً (الحلة ١ : ٢٩١) .

كُحيّا الحبيب حرفاً بحرف ما تعدّى صفاتِه إذْ حكاه
وَرْدُه وجنتاه ، نرجسه الفتّا نُ عَيْناه ، آسُهُ عارضاه
وكأنّ الكافور والمسك في الطيـ ـبِ وفي اللون صُبحه ومَساه
منْظرٌ يبعثُ السرور ومَرْأى يذكر المرءَ طيب عَصْرِ صباه

وقال أبو الصّلت أميّة الأندلسي المذكور يذكر بناء بناه عليّ[1] بن تميم ابن المعزّ العُبَيْدي :

لله مجلسُك المنيفُ قبابُهُ بموطّدٍ فوق السّماكِ[2] مؤسّسِ
مُوفٍ على حُبُكِ المجرّة تَلْتَقي فيه الجواري بالجواري الكُنّسِ
تتقابلُ الأنوار من جَنَباته فالليلُ فيه كالنّهار المشْمِسِ
عَطَفَتْ حَنَاياه دُوَيْنَ سمائِه عَطْفَ الأهلّةِ والحواجب والقِسِي
واستشرفتْ عمُد الرخام وظوهرت بأجلّ من زهر الربيع وأنفَسِ
فهواؤه من كلّ قَدّ أهيَفٍ وقَرارُه من كلّ خَدّ أمْلَسِ
فلَكٌ تحيّر فيه كلُّ منجّمٍ وأقرّ بالتقصير كلُّ مُهَنْدِسِ
فبدا لِلَحْظِ العَيْنِ أحسنَ منظرٍ وغدا لطيب العَيْش خيرَ[3] مُعرّسِ
فاطلعْ به قمراً إذا ما أطلعت شمس الخدور عليك شمس الأكؤس
فالناس أجْمَعُ دون قَدْرك رتبةً والأرض أجمع دون هذا المجلسِ

ويُعْجبني قول أبي الصّلت أميّة المذكور يصف حال زيادة النيل ونقصانه :

ولله مَجْرَى النيلِ منها إذا الصَّبا أرَتْنا به من مَرّها عَسْكَراً مَجْرا
إذا زاد يحكي الوردَ لَوْناً وإن صفا حكي ماءه لَوْناً ولم يعدُه نشرا[4]

---

١ تحفة القادم : يحيى بن تميم .
٢ ق ج ط : السماء .
٣ ك : طيب .
٤ ك : ولم يحكه مرا .

وقال رحمه الله تعالى يصف الرصد الذي بظاهر مصر :

يا نُزْهة الرصد اللائي قَدِ اشْتَمَلَتْ من كلّ شيء حلا في جانب الوادي [1]
فذا غَدِيرٌ، وذا رَوْض ، وذا جَبَل والضبُّ والنّونُ والملاّح والحادي

وهو مأخوذ من قول الأول يصف قصر أنس بالبصرة [2] :

زُرْ واديَ القصر ، نعْم القصرُ والوادي لا بُدّ من زَوْرة مِنْ غَيرِ مِيعادِ
زُرْهُ فَلَيْس لَهُ نِدٌّ يُشاكلُه من منزلٍ حاضرٍ إن شئت أو بادي
تلقَى به السُّفْنَ والظلمان حاضِرَةً والضبَّ والنونَ والملاّحَ والحادي

وقال رحمه الله تعالى يذكر الهَرَمين [3] :

بعَيْشِك هل أبصرت أحسَن مَنْظَراً على طول ما عايَنْتَ من هرَمَيْ مِصْرِ
أنافا بأعنان [4] السّماء ، وأشرفا على الجوّ إشرافَ السِّماكِ أو النَّسْرِ [5]
وقَدْ وافَيا نَشزاً مِنَ الأرضِ عالياً كأنهُما ثديانِ [6] قاما على صدْرِ

وستأتي ترجمته إن شاء الله تعالى في الباب الخامس .

وعلى ذكر الأنهار والبرك فما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدّة فوّارات [7] :

غَضِبَتْ مجاريها فأظْهر غَيْظُها ما في حشاها من خَفِيّ مُضْمَرِ

. . . .

١ ق ط : النادي .
٢ الشعر لابن أبي عيينة المهلبي كما في الأغاني ٢٠ : ٣٧ (دار الثقافة) ومعجم البلدان (قصر عيسى) مع بعض اختلاف في الرواية .
٣ الأبيات في مسالك الأبصار ١ : ٢٣٧ وبدائع البدائه : ١٣٦ (ط . بولاق) .
٤ ك : بأكناف .
٥ ك : على النسر .
٦ ك : نهدان .
٧ المقتطفات (الورقة : ٣٣) .

وكأنّ نَبْعَ الماء من جَنَباتها والعينُ تَنْظُر منه أحْسنَ منظرِ
قُضُبٌ من البلّوْر أثمر فَرْعُها لمّــا انتهت باللؤلؤ المتحـدّرِ

وقال ابن صارة الأندلسي[1] يصف ماء بالرقة والصفاء[2] :

والنّهر قد رَقّتْ غِلالَةُ خَصره وعليه من صِبْغِ الأصيل طِرازُ
تترقرقُ الأمواج فيهِ كأنّها عُكَنُ الخصور تهزها الأعجازُ

وما أحسن قول بعض الأدباء ولم يحضرني الآن اسمه[3] :

والنّهرُ مكسوٌّ غِلالَة فضّةٍ فإذا جرى سيلاً فثوبَ نُضارِ
وإذا استقام رأيت صفحة مُنْصُلٍ وإذا استدار رأيت عطف سِوَارِ

وقال ابن حَمْديس المغربي يصف نهراً بالصفاء[4] :

ومُطّردِ الأمواج يصقلُ متنه صَبَاً أعلنتْ للعين ما في ضميرهِ
جريحٌ بأطراف الحصى كلّما جرى عليها شكا أوْجاعَهُ بخَريرهِ

وهذا النهج متّسع ، ولم نطل السير في هذه المهامهِ ، وإنّما ذكرنا بعض كلام المغاربة ليتنبه به مُنْتَقِصهم من سِنَة أوهامه ، ولأن في أمرها عبرة لمن عقل ، إذا أصدأ مرآة حسنها ولطالما كان لمتنها صَقَل .

١ ابن صارة الأندلسي : أبو محمد عبد الله بن صارة الشنتريني (ويكتب أيضاً : سارة بالسين) سكن إشبيلية وتعيش فيها بالوراقة وتجول في بلاد الأندلس مادحاً (توفي سنة ٥١٧) . انظر ترجمته في الذخيرة ، القسم الثالث : ٣٢٣ والمغرب ١ : ٤١٩ والقلائد : ٢٦٠ والتكملة : ٨١٦ ومسالك الأبصار ١١ : ٣٨٣ وأخبار وتراجم أندلسية : ١٥ ؛ وهذه الأبيات في المقتطفات (الورقة : ٣٣) .

٢ زاد في ك : يجري على الصفا .

٣ المقتطفات (الورقة : ٣٣) .

٤ ديوان ابن حمديس : ١٨٦ والمقتطفات (الورقة : ٣٣) .

[البكاء على خراب العمران]

وقد وقفت على كلام لصاحب المناهج في هذا المعنى فأحببت ذكره ملخصاً ، وهو : ونُلْحق بذكر المنازل التي راق منظرها ، وفاق مخبرها ، وارتفع بناؤها ، واتسع فِناؤها ، طَرَفاً من الكلام على ما عَفاه الدهرُ من رسومها ، ومحاه من محاسن صُوَر كانت أرواحاً لجسومها .

وصف أعرابي محلةَ قومٍ ارتحلوا عنها فقال نثراً : ارتحلت عنها ربّات الخُدور ، وأقامت بها أثافيُّ القدور ، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياحُ آثارهم ، وذهبت بأبدانهم وأبقتْ أخبارهم ، والعهدُ قريب ، واللقاء بعيد .

وقال عمر بن أبي ربيعة فأحسن[1] :

يا دارُ أمْسَى دارساً رَسْمُها وَحْشاً قفاراً ما بِها آهِلُ
قَدْ جَرَّتِ الريحُ بها ذَيْلَها واسْتَنَّ في أطلالها الوابِلُ

ومن كلام الفتح بن خاقان ، في قلائد العقيان ، يذكر آل عبّاد من فَصْل أكثر فيه التفجّع ، وأطال به التوجّع[2] : والغصون[3] تختال في أدواحها ، والأزاهر يُحْيي ميتَ الصبابة شَذَا أرواحها[4] ، وأطيارُ الرياض[5] قد أشرفت عليهم[6] كثَكالى يَنُحْنَ على خرابها ، وانقراض أطرابها ، والوهي بمشيدها لاعِب ، وعلى كل جدار منها غُراب ناعِب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلّصت ظلالها وأفياءها ، ولطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من

---

١ ديوان عمر : ٣٠١ .
٢ قلائد العقيان : ١٠ .
٣ ق ك ج ط : والقصور .
٤ القلائد : وتتثنى في أكف أرواحها .
٥ القلائد : وآثار الديار .
٦ قد أشرفت عليهم : زيادة من القلائد .

شَذَاهم وأرجَت[1] ، أيّام نزلوا خلالها ، وتفيّأوا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجنّاتها ، ونبّهوا الآمال من سِناتها ، وراعوا الليوث في آجامها ، وأخجلوا الغيوثَ عند انسجامها ، فأصبحت ولها بالتداعي[2] تلفّع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلاّ نُؤي وأحْجار ، قد هوَت قِبابُها ، وهَرِمَ شَبابُها ، وقد يلين الحديد ، ويَبْلَى على طيّه الجديد .

وقال أبو صخر القُرْطُبي يذكر ذلك من أبيات ينعاهم بها :

ديار علَيْها مِنْ بَشاشة أهْلِها بقايا تسُرُّ النفسَ أنْساً ومَنْظَرا
رُبوع كساها المُزْنُ من خِلَع الحيا بُرُوداً وحلاّها من النَّورِ جَوْهرا
تسُرُّك طَوْراً ثمّ تُشْجيك تارةً فترتاحُ تأنيساً وتَشْجَى تذكُّرا

ومن كلام أبي الحسن القاشاني يصف ناديَ رئيسٍ خلا من ازدحام الملا ، وعوّضه الزمانُ من تواصُل أحبابه هجراً وقِلى : « قد كان منزله مألفَ الأضياف ، ومأنسَ الأشراف ، ومُنْتَجَعَ الرّكب ، ومَقْصِدَ الوفد ، فاستبدل بالأنس وحشة ، وبالضياء ظُلْمة ، واعتاض من تزاحم المواكب ، تلاطُمَ النّوادب ، ومن ضجيج النداء والصّهيل ، عَجيج البكاء والعَويل » .

ومن رسالة لابن الأثير الجَزَريّ يصف دِمْنَة دارٍ[3] لعبت بها أيدي الزمن ، وفرقت بين المسكن والسكن : « كانت مقاصيرَ جَنّة ، فأصبحت وهي ملاعبُ جِنّة ، وقد عميت أخبار قُطّانها ، وآثار أوطانها ، حتّى شابهت إحداهما في الخفاء ، الأخرى في العَفاء ، وكنت أظن أنّها لا تُسقى بعدهم بغَمام ، ولا يُرْفع عنها جِلْبابُ ظلام ، غير أن السحاب بكاهم فأجرى بها هوامعَ دموعه ، واللّيل شقّ عليهم جيوبَه فظهر الصباحُ من خلال صُدوعه » .

---

١ ك : وتأرجت .
٢ بالتداعي : زيادة من القلائد .
٣ دار : سقطت من ك .

وقد لمح في بعض كلامه قول الشريف [1] من أبيات يصف فيها ما كان في الحيرة من منازل النعمان بن المنذر [2] :

ما زلْتُ أطْرِقُ المنازل باللّوَى ... حتى نزلْتُ منازل النّعْمانِ
بالحِيرَةِ البيضاء حيث تقابَلَتْ ... شُمُّ العِماد عريضةَ الأعطانِ
شهِدَتْ بفضل الرّافعينَ قِبابَها ... ويَبِينُ بالبنيانِ فَضْلُ الباني
ما ينفَعُ الماضين أن بقيَتْ لهم ... خطَطٌ مُعَمَّرَةٌ بِعُمْرٍ فاني

يقول فيها :

ولقَدْ رأيتُ بدَيْرِ هندٍ منزلاً ... ألمّا من الضّرّاء والحِدْثانِ
يُغْضِي كمستَمِعِ الهوَانِ تغيَّبَتْ ... أنصارُهُ وخَلا من الأعْوَانِ
بالِي المعالم أطْرَقَتْ شُرُفاتُهُ ... إطراقَ مُنجذبِ القَرينةِ عاني
أمَقاصِرَ الغِزلانِ غيَّرَكِ البِلَى ... حتى غدَوْتِ مَرابِضَ الغِزْلانِ
وملاعِبَ الإنس الجميع طوى الرّدى ... منهُمْ فصِرْتِ ملاعِبَ الجِنّانِ

ومنها :

مِسْكِيّةُ النفحات تحْسِبُ تُرْبَها ... بُرْدَ الخليع مُعَطَّرَ الأردانِ
وكأنّما نَسِيَ التِّجارُ لَطِيمَةً ... جرَتِ الرّياح بها على القِيعانِ [3]
ماء كجَيْبِ الدّرع يَصْقُلُه الصَّبا ... ويفي بدَوْحَتِه [4] النّسيم الواني
زَفَرَ الزّمانُ علَيْهِمُ فتفرّقُوا ... وجلَوْا عن الأوطار والأوطانِ

---

١ يعني الشريف الرضي .
٢ ديوان الشريف ٢ : ٤٦٨ .
٣ ق ك والديوان : العقيان .
٤ الديوان : ونقا يدرجه .

وقال أبو إسحاق الصابي ، وتواردَ مع الشريف الرضي في المعنى والقافية ، يصف قصر رَوْحٍ بالبصرة[1] :

أحْبِبْ إليّ بِقَصْرِ رَوْحٍ منزلاً ... شهدتْ بَنِيّتُه بفضل الباني
سورٌ علا وتمنّعتْ شُرُفاتُه ... فكأنّ إحداهنّ هَضْبُ أبانِ
وكأنّما يَشْكو إلى زُوّارِهِ ... بَيْنَ الخليط وفُرْقَةَ الجيرانِ
وكأنّما يُبْدي لهم من نفسه ... إطراقَ محزونِ الحَشا حرّانِ

ولأحمد بن فرج الإلبيري من أبيات :

سألْتَ بها فما رَدّتْ جَوَاباً ... عليْك ، وكيف تخبرُك الطّلولُ ؟
ومِنْ سَفَهٍ سُؤالُكَ رَسْمَ دارٍ ... مَضَى لعفائِهِ زمَنٌ طَويل
فإن تكُ أصْبَحَتْ قَفْراً خَلاء ... لعَيْنِكَ في مَغانيها هُمُول
فقِدْماً قد نَعِمْتَ قريرَ عَيْنٍ ... بها وبرَبْعها الرشأ الكَحيل

وقال أبو عبد الله بن الخيّاط[2] الأندلسي الأعمى :

لَوْ كنتَ تَعْلَمُ ما بالقلب من نارٍ ... لَمْ توقد النّار بالمنديّ والغارِ
يا دار عَلْوَةَ قد هيّجتِ لي شَجَناً ... وزدتني حُرَقاً ، حُيّيتِ من دار
كم بتُّ فيكِ على اللذّات مُعْتكِفاً ... واللّيلُ مُدَّرِعٌ ثوباً من القار
كأنّه راهبٌ في المِسْح مُلْتَحِفٌ ... شدَّ المجدُّ له وَسْطاً بزُنّار
يُدير فيه كؤوسَ الراح ذو حَوَرٍ ... يدير من طرفه[3] ألحاظ سَحّار

ولا مزيد في التفجّع على الديار ، والتوجّع للدمن والآثار ، على قول البحتري من قصيدة يرثي بها المتوكّل[4] :

---

١ أبيات الصابي في اليتيمة ٢ : ٢٦٩ .
٢ في الأصول : ابن الخياط .
٣ ك : من لحظه .
٤ ديوان البحتري : ١٠٤٥ (القصيدة رقم : ٤١٣) .

محلٌ علَى القاطول أخلَقَ دائرُهْ وعادتْ صروفُ الدهر جيشاً تُغاورُهْ[1]
كأن الصَّبا توفي نذوراً إذا انبرت تُراوِحُه أذيالها وتباكِرُه
ورُبَّ زمانٍ ناعمٍ ثَمَّ عَهْدُهُ ترقُّ حواشيه ويونقُ ناضره
تغيَّر حُسْنُ الجعْفريِّ وأنسُه وقُوِّض بادي الجعفريّ وحاضره[2]
تحمَّلَ عَنْهُ ساكنوه فُجاءة فعادت سواء دوره ومقابره
إذا نحن زُرْناه أجَدَّ لنا الأسَى وقد كان قبل اليوم يبهَجُ زائرُه
ولم أنس وحش القصر إذ ريعَ سِرْبُه وإذ ذُعِرَت أطلاؤه وجآذِرُه
وإذ صِيحَ فيه بالرحيل فهُتِّكت على عَجَلٍ أسْتارُه وستائرُه
وأوحَشَهُ[3] حتى كأن لم يكن[4] به أنيسٌ ولم تَحْسُنْ لعينٍ مَناظِرُه
كأن لم تَبِتْ[5] فيه الخلافة طَلْقَة بشاشَتُها والمُلْكُ يُشْرِقُ زاهرُه
ولم تجمَعِ الدُّنيا إليْهِ بَهاءها وبَهْجَتَها والعيشُ غَضٌّ مكاسرُه
فأين الحجابُ الصعب حيث تمنَّعَتْ بهيْبَتِها أبوابُه ومقاصرُه
وأين عميدُ الناس في كل نَوْبَة تنوب وناهي الدهر فيهم وآمرُه

وعلى قول أبي إسحاق بن خفاجة الأندلسي[6]

ومُرْتَبَعٍ حطَطْت الرحل فيه بحيْثُ الظِّلُّ والماءُ القَراحُ
تخرَّمَ حُسْنَ منظرِه مليكٌ تَخَرَّمَ مُلْكَهُ القدَرُ المُتاحُ
فجريَةُ ماء جدْولِه بكاء عليه ، وشَدْوُ طائرِه نُواحُ

. وهذا النوع من البكاء على الدمن ، والتأسف على ما فعلت بها أيدي الزمن ،

١ القاطول : نهر كان في موضع سامرا قبل عمرانها ؛ وفي ق ك ج ط : تغادره .
٢ الجعفري : قصر للمتوكل .
٣ الديوان : ووحشته .
٤ ق ط ج : لم يقم .
٥ ق ك : تبن .
٦ ديوان ابن خفاجة : ١٣٧ ، يقولها في صفة مصنع جميل خلع سلطانه .

كثير جداً ، لا يعرف الباحث عنه له حداً ، وذلك لشدة وَلُوع النفوس بذكر أحبابها ، وحنينها إلى أماكنها التي هي مواطن أطرابها ، ولهذا اقتصرنا على هذه النبذة القليلة ، وجعلناها نُغبة[1] يشفي المشوقُ بها غليله ، وقد كره بعض العقلاء التأسف على الديار لعلمهم أنّه لا يُجْدي ، ولا يدفع عادية الدهر الخؤون ولا يُعْدي ، ونهوا عنه لما فيه من تجديد المصاب ، المجرّع لصاحبه الصاب والأوصاب .

قال أبو عمر بن عبد البر :

عفتِ المنازل غير أرْسُمٍ دِمْنة ... حيّيتُها من دِمْنةٍ ورُسُوم
كم ذا الوقوف ولم تَقِفْ في منسك ... كم ذا الطواف ولم تطفْ بحريم
فَكِلِ الديار إلى الجنائب والصَّبا ... ودَعِ القِفار إلى الصدى والبوم

انتهى كلامه رحمه الله تعالى بأكثر لفظه مع بعض اختصار .

رجع إلى قرطبة — فنقول :

[رسائل للسان الدين]

وقد ألمّ لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى بذكر قرطبة وبعض أوصافها في كتاب له كتبه على لسان سلطانه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وقد ذكرناه بجملته في الباب الخامس من القسم الثاني فليراجَع ثمّةَ ، ونص محلّ الحاجة منه هنا : ثم كان الغزو إلى أم البلاد ، ومَثْوَى الطارف والتّلاد ، قرطبة ، وما قرطبة ؟ المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل ، والكرسي الذي بعصاه رُعِي الهَمَل ، والمصر الذي له في خطّة المعمورِ الناقة والجمل[2] ، والأفق الذي هو لشمس الخلافة العَبْشَمية الحمل ، فخيم الإسلام

---

١ ك : نبعة ؛ هامش ج : بلغة .
٢ ك : والمصر والمعمور الذي ... إلخ .

في عقوتها[1] المستباحة ، وأجاز نهرها المعيي على[2] السباحة ، وعمّ دوحها الأشيبَ بواراً ، وأدار المحلاّت بسورها سواراً ، وأخذ بمُخَنَّقها حصاراً ، وأعمل النصر بشجرة أصلها اجتناء ما شاء واهتصاراً ، وجدّل من أبطالها من لم يرضَ انجحاراً ، فأعمل إلى المسلمين إصحاراً ، حتى قرع بعضَ جهاتها غِلاباً جهاراً ، ورفعت الأعلام إعلاماً بعزّ الإسلام وإظهاراً ، فلولا استهلال الغوادي ، وأن أتى الوادي ، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادي ، ولقضى تَفَثَه العاكفُ والبادي . انتهى .

ومما كتب به لسان الدين – رحمه الله تعالى – في وصف هذه الغَزْوة لسلطان بني مَرِين على لسان صاحب الأندلس ، ما صورته : المقامُ الذي نُطالعه بأخبار الجهاد ، ونُهْدي إليه عواليَ العوالي صحيحة الإسناد ، ونبشره بأخبار الفتح البعيد الآماد ، ونسأل الله تعالى له تَوَاليَ الإسعاف ودوام الإسعاد والإمداد[3] ، ونرتقب من صُنع الله تعالى على يديه تكييفاً يخرق حجاب المعتاد ، وامتعاضاً يُطْلِع بآفاق البلاد نجومَ غرر الجياد ، ويفتح أبواب الفتوح بأقاليد السيوف الحِداد ، وينبىء عن مكارم مَنْ سلف من الآباء الكرام والأجداد ، مقامُ محل أخينا الذي نستفتح له بالفتح والظهور ، ونهدي إلى مَجْده لما نعلم من فضل نيّته وحسن قصده لَطائفَ السرور ، ونستظهر بملكه المؤيد[4] المؤمّل ومجده المشهور ، ونتوعد منهما العدوّ بالحبيب المَذْخُور والولي المنصور ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى عالي القدر ، قرير العين منشرح الصدر ، ولا زال حديث فخره سائراً مسيرَ الشمس والبدر ، عَظّم سلطانَه الخليقَ بالتعظيم ، الواثقُ منه بالذُّخْر الكريم ، المثْني على

[1] ك : في عفرتها ؛ ق ط : بعقرتها ، والعقوة – بالواو – : الساحة .
[2] ك : المغني عن .
[3] ك : توالي الأسعار والأمداد ؛ وسقطت « الأمداد » من ط ج .
[4] المؤيد : زيادة في ك .

مجده الصَّميم وفضله العميم ، أميرُ المسلمين عبد الله الغني بالله محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر: سلام كريم ، برّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، وأخُوَّتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله ربّ العباد ، ومُلْهِم الرشاد ، ومُكَيِّف الإسعاف والإسعاد ، الولي النصير الذي نُلْقي إلى التوكّل عليه مقاليدَ الاعتماد ، ونمد إلى إنجاده[1] أيديَ الاعتداد ، ونرفع إليه أكفَّ الاستمداد ، ونُخْلِصُ لوجهه الكريم عملَ الجهاد ، فنتعرَّف عوارف الفضل المزداد ، ونجتني ثمار النصر من أغصان القنا الميّاد ، ونجتلي وجوهَ الصنع الوَسيم أبهر من وجه الصباح الباد ، ونظفر بالنعيم العاجل في الدنيا والنعيم الآجل يوم قيام الأشهاد ، ونَتَفَيّأ ظلال الجنّة من تحت أوراق السيوف الحِداد ، والصّلاة على سيّدنا ومولانا محمّد رسوله النبيّ الهاد ، رسول المَلْحَمَة المؤيَّد[2] بالملائكة الشداد ، ونبيّ الرحمة الهاميَة العِهاد ، أكرم الخلق بين الرائح والغاد ، ذي اللواء المعقود والحَوْض المورود والشفاعة في يوم التّناد ، الذي بجاهه نجْدَع أنوفَ الآساد يوم الجِلاد ، وببركته ننال أقصى الأمل والمراد ، وفي مَرْضاته نصلُ أسبابَ الوداد ، فنعود بالتّجْر الرابح من مَرْضاة رب العباد ، ونستولي من ميدان السعادة المعادة على الآماد ، والرضى عن آله وصحبه وأنصاره وحزبه الكرماء الأمجاد ، دعائم الدين من بَعْده وهُداة العباد ، أنجاد الأنجاد وآساد الآساد ، الذين ظاهروه في حياته بالحلوم الراجحة الأطواد ، والبَسالة التي لا تُنال بالعُدَد في سبيل الله والأعداد ، حتى بوّأوا الإسلام في القواعد الشهيرة والبلاد ، وأرغموا أنوفَ أهل الجحد والإلحاد ، فأصبح الدينُ رفيعَ العماد ، منصور العساكر والأجناد ، مستصحب العزّ في الإصدار والإيراد ، والدعاء لمقامكم الأعلى بالسّعد الذي يُغْني عن اختيار الطوالع وتقويم الميلاد ، والنصر الذي تُشْرِق أنباؤه في

١ ك : انجاده وامداده .

٢ ط : المؤيدة .

جنح ليل المداد ، والصنع الذي تُشْرع له أبواب التوفيق والسّداد ، من حمْراء غَرْناطة حرسها الله واليسر وثيق المِهاد[1] ، والخير واضح الأشهاد ، والحمد لله في المبدإ والمعاد ، والشكر له على آلائه المتصلة التّرْداد ، ومقامكم الذخر الكافي العتّاد ، والمردد المتكفّل بالإنجاد ، وإلى هذا وصل الله سعدكم ، وحرس مجدكم ، ووالى نَصْركم وعَضَّدكم[2] وبلغكم من فضله العميم أملكم وقصْدكم ، فإنّنا نؤثر تعريفكم بتافه المتزيدات[3] ، ونورد عليكم أشتات[4] الأحوال المتجدّدات ، إقامةً لرسم الخلوص في التعريف بما قلّ ، ومودة خالصة في الله ، عزّ وجلّ ، فكيف إذا كان التعريف بما تهتز منابر الإسلام ارتياحاً لوروده ، وتنشرح الصدور منه لمواقع فضل الله وجوده ، والمكيّفات البديعة الصفات في وجوده ، وهو أنّنا قدّمنا إعلامكم بما نَوَيْناه من غزو مدينة قُرْطُبَة أمّ البلاد الكافرة ، ومقر الحامية المشهودة[5] والخيرات الوافرة ، والقُطْر الذي عهده بإلمام الإسلام متقادم ، والركن الذي لا يتوقّع صَدْمَة صادم ، وقد اشتمل سورها من زعماء ملّة الصليب على كل رئيس بئيس[6] ، وهِزَبْرٍ خيس[7] ، وذي مكر وتَلْبيس ، ومن له سِمَة تذيع مكانه وتشيعه ، وأتباع على المَنْشَط والمَكْرَه تطيعه ، فاستدعينا المسلمين من أقاصي البلاد ، وأذَعْنا في الجهات نفيرَ الجهاد ، وتقدَّمْنا إلى الناس بسَعَة الأزواد ، وأعطينا الحركة التي تخلف المسلمون فيها وراءهم جمهور الكفر من الأقطار والأعداد حقّها من الاستعداد ، وأفَضْنا[8] العطاء والاستلحاق والاسِتْركاب في أهل الغَناء

١ ك : قد وطأ المهاد .
٢ زاد في ك : وعددكم وعددكم .
٣ ق : المستزيدات .
٤ ق : بعد الشتات .
٥ ق : الشهيرة .
٦ بئيس : سقطت من ق .
٧ ق ودوزي : خسيس ؛ والخيس : الغيل .
٨ ك : وأقصينا .

وأبطال الجلاد ، فحشر الخلق في صَعيد ، وأخذوا الأهبة والزينة في عيد سعيد ، وشمل الاستدعاء كل قريب وبعيد عن وعد ووعيد ، ورحلنا وفضلُ الله شامل ، والتوكّل عليه كافٍ كافل ، وخيّمنا بظاهر الحضرة حتى استوفى الناس آرابَهُم ، واستكملوا أسْرَابهم ، ودُسْنا منهم بلادَ النصارى بجموع كثّرها الله وله الحمد وأنماها ، وأبعد في التماس ما عنده من الأجر مُنْتماها ، وعندما حَلَلْنا قاشرة [1] وجدنا السلطان دُونْ بِطِرُهِ مؤمل نصرنا وإنجادنا ، ومستعيد حظّه من لواحق [2] جهادنا ، ومقتضي دَيْن كَدْحه بإعانتنا إيّاه وإنجادنا ، قد نزل بظاهرها في محلات ممّن استقر على دعوته ، وتمسّك بطاعته ، وشمله حكم جماعته ، فكان لقاؤنا إيّاه على حالٍ أقرّت عيون المسلمين ، وتكفّلت بإعزاز الدين ، ومجملها يغني عن التعيين ، والشرح والتبيين ، ورأى هو ومن معه من وفور جيش الله ما هالهم ، وأشكَ في حال اليقظة خيالهم ، من جموعٍ تَسُدُّ الفضا، وأبطال تُقارع أُسُود الغَضا ، وكتائب منصورة ، ورايات منشورة ، وأمم محشورة ، تفضل عن مَرْأى العيَن ، وتُرْدِي العدوَّ في مَهاوي الحَين ، فاعترفوا بما لم يكن في حسابهم ، واعتبر في عزّة الله سبحانه أولو ألبابهم ، وإذا كَثّرَ الله تعالى العدد نما وزكا ، وإذا أزاح العِلَلَ ما اعتذر غازٍ ولا شكا ، وسالت من الغد الأباطح بالأعراف ، وسَمَتِ الهوادي إلى الاستشراف ، وأخذ الترتيب حقّه من المواسط الجهاديّة والأطراف ، وأحكمت التعبية التي لا ترى العين فيها خَلَلاً ، ولا يجدُ الاعتبار [3] عندها دَخَلاً ، وكان النزول على فرسخ من عُدْوَة النهر الأعظم من خارج المدينة أنجز الله تعالى وَعْدَ دمارها ، وأعادها إلى عهدها في الإسلام وشعارها ، ومحا ظلام الكفر من آفاقها بملة الإسلام وأنوارها، وقد برزت من حاميتها شوكة سابغة الدروع ، وافرة الجموع ، واستجَنّتْ

---

[1] قاشرة : ذكر ياقوت أنها من أحواز لبلة ؛ وفي اللمحة البدرية : قشرة ؛ وفي ق ج : ناشرة .

[2] ك : مواقع .

[3] ق ط ج ودوزي : الاختيار ، وصوابها « الاختبار » .

من أسوار القنطرة العظمى بحمىً لا يُخْفَر ، وأخذ أعقابها من الحُماة والكماة العدَدَ الأوفر ، فبادر إليهم سَرَعانُ خيل المسلمين فصَدَقُوهم الدفاع والقِرَاع ، والمِصال والمِصاع ، وخالطوهم هَبْراً بالسيوف ، ومباكرة بالحُتُوف ، فتركوهم حصيداً ، وأذاقوهم وَبالاً شديداً ، وجدّلوا منهم جملة وافرة ، وأمة كافرة ، وملكوا بعضَ تلك الأسوار فارتفعت بها راياتهم الخافقة ، وظهرت عليها عزماتهم الصادقة ، واقتحم المسلمون الوادي سبحاً[1] في غَمْرِه ، واستهانةً في سبيل الله بأمره ، وخالطوا حامية العدو في ضفته فاقتلعوها ، وتعلّقوا بأوائل الأسوار ففَرَعُوها ، فلو كنّا في ذلك اليوم على عَزْم من القتال ، وتيسير الآلات وترتيب الرجال ، لدُخِل البلد ، ومُلِك الأهل والولد ، لكن أجار الكفّار من الليل كافر ، وقد هلك منهم عدَد وافر ، ورجع المسلمون إلى محلاتهم ونصرُ الله سافر ، والعزم ظافر ، ومن الغد خُضْنا البحر الذي جعلنا العزم فيه سَفِينا ، والتوكل على الله للبلاغ ضمينا ، ونزلنا من ضفّتِه القُصْوَى[2] منزلاً عزيزاً مكينا ، بحيث يجاور سورها طُنُب القباب ، وتصيب دورها من بين المخيمات[3] بوارق النشّاب ، وبرزت حاميتُها على متعددات الأبواب ، مقيمة أسواق الطعان والضّراب ، فآبت بصَفْقة الخُسْر والتباب ، ولما شرعْنا في قتالها ، ورتبنا أشتات النّكايات لنكالها ، وإن كنا لم نُبْق على مُطاولة نِزالها ، أنزل الله المطر الذي قَدَّم بعِهاده العَهْد ، وساوى النجدُ من طوفانه الوهْد ، وعظم به الجهْد ، ووقع الإبقاء على السلاح ، والكفّ بالضرورة عن الكفاح ، وبلغ المقام عليها ، والأخذ بمُخَنّقها والثّواء لديها ، خمسة أيام لم تخلُ فيها الأسوار من اقتراع ، ولا الأبواب من دفاع عليها وقِراع ، وأنفذت مقاتل الستائر أنقاباً ، وارتقب الفتح الموعود ارتقاباً ، وفشت في

١ في الأصول : سيما .
٢ ك : من ضفة القوي العزيز ؛ ج ق ط : ضفة القوي .
٣ ك : الخيمات .

أهلها الجراح والعَيْث الصُّراح ، وساءهم المساء بعزة الله والصّباح[1] ، ولولا عائق المطر لكان الإجهاز والاستفتاح ، والله بعدها الفَتّاح ، وصُرِفت الوجوه إلى تخريب العُمْران ، وتسليط النيران ، وعَقْر الأشجار ، وتعْفية الآثار ، وأتى منها العَفاء على المصْر الشهير في الأمصار ، وتركت زروعها المائحة عِبرة لأولي الأبصار[2] ، ورحلنا عنها وقد ألبسها الدخان حداداً ، ونكس من طغاتّها أجياداً ، فاعتادت الذلّ اعتياداً ، وألفت الهون قياداً ، وكادت أن تستباح عَنْوة لولا أن الله تعالى جعل لها ميعاداً ، وأتى القتل من أبطالها ، ومشاهير رجالها ، ممّن يبارز ويناطح ، ويماسي بالناس ويُصابح ، على عدد جمّ أخبرت سِيماهم المشهورة بأسمائهم ، ونبّهت علاماتها على نبهائهم ، وظهر إقدام المسلمين في المعترَكات[3] ، وبروزهم[4] بالحدود المشترَكات ، وتنفيلهم الأسلاب ، وقَوْدهم الخيلَ المسوّمة قَوْد الغِلاب ، وكان القُفول.، وقد شمل الأمن والقبول ، وحصل الجهاد المقبول ، وراع الكفرَ العزُّ الذي يهُول ، والإقدامُ الذي شهدت به الرماح والخيول ، وخاض المسلمون من زَرْع الطرق التي ركبوها ، والمنازل التي استباحوها وانتهبوها ، بحوراً بَعُدَ منها الساحل ، وفلاحة مُدْركة تتعدد فيها المراحل ، فصيروها صَريماً ، وسلّطوا عليها النار غريماً ، وحلّوا بظاهر حصن أنْدُوَجَر[5] وقد أصبح مألف أذْمار غير أوشاب ، ووكر طيور[6] نشاب ، فلمّا بلونا مِرَاسَه صَعْباً ، وأبراجه ملئت حَرَساً شديداً وشُهباً ، ضننّا بالنفوس أن تفيض دون افتتاحه ، فسلّطنا العَفاء على

---

١ وفشت . . . . والصباح : سقطت العبارة من ق .

٢ ك ط : عبرة للأبصار .

٣ ق : على المعتركات .

٤ ق ط ودوزي : ويلدرهم ؛ ج : ونذرهم .

٥ أندوجر (Andujar) (أندوشر عند ياقوت) حصن قريب من قرطبة إلى شمال شرقيها على نهر الوادي الكبير . وفي ك : أندجرّ .

٦ ك : طير ؛ ج : طور .

ساحِه ، وأغرينا الغارات باستيعاب ما بأحوازه واكتساحِه ، وسلطنا النار على حُزُونِه وبِطاحِه ، وألصقنا بالرغام ذوائبَ أدواحِه ، وانصرفنا بفضل الله والمناجلُ دامية ، والأجورُ نامية ، وقد وطئنا المواطىء التي كانت على الملوك قبلنا بَسْلا ، ولم نترك بها حرثاً يرفد ولا نسلا ، ولا ضَرْعاً يرسل رَسلا ، والحمد لله الذي يتمم النعيم بحمده ، ونسأله صلة النصر[1] فما النصرُ إلا من عنده ؛ عرّفناكم بهذه الكيفيات[2] ، الكريمة الصفات ، والصنائع الروائع التي بَعُدَ العهدُ بمثلها في هذه الأوقات ، علماً بأنّها لديكم من أحسن الهديات الوُدّيات ، ولما نعلمه لديكم من حسن النيّات وكرم الطّويّات ، فإنكم سُلالة الجهاد المقبول ، والرِّفْد المبذول ، ووعد النصر المفعول ، ونرجو الله ، عزّ وجل ، أن ينتقل خيالكم للمعاهد الجهاديّة ، إلى المُعاينة في نصر الملّة المحمديّة ، وأن يجمع الله بكم كلمة الإسلام ، على عَبَدَة الأصنام ، ويتم النعمة على الأنام ، وودُّنا لكم ــ ما علمتم ــ يزيد على ممرّ الأيّام ، والله يجعله في ذاته لكم متّصل الدوام ، مُبَلِّغاً إلى دار السلام ، وهو سبحانه يَصِلُ سَعْدكم ، ويحرس مجدكم ، ويضاعف الآلاء عندكم ، والسلام الكريم يخصُّكم[3] ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

ومن هذا المَنْحَى ما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى عن سلطانه ، ونصّه : المقامُ الذي أحاديثُ سعادته لا تُمَلُّ على الإعادة والتكرار ، وسبيل مَجادته الشهيرة أوضح من شمس الظهيرة عند الاستظهار ، وأخبارُ صنائع الله لملكه ، ونظمُ فرائد الآمال في سلكه ، تخلدها أقلامُ الأقدار ، بمداد الليل في قرطاس النّهار ، وترسُمها بتذهيب الإسفار في صفحات[4] الأقمار ، وتجعلها هِجّيرَى حملاء الأسفار ، وحُداة القطار في مسالك الأقطار ، مقامُ

١ ك : حلة النصر .

٢ ق ط ودوزي : المكيفات .

٣ ك : يصحبكم .

٤ ق : صحائف .

محل أخينا الذي نلذ عادة هنائه مع الإعادة ، ونتلقى أنباء علائه بالإذاعة والإشادة ، ونُطَرِّز بأعلام ثنائه صحائفَ المَجادة ، ونشكر الله أن وَهَبَ لنا من أخوّته المضافة إلى المحبّة والوَدادة ، ما يرجح في ميزان الاعتبار أخوّة الولادة ، وعرفنا بيُمْن ولايته عوارف السعادة ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى في أعلام الملك السعيد ، بَيْتَ القصيد ، ووُسْطى القِلادَة ، ومجلى الكمال الذي تبارى بميدان بأسه وجوده جنسا الإبادة والإفادة ، ولا زالت آمالُه القاصية تنثال طَوْع [1] الإرادة ، ويمن نَقيبته يجمع من أشتات الفتوح والعز الممنوح بين الحسنى وزيادة [2] ، مُعَظِّمُ سلطانه العالي ، المثني على مجده المرفوع إسنادُه في عوالي المعالي ، المسرور بما يسنيه الله له من الصنع المتوالي ، والفتح المقدّم والتالي ، أميرُ المسلمين عبد الله الغني بالله محمّد ابن أمير المسلمين أبي الحجّاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر ، أيّد الله أمره، وأسعد عصره [3] : سلام كريم يتأرَّجُ في الآفاق شذا طيبه ، وتُسْمع في ذِرْوَة الودّ بلاغة خطيبه ، ويتضمّن نوره سواد المداد ، عند مُراسلة الوداد ، فيكاد يذهب بعُبُوسه المجهول وتقطيبه ، ورحمة الله وبركاته ، أمّا بعدَ حمد الله فاتح الأبواب بمقاليد الأسباب ، مهما استصعبت ، ومُيَسّر الأمور بمحكم المقدور إذا أجهدت الحِيَلُ وأتعبت ، مُخْمِد نيران الفتن ما التهبَتْ ، وجامع كلمة الإسلام وقد تصدّعَتْ وتَشعّبَتْ ، ومُسكن رَجَفان [4] الأرض بعدما اضطربت ، ومُحْيِيها بعِهاد الرحمة مهما اهتزت وربَت ، اللطيف الخبير الذي قدرت حكمته الأمور ورتّبَتْ ، مُنْهي كل نفس إلى ما خطّت الأقلام عليها وكتبت ، ونفت وأوجبت وشاءت وأبت ، ومُجازيها يوم العرض

---

١ ق : طول .
٢ ك ط ح : والزيادة .
٣ ك : نصره .
٤ ق : رجفات .

بما كسبت[1] ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله هازم الأحزاب لمّا تألفت وتألّبت ، وجالب الحتف إليها عندما أجلبت ، رسول الملحمة إذا الليوث وثبت ، ونبيّ الرحمة التي هيأت النجاة وسبّبت ، وأبلغت النفوس المطمئنّة من السعادة ما طلبت ، ومداوي القلوب المريضة وقد انتكبت وانقلبت ، بلطائفه التي راضت وهذّبت ، وقادت إلى الجنّة العليا واستجلبت ، وأدّت عن الله وأدّبت ، الذي بجاهه نستكشف الغمّاء إذا طنّبت[2] ، ونستوكف النّعماء إذا أخلفت البروق وكذبت ، ونتحابّ في طاعته ابتغاء الوسيلة إلى شفاعته فنقول وجبت حسبما ثبت[3] ، والرضى عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه التي استحقّت المزية المرضية واستوجبت ، لما انتمت إلى كماله وانتسبت ، وببذل نفوسها في الله ومرضاته تقرّبت ، وإلى نصرته في حياته انتدبت ، والمناصل قد رويت من دماء الأعداء واختضبت[4] ، وخلفته في أمّته بعد مماته بالهمم التي عن صدق اليقين أعربت ، فتداعت لمجاهدة[5] الكفّار وانتدبت ، وأبعدت المُغار وأدربت ، حتّى بلغ ملك أمّته أقاصي البلاد التي نبت ، فكسرت الصُّلُب التي نُصبت ، ونقلت[6] التيجان التي عُصبت ، ما همت السُّحب وانسحبت ، وطلعت الشمس وغربت ، والدعاء لمثابتكم العليا بالنصر العزيز كلّما جُهّزت الكتائب وتكتّبت ، والفتح المبين كلّما ركنت عقائل القواعد إذا خُطبت ، والصنائع التي مهما حدّقت فيها العيون تعجّبت ، أو جالت في لطائفها الأفكار استطابت مذاق الشكر واستعذبت ، حتّى تنجز لكم مواعيد النصر فقد اقتربت ، فإنّا كتبنا إليكم كتب الله لكم أغيا ما سألت الألسن السائلة واستوعبت ، من

---

١ ق : مما اكتسبت .

٢ ك ط : أطنبت .

٣ ق : ثبتت .

٤ ك : وأخصبت ، وفي الهامش : نسخة «واختضبت» . ط : وأخضبت .

٥ ق : لجهاد .

٦ ك : ونعلت ؛ ج ط : ونقلت .

حَمْراء غرناطة حرسها الله تعالى وجنودُ الله بفضل الله تعالى ونعمته قد غلبت ، وفتحت وسلبت ، وأسودُ جهاده قد أرْدتِ الأعداء بعدما كَلِبَت ، ومراعي الآمال قد أخْصَبَت ، والحمد لله حمداً يجلو وجوه الرضى بعدما احتجبت ، ويفتح أبواب المزيد فكلّما استقبلها الأمل رَحَّبَت ، والشكر لله شكراً يُقيّدُ شوارد النعم ممّا أبِقَتْ وما هربت ، وإلى هذا – وصل الله لمقامكم أسبابَ الظهور والاعتلاء ، وعرّفكم عوارف الآلاء على الولاء – فإنّنا لمّا وَرَدَ علينا كتابُكم البرُّ الوِفادة ، الجمُّ الإفادة ، الجامع بين الحسنى والزيادة ، جالي غرّة الفتح الأعظم من ثنايا السعادة ، وواهب المِنن المُتاحة وواصف النعم المعادة ، فوقَفنا[1] من رَقّه المنشور على تحف سنيّة ، وأمانيّ هنيّة ، وقِطاف للنصر جَنيّة ، ضمنتْ سكون البلاد وقرارها ، وأن الله قد أذهب الفتن وأُوارها وأخمد نارها ، ونضح عن وجهَ الإسلام عارها ، وجمع الأهواءِ على من هويته السعادة بعد أن أجهد اختيارها ، فأصبح الشتيت مجتمعاً ، وجنح الجناح مرتفعاً ، والجبل المخالف خاشعاً متصدّعاً ، وأصحب[2] في القياد من كان مُتمنّعاً[3] ، فاستوثقت الطاعة ، وتَبَجّحَت السنّة والجماعة ، وارتفعت الشناعة ، وتمسّكت البلاد المكرهة بأذيال وليّها لما رأته ، وعادت الأجيادِ العاطلة إلى حَلْيها بعدما أنكرته ، أجلْنا جياد الأقلام في ملعب الهناء وميْدانه ، لأول أوقات إمكانه على بُعد مكانه ، وأجهدنا عبارة الكلام في إجلال هذا الصنعَ وتعظيم شأنه ، وأغرينا الثناء بشِيَم مجدكم في شرحه لنا وبيانه ، رأينا أن لا نَكِلَ ذلك إلى اليَرَاع ، ونفرده فيه بالاجتماع ، وما يتعاطاه من مُنّة الذراع ، وأن نَشُدَّ بِرِدْء من المشافهة أزْرَه ، ونعضد بمعين من اللسان أمره ، فعيّنّا لذلك من يفسّرُ منه المجمل ، ويمهّد المقصد المُعْمَل ، حتى يجمع بينَ أغراض البر ، والعلن منه ...

١ ك : فأوقفنا ؛ ق : فوافقنا .
٢ ق : وأوضحت ؛ ط ج : وأضحت .
٣ ق ط : مستمنعاً ؛ دوزي : ممتنعاً .

والسر ، ويقيم شتّى الأدلّة على الوداد المستقر ، ووجّهنا في غرَض الرسالة به إليكم ، واخترنا لشرحه بين يديكم ، خطيبَ الوفود ، وبركة المشايخ في هذا المقام المحمود ، الشيخَ الجليل الشهير الكبير الصالح الفاضل أبا البركات ابن الحاج [1] — وصل الله حفظه ؛ وأجزل من الحمد واللطف حظّه ؛ — وهو البطل الذي لا يُعلَّم الإجالة في الميدان ، ولا يبصَّر بوظائف ذلك الشان ، ومُرادنا منه أن يطيل ويطيب ، ويجيل في وصف محاسنكم اللسان الرّطيب ، ويقرّر ما عندنا لمقامكم من التشيّع الذي قام على الحب المتوارَث أساسُه ، واطّرد حكمه وأنتجَ قياسه ، وليجعل تلو مقصد الهناء ، بمجلسكم الباهر السناء ، الصارف إلى الجهاد في سبيل الله والفناء ، وجه التهمّم والاعتناء ، على مر الآناء ، ما تجدّد لدينا من الأنباء في جهاد الأعداء ، وإن كان رسولكم — أعزه الله تعالى — قد شارك في السُّرى والسير ويُمن الطّير ، وأغنى في الحكاية عن الغير ، فلا سَرَف في الخير ، وهو أننا لما انصرفنا من مُنازلة قرطبة نظراً للحشود التي نفِدَت مُعِدّات أزوادها ، وشابت بهشيم الغَلّة المستغَلّة [2] مفارقُ بلادها ، وإشفاقاً لفساد أقواتها ، بفوَات أوقاتها ، رحلنا عنها وقد انطوينا من إعفاء أكثر [3] تلك الزروع ، المائلة الفروع ، الهائلة الروع ، على همّ مُمِض ، وأسف للمضاجع مُقِض [4] ، إذ كان عاذل المطر يكف ألسنة النار عن المبالغة في التهابها ، وحلاق إهابها ، ونفض أغوارها ، ونهب شوارها ، وإذاعة أسرارها ، وهي البحور المتلاطمة ، إذا حطمتها الرياح الحاطمة ، واللُّججُ الزاخرة ، إذا حركتها

---

١ أبو البركات ابن الحاج : محمد بن محمد بن إبراهيم ابن الحاج البلفيقي السلمي (توفي ٧٧٣ أو ٧٧١) أحد شيوخ لسان الدين ؛ سيترجم له المقري وانظر الكتيبة الكامنة : ١٢٧ والإحاطة ٢ : ١٠١ والمرقبة العليا : ١٦٤ والديباج ١٦٤ والتعريف بابن خلدون : ٦١ وغاية النهاية ٢ : ٢٣٥ .

٢ ق : المستقبلة .

٣ أكثر : سقطت من ق .

٤ ق ك : مغض .

السوافي الماخرة ، تود العيون أن تتحدى حدودها القاصية فلا تطيق ، والركائب الراكضة أن تُشْرِف على غايتها فيفضل عن مراحلها الطريق ، قد جللها الربيع أرزَاقاً تغص بها الخزائن والأطباق ، وحبوباً مفضلة لا يرزؤها الإنفاد والإنفاق ، ولو اعتصبت[1] على انتسافها الآفاق ، فتخففْنا في سبيل الله لتعقيب غزو تلك الأقطار المخالفة ، بمحق الصائفة ، وإحانة[2] تلك الطائفة ، بكلوم المجاعة الجائفة[3] ، خفوفاً لم نقنع فيه بالاستنابة ، حرصاً على استئصال الصُّبابة ، وأعفينا الرحل من اتصال الكد ، وقابلنا قبولهم على استصحابنا فيها بالرد ، وأطللنا على قرطبة بمحلاتنا ننسف جبال النعم[4] نَسْفاً ، ونعمُّ الأرض زلْزالاً وخَسْفاً ، ونستقري مواقع البذر إحراقاً[5] ، ونخترق أجوابها المختلفة بحَبِّ الحصيد اختراقاً ، ونسلّط عليها من شرر النار أمثال[6] الجمالات الصُّفر مَدَّتْ من الشُّواظ أعناقاً ، ونوسع القرى الواسعة قتلاً واسترقاقاً ، ونديرعلى مستديرها أكواس الحُتُوف دِهاقاً ، وأخذت النيران واديها الأعظم من كلا جانبيه حتى كأن القيون[7] أحمت سبيكته فاستحالت ، وأذابت صفيحته فسالت ، وأتت الكفارَ سماؤهم بالدخان المبين ، وصارت الشمس من بعد سفورها وعموم نورها منقَّبة المحيّا معصبة الجبين ، وخضْنا أحشاء الفرنتيرة[8] نَعُمُّ أشتات النَّعَم انتسافاً ، وأقوات أهلها إتلافاً ، وآمال سكانها إخلافاً ، وقد بُهِتُوا لسرعة الرجوع ، ودُهِشوا

---

١ هذه اللفظة مصحفة في الأصول ، فهي : اعتصت في ج ؛ وفي ق ك ط : اعتفت .
٢ ق ك ج : واعانة ؛ وفي ط : لمحق الضائقة .
٣ ق ك ط ج ودوزي : المجاع الخائفة .
٤ في ك : الجبال ؛ وفي ق : جليل النعم؛ ج : جبائل النعم .
٥ ك : احتراقاً .
٦ ط : أثقال .
٧ ق ك : العيون .
٨ تصحفت هذه الكلمة على عدة وجوه ؛ فهي الفرنيرة في ق والفريرة في ك . . . والفرنيرة في ط ج والصواب الفرنتيرة (La Frontera) .

لوقوع الجوع ، وتسبيب تخريب الربوع ، فمن المنكر البعيد ، أن يتأتى بعدُ عمرانُها المعهود ، وقد اصطُلم الزرع واجتُثَّ العود ، وصار إلى العدم منها الوجود ، ورأوا من عزائم[1] الإسلام خوارق تشذُّ عن نطاق العوائد ، وعجائب تستريب فيها عين المشاهد ، إذ اشتمل هذا العام ، المتعرّف فيه من الله تعالى الإنعام ، على غزَوات أربع دمرت فيها القواعد الشهيرة تدميراً ، وعلا فوق مراقيها الأذانُ عزيزاً جَهيراً ، وضويقت كراسيُّ الملك تضييقاً كبيراً ، وأذيقت وبالاً مُبيراً ، ورياحُ الإدالة إن شاء الله تعالى تستأنف هُبوباً ، وبأساً مَشْبُوباً ، والثقة بالله قد ملأت نفوساً مؤمنة وقلوباً ، والله سبحانه المسؤول أن يُوزِعَ شكر هذه النعم التي أثقلت الأكتاد ، وأبهظت الطَّوق المعتاد ، وأبهجت المسيم[2] والمرتاد ، فبالشكر يستدر مزيدها[3] ، ويتوالى تجديدها ، وقطعنا في يُحْبُوحة تلك العمالة المستبحرة العمارة ، والفَلَج المغني وصفُها عن الشرح والعبارة ، مراحلَ ختمنا بالتعريج على حزب[4] جَيّانَ حربَها ، ففللنا ثانية غربها ، وجدّدنا كربها ، واستوعبنا حرقها وخربها ، ونظمنا البلاد في سلك البلاء ، وحشّشنا في أنجادها وأغوارها ركائبَ الاستيلاء ، فلم نترك بها مَلْقَط طير ، فضلاً عن مَعاف عَير ، ولا أسأرنا لفلها المحروب بُلالةَ خير ، وقفَلْنا وقد تركنا بلاد النصارى التي منها لكيادنا المدد ، والعُدّة والعدد ، وفيها الحصام واللَّدد ، قد لبست الحداد حريقاً ، وسلكت إلى الخلاء والجلاء طريقاً ، ولم نترك بها مضغة تخالط ريقاً ، ولا نعمة تصون من الفراق فريقاً ، وما كانت تلك النعم لولا أن أعان الله تعالى من عنصرَيِ النار والهواء بجنود كونه الواسع ، ومدركه البعيد الشاسع ، لتتولى الأيدي البشريّة تغريبها ولا ترزأ كثيرها ، ولا

---

١ ق : غرائب .

٢ ك : المشيم .

٣ ك ق ط ج : فريدها .

٤ ق : خرب ؛ ك : حرب .

لتمتاح بالاغتراف غديرها ، بل لله القدرة جميعاً ، فقدرته لا تتحامى ريعاً ، ولا حمى مَرِيعاً منيعاً ، وعدنا والعود في مثلها أحمد ، وقد بعد في شفاء النفوس الأمد ، ونُسخ بالسرور الكمد ، ورُفعت من عز الإسلام العَمَد ، والحمد لله حمد الشاكرين ، ومنه نلتمس عادة النصر على أعدائه فهو خير الناصرين ، عرّفناكم به ليُسر دينكم المتين ، ومجدكم الذي راق منه الجبين ، والله يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويبلغكم أملكم من فضله ، وقصدكم بمنّه وطَوْله ، والسلام الكريم يخصّكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

رجع إلى ما كنّا بسبيله من أخبار قرطبة الجليلة الوَصْف ، وذكر جامعها البديع الإتقان والرصف ، فنقول :

قد شاع وذاع على ألسنة الجمّ الغفير من الناس في هذه البلاد المشرقيّة وغيرها أن في جامع قرطبة ثلاثمائة ونحو ستين طاقاً ، على عدد أيّام السنة ، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق ، إلى أن يتم الدور ثم تعود ، وهذا شيء لم أقف عليه في كلام المؤرخين من أهل المغرب والأندلس ، ولو كان كما شاع لذكروه وتعرّضوا له ، لأنّه من أعجب ما يُسْطّر ، مع أنّهم ذكروا ما هو دونه ، فالله أعلم بحقيقة الحال في ذلك[1] ، وستأتي في الباب السابع رسالة الشّقنْدي الطويلة وفيها من محاسن قرطبة وسائر بلاد الأندلس الطّم والرّم ، وقد ذكرنا في الباب الأول جملة من محاسن قرطبة ، فأغنى ذلك عن إعادتها هنا ، على أن رسالة الشّقنْدي تكرر فيها بعض ما ذكرناه ، لأنّا لم نرد أن نخل منها بحرف ، فأتينا بها بلفظها ، وإن تكرر بعض ما فيها مع بعض ما أسلفناه ، والعذر واضح للمنصف المُغْضي ، والله نسأل سلوك السبيل الذي يُرْضي ، بمنّه وكرمه .

---

١ في ذلك : سقطت من ق .

وقال صاحب « نشق الأزهار » : إن في جامع قرطبة تِنّوراً من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وفيه أشياء غريبة ، من الصنائع العجيبة ، يعجز عن وصفها الواصفون ، قيل : أُحكم عمله في سبع سنين ، وفيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث [1] صورة غراب نوح عليه الصلاة والسلام ، الثلاثة خلقها الله تعالى ولم يصنعها صانع ، انتهى .

قلت : لم أر أحداً من محققي المؤرخين للأندلس وثقاتهم ذكر هذا ، على قلّة اطلاعي ، وهو عندي بعيد ، لأنّه لو كان لذكره الأئمة .

وقد حكى القاضي [2] عياض في الشفاء أشياء وجد عليها اسم نبينا صلّى الله عليه وسلّم ، ولم يذكر هذا ، ويستبعد أن يكون بجامع قرطبة ولا يذكره ، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر .

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب : ن دَوْرَ قرطبة أربعة عشر ميلاً ، وعرضها ميلان ، وهي على النهر الكبير وعيه جسران ، وبها الجامع الكبير الإسلامي ، وبها الكنيسة المعظمة بين النصا ى ، وبهذه المدينة معدن الفضّة ومعدن الشاذنج [3] ، وهو حجر من شأنه أن يقطع الدم ؛ وكان يُجلَب منها البغال التي تباع كل واحدة منها بخمسمائة دينا من حسنها وعلوّها الزائد ، انتهى .

رجع إلى أخبار البنيان :

ولا خفاء أنّه يدل على عظيم قدر بانيه ، ولذلك قال أمير المؤمنين الناصر المرواني باني الزهراء رحمه الله تعالى حسبما نسبهما له بعضُ العلماء وبعض ينسبهما لغيره ، وسيأتيان في ترجمة نور الدين بن سعيدٍ عليٍّ منسوبين :

---

١ ط : وعلى الأرض ؛ ق ج : وعلى الآخر .

٢ القاضي : سقطت من ك.ط ج .

٣ الشاذنج والشاذنة : يسمونه حجر الدم ، ويستعمل لدمل القروح ، وتعمل منه شيافات لأمراض العين .

هممُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرها   من بَعْدِهم فبألْسُنِ البُنْيانِ
إن البناء إذا تعاظم قَدْرُه   أضحى يدلّ على عظيم الشانِ

وتذكرت هنا قصيدة قالها بعض الشاميين ، وهو الأديب الفاضل الشيخ أسد بن معين الدين ، ممّا يُكتب على أبراج[1] دار الحسيب النسيب ، الشهير البيت ، الكبير الحي والميت ، القاضي عبد الرحمن بن القُرْفُور الدمشقي ، وضمّنها بيتيْ الناصر المذكورين :

زُرْ مَجلساً أضحى أعزَّ مَكانِ   ومَحلَّ أهل العلم والعِرْفانِ
المجدُ خيّم في ذرى أبْرَاجِهِ   والسعدُ عبدُ الباب طولَ زمان
كالخلد مرفوع البناء ، وأرضُهُ   مفروشة بالـدُّرِّ والعقيان
بيت به فخر البيوت لأنّه   بيت القصيد ومَنْزِل الضيفان
مَغْنَّى فسيحٌ فيه معنى مُفْصِح   عن قدر بانيه بغيرِ لسان
قد قال بعض ذوي الفضائل قبلنا   قولاً بديعاً واضحَ التبيان
هِممُ الملوك إذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان
إن البناء إذا تعاظم قدره   أضحى يدلُّ على عظيم الشان
قد شاده مَنْ ساد أهل زمانه   بالأصل والإفضال والرُّجحان
وَرِثَ السيادة كابراً عن كابر   وسَما برفعته على كيوان
قاضي القضاة ومفخر العصرِ الذي   قد جاء فيه سابقَ الأقران
في العلم بحرٌ لا يُنالَ قَرارُه   في الحُكمِ مثل مُهَنّدٍ وسِنان
يَرْوي عطاءً عن يديه قد اقْتفى   آثارَ آباء ذوي إحسان
لا زال يبقى شائداً بيتَ العُلا   وعَدُوُّه في الوهن والنقصان
يا أيّها المولى الذي يجري مع الإقـ   ـبال والإسعاد طَلْقَ عِنان[2]

---

١ أبراج : سقطت من ط .
٢ ق : طول زمان .

دُمْ شامخَ المِقْدار مرتفع البنا   والناسُ تحت رضاك كالغلمان
متمتّعاً ببنيك سادات الوَرى   في عِزّ ربّ دائم السلطانِ
ما رجّعَ القُمْرِيُّ في تغريده   في الروض فوق منابر الأغصان

وكان القاضي عبدُ الرحمن بن فُرُفُور المذكور عالي الهمّة ، تضيق يده عمّا يريد ، فلذلك كان كثيراً ما يبث شكواه في الطروس والدفاتر ، ويعتب على الزمان الذي أخنى على أهل الأدب وقطع آمالهم بحُسامه الباتر ، ويرحم الله القائل :

هذا زمان درَيْهمي لا غيره   فَدعِ الدفاتر للزمان الفاتر

فمن نظم المذكور وقد أبطأ بجزء استعاره من بعض إخوانه ، فكتب إليه معتذراً ، وأدمج شكوى الزمان الذي كان من شماتة الأعداء به حذراً :

أبطأتُ في ذا الجزء يا سيّدي   كتابة من جَوْر دَهْرٍ بغيضْ
صابرته فالجسمُ مني لَقًى   تجلُّداً والقلبُ مني مريضْ
فإذ أبى إلا تلافي وقد   أحلّني منه مَحلّ النقيضْ
واقتادني قَسْراً إلى مَصْرَعٍ   قد رَقَّ منه اللحم والعظمُ هيضْ
سلّمتُ للأقدار مستسرعاً   لباب مولًى ذي عطاء عريضْ
جُمُومُ صبر كنت أسطو به   على روايا الدهر بالهمّ غيضْ
فلا تلم يا صاحِ من بعد ذا   إذا تمثلت بـ « حالَ الجريضْ »

ورأيت بخطّه رحمه الله تعالى ممّا نسبه جده القطب الخيضري الحافظ لإبراهيم بن نصر الحموي ثم المصري المعروف بابن الفقيه :

يا زماناً كلّما حا   وَلْتُ أمراً يتَمنَّعْ
إن تعصَّبْتَ فإنّي   باصطباري أتَقَنَّعْ

وهذه تورية بديعة للغاية في التعصب والتقنّع ، مع حلاوة النظم وجودة السبك وخفّة الوزن ، والله سبحانه يروّح تلك الأرواح في الجنان ، ويعاملنا وإيّاهم بمحض الفضل والامتنان ، ويكفينا شجون دهر جرى بنا طَلْقَ العنان .

رجع إلى ما كنّا فيه : وكنت وقفت في كلام بعض العلماء على أن البيتين السابقين المنسوبين إلى أمير المؤمنين الناصر المرواني — رحمه الله تعالى — قالهما في الزهراء التي بناها ، وسيأتي ذكرها قريباً .

وقال الشيخ سيّدي محيي الدين بن عربي في « المسامرات » : قرأت على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش ، وبناؤها عجيب في بلاد الأندلس ، وهي قريبة من قُرطُبة ، أبياتاً تذكّر العاقل ، وتنبّه الغافل ، وهي :

دِيارٌ بأكْناف المَلاعِب تَلْمَعُ ... وما إن بها من ساكنٍ وهيَ بلقعُ
ينوحُ عليها الطيرُ من كل جانب ... فَيَصْمُتُ أحياناً وحيناً يُرَجِّعُ
فخاطبت منها طائراً متغرّداً[١] ... له شَجَنٌ في القلب وهو مُرَوَّعُ
فقلت : على ماذا تنوح وتشتكي ؟ ... فقال : على دهرٍ مضى ليس يرجعُ

ثم قال : وأخبرني بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصر ماتت له سُرِّيّة ، وتركت مالاً كثيراً ، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد ، فشكر الله تعالى على ذلك ، فقالت له جاريته الزهراء — وكان يحبّها حبّاً شديداً — : اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي ، وتكون خاصّة لي ، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل ، وشمال قرطبة ، وبينها وبين قرطبة اليوم ثلاثة أميال أو نحو ذلك ، وأتقن بناءها ، وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستنزها ومسكناً للزهراء

---

١ ق : متفرداً .

وحاشية أرباب دولته ، ونقش صورتها على الباب ، فلمّا قعدت الزهراء في مجلسها نظرت إلى بياض المدينة وحسنها في حِجْرِ ذلك الجبل الأسود ، فقالت : يا سيّدي ، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي ؟ فأمر بزوال ذلك الجبل ، فقال بعض جلسائه : أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يَشينُ العقل سماعه ، لو اجتمع الخلق ما أزالوه حفراً ولا قطعاً ، ولا يزيله إلاّ مَنْ خلقه ، فأمر بقطع شجره وغَرْسه تيناً ولوزاً ، ولم يكن منظر أحسن منها ، ولا سيّما في زمان الإزهار وتفتّح الأشجار [1] ، وهي بين الجبل والسهل ، انتهى ببعض اختصار .

[وصف ابن خلكان للزهراء]

وقال ابن خلكان [2] في ترجمة المعتمد بن عباد ما صورته [3] : الزّهراء — بفتح الزاي وسكون الهاء وفتح الراء ، وبعدها همزة ممدودة — [سراية] وهي من عجائب أبنية الدنيا ، وأنشأها أبو المظفّر [4] عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقّب بالناصر ، أحد ملوك بني أميّة بالأندلس ، بالقرب من قرطبة ، في أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع ، وعرضها من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع ، وعدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية ، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب ؛ وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثاً : فثلث للجند ، وثلث مدخر ، وثلث ينفقه على عمارة الزهراء ، وكانت جباية الأندلس خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف

---

١ ق : وتفتح الأزهار .
٢ في ج : وقال ابن خلدون .
٣ وفيات الأعيان ٤ : ١١٧ .
٤ كذا في الأصول وابن خلكان ، والصواب : أبو المطرف .

وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص[1] سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألف دينار ، وهي من أهول ما بناه الإنس ، وأجلّه خطراً ، وأعظمه شأناً ، ذكر ذلك كلّه ابن بَشْكُوال في تاريخ الأندلس ، انتهى كلامه .

وحكى في المطمح[2] أن الوزير الكبير الشهير أبا الحزم بن جَهْوَر قال وقد وقف على قصور الأمويين التي تقوّضت أبنيتها ، وعُوّضت من أنيسها بالوحوش[3] أفنيتها :

قلتُ يوماً لدار قوم تَفانَوْا : أين سُكّانُكِ العزاز علَيْنا ؟
فأجابت : هُنا أقاموا قليلاً ، ثم ساروا ، ولست أعلم أينا

وفيه[4] أن أبا عامر بن شُهَيْد بات ليلة بإحدى كنائس قُرْطُبَة وقد فُرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرورٍ وائتناس ، وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبَرْق الحميّا يسرع[5] لمعه ، والقس قد برز في عَبَدة المسيح ، متوشّحاً بالزنانير أبدع توشيح ، قد هَجَروا الأفراح ، واطّرحوا النعم كل اطّراح :

لا يعمدُون إلى ماء بآنيةٍ إلاّ اغترافاً من الغُدران بالراح

وأقام بينهم يعملها حميّا ، كأنّما يرشف من كأسها شفة لَمْيا ، وهي تَنْفح له بأطيَب عَرْف ، كلّما رشفها أعذب رشف ، ثم ارتجل ، بعدما ارتحل ، فقال :

ولربَّ حانٍ قد شَمِمْتُ بدَيْرِه خمرَ الصبا مُزِجَتْ بصِرْف عصيره
في فتية جعلوا السُّرورَ شعارَهُمْ متصاغرين تخشّعاً لكبيره

١ ك : المستخلصة ؛ ج ق ط : ومن السوق المستخلص .
٢ انظر المطمح : ١٥ .
٣ ك : بالوحش .
٤ المطمح : ١٨ .
٥ ق ط : يسرج .

والقَس[4] ممّا شاء طول مُقامنا يَدْعو بعَوْد حولنا بزَبُوره
يُهْدي لَنا بالرّاح كل مُصَفّرٍ كالخِشْفِ خَفّرَهُ التماحُ خفيره
يتناول الظُّرَفاء فيه وشُرْبُهم لسلافه ، والأكل من خنزيره

رجع إلى بناء[1] الزهراء :

قال بعض من أرّخ الأندلس : كان يتصرّف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفَعَلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة ، وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستّة آلاف صخرة سوى الآجرّ والصخر غير المعدل ، انتهى ، وسيأتي في الزهراء[2] مزيد كلام .

وقال ابن حيّان[3] : ابتدأ الناصر بناء الزهراء أول يوم من محرم سنة ٣٢٥ ، وجعل طولها من شرق إلى غرب ألفين وسبعمائة ذراع ، وتكسيرها تسعمائة ألف ذراع وتسعون ألف ذراع ، كذا نقله بعضهم ، وللنظر فيه مجال ، قال[4] : وكان يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزمه [من النفقة][5] على قطعها ونقلها ومؤونة حملها[6] ، وجلَب إليها الرخام الأبيض من المَرِية ، والمجزّع من رَيّة ، والوردي والأخضر من إفريقية من إسفاقس وقَرْطاجَنّة ، والحوض المنقوش المذهب من الشام ، وقيل : من القسطنطينية ، وفيه نقوش وتماثيل[7] على صور الإنسان ، وليس له قيمة ، ولمّا جلبه أحمد[8]

---

١ ك : أنباء .
٢ ق : الزاهرة .
٣ انظر مخطوط الرباط : ١٣٥ .
٤ قارن بما جاء في أزهار الرياض ٢ : ٢٧٠ .
٥ زيادة من مخطوط الرباط .
٦ مخطوط الرباط : سوقها .
٧ ك : وتماثيل وصور .
٨ سماه في مخطوط الرباط : أحمد بن حزم الفيلسوف .

الفيلسوف — وقيل غيره — أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً ، وبنى في قصرها المجلس المسمّى بقصر الخلافة ، وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ في جرمه[1] الصافي لونه المتلوّنة أجناسه ، وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت في وسطه اليتيمة التي أتحف الناصرَ بها أليونُ ملك القسطنطينية ، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضّة ، وهذا المجلس في وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوسَ المرصّع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سواري من الرخام الملون والبلّور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر[2] المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ، وكان الناصر إذا أراد أن يُفْزِع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرّك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيّل لكل من في المجلس أن المحلّ قد طار بهم ، ما دام الزئبق يتحرّك ، وقيل : إن هذا المجلس كان يدورَ ويستقبل الشمس ، وقيل : كان ثابتاً على صفة[3] هذا الصهريج ، وهذا المجلس لم يتقدّم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الإسلام وإنّما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم ، وكان بناء الزهراء في غاية الإتقان والحسن ، وبها من المرمر والعُمُد كثير ، وأجرى فيها المياه ، وأحدق بها البساتين ، وفيها يقول الشاعر السميسر[4] :

وَقَفْتُ بالزّهراء مُسْتَعْبِراً ... مُعْتَبِراً أندُبُ أشْتاتا
فقلت : يا زهرا ألا فارْجِعي ... قالت : وهل يرجع مَنْ ماتا؟

---

١ في جرمه : سقطت من ك .
٢ ق ط ج : في سمك .
٣ ج ط : ضفة .
٤ مخطوط الرباط : ١٣٧ .

فلم أزل أبكي وأبكي بها   هيهاتَ يُغني الدمعُ هيهاتا
كأنّما آثار مَنْ قد مضى   نَوادبٌ يندبنَ أمواتا

انتهى كلام هذا المؤرخ ملخصاً ، وسيأتي ما يوافق جُلّه ، ويخالف قُلّه ، والله سبحانه يعلم الأمر كلّه ، فإنّه ربّما ينظر المتأمّل هذا الكتاب فيجد في بعض الأخبار تخالفاً ، فيحمل ذلك على الغلط ، وليس كذلك ، وإنّما السبب الحامل لذلك جَلْبُ كلام الناس بعباراتهم ، والناقد البصير لا يخفاه مثل هذا ، وربّما يقع التكرار ، وذلك من أجل ما ذكر ، والله أعلم .

[قصور بني ذي النون]

وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذي شاده ملك طُلَيْطلة المأمون ابن ذي النّون بها[1] ، وذلك أنّه أتقنه إلى الغاية ، وأنفق عليه أموالاً طائلة ، وصنع في وسطه بحيرة ، وصنع في وسط البحيرة قبّة من زجاج ملوّن منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطاً بها ويتّصل بعضه ببعض ، فكانت قبة الزجاج في غِلالة ممّا سكب[2] خلف الزجاج لا يَفْتر من الجَرْي ، والمأمون قاعد فيها لا يمسّه من الماء شيء ولا يصله ، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب ، وبينما هو فيها مع جَوَاريه[3] ذات ليلة إذ سمع منشداً ينشد :

أتبني بناء الخالدين ، وإنّما   بقاؤك[4] فيها لو عَلِمْتَ قليلُ
لقد كان في ظل الأراك كفاية   لمن كُلَّ يوم يقتضيه رحيلُ

١ الذخيرة ٤ : ١٠٢ وما بعدها .
٢ ق ط ج : من ماء سكب .
٣ ق : بجواريه .
٤ ك : مقامك .

فنغص عليه حاله ، وقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، أظن أن الأجل قد قرب[1] ، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفّي ، ولم يجلس في تلك القبّة بعدها ، وذلك سنة ٤٦٧ ، تجاوز الله تعالى عنه ، هكذا حكاه بعض مؤرخي المغرب .

وقد ذكر في غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبّة بلفظ ابن بدرون[2] شارح العبدونيّة فليراجع .

وتذكرت هنا قول أبي محمّد المصري[3] في صفة قصر طُلَيْطلة :

قَصْرٌ يُقَصّر عن مَداهُ الفرقَدُ   عَذُبَتْ مصادره وطاب المَوْرِدُ
نَشَر الصباحُ عليه ثوبَ مكارم   فَعَلَيْه ألْوِيَةُ السعادة تُعْقَدُ
وكأنّما المأمونُ في أرْجائهِ   بَدْرٌ تمام قابلَتْهُ أسْعُدُ
وكأنّما الأقداح في رَاحاتِهِ   دُرٌّ جَمادٌ ذابَ فيه العَسْجَدُ

وله في صفة البركة والقبة عليها :

شَمْسيّة الأنساب بدريّة   يَحارَ في تشبيهها الخاطرُ
كأنّما المأمونُ بدرُ الدُّجى   وَهْيَ عَلَيه الفَلَكُ الدائرُ

* * *

[أشعار ورسائل للأندلسيين في وصف المجالس]

وكان ملوك الأندلس في غاية الاحتفال بالمجالس والقصور ، وللوزير الجزيري[4] — رحمه الله تعالى — في وصف مجلس للمنصور بن أبي عامر ما

---

١ ق : أظن الأجل قرب .
٢ ق : ابن زيدون — وهو خطأ —
٣ الذخيرة ٤ : ١٠٩ .
٤ الوزير الجزيري : أبو مروان عبد الملك بن إدريس أحد كتاب الدولة العامرية وكان حيناً على الشرطة للمنصور ، سخط عليه المنصور فسجنه وله القصيدة الرائية المشهورة في السجن ، ثم كتب بعده للمظفر فلما قتل صهره عيسى بن سعيد بن القطاع تغير المظفر على أبي مروان فسجنه في برج من طرطوشة وقتله (٣٩٤) هنالك . (ترجمته في الجذوة : ٢٦١ وبغية الملتمس رقم : ١١٥٨=

يشهد لذلك ، وهو قوله[1] :

وتوسّطتْها لجّة في قعرها | بنت السّلاحف ما تزال تُنقنِقُ
تنساب من فكّيْ هِزبْر إن يكن | ثَبْتَ الجنان فإن فاه أخْرَقُ
صاغوه من ندّ وخلّق صِفحتي | هاديه محضُ الدرّ فهو مطوّقُ[2]
للياسمين تَطلُّعٌ في عرْشه | مثل المليك عرّاه زهوٌ مُطْرِقُ
ونضائد من نرجس وبنفسج | وجنيٌّ خيريّ وورد يعبقُ
ترنو بسحر عيونها وتكاد من | طربٍ إليك بلا لسان تنطقُ
وعلى يمينك سَوْسَنات أطلعتْ | زهر الربيع فهُنّ حُسناً تشرقُ
فكأنّما هي في اختلاف رُقومها | رايات نصرك يوم بأسك تخفِقُ
في مجلس جمعَ السرورَ لأهْلِه | ملكٌ إذا جمعت قَناه يفرقُ
حازت بدولته المغاربُ عزةً[3] | فغدا ليحسُدها علَيه المشرقُ

ومن هذه القصيدة :

أمّا الغمامُ فَشاهدٌ لك أنّهُ | لا شكّ صِنْوُك أو أخوك[4] الأوثق
وافى الصنيعَ فَحينَ تمّ تمامُه | في الصَّحْو أنشأ وَدْقَه يتدفّق
وأظنّه يحكيك جوداً إذ رأى | في اليَوْم بحرَكَ زاخراً يتفهّق

وكان السبب في هذه الأبيات أن المنصور صنع في ذلك الأوان صنيعاً لتطهير ابنه عبد الرحمن ، وكان عام قَحْطٍ ، فارتفع السعر بقرطبة ، وبلغ ربع الدقيق

— والمغرب ٢ : ٣٢١ واعتاب الكتاب : ١٩٣ والذخيرة ٤ : ٣١ والمطمح : ١٣ والصلة : ٣٥٠ وله شعر في اليتيمة والتشبيهات والبديع) .
١ المقتطفات (الورقة : ٢٣) .
٢ المقتطفات : فيه مطبق ؛ وفي ك : فهو مخلق .
٣ ك : رفعة .
٤ ق : بل أخوك .

إلى دينارين ، فجلا الناس من قرطبة ، فلمّا كان يوم ذلك الصنيع نشأت في السماء سحابة عمّت الأفق ، ثم أتى المطر الوابل ، فاستبشر الناس ، وسُرّ المنصور بن أبي عامر فقال الجزيري بديهةً : أمّا الغمام إلخ .

وهو القائل على لسان نرجس العامريّة[1] :

حَيّتْكَ يا قمرَ العُلا والمجلسِ أزكى تحيّتها عيونُ النرجسِ
زهر تريك بحُسْنها[2] وبلونها زُهر النجوم الجاريات الكُنّسِ
مَلّكن أفئدة النّدامى كلّما دارت بمجلسهم مدار الأكؤسِ
مَلَكَ الهُمام العامريّ محمّدٍ للمكرماتِ وللنُّهى والأنفسِ .

قال ابن بسام[3] : ومن شعر الجزيري ما اندرج له أثناء نثره[4] الذي ملح فيه مخاطبته للمنصور على ألسنة أسماء كرائمه بزهر رياضه ، فمن ذلك عن بَهار العامريّة :

حدقُ الحسانِ تُقِرُّ لي وتَغارُ وتَضيلُ في صِفَتِي النُّهى وتحارُ
طلعتْ على قُضبي عيونُ كمائمٍ[5] مثل العيون تحفّها الأشفار
وأخصّ شيء بي إذا شبّهتني دررٌ تَنَطّقَ سلكَها دينار
أهدى له قُضبَ الزمرّد ساقُه وحَباهُ أنفَسَ عطرِهِ العطّار
أنا نرجسٌ حقّاً بهرتُ عقولهم ببديع تركيبي فقيــل بَهار

ومن أخرى عن بنفسج العامريّة[6] : إذا تدافعت الخصوم – أيّد الله مولانا

---

١ الذخيرة ٤ : ٣٢ والبديع : ١١٥ – ١١٦ والمقتطفات : ٣٣ .
٢ البديع : بشكلها .
٣ الذخيرة ٤ : ٣٣ والبديع : ٩٩ والمقتطفات : ٣٣ .
٤ ك : مدحه .
٥ في الأصول : تمائمي ، والتصويب عن البديع .
٦ الذخيرة ٤ : ٣٣ والبديع : ٧٨ – ٧٩ والمقتطفات : ٣٣ – ٣٤ .

المنصور – في مذاهبها ، وتنافرت في مفاخرها ، فإليه[1] مفزعها ، وهو المقنع في فصل القضيّة بينها لاستيلائه على المفاخر بأسرها ، وعلمه بسرّها وجهرها ، وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما ، والفخر بمشابههما ، كل مذهب، وما منها إلا ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا ، وأعذب من الغمام الذي يسقينا ، وإن كانا قد تشبّها في شعرهما ببعض ما في العالم من جواهر الأرض ومصابيح السماء وهي من الموات الصامت ، فإنّي أتشبّه بأحسن ما زيّن الله به الإنسان وهو الحيوان الناطق ، مع أنّي أعطر منهما عطراً ، وأحمد خبراً ، وأكرم إمتاعاً شاهداً وغائباً ويانعاً وذابلاً ، وكلاهما لا يمتع ، إلاّ ريثما ينع[2] ، ثم إذا ذبل تستكره النفوس[3] شمّه ، وتستدفع الأكفّ ضمّه ، وأنا أمتع يابساً ورطباً ، وتدخرني الملوك في خزائنها[4] وسائر الأطباء ، وأصرف في منافع الأعضاء ، فإن فخرا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساقي ، فلا غرو أن الوشي ضعيف ، والهوى لطيف ، والمسك خفيف ، وليس المجد يُدْرَك بالصّراع ، وقد أودعتْ أيّد الله مولانا قوافي الشعر من وصف مشابهي ما أودعاه ، وحضرت بنفسي لئلاّ أغيب عن حضرتهما ، فقديماً فضل الحاضر وإن كان مفضولاً ، ولذا قالوا : ألذ الطعام ما حضر لوقته ، وأشعر الناس مَنْ أنت في شعره ، فلمولايا أتم الحكم في أن يفصل بحكمه العدل ، وأقول :

شهدتْ لنُوّار البنفسج ألسُنٌ ... من لونه الأحوى ومن إيناعه[5]

---

١ البديع : فاليك ، وكذلك جرى الضمير في سائر الرسالة للخطاب ، وفي النصين اختلافات كثيرة ، نشير إلى بعضها .

٢ البديع : وكلاهما لا يمتعك إلا ريثما يبدو للعيون ويسلم من الذبول .

٣ البديع : ثم تستكره الأنوف .

٤ البديع : فإن هذه الحال من الاستمتاع بي رطباً وادخاري في خزائن الملوك جافاً .

٥ ق ط ج : ومن أتباعه .

لمشابه الشعر الأعمّ أعاره الـ ... قـَمرُ المنيرُ الطلقُ نورَ شُعاعه
ولربّما جمع[1] النجيع من الطلى ... من صارم المنصور يوم قِراعِه
فحكاه غيرَ مخالف في لونه ... لا في روائحه وطيب طِباعِه
ملكٌ جهِلنا قبلَهُ سُبلَ العُلا ... حتى وضَحْنَ بنَهْجه وشراعه
في سيفِه قِصَرٌ لطول نِجاده ... وتمام ساعده وفُسْحة باعِه
ذو همّة كالبرْق في إسراعِه ... وعزيمة كالحَيْن في إيقاعِه
تلقى الزمانَ له مطيعاً سامعاً ... وترى الملوكَ الشُّمَّ من أتباعه

وما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف حديقة[2] :

وحديقةٍ مخضرَّةٍ أثوابها ... في قُضْبها للطير كل مغردِ
نادمتُ فيها فتية صفحاتُهم ... مثل البدور تُنير بينَ الأسعُد
والجدول الفضّيّ يضحك ماؤه ... فكأنّه في العينِ صَفْحُ مهنّد
وإذا تجعّد بالنسيم حَسِبتَه ... لمّا تراهُ مشبهاً للمبرد
وتناثَرَتْ نقَطٌ على حافاته ... كالعقد بينَ مجمّع ومُبَدَّد
وتدحرجت[3] للناظرين كأنّها ... دُرٌّ نثيرٌ في بساط زَبرْجد

وكان بحمّام الشطارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض أهل الأندلس بقوله :

ودُمْية مرمرٍ تُزْهى بجيدٍ ... تَناهى في التّوَرّد والبياضِ
لها ولدٌ ولم تعرفْ حليلاً ... ولا ألَمّتْ بأوجاع المخاضِ
ونَعْلَمُ أنّها حَجَرٌ ، ولكن ... تُتيّمُنا بألحاظٍ مِراضِ

---

١ البديع : جف .
٢ وردت الأبيات في المقتطفات (الورقة : ٢٤) .
٣ ق ط : وترجرجت ؛ وفي ج ؛ : وتزخرفت .

وكان بسَرَقُسْطة في القصر المسمى[1] بدار السرور ، مجلس الذهب أحد قصور المقتدر بن هود وفيه يقول ذو الوزارتين بن غُنْدَشِلْبَ[2] يهجو وزيراً كان[3] ينبز بتحقون :

ضَجّ من تحقون بيتُ الذَّهبِ ودعا ممّا به وَاحَرَبي
رَبِّ طهِّرْني فقد دنّسَني عارُ تَحقُونَ الموفّى الذنبِ

وكتب بعض كبراء الأندلس إلى إخوانه[4] : «كتابي هذا من وادي الزيتون ، ونحن فيه مختلفون[5] ، ببقعة اكتست من السندس الأخضر ، وتحلّت بأنواع الزهر ، وتخايلت بأنهار تتخلّلها ، وأشجار تُظلّلها ، تحجب أدواحها الشمس لالتفافها ، وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها ، وما شئتَ من محاسن تروق وتعجب ، وأطيار تتجاوب بألحان تلهي وتطرب ، في مثلها يعود الزمان كلّه صِباً ، وتجري الحياة على الأمل والمنى ، وأنا فيها — أبقاكم الله سبحانه — بحالِ من طاب غذاؤه ، وحَسُن استمراؤه ، وصحا من جنون العقار ، واستراح من مضض[6] الخُمار ، وزايلته وساوسه ، وخلصت من الخباط هواجسه » ، ثم ذكر كلاماً من هذا النمط في وصف الخمار والدعاء إلى العقار .

١ ق : التي يسمى .
٢ ك : عبد شلب — وهو خطأ —
٣ كان : سقطت من ق .
٤ هذه الرسالة للكاتب أبي المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ ، كان كاتباً عند المقتدر بن هود فاستوحش منه ولحق بالمعتمد بن عباد فرحب به وسفر بينه وبين المتوكل ابن الأفطس ، ثم اختلف مع ابن عمار فهرب إلى المتوكل في بطليوس وكانت نهايته أن قتل ببطليوس (راجع ترجمته في الذخيرة — القسم الثالث : ٨٢ وهذه القطعة من رسالته فيها ص : ٩٣ ؛ والقلائد : ١٠٦ والمغرب ٢ : ٤٤٠ ومسالك الأبصار ٨ : ٢٢١) .
٥ كذا في ق ك ولعله : مختلون ، وفي ط ج : مختلون ، وهو صواب .
٦ الذخيرة : فضول .

فراجعه أبو الفضل بن حسداي برقعة قال في صدرها[1] : « إلى سيدنا[2] الذي ألزمنا بامتنانه الشكر ، وكبيرنا الذي علّمنا ببيانه السّحْر ، وعميدنا الذي عقّدنا بحرمه والحل[3] ، ورمانا بدائه وانسلّ ، أبقاك الله تعالى لتوبة نصوح تمرّها ، ويمين غموس تبرّها ، وردّ أبقاك الله تعالى كتابك الذي أنفذته من معرّسك بوادي الزيتون ، ووقفنا على ما لقنت في أوصافه من حجّة المفتون ، وإعجابك بالتفاف شجره ودوحاته ، واهتزازك بلطيف بوَاكره وروْحاته ، وغرورك[4] به وهو حوّ تلاعُه ، موروودة هضابه وأجراعُه ، وكل المشارب ما خلاه ذميم[5] ، وماؤه الدهر خصير والمياه خميم ، وتلك عادة تلوّنك ، وسجيّة تخضرمك[6] ، وشاكلة ملالك وسأمك ، وأشعر الناس عندك من أنت في شعره ، وأحب البلاد إليك ما أنت في عُقره ، فأين منك بساتين جلّق وجِنانه ، ورياضه المونقة وخُلْجانه ، وقبابه البيض في حدائقه الخضر ، وجوه العطر في جنابه النضر[7] ، وما تضمّه[8] حيطانه ، وتمجّه أنجاده[9] وغيطانُه ، من أمهات الراح التي طلّقتها[10] بزعمك ، ومواد[11] الشمول التي

---

١ الرسالة في الذخيرة (القسم الثالث) : ٩٤ وأبو الفضل بن حسداي : هو حسداي بن يوسف بن حسداي الإسرائيلي أحد كتاب عصر الطوائف ، الذخيرة (القسم الثالث) : ١٥٣ والقلائد : ١٨٣ والمغرب ٢ : ٤٤١ والمطرب : ١٩٦ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٠) .

٢ ق ج : يا سيدنا .

٣ ق ك ط : بحرمة الحل ؛ ج : بحرمة الحل .

٤ ق ج ودوزي : ومرورك ؛ ك : وسرورك .

٥ إشارة إلى قول الشاعر :

اقرأ على الوشل السلام وقل له- كل المشارب مذ هجرت ذميم

٦ ق ط : تخضرمك ؛ وفي ج ط ق ودوزي : وشجية .

٧ دوزي وق : ووجوه العطر في جنانه النضر ؛ ج : وجون العطر في جنانه النضر .

٨ دوزي : وما تضمنه .

٩ الذخيرة : وتحتوي عليه نجاده .

١٠ ق : هجرتها .

١١ ك : ومورد ؛ ج : وموارد .

طلّقتها برغمك ، وهيهات فوالله ما فارقتك تلك الأجارعُ والمجاني ، ولا شاقتك تلك المنازل والمغاني ، إلا تذكّراً لما لدينا من طيب المعاهد ، وحنيناً إلى ما عندنا من جميل المشاهد ، وأين من المشتاق عَنْقاء مغرب » ثم ذكر كلاماً في جواب ما مرّ من الحمار لم يتعلّق لي به غرض .

وما أحلى ما كتب به أبو إسحاق بن خفاجة من رسالة في ذكر متنزه [1] :

ولما أكبّ الغمام إكباباً ، لم أجد منه إغباباً ، واتصل المطر اتّصالاً ، لم ألْفِ منه انفصالاً ، أذن الله تعالى للصّحْو أن يُطلع صَفْحته ، وينشر صحيفته ، فقشعت الريح السحاب ، كما طوَى السجلُّ الكتاب ، وطفقت السماء تخلع جلبابها ، والشمس تحطّ [2] نقابها ، وتطلّعت [3] الدنيا تبتهج كأنّها عروس تجلّتْ ، وقد تحلّت ، ذهبتُ في لُمّة من الإخوان نستبق إلى الراحة رَكْضاً ، ونطوي للتفرّج أرضاً ، فلا ندفع إلا إلى غدير ، نمير ، قد استدارت منه في كل قَرَارة سماء ، سحائبها غمّاء ، وانساب في كلّ تَلْعَةٍ حُباب ، جلدُهُ حَبَاب ، فتردّدنا بتلك الأباطح ، نتهادى تهادي أغصانها ، ونتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللنسيم ، أثناء ذلك المنظرِ الوسيم ، تراسلُ مَشْي ، على بساطِ وَشْي ، فإذا مر بغدير لسجه دِرْعاً ، وأحكمه صُنْعاً ، وإن عثر بجدول شَطَبَ منه نَصْلاً ، وأخلصه صَقْلاً ، فلا ترى إلاّ بطاحاً ، مملوءة سلاحاً ، كأنّما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من دِرْع مَصْقول ، وسيف مسلول .

ومن فصل منها : فاحتللنا قبّة خضراء ممدودة أشطان الأغصان ، سُنْدُسية رِوَاق الأوراق ، وما زلنا نلتحف منها ببرد ظلٍّ ظَليل ، ونشتمل عليه برداء

---

١ انظر هذه الرسالة في الذخيرة (القسم الثالث) : ١٧٣ وديوان ابن خفاجة : ٣١٧ والمقتطفات (الورقة : ٢٢) .
٢ ك : تميط .
٣ ك : وطلعة .

نسيم عليل ، ونجيل الطرف في نهر صَقيل ، صافي لُجَيْن الماء ، كأنّه مَجَرّة السماء ، مؤتلق جوهر الحباب ، كأنّه من ثغور الأحباب ، وقد حَضَرَنا مُسْمِعٌ يجري مع النفوس لطافة فهو يعلم غرضها واهوَاها ، ويغني لها مُقترحها ومُناها ، فصيح لسان النقر ، يشفي من الوَقْر ، كأنّه كاتب حاسب ، تمشق يمناه ، وتعقد يسراه :

يحرّك حين يشدو ساكناتٍ وتَنْبَعِثُ الطبائعُ للسكون

وكانت بين أبي إسحاق وبعض إخوانه مُقاطعة ، فاتفق أن ولي ذلك الصديق حصناً ، فخاطبه أبو إسحاق برقعة ، منها[1] : أطال الله بقاء سيّدي النبيهة أوصافه النزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة إمارته الكريمة بالابتداء ، ما انحذفت ياء يَرْمي للجزم ، واعتلت واو يغزو لموضع الضم ، كتبت عن وُدّ قديم هو الحال ، لم يلحقها انتقال ، وعهد كريم هو الفعلُ لم يدخله الاعتلال ، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة ، ويَعْصم هذا بعدُ من الحروف الجازمة ، وأنا أستنهض طَولك إلى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل ، وتعدية فعل الفَصْل ، وعدولك عن باب ألف القطع ، إلى باب الوصْل والجمع ، حتى يسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ، ويدخل الانتقال حال الصمت ، فلا تتخيّل أعزّك الله أن رَسْمَ إخائك عندي ذُو حَساً[2] قد دَرَسَ عَفاء ، ولا أن صدري دارُ مية أمسى من ودّك خلاء[3] ، وإنّما أنا فعلٌ إذا ثُنّيَ ظهر من ضمير ودّه ما بطن ، وبدا منه ما كمن ، وهنيئاً أعزّك الله أن فعل وزارتك حاضر لا يلحق رفعه تغيير ، وأن فعل سيفك ماضٍ ما به للعوامل تأثير ، وأنت بمجدك جماع أبواب الظَّرْف ، تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف ،

---

١ الذخيرة : ١٧٦ والديوان : ٣٢٦ والمقتطفات : ٢٣ .
٢ إشارة إلى قول النابغة : « عفا ذو حساً من فرتنا فالفوارع » وفي ك : دوحه قد درس .
٣ إشارة أخرى إلى قول النابغة في وصف دار مية : « أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا » .

ودرس حروف العطف ، وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عَتْبك ، وتوجب بعد النفي ما سلف من قُرْبِك[1] ، وتدع ألف الألفة أن تكون بعدُ من حروف اللين ، وترفع بالإضافة بيننا وجود التنوين ، وتسوم ساكن الود أن يتحرّك ومعتلّ الإخاء أن يصح ، وكتابي هذا حرف صلة فلا تحذفه حتّى تعود الحال الأولى صفة ، وتصير هذه النكرة معرفة ، فأنت أعزّك الله مصدر فعل السرور والنبل ، ومنك اشتقاق اسم السؤدد والفضل ، وإنّك وإن تأخّر العصر بك كالفاعل وقع مؤخراً ، وعدوك وإن تكبر كالكُمَيْت لم يقع إلا مُصَغَّراً ، وللأيّام علل تبسط وتقبض ، وعوامل ترفع وتخفض ؛ فلا دَخَلَ عروضَكَ قَبْض ، ولا غاقبَ رفْعَك خفض ، ولا زلت مرتبطاً بالفضل شرطُك وجزاؤك ، جارياً على الرفع سروك الكريم وسناؤك ، حتّى يُخفض الفعل ، وتبنى على الكسر قَبْلُ ، إن شاء الله .

وكتب رحمه الله تعالى يستدعي عُودَ غناء[2] : انتظم من إخوانك — أعزّك الله تعالى — عقد شرب يتساقون في ودّك ، ويتعاطون ريحانة شكرك وحمدك ، وما منهم إلا شَرِهُ المسامع إلى رَنّة حمامة ناد ، لا حمامة بطن واد ، والطَّوْل لك في صلتها بجماد ناطق قد استعار من بنان لساناً ، وصار لضمير صاحبه ترجماناً ، وهو على الإساءة والإحسان لا ينْفكّ من إيقاع به ، من غير إيجاع له ، فإن هفا عُرِكت أذنه وأُدّب ، وإن تأتّى[3] واستوى بُعِج بطنه وضُرب ، لا زلت منتظم الجَذَل ، ملتئم الأمل ، انتهى .

* * *

[قصيدة لابن خفاجة]

ومن نظمه رحمه الله تعالى يتفجع ويتوجع[4] :

---

١ ك : عبلك ؛ ق : عتبك .

٢ الذخيرة : ١٧٤ والديوان : ٣١٩ .

٣ ك : تأبى ؛ ق ج : تأتى .

٤ الذخيرة : ١٨١ والديوان : ٢١٧ وفيها يرثي الوزير أبا محمد بن ربيعة إثر وفاة جملة من إخوانه .

شَرَابُ الأماني لو علمت سَرَابُ ... وَعُتْبَى الليالي لو عرفت عتابُ
وهل مُهْجَةُ الإنسان إلا طريدةٌ ... يحوم عليها للحِمام عُقابُ
يخبُّ بها في كلّ يوم وليلة ... مطايا إلى دار البلى وركابُ
وكيف يَغيضُ الدمعُ أوْ يبرد الحشا ... وقد باد أقرانٌ وفات شبابُ
أقلّبُ طرفي لا أرى غير ليْلة ... وقد حُطّ عن وجه الصباح نِقابُ
كأنّي، وقد طار الصباح، حمامةٌ ... يمدّ جناحيْه عليّ غرابُ
دعا بهمُ داعي الردى فكأنّما ... تبارت بهم خيْلٌ هناك عِرابُ
فها هم وسِلْمُ الدهر حرب كأنّما ... جثا بهم[1] طعن لهم وضرابُ
هجُود ولا غير التراب حَشيّةٌ ... لجنب ولا غير القبور قِبابُ
ولستُ بناس صاحباً من ربيعة ... إذا نَسيَتْ رسمَ الوفاء صحابُ
ومما شجانيَ أن قضى حتْفَ أنفه ... وما اندقّ رمحٌ دونه وكعابُ[2]
وأنّا تجارَيْنا ثلاثين حِجّةً ... ففات[3] سباقاً والحِمام قِصابُ
كأنْ لم نبت في منزل القصف ليلةً ... نجيب بها داعي الصِّبا ونجابُ
إذا قام منّا قائمٌ هزّ عطفه ... شبابٌ أرقْناه بها وشَرَابُ
ولمّا تراءتْ للمشيبِ بُرَيْقَةٌ ... وأقشعَ منْ ظلّ الشبابِ سحابُ
نهضنا بأعْباء الليالي جزالةً ... وأرستْ بنا في النائباتِ هِضابُ
فيا ظاعناً قد حَطّ من ساحةِ البلى ... بمنزلِ بينٍ ليس عنْهُ مَآبُ
كفى حزَناً أن لم يزرني على النوَى ... رسولٌ ولم ينفذْ إليك كتابُ
وأنّي إذا يمّمْتُ قبركَ زائراً ... وقفْتُ ودوني للتراب حجابُ
ولو أنّ حيّاً كان حاورَ ميّتاً ... لطالَ كلامٌ بيننا وخطابُ
وأعرَبَ عمّا عندهُ من جليّةٍ ... فأقشعَ عن شمسٍ هناك ضَبابُ

* * *

١ ك : بينهم .
٢ الذخيرة والديوان : وذباب .
٣ أصول المقري : حقبة ، فمات .

[عود إلى عمران قرطبة]

وقد أبعدنا عمّا كنّا بصدده من ذكر قرطبة أعادها الله للإسلام ، فنقول : قال بعض من أرّخ الأندلس :

انتهت مساجد قرطبة أيّام عبد الرحمن الداخل إلى أربعمائة وتسعين مسجداً ، ثم زادت بعد ذلك كثيراً كما يأتي ذكره .

وقال بعضهم[1] : كانت قرطبة قاعدة الأندلس ، وأم المدائن ، وقرارة الملك ، وكان عدد شرفاتها أربعة آلاف وثلاثمائة ، وكانت عدّة الدور في القصر الكبير أربعمائة دار ونيّفاً وثلاثين ، وكانت عدّة دور الرعايا والسّواد بها الواجب على أهلها المبيت في السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ، حاشا دور الوزراء وأكابر الناس والبياض .

ورأيت في بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لَمْتُونة والموحّدين ، قال : وكانت ديار أهل الدولة إذ ذاك ستة آلاف دار وثلاثمائة دار ، انتهى .

وعدد أرباضها ثمانية وعشرون ، وقيل : واحد وعشرون ، ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجداً ، وعدد الحمّامات المبرزة للناس سبعمائة حمّام ، وقيل : ثلاثمائة حمّام .

وقال ابن حيان : إن عدّة المساجد عند تناهيها في مدة ابن أبي عامر ألف وستمائة مسجد ، والحمّامات تسعمائة حمّام[2] .

وفي بعض التواريخ القديمة : كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجداً — منها بشَقنْدَة ثمانية عشر مسجداً — وتسعمائة حمّام وأحد عشر حمّاماً ، ومائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصاً ، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها ، هكذا نقله

١ انظر أزهار الرياض ٢ : ٢٧٢ .
٢ دوزي : ستمائة حمام .

في المغرب ، وهو أعلم بما يأتي ويذر ، رحمه الله تعالى .

وقال بعض المؤرخين — بعد ذكره نحو ما تقدم[1] — : ووسط الأرباض قبة قرطبة التي تحيط[2] بالسور دونها ، وأما اليتيمة التي كانت في المجلس البديع فإنها كانت من تُحَف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية ، انتهى .

ونحوه لابن الفرضي وغير واحد ، لكن خالفهم صاحب « المسالك والممالك »[3] فذكر أن عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد وأحد وسبعون مسجداً ، وهو بعيد ، وقال قبله[4] : إن دَوْرَ قرطبة في كمالها ثلاثون ألف ذراع ، وتفسيرها باللسان القوطي القلوب المختلفة ، وهي بالقوطية بالظاء المشالة ، وقيل : إن معنى قرطبة أجر فاسكنها[5] ، قال : وبقرطبة أقاليم كثيرة وكُوَرٌ جليلة ، وكانت جبايتها في أيام الحكم بن هشام مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين ديناراً ، وسبق ما يخالف هذا ، ومن القمح أربعة آلاف مدي وستمائة مدي ، ومن الشعير سبعة آلاف مدي وستمائة مدي وسبعة وأربعين مدياً .

وقال بعض العلماء : أحصيت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي عامر فكان مائتي ألف دار وثلاثة عشر ألف دار وسبعاً وسبعين داراً ، وهذه دور الرعية ، وأما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار ، سوى مصاري[6] الكراء والحمامات والخانات ، وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون ، ولما كانت الفتنة على رأس المائة الرابعة غيرت رسوم ذلك العمران ، ومحيت آثار تلك

١ أزهار الرياض ٢ : ٢٧٢ .
٢ ق ط ج : تختص .
٣ مخطوطة المسالك والممالك (الورقة : ٢٢٠) .
٤ المصدر السابق (الورقة : ٢١٩) .
٥ قد مر أنه « أجر ساكنها » وفي نسخة الروض المعطار : « آخر فاسكنها » .
٦ المصاري : جمع مصرية وهي غرفة علوية منعزلة ، تكرى أو تجعل للخدم .

القرى والبلدان ، انتهى ملخّصاً . وسيأتي في رسالة الشّقنْدي ما هو أشمل من هذا .

* * *

[قصيدة القرطبي والمتنزهات]

ولمّا رقّت حال أبي القاسم عامر بن هشام القرطبي [1] بقرطبة وزيّن له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحّدين مَرّاكُش قال وذكر المنتزهات القرطبية :

يا هبّةً باكرتْ من نحو دارين ... وافتْ إليّ على بُعْدٍ تُحيّيني
سَرَتْ على صفَحات النهر ناشرة ... جَناحها بيْنَ خيريٍّ ونسرينِ
ردّتْ إلى جَسدي رُوحَ الحياةَ وما ... خلتُ النسيمَ إذا ما متُّ يحييني
لولا تنسّمها مِنْ نَشْر أرضكمُ ... ما أصبحت من أليم الوَجد تُبْرِيني
مرّت على عقدات الرمل حاملةً ... مِنْ سِرّكم خبَراً بالوحي يَشْفيني
عرَفْتُ من عرْفه ما لستُ أجهله [2] ... لما تنسّم في تلك الميادينِ
نَزَوْتُ من طرَبٍ لمّا هفا سَحَراً ... وظلّ ينشرُني طَوْراً ويَطْويني
خلْتُ الشمال شمولاً إذ سَكِرْتُ بها ... سُكْراً بما لستُ أرجوه يُمَنّيني
أهْدَتْ إليّ أريجاً من شمائلكم ... فقلت : قرّبني مَنْ كان يُقصيني
وخِلْتُ مِنْ طَمَعٍ أن اللّقاء على ... إثْرِ النسيم وأضْحَى الشوْقُ يحدوني
فظَلْتُ ألثِمُ من تعظيم حقّكُمُ ... مَجرّ أذيالها والوَجْدُ يُغْريني
مَسارح كم بها سرحْتُ من كمَدٍ ... قلبي وطَرْفيَ ولا سُلْوانٍ يَثْنيني
بين المصلّى إلى وادي العقيق وما ... يزال مثلَ اسمه مذ بان يُبْكيني
إلى الرُّصافة فالمَرْجِ النضير فوا ... دي الدير فالعطف من بَطحاء عبدونِ

....

1 شاعر وشاح مترسل مشهور بالبطالة صلحت حاله بأخرة وأقبل على النسك (توفي سنة ٦٢٣) — انظر التكملة رقم : ١٩٤٤ والمغرب ١ : ٧٥ .

2 ك : ما كنت أجهله .

لبابِ عبد سَقَتْهُ السُّحْبُ وابلَها   فلم يزل بكؤوس الأنس يَسقيني

لا باعَدَ اللهُ عَيْني عَنْ مَنازِهِهِ   ولا يقرّبْ لها أبوابَ جَيْرُونِ

حاشا لها مِنْ محلاّتٍ[1] مُفارقةٍ   من شَيّقٍ دونها في القرب محزونِ

أين المسيرُ ورِزْقُ الله أدْرِكُهُ   من دون جَهْدٍ وتأميل يُعَنّيني

يا مَنْ يزيّنُ لي الترْحالَ عن بَلَدي   كم ذا تُحاوِلُ تَبْيِيناً عندِ حِينِ

وأين يَعْدِلُ عَنْ أرجاء قُرْطُبَةٍ   مَنْ شاء يَظْفَرُ بالدّنيا وبالدينِ

قُطْرٌ فَسيحٌ ونهر ما بهِ كَدَرٌ   حَفَّتْ بشَطّيه ألفافُ البساتينِ

يا لَيْتَ لي عمرَ نوحٍ في إقامتها   وأنَّ مالِيَ فيه كَنْزُ قارونِ

كلاهما كُنْتُ أفنيه على نَشَوا   تِ الراح نَهْباً وتَقْبيلِ الخُرَّدِ العِينِ[2]

وإنّما أسَفي أنّي أهيمُ بِها   وأنَّ حَظّيَ منها حَظُّ مَغْبُونِ

أرى بعينيَ ما لا تَستطيلُ يَدي   لَهُ وقَدْ حازَهُ مَنْ قَدْرُه دُوني

وأنكَدُ الناسِ عَيْشاً مَنْ تكون لَهُ   نَفْسُ الملوكِ وحالاتُ المَساكينِ

يَغُضُّ طَرْفَ التصابي حين تَبْهَتُهُ   قُضْبانُ نَعْمان في كُثْبان يَبْرِينِ

قالوا: الكَفافُ مُقيمٌ قلت: ذاك لمن   لا يَسْتخفُّ إلى بَيْتِ الزراجينِ

ولا يُبَلْبِله هَبُّ الصَّبا سَحَراً   ولا يُلَطّفُه عَرْفُ الرياحينِ

ولا يَهيمُ بتُفّاح الخدُود ورُمّا   نِ الصُّدُورِ[3] وتَرْجيعِ التلاحينِ

لا تُجْتَنى راحةٌ إلاّ على تعَبٍ   ولا تُنال العُلا إلاّ من الهُونِ

وصاحبُ العقلِ في الدنيا أخو كدرٍ   وإنّما الصَّفْوُ فيها للمجانينِ

يا آمري أن أحثّ العيسَ عن وَطَني   لمّا رأى الرزْقَ فيه لَيْسَ يُرْضيني

نصَحْتَ لكنَّ لي قَلْباً يُنازِعُني   فلَوْ ترحّلْتُ عنه حلّهُ دوني

لألزَمَنْ وطَني طوراً تُطاوِعُني   قُودُ الأماني وطَوْراً فيه تَعْصِيني

. . . .

١ ق ط : مجلات .

٢ ك : الحور والعين .

٣ دوزي : النهود .

مُدللاً بَيْنَ عرفاني وأضربُ عن سَيرٍ لأرضٍ بها مَنْ لَيْسَ يَدْريني
هذا يَقول غَريبٌ ساقه طَمَعٌ وذاكَ حِينَ أريه البرَّ يَجْفوني
إليكِ عَنّيَ آمالي فَبُعْدُكِ يَهْدِمُني وقُرْبُكِ يُطْغيني ويُغويني
يا لحظَ كلِّ غزالٍ لَسْتَ أملكُه يَدْنو وما ليَ حالٌ منه تُدْنيني
ويا مُدامةَ دَيْرٍ لا أُلِمُّ بِهِ لولاكُما كان ما أُعْطيتُ يَكْفيني
لأصبرنَّ عَلى ما كانَ من كَدَرٍ لمن عَطاياه بَيْنَ الكافِ والنّونِ

وتسمى هذه القصيدة عند أهل الأندلس « كنز الأدب » وقد أشرنا في الباب [1] الأول إلى كثير ممّا يتعلّق بقرطبة ، أعادها الله تعالى إلى الإسلام ، فأغنى عن إعادته ، وإن كان ذكره هنا أنسب ، لأن ما تقدّم إنّما هو في ذكرها مع غيرها من بلاد الأندلس ، وهذا الباب [2] لها بالاستقلال .

وأنشد أبو العاصي غالب بن أميّة المورووري [3] لما جلس على نهر قرطبة بإزاء الرّبض ملتفتاً إلى القصر ، بديهة [4] :

يا قَصْرُ كم [قد] حوَيْتَ من نعمٍ عادَتْ لَقًى في عَوَارِضِ [5] السكك
يا قَصْرُ كم [قد] حوَيْتَ من ملكٍ دارَتْ عَلَيهِ دوائر الفلَكِ
ابقَ بما شِئْتَ كلُّ مُتَّخَذٍ يَعُودُ يَوْماً [6] بحالِ مُتّرَكِ

وقال القاضي أبو الفضل عياض عند ارتحاله عن قرطبة [7] :

١ ق ك ط ج : الفصل . ٢ ق ك ط ج : الفصل .
٣ غالب بن أمية بن غالب المورووري (ويترجم له أيضاً تحت أمية بن غالب) من شعراء القرن الرابع سكن قرطبة . (انظر ترجمته في التكملة رقم : ١٩٥٥ والجذوة : ٣٠٥ وبغية الملتمس رقم : ١٢٧٥) والأبيات الواردة له مذكورة في هذه المصادر .
٤ حولت الأبيات حسب رواية النفح إلى الوزن الكامل المرفل ، ولكنها جاءت مع أبيات أخرى في الجذوة والبغية على وزن المنسرح فلذلك عدلنا بها إلى ذلك الوزن .
٥ أصول النفح : بعوارض .
٦ أصول النفح : ما شئت فابق فكل متخذ يوماً يعود .
٧ وردت الأبيات في ترجمة القاضي عياض في القلائد : ٢٢٢–٢٢٦ وانظر أزهار الرياض ٣ : ١٨ .

أقول وقد جَدَّ ارتحالي وغَرَّدَتْ حُدَاتي وزُمّتْ للفراق رَكائبي
وقد غمضَتْ من كثرة الدَّمعِ مُقلتي وصارت هَوَاه من فؤادي تَرَائبي
ولم يَبْقَ إلا وَقْفَة يَسْتحثُّها وَداعيَ للأحباب لا للحَبائبِ
رَعى الله جيراناً بقرطبة العُلا وجاد رُباها بالعهاد السَّواكبِ
وحَيّا زماناً بَيْنهم قد ألِفْتُه طليقَ المحيّا مُسْتلانَ الجَوانبِ
أإخواننا بالله فيها تذكّروا مَوَدّة جارٍ أو مَوَدّةَ صاحبِ
غَدَوْت بهم من برّهم واحتفائهم كأنّيَ في أهلي وبين أقاربي

* * *

[عود إلى مسجد قرطبة]

وأمّا مسجد قرطبة فشهرته تغني عن كثرة الكلام فيه ، ولكن نذكر من أوصافه وننشر من أحواله ما لا بدّ منه ، فنقول :

قال بعض المؤرخين : ليس في بلاد الإسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء وأتقن صنعة ، وكلّما اجتمعت منه أربع سواري كان رأسها واحداً ، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله ، انتهى .

وكان الذي ابتدأ بنيان[1] هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ، ولم يكمل في زمانه ، وكمله ابنه هشام ، ثم توالى الخلفاء من بني أميّة على الزيادة فيه ، حتى صار المثل مضروباً به ، والذي ذكره غير واحد أنّه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على مَنْ قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء .

وقال بعض المؤرخين : إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم[2] بنى القصر بقرطبة ، وبنى المسجد الجامع ، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى بقرطبة الرُّصافة تشبيهاً برُصافة جده هشام بدمشق .

١ ك : بناء .
٢ وعظم : زيادة في ك .

وقال بعض[1] : إنّه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار ، واشترى موضعه إذ كان كنيسة بمائة ألف دينار ، فالله تعالى أعلم .

وقال بعض[1] في ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته : إنّه لما تمهّد ملكه شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيّد مبانيها ، وحصّنها بالسور ، وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فِناءه ، وأصلح مساجد الكُوَر ، ثم ابتنى مدينة الرُّصافة متنزهاً له ، واتخذ بها قصراً حسناً ، وجناناً واسعة ، نقل إليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار ، انتهى .

وكانت أخته أم الأصبغ ترسل إليه من الشام بالغرائب ، مثل الرّمان العجيب الذي أرسلته إليه من دمشق الشام كما مرّ ، وسيأتي كلام ابن سعيد بما هو أتم من هذا .

ولما ذكر ابن بَشْكُوال زيادة المنصور بن أبي عامر في جامع قرطبة قال[2] : ومن أحسن ما عاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامريّة أعلاج النصارى مُصَفَّدين في الحديد من أرض قَشْتالة وغيرها ، وهم كانوا يتصرّفون في البنيان عوضاً من رَجّالة المسلمين ، إذلالاً للشِّرك وعزةً للإسلام ، ولما عزم على زيادته هذه جلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه ، فكان يُؤتى بصاحب المنزل فيقول له : إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد ابتياعها[3] لجماعة المسلمين من مالهم ومن فَيْئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم ، فشَطّطْ واطلب ما شئت ، فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له ، وأن تشترى له بعد ذلك دار عوضاً منها ، حتى أُتي بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة ، فقالت : لا أقبل عوضاً إلاّ داراً بنخلة ، فقال : تُبتاع لها دار بنخلة ، ولو ذهب فيها

---

١ ك : وقال بعض المؤرخين .
٢ قارن بما ورد في مخطوط الرباط : ٣٠ .
٣ ك : أريد أن أبتاعها .

بيتُ المال ، فاشتريت لها دار بنخلة ، وبولغ في الثمن ؛ وحكى ذلك ابن حيّان أيضاً .

وقيل : إن إنفاق الحكم في زيادة الجامع كان مائة ألف وواحداً وستين ألف دينار ونيّفاً ، وكلّه من الأخماس .

وقال صاحب كتاب « مجموع المفترق » : وكان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة إلى الجَوْف قبل الزيادة مائتين وخمسة وعشرين ذراعاً ، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمسة أذرع ، ثم زاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة أذرع ، فكمل الطول ثلاثمائة ذراع وثلاثين ذراعاً ، وزاد محمّد بن أبي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعاً ، فتم العرض مائتي ذراع وثلاثين ذراعاً ، وكان عَدَدُ بلاطاته أحد عشر بلاطاً ، عرض أوسطها ستة عشر ذراعاً ، وعرض كل واحد من اللذين يليانه غرباً واللذين يليانه شرقاً أربعة عشر ذراعاً ، وعرض كل واحد من الستة الباقية أحد عشر ذراعاً ، وزاد ابن أبي عامر فيه ثمانيةً عرضُ كل واحد عشرة أذرع ، وكان العمل في زيادة المنصور سنتين ونصفاً ، وخدم فيه بنفسه ، وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة ذراع وثمانية وعشرون ذراعاً ، وعرضه من القبلة إلى الجَوْف مائة ذراع وخمسة أذرع ، وعرض كل واحدة من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع ، فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعاً ، وعدد أبوابه تسعة : ثلاثة في صحنه غرباً وشرقاً وجوفاً ، وأربعة في بلاطاته : اثنان شرقيان واثنان غربيّان ، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان ، وجميعُ ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عموداً رخاماً كلّها ، وباب مقصورة الجامع ذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أُجري فيه الذهب على الفُسَيْفساء ، وثُرَيّات المقصورة فضّة محضة ، وارتفاعُ الصومعة اليوم — وهي من بناء عبد الرحمن ابن محمد — ثلاثة وسبعون ذراعاً إلى أعلى القبّة المفتّحة التي يستديرُ بها المؤذن ،

وفي رأس هذه القبة تفافيح[١] ذهب وفضّة ، ودور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف ، فاثنتان من التفافيح ذهب إبريز ، وواحدة فضّة ، وتحت كل واحدة منها وفوقها سَوْسَنَة قد هُندست بأبدع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج ، وهي إحدى غرائب الأرض .

وكان بالجامع المذكور[٢] في بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه الذي خطّه بيده ، وعليه حلية ذهب مكلّلة بالدر والياقوت ، وعليه أغشية الديباج ، وهو على كرسيّ العود الرَّطْب بمسامير الذهب .

رجع إلى المنارة :

وارتفاعُ المنارة إلى مكان الأذان أربعة وخمسون ذراعاً ، وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمانية عشر ذراعاً ، انتهى بحروفه . وفيه بعض مخالفة لما ذكره ابن الفرضي وبعضهم ، إذ قال في ترجمة المنصور بن أبي عامر ما صورته[٣] : وكان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب البر[٤] والقُرْبة بنيانُ المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ، وذلك أنّه لما زاد الناس بقُرْطُبَة وانجلب إليها قبائلُ البربر من العُدْوة وإفريقية ، وتناهى حالها في الجلالة ، ضاقت الأرباض وغيرها ، وضاق المسجد الجامع عن حَمْل الناس ، فشرع المنصور في الزيادة بشرقيه حيث تتمكّن الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة ، فبدأ ابنُ أبي عامر هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولاً من أول المسجد إلى آخره ، وقصد ابن أبي عامر في هذه الزيادة المبالغة في

١ تسمى في مخطوطة الرباط : « رمانات » .
٢ انظر مخطوط الرباط : ٣٣ ؛ والروض المعطار : ١٥٥ .
٣ النص في ابن عذاري ٢ : ٤٢٨ .
٤ ق ودوزي : الخير والبر .

الإتقان والوثاقة ، دون الزخرفة ، ولم يقصّر — مع هذا — عن سائر الزيادات جودة ، ما عدا زيادة الحكم . وأوّلُ ما عمله ابن أبي عامر تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتُريت منهم للهَدْم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن ، وصنع في صحنه الجبَّ العظيمَ قدرُه ، الواسع فِناؤه ، وهو — أعني ابن أبي عامر — هو الذي رتّب إحراق الشمع بالجامع زيادة للزيت[1] ، فتطابق بذلك النوران ، وكان عدد سواري الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقِبابه ومَناره بين كبيرة وصغيرة ألف سارية وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية ، وقيل : أكثر ، وعدد ثُرَيّات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثُرَيّا ، وعددُ الكؤوس سبعة آلاف كأس وأربعمائة كأس وخمسة وعشرون كأساً ، وقيل : عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤوس ، وزِنة مَشاكي الرصاص للكؤوس المذكورة عشرة أرباع[2] أو نحوها ، وزِنَة ما يحتاج إليه من الكتان للفتائل في كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار ، وجميع ما يحتاج إليه الجامع من الزيت في السنة خمسمائة ربع أو نحوها ، يُصرف منه في رمضان خاصة نحو نصف العدد ، ومما كان يختصّ برمضان المعظّم ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المقطن لإقامة الشمع المذكور ، والكبيرة من الشمع التي تؤخذ بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلاً ، يحترق بعضها بطول الشهر ، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة ، وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة في دولة ابن أبي عامر ويتصرف فيه من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسَدَنَة ومُوقِدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين شخصاً[3] ، ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أواقٍ من العنبر الأشهب وثماني أواقٍ من العود الرطب ، انتهى .

. . . . . .

١ ابن عذاري : للرسم .
٢ ابن عذاري : عشرة أرباع القنطار .
٣ مخطوطة الرباط : ثلاثمائة رجل ، وهو يوافق ما سيأتي من نقل عن ابن سعيد .

وقال بعض المؤرخين : كان للجامع كل ليلة جمعة[1] رطل عود ، وربع رطل عنبر ، يتبخر به ، انتهى .

وقال ابن سعيد ، نقلاً عن ابن بَشْكُوال : طول جامع قرطبة الأعظم الذي هو بداخل مدينتها من القبلة إلى الجوف ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً ، الصحْنُ المكشوف عنه ثمانون ذراعاً ، وغير ذلك مُقَرْمَد ، وعرضه من الغرب إلى الشرق مائتان وخمسون ذراعاً ، وعدد أبْهائه عند اكتمالها بالشمالية التي زادها المنصور بن أبي عامر بعد هذا تسعة عشر بَهْواً ، وتسمى البلاطات ، وعدد أبوابه الكبار والصغار واحد وعشرون باباً : في الجانب الغربي تسعة أبواب ، منها واحد كبير للنساء يشرع إلى مقاصيرهن ، وفي الجهة الشرقية تسعة أبواب ، منها لدخول الرجال ثمانية أبواب ، وفي الجهة الشمالية ثلاثة أبواب ، منها لدخول الرجال بابان كبيران وباب لدخول النساء إلى مقاصيرهنّ ، وليس لهذا الجامع في القبليّ سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة في قبلته متصل بالساباط المُفْضِي إلى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة ، وجميعُ هذه الأبواب مُلَبَّسة بالنحاس الأصفر بأغرب صنعة ، وعدد سواري هذا المسجد الجامع الحاملة لسمائه والملصقة[2] بمبانيه وقبابه ومناره وغير ذلك من أعماله بين كبار وصغار ألفٌ وأربعَمائة سارية وتسع سوار ، منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشرة سارية .

وذكر المقصورة البديعة التي صنعها الحكم المستنصر في هذا الجامع فقال : إنّه خطر بها على خمسة بلاطات من الزيادة الحكَمية ، وأطلق حفافيها على الستة الباقية : ثلاثة من كلّ جهة ، فصار طولها من الشرق إلى الغرب خمسة وسبعين ذراعاً ، وعرضها من جدار الخشب إلى سور المسجد بالقبلة اثنين

---

١ ق : كل جمعة .

٢ في ط : والملتصقة ؛ ج : والملاصقة .

وعشرين ذراعاً ، وارتفاعُها في السماء إلى حدّ شرفاتها ثمانية أذرع ، وارتفاع كل شرفة ثلاثة أشبار ، ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة إلى الجامع شرقيّ وغربيّ وشماليّ ، ثم قال : وذَرْعُ المحراب في الطول من القبلة إلى الجوف ثمانية أذرع ونصف ، وعرضه من الشرق إلى الغرب سبعة أذرع ونصف ، وارتفاع قبوه في السماء ثلاثة عشر ذراعاً ونصف ، والمنبر إلى جنبه مؤلف من أكارم الخشب ما بين آبنوس وصَنْدَل ونَبْع وبَقّم وشَوْحَط وما أشبه ذلك ، ومبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم وثُلُث درهم[1] وقيل غير ذلك ، وعدد درجه تسع درجات صنعة الحكم المستنصر رحمه الله .

وذكر أن عدد ثُرَيّات الجامع التي تُسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصّة — سوى ما منها على الأبواب — مائتان وأربع وعشرون ثُريّا ، جميعُها من لاطون مختلفة الصنعة ، منها أربع ثريّات كبار معلقة في البلاط الأوسط أكبرها الضخمة المعلّقة في القبّة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة ، فيها من السُّرُج — فيما زعموا — ألف وأربعة وخمسون[2] ، تستوقد هذه الثريات الضخام في العشر الأخير من شهر رمضان ، تسقى كل ثريّا منها سبعة أرباع في الليلة ، وكان مبلغ ما ينفق من الزيت على جميع المصابيح في هذا المسجد في السنة أيام تمام وَقوده في مدّة ابن أبي عامر مكملة بالزيادة المنسوبة ألف ربع ، منها في شهر رمضان سبعمائة وخمسون ربعاً ، قال : وفي بعض التواريخ القديمة كان عدد القَوَمة بالمسجد الجامع بقرطبة في زمن الخلفاء وفي زمن ابن أبي عامر ثلاثمائة ، انتهى . وفيه مخالفة لبعض ما تقدّم .

وذكر بعضهم الزيت — ولكن قوله أولى بالاتباع ، لنقله عن ابن بشكوال ،

---

١ وثلث درهم : سقطت من ك .

٢ في ك : ألف وأربعمائة وأربعة وخمسون .

ولمعرفة ابن سعيد بمثل هذا وتحقيقه فيه أكثر من غيره ، والله سبحانه أعلم — فقال : ألف ربع وثلاثون ربعاً ، منها في رمضان خمسمائة ربع ، وفي الثريات التي من الفضة — وهي ثلاث — اثنان وسبعون رطلاً ، لكل واحدة ثمانية عشر في ليلة وَقْدها . وقال في المنبر : إنّه مركب من ستة وثلاثين ألف وصل ، قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضّة ، وسمرت بمسامير الذهب والفضّة ، وفي بعضها نفيس الأحجار ، واتصل العمل فيه تسعة ، ثم قال : ودور الثريا العظيمة خمسون شبراً ، وتحتوي على ألف كأس وأربعة وثمانين ، كلّها مُوَشّاة بالذهب ، إلى غير ذلك من الغرائب .

* * *

[وصف جامع قرطبة لابن صاحب الصلاة]

وكتب الفقيه الكاتب أبو محمّد إبراهيم ابن صاحب الصلاة الولْبَنّي يصف جامع قرطبة بما نصّه[1] : عمر الله سبحانه بشمول السعادة رسمك ، ووفر من جزيل الكرامة قَسْمك ، ولا بَرِحت سحائب الإنعام تهمي عليك ثَرَّة ، وأنامل الأيام تهدي إليك كلّ مَسَرَّة ، لئن كان أعزّك الله طريق الوداد بيننا عامراً ، وسبيل الاتحاد[2] غامراً ، لوجب أن نفض ختمه ، ونرفض كتمه ، لا سيّما فيما يُدِرُّ أخلاف الفضائل ، ويهز أعطاف الشمائل ، وإنّي شخصت إلى حضرة قرطبة — حرسها الله تعالى — منشرح الصدر ، لحضور ليلة القدر ، والجامع — قدس الله تعالى بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه — قد كسي ببردة الازدهاء ، وجُلي في معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول في سنان ، أو أشرٌ في أسنان ، وكأنّما ضُربت على سمائه كِلَل ، أو خُلعت على أرجائه حُلَل ، وكأن الشمس قد خلّفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فترى نهاراً

١ وردت هذه الرسالة في المقتطفات (الورقة : ٣٥ — ٣٧) .
٢ ك : وسبيل المحبة ؛ وفي ط بياض موضع « الاتحاد » .

قد أحدق به ليل ، كما أحدق برَبْوَةٍ سيل ، ليل دامس ، ونهار شامس ، وللذُّبال تألُّق كنَضْنضة الحيات ، أو إشارة السبّابات في التحيّات ، قد أترعَت من السليط كؤوسها ، ووُصِلت بمحاجن الحديد رؤوسها ، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة ، أو كالثعابين العائمة ، عُصبت بها تفاح من الصُّفْر ، كاللُّفّاح الصُّفر : بولغ في صقلها وجلائها ، حتى بهرت بحسنها ولألائها ، كأنّها جُليت باللهب ، وأشربت ماء الذهب ، إن سامتّها طولاً رأيت منها سبائك عسجد ، أو قلائد زبرجد ، وإن جئتها[1] عرضاً رأيت منها أفلاكاً ولكنّها غير دائرة ، ونجوماً ولكنّها ليست بسائرة ، تتعلّق تعلُّقَ القرط من الذِّفْرَى ، وتبسط شعاعَها بَسْطَ الأديم حين يُفْرَى ، والشمع قد رُفعت على المنار رفع البنود ، وعُرضت عليها عرض الجنود ، ليجتلي طلاقة روائها القريب والبعيد ، ويستوي في هداية ضيائها الشقي والسعيد ، وقد قوبل منها مُبْيَضّ بمحمرّ ، وعورض مخضرٌّ بمصفرّ ، تضحك ببكائها وتبكي بضحكها ، وتهلك بحياتها وتحيي بهلكها ، والطيب تفغم أفواحه ، وتتنسّم أرواحه ، وقتارُ الألنجوج والند ، يسترجع من رَوْح الحياة ما نَدّ ، وكلّما تصاعد وهو محاصَر ، أطال من العمر ما كان تقاصر ، في صفوف[2] مجامر ، ككعوب مُقامر ؛ وظهور القباب مؤللة ، وبطونها مهللة ، كأنّها تيجان ، رُصّع فيها ياقوت ومرجان ، قد قوس محرابها أحكمَ تقويس ، ووُشم بمثل ريش الطواويس ، حتى كأنّه بالمجرّة مُقَرْطَق ، وبقوس قُزَحَ مُمَنْطَق ، وكأن اللازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، نُتَف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظُلَل الغمام ، والناس أخياف في دواعيهم ، وأوزاع في أغراضهم ومراميهم ، بين رُكَّع وسُجَّد ، وأيقاظ وهُجَّد ، ومزدحم على الرقاب يتخطاها ، ومقتحم على الظهور يتمطّاها ،

[1] ك : أتيتها .
[2] ق : الحياة ما هو مزجوج وأقيمت في صفوف (وهو مضطرب ناقص) .

كأنّهم بَرَدٌ خلال قَطْرٍ ، أو حروف في عرض[1] سطر ، حتى إذا قرعت أسماعهم رَوْعَةَ التسليم ، تبادروا بالتكليم ، وتجاذبوا بالأثواب ، وتساقَوْا بالأكواب ، كأنّهم حُضور طال عليهم غياب ، أو سَفْر أتيح لهم إياب ، وصَفِيُّكَ مع إخوان صِدْق ، تنسكب العلوم بينهم انسكاب الوَدْق ، في مكان كوَكْر العصفور ، أستغفر الله أو كَكِناس اليَعْفُور ، كأن إقليدسَ قد قسم بيننا مساحته بالموازين ، وارتبطنا فيه ارتباط البيادق بالفرازين ، حتى صار عقدنا لا يُحَلّ ، وحَدُّنا لا يُفلّ ، بحيث نسمع سُوَر التنزيل كيف تُتْلى ، ونتطلّع صور التفصيل[2] كيف تجلى ، والقَوَمَة حوالينا يجهدون في دفع الضرر ، ويعمدون إلى قرع العُمُدِ بالدِّرر ، فإذا سمع بها الصبيان قد طبّقت الخافقين ، وسرت نحوهم[3] سُرَى القين ، توهموا أنّها إلى أعطافهم واصلة ، وفي أقحافهم حاصلة ، ففروا بين الأساطين ، كما تفرُّ من النجوم الشياطين ، كأنّما ضربهم أبو جَهْم[4] بعصاه ، أو حصبهم عمير بن ضابىء[5] بحصاه ، فأكرم بها مَساعٍ تشوق إلى جنّة الخلد ، ويهون في السعي إليها إنفاق الطوارف والتُّلْد ، تعظيماً لشعائر الله ، وتنبيهاً لكل ساهٍ ولاه ، حكمة تشهد لله تعالى بالربوبيّة ، وطاعة تذل لها كل نفس أبيّة ، فلم أرَ ، أدام الله سبحانه عزّك ، منظراً منها أبهى ، ولا مخبراً أشهى ، وإذا لم تتأمّله عياناً ، فتخيّله بياناً ، وإن كان حظ منطقي من الكلام ، حظ السفيح[6] من الأزلام ، لكن ما بيننا من مودة أكدنا وسائلها ، وأذمّة تقلدنا حمائلها ، يوجب قبول إتحافي سميناً وغثّاً ، ولبس إلطافي جديداً

---

١ ق ودوزي : عروض ، وما ثبت هنا في نسخة ك ط ج .
٢ ق ط : التفضيل .
٣ دوزي : بعدهم .
٤ فيه إشارة إلى ما قاله الرسول (ص) في أبي جهم العدوي من أنه لا يرفع عصاه عن أهله .
٥ عمير بن ضابىء البرجمي ممن حصب الحجاج حين جلس على منبر الكوفة .
٦ السفيح : قدح لا نصيب له في الميسر ، وكذلك المنيح .

ورثّاً ، لا زلت لزناد النبل مُورياً ، وإلى آماد الفضل مجرياً ، والتحيّة العَبِقة الريّا ، المشرقة المحيّا ، عليك ما طلع قمر ، وأينع ثمر ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

* * *

[تمام الحديث في متعلقات الجامع]

وذكر ابن بَشْكُوال أن الحكم المستنصر هَدّم الميضأة القديمة التي كانت بفِناء الجامع ، يستسقى لها الماء من بئر السانية ، وبنى موضعها أربع ميضآت في كل جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي منها ثنتان كبرى للرجال وصغرى للنساء، أجرى في جميعها الماء في قناة اجتلبها من سفح جبل قُرْطُبَة إلى أن صبت ماءها في أحواض رخام لا ينقطع جريانه الليل والنهار ، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربيّة والشمالية ، أجراها هنالك إلى ثلاث جواب من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنستير[1] بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير ، وألقاه الرخّامون[2] هنالك ، واحتفروا أجوافها بمناقيرهم في المدّة الطويلة حتى استوت في صورها البديعة لأعين الناس ، فخفّف ذلك من ثقلها ، وأمكن من إهباطها إلى أماكن نصبها بأكناف المسجد الجامع ، وأمد الله تعالى على ذلك بمعونته ، فتهيّأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فَلَكٍ موثقة بالحديد المثقّف محفوفة بوثاق الحبال قُرِن بجرّها سبعون دابة من أشد الدواب ، وسهلت قدامها الطرق والمسالك ، وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة في مدة اثني عشر يوماً ، فنصبت في الأقباء المعقودة لها ؛ قال : وابتنى المستنصر في غربي الجامع دارَ الصدقة ، واتخذها معهداً لتفريق صدقاته المتوالية ،

---

١ في ط : المنسير ؛ ق : النسير ؛ ج : المنتسين .

٢ ك : الرخاميون .

وابتنى للفقراء البيوت قُبالةَ باب المسجد الكبير الغربي ، انتهى .

* * *

[عمل أهل قرطبة حجة في الفقه]

واعلم أنّه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجّةً بالمغرب ، حتى إنّهم يقولون في الأحكام : هذا ممّا جرى به عمل قرطبة ، وفي هذه المسألة نزاع كثير ، ولا بأس أن نذكر ما لا بد منه من ذلك ، قال الإمام ابن عرفة[1] رحمه الله تعالى : في اشتراط الإمام على القاضي الحكم بمذهب معين — وإن خالف معتقد المشترط اجتهاداً وتقليداً — ثلاثة أقوال : الصحة للباجي ، ولعمل أهل قرطبة ، ولظاهر شرط سحنون على مذهب مَنْ ولاّه الحكم بمذهب أهل المدينة ؛ قال المازري : مع احتمال كون الرجل مجتهداً . الثاني : البطلان ، للطرطوشي ، إذ قال في شرط أهل قرطبة : هذا جهل عظيم . الثالث : تصح التولية ويبطل[2] الشرط ، تخريجاً على أحد الأقوال في الشرط الفاسد في البيع للمازري عن بعض الناس ، انتهى مختصراً .

قال ابن غازي : إن ابن عرفة نسب للطرطوشي البطلان مطلقاً ، وابن شاس إنّما نسب له التفصيل ، انتهى .

ولمّا ذكر مولاي الجد الإمام قاضي القضاة بفاس سيدي أبو عبد الله المقري التلمساني[3] في كتابه « القواعد » شرطَ أهل قرطبة المذكور ، قال بعده ما نصّه :

---

١ هو محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (٧١٦ — ٨٠٣) تلميذ قاضي الجماعة بتونس محمد ابن عبد السلام ، وأحد الفقهاء المشهورين بها ، وله مختصر فقهي ومؤلفات أخرى في مذهب مالك تشهد بتقدمه وإمامته (انظر ترجمته في نيل الابتهاج : ٢٨١ والديباج : ٣٣٧ والضوء اللامع ٩ : ٢٤٠ وغاية النهاية ٢ : ٢٤٣) .

٢ ك : ويذهب .

٣ جد المؤلف هذا هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني الذي تولى قضاء فاس أيام السلطان أبي عنان المريني ، وكان آية في غزارة الحفظ ومادة العلم (انظر ترجمته في المرقبة العليا : ١٦٩ والتعريف بابن خلدون : ٥٩ والإحاطة ٢ : ١٣٦ ونيل الابتهاج : ١٤٩ وسيترجم له المقري) .

وعلى هذا الشرط ترتب إيجاب[1] عمل القضاة بالأندلس ، ثم انتقل إلى المغرب ، فبينا نحن ننازع الناس في عمل المدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمّة كعلي وابن مسعود ومن كان معهما :

ليس التكحُّلُ في العينين كالكَحَلِ

سنح لنا بعض الجمود ، ومعدن التقليد[2] :

الله أخّرَ مُدّتي فتأخّرَتْ حتى رأيتُ من الزّمان عجائبا

يا لله وللمسلمين ، ذهبت قرطبة وأهلها ، ولم يبرح من الناس جهلها ، ما ذاك إلاّ لأن الشيطان يسعى في محو الحق فينسيه ، والباطل لا زال يلقنه ويلقيه ، ألا ترى خصال الجاهلية كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والخط والتشاؤم وما أشبه ذلك ، وأسماءها كالعتمة ويثرب ، وكذا التنابز بالألقاب وغيره ممّا نُهي عنه وحُذر منه ، كيف لم تزُل من أهلها ، وانتقلت إلى غيرهم مع تيسّر أمرها ، حتّى كأنّهم لا يرفعون بالدين رأساً ، بل يجعلون العادات القديمة أُسّاً ، وكذلك محبّة الشعر والتلحين[3] والنسب وما انخرط في هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب ، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين سنة لا نحفظه إلاّ قولاً ، ولا نحمله إلاّ كَلاًّ ، انتهى .

وقال الحافظ ابن غازي — بعد ذكر كلام مولاي الجد — ما نصّه : وحدثني ثقة ممّن لقيت أنّه لما قدم مدينة فاس العلامة أبو يحيى الشريف التلمساني وتصدى لإقراء التفسير بالبلد الجديد وأمر السلطان أبو سعيد المَريني الحفيد أعيان الفقهاء

. . . .

١ إيجاب : سقطت من ك .
٢ كذا وردت هذه العبارة ، واقترح فليشر أن تقرأ « سنح لنا بغض المجهود ومودة التقليد » وهو تخريج بعيد .
٣ ط : والتأخير .

بحضور مجلسه كان ممّا ألقاه إليهم منتزع المقّري[1] هذا ، فبالغوا في إنكاره ، ورأوا أنّه لا معدل عمّا عول عليه زعماء الفقهاء كابن رشد وأصحاب الوثائق كالمتيطي من اعتماد عمل أهل قرطبة ومَنْ في معناهم ، انتهى .

* * *

[رجع إلى وصف قرطبة ومسجدها]

وقال بعض المؤرخين — حين ذكر قرطبة — ما ملخّصه : هي قاعدة بلاد الأندلس ، ودار الخلافة الإسلاميّة ، وهي مدينة عظيمة ، وأهلها أعيان البلاد وسَرَاة الناس ، في حسن المآكل والمشارب[2] والملابس والمراكب ، وعلو الهمم ، وبها أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وأجلاد الغُزَاة ، وأنجاد الحروب ، وهي في تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز ، وكل مدينة مستقلّة بنفسها ، وفيها ما يكفي أهلها من الحمّامات والأسواق والصناعات ، وطول قرطبة ثلاثة أميال في عرض ميل واحد ، وهي في سفح جبل مطل عليها ، وفي مدينتها الثالثة وهي الوسطى القنطرةُ والجامعُ الذي ليس في معمور الأرض مثله وطوله مائة ذراع في عرض ثمانين ، وفيه من السواري الكبار ألف سارية ، وفيه مائة وثلاث عشرة ثريّا للوقود أكبرها تحمل ألف مصباح ، وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه ، وبقبلته صناعات تدهش العقول ، وعلى فرجة[3] المحراب سبع قِسِيّ قائمة على عمد طول كل قوس فوق القامة قد تحير الروم والمسلمون في حسن وضعها ، وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة : اثنان أخضران واثنان لازورديان ، ليس لها قيمة لنفاستها ، وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولا[4] مثله في حسن صنعته ، وخشبه

---

١ ك : مشرع المقري .

٢ والمشارب : زيادة من ك .

٣ ق ودوزي : فرخة ؛ ط : فرضة .

٤ أنفس منه ولا : زيادة من ك .

ساج وآبنوس وبقّم[1] وعُود قاقلّي ، ويذكر في تاريخ بني أميّة أنّه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانية صنّاع لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي[2] ، فكان جملة ما صرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً ، وفي الجامع حاصل[3] كبير ملآن من آنية الذهب والفضّة لأجل وَقُوده ، وبهذا الجامع مصحف يقال : إنّه عثماني ، وللجامع عشرون باباً مصفحات بالنحاس الأندلسي مخرّمة تخريماً عجيباً بديعاً يعجز البشر ويبهرهم ، وفي كل باب حلقة في نهاية الصنعة والحكمة ، وبه الصومعة العجيبة التي ارتفاعها مائة ذراع بالمكي المعروف بالرشاشي[4] ، وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته ، وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ، والجميع خلقة ربانية ، وأما القنطرة التي بقرطبة فهي بديعة الصنعة ، عجيبة المرأى ، فاقت قناطر الدنيا حسناً[5] ، وعدد قسيّها سبع عشرة قوساً ، سعة كل قوس منها خمسون شبراً وبين كل قوسين خمسون شبراً ، وبالجملة فمحاسن قرطبة أعظم من أن يحيط بها وصفٌ ، انتهى ملخّصاً .

وهو وإن تكرّر بعضه مع ما قدمته[6] فلا يخلو من فائدة زائدة ، والله الموفق .

وما ذكره في طول المسجد وعرضه مخالف لما مرّ ، ويمكن الجواب بأن هذا الذراع أكبر من ذلك ، كما أشار إليه هو في أمر الصومعة ، وكذا ما ذكره في

---

١ وبقم : زيادة من ك .

٢ يقال إن الدنانير المحمدية منسوبة إلى محمد بن الناصر الموحدي وفي الأوقية الواحدة ٢٣ درهماً ، وهناك دنانير محمدية تنسب إلى محمدية العراق وأخرى إلى مدينة المحمدية بالمغرب (انظر الدوحة المشتبكة : ٨٩ والحاشية رقم : ٥) .

٣ الحاصل : المخزن أو المستودع .

٤ الرشاشي : ذراع ينسب إلى الرشاش الذي جرى التكسير بذراعه أي اتخذ طوله وحدة لقياس الأطوال والمساحات . (انظر طبقات الزبيدي : ٢٨٤ وابن الفرضي ١ : ١٩٦) .

٥ ق : عدداً .

٦ ج : مع ما تقدم .

عدد السواري ، إلاّ أن يقال : ما تقدم باعتبار الصغار والكبار ، وهذا العدد الذي ذكره هنا إنّما هو للكبار فقط ، كما صرح به ، والله تعالى أعلم .

وأمّا الثريات فقد خالف في عددها ما تقدّم ، مع أن المتقدّم هو قول ثقات مؤرخي الأندلس ، ونحن جلَبْنا النقل من مواضعه ، وإن اختلفت طرقه ومضموناته .

وقال في المغرب — عند تعرّضه لذكر جامع قرطبة — ما نصّه : اعتمدت فيما أنقله[1] في هذا الفصل على كتاب ابن بَشْكُوال ، فقد اعتنى بهذا الشأن أتم اعتناء ، وأغنى عن الاستطلاع إلى كلام غيره : عن الرازي أنّه لما افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر رضي الله تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها ممّا أخذوه صلحاً ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور ، وكانوا يسمّونها بشنت بِنْجَنْت ، وابتنوا في ذلك الشطر مسجداً جامعاً ، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى ، وهُدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، واقتنع المسلمون بما في أيديهم ، إلى أن كثروا ، وتزيدت عمارة قرطبة ، ونزلها أمراء العرب ، فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنّونَ بها ، حتى كان الناس ينالون في الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقّة لتلاصق تلك السقائف ، وقصر أبوابها ، وتطامن سقفها ، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض ، ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس ، واستولى على إمارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة ، وتمدّنت به ، فنظر في أمر الجامع ، وذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه ، فأحضر أعاظمَ النصارى ،

---

[1] ك : نقلته .

وسامَهُم بيعَ ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليُدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وَفاء بالعهد الذي صولحوا عليه ، فأبوا من بيع ما بأيديهم ، وسألوا بعد الجد بهم أن يباحوا بناء كنيستهم[1] التي هُدِمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلّوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به ، فتم الأمر على ذلك ، وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة ، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة إلى تفسير[2] الزيادة فيه ، وإنّما الحاجة في وصفه بكماله . وفي بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوي[3] من قصيدة :

وأنْفَقَ في دين الإله ووَجْهه ثمانينَ ألفاً من لُجَيْنٍ وعَسْجدِ
توزَّعَها في مسجد أسُّه التقَى ومَنْهَجُه دينُ النبي محمدِ
ترى الذهب الناريَّ فَوْقَ سموكه يلوحُ كبَرْق العارض المتوقّدِ

قال : وكمل سنة سبعين ومائة ، ثم ذكر زيادة ابنه هشام الرضى وما جدّده فيه ، وأنّه بناه من خُمْس فَيْء أرْبُونة ، ثم زيادة ابنه عبد الرحمن الأوسط لما تزايد الناسُ ، قال : وهلك قبل أن يُتم الزخرفة ، فأتمّها ولده محمد بن عبد الرحمن[4] ، ثم رمّ المنذر بن محمد ما وَهى منه ، وذكر ما جدده خليفتهم الناصر ونقضه للصومعة الأولى وبنيانه للصومعة العظيمة ، قال : ولمّا ولي الحكم المستنصر بن الناصر – وقد اتسع نطاق قرطبة ، وكثر أهلها ، وتبين الضيق في جامعها – لم يقدّم شيئاً على النظر في الزيادة ، فبلغ الجَهْد ، وزاد الزيادة العظمى ؛ قال : وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار في حدّ يحسر[5] الوصف عنه ؛ وذكر حضوره لمشاورة العلماء في تحريف القبلة إلى نحو المشرق ، حسبما فعله

---

١ ق ط : كنائسهم .
٢ ق : في تفسير .
٣ ق ودوزي : البلوني . والأبيات في مخطوطة الرباط : ٩٥ مصدرة بقوله : قال بعضهم .
٤ لما تزايد . . . عبد الرحمن : سقطت من ق – وهو سهو واضح –
٥ ك : يقصر .

والدهُ الناصر في قبلة جامع الزهراء ، لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة إلى نحو الغرب ، فقال له الفقيه أبو إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، إنّه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمّة من أجدادك الأئمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم ، منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت ، متأسّين بأوّل مَنْ نصبها من التابعين كموسى بن نُصَيْر وحنش الصنعاني وأمثالهما ، رحمهم الله تعالى ؛ وإنّما فَضَلَ مَنْ فضل بالاتّباع ، وهلك من هلك بالابتداع ، فأخذ الخليفة برأيه ، وقال : نِعْمَ ما قلت ، وإنّما مذهبنا الاتّباع .

قال ابن بَشْكُوال : ونقلت من خط أمير المؤمنين المستنصر أن النفقة في هذه الزيادة وما اتصل بها انتهت إلى مائتي ألف دينار وأحد وستين ألف دينار وخمسمائة دينار وسبعة وثلاثين ديناراً ودرهمين ونصف .

ثم ذكر الصومعة نقلاً عن ابن بَشْكُوال فقال : أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة الأولى سنة ٣٤٠[1] وأقام هذه الصومعة البديعة ، فحفر في أساسها حتى بلغ الماء مدّة من ثلاثة وأربعين يوماً ، ولمّا كملت ركب الناصر إليها من مدينة الزهراء وصَعد في الصَّوْمعة من أحد درَجيها ، ونزل من الثاني ، ثم خرج الناصر وصلى ركعتين في المقصورة ، وانصرف ، قال : وكانت الأولى ذات مَطْلع واحد ، فصير لهذه مطلعين ، فَصَل بينهما البناء ، فلا يلتقي الراقون فيها إلاّ بأعلاها ، تزيد مراقي كل مطلع منها على مائة سبعاً .

قال : وخبر هذه الصومعة مشهور في الأندلس[2] ، وليس في مساجد المسلمين صومعة تعدلها .

قال ابن سعيد : قال ابن بَشْكُوال هذا لأنّه لم يرَ صومعة مراكش ولا صومعة إشبيلية اللتين بناهما المنصور من بني عبد المؤمن ، فهما أعظم وأطول ، لأنّه ذكر أن طول صومعة قرطبة إلى مكان موقف المؤذن أربعة وخمسون ذراعاً

١ ق : ٣٣٠ .
٢ ك ط ج : في الأرض .

وإلى أعلى الرمانة الأخيرة بأعلى الزج ثلاثة وسبعون ذراعاً ، وعرضها في كل تربيع منها ثمانية عشر ذراعاً، وذلك اثنان وسبعون ذراعاً، قال ابن سعيد : وطول صومعة مراكش مائة وعشرة أذرع . وذكر أن صومعة قرطبة بضخام الحجارة المقطعة[1] مُنَجّدة غاية التنجيد ، وفي أعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمونها رمانات ملصقة في السفود البارز في أعلاها من النحاس : الثنتان منها ذهب إبريز ، والثالثة منها وسطى بينهما من فضّة إكسير ، وفوقها سَوْسَنة من ذهب مسدّسة فوقها رمّانة ذهب صغيرة في طرف الزج البارز بأعلى الجوّ ، وكان تمام هذه الصومعة في ثلاثة عشر شهراً .

وذكر ابن بَشْكُوال[2] في رواية أن موضع الجامع الأعظم بقُرْطُبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهلُ قرطبة قُماماتهم وغيرها ، فلمّا قدم سليمانُ بن داود صلّى الله عليهما ودخل قرطبة قال للجن : ارْدِمُوا هذا الموضع وعدّلوا مكانه ، فسيكون فيه بيت يُعبد الله فيه ، ففعلوا ما أمرهم به ، وبني فيه بعد ذلك الجامع المذكور ، قال : ومن فضائله أن الدارات الماثلة في تزاويق سمائه مكتوبة كلّها بالذكر والدعاء إلى غيره بأحكم صَنْعة ، انتهى .

وذكر مصحف عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه الذي كان في جامع قرطبة وصار إلى بني عبد المؤمن فقال : هو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه ، ممّا خطّه بيمينه ، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم ، انتهى . وسنذكر فيه زيادة على هذا .

* * *

[الزهراء]

وأمّا الزهراء فهي مدينة الملك التي اخترعها أميرُ المؤمنين عبدُ الرحمن الناصر

١ في ق : القطيعة ، وفي ك : الفظيمة ، وفي ج : المنقطعة .
٢ انظر مخطوط الرباط : ٢٨ والسند فيه « قال صاحب التاريخ – عفا الله عنه – ذكر ابن عتاب عن عبيد الله الزهراوي عن شيوخه . . . إلخ » .

لدين الله ، وقد تقدّم ذكره ، وهي من المدن الجليلة العظيمة القدر ، قال ابن الفرضي وغيره : كان يعمل[1] في جامعها حين شُرع فيه من حـُذّاق الفَعَلَة كلّ يوم ألفُ نسمة منها ثلاثمائة بَنّاء ومائتا نجّار وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع ، فاستتم بنيانه وإتقانه في مدّة من ثمانية وأربعين يوماً ، وجاء في غاية الإتقان من خمسة أبْهاء عجيبة الصّنعة ، وطوله من القبلة إلى الجوْف ــ حاشا المقصورة ــ ثلاثون ذراعاً ، وعرض البهْو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاثة عشر ذراعاً ، وعرض كل بَهْو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر ذراعاً ، وطول صَحْنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاثة وأربعون ذراعاً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب واحد وأربعون ذراعاً ، وجميعه مفروش بالرخام الخمري ، وفي وسطه فوّارة يجري فيها الماء ، فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف ــ سوى المحراب ــ سبعة وتسعون ذراعاً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً ، وطول صَوْمعته في الهواء أربعون ذراعاً ، وعرضها عشرة أذرع في مثلها .

وأمر الناصر لدين الله باتخاذ مِنْبر بديع لهذا المسجد ، فصُنع في نهاية من الحسن ، ووُضع في مكانه منه ، وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة ، وكان وضع هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند إكماله يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

قال[2] : وفي صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي جرى[3] فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة ، في المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة ، عليها أسدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يُشاهد

---

١ قارن بما في أزهار الرياض ٢ : ٢٦٥ ــ ٢٦٦ .
٢ المصدر السابق ٢ : ٢٦٦ ، وسقطت كلمة «قال» من ق ط ج ومطبوعة ليدن .
٣ ك : التي أجراها وجرى .

أبْهى منه فيما صَوَّر الملوك في غابر الدهر ، مطلي بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان لهما وَميض[1] شديد ، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجّه في تلك البركة مِنْ فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثَجاجة صبّه ، فتُسقى من مُجاجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجَنَباته ، ويمدّ النهر الأعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر ، لبُعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسموّ أبراجها التي يترقى الماء منها ويتصوّب من أعاليها ، وكانت مدّة العمل فيها من يوم ابتُدئت من الجبل إلى أن وصلت — أعني القناة — إلى هذه البركة أربعة عشر شهراً ، وكان انطلاق الماء في هذه البركة الانطلاقَ الذي اتصل واستمر يوم الخميس غرّة جمادى الآخرة من السنة ، وكانت للناصر في هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفْضَلَ فيها على عامّة أهل مملكته ، ووصل المهندسين والقُوّام بالعمل بصِلات حسنة جزيلة[2] .

وأمّا مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكم ، وذلك نحو من أربعين سنة .

ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت أوّل جماعة صُلّيت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان ، وكان الإمامُ القاضي أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى ، ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة ، وأوّل خطيب[3] به القاضي المذكور .

ولمّا بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنّه لم يُبْنَ مثله في الإسلام البتّة ، وما دخل إليه قطّ أحد من سائر البلاد النائية والنّحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر جهبذ ، وفي هذه الطبقات

---

١ ك : وبيص أي تلألؤ — وهو صواب أيضاً —

٢ ك : حسنة جليلة جزيلة .

٣ ك : وأول من خطب .

من الناس تكون المعرفة والفطنة ، إلا وكلهم قطع أنّه لم يَرَ له شبهاً ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى إنّه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه ، والتحدث عنه ، والأخبار عن هذا تتسع جداً ، والأدلّة عليه تكثر ، ولو لم يكن فيه إلاّ السطح الممرَّدُ المُشْرِف على الروضة المُباهي بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمّنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمّة وحسن المستَشرَف وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مَسْنون وذهب موضون[1] وعَمَدٍ كأنّما أُفرغت في القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبِرَك عظيمة محكمة الصنعة ، وحياضٍ وتماثيلَ عجيبة الأشخاص لا تهتدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها ، فسبحان الذي أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلّة كيما يُري الغافلين عنه من عباده مثالاً لما أعدّه لأهل السعادة في دار المقامة التي لا يتسلّط عليها الفناء ، ولا تحتاج إلى الرَّم ، لا إله إلاّ هو المنفرد بالكرم .

وذكر المؤرخ أبو مروان ابن حيّان[2] صاحب الشرطة أن مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية ، ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة ، ونيّف هو ثنتا عشرة على ثلاثمائة سارية[3] ، قال : منها ما جُلب من مدينة رومة ، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينيّة ، وأن مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيّف على خمسة عشر ألف باب ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموّه ، والله سبحانه أعلم فإنّها كانت من أهول ما بناه الإنس ، وأجلّه خطراً ، وأعظمه شأناً ، انتهى .

قلت : فسّر بعضهم ذلك النيّف في كلامه بثلاث عشرة ، والله أعلم .

. . . .

١ ك : مصون .
٢ أزهار الرياض ٢ : ٢٦٨ .
٣ أزهار الرياض : وفسر بعضهم هذا النيف بثلاث عشرة ؛ وفي ك : ونيف على ثلاثمائة هو ست عشرة .

وقال بعض من أرّخ الأندلس[١] : كان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتًى وسبعمائة وخمسين فتًى ، ودُخالتهم من اللحم في كل يوم — حاشا أنواع الطير والحوت — ثلاثة عشر ألف رطل ، وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار ، وخدم الخِدْمة ستة آلاف وثلاثمائة امرأة وأربع عشرة ، انتهى .

وقيل : إن عدد الفتيان[٢] الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون ، وجعل بعضٌ مكان الخمسين سبعة وثمانين .

وقال آخر : ستة آلاف صَقْلبي وسبعة وثمانون ، والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم ، ويُنقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم ، انتهى .

ثم قال الأول : وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل ، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك ، سوى الدجاج والحَجَل وصنوف الطير وضروب الحيتان ، انتهى .

وقال ابن حيّان[٣] : ألفيت بخط ابن دحون الفقيه ، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس : بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بنيان[٤] الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت[٥] المنجور المعدل ستة آلاف صخرة ، سوى الصخر المصرّف في التبليط ، فإنّه لم يدخل في هذا العدد ، وكان يخدم في الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل ، وقيل أكثر ، منها أربعمائة زوامل الناصر لدين الله ، ومن دواب الأكرياء[٦] الراتبة للخدمة ألف بغل ، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر ، يجب لها في الشهر

١ أزهار الرياض : وقال بعض المؤرخين .
٢ ك : عدد الصبيان .
٣ أزهار الرياض ٢ : ٢٦٩ .
٤ ك : بعمارة .
٥ المنحوت : سقطت من ط ج ق .
٦ ك : الأكرية .

ثلاثة آلاف مثقال ، وكان يرد الزهراء من الجيار[1] والجص في كل ثالث من الأيام ألف ومائة حمل ، وكان فيها حمّامان : واحد للقصر ، وثانٍ للعامة .

وذكر بعض أهل الخِدْمَة في الزهراء أنّه قدر النفقة فيها في كل عام بثلاثمائة ألف دينار مدة خمسة وعشرين عاماً التي بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها ، لأنّه توفّي سنة خمسين ، فحصل جميع الإنفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال .

قال[2] : وجلب إليها الرخام من قَرْطاجَنّة وإفريقية وتونس ، وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين[3] وحسن وعلي بن جعفر[4] الإسكندراني ، وكان الناصر يَصِلُهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير ، انتهى .

وقال بعض ثقات المؤرخين : إنّه كان يَصِلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية[5]، قيل[6] : وكان عدد السواري المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية ، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية ، وسائرها من مقاطع الأندلس طَرّكونة وغيرها ، فالرخام المجزع من ريّة ، والأبيض من غيرها ، والوردي والأخضر من إفريقية من كنيسة إسفاقُس ، وأمّا الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء ، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام ، وقيل : من القسطنطينية ، مع ربيع الأسقف

---

١ ك ج : الجير .

٢ أزهار الرياض ٢ : ٢٧٠ .

٣ ط : البنيان .

٤ أزهار الرياض : وحسن ومحمد ابنا جعفر الإسكندراني . وفي ك : وحسن بن محمد وعلي بن جعفر .

٥ سجلماسية : زيادة من ج وأزهار الرياض .

٦ في ق : قال ؛ وسقطت من ج ، وموضعها بياض في ط .

أيضاً ، وقالوا : إنّه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله ، وحُمل من مكان إلى مكان حتّى وصل في البحر ، ونصبه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي ممّا عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحِدَأة ونسر[1] ، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها ، وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنُه الحكم ، لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره ، وكان يخبز في أيامه في كل يوم برسْم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة ، وقيل : أكثر ، إلى غير ذلك ممّا يطول تتبعه .

قال[2] : وكان الناصر كما قدمنا قسم الجباية أثلاثاً : ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكُوَر والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وأمّا أخماس الغنائم العظيمة[3] فلا يحصيها ديوان .

وقد سبق هذا كله ، وإنّما كرّرته لقول بعضهم إثر حكايته له ، ما صورته : وقيل : إن مبلغ تحصيل النفقة في بناء الزهراء مائة مدي من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة ، وقيل : إن مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مدياً وسبعة أقفزة من الدراهم المذكورة . واتصل بنيان الزهراء أيّام الناصر خمساً وعشرين سنة شطر خلافته ، ثم اتصل بعد وفاته خلافةَ ابنه الحكم كلّها ، وكانت خمسة عشر عاماً وأشهراً ، فسبحان الباقي بعد فناء الخلق ، لا إله إلاّ هو ، انتهى .

* * *

---

١ هذه ثلاثة عشر تمثالا وقد ذكر أنها اثنا عشر ، وفي أزهار الرياض عد منها أحد عشر ثم قال : والثاني عشر لم يحضرني اسمه الآن ؛ وذلك أنه لم يذكر الحدأة والنسر .

٢ قال : سقطت من ك ج ط .

٣ في ق أخماس العظيمة ؛ ط : أخماس الغنائم ؛ ك : أخماس الغنيمة .

وقال ابن أصبغ الهمداني[1] والفتح في المطمح[2] : كان الناصر كلِفاً بعمارة الأرض ، وإقامة معالمها ، وانبساط أمرها[3] ، واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتخليد الآثار الدالة على قوّة الملك وعزّة السلطان وعلوّ الهمّة ، فأفضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره ، الذائع خبره ، المنتشر في الأرض أثره ، واستفرغ وسعه[4] في تنميقها ، وإتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه ثلاث جمع متواليات ، فأراد القاضي منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكر بالإنابة والرجوع ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ – إلى قوله تعالى : فَلَا تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (الشعراء : ١٢٨) ثم وصله بقوله : فمتاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، وهي دار القرار ، ومكان الجزاء ، ومضى في ذم تشييد البنيان ، والاستغراق في زخرفته ، والإسراف في الإنفاق عليه ، بكلام جزْل ، وقول فصل ، قال الحاكي : فجرى فيه طلقاً ، وانتزع فيه قوله تعالى ﴿ أفمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ – إلى آخر الآية ﴾ (التوبة : ١٠٩) وأتى بما يُشاكل المعنى من التخويف بالموت ، والتحذير من فجأته ، والدعاء إلى الزهد في هذه الدار الفانية ، والحض على اعتزالها ، والرفض لها ، والندب إلى الإعراض عنها ، والإقصار عن طلب اللذّات ، ونهي النفس عن اتّباع هواها ، فأسهب في ذلك كلّه ، وأضاف إليه من آي القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ، حتى أذكر مَنْ حضره من الناس

١ في ك : ابن البديع الهمداني ؛ وفي ق : ابن حيان الهمداني . وسيذكره في الكتاب الخامس باسم « ابن أصبغ الهمداني » وكذلك ورد في ج وأزهار الرياض ٢ : ٢٧٧ والمرقبة العليا : ٦٩ .
٢ انظر المطمح : ٤٠ والمرقبة العليا : ٦٩ وأزهار الرياض ٢ : ٢٧٨ – ٢٧٩ .
٣ دوزي : وانبساط مياهها ؛ وفي المطمح : وتكثير مياهها .
٤ ك : جهده .

وخشَعوا ورقّوا واعترفوا[1] وبكوا وضجوا ودعوا وأعلنوا التضرّع إلى الله تعالى في التوبة والابتهال في المغفرة ، وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنّه المقصود به ، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه ، واستعاذ بالله من سخطه ، إلاّ أنّه وَجِدَ على منذر لغلظ ما قرّعه به[2] ، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر ، وقال : والله لقد تعمدني مُنْذر بخطبته ، وما عنى بها غيري ، فأسرف عليّ ، وأفرط في تقريعي[3] ، ولم يحسن السياسة في وعظي ، فزعزع قلبي ، وكاد بعصاه يقرعني ، واستشاط غيظاً عليه فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة ، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرّف صاحب الصلاة بقرطبة ، ويُجانب الصلاة بالزهراء ، وقال له الحكَم : فما الذي يمنعك من عزْل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذ كرهته ؟ فزجره وانتهره ، وقال له : أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه — لا أمّ لك — يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون ، وإنّي لأستحي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في وَرَعه وصدقه ، ولكنّه أحرجني ، فأقسمت ، ولوددت أنّي أجد سبيلاً إلى كفّارة يميني بملكي ، بل يُصَلّي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى ، فما أظنّنا نعتاض منه أبداً[4] . وقيل : إن الحكم اعتذر عمّا قال منذر ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إنّه رجل صالح ، وما أراد إلاّ خيراً ، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك ، فأمر حينئذ الناصر بالقصور ففُرشت ، وفُرش ذلك المجلس بأصناف فرش الديباج ، وأمر بالأطعمة ، وقد أحضر العلماء وغيرهم من الأمراء[5] وغصّ بهم المجلس ، فدخل منذر في آخرهم ،

---

١ ج : واعتبروا .
٢ ك ط ج : تقرعه به .
٣ زاد في ك : وتفزيعي .
٤ هنا انقطع النقل عن المطمح .
٥ وغيرهم من الأمراء : سقطت من ك ج ، وفي ط بياض .

فأومأ إليه الناصر أن يقعد بقربه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّما يَقْعُد الرجل حيث انتهى به المجلس ، ولا يتخطّى الرقاب ، فجلس في آخر الناس وعليه ثياب رثّة ، ثم ذكر هذا القائل بعد هذا كلاماً من كلام المنذر يأتي قريباً .

وقحط الناس[1] آخر مدة الناصر ، فأمر القاضي منذر المذكور بالبروز إلى الاستسقاء بالناس ، فتأهّب لذلك ، وصام بين يديه أياماً ثلاثة تنفلاً وإنابة ورهبة ، واجتمع له الناس في مصلّى الرَّبَض بقرطبة بارزين إلى الله تعالى في جمع عظيم ، وصعد الخليفة الناصر في أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف الناس ، ويشاركهم في الخروج إلى الله تعالى والضَّرَاعة له ، فأبطأ القاضي حتى اجتمع الناسُ وغصت بهم ساحة المصلّى ، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرّعاً مُخْبِتاً متخشّعاً ، وقام ليخطب ، فلمّا رأى بِدار[2] الناس إلى ارتقائه ، واستكانتهم من خيفة الله ، وإخباتهم له ، وابتهالهم إليه — رقّت نفسه ، وغلبته عيناه ، فاستعبر وبكى حيناً ، ثم افتتح خطبته بأن قال : يا أيّها الناس ، سلام عليكم ، ثم سكت ووقف شبه الحصِر ، ولم يكُ من عادته ، فنظر الناسُ بعضهم إلى بعض لا يدرون ما عراه ولا ما أراد بقوله ، ثم اندفع تالياً قوله تعالى ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، إلى قوله : رَحِيم ﴾ (الأنعام : ٥٤) ثم قال : استغفروا ربكم إنّه كان غفّاراً ، استغفروا ربكم ثمّ توبوا إليه ، وتزلّفوا بالأعمال الصالحة لديه ، قال الحاكي : فضج الناس بالبكاء ، وجأروا بالدعاء ، ومضى على تمام خطبته ، ففزّع النفوس بوعظه ، وانبعث الإخلاص بتذكيره ، فلم ينقضِ النهار حتى أرسل الله السماء بماء مُنْهمر ، روّى الثرى ، وطرد المحْلَ ، وسكّن الأزْلَ ، والله لطيف بعباده . وكان لمنذر في خطب الاستسقاء استفتاح عجيب ، ومنه أنْ قال يوماً — وقد سرح طرفه في ملإ الناس عندما شخصوا

. . . .

١ عاد النقل عن المطمح ، وانظر كذلك المرقبة العليا وأزهار الرياض .

٢ ج : تبادر .

إليه بأبصارهم ، فهتف بهم كالمنادي — : يا أيّها الناس ، وكررها عليهم مشيراً بيده في نواحيهم ﴿ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إلى الله . . . إلى بعَزِيز ﴾ (فاطر : ١٥) فاشتد وَجْدُ الناس ، وانطلقت أعينهم بالبكاء ، ومضى في خطبته .

وقيل[١] : إن الخليفة الناصر طلبه مرّة[٢] للاستسقاء ، واشْتَدَّ عزمه[٣] عليه ، فتسابق الناس للمصلّى ، فقال للرسول — وكان من خواص الناس — : ليت شعري ، ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا ؟ فقال له : ما رأينا قطُّ أخشع منه في يومنا هذا ، إنّه منتبذ حائر منفرد بنفسه ، لابس أخس[٤] الثياب ، مفترش التراب ، وقد رَمّدَ به على رأسه وعلى لحيته ، وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول : هذه ناصيتي بيدك ، أتراك تعذّب بي الرعيّة وأنت أحكم الحاكمين لن يفوتك شيء منّي ، قال الحاكي : فتهلّل وجه القاضي منذر عندما سمع قوله ، وقال : يا غلام احمل المطر معك فقد أذن الله تعالى بالسُّقْيا ، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء ، وكان كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السُّقيا[٥] .

وكان منذر شديد الصلابة[٦] في أحكامه ، والمهابة في أقضيته ، وقوّة الحكومة[٧] والقيام بالحق في جميع ما يجري على يده ، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه .

وقال ابن الحسن النُّباهي ، وأصله في المطمح وغيره[٨] : ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر في إنكاره عليه الإسرافَ في البناء ، أن الناصر كان

---

١ ق : ومنه . وفي ط بياض ؛ ج : وذكر أن .
٢ ك : خرج مرة ؛ ج : حركه مرة .
٣ ك : وأسرع عزمه ؛ ج : ووطن عزمه .
٤ ج : أخشن .
٥ إذا . . . السقيا : سقط من ج .
٦ المطمح : من ذوي الصلابة .
٧ ق ط ودوزي : الخلوة .
٨ المرقبة العليا : ٧١ والروض المعطار : ١٤٠ — ١٤١

اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصيّة التي كانت ماثلة على الصّرْح المردّ المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد [مغشاة][1] ذهباً وفضّة أنفق عليها مالاً جسيماً ، وقَرْمَدَ سقفها به ، وجعل سقفها صفراء فاقعة ، إلى بيضاء ناصعة ، تستلب الأبصار بأشعّة نورها ، وجلس فيها إثر تمامها يوماً لأهل مملكته ، فقال لقرابته ومَنْ حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخراً عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتانة : هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل هذا أو قَدرَ عليه ؟ فقالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ، وإنّك لأوحد في شأنك كلّه ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ، ولا انتهى إلينا خبره ، فأبهجه قولهم وسرّه ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد وهو ناكس الرأس[2]، فلمّا أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه ، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكّنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته ، وفضّلك به على العالمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين ، قال : فانفعل عبد الرحمن لقوله ، وقال له : انظر ما تقول ، وكيف أنزلني منزلتهم ؟ قال : نعم ، أليس الله تعالى يقول ﴿ ولَوْلا أنْ يَكُونَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً ــ الآية ﴾ (الزخرف : ٣٣) فوجم الخليفة ، وأطرق مَلِيّاً ودموعه تتساقط خشوعاً لله تعالى ، قال الحاكي[3] : ثمّ أقبل على منذر وقال له : جازاك الله يا قاضي عنّا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجلّ جزائه ، وكثّر في الناس أمثالك ، فالذي قلت هو الحق ، وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بنَقْض سقف القبيبة ، وأعاد قرمدها تراباً على صفة غيرها ، انتهى ما حكاه ابن الحسن النّباهي .

---

١ زيادة من المرقبة العليا . وفي ط ج ق : قراميد ذهب . . . الخ .
٢ المرقبة العليا : واجماً ناكس الرأس . وفي ك ط : واهماً – وذلك تصحيفه –
٣ قال الحاكي : سقطت من ك .

ولنذكر هذه الحكاية وغيرها ، وإن خالف السياق ما سبق ، وهذا منقول من كلام الحجاري في « المسهب في أخبار المغرب » فإنّه أتمّ فائدة ، إذ قال رحمه الله : دخل منذر بن سعيد يوماً على الناصر باني الزهراء ، وهو مكب على الاشتغال بالبنيان ، فوعظه ، فأنشده عبد الرحمن الناصر[1] :

هِمَمُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَها ... مِنْ بعدهم فبألسُنِ البنيانِ
أوَما ترى الهرَمَيْنِ قد بقيا وكم ... ملكٍ محاه حوادث الأزمانِ
إنّ البِناء إذا تَعاظم شَأنُهُ ... أضْحى يدلّ على عظيم الشانِ

قال : فما أدري أهذا شعره أم تمثّل به ؟ فإن كان شعره فقد بلغ فيه إلى غاية الإحسان ، وإن كان تمثّل به فقد استحقّه بالتمثّل به في هذا المكان ، وكان منذر يكثر تعنيته[2] على البنيان ، ودخل عليه مرّة وهو في قبّة قد جعل قرمدها من ذهب وفضّة ، واحتفل فيها احتفالاً ظن أن أحداً من الملوك لم يصل إليه ، فقام خطيباً والمجلس قد غَصّ بأرباب الدولة ، فتلا قوله تعالى ﴿ ولَوْلا أنْ يَكُونَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً لجَعَلْنا لمَنْ يَكْفُرُ بالرّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ ـ الآية ﴾ وأتبعها بما يليق بذلك ، فوجم الملك ، وأظهر الكآبة ، ولم يسعه إلا الاحتمال لمنذر بن سعيد لعظم قدره في علمه ودينه .

وحضر معه يوماً في الزهراء ، فقام الرئيس أبو عثمان بن إدريس فأنشد الناصرَ قصيدة منها[3] :

سيشهدُ ما أبقيتَ أنّك لم تَكُنْ ... مُضيعاً وقد مكّنت للدين والدنيا
فبالجامع المَعْمُور للعلمِ والتّقى ... وبالزهرة الزهراء للمُلْك والعليا

١ انظر المغرب ١ : ١٧٤ .
٢ ك : تعنيفه .
٣ المغرب ١ : ١٧٤ .

فاهتزّ الناصر ، وابتهج ، وأطرق منذر بن سعيد ساعة ، ثم قام منشداً :

يا بانيَ الزهراء مُستغرقاً أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحْسَنها رَوْنقاً لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر : إذا هبّ عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء الله تعالى ، فقال منذر : اللّهم اشهد أنّي قد بثثت ما عندي ولم آلُ نُصْحاً ، انتهى .

ولقد صدق القاضي منذر رحمه الله تعالى فيما قال ، فإنّها ذبلت بعد ذلك في الفتنة ، وقُلِب ما كان فيها من مِنْحة مِحْنة ، وذلك عندما وليَ الحجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الملقب بشنجول [1] ، وتصرف في الدولة مثل ما تصرف أخوه المظفر وأبوهما المنصور ، فأساء التدبير ، ولم يميز بين القبيل والدبير ، فدس إلى المؤيد هشام بن الحكم مَنْ خَوَّفه منه حتى ولاّه عهده كما بيّنّا نص العهد فيما سبق ، فأطبق الخاصة والعامة على بغضه ، وإضمار السوء له ، وذلك سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، فعند ذلك خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر سنة تسع وتسعين وتلقب بالمهدي وخلع المؤيد وحبسه ، وأسلمت الجيوش شنجول فأُخذ وأُسر وقُتل .

قال ابن الرقيق : ومن أعجب ما روي أنّه من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء فُتحت قرطبة ، وهُدمت الزهراء ، وخُلع خليفة وهو المؤيد ، وولي خليفة وهو المهدي ، وزالت دولة بني عامر العظيمة ، وقُتل وزيرهم محمد بن عَسْقَلاجة [2] ، وأقيمت جيوش من العامة ، ونُكب خلق من الوزراء ووَلي الوزارة آخرون ، وكان ذلك كلّه على يد عشرة رجال فحّامين وجزارين وزبالين ، وهم جند المهدي هذا ، انتهى.

١ شنجول أي شانجة الصغير ، وكان شانجة (Sancho) اسم خاله .
٢ ك : علاجه .

وقد تقدم بعض الكلام على المهدي هذا ، وهو الذي قيل فيه لما قام على الدولة [1] :

قد قام مَهْدِيُّنا ولكن بملّة [2] الفِسْقِ والمُجونِ
وشاركَ الناسَ في حريم لولاه ما زال بالمَصُونِ
مَنْ كان من قبلِ ذا أجماً فاليومَ قد صار ذا قُرُونِ

ومن شعر المهدي هذا وقد حيّاه في مجلس شرابه غلامٌ بقضيب آسٍ :

أهْدَيْتَ شِبْهَ قوامك المَيّاسِ غُصُناً رَطيباً ناعماً من آسِ
وكأنّما يَحْكيكَ في حَرَكاته وكأنّما تحكيه في الأنفاسِ

وقد ذكرنا فيما سبق في الفصل الثالث خبر المهدي هذا وقتله [3] . ولقد كان قيامه مشئوماً على الدين والدنيا ، فإنّه فاتحُ أبواب الفتنة بالأندلس وماحي معالمها ، حتى تفرقت الدولة ، وانتثر السلك ، وكثر الرؤساء ، وتطاول العدو إليها ، وأخذها شيئاً فشيئاً حتى محا اسم الإسلام منها ، أعادها الله تعالى .

* * *

[حديث ابن خلدون عن الزهراء]

وقد ألمّ الولي ابن خلدون في تاريخه بذكر الزهراء في جملة مباني الناصر ، فقال ما نصّه [4] : ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره إلى تشييد القصور والمباني ، وكان جده الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم قد احتفلوا [5] في ذلك وبنوا قصورهم على أكمل الإتقان والضخامة ، وكان فيها المجلس الزاهر

---

١ انظر ما سبق ص : ٤٢٦ .
٢ ق ج : بآلة .
٣ يريد الباب الثالث ؛ انظر ما سبق ص : ٤٢٨ .
٤ تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٤٤ .
٥ ابن خلدون : قد اختلفوا ، وكذلك في ق .

والبهو والكامل والمنيف ، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم ، وسمّاه « دار الروضة »، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم أخذ في بناء المتنزهات ، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور ، وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة ، ثم اختط مدينة الزهراء ، واتخذها لنُزُله ، وكرسياً لملكه ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما عَفّى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفِناء ، متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلي للزينة وغير ذلك من المهن ، وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس ، انتهى .

* * *

[الزاهرة]

وأمّا الزاهرة فهي من مباني المنصور محمد بن أبي عامر .

قال ابن خلدون أثناء كلامه على المنصور ما صورته[1] : وابتنى لنفسه مدينة لنُزُله سماها الزاهرة ، ونقل إليها جزءاً من الأموال والأسلحة ، انتهى .

وقال غيره ، وأظنّه صاحب المطمح[2] : وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة أمر المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة ، وذلك عندما استفحل[3] أمره ، واتقد جَمْرُه ، وظهر استبداده ، وكثر حُسّاده وأنداده[4] ، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان ، وخشي أن يقع في أشْطان ، فتوثّق لنفسه ، وكشف

---

١ ابن خلدون ٤ : ١٤٨ .
٢ لم يرد هذا النص في المطمح ، وإنما هو في البيان المغرب لابن عذاري ٢ : ٤١٠ — ٤١٥ (٢٧٧ ط . ليدن) .
٣ ك : تكامل واستفحل .
٤ ك : وأضداده وأنداده .

له ما ستر عنه في أمسه ، من الاعتزاز عليه ، ورفع الاستناد إليه ، وسما إلى ما سَمَتْ إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ، ويحله بأهله وذَوِيه ، ويضم إليه رياسته ، ويتم به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه ، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة ، الموصوفة بالقصور الباهرة ، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، ونَسّق فيها كل اقتدار معجز ونظم ، وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرخة ، وحشد الصنّاع والفَعَلة ، وجلب إليها الآلات الجليلة ، وسَرْبَلَها بهاءً يردّ الأعين كليلة ، وتوسع في اختطاطها ، وتولّع بانتشارها في البسيطة وانبساطها ، وبالغ في رفع أسوارها ، وثابر على تَسْوية أنجادها وأغوارها ، فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة ، وصار بناؤها من الأنباء[1] الغريبة ، وبني معظمها في عامين .

وفي سنة سبعين وثلاثمائة انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصته وعامته ، فتبوّأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته ، واتخذ فيها الدواوين والأعمال وعمل في داخلها الأهْراء ، وأطلق بساحتها الأرحاء ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتّابه ، وقوّاده وحجّابه ، فابْتَنَوْا بها كبار الدور ، وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المستغلّات المفيدة ، والمنازهَ المَشِيدة ، وقامت بها الأسواق ، وكَثُرت فيها الأرفاق ، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها ، والحلول بأطرافها ، للدنوّ من صاحب الدولة ، وتناهى الغلوّ في البناء حَوْله ، حتى اتصلت أرباضُها بأرباض قرطبة وكثرت بحَوْزَتِها العمارة ، واستقرت في بحبوحتها الإمارة ، وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم الخلافي ، وصير ذلك هو الرسم العافي ، ورتب فيها جلوس وزرائه ، ورؤوس أمرائه ، وندب إليها كل ذي خطّة بخطّته ، ونصب ببابها كرسيّ شُرْطته ، وأجلس عليها والياً على رَسْم كرسي الخليفة ، وفي صفة تلك المرتبة المنيفة ، وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعُدْوَة

---

١ ك : من الأبنية .

بأن تُحمَل إلى مدينته تلك أموالُ الجبايات ، ويقصدها أصحاب الولايات ، وينتابها طلابُ الحوائج ، وحذّر أن يعوج عنها إلى باب[1] الخليفة عائج ، فاقتضيت إليها اللُّبانات والأوطار ، وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار ، وتم لمحمد بن أبي عامر ما أراد ، وانتظم بلبّة أمانيه المراد ، وعطل قصر الخليفة من جميعه ، وصيّره بمَعْزِل من سامعه ومُطيعه ، وسدّ باب قصره عليه ، وجدّ في خبر ألاّ يصل إليه ، وجعَل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ، ويبسط فيه النهي والأمر ، ويُشْرف منه على كل داخل ، ويمنع ما يحذره من الدواخل ، ورتب عليه الحُرّاس والبوّابين ، والسُّمّار والمتنابين ، يلازمون حراسة مَنْ فيه ليلاً ونهاراً ، ويراقبون حركاتهم سرّاً وجهاراً ، وقد حَجَر على الخليفة كل تدبير ، ومنعه من تملُّك قَبيل أو دَبير ، وأقام الخليفة هشام مهجور الفِناء ، معجوز الغَناء ، خفيّ الذكر ، عليل الفكر ، مسدود الباب ، محجوب الشخص عن الأحباب ، لا يراه خاص ولا عام ، ولا يُخاف منه بأسٌ ولا يرجى منه إنعام ، ولا يُعهد فيه إلا الاسم السلطاني في السّكة والدعوة ، وقد نسخه ولَبّس أبهته ، وطمس بَهْجته ، وأغنى الناس عنه ، وأزال أطماعهم منه ، وصيرهم لا يعرفونه ، وأمرهم أنهم[2] لا يذكرونه ، واشتدّ ملك محمد بن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسّع مع الأيام في تشييد[3] بنيتها حتى كملت أحسن كمال ، وجاءته في نهاية الجمال ، نقاوة بناء ، وسَعَة فِناء ، واعتدال هواء رقّ أديمه ، وصقالة جوّ اعتلّ[4] نسيمه ، ونَضْرة بستان ، وبهجة للنفوس فيها افتتان ، وفيها يقول صاعد اللغوي :

يا أيّها الملكُ المَنْصُورُ مِنْ يمنٍ والمُبْتَني نسَباً غيرَ الذي انْتسبا

---

١ ك : دار .
٢ أنهم : زيادة من ق ط .
٣ ق : تجديد .
٤ ق : اعتدل .

بغَزْوَة[1] في قُلوبِ الشِّركِ رائعة ... بين المَنايا تناغي السُّمْرَ والقُضُبا
أما تَرى العينَ تجري فَوْقَ مَرْمَرِها ... هوًى فتُجري على أحفافها الطربا[2]
أجْرَيْتَها فَطَما الزّاهي بجَرْيَتِها ... كما طَمَوْتَ فسُدْتَ العُجْمَ والعرَبا
تَخالُ فيهِ جُنُودَ الماء رافِلَةً ... مُسْتلئمات تُريك الدِّرْعَ واليَلَبا
تَحُفُّها من فُنون الأيكِ زاهرة ... قد أوْرَقَتْ فضّة إذ أورقت[3] ذهبا
بَديعَة الملكِ ما يَنْفكُّ ناظِرُها ... يتلُو عَلى السّمع منها آيةً عَجَبا
لا يُحْسِنُ الدهرُ أن يُنْشي لها مَثَلاً ... ولَوْ تعنّتَ فيها نَفْسَه طَلَبا

ودخل عليه ابنُ أبي الحباب[4] في بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرية ، والروضُ قد تفتحت أنواره ، وتوشحت أنجادُه وأغواره ، وتصرّف فيها الدهرُ متواضعاً ، ووقف بها السعد خاضعاً ، فقال :

لا يَوْمَ كاليوم في أيّامِكَ الأوَلِ ... بالعامريّة ذاتِ الماء والظُّلَلِ
هواؤها في جميع الدهرِ مُعْتَدِلٌ ... طيباً وإن حلَّ فصلٌ غيرُ معتدلِ
ما إن يُبالي الذي يحتلّ ساحَتَها ... بالسعد أن لا تحلَّ الشمسُ بالحَمَلِ

وما زالت هذه المدينة[5] رائقة ، والسُّعُودُ بلَبّتها مُتّناسقة ، تُرَاوحها الفتوح وتغاديها ، وتُجلَب إليها منكسرة أعاديها ، لا تزحف عنها راية إلاّ

١ ط : بغرة .
٢ البيان : على احسائها الطربا ؛ وفي ق : الرطبا ؛ ج : أخفافها .
٣ البيان : أثمرت .
٤ البيان : عمرو بن أبي الحباب ، وهو خطأ ؛ وأظن أن ابن أبي الحباب هو أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب النحوي (– ٤٠٠) أحد تلامذة القالي (الصلة : ٢٥) وقد ترجم له الحميدي في موضعين مرة باسمه ومرة بكنيته «أبو المطرف» (١١١ ، ٣٧٧) وكناه في الأولى بأبي عمر ولعل هذا موضع اللبس والاضطراب بتسميته «عمرو» في البيان ؛ وفي الترجمة الثانية أورد الحميدي شعره في المنية العامرية .
٥ ك : المنية .

إلى فتح ، ولا يصدر عنها تدبير إلاّ إلى نُجْح ، إلى أن حان يومُها العصيب ، وقُيِّض لها من المكروه أوفَرُ[1] نصيب ، فتولت فَقيدة ، وخلت من بهجتها كلُّ عقيدة ، انتهى .

وقد حكى الحميدي في «جذوة المقتبس[2]» هذه الحكاية الواقعة لابن أبي الحباب بزيادة، فقال – بعد أن ذكر هذه المُنْية العامرية التي إلى جانب الزهراء –: إن أبا المطرِّف بن أبي الحباب الشاعر دخل إلى المنصور في هذه المنية ، فوقف على رَوْضة فيها ثلاث سَوْسَنات ثنتان منها قد تفتحتا وواحدة لم تفتح ، فقال :

لا يَوْمَ كاليوم في أيامنا الأوَلِ ... بالعامرية ذاتِ الماء والظُّلَلِ[3]
هواؤها في جميعِ الدهر معتدلٌ ... طيباً، وإن حَلَّ فَصْلٌ غير معتدلِ
ما إن يُبالي الذي يحتلُّ ساحَتَها ... بالسعد ألاّ تحلّ الشمسُ في الحَمَلِ
كأنّما غُرِسَتْ في ساعة وبَدا الـ ... سوسانُ من حينِه فيها على عَجَلِ
أبدت ثلاثاً من السوسان مائلةً ... أعناقُهُنَّ من الإعياء والكَسَلِ
فبعضُ نُوّارها للبَعْض مُنْفَتح ... والبعضُ منغلق عنهنّ في شُغُلِ
كأنّها راحَة ضمت أناملَها ... من بعد ما ملئت من جودك الخَضِلِ
وأختُها بَسَطَتْ منها أناملَها ... تَرْجُو نَداك كما عوّدتَها فَصِلِ

وقد ذكر ابن سعيد[4] أن ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي ، فأنشده وهو بالموضعِ المعروف بالعامرية من أبيات :

فالعامريّــة تزهى عَلَى جميعِ المَباني

---

١ ق ج ط : وافر .
٢ انظر الجذوة : ٣٧٧ (وبغية الملتمس رقم : ١٥٤٥) .
٣ ق : والقلل .
٤ لم يرد هذا النص في مطبوعة المغرب ، وانظر المقتطفات : ٣٤ – ٣٥ .

وأنت فيها كَسَيْفٍ قد حلَّ في غُمْدانِ [1]

فقام صاعد ، وكان مناقضاً له ، فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الأجل ، ومكن سلطانه ؛ هذا الشعر الذي قاله [2] قد أعدّه وروّى [3] فيه أقدرُ أن أقول أحسن منه ارتجالاً ، فقال له المنصور : قل ليظهر صدقُ دعواك ، فجعل يقول من غير فكرة طويلة [4] :

يا أيّها الحاجبُ المُعْتَلي عَلى كيوانِ
ومَنْ به قد تناهى فخارُ كلِّ يَمانِ [5]
العامريّــةُ أضْحَتْ كجنّــةِ الرضوانِ
فريـــدةً لفريـــدٍ ما بينَ أهل الزمانِ

ثمَّ مر في الشعر إلى أن قال في وصفها :

انْظر إلى النّهر فيها يَنْسابُ كالثُّعْبانِ
والطيرُ يخطب شكراً على ذُرا الأغصان
والقُضْبُ تلتفُّ سكراً بمُيَّسِ القُضْبــان
والروضُ يفترُّ زَهْواً عن مَبْسِمِ الأقحوان
والنرجسُ الغضُّ يَرْنو بوَجْنَــةِ النُّعْمان
وراحةُ الريح تمتا ر نفحة الريحان
فَدُمْ مَدى الدهر فيها في غِبْطَةٍ وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف : ما لك فائدة في مناقضة

١ يعني سيف بن ذي يزن وقصره « غمدان » باليمن .
٢ قاله : سقطت من ك .
٣ ك : وتروى .
٤ ك : كثيرة .
٥ ق : في الحسن كل يمان .

مَنْ هذا ارتجالُه ، فكيف تكون رَوِيَّته ؟ فقال ابن العريف : إنّما أنطقه وقرّب عليه المأخذَ إحسانُك ، فقال له صاعد : فيخرج من هذا أن قلة إحسانه لك أسكتتك وبعّدت عليك المأخذ ، فضحك المنصور وقال : غير هذه المنازعة أليق بأدبكما .

قلت : وقد ذكر مؤرخو الأندلس مُنًى كثيرة بها : منها منية الناعورة السابقة ، ومنية العامرية هذه ، ومنية السرور ، ومنية الزبير منسوبة إلى الزبير بن عمر الملثم ملك قرطبة .

قال أبو الحسن بن سعيد[1] : أخبرني أبي عن أبيه قال : خرج معي إلى هذه المنية في زمان فتح نُوّار اللوز أبو بكر بن بقيّ الشاعرُ المشهور ، فجلسنا تحت سطر لوز قد نوّر ، فقال ابن بقيّ :

سَطْرٌ من اللوز في البُسْتان قابَلَني ... ما زاد شيء على شيء ولا نَقَصا
كأنّما كلّ غُصْنٍ كُمُّهُ جارية ... إذا النّسيمُ ثَنى أعطافَهُ رقَصا

ثم قال :

عجبتُ لمن أبقى على خمر دَنّهِ ... غَداة رأى لَوْزَ الحديقة نَوّرا

وذكر بعض مؤرخي الأندلس أن المنصور بن أبي عامر كان يزرع كل سنة ألف مدي من الشعير قصيلاً لدوابه الخاصة به ، وأنّه كان إذا قدم من غزوة من غزواته لا يحلّ عن نفسه حتّى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها وما عاش ، وصاحب الأبنية لما وهي من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره ، قال : وكان له دخالة[2] كل يوم اثني عشر ألف رطل من اللحم ، حاشا الصيد والطير

---

١ انظر هذا فيما تقدم ص : ٤٧١

٢ في المعاجم : الدخل فقط بمعنى الحاصل ، ويبدو أن الأندلسيين استعملوا لفظة « دخالة » ليعنوا القسط أو النصيب أو الحصة .

والحيتان ، وكان يصنع في كل عام اثني عشر ألف تُرْس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء ، قال : وابتنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة الزاهرة[1] ذات القصور والمنتزهات المخترعة كنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة ، انتهى .

* * *

[المنصور وابن شُهيد]

ومن المطمح[2] : أن المنصور لما فرغ من بناء الزاهرة غزا غزوة وأبعد فيها الإيغال ، وغال فيها من عظماء الروم مَنْ غال ، وحلّ من أرضهم ما لم يُطْرق ، وراع منهم ما لم يُرَعْ قطُّ ولم يَفْرَق ، وصدر صدراً سَما به على كل حسناء عَقيلة ، وجلا به كل صفحة للحُسن صَقيلة ، ودخل قرطبة دخولاً لم يُعْهَد ، وشَهِد له فيها يوم مثله لم يُشْهَد ، وكان ابن شُهَيد متخلّفاً عن هذه الغزوة لنِقْرس عداهُ عائده ، وحداهُ منتجعهُ ورائده ، وابن شُهَيْد هذا أحد حجّاب[3] الناصر ، وله على ابن أبي عامر أيادٍ محكمة الأواصر ، وهو الذي نَهَضَ به أولَ انبعاثه ، وشفى أمره زمن التياثه ، وخاصم المصحفي عنه بلسان من الحماية ألَدّ ، وتوخّاهُ بإحسان قلّده من الرعاية ما قلّد ، وأسْمى رتبته ، وحلّى بإعظام جيده ولَبّته[4] ، وكان كثيراً ما يُتْحِفه ، ويَصِله ويُلْطِفه ، فلمّا صدر المنصور من غزوته هذه وقَفَل ، نسي مُتاحفته وغفل[5] ، فكتب إليه ابن شُهَيْد :

أنا شيخ والشيخ يَهْوَى الصَّبايا ... يا بِنَفْسي أقيكَ كلَّ الرَّزايا
ورَسُولُ الإله أسْهَمَ في الفيـ ... ـء لمَنْ لم يُخِبَّ فيه المطايا

---

١ ك : العامرية .
٢ لم يرد هذا النص في المطمح المطبوع .
٣ ط : أصحاب .
٤ ق : وحلى بأعظم جاه جيده وليته . والعبارة في ط دون لفظة « جيده » .
٥ ق : أو غفل .

فاجْعلنّي ـ فُديتَ ـ أشكر معرو   فكَ وابْعَثْ بها عِذابَ الثّنايا

فبعث إليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جَوَارٍ ، كأنّهن نجومٌ سوارٍ ، وكتب إليه :

قد بعثْنا بها كشمس النّهارِ   في ثلاث من المَها أبكارِ
فاتّئِدْ واجْتهدْ فإنك شيخ   سَلَخ الليلَ عن بياضِ النهارِ
صانك الله عن كلالكَ فيها   فمن العار كلّة المِسْمارِ

فكتب إليه ابن شُهَيد :

قد فضَضنا ختامَ ذاك السّوارِ   واصْطبَغْنا من النّجيع الجاري
ونَعِمْنا في ظلّ أنْعَمِ ليلٍ   ولهَوْنا بالبدْر ثم الدراري
وقضى الشيخ ما قضى بحسام   ذي مَضاء عَضْب الظُّبي بتّارِ
فاصطنعه فليس يجزيك كُفْراً   واتخِذْهُ سَيْفاً على الكفّارِ

وقد قدمنا هذه الحكاية في أخبار المنصور من الباب الثالث [1] ، ولكنّا أعدناها هنا بلفظ المطمح لما فيه من العذوبة والفائدة الزائدة .

* * *

[ترجمة الجزيري من المطمح]

وممن كان في أيام المنصور من الوزراء المشهورين الوزير الكاتب أبو مروان عبدُ الملك بن إدريس الخَوْلاني ، قال في المطمح [2] : عَلَم من أعلام الزمان [3] ، وعَيْن من أعيان البَيان ، باهرُ الفصاحة ، طاهرُ الجناب والساحة ، تولى

١ انظر ما سبق ص : ٤٠٠ – ٤٠١ .
٢ المطمح : ١٣ .
٣ ك : علم من الأعلام فريد الزمان .

التحبيرَ أيام المنصور والإنشاء ، وأشعر بدولته الأفراح والانتشاء ، ولبس العزة ضافية البُرود[1] ، وورد بها النعمة صافية الورود ، وامتطى من جياد التوجيه ، أعْتَقَ من لاحق والوجيه[2] ، وتمادى طَلَقه ، ولا أحد يلحقه ، إلى أيام المظفر فمشى على سَنَنه ، وتمادى السعدُ يترنم على فَنَنه ، إلى أن قتل المظفّر صهره عيسى بن القطاع ، صاحب دولته وأميرها المُطاع ، وكان أبو مروان قديم الاصطناع له والانقطاع ، فاتُّهم معه ، وكاد أن يذوق حِمامه ومَصْرَعه[3] ، إلا أن إحسانه شَفَع ، وبيانه نفع ودفع[4] ، فحُطّ عن تلك الرتب ، وحُمل إلى طُرْطُوشة على القَتَب ، فبقي هنالك معتقَلاً في برج من أبراجها نائي المنتهى[5] ، كأنّما يناجي السُّها ، قد بعد ساكنه عن الأنيس ، وقعد من النجم بمنزلة الجليس ، تمرُّ الطيور دونه ولا تجوزُه ، ويرى منه الثرى ولا يكاد يحُوزُه ، فبقي فيه دهراً لا يرتقي إليه راق ، ولا يرجى لبَثّه راق ، إلى أن أُخرج منه إلى ثراه ، واستراح مما عرّاه ، فمن بديع نظمه قوله يصف المعقل[6] ، الذي فيه اعتُقل :

يأوي إليه كلُّ أعْوَرَ ناعق[7] وتهُبُّ فيه كلُّ ريح صَرْصَرِ
ويكادُ من يَرْقى إليه مرّةً من عمره يشكو انقطاع الأبهَرِ

ودخل ليلة على المنصور[8] والمنصورُ قد اتكأ وارتفق ، وتحلى بمجلسه ذلك الأفق ، والدُّنيا بمجلسه ذلك مَسُوقة ، وأحاديث الأماني به مَنْسُوقة ، فأمره

---

١ ك : ولبس العزة مدة ضافية البرود .
٢ لاحق والوجيه : فحلان من فحول الخيل .
٣ المطمح : أن يذوق الحمام فيصرعه .
٤ ق ودوزي : وبيانه منع ودفع ؛ وفي نسخة المطمح « صنع » وهو مصحف .
٥ المطمح : فات المنتهى .
٦ ك : المعتقل .
٧ المطمح : ناعب .
٨ على المنصور : سقطت من ق .

بالنزول[1] فنزل في جملة الأصحاب ، والقمر يظهر ويحتجب في السحاب ، والأفق يبدو به أغرّ ثم يعود مبهماً ، والليل يتراءى منه أشقر ثم يعود أدهماً ، وأبو مروان قد انتَشى ، وجال في ميدان الأنس ومشى ، وبُرْدُ خاطره قد دبجه السرور ووشى ، فأقلقه ذلك المغيب والالتياح ، وأنطقه ذلك السرور والارتياح ، فقال :

أرى بدر السماء يلوح حيناً فيبدو ثمّ يلتحف السحابا
وذلك أنّه لمّا تبدّى وأبْصرَ وَجْهك استحْيا فغابا
مقال لو نمي عندي إليه لراجعني بذا حقّاً جوابا

وله في مدة اعتقاله ، وتردده في قيلِه وقاله[2] :

شحَطَ المزار فلا مزار ، ونافرت عيني الهجوعَ فلا خيالٌ يَعْتري
أزرى بصبري وهو مشدود العُرَى[3] وألان عُودي وهو صُلْبُ المكسرِ
وطوَى سروري كلّه وتلذّذي بالعيش طيَّ صحيفة لم تُنشرِ
ها إنّما ألقى الحبيبَ توهّماً بضمير تذكاري وعين تذكُّري
عجباً لقلْبي يومَ راعتْني النوى ودنا وَدَاعي[4] كيفَ لم يتفطّرِ

رجع إلى المنصور :

وكان المنصور إذا أراد أمراً مهمّاً شاور أرباب الدولة الأكابر من خدام الدولة الأموية ، فيشيرون عليه بالوجه الذي عرفوه وجرت الدولة الأمويّة عليه ، فيخالفهم إلى المنهج الذي ابتدعه ، فيقضون في أنفسهم

---

١ ك : بالنزول عنده .
٢ في رواية من أصول المطمح : في قيده وعقاله ؛ وهذه الأبيات من رائيته المشهورة عند الأندلسيين وفيها نصائح وحكم لابنه (انظر فهرست ابن خير : ٤١٠) .
٣ ك : القوى .
٤ ك : ودنا وداع .

بالهلاك في الطريق الذي سلكه ، والمهيع الذي اخترعه ، فتُسْفر العاقبة عن السلامة التامة التي اقتضاها سَعْدُه ، فيكثرون التعجب من موارد أموره ومصادرها .

وقيل له مرّة : إن فلاناً مشؤوم فلا تستخدمه ، فقال : أُفٍّ لسعد لا يغطي على شؤمه ، فاستخدمه ، ولم ينله من شؤمه الذي جرت به العادة شيء .

وحكي عنه أنّه كان في قصره بالزاهرة[1] ، فتأمل محاسنه ، ونظر إلى مياهه المطّردة ، وأنصت لأطياره المغردة ، وملأ عينه من الذي حواه من حسن وجمال ، والتفت في الزاهرة من اليمين إلى الشمال ، فانحدرت دموعه ، وتجهم وقال : ويهاً[2] لكِ يا زاهرة ، فليت شعري مَنِ الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب ؟ فقال له بعض خاصته : ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قطّ ؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شغل البال به ؟ فقال : والله لترون ما قلت ، وكأنّي بمحاسن الزاهرة قد محيت ، وبرسومها قد غُيرت ، وبمبانيها قد هُدمتْ ونُحيّت ، وبخزائنها قد نُهبت ، وبساحاتها قد أُضرمت بنار الفتنة وألهبت ، قال الحاكي : فلم يكن إلاّ أن توفّي المنصور وتولى المظفّر ولم تطل مدته ، فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقّب بشنجول[3] ، فقام عليه المهدي والعامّة ، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامّة ، وانقرضت دولة آل عامر ، ولم يبقَ منهم آمر :

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكّة سامرُ
بلى نحنُ كنّا أهلها فأبادَنا صروفُ الليالي والجدودُ العواثِرُ[4]

وخربتْ الزاهرة ، وذهبت[5] كأمس الدابر ، وخلت منها الدسوت الملوكيّة

---

١ ك : الذي بالزاهرة .
٢ ك : ويل .
٣ ك ج : بسنجور ؛ ط : بسنجول .
٤ سقط هذا البيت من ق .
٥ ك : ومضت .

والمنابر ، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر ، والسلاح ، وتلاشى أمرها فلم يُرْجَ لفسادها صلاح ، وصارت قاعاً صَفْصَفا ، وأديلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفّا .

ويروى أن بعض أولياء ذلك الزّمان مر بها ، ونظر إلى مصانعها السامية الفائقة ، ومبانيها العالية الرائقة ، فقال : يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك في كل دار . قال الحاكي : فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح إلا أيام يسيرة حتى نُهبت ذخائرها ، وعُمّ بالخراب سائرها ، فلم تبقَ دار في الأندلس إلاّ ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة ، وحقق الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذي هِمّته مع ربّه جليلة .

ولقد حكي أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية ، فسبحان من لا يزول سلطانه ولا ينقضي ملكه لا إله إلا هو .

وتذكرت هنا ما رآه في المنام بعضُ أهل المغرب بالليلة التي انقرض فيها ملك الموحّدين أن شخصاً ينشده :

مُلْكُ بني مؤمن تولّى   وكان فوق السّماك سمكه
فاعتبروا وانظروا وقولوا: سبحان من لا يبيد ملكه

لا إله إلاّ هو .

وكان المهدي القائم على العامريين ماجناً فاتكاً، وقال — وقد حيّاه في مجلس شرابه غلام بقضيب آس[1] :

أهديتَ شِبْهَ قوامك الميّاس ِ   غصناً رطيباً ناعماً من آس ِ
وكأنّما يحكيك في حركاته   وكأنّما تحكيه في الأنفاس ِ

وكان المنصور بن أبي عامر حين تغلب على ملك الأمويين غير مكترث بمثل

[1] انظر ص : ٥٧٧ .

المهدي المذكور ، فسلطه الله تعالى على كل ما أسسه المنصور حتى هدمه ، وأخّر كلّ ما قدّمه ، ولم ينفع في ذلك احتياط ولا حزم ، ولا رادّ للقضاء المبرم الجزم :

والله يحكم ما يشا ء فلا تكن متعرضا

* * *

[طرف من أخبار المنصور]

وقد قدمنا شيئاً من أخبار المنصور ، ولا بأس أن نُلِمّ هنا ببعضها وإن حصل منه نوع تكرار في نبذة منها لارتباط الكلام بعضه ببعض.

قال بعض المحققين من المؤرخين : حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولي الحجابة ، وربما أركبه بعد سنين وجعل عليه برنساً ، وعلى جواريه مثل ذلك ، فلا يُعرف منهن ، ويأمر من ينحّي الناس من طريقه ، حتى ينتهي المؤيد إلى موضع تنزهه ، ثم يعود ، غير أنه أركبه بأبهة الخلافة في بعض الأيام لغرض له ، كما ألمعنا به فيما سبق ، وكان المنصور إذا سافر وكّل بالمؤيد من يفعل معه ذلك ، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بني أمية من الأندلس ، وأخذ مع ذلك في قتل من يخشى منه من بني أميّة خوفاً أن يثوروا به ، ويُظهر أنّه يفعل ذلك شفقة على المؤيد ، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ، ثم فرّق باقيهم في البلاد ، وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطّراف والتّلاد ، وربما سكن بعضهم البادية ، وترك مجلس الأبهة وناديه ، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة :

أبني أميّة أين أقمار الدّجى منكم ؟ وأين نجومها والكوكبُ ؟
غابت أسودٌ منكُمُ عن غابِها فلذاك حاز الملكَ هذا الثعلبُ

مع أن للمنصور مفاخر يَبَذّ بها الأوائل والأواخر ، من المثابرة على جهاد

العدو ، وتكرار الذهاب بنفسه في الرواح والغدوّ ؛ وله مع المصحفي وغيره أخبار مرت ويأتي بعضها ، ولا بأس أن نلخص ترجمة المصحفي فنقول :

* * *

[ترجمة المصحفي من المطمح]

قال الفتح في المطمح[1] : الحاجب جعفر المصحفي – تجرّد للعَلْيا ، وتمرّد في طلب الدنيا ، حتّى بلغ المُنى ، وتسوّغ ذلك الجَنَى ، فسما دون سابقة ، وارتمى إلى رتبة لم تكن لبِنْيَتِه[2] بمُطابقة ، فالتاح في أفياء الخلافة ، وارتاحَ إليها بعطفه كنَشْوان السُّلافة ، واستوزره المستنصر ، وعنه كان يَسْمع وبه كان[3] يبصر ، فأدرك بذلك ما أدرك ، ونصب لأمانيه الحبائلَ والشَّرَك ، واقتنى وادّخر ، وأزْرَى[4] بمن سواه وسَخر ، واستعطفه المنصور بن أبي عامر ونجمُه بعد غائر لم يَلُحْ ، وسرّه مكتوم لم يبح ، فما عَطَف ، ولا جَنَى من روضة دنياه ولا قطف ، فأقام في تدبير الأندلس ما أقام والأندلس متغيرة ، والأذهان في تكييف سعده متحيرة ، فناهيك من ذكرٍ خلّد ، ومن فخرٍ تقلّد ، ومن صَعْبٍ راضَ ، وجَناحِ فتنةٍ هاضَ ؛ ولم يزل بنِجاد تلك الخلافة معتقلاً ، وفي مطالعها مُنتقلاً ، إلى أن توفي الحكم ، فانتقض عقده المُحكم ، وانبرت إليه النوائب ، وتسدّدت إليه من الخطوب[5] سهام صوائب ، واتّصل إلى المنصور ذلك الأمرُ ، واختص به كما مال بيزيد أخوهُ الغَمْرُ ، وأناف في تلك الخلافة كما شبَّ قبل اليوم عن طوقه عمرو ، وانتدب للمصحفي بصدر كان أوغرَه ، وساءه وصَغّره ، فاقتصّ من تلك الإساءة ، وأغصّ حلقه بأي مَساءة[6] ،

---

[1] انظر المطمح ٤ – ٨ .
[2] ك : لبيته ؛ ق : إلى بيته .
[3] كان : سقطت من ك .
[4] ج ط : وزرى .
[5] من الخطوب : زيادة من المطمح .
[6] ق ك : بأي أشاءة .

فأخمله ونكبه ، وأرجله عمّا كان الدهرُ أركبه ، وألهب بجوارحه[1] حَزَنَاً ، ونهب له مدّخَراً ومُختَزَناً ، ودمّر عليه ما كان حاطَ ، وأحاط به من مكروهه ما أحاط ، وغبّرَ سنين في مهوى تلك النكبة ، وجوَى[2] تلك الكربة ، ينقله المنصور معه في غزَواته ، ويعتقله بين ضيق المُطْبِق ولهواته ، إلى أن تكوّرت شمسُه ، وفاظت بين أثناء المحن نفسُه ، ومن بديع ما حُفظ له في نكبته ، قوله يستريح من كربته :

صَبَرْتُ على الأيام لمّا تولّتِ ... وألزَمْتُ نفسي صَبرَها فاستمرّتِ
فوا عَجَبا للقلب كيف اعتِرافه ... وللنفس بعد العزّ كيف استذَلّتِ
وَما النفسُ إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن طمعت تاقت وإلاّ تَسَلّتِ
وكانت على الأيام نفسي عزيزةً ... فلمّا رأت صبري على الذل ذلّتِ
فقلت لها : يا نفس مُوتي كريمةً ... فقد كانتِ الدُّنيا لنا ثمّ وَلّتِ

وكان له أدبٌ بارع ، وخاطر إلى نظم القريض يُسارع[3] ، فمن محاسن إنشاده[4] ، التي بعثها إيناسُ دهره بإسعاده ، قولُه :

لعينيك في قلبي عَلَيَّ عيونُ ... وبَيْنَ ضلوعي للشجون فُنُونُ
لئن كان جسمي مخلقاً في يَدِ الهوى ... فحبّك عندي في الفؤاد مَصُونُ

وله وقد أصبح عاكفاً على حُمَيّاه ، هاتفاً بإجابة دنياه ، مرتشفاً ثغر الأنس متنسماً ريّاه ، والملك يغازله بطرْف كَليل ، والسعدُ قد عقَد عليه منه إكليل ، يصف لون مُدامه ، وما تعرّف له منها دون ندامه :

---

١ دوزي : جوانحه .
٢ ق ك ط : وجراء ؛ ج : وجزاء .
٣ دوزي : مسارع .
٤ ك : نظامه وإنشاده .

صَفْراء تَطْرُقُ في الزجاج فإن سَرَتْ في الجسم دَبَّتْ مثلَ صِلٍ لادغِ
خَفِيَتْ على شُرَّابها فكأنّما يَجِدُونَ رِيّاً من إناء فارغِ

ومن شعره الذي قاله في السّفَرْجَل مشبهاً ، وغدا به لنائم البديع مُنَبّهاً ، قوله يصف سفرجلة ، ويقال إنّه ارتجله :

ومُصْفَرَّة تختالُ في ثوب نَرْجِسٍ وتَعْبَقُ عن مِسْكٍ ذكيِّ التَّنَفّسِ
لها ريحُ محبوبٍ وقَسْوَة قلبه ولَوْنُ محبّ حُلّةَ السّقْم مُكْتَسي
فصُفْرَتها من صُفرتي مُستعارةٌ وأنفاسُها في الطّيب أنفاسُ مُؤنِسي
وكان لها ثوبٌ من الزغبِ أغْبَر على جِسْمٍ مصفَرٍّ من التّبر أمْلسِ
فلمّا استتمّتْ في القَضيبِ شَبابها وحاكت لها الأوراق أثواب سُنْدُسِ
مَدَدْتُ يدي باللطْف أبغي اجْتِناءها لأجعلها رَيْحانتي وَسْط مجلسي
فبَزَّتْ يدي غَصْباً لها ثوبَ جسمها وأعْرَيْتُها باللطف من كل مَلْبَسِ
ولمّا تعرَّتْ في يَدي مِنْ بُرُودِها ولم تَبْقَ إلاّ في غِلالة نَرْجِسِ
ذكرتُ لها مَنْ لا أبوحُ بذكره فأذبلَها في الكفّ حَرُّ التنفّسِ

وله وقد أعاده المنصور إلى المُطْبَق ، والشجون تُسْرِع إليه وتَسْبق ، معزياً لنفسه[1] ، ومجترياً بإسعاد[2] أمسه :

أُجازي الزمانَ على حاله مُجازاة نَفْسي لأنفاسِها
إذا نَفَسٌ صاعدٌ شَفّها توارَتْ به دون جُلاّسِها
وإن عكَفَتْ نَكْبَة للزمان عَطفْتُ بنفسي[3] عَلى راسِها

وممّا حُفظ له في استعطافه ، واستنزاله للمنصور واستلطافه ، قولُه :

١ ق : لنفسه بنفسه .
٢ المطمح : بأخبار .
٣ المطمح وق ط : عطفت بصلدي ؛ دوزي وج : بصدري .

عَفا اللهُ عَنْكَ ، ألا رحمة تجودُ بعفوكَ أن أبْعَدا
لئن جَلَّ ذنبٌ ولم أعْتَمِدْهُ فأنت أجلُّ وأعلى يَدا
ألم ترَ عبداً عدا طَوْرَهُ ومَوْلًى عَفا ورشيداً هَدَى
ومفسدَ أمرٍ تَلافَيْتَهُ فعاد فأصْلَحَ ما أفْسَدا
أقِلْني أقالك مَنْ لم يزل يَقِيكَ ويَصْرِفُ عنك الرَّدى

عود وانعطاف إلى أخبار المنصور بن أبي عامر رحمه الله تعالى ، وجازاه عن جهاده أفضل الجزاء بمنّه وكرمه وفضله وطَوله ، فنقول :

وكان له في كل غَزْوة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخر من المفاخر الإسلاميّة ، فمنها أن بعض الأجناد نسيَ رايته مَرْكوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم ، فأقامت عدّة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر ، وهذا بلا خفاء ممّا يفتخر به أهل التوحيد على التثليث[1] ، لأنّهم لما أشرب قلوبَهُم خوفَ شِرْذِمةِ المنصور وحِزْبه ، وعلم كلٌّ من ملوكهم أنّه لا طاقة له بحَرْبه ، لجأوا إلى الفِرار والتحصن بالمعاقل والقلاع ، ولم يحصل منهم غير الإشراف من بُعدٍ والاطلاع .

ومن مفاخر المنصور في بعض غزواته أنّه مرَّ بين جبَلين عظيمين في طريق عرض بريد[2] بوسط بلاد الإفرنج ، فلمّا جاوز ذلك المحل — وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يميناً وشمالاً — لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه ، حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا مَنْ وراءهم ، وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذي بين جبلين ، وكان الوقت شتاء ، فلمّا رأى ما فعلوه رجع واختار منزلاً من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر ، وتقدم ببناء الدور والمنازل ، وبجَمْع آلات الحرث ونحوها ، وبث سَرَاياه فسَبَتْ

١ ك : أهل التثليث .
٢ عرض بريد : سقطت من ط .

وغنمت ، فاسترقّ الصّغار ، وضرب أعناق الكبار ، وألقى جُثَثَهم حتّى سَدّ بها المدخل الذي من جهته ، وصارت سَرَاياه تخرج فلا تجد إلا بلداً خراباً ، فلمّا طال البَلاء على العدو أرسلوا إليه في طلب الصلح ، وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم ، فامتنع من ذلك ، فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتّى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسْرَاه ، فأجابهم : إن أصحابي أبوا أن يخرجوا ، وقالوا : إنّا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى ، فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة ، فإذا غزونا عُدْنا ، فما زال الإفرنج يسألونه إلى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبي ، وأن يُمِدّوه بالميرة حتّى يصل إلى بلاده ، وأن يُنَحّوا جِيَفَ القتلى عن طريقه بأنفسهم ، ففعلوا ذلك كلّه ، وانصرف .

ولعَمْري إن هذا لعزّ ما وراءه مطمح ، ونصر لا يكاد الزمان يَجود بمثله ويَسْمح ، خصوصاً إزالتهم جِيَفَ قتلاهم من الطريق ، وغصصهم في شرب ذلك بالريق .

ومن مآثره التي هي في جبين عَصْره غُرَّة ، ولعين دهره قُرَّة ، أنّه لما ختَن أولاده ختّن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي ، ومن أولاد الضعفاء عدد لا ينحصر [1] ، فبلغت النفقة عليهم في هذا الإعذار ، خمسمائة ألف دينار ، وهذه مكرمة مُخَلّدة ، ومنّة مُقَلّدة ، فالله سبحانه يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء ، ويجعل للمسلمين في فقد مثله أحسن العزاء .

ومن مناقبه التي لم تتفق لغيره من الملوك في غالب الظنّ [2] ، أن أكثر جنده من سَبْيِه على ما حققه بعضُ المؤرخين ، وذلك غاية المنح من الله والمنّ .

ومن أخباره الدالة على إقبال أمره وخيبة عدوّه وإدباره ، أنّه ما عاد قطّ من غَزْوة إلا استعدّ لأخرى ، ولم تُهْزَم له قطّ راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة وكفاه ذلك فَخْراً .

---

١ ك : لا يحصر .

٢ كذا في ق ك ط ج ، وفي مطبوعة ليدن : في غابر الزمن .

ومنها أنّه لقيتْه — وقد عاد من بعض غزواته — امرأة تقَحّمَتْ عليه بلوغ مُناه وشهواته ، وقالت له : يا منصور ، استمع ندائي ، فأنت في طيب عيشك وأنا في بكائي ، فسألها عن مصيبتها التي عَمّتها وغمّتها[1] ، فذكرت له أن لها ابناً أسيراً في بلادٍ سَمّتْها ، وأنها لا يهنأ عيشها لفقده ، ولا يخبو ضِرَام قلقها من وَقْده ، وأنشد لسان حالها ذلك الملك العلي :

أيا وَيْحَ الشّجيّ مِنَ الخلي[2]

فرحّب المنصور بها ، وأظهر الرقة بسببها ، وخرج من القابلة إلى تلك المدينة التي فيها ابنُها وجاسَ أقطارَها وتخلّلها ، حتى دوّخها إذ أناخ عليها بكلكله وذلّلها ، وأعراها من حُماتها وببنود الإسلام المنصورة ظلّلَها ، وخلّص جميعَ من فيها من الأسرى ، وجلبت عوَاملُه إلى قلوب الكفرة كَسْرا ، وانقلبت عيون الأعداء حَسْرَى ، وتلا لسانُ حال المرأة ﴿ فَإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح : ٥ ، ٦) .

فهكذا تكون الهمة السلطانية ، والنخوة الإيمانية ، فالله سبحانه يروّح تلك الأرواح في الجنان ، ويرقي درجاتها ويعاملها بمَحْض الفضل والامتنان .

* * *

[رسالة ابن عبد البر إلى المنصور الصغير]

وقد تذكرت هنا والحديث شجون ، وفي ذكر المناسبات[3] يَبْلُغ الطلابُ ما يَرْجُون ، كتاباً كتبه الأديب الكاتبُ أبو محمد ابن الإمام الحافظ محدث

---

١ وغمّتها : سقطت من ق ط ج .

٢ شطر بيت لأبي تمام وتمامه :

وبالي الربع من إحدى بلي

٣ ك : وبذكر المناسبة .

الأندلس أبي عمر بن عبد البر النَّميري[1] ، إلى المنصور بن أبي عامر ، وهو من ذريّة المنصور الكبير الذي كنا نتحدّث في أخباره ، يمتُّ إليه بسلفه ومعاملتهم لمن تقدم من آبائه بتعظيم قدره وإكباره ، وهو[2] : عمّر الله ببقاء مولاي[3] ذي السابقتين بهجةَ أوطانه ، وملّكه عنان زمانه ، ومدّ عليه ظلال أمانه ، إنّي ، أبقى الله[4] الملك الكريم ، والسيد الزعيم ، لما أضاءت لي أهِلّة مفاخركم[5] في سماء الفخار ، وأشرقت شموس مكارمكم على مفارق الأحرار ، وأبصرت شمائلك الزُّهْرَ تهدي إليك من الهمم كامنها[6] ، ومحاسنك الغر توقظ لك من الآمال نائِمها[7] ، تيقنت أنْ بحقّ انقادت لك القلوبُ بأعِنّتها ، وتهادت إليك النفوسُ بأزمّتها ، فآليت أن لا ألمَّ إلاّ بحماك ، ولا أحطّ رَحْلاً إلا بفِنائك[8] ، عِلماً بأنّك نثرة الفخر ، وغرّة الدهر ، فتيمّمت سارياً في ساطع نورك ، متيمناً بيمن طائرك ، محقّقاً للربح[9] ، موقناً بالفلج والنُّجْح ، حتى حللت في دَوْحة المجد ، وأنختُ بدولة السعد ، واستشعرت لبسة الشكر والحمد ، وجعلت أنظِمُ من جوَاهر الكلام ، ما يُرْبي على جواهر النّظام ، وأنشر من عطر الثناء ، ما يزري بالروضة الغَنّاء ، وحاشا للفهم[10] أن يعطل ليلي من أقمارك ،

---

١ أبو محمد ابن عبد البر كاتب من كتاب عصر ملوك الطوائف البارزين اتصل بخدمة عباد صاحب إشبيلية ، فضاق به ابن زيدون ذرعاً ، مما اضطر ابن عبد البر إلى مفارقة الدولة العبادية والالتحاق بالعامريين أصحاب دانية وغيرهم (انظر ترجمته في الذخيرة – القسم الثالث : ٣٩ والقلائد : ١٨١) .

٢ انظر هذه الرسالة في الذخيرة : ٥٣ مع حذف في مواضع ؛ والمقتطفات (الورقة : ٣٧) .

٣ ك : سيدي .

٤ الذخيرة : أيد الله .

٥ الذخيرة : مفاخره ، والضمير في سائر الرسالة للغائب .

٦ الذخيرة : تثير من الهمم كامنها . ك : من الهمم خامدها .

٧ هذه رواية الذخيرة ؛ وفي ك : رواقدها ، وفي قد ط ج : راقدها .

٨ الذخيرة : إلا بحماه . . . في ذراه .

٩ الذخيرة : بأمل متحقق للربح .

١٠ الذخيرة : للفضل .

أو يخلي أفقي من أنوارك ، فأراني منخرطاً في غير سلكه ، ومنحطاً إلى غير ملكه ، لا جَرَمَ أنّه من استضاء بالهلال ، غني عن الذُّبال ، ومن استنار بالصباح ، ألقى[1] سَنا المصباح ، وتالله ما هزّت[2] آمالي ذوائبَها إلى سواك ، ولا حدَتْ أوطاري ركائبَها إلى مَنْ عداك ، ليكون فيَّ أثر الوسْميِّ في الماحل ، وعليَّ جمالُ الحلي على العاطل ، لسيادتك السنية ، ورياستك الأولية ، التي يقْصُر عنها لسانُ إفصاحي[3] ، ويَعْيا في بعضها بياني وإيضاحي[4] ، فالقراطيسُ عند بَثّ مناقبك تَفْنَى ، والأقلام في رَسْم مآثرك تَحْفَى ، وما أمَلُ المجدِب ، في حياة المخصِب ، ولا جَذَلُ المذنب ، برضى المُعْتِب ، كأملي في التعزّز بحَوْزتك ، والتجمّل بجملتك ، والترفع بخدمتك ، فالسعيدُ من نشأ في دولتك ، وظهر في أمتك ، واستضاء بعزتك ، لقد فاز بالسبق مَنْ لحَظَتْه عين رعايتك ، وكَنَفَتْه حَوْزة[5] حمايتك ، فأنت الذي أمنت بعدله نوائب الأيام ، وقويت بسلطانه دعائمُ الإسلام ، تختال بك المعالي اختيالَ العَرُوس ، وتخضع لجلالك أعزة النفوس ، سابقةٌ أشهرُ من الفجر ، وفطنةٌ أنورُ من البدر ، وهمة أنفذ[6] من الدهر :

لقد فازَ مَنْ أضحي بكُمْ متمسّكاً ... يَشُدُّ على[7] تأميل عِزّكُمُ يَدا
سلكْتَ سبيلَ الفخر[8] خلقاً مركباً ... وغَيْرُك لا يأتيه إلا تَجَلّدا
فأنتم لواء الدين لا زال قيّماً ... بآرائكم في ظُلْمة الخَطْب يُهتدى

١ الذخيرة : ألفى .
٢ الذخيرة : مدت .
٣ الذخيرة : عن وصفها إفصاحي .
٤ ويعيا . . إيضاحي : لم يرد في الذخيرة
٥ الذخيرة : وكنفه حرز .
٦ الذخيرة : أبعد .
٧ الذخيرة : يمد إلى .
٨ الذخيرة : الفضل .

ليَهْنِكُمُ مجدٌ تَليدٌ بَنَيْتُمُ   أغار سَناه في البلاد وأنجدا

ومثله أبقاه الله سبحانه يستثمر إيراقه ، فيثمر جَناه ، ويستمطر إبراقه ، فيُمْطر حَياه ، لا سيّما وإنّي نشأةٌ حقّها إحسان أولئك الطاهرين ، وألفها إنعام أكابرك الأخيار [1] الطيبين ، وجَديرٌ بقَبولك وإقبالك ، وبرّك وإجمالك ، مَنْ أصله ثابت في أهل محبتكم ، وفَرْعُه نابت في خاصتكم [2] :

وما رَغْبَتي في عَسْجد أستَفيدُهُ   ولكنّها في مَفْخَر أسْتَجِدُّهُ
فكُلٌّ نوالٍ كانَ أو هُوَ كائن   فلحظَةُ طَرْفٍ منك عنْديَ نِدُّهُ
فكُنْ في اصْطِناعي محسناً كمجرب   يَبِنْ لك تقريبُ الجواد وشَدُّهُ
إذا كنتَ في شك من السيف فابْلُهُ   فإمّا تُنافيه وإمّا تُعِدُّهُ
وَما الصارمُ الهنديُّ إلا كغيره   إذا لم يُفارِقْه النجادُ وغِمْدُهُ

ولا غرو [3] أن يتطوّل مولاي بغَرْس الصنيعة في أزكى التّرب ، ووضع الهناء مكان النّقْب [4] ، والله سبحانه يُبقي مولاي آخذاً بزمام الفخر ، ناهضاً بأعباء البر ، مالكاً لأعِنّة الدهر ، وصنع الله سبحانه لسيدي أتم الصنع وأجمله ، وأفضله وأكمله ، بمنّه لا ربّ سواه ، انتهى .

رجع إلى أخبار المنصور الكبير محمد بن أبي عامر ، رحمه الله :

وكنّا قد ذكرنا أنّه قبض على الوزير الحاجب المصحفي مع أنّه كان أحد أتباعه .

---

١ الأخيار : زيادة من ك .

٢ هذه الأبيات من قصيدة للمتنبي يمدح بها كافوراً ومطلعها :

أود من الأيام ما لا توده   وأشكو إليها بيننا وهي جنده

٣ ك : ولا بأس .

٤ ق ط : مكان النوب ؛ وأصله من المثل : « يضع الهناء مواضع النقب » ، والهناء : القطران ، والنقب : الجرب ؛ يعني يضع الشيء موضعه مسدداً مصيباً .

قال صاحب كتاب « روضة الأزهار ، وبهجة النفوس ونزهة الأبصار »[1] :
ولما أمر المنصور بن أبي عامر بسَجْن المصحفي بالمُطْبِق في الزهراء ودَّع أهله وودَّعوه وداع الفرقة ، وقال لهم : لستم تروني بعدها حيّاً ، فقد أتى وقتُ إجابة الدعوة ، وما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة ، وذلك أنّي أشركت[2] في سَجن رجل في عهد الناصر ، وما أطلقته إلاّ برؤيا رأيتها بأن قيل لي : أطلق فلاناً فقد أجيبت فيك دعوته ، فأطلقته وأحضرته وسألته عن دعوته عليّ ، فقال : دعوت على مَنْ شارك في أمري أن يميته الله في أضيق السجون ، فقلت[3] : إنّها قد أجيبت ، فإنّي كنت ممن شارك في أمره ، وندمت حين لا ينفع الندم ، فيروى أنّه كتب للمنصور بن أبي عامر بهذه الأبيات[4] :

هَبْني أسأتُ فأين العَفْوُ والكَرَمُ إذ قادني نحوك الإذعانُ والنَّدَمُ
يا خيرَ من مُدَّتِ الأيدي إليه أما ترثي لشيخ نَعاهُ عندكَ القلمُ
بالغتَ في السُّخطِ فاصفحْ صَفحَ مقتدر إنّ الملوك إذا ما استُرْحِمُوا رحِموا

فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيري :

يا جاهلاً بعدما زلّتْ بكَ القَدَمُ تَبْغي التكرُّم لمّا فاتَكَ الكرَمُ
ندمتَ إذ لم تَعُدْ منّي بطائلةٍ وقلّما ينفَعُ الإذعانُ والنَّدمُ
نفسي إذا جمحتْ ليست براجعةٍ ولو تشفّعَ فيك العُرْبُ والعَجَمُ

فبقي في المطبق حتّى مات ، نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم ، إنتهى .
وقد ذكر بعضهم في هذه الأبيات زيادة حسبما ذكرناه في غير هذا المحل ، فإن هذه الأبيات للمنصور ، وهذا المؤرّخ مصرح بأنها لعبد الملك الجزيري ،

١ لم أتعرف إلى مؤلف هذا الكتاب ، ولكن النص منقول عن ابن حيان في الذخيرة ٤ : ٥٠ .
٢ كذا في الأصول ، وفي مطبوعة ليدن : شاركت ، وفي الذخيرة : أسرفت .
٣ الذخيرة : فعلمت .
٤ انظر ما تقدم ص : ٤٠٧ – ٤٠٨ والذخيرة ٤ : ٥١ .

وقد يقال : لا منافاة بينهما ، فإن المنصور أجاب بالأبيات ، وهل هو قائلها أم لا ؟ الأمر أعم[1] ، فبيِّن هنا ، والله أعلم .

وقال بعض مؤرخي المغرب[2] : إن الحاجب المصحفي حصل له في هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظن أنّه يَصْدر من مثله ، حتى إنّه كتب إلى المنصور ابن أبي عامر يطلب منه أن يقعد في دهليزه معلّماً لأولاده ، فقال المنصور بدهائه وحذقه : إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدري عند الناس ، لأنّهم طالما رأوني بدهليزه خادماً ومسلّماً[3]، فكيف يرونه الآن في دهليزي معلّماً ؟! وكان المنصور يذهب به بعد نكبته معه في غزواته ، حتى إنّه حكى بعضهم أنّه رأى الحاجب المصحفي في ليلة نَهَى المنصور فيها الناس عن إيقاد النيران تعمية على العدوّ الكافر ، وهو ينفخ فحماً في كانون صغير ويخفيه تحت ثيابه ، أو كما قال ، فسبحان مذيل الدول ، لا إله إلاّ هو ، فإن هذا المصحفي بلغ من الجلالة والعظمة والتحكم في الدولة المدةَ المديدة أمراً لا مزيد عليه ، والله وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين .

ولقد ذكر بعض العلماء[4] المغاربة أن من أعاجيب انقلاب الدنيا بأهلها قصّة المنصور بن أبي عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي . ولم يزل أعداء المنصور بن أبي عامر يتربّصُون به الدوائر ، فغلب سَعْدُه الذي هو المثل السائر ، وربما همس بعض الشعراء بهجوه وهجو الدولة جميعاً إذ قال[5] :

اقْتَرَبَ الوعدُ وحان الهلاكْ ... وكُلُّ ما تحذره قد أتاكْ
خليفة يَلعَبُ في مَكْتَبٍ ... وأمّه حُبْلى وقاضٍ يناكْ

---

١ يقترح فليشر أن تقرأ « الأمر أعمى » أي مبهم غامض .
٢ قارن بما أورده ابن عذاري ٢ : ٣٩٩ - ٤٠٠ .
٣ ج : ومعلماً .
٤ ك : بعض علماء .
٥ ابن عذاري : ٢ : ٤١٨ .

يعني بالخليفة هشاماً المؤيد لكونه كان صغيراً ، وأمّه صبح البشكنسية كان الأعداء يتهمون بها المنصور ، وذلك بهتان وزور ، وأفظع منه رَمْيُهم القاضي بالفجور ، والله عالم بسرائر الأمور ، ونعوذ بالله من ألسنة الشعراء الذين لا يراعون إلاًّ ولا ذمّة ، ويُطلقون ألسنتهم في العلماء والأئمّة ، ومَنْ كان حاسداً لمن باتَ في نعمائه يتقلّب[1] ، جدير بأن لا يدرك ما يؤمّل ويتطلب ، لأنّه يعترض على الله سبحانه في أحكامه ، نعوذ بالله من شرّ أنفسنا ومن شرّ كل ذي شرّ ، بجاه نبينا عليه أزكى صلوات الله وأفضل سلامه .

وقد قدّمنا أنّ المنصور بن أبي عامر كان أولاً يخدم جعفر بن عثمان المصحفي مدبر مملكة هشام المؤيد ، ويريه النصيحة ، وأنّه ما زال يَسْتَجْلب القلوب بجوده وحسن خُلقه ، والمصحفي ينفّرها ببخله وسوء خُلقه ، إلى أن كان من أمره ما كان ، فاستولى على الحجابة ، وسَجَنَ المصحفي ، وفي ذلك يقول المصحفي[2] :

غَرَسْتُ قضيباً خِلْتُهُ عُودَ كَرْمَةٍ ... وكنتُ عليه في الحوَادِثِ قَيّما
وأكرِمُه دَهْرِي فيَزْدادُ خُبْثُهُ ... ولو كان من أصل كريم تكرّما

ولما يئس المصحفي من عفو المنصور قال[3] :

لي مُدّةٌ لا بدّ أبْلُغُها ... فإذا انقَضَتْ أيامُها متُّ
لو قابلتْني الأُسْدُ ضاريةً ... والموتُ لم يقرب[4] لما خِفْتُ
فانظر إليّ وكُنْ على حَذَرٍ ... في مثلِ حالك أمس قد كُنتُ

ومن أحسن ما نَعى به نفسه قولُه حسبما تقدم[5] :

---

١ أخذه من قول الشاعر :

وأظلم أهل الأرض من كان حاسداً ... لمن بات في نعمائه يتقلب

٢ الذخيرة ٤ : ٥٢ .

٣ الحلة السيراء ١ : ٢٦٧ والذخيرة ٤ : ٥١ .

٤ الحلة : لم يقدر ؛ الذخيرة : لم يدن .

٥ انظر ما سبق ص : ٥٩٣ .

صبرتُ على الأيّام حتى تولّت وألزمتُ نفسي صَبرَها فاستمرّت
فوا عَجبا للقلبِ كيف اعترافُه وللنّفسِ بعدَ العزّ كيف استذلّت
وما النّفسُ إلاّ حيثُ يجعلُها الفتى فإن طَمِعَتْ تاقت وإلاّ تَسلّت
وكانَتْ على الأيام نَفْسي عزيزةً فلمّا رأت صَبْري على الذل ذَلّت
فَقُلْتُ لها يا نَفْسُ موتي كريمةً فقد كانتِ الدنيا لنا ثم وَلّت

وأنشد له الفتح في المطمح ، ونسبهما غيره لأحمد بن الفرج صاحب الحدائق [1] :

كلّمتْني فقلتُ دُرٌّ سَقيطٌ فتأمّلتُ عقْدَها هَلْ تناثر
فازْدَهاها تبسّمٌ فأرتْني نَظْمَ دُرّ منَ التبَسّمِ آخر

وله كما مرّ [2] :

صفراء تُطْرِقُ في الزجاج، فإن سرَتْ في الجسم دَبّتْ مثلَ صِلٍّ لادغِ
خَفِيَتْ عَلى شُرَّابِها فكأنّما يَجِدُون رِيّاً مِن إناء فارغِ

وله :

يا ذا الذي أوْدَعَني سِرَّهُ لا تَرْجُ أنْ تَسْمَعه مِنّي
لم أجْرِه بعدك في خاطري كأنّه ما مَرَّ في أذْني .

وأنشد له صاحب بدائع التشبيهات [3] :

سألْتُ نجومَ الليل هل يَنْقَضِي الدُّجى فخطّتْ جواباً بالثّريّا كَخَطّ لا

١ الحلة : ٢٦٠ والتشبيهات واليتيمة ومسالك الأبصار ، ولكن لم يوردهما صاحب المطمح .
٢ الحلة والتشبيهات واليتيمة ؛ وقد مرا ص : ٥٩٤ .
٣ لعل المعني هنا كتاب الفرائد في التشبيه لابن أبي الحسين القرطبي ، والأبيات في الحلة : ٢٥٩ والتشبيهات لابن الكتاني .

وكُنتُ أرى أنّي بآخِرِ ليلتي ... فأُطْرِقُ حتى خِلْتُه عاد أوّلا
وما عَنْ هَوًى سامَرْتُها ، غير أنّني ... أُنافِسُها المجرَى إلى طُرُق العلا

* * *

[المصحف العثماني بقرطبة]

رجع : وكان كما تقدم بقُرْطُبة المصحف العثماني ، وهو متداول بين[1] أهل الأندلس ، قالوا ثم آل أمره إلى الموحدين ، ثم إلى بني مَرِين ، قال الخطيب ابن مرزوق في كتابه « المسند الصحيح الحسن »[2] ما ملخصه : وكان السلطان أبو الحسن لا يسافر[3] إلا ومعه المصحف الكريم العثماني ، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم ، ومقام كبير ، وكيف لا ؟ قال ابن بَشْكُوال : أُخْرِج هــذا المصحف من قرطبة وغُرِّبَ منها وكان بجامعها الأعظم ، ليلة السبت حادي عشر شوّال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبأمره ، وهذا أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمانُ رضي الله تعالى عنه إلى الأمصار : مكّة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام . وما قيل إن فيه دم عثمان هو بعيدٌ ، وإن يكن أحدها فلعلّه الشامي ، قاله ابن عبد الملك .

قال أبو القاسم التجيبي السبتي : أما الشامي فهو باقٍ بمقصورة جامع بني أميّة بدمشق المحروسة ، وعاينته هناك سنة ٦٥٧ ، كما عاينت المكي بقبة اليهودية ، وهي قبة الترّاب ، قلت[4] : عاينتهما مع الذي بالمدينة سنة ٧٣٥ وقرأت فيها ، قال النخعي : لعلّه الكوفي أو البصري . وأقول : اختبرت الذي بالمدينة والذي

١ ق ط ج ودوزي : وهو متواتر عنه .
٢ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني الأصل (– بعد ٧٨٠) من أكابر رجالات الدولة المرينية ، وسيترجم له المقري ترجمة طويلة وانظر الديباج المذهب : ٣٠٥ ونيل الابتهاج : ٢٦٧ وتاريخ ابن خلدون ٧ : ٣١٢ والتعريف بابن خلدون : ٤٩ ؛ وكتابه هذا في مناقب السلطان العظيم أبي الحسن المريني .
٣ ك : يسافر موضعاً .
٤ هذا تعليق ابن مرزوق .

نقل من الأندلس فألفيت خطهما سواء ، وما توهموا أنه خطه بيمينه فليس بصحيح ، فلم يخطّ عثمان واحداً منها ، وإنّما جمع عليها بعضاً من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدني ، ونص ما على ظهره : هذا ما أجمع عليه جماعة من [1] أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصي ، وذكر العدد الذي جمعه عثمان رضي الله تعالى عنه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم على كَتْب المصحف ، انتهى .

واعتنى به عبد المؤمن بن علي ، ولم يزل الموحّدون يحملونه في أسفارهم متبركين به ، إلى أن حمله المعتضد ، وهو السعيد علي بن المأمون أبي العلاء إدريس ابن المنصور ، حين توجه لتلمسان آخر سنة ٦٤٥ ، فقُتل قريباً من تلمسان ، وقُدّم ابنه إبراهيم ، ثم قُتل ، ووقع النهب في الخزائن ، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ، ونهب المصحف ولم يُعلم مستقرّه ، وقيل : إنّه في خزانة ملوك تلمسان ، قلت : لم يزل هذا المصحف في الخزانة إلى أن افتتحها إمامنا أبو الحسن أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧ ، فظفر به وحصل عنده إلى أن أصيب في وقعة طريف [2] ، وحصل في بلاد برتقال ، وأعمل الحيلة في استخلاصه ، ووصل إلى فاس سنة ٧٤٥ على يد أحد تجار أزمّور ، واستمر بقاؤه في الخزانة ؛ انتهى باختصار .

واعتنى به ملوك الموحدين غاية الاعتناء ، كما ذكره ابن رُشَيْد في رحلته ، ولا بأس أن أذكر كلامه بجملته ، والرسالة في شأن المصحف لما فيها من الفائدة ، ونص محل الحاجة منه : أنشدني الخطيب أبو محمد بن بُرْطُلُه من لفظه وكتبته من خطه ، قال : أنشدني الشيخُ الفقيهُ القاضي أبو القاسم عبد الرحمن ابن كاتب الخلافة أبي عبد الله بن عياش لأبيه رحمهم الله تعالى ممّا نظمه ، وقد أمر أمير

١ جماعة من : سقطت من ق .

٢ كانت وقعة طريف سنة ٧٤١ وفيها غلب أبو الحسن المريني ، وعاد إلى المغرب مفلولا صابراً محتسباً يروم الكرة ويرتقب الطائلة (اللمحة البدرية : ٩٣) .

المؤمنين المنصور بتحلية المصحف :

ونُفَلْتَه من كل ملك ذخيرة كأنّهمُ كانوا بِرَسْم مكاسبه
فإن ورِثَ الأملاك شَرْقاً ومَغْرِباً فكم قَدْ أخَلّوا جاهلين بواجبه
وكيف يفوتُ النصرُ جيشاً جعلته أمام قَنَاه في الوَغى وقَوَاضِبِه
وأَلبسته الياقوت والدُّرَّ حِلْيَةً وغيرك قد روّاه من دم صاحبه

وعلى ذكر هذا المصحف الكريم فلنذكر كيفية الأمر في وصوله إلى الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وما أبدى في ذلك من الأمور الغريبة التي لم يُسْمع بمثلها في سالف الدهر ، حسبما أطرفنا به الوزير الأجلّ أبو زكرياء يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طُفَيْل القيسي حفظه الله تعالى وشكره ، ممّا استفاده وأفاده لنا ممّا لم نسمع به قبل ، عن كتاب جده الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طُفَيْل المذكور ، ممّا تضمنه من وصف قصّة المصحف ، فقال : وصل إليهم أدام الله سبحانه تأييدهم قمرا الأندلس النيّران ، وأميراها المتخيران ، السيدان الأجلان أبو سعيد وأبو يعقوب أيدهما الله ، وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، وهو الإمام الذي لم يختلف فيه مختلف ، وما زال ينقله خلف عن سلف ، قد حفظ شخصه على كثرة المتناولين ، وذخَرَه الله لخليفته المخصوص بمن سخر لخدمته من المتداولين ، وله من غرائب الأنباء ومتقدم الإشعار بما آل إليه أمره من الإيماء ما ملئت به الطروس ، وتحفظه من أهل الأندلس الرائس والمرؤوس ، فتُلُقّي عند وصوله بالإجلال والإعظام ، وبودر إليه بما يجب من التبجيل والإكرام ، وعُكف عليه أطول العكوف والتُزم أشدّ الالتزام . وكان في وصوله ذلكَ الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لأولي الألباب ، وبلاغ في الإغراب والإعجاب ، وذلك أن سيّدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين ، أدام الله له عوائد النصر والتمكين ، كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره في خاطره الكريم ، وحرّكته إليه دواعي خُلقه العظيم ،

وتراءي مع نفسه المطمئنّة المرضيّة ، وسجاياه الحسنة الرضيّة ، في معنى اجتلابه من مدينة قُرْطُبَة محل مَثْوَاه القديم ، ووطئه الموصل بحرمته للتقديم ، فتوقّع أن يتأذّى أهلُ ذلك القطر بفراقه ، ويستوحشوا لفقدان إضاءته في أُفقهم وإشراقه ، فتوقف عن ذلك لما جُبِل عليه من رحمته وإشفاقه ، فأوصله الله إليه تحفة سنية ، وهدية هنية ، وتحيّة من عنده مباركة زكية ، دون أن يكدرها من البشر اكتساب ، أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب ، بل أوقع الله سبحانه وتعالى في نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله إلى مستحقّه ، والتبرع به إلى القائم إلى الله تعالى بحقّه ، ما اطلع بالمشاهدة والتواتر على صحته وصدقه ، وعضدت مخايلَ بَرْقه سواكبُ وَدْقه ، وكان ذلك من كرامات سيّدنا ومولانا الخليفة معبوداً ، وإلى أمره الذي هو أمر الله مردوداً ، وجمع [1] عند ذلك بحضرة مراكش — حرسها الله تعالى — سائر الأبناء الكرام ، والسادة الأعلام ، بُدُور الآفاق ، وكواكب الإشراق ، وأهل الاستئهال للمقامات الرفيعة وذوو [2] الاستحقاق ، فانتظم عند ذلك هذا القصيد مشيراً إلى اجتماع هذه الدراري الزاهرة ، والتئام خطوطها على مركز الدائرة ، ووصول المتقدّم ذكره ، المشهور في جميع المعمور أمره [3] ، وهو هذا :

دَرَاريُّ مِنْ نورِ الهُدى تَتَوَقَّدُ ... مَطالِعُها فَوْقَ المجرّة أسْعُدُ
وأنْهارُ جودٍ كُلّما أمسك الحَيا ... يمدُّ بها طامي الغَوَارب مُزْبِدُ
وآسادُ حَرْبٍ غابُها شَجَرُ القَنا ... ولا لِبْدة [4] إلاّ العَجاجُ الملبَّدُ
مَساعير في الهيجا مَساريع [5] للنّدَى ... بأيديهمُ يحمى الهَجيرُ ويَبْرُدُ

---

١ ق : وأجمع .
٢ وذوو : سقطت من ك .
٣ ق ط ج : منه .
٤ ك : ولا لبد .
٥ ك : مساعير .

تَشُبُّ بهم نارانِ للحربِ والقِرَى   ويجري بهم سَيلانِ جيشٌ وعَسْجَدُ
ويَسْتَمْطِرُونَ البرقَ والبرقُ عندهم   سيوفٌ على أُفقِ العُداةِ تُجَرَّدُ
إذا عنَّ سجفُ الساريات مضاؤها   فماذا الذي يُغْني الحديدُ المسَرَّدُ
ويسترشِدونَ النجمَ والنجمُ عندهم   نُصُولٌ إلى حَبِّ القلوب تُسَدَّدُ
تزَاحَمُ في جَوِّ السَّماء كأنَّما   عَوَاملُها في الأفق صَرْحٌ ممرَّدُ
تَخازَرُ ألحاظُ الكواكب دُونَها   ويفرَقُ منها المِرْزَمانِ وفرقدُ
ألم تَرَها في الأفْق خافقَةَ الحَشا   كما تطرف العينان والقلبُ يُزْأدُ
وليس احمرارُ الفجرِ من أثر السَّنا   ولكنَّهُ ذاكَ النَّجيعُ المورَّدُ
وما انبسطَتْ كَفُّ الثريّا فَتَدَّافَعَتْ   ولكنَّها في الحَرْبِ شِلْوٌ مُقَدَّدُ
وحَطَّ سُهَيْلاً ذُعْرُهُ عن سَمِيِّهِ   فأضْحَى على أُفْقِ البسيطة يُرْعَدُ
ولمّا رأى نَسْرٌ وقُوعَ أليفِهِ   تطايَرَ من خَوْفٍ فما زال يجْهَدُ
مواقعُ أمرِ الله في كلِّ حالةٍ   يَكادُ لها رأسُ الثرى يَتَمَيَّدُ
أهابَ بأقْصَى الخافقَينِ فنظَّمتْ   وهَيَّبَ جمع المخفقينَ فبُدِّدُوا
وأضْفَى على الدُّنيا ملابِسَ رحمةٍ   نُضارتُها في كلِّ حين تجدَّدُ
وأخضَلَ أرجاء الرُّبى فكأنَّما   عليها من النَّبْتِ النضير زَبَرْجَدُ
فمن طَرَبٍ ما أصبح البرقُ باسماً   ومن فَرَحٍ ما أضحت المُزْنُ تُرْعَدُ
وغَنَّى على أفنان كل أراكةٍ   غذاها حَيَا النُّعْمى حَمامٌ مُغَرِّدُ
وكَبَّر ذو نطقٍ وسَبَّح صامتٌ   وكاد بهِ المعدومُ يحيا ويُوجَدُ
وأبرز للأذهان ما كان غائباً   فسِيّانِ فيها مُطْلَقٌ ومُقَيَّدُ
سلامٌ على المَهْدِيِّ ، أمّا قَضاؤه   فَحَتْمٌ ، وأمّا أمْرُهُ فمؤكَّدُ
إمام الوَرَى عمَّ البسيطةَ عدلُه   على حين وَجْهُ الأرض بالجور أرْبَدُ
بَصيرٌ رأيِ الدُّنيا بعَيْنِ جلِيّةٍ   فلَمْ يُغْنِه إلا المقامُ المُمَجَّدُ
ولمّا مَضَى والأمْرُ للهِ وَحْدَهُ   وبُلِّغَ مأمُولٌ وأُنْجِزَ مَوْعِدُ
تَرَدَّى أميرُ المؤمنين رداءهُ   وقام بأمر الله والناسُ هُجَّدُ

بعزمةِ شيْحانِ الفؤادِ مُصَمّمٍ   يقومُ به أقصى الوُجودِ ويقعُدُ
مشيئتُهُ ما شاءهُ اللهُ ، إنّه   إذا هَمّ فالحكمُ الإلهيُّ يُسْعِدُ
كتائبُه مَشفُوعَةٌ بملائك   تُرادِفُها في كلِّ حالٍ وترْفدُ
وما ذاكَ إلاّ نيّةٌ خلَصَتْ لَهُ   فليس له فيما سوَى اللهِ مقْصِدُ
إذا خطَبَتْ راياتُه وَسْطَ محفلٍ   ترى قِممَ الأعداء في التُّرْبِ تسجدُ
وإن نَطقَتْ بالفصلِ فيهم سُيوفُهُ   أقرَّ بأمرِ اللهِ مَنْ كان يَجْحَدُ
مُعيدُ علومِ الدين بَعْدَ ارتفاعِها   ومُبْدي علومٍ لم تكُنْ قَبلُ تُعْهَدُ
وباسطُ أنوارِ الهِدايَةِ في الورى   وقد ضمّ قرصَ الشمسِ في الغربِ ملحدُ
وقد كانَ ضوءَ الشمسِ عندَ طلُوعها   يُغانُ بأكنانِ الضلالِ ويُغْمَدُ
فما زال يَجْلو عن مطالعها الصَّدا   ويُبْرِزُها بيضاءَ والجوُّ أسْوَدُ
جزى اللهُ عن هذا الأنامِ خليفَةً   به شربوا ماءَ الحياةِ فخُلّدُوا
وحيّاهُ ما دامتْ محاسنُ ذكرِه   على مَدْرَجِ الأيام تُتْلى وتُنْشَدُ
بمُصْحَفِ عُثْمانَ الشهيدِ وجمعه   تَبَيّنَ أنّ الحقّ بالحقّ يُعْضَدُ
تحامَتْهُ أيْدي الروم بعدَ انْتسافه   وقَدْ كادَ لولا سَعْدُهُ يتَبَدّدُ
فما هوَ إلاّ أن تمرَّسَ صارخٌ   بدعوته العَلْيا فصِينَ المبدَّدُ
وجاء وليُّ الثأرِ يرغبُ نَصْرَهُ   فلبّاهُ منْهُ عَزْمُهُ المتجرِّدُ
رأى أثرَ المسفوحِ في صَفَحاته   فقام لأخذِ الثأر منْهُ مؤيّدُ
وشبّهه بالبَدْرِ وقْتَ خسُوفِه   فللّه تَشْبيهٌ لَهُ الشرعُ يَشْهَدُ
زمان ارتفاع العلم كانَ خسوفه   وقَدْ عادَ بالمهديّ والعَوْدُ أحمدُ
أتَتْكَ أميرَ المؤمنينَ ألوكَةٌ   من الحرم الأقصى لأمرك تَمْهَدُ
سيوفُ بني عيلانَ قامت شهيرةً   لدعوتك العلياء تَهدي وتُرْشِدُ
وطافَتْ ببيتِ الله فاشتدَّ شوقُهُ   إليك ولَبّى منه حِجْرٌ ومَسْجِدُ
وحَجَّ إليْكَ الركنُ والمرْوُ والصَّفا   فأنت لذاك الحجّ حجٌّ ومَقْصِدُ

مَشاعرُها الأجسامُ والروحُ أمركم ومنكم لها يرضى البقاء[1] المخلّدُ
فللّه حَـجٌّ واعتمارٌ وزَوْرَةٌ أتتنا ولم يبرَحْكَ بالغرب مشهدُ
ولله سبـعٌ نيّراتٌ تَقـارنَتْ بها فِئَةُ الإسلام تُحمَى[2] وتسعدُ
إذا لَمْ يكُنْ إلاَّ فِناءكَ عصمةٌ فماذا الذي يرجو القصيُّ المُبعَّدُ
فدُمْ للوَرَى غيثاً وعزاً ورَحمةً فقُرْبُكَ في الدارين مُنْجٍ ومُسْعِدُ
وزادتْ بك الأعيادُ حُسناً وبهجةً كأنَّكَ للأعيادِ زِيٌّ مجدَّدُ
ولا زلتَ للأيّام تُبلي جديدَها وعمرُكَ في ريعانهِ ليس ينْفَدُ

ثم إنّهم أدام الله سبحانه تأييدهم ، ووصل سعودهم ، لما أرادوا من المبالغة في تعظيم المصحف المذكور ، واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزير[3] ، شرعوا في انتخاب كسوته ، وأخذوا في اختيار حليته ، وتأنقوا في استعمال أحفظته ، وبالغوا في استجادة أصْونته ، فحشروا له الصُّنّاع المتقنين والمَهَرَةَ المتفنّنين[4] ، ممن كان بحضرتهم العليّة ، أو سائر[5] بلادهم القريبة والقَصيّة ، فاجتمع لذلك حُذّاق كل صناعة ، ومَهَـرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظّامين والحلائين والنقاشين والمرصِّعين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين ، ولم يبق من يوصف ببراعة ، أو يُنسب إلى الحذق في صناعة ، إلا أحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنى من معانيه ، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترَعة ، وأشكال مبتدَعة ، وضمّنوها من غرائب الحركات ، وخفيّ إمداد الأسباب للمسببات ، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم ، واستفرغوا فيه جَهْدَ قوتهم ، والهمة العليّة أدام الله سموها

١ ك : المقام .
٢ ك : تحيا .
٣ ق ط ج : والتعزيز .
٤ والمهرة المتفننين ـ سقطت من ك .
٥ ك : وسائر .

تترقى فوق معارجهم ، وتتخلّص كالشهاب الثاقب وراء مواجهم ، وتنيف على ما ظنّوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم ، فسلكوا من عمل هذه الأمثلة كل شِعْب ، ورأبوا من منتشرها كل شَعْب ، وأشرفوا عند تحقيقها وإبراز دقيقها على كل صَعْب ، فكانت منهم وقفة كادت لها النفس تيأس عن مَطْلَبها ، والخواطر تكرُّ راجعةً عن خفيٍّ مذهبها ، حتى أطلع الله خليفته في خلقه ، وأمينَه المرتضى لإقامة حقّه ، على وجه انقادت فيه تلك الحركات بعد اعتياصها ، وتخلّصت أشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصها ، ألقوا ذلك ــ أيّدهم الله بنصره ، وأمدهم بمعونته ويُسره ــ إلى المهندسين والصنّاع فقبلوه أحسن القَبُول ، وتصوروه بأذهانهم فرأوه على مطابقة المأمول ، فوقّفَهم حسنُ تنبيهه ممّا جهلوه على طَوْر غريب من موجبات التعظيم ، وعلموا أن الفضل لله[1] يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ــ وسيأتي بعد هذا إشارة إلى تفصيل تلك الحركات المستغرَبة ، والأشكال المونِقة المعجبة ، إن شاء الله تعالى ــ ؛ ممّا صُنع للمصحف العظيم من الأصْوِنة الغريبة ، والأحفظة العجيبة ، أنّه كُسي كلّه بصِوان واحد من الذهب والفضّة ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه ، لا يشبه بعضها بعضاً ، قد أُجري فيه من ألوان الزجاج الرومي ما لم يُعهد له في العصر الأول مثال ، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال ، وله مَفاصل تجتمع إليها أجزاؤه وتلتئم ، وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم ، قد أسْلَسَتْ للتحرّك أعطافُها ، وأحكم إنشاؤها على البغية وانعطافُها ، ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدُّرّ وعظيم الزمرد ما لم تزل الملوك السالفة والقرون الخالية تتنافس في أفراده ، وتتوارثه على مرور الزمن وتَرْداده ، وتظنّ العز الأقعس ، والملك الأنفس ، في ادخاره وإعداده ، وتسمي الواحدَ منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه في صنفه واتحاده ، فانتظم عليه منها ما شاكله زُهْرُ الكواكب في تلألؤه

---

[1] ط : بيد الله .

واتقاده ، وأشبهه الروض المزخرف غبَّ سماء أقلعت عن إمداده ، وأتى هذا الصِّوانُ الموصوف رائق المنظر ، آخذاً بمجامع القلب والبصر ، مستولياً[1] بصُورَته الغريبة على جميع الصُّوَر ، يدهش العقول بهاء ، ويحير الألباب رُواء ، ويكاد يُعشي الناظر تألّقاً وضياء ، فحين تمَّت خصاله ، واستركبت أوصاله ، وحان ارتباطه بالمصحف العظيم واتصاله ، رَأَوْا — أدام الله تأييدهم ، وأعلى كلمتهم — مما رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات ، والإشراف على جميع الثنيات ، أن يُتَلَطف في وجه يكون به هذا الصّوان المذكور طوراً متصلاً ، وطوراً منفصلاً ، ويتأتّى به للمصحف الشريف العظيم أن يبرز تارة للخصوص متبذّلاً ، وتارة للعموم متجمّلاً ، إذ مَعارج الناس في الاستبصار تختلف ، وكلٌّ له مقام إليه ينتهي وعنده يقف ، فعمل فيه على شاكلة هذا المقصد ، وتلطف في تتميم هذا الغرض المعتمد ، وكسي المصحف العزيز بصِوان لطيف من السندس الأخضر ، ذي حلية خفيفة تلازمه في المغيب والمحضر ، ورتب ترتيباً يتأتى معه أن يكسى بالصّوان الأكبر ، فيلتئم به التئاماً يغطي على العين من هذا الأثر ، وكمل ذلك كلّه على أجمل الصفات وأحسنها ، وأبدع المذاهب وأتقنها ، وصُنع له محمل غريب الصنعة ، بديع الشكل والصيغة ، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الإدراك ، ويشتد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك ، مُغَشّىً كلّه بضروب من الترصيع ، وفنون من النقش البديع ، في قطع من الآبنوس والخشب الرفيع ، لم تُعمل قطُّ في زمان من الأزمان ، ولا انتهت قطُّ إلى أيسره نوافذ الأذهان ، مُدار بصنعة قد أُجريت في صفائح الذهب ، وامتدت امتدادَ ذوائب الشُّهب ، وصُنع لذلك المحمل كرسي يحمله عند الانتقال ، ويشاركه في أكثر الأحوال ، مرصّع مثل ترصيعه الغريب ، ومُشاكل له في جودة التقسيم وحُسن الترتيب ، وصُنع لذلك كلّه تابوت يحتوي عليه احتواء المِشْكاة على أنوارها .

---

[1] ط : متولياً .

والصدور على محفوظ أفكارها ، مكعب الشكل سامٍ في الطول ، حسن الجملة والتفصيل ، بالغ ما شاء من التتميم في أوصاله والتكميل ، جارٍ مجرى المحمل في التزيين والتجميل ، وله في أحد غَوَاربه بابٌ ركبت عليه دفتان قد أُحكم إرتاجهما ، ويسر بعد الإبهام انفراجهما ، ولانفتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسي من تلقائــه وتركيب المحمل عليه ، ما دبرت الحركات الهندسيّة ، وتلقيت تلك التنبيهات القدسية ، وانتظمت العجائب المعنويّة والحسيّة ، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسيّة ، وذلك أن بأسفل هاتين الدفتَين فَيْصَلاً فيه موضع قد أُعِدّ له مفتاح لطيف يدخل فيه ، فإذا أُدخل ذلك المفتاح فيه وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين إلى داخل الدفتين من تلقائهما ، وخرج الكرسي من ذاته بما عليه إلى أقصى غايته ، وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته يأتي بها من مؤخر الكرسي زحفاً إلى مقدمه ، فإذا كمل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه انغلق البابُ برجوع الدفتين إلى موضعهما من تلقائهما دون أن يمسهما أحد ، وترتبت هذه الحركات الأربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر ، فإذا أدير المفتاح إلى خلف الجهة التي أدير إليها أولاً انفتح الباب وأخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي إلى مؤخره ، فإذا عاد كلٌّ إلى مكانه انسدّ البابُ بالدفتين أيضاً من تلقائه ، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح ، كالذي كان في حال خروجه ، وصَحّتْ هذه الحركاتُ اللطيفة على أسباب ومُسَبّبات غائبة عن الحس في باطن الكرسي ، وهي ممّا يَدِقّ وصفها ، ويصعب ذكرها ، أظهرتها بركاتُ هذا الأمر السعيد ، وتنبيهات سيّدنا ومولانا الخليفة ، أدام الله تعالى أمرهم وأعزّ نصرهم .

وفي خلال الاشتغال بهذه الأعمال التي هي غُرَر الدهر ، وفرائد العمر ، أمروا — أدام الله تعالى تأييدهم — ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش — حرسها

الله تعالى — فبدىء ببنيانه [1] وتأسيس قبلته في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور ، على أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع ، وأفسح المساحة ، وأبعد البناء والنجارة . وفيه من شمسيّات الزجاج وحركات [2] المنبر والمقصورة ما لو عُمل في السنين العديدة لاستُغرب تمامه ، فكيف في هذا الأمر اليسير الذي لم يتخيّل أحد من الصُّنّاع أن يتم فيه فضلاً عن بنائه ؟ وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور ، ونهضوا — أدام الله سبحانه تأييدهم — عقب ذلك لزيارة البقعة المكرمة ، والروضة المعظمة ، بمدينة تينمَلَّل [3] أدام الله رِفْعَتَها ، فأقاموا بها بقية شعبان المكرم ، وأكثر شهر رمضان المعظم ، وحملوا في صحبتهم المصحفَ العزيز ومعه مصحف الإمام المهديّ المعلوم رضي الله تعالى عنه في التابوت الموصوف ، إذ كان قد صُنع له غرفة في أعلاه ، وأحكمت فيه إحكاماً كمل به معناه ، واجتمع في مِشْكاته فعاد النور إلى مبتداه ، وخُتم القرآن العزيز في مسجد الإمام المعلوم ختمات كادت لا تحصى لكثرتها ، وهنا انتهى ما وجدناه من هذا المكتوب .

ثم قال ابن رُشَيْد — بعد إيراد ما تقدّم — ما صورته : نجزت الرسالة في المصحف العظيم ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى محل الحاجة منه .

* * *

[شعر في قرطبة]

وما أحسن قول الشيخ الإمام أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية [4] يستودع أهل قرطبة :

---

١ ك : ببنائه . ط : فبدأ بنيانه .
٢ ك : ودرجات .
٣ تينملل : المدينة التي دفن فيها المهدي ابن تومرت .
٤ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي (— ٥٤٢) من أهل غرناطة كان واسع المعرفة قوي الأدب متفنناً في العلوم (الصلة : ٣٦٧ والقلائد : ٢٠٨ وسيترجم له المقري) .

أستَوْدِع اللهَ أهلَ قُرْطُبة حيث عهدْتُ[1] الحياء والكَرَما
والجامع الأعْظَم العَتيق ولا زال مَدَى الدّهر مأمناً حَرَما

وقال أبو الربيع ابن سالم[2] : حدثني بذلك أبو الحسن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري[3] قال : أنشدني أبو محمد بن عطية لنفسه ، فذكرهما بعد أن قال : إنّه لما أزمع القاضي أبو محمد بن عطية الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع وأنشد[4] البيتين ، انتهى .

وقال ابن عطية أيضاً رحمه الله تعالى[5] :

بأربعٍ فاقَتِ الأمصارَ قُرطبةٌ وهُنّ قَنْطَرَةُ الوادي وجامعها
هاتان ثنتان ، والزهراء ثالثة ، والعلم أكبر شيء وهْوَ رابعها

وقد تقدم إنشادنا لهذين البيتين من غير نسبة لأحد[6].

* * *

[أبو المغيرة والجارية]

ومما يدخل في أخبار الزاهرة من غير ما قدمناه ما حكاه عن نفسه الوزيرُ

---

١ ك : وجدت .

٢ أبو الربيع ابن سالم : سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي (– ٦٣٤) من أجل شيوخ الأندلس علماً وتأليفاً وأولي الحزم والجرأة والإقدام ، استشهد بمعركة أنيشة صابراً محتسباً . (راجع ترجمته في الذيل والتكملة ٤ : ٨٣ والتكملة رقم : ١٩٩١ والمرقبة العليا : ١١٩ وبرنامج الرعيني : ٦٦ وتحفة القادم : ١٢٩ وإعتاب الكتاب : ٢٤٩ والديباج : ١٢٢ وتذكرة الحفاظ : ١٤١٧ وسيترجم المقري له في النفح) .

٣ عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري من أهل قرطبة يعرف بابن أبي له برنامج شيوخ أخذه عنه أبو الربيع ابن سالم وعنه أخذه تلميذه ابن الأبار ، ولي القضاء باستجة وكان شيخاً جليلا معتنياً بصناعة الحديث ، توفي بغرب العدوة صادراً عن مراكش سنة ٥٨٥ (التكملة رقم : ١٦١٩) .

٤ ك : وأنشدني .

٥ انظر البيتين في ترجمة ابن ربيع الأشعري في التكملة .

٦ انظر ما تقدم ص : ١٥٣ .

الكاتب أبو المغيرة بن حَزْم قال : نادمت يوماً المنصور بن أبي عامر في منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير ، وهي جامعة بين روضة وغَدير ، فلمّا تضمخ النهار بزعفران العَشيّ ، ورفرف غرابُ الليل الدَّجُوجيّ ، وأسبل الليلُ جُنْحَه ، وتقلّد السّماكُ رُمْحَه ، وهمّ النسر بالطيران ، وعام في الأفق زورق الزِّبْرِقان ، أوقدنا مصابيح الراح ، واشتملنا مُلاء الارتياح ، وللدَّجْنِ فوقنا روَاق مضروب ، فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب[1] :

قدم اللّيْلُ عند سَيْرِ النّهارِ ... وبدا البدرُ مثل نصف سوارِ[2]
فكأنَّ النّهار صَفْحة خدّ ... وكأنَّ الظلام خَطُّ عِذارِ
وكأنَّ الكؤوس جامدُ ماءٍ ... وكأن المدام ذائبُ نارِ
نظري قد جَنَى عليَّ ذنوباً ... كيف مما جنته عيني اعتذاري؟
يا لقومي تعَجّبوا من غزال ... جائر في محبتي وهو جاري
ليت لو كان لي إليه سبيلٌ ... فأقضّي من حبّه[3] أوطاري

قال : فلمّا أكملت الغناء ، أحسست بالمعنى ، فقلت :

كيف كيف الوصول للأقمارِ ... بين سُمْر القنا وبيض الشّفارِ
لو علِمْنا بأن حُبّك حَقّ ... لطلبنا الحياةَ منكَ بثارِ
وإذا ما الكرامُ هَمّوا بشيء ... خاطَروا بالنفوس في الأخطارِ

قال : فعند ذلك بادر المنصور لحسامه ، وغلظ في كلامه ، وقال لها : قولي واصدقي إلى مَنْ تشيرين ، بهذا الشوق والحنين ؟ فقالت الجارية : إن كان الكذب أنجى ، فالصدق أحرى وأولى ، والله ما كانت إلاّ نظرة ، ولّدت في

. ...

١ زاد في ك : وقالت .
٢ ك : السوار .
٣ ك : من الهوى .

القلب فكرة ، فتكلّم الحب على لساني ، وبرّحَ الشوق بكتماني ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند المعذرة ؛ ثم بكت فكأن دمعها دُرٌّ تناثر من عقد ، أو طَلٌّ تساقط من ورد ، وأنشدت :

أذْنَبْتُ ذنباً عَظيماً فكيفَ منهُ اعتذاري ؟
واللهُ قَدَّرَ هذا ولَمْ يَكُنْ باختياري
والعَفْوُ أحْسن شيء يَكونُ عِنْدَ اقْتِدارِ

قال : فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب إليّ ، وَسلَّ سيف السخط عليّ ، فقلت : أيدك الله تعالى ، إنّما كانت هَفْوَةٌ جرها الفكر ، وصبْوَة أيدها النظر ، وليس للمرء إلاّ ما قدر له ، لا ما اختاره وأمله . فأطرق المنصور قليلاً ثم عفا وصفح ، وتجاوز عنّا وسمح ، وخلّى سبيلي ، فسكَن وَجيبُ قلبي وغليلي ، ووهب الجارية لي فبتنا بأنعم ليلة ، وسحبنا فيها للصّبا ذيله ، فلمّا شمّر الليل غدَائره ، وسَلَّ الصباح بواتره ، وتجاوبت الأطيار بضروب الألحان ، في أعالي الأغصان ، انصرفت بالجارية إلى منزلي ، وتكامل سروري .

* * *

[المأمون والجارية]

قال بعضهم : ذكرتني حكاية أبي المغيرة هذه حكاية قرأتها في النوادر[1] لأبي علي القالي البغدادي حَدَتْ في الظرف حذوَها ، وزهت في الإغراب زهوَها ، وهي ما أسنده عن منصور البرمكي أنّه كانت للرشيد جارية غُلامية وكان المأمون يميل إليها ، وهو إذ ذاك أمرد ، فوقفت تصبُّ على يد الرشيد من إبريق معها ، والمأمون [جالس] خلف الرشيد ، فأشار إليها [كأنّه] يقبّلها ، فأنكرت ذلك بعينها ، وأبطأت في الصب على قدر نظرها للمأمون وإشارتها إليه ، فقال

---

١ انظر القصة في أمالي القالي ١ : ٢٢٢ وما بين معقفين زيادة منه .

الرشيد : ما هذا ؟ ضعي الإبريق من يدك ، ففعلت ، فقال : والله لئن لم تصدقيني لأقتلنك ، فقالت : يا سيّدي ، أشار إليّ [عبد الله] كأنّه يقبلني ، فأنكرت ذلك عليه ، فالتفت إلى المأمون فنظر إليه كأنّه ميت لما داخله من الجزع والخجل ، فرحمه وضمه إليه ، وقال : يا عبد الله ، أتحبّها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : هي لك فاخلُ بها في تلك القبة ، ففعل ، ثم قال له : هل قلت في هذا الأمر شيئاً ؟ فقال : نعم يا سيدي ، ثم أنشد :

ظبيٌ كَتَبْتُ بطَرْفي من الضمير إليه
قبّلتُه مِنْ بعيدٍ فاعتلّ من شَفَتَيْهِ
وردّ أخبثَ ردٍّ بالكَسْرِ من حاجبيهِ
فما برِحْتُ مكاني حتى قدَرْتُ عليهِ

وفي هذا المعنى يقول بعض البلغاء : اللحْظُ ، يُعْرِب عن اللفظ ، وقال آخر : رب كناية تغني عن إيضاح ، ورب لفظ يدل على ضمير ، ونظمه الشاعر فقال :

جَعَلْنا عَلاماتِ المودّةِ بيننا دقائقَ لحظٍ هُنّ أمْضَى مِنَ السّحرِ
فأعْرِفُ منها الوصلَ في لينَ لحظها وأعرفُ منها الهجرَ بالنظر الشزْرِ

وفي هذا قال بعض الحكماء : العين باب القلب ، فما في القلب ظَهَرَ في العين ، وقال الشاعر :

العينُ تُبْدي الذي في نفس صاحبها من المحبّة أو بُغْضٍ إذا كانا
فالعَيْن تنطق والأفواه صامِتَة حتى تَرَى من ضمير القلب تِبْيانا

* * *

[ترجمة أبي المغيرة من المطمح]

وأبو المغيرة ابن حزْم قال في حقه في المطمح ما نصّه[1] : الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهّاب بن حزم ، وبنو حزم فِتيْة علم وأدب ، وثَنيّةُ مَجْد وحَسَب ، وأبو المغيرة هذا في الكتابة أوحد ، لا يُنْعَت ولا يُحد ، وهو فارس المضمار ، حامي ذلك الذمار ، وبطل الرّعيل ، وأسد ذلك الغيل ، نَسَق المعجزات ، وسبَق في المهملات الموجزات ، إذا كتب وشّى المهارق ودبّج ، وركب من بحر البلاغة الثّبج ، وكان هو وأبو عامر ابن شُهيد خليلي صفاء ، وحليفي وفاء ، لا ينفصلان في رواح[2] ولا مَقيل ، ولا يفترقان كمالك وعقيل[3] ، وكانا بقُرْطُبة رافِعيَ ألوية الصّبْوة ، وعامِريَ أندية السلوة ، إلى أن اتُّخِذ[4] أبو عامر في حِبالة الردى وعلق ، وغدا رَهْنُه فيها قد غلق[5] ، فانفرد أبو المغيرة بذلك المَيْدان ، واستردّ من سَبْقه ما فاته منذ زمان ، فلم تُذكر له مع أبي عامر حسنة ، ولا سَرَتْ له فِقْرَة مستحسَنة ، لتعذر ذلك وامتناعه ، بشُفُوف أبي عامر وامتداد باعه ، وأمّا شعر أبي المغيرة فمرتبط بنثره ، ومختلط زهره بدُرّه[6] ، وقد أثبتُّ له منها فنوناً ، تجنّ بها الأفهام جنوناً ، فمن ذلك قوله :

ظعَنَتْ وفي أحْداجها من شَكْلها عِينٌ فَضَحْنَ بحسنهنّ العِينا

١ المطمح : ٢٢ ؛ قلت وانظر ترجمة أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن حزم في الذخيرة ١/١ : ١١٠ والصلة : ٣٧٤ والمغرب ١ : ٣٥٧ والجذوة : ٢٧٣ وبغية الملتمس رقم : ١١١٠ ؛ وتوفي أبو المغيرة بطليطلة ٤٣٨ .

٢ ق ك ط ج : رواد .

٣ مالك وعقيل : نديما جذيمة بن الأبرش ويضرب بهما المثل في عدم الافتراق ، قال أبو خراش الهذلي :

أَلم تعلمي أن قد تفرق قبلنا خليلا صفاء مالك وعقيل

٤ المطمح : أخذ .

٥ ك : وغلق .

٦ المطمح : ومختلط بزهره .

ما أنصفَتْ في جنب توضِحَ إذ قرَتْ ضيفَ الوِدادِ بَلابِلاً وشُجُونا
أضحى الغرامُ قَطينَ ربع فؤادِهِ إذ لم يَجِدْ بالرقمتين[1] قَطينا

وله :

لمّا رأيْتُ الهِلالَ مُنْطَوِياً في غرّة الفَجْر قارنَ الزُّهَرَهْ
شَبّهْتُه والعِيانُ يشهدُ لي بصَوْلجان أوفى[2] لضَرْبِ كُرَهْ

* * *

[ترجمة ابن شهيد من المطمح]

وأبو عامر ابن شُهَيْد المذكور قال في حقّه ما صورته[3] :

الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيد الأشجعي ، عالم بأقسام البلاغة ومعانيها ، حائز قصَبَ السبق فيها ، لا يُشْبهه أحد من أهل زمانه ، ولا ينسق ما نسق من دُرّ البيان وجُمانه ، توغل في شعاب البلاغة وطُرُقها ، وأخذ على مُتعاطيها ما بين مغربها ومشرقها ، لا يُقاومه عمرو بن بَحْر ، ولا تراه يغترف إلا من بَحْر ، مع انطباع ، مشى في طريقه بأمدّ باع ، وله الحسب المشهور ، والمكان الذي لم يَعْدُه للظهور[4] ، وهو من ولد الوضّاح ، المتقلّد تلك المفاخر والأوضاح ، صاحب الضحّاك[5] يوم المرج ، وراكب ذلك المرج ، وأبو عامر حفيده هذا من ذلك النسب ، ونَبْع لا يُرَاش إلا من ذلك الغرب[6] ، وقد أثبتُّ له ما هو بالسحر لاحق ، ولنور المحاسن ماحق ، فمن ذلك قوله[7] :

---

١ ق : بالرقتين .
٢ في الأصول : اثنى ، وأثبتنا ما في الجذوة .
٣ المطمح : ١٩ .
٤ ك : الظهور .
٥ ق ك ط ج : والضحاك صاحب .
٦ ق ط ج : مع ذلك الغرب ؛ ك : من ذلك الزغب .
٧ ديوانه : ١٦٤ .

إنَّ الكريمَ إذا نابتْه مَخْمَصَةٌ   أبْدَى إلى الناس رِيّاً وهو ظَمْآنُ
يَحْني الضلوعَ على مثل اللّظى حُرَقاً   والوَجْهُ غَمْرٌ بماء البِشْرِ رَيّانُ[1]

وهو مأخوذ من قول الرضى[2] :

ما إن رأيت كمعشَرٍ صبرُوا   عِزّاً على الأزلات والأزْمِ
بَسَطوا الوجوه وبينَ أضلعهم   حَرٌّ الجَوَى ومآلم الكَلْمِ

وله أيضاً[3] :

كلِفْتُ بالحبّ حتّى لَوْ دَنا أجَلي   لما وَجَدْتُ لِطَعْمِ الموتِ من ألمِ
كلا النّدى والهَوى قِدْماً ولعتُ به   وَيْلي من الحبّ أو ويلي من الكرَمِ

وأخبرني الوزير أبو الحسين[4] بن سراج — وهو بمنزل ابنِ شُهَيْد — وكان من البلاغة في مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان ، وكنا نحضر مجلس شرابه ، ولا نغيب عن بابه[5] ، وكان له بباب الصَّوْمعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، ولا يُخْليه من نثر درره وأزهاره ، فقعد في ليلة ٢٧ من رمضان في لمة من إخوانه ، وأئمّة سُلْوانه ، وقد حفّوا به ليقطفوا نُخَبَ أدبه ، وهو يخلط لهم الجدّ بهزل ، ولا يفرط في انبساط مشتهر ولا انقباض جزْل ، وإذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها ، من يسترها ويُواريها ، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربها ، وتبتغي منزلاً لاستغفار

---

١ ق ط ج : ملآن .
٢ ديوان الرضى ٢ : ٤٢٢ مع اختلاف في بعض الرواية .
٣ ديوان ابن شهيد : ١٤٨ .
٤ ق ك ج ط : أبو الحسن .
٥ في طبعة ليدن أن في أصول المطبع هنا : «أن منزل أبي عامر بن شهيد كان منتدى الأعيان ومسرى البيان ، وكان كل شاعر أو كاتب منه بين صلة أو راتب ، وكانوا يحضرون مجلس شرابه ولا ينفصلون ساعة عن بابه» وهذه العبارة غير موجودة في المطبح المطبوع .

ذنبها ، وهي متنقبة ، خائفة ممن يترقبها مترقبة ، وأمامها طفل لها كأنه غصن آس ، أو ظبي يمرح في كناس ، فلمّا وقعت عينُها على أبي عامر ولّتْ سريعة ، وتولت مَرُوعَة ، خيفةَ أن يشبب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلمّا نظرها ، قال قولاً فَضَحَها به وشهرها [1] :

وناظرةٍ تحتَ طيِّ القِناعِ دعاها إلى الله بالخيْر داعي
سعَتْ خِفيَةً تَبْتَغي منزلاً لوَصْلِ التبتّلِ والانقطاع
فجاءتْ تَهادى كمثل الرَّؤوم تُراعي [2] غزالاً بروْض اليَفاع [3]
وَجالَتْ بمَوْضِعِنا [4] جَوْلَةً فحلَّ الربيعُ بتلك البِقاع
أتَتْنا تَبَخْتَرُ في مَشْيِها فحلّتْ بوادٍ كثير السِّباع
وريعَتْ حذاراً على طِفْلِها فناديْتُ يا هذه [5] لا تُراعي
غزالكِ تَفْرَقُ منه الليوثُ وتَفْزَعُ منه كُماة [6] المِصاع
فولّتْ وللمسْكِ في ذَيْلِها على الأرض خطٌّ كظَهْر الشُّجاع

انتهى المقصود منه .

* * *

[استيلاء المعتمد على قرطبة]

رجع : وممّا ينخرط في سلك أخبار الزهراء ما حكاه الفتح في ترجمة المعتمد ابن عباد إذ قال [7] : وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسين [8] بن سراج أنّه حضر مع

١ انظر الديوان : ٩٤ وبدائع البدائه ٢ : ١٠٨ .
٢ دوزي : تناغي .
٣ ق ط ج : البقاع .
٤ البدائع : بأكنافه .
٥ البدائع : فقلت أيا هذه .
٦ البدائع : وتهرب منه أسود .
٧ قلائد العقيان : ١٠ .
٨ القلائد وق ط ج : أبو الحسن ؛ وفي ك : أحمد بن سراج .

الوزراء والكتّاب بالزهراء في يوم قد غَفَل عنه الدهر فلم يَرْمُقْه بطَرْف ، ولم يطْرُقْهُ بصَرْف ، أرَّخَتْ به المسراتُ عَهْدَها ، وأبرزت له الأماني خدّها[1] ، وأرشفت فيه لماها ، وأباحت للزائرين حِماها ، وما زالوا ينقلون من قصر إلى قصر ، ويبتذلون الغصون بجَنًّى وهَصْر ، ويتوقّلون[2] في تلك الغُرُفات ، ويتعاطَوْن الكؤوسَ بين تلك الشُّرُفات ، حتّى استقروا بالروض من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطاراً ، وأوقروا[3] بالاعتبار قطاراً ، فحلّوا منها في درانك ربيع مُفَوَّفة بالأزهار ، مطرّزة بالجداول والأنهار ، والغصونُ تختال في أدْواحها ، وتنثني في أكفّ أرواحها ، وآثارُ الديار قد أشرفت عليهم كثكالى يَنُحْنَ على خرابها ، وانقراض أطرابها[4] ، والوهي بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدارٍ غرابٌ ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شَذاهم وأرِجَت[5] ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيأُوا ظلالها ، وعَمَرُوا حدائقها وجنّاتها ، ونبّهوا الآمال من سِناتها ، وراعوا الليوث في آجامها ، وأخجلُوا الغيوثَ عند انسجامها[6] ، فأضحت ولها بالتداعي تلفُّع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نُؤيٌ وأحجار ، قد وَهَت قِبابُها ، وهَرِمَ شبابُها ، وقد يلين الحديد ، ويَبْلى على طيّه الجديد ، فبينما هم يتعاطَوْنها صغاراً وكباراً ، ويُديرونها أنساً واعتباراً ، إذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة مكتوب[7] فيها :

حَسَدَ القصرُ فيكم الزهراءَ ولَعَمْري وعَمْرِكم ما أساءَ

١ ك : خدها ونهدها .
٢ ك : ويتنقلون .
٣ دوزي : ووفروا . وفي ك ق ط ج : ووقروا .
٤ ك : أترابها وأطرابها .
٥ ك : وتأرجت .
٦ ك : في انسجامها .
٧ مكتوب : سقطت من ك ؛ ط : فيها مكتوب .

قد طَلَعْتم بها شموساً صَباحاً فاطْلُعُوا عندنا بُدوراً مَساء

فساروا إلى قصر البستان بباب العطارين فألفوا مجلساً قد حار فيه الوصف ، واحتشد فيه اللهو والقَصْف ، وتوقدت نجومُ مدامه ، وتأوّدت قدودُ خُدّامه ، وأرْبى على الخَوَرْنق والسَّدير ، وأبدى صفحةَ البدر من أزْرار المُدير ، فأقاموا ليلتهم ما عرَاهم[1] نوم ، ولا عَداهم عن طيب اللذات سَوْم ، وكانت قرطبة منتهى أمله ، وكان رَوْم أمرها أشهى عمله ، وما زال يخطبها بمُداخلة أهليها ، ومُواصلة واليها ، إذ لم يكن في منازلتها قائد ، ولم يكن لها إلاّ حِيَل ومكائد ، لاستمساكهم بدَعْوَة خلفائها ، وأنَفتهم من طُمُوس رسومِ الخلافة وعَفائها ، وحين اتفق له تملّكها ، وأطلعه فلكها ، وحصل في قطب دائرتها[2] ، ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها ، قال[3] :

مَنْ للملوك بشأو الأصْيدِ البَطَلِ ؟ . هيهاتَ جاءتكمُ مَهْديّةُ الدُّولِ
خَطَبْتُ قرطُبَةَ الحسناء إذ مَنَعَتْ مَنْ جاء يَخْطُبُها بالبيض والأسَل
وكم غَدَتْ عاطلاً حتى عرَضْتُ لها فأصْبَحَتْ في سَرِيّ الحلي والحلل
عِرْسُ الملوك لنا في قَصْرِها عُرُسٌ كلُّ الملوك بها في مأتم الوجَل
فراقِبوا عَنْ قريب لا أبا لكمُ هجومَ ليْثٍ بدرع البأس مُشْتمل

ولمّا انتظمتْ في سلكه ، واتّسمَتْ بملكه ، أعطى ابنه الظافر زمامها ، وولاه نقضها وإبرامها ، فأفاض فيها نداه ، وزاد على أمده ومَداه ، وجمّلها بكثرة حِبائه ، واستقل بأعبائها على فَتائه[4] ، ولم يزل فيها آمراً وناهياً ، غافلاً عن المكر ساهياً ، حُسْنَ ظنّ بأهلها اعتقده ، واغتراراً بهم ما رواه ولا انتقده ،

١ القلائد : ما طرقهم .
٢ ط ق ج : دارتها .
٣ ديوان المعتمد : ٦٥ .
٤ القلائد : واشتغل بأعبائها عن فنائه .

وهيهات كم من ملك كَفَّنُوه في دمائه ، ودفنوه بذِمائه ، وكم من عرْشٍ ثلّوه[1] ، وكم من عزيز ملك أذلوه ، إلى أن ثار فيها ابن عُكاشة ليلاً ، وجرَّ إليها حرباً وويلاً ، فبرز الظافر منفرداً عن كُماته ، عارياً من حُماته ، وسيفه في يمينه ، وهاديه في الظلماء نور جبينه ، فإنّه كان غلاماً كما بلله[2] الشباب بأندائه ، وألحفه الحُسْنُ بردائه ، فدافعهم أكثر ليله ، وقد منع منه تلاحق رَجْله وخيْله ، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لَعا ، ولا استقل منها[3] ولا سعي ، فترُك ملتحفاً بالظلما[4]، تحت نجوم السما[5]، معفَّراً في وسط الحمى[6] ، تحرسه الكواكب ، بعد المواكب ، ويستره الحِنْدِس ، بعد السندس ، فمرَّ بمصرعه سَحَراً أحد أئمة الجامع المغلّسين ، فرآه وقد ذهب ما كان عليه ومضى ، وهو أعرى من الحسام المنتَضَى ، فخلع رداءه عن منكبيه ونَضاه ، وستره به ستراً أقنع المجد به وأرضاه ، وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة ، ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة ، فكان المعتمد إذا تذكر صَرْعَته ، وسَعّر الحزنُ لوعته ، رفع بالعويل نداءه ، وأنشد :

ولم أدْرِ مَن ألقى عليه رداءه[7]

ولمّا كان من الغد حُزَّ رأسه ورُفع على سن رمح وهو يشرق كنار على علم ، ويرشق نفس كل ناظر بألم ، فلمّا رَمَقَتْه الأبصار ، وتحققته الحماة والأنصار ، رَمَوْا أسلحتهم ، وسَوَّوْا للفرار أجنحتهم ، فمنهم من اختار فراره وجلاه ، ومنهم من أتت به إلى حَيْنه رجلاه ، وشغل المعتمد عن رثائه بطلب

---

١ ط : فلوه .
٢ ك : قد بلله .
٣ ك : استقال منها ؛ ق : انتقل منها .
٤ ق ك ط : في الظلما ؛ ج : ملتفعاً في الظلما .
٥ تحت نجوم السما : ساقطة من القلائد .
٦ ك : وسط اكما ؛ ط : الحما .
٧ صدر بيت لأبي خراش الهذلي ، وعجزه : « على أنه قد سل عن ماجد محض » .

ثاره ، ونَصْب الحبائل لوقوع ابن عكاشة وعثاره ، وعدل عنّ تأبينه ، إلى البحث عن مفرقه وجبينه ، فلم تحفظ له فيه قافية ، ولا كلمة للوعته شافية ، إلاّ إشارته إليه في تأبين أخويه ، المأمون والراضي المقتولين في أول النائرة ، والفتنة الثائرة ، انتهى .

* * *

[ذكر المتنزهات في سياق التراجم]

وقد رأيت أن أزيد على ما تقدم — ممّا قصدت جَلْبه في هذا الموضع — نبذة من كلام الفتح في ذكر مُنْتزهات قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس ، ووصْف مجالس الأنْس التي كانت بها ممّا تنشرح له الأنفس ، ووقع ذكر غير قرطبة والزهراء لهما تبعاً ، ولا يخلو ذلك من عبرة بحال مَنْ جَعَل في اللهو مَصيفاً ومُرْتَبَعاً ، ثم طواه الدهر طَيَّ السِّجلّ ، ومحا آثاره التي كانت[1] تسمو وتجِلّ ، وما قصدنا عَلِمَ الله غير الاعتبار ، بهذه الأخبار ، لا الحث على الحرام ، وتسهيل القصد إليه والمرام ، والأعمال بالنيات ، والله سبحانه كفيل بفضله وكرمه ببلوغ الأمنيات ، وتعويضنا عن هذه النعم الفانيات ، بالنعم الباقيات السنيّات .

* * *

[١ — من ترجمة ابن زيدون في القلائد]

قال الفتح رحمه الله تعالى في ترجمة الوزير أبي الوليد بن زيدون ، ما صورته[2] : وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسين[3] بن سراج رحمه الله تعالى أنّه في وقت فراره أضحى ، غداة الأضحى ، وقد ثار به الوجد بمن كان يألفه والغرام ، وتراءت لعينيه تلك الظِّبَاء الأوانس والآرام ، وقد كان الفطر وافاه ،

١ كانت : سقطت من ق ط ج .
٢ القلائد : ٧٢ .
٣ ق ك ج : أبو الحسن .

والشقاء قد استولى على رسم عافيته حتّى عفاه [1]، فلمّا عاده منهما ما عاد، وأعياه ذلك النكد المعاد، استراح إلى ذكر عهده الحسن، وأراح جفونه المسهّدة بتوهم ذلك الوَسَن، وذكر معاهد كان يخرج إليها في العيد، ويتفرج بها مع أولئك الغيد، فقال [2] :

خَليليَّ لا فِطْرٌ يَسُرُّ ولا أضْحى … فما حالُ من أمسى مَشُوقاً كما أضحى
لئن شاقني شرق العُقاب فلم أزل … أخصُّ بمحوض الهوى ذلك السَّفْحا
وما انْفَكَّ جوفيُّ الرُّصافة مُشْعِري … دواعيَ بَثٍّ تُعْقِبُ الأسَفَ البرْحا
ويَهْتاجُ قَصْرُ الفارسيِّ صبابةً … لقَلْبيَ لا يألو زنادَ الأسى قَدْحا
وليس ذميماً عهد مجلِسِ ناصح … فأقْبَلَ في فرط الولوع به نُصْحا
كأنّيَ لم أشْهَدْ لدَى عَيْنِ شَهْدَةٍ … نزالَ عِتابٍ كان آخره الفَتْحا
وقائعُ جانيها التجنّي فإنْ مَشَى … سفيرُ خضوعٍ بيننا أكَّد الصُّلْحا
وأيّام وَصْلٍ بالعَقيقِ اقتضيْتُه … فإن لم يَكُنْ ميعادُه العيد فالفِصْحا
وآصال لهوٍ في مُسنّاةِ مالكٍ … مُعاطاةَ نَدْمانٍ إذا شئتَ أو سبْحا
لدى راكدٍ تُصْبيك من صفَحاتِهِ … قَواريرُ خُضْرٌ خِلْتها مُرِّدتْ صَرْحا
مَعاهدُ لذّاتٍ وأوطانُ صَبْوَةٍ … أجَلْتُ المُعَلّى في الأماني بها قِدْحا
ألا هلْ إلى الزهراء أوْبَةُ نازحٍ … تَقَضّى تنائيها مَدامعهُ نَزْحا
مَقاصيرُ [3] مَلْكٍ أشْرقَتْ جنباتُها … فخلْنا العشايا الجُونَ أثناءها صُبْحا
يُمَثِّلُ قُرْطَيْها ليَ الوَهْمُ جمرَةً … فقُبَّتَها فالكوكبَ الجونَ [4] فالسَّطْحا
محلَّ ارتياح يذكرُ الخلدَ طيبُهُ … إذا عزَّ أن يَصْدى الفتى فيه أو يضحى

---

١ في الأصول : أعفاه .
٢ انظر ديوان ابن زيدون : ١٥٨
٣ في الأصول : مقاصر .
٤ القلائد : الرحب .

هُناكَ الجِمامُ الزُّرقُ تَنْدَى حِفافُها ظِلالٌ عَهِدْتُ الدَّهْرَ فيها فتًى سَمحا
تعوَّضْتُ[1] من شَدْوِ القيان خلالها صَدَى فلوَاتٍ قَدْ أطار الكَرَى صُبحا
ومِنْ حَمْلِيَ الكأسَ المفَدَّى مُديرُها تَقَحُّمَ أهوالٍ حَمَلْتُ لها الرمْحا
أجَلْ إنَّ لَيْلي فَوْقَ شاطِىء بيَطْةَ[2] لأقصَرُ من لَيْلي بآنَةَ فالبَطْحا

وهذه معاهد بني أمية قطعوا بها لياليَ وأياماً ، وظلّت فيها الحوادث عنهم نياماً ، فهاموا بشرق العُقاب ، وشامُوا به برقاً يَبْدو من نِقاب ، ونعموا بجَوْفيّ الرُّصافة ، وطعموا عيشاً تولى الدهر جلاءه وزِفافه ، وأبعدوا نصح الناصح ، وحمدوا أنس مجلس ناصح ، وعَمُوا بالزهراء ، وصمّوا عن نبإ صاحب الزوراء ، حتى رحلهم الموت عنها وقوّضهم ، وعوّضهم منها ما عوّضهم ، فصاروا أحاديث وأنباء ، ولم يتزودوا منها إلاّ حَنُوطاً وكباء ، وغدَتْ تلك المعاهدُ تصافحها أيدي الغِيَر ، وتناوحها نعَبات الطير ، وراحت بعد الزينة سُدى ، وأمست مسرحاً للبوم وملعباً للصَّدى ، يُسْمَعُ للجنّ بها عَزيف ، ويُصْرَعُ فيها البطلُ الباسل والنزيف ، وكذا الدنيا أعمالها خراب ، وآمالها[3] آلٌ وسَرَاب ، أهلكت أصحاب الأخدود ، وأذهبت ما كان بمأرب من حِيازات وحُدُود ، انتهى .

وقال الفتح بعد كلام ما صورته[4] : ولما عَضَّتْه نابُ الاعتقال ، ورضَّتْه تلك النُّوَبُ الثقال ، وعُوّض بخشانة العيش من اللين ، وكابد قَسْوةَ خَطْبٍ لا تَلين ، تذكّر عهد عيشه الرقيق ، ومَرَحه بين الرُّصافة والعقيق ، وحَنَّ إلى سعد زُرَّتْ عليه جُيُوبُه ، واستهدى نسيمَ عيشٍ طاب له هُبوبه ، وتأسّى بمن

١ ط : تعرضت .
٢ ق ك ج : نيطة ؛ ط : ليطة .
٣ ك ط : ومآلها .
٤ القلائد : ٧٧ .

باتت له النوائب بمرصاد ، ورمته بسهام ذاتِ إقصاد [وضيمَ من عهد الأحَصّ إلى ذات الإصاد][1] فقال[2] :

الهَوى في طُلوعِ تلك النجومِ — والمُنى في هُبوبِ ذاك النّسيمِ
سَرَّنا عيشُنا الرقيق الحواشي — لو يدومُ السرورُ للمستديمِ
وَطَرٌ ما انقَضَى إلى أن تقضّى — زمَنٌ ما ذِمامُه بالذَّميمِ
أيّها المؤذِني بظُلْم اللّيالي — ليسَ يومي بواحدٍ من ظَلومِ
ما ترى البدرَ إن تأمّلْتَ والشمـ — ـس هما يُكْسفان دون النجومِ
وهوَ الدّهْرُ ليس ينفكُّ يَنحو — بالمُصاب العظيم نحو العظيمِ

وقال الفتح أيضاً في شأن ابن زيدون ، ما صورته[3] :

ولما تعذر انفكاكه[4]، وعُفّر فرقده وسماكه ، وعادته الأوهام والفِكَر ، وخانه من أبي الحزم الصارمُ الذَّكَر ، قال يصف ما بين مَسَرّاته وكُروبه ، ويذكر بُعْدَ طلوع أمله[5] من غروبه ، ويبكي لما هو فيه من التعذير ، ويعذر أبا الحزم وليس له غيره من عذير ، ويتعزى بإنحاء[6] الدهر على الأحرار ، وإلحاحه على التمام بالسِّرار ، ويخاطب وَلاّدَةَ بوَفاء عهده ، ويُقيم لها البراهينَ على أرَقِهِ وسُهْده[7] :

---

١ ما بين معقفين زيادة ليست في ق ك؛ والذي ضيم في الأحص وذات الأصاد هم بنو مرة أولا ثم ثأروا بقتل كليب .
٢ ديوان ابن زيدون : ٢٧٨ .
٣ القلائد : ٧٦ .
٤ القلائد : فكاكه .
٥ ك : سعده .
٦ ك : باخناء .
٧ القلائد : ٧٧ وديوان ابن زيدون : ٢٥٠ .

ما جالَ بَعْدكِ لَحْظي في سنا القمرِ — إلا ذكَرْتُكِ ذكْرَ العَيْنِ بالأثرِ
ولا استَطَلْتُ ذماء اللّيلِ مِنْ أسَفٍ — إلاّ عَلى ليلةٍ سَرَّتْ مع القِصَرِ
في نَشْوَةٍ من شبابِ الوَصْلِ[1] مُوهِمةٍ — أنْ لا مَسافة بَيْنَ الوَهْنِ والسّحَرِ
يا لَيْتَ ذلك السّواد الجون مُتّصِل — قَدِ استَعار سواد القلب والبصَرِ
يا للرّزايا لقد شافهتُ مَنْهلَها — غمراً فما أشربُ المكروهَ بالغُمَرِ
لا يَهْنَإِ الشّامتَ المُرْتاحَ خاطرُهُ — أنّي مُعَنّى الأماني ضائعُ الخَطَرِ
هل الرياحُ بنَجْمِ الأرضِ عاصفَةٌ — أم الكُسُوفُ لغَيْرِ الشّمْسِ والقمرِ
إن طال في السجن إيداعي فلا عَجَبٌ — قد يُودَعُ الجفنَ حَدُّ الصارم الذّكرِ
وإن يُثَبِّطْ أبا الحزْمِ الرضى قَدَرٌ — عن كَشْفِ ضُرّي فلا عَتْبٌ على القدرِ
مَنْ لم أزل مِنْ تأنّيه[2] على ثِقةٍ — ولم أبِتْ من تجنّيه على حَذَرِ

وله يتغزل ، ويعاتب من يستعطفه ويتنزل[3] :

يا مُسْتَخِفّاً بعاشِقيهِ — ومُسْتَغِشّاً لناصِحِيهِ
ومَنْ أطاع الوُشاةَ فينا — حتى أطَعْنا السُّلوَّ فيه
الحمدُ للهِ إذ أراني — تكذيبَ ما كنتَ تَدّعيه
من قبلِ أن يُهْزَمَ التّسلّي — ويَغْلِبَ الشوقُ ما يليهِ

وما أحسن قولَ ابن زيدون المذكور في قصيدته النونية الشهيرة :

---

١ الذخيرة والقلائد : سنات الدهر .
٢ ك : من تدانيه ؛ الديوان : تأتيه .
٣ الديوان : ١٩٠ .

غِيظ [1] العدا من تساقينا الهوَى فَدَعَوْا   بأنْ نغَصّ فقال الدَّهْرُ آمينا

* * *

[موشحة ابن الوكيل]

ومن أغرب [2] ما وقفتُ عليه مُوشّحة لابن الوكيل دخل فيها على أعجاز نونية ابن زيدون ، وهي :

غـــدا مُنادِينـــا   مُحكَّماً فينا   يقْضي علَيْنا الأسى لولا تأسّينا

بحْرُ الهوى يُغْرِقْ   مَنْ فيه جَهْدَهُ عامْ
ونـــارُهُ تُحْـرِقْ   مَنْ همّ أو قَدْ هامْ
ورُبّمـــا يُقْـلِقْ   فتًى عليه نـــامْ

قد غيَّرَ الأجسام   وصيّر الأيّام   سُوداً وكانتْ بكُم بيضاً ليالينا

يا صاحبَ النّجْوَى   قِفْ واسْتمعْ مِني
إيّاكَ أن تَهْوَى   إنَّ الهوى يُضْني
لا تَقْرَبِ البَلْوَى   اسْمَعْ وقلْ عَنّي

بِحــــاره مرّهْ   خُضْنا على غِرّهْ   حيناً فقام بها للنّعي ناعينا

مَنْ هام بالغِيدِ   لاقَى بهِمْ همّـا
بَـــذَلْتُ مجهودي   لأحْـــوَرٍ ألْمى
يَهُـــمّ بالجُـــودِ   ورَدّ مـــا همّـــا

---

1 ك : غص .
2 ق : ومن غريب .

وعندما قَدْ جاد بالوصْلِ أو قد كاد أضحى التنائي بديلاً مِنْ تدانينا

بِحَقّ ما بَيْني وبَيْنَكُم إلا
أقْرَرْتُم عَيْني فتجمعُوا الشّملا
فالعَيْنُ بالبَيْنِ بفَقْدكم أبْلى

جديدَ ما قدكان بالأهل والإخوان ومَوْرِد اللّهْوِ صافٍ مِنْ تصافينا

يا جيرةً بانَتْ عَنْ مُغْرم صبٍّ
لعَهْده خانَتْ مِنْ غَيْرِ ما ذنبِ
ما هَكَذا كانَتْ عَوائِدُ العُرْبِ

لا تحسَبوا البُعْدا يُغَيّرُ العهدا إذ طالما غيّر النّأيُ المحبّينا

يا نازلاً بالبَان بالشّفْعِ وَالوتْرِ
والنملِ والفرقان والليل آذا يَسْرِ
وسُورة الرحمن والنحلِ والحجْرِ

هل حل في الأديان أنْ يقتلَ الظمآن منْ كان صرْفَ الهوى والود يسقينا

يا سائل القَطْرِ عرّج عَلى الوادي
مِن ساكني بدرٍ وقِفْ بهم نادي
عسى صَبّاً تَسْري لمغرم صادي

إن شئتَ تُحْيينا بلّغْ تحيينا منْ لو عَلى البُعْدِ حياً كان يحيينا

وافَتْ لنا أيام كأنّها أعْوَام
وكان لي أعْوَام كأنّها أيّام

تَمُـرُّ كـالأحْلام بالوصْلِ لي لَوْ دام

والكأسُ مُتْرَعة حُثَّتْ مُشعشَعة فينا الشَّمول وغنّانا مُغَنّينا

* * *

[٢ – من ترجمة بني القبطورنة]

رجع إلى ما يتعلّق بقرطبة : قال الوزير أبو بكر بن القَبْطُرْنَة ، يخاطب الوزير أبا الحسين بن سراج ، ويذكر لِمّةً من إخوانه بقرطبة [١] :

يا سيّدي وأبي هوًى وجَلالةً ورسولَ وُدّي إن طلبت رسولا
عرّجْ بقرطبةٍ ولُذْ إن جئتها [٢] بأبي الحسين ونادِه تمويلا [٣]
فإذا سعدتَ بنظرة من وجهه فاهدِ السلام لكفّه تقبيلا
واذكر له شكري وشوقي مجملاً ولو استطعت شرحته [٤] تفصيلا
بتحيّةٍ تُهْدى إليْهِ كأنّما جرّت على زهرِ الرياض ذُيُولا
وأشِمَّ منها المصحفيّ على النّوَى نَفساً ينسّي السوسن المبلولا
وإلى أبي مَرْوانَ مِنْهُ نَفْحَةً تُهدي له نَوْرَ الرُّبى مَطْلُولا
وإذا لقيتَ الأخطبيَّ فَسَقّهُ من صفوِ وُدّي قرقفاً وشَمُولا
وأبو عليٍّ سَقِّ [٥] مِنْها رِبعَه مسكاً بماء غمامة محلولا
واذكر لهم زمناً يهبُّ نسيمُه أصُلاً كنَفْثِ الراقيات عليلا
مولًى ومُوليَ نعمةٍ وكرامة وأخا إخاء مخلصاً وخليلا

١ مر بعض هذه الأبيات فيما تقدم ص : ١٥٦ وانظر القلائد : ١٥٢ .
٢ ق ط ج : إن أنت بلغتها .
٣ ك : تعويلا ؛ والتمويل : أن تقول « يا مولاي » .
٤ ك : سردته .
٥ القلائد : وأبا علي بل .

باِلحَيْرِ ما عبست هناك غمامة إلاّ تضاحك إذخِراً وجَلِيلا
يوماً وليلاً كان ذلك كلُّه سَحَراً وهذا بُكرةً وأصيلا
لا أدركتْ تلك الأهلّةُ دَهْرَها نقصاً ولا تلك النجومُ أفُولا

قال أبو نصر : الحير الذي ذكره هنا هو حَيْر الزَّجّالي خارج باب اليهود بقرطبة الذي يقول فيه أبو عامر بن شُهَيْد[1] :

لقد أطْلَعوا عند باب اليهود شمساً أبى الحسنُ أن تكسفا
تَراهُ اليهودُ على بابها أميراً فتَحْسَبُه يُوسُفا

وهذا الحَيْر من أبدع المواضع وأجملها ، وأتمها حسناً وأكملها ، صحنه مرمر صافي البياض ، يخترقه جدول كالحيّة النَّضْناض ، به جابية ، كل لجّة بها كابية ، قد قربصت بالذهب واللازورد سماؤه ، وتأزّرَتْ بهما جوانبه وأرجاؤه ، والروض قد اعتدلت أسطاره ، وابتسمت من كمائمها أزهاره ، ومنع الشمس أن ترمق ثراه ، وتعطّر النسيم بهبوبه عليه ومَسْراه ، شهدت له لياليَ وأيّاماً كأنّما تصورت من لمحات الأحباب ، أو قُدّت من صفحات أيام الشباب ، وكانت لأبي عامر بن شُهَيد به فُرَجٌ وراحات ، أعطاه فيها الدهر ما شاء ، ووالى عليه الصحو والانتشاء ، وكان هو وصاحب الروض المدفون بإزائه أليفَيْ صَبْوة ، وحليفَيْ نشوة ، عكفا فيه على جِرْيالهما ، وتصرفا بين زَهْوِهما واختيالهما ، حتى ردّاهما الردى ، وعداهما الحِمام عن ذلك المدى ، فتجاورا في الممات ، تجاورهما في الحياة ، وتقلصت عنهما وارفات تلك الفيئات ، وإلى ذلك العهد أشار ابن شُهَيد وبه عرَّض ، وبشوقه صحح وما مرض ، حيث يقول عند موته يخاطب أبا مروان صاحبه وأمر أن يُدْفَنَ بإزائه ويُكتب

---

١ القلائد : ١٥٣ وديوان ابن شهيد : ١٠٠ ؛ وقد مرا في الكتاب ص : ١٥٦ .

على قبره[1] :

يا صاحبي قم فقد أطَلْنا أنحنُ طولَ المدى هُجودُ ؟
فقالَ لي : لَنْ نقوم منها ما دامَ من فوقِنا الصَّعيد
تَذكرُ كَمْ لَيْلَةٍ نعِمْنا في ظلّها والزمان عيد
وكم سرورٍ هَمَى علينا سحابةً ثَرَّةً تجود ؟
كلٌّ كأنْ لم يكن تقضّى[2] وشؤمه حاضر عتيد
حَصَّلَهُ كاتب حفيظ وضمّهُ صادق شهيد
يا وَيْلَنا إن تنكّبَتْنا رحمةُ مَنْ بَطْشُهُ شديد
يا ربّ عفواً فأنتَ مولًى قصّرَ في أمرِك العبيد

انتهى .

ثم قال بعد كلام[3] : وركب أبو الحسن ابن القَبْطُرْنَة إلى سوق الدواب بقرطبة ومعه أبو الحسين ابن سراج ، فنظر إلى أبي الحكم ابن حزم غلاماً كما عَقّ تمائمه ، وهو يروق كأنّه زهر فارق كمائمه ، فسأل أبا الحسين ابن سراج أن يقول فيه ، فأرتج عليه ، فثنى عنان القول إليه ، فقال :

رأى صاحبي عَمْراً فكلّفَ وصفه وحمّلني من ذاك ما ليس في الطوقِ
فقلت له : عمرٌو كعمرٍو ، فقال لي : صدقت ولكن ذاكَ شبَّ على الطوْقِ[4]

وكان بنو القَبْطُرْنَة بالأندلس أشهرَ من نار على علَم ، وقد تصرفوا في البراعة والقلم ، ولهم الوزارة المذكورة ، والفضائل المشكورة ؛ ولذا قال أبو

١ القلائد : ١٥٣ والديوان : ٤٦ والذخيرة ١/١ : ٢٨٧ .
٢ ك : فخيره مسرعاً تقضى .
٣ القلائد : ١٥٥ .
٤ ق ط ج : ذا أشب على الطوق .

نصير في حقهم ما صورته[1] :

هم للمجد كالأثافي ، وما منهم إلاّ موفور القوادم والخوافي ، إن ظهروا ، زَهَرُوا ، وإن تجمّعُوا ، تضوّعوا ، وإن نطقوا ، صدقوا ، ماؤهم صفْو ، وكل واحد منهم لصاحبه كُفْو ، أنارَتْ بهم نجومُ المعالي وشموسُها ، ودانت لهم أرواحُها ونفُوسُها ، ولهم النظام الصافي الزجاجة ، المضمحل العجاجة ، انتهى .

ثم قال[2] : وبات منهم أبو محمد مع أخويه في أيام صِباه ، واستطابة[3] جَنُوب الشّباب وصَباه ، بالمُنية المسماة بالبديع ، وهو روض كان المتوكل يَكْلَف بمُوافاته ، ويبتهج بحسن صفاته ، ويقطف رياحينَه وزَهَرَه ، ويوقف عليه إغفاءهُ وسَهَرَه ، ويستفزُّه الطرب متى ذكَرَه ، وينتهز فرَصَ الأُنس فيه رَوْحاته وبُكَرَه ، ويدير حُمَيّاه على ضفة نهره ، ويخلع سره فيه لطاعة جهره ، ومعه أخَواه فطاردوا اللذّات حتى أنضَوْها ، ولبسوا برود السرور وما نَضَوْها ، حتّى صرعتهم العُقار ، وطلّحتهم تلك الأوقار ، فلمّا همّ رداء الفجر أن يَنْدَى ، وجبينُ الصبح أن يتبدّى ، قام الوزير أبو محمد فقال :

يا شقيقي وافى الصباحُ بوَجْهٍ ستَرَ الليلَ نورُه وبهاؤهْ
فاصْطَبِحْ واغتنم مَسَرَّةَ يومٍ لَسْتَ تدري بما يجيء مَساؤهْ

ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال[4] :

يا أخي قُمْ تَرَ النّسيمَ عليلا باكرِ الرَّوْضَ والمدامَ شَمُولا
لا تَنَمْ واغْتَنِم مَسَرَّةَ يَوْمٍ إنّ تحتَ التّراب نَوْماً طويلا

---

١ القلائد : ١٤٨ .
٢ القلائد : ١٥١ .
٣ القلائد : واستطابته .
٤ القلائد : ١٥١ والمغرب ١ : ٣٦٧ .

في رياضٍ تعانقَ الزهرُ فيها مثلَ ما عانق الخليلُ الخليلا[1]

ثمّ استيقظ أخوهما أبو الحسن ، وقد هبّ من غفلة الوَسَن[2] ، فقال :

يا صاحبيَّ ذَرَا لَوْمي ومَعْتَبَتي قُمْ نَصْطبحْ خمرةً من خيرِ ما ذخروا
وبادِرَا غفلةَ الأيام واغْتَنِما فاليومَ خمرٌ ويَبْدُو في غدٍ خَبرُ[3]

وساق صاحبُ البدائع هذه القصّة فقال[4] : وذكر الفتح ما هذا معناه أنّه خرج الوزراء بنو القَبْطُرْنَة إلى المنية المسماة بالبديع ، وهو روض قد اخضرّت مسارحُ نباته ، واخضَلّت مساري هَبّاته ، ودَمَعَت بالطلّ عيونُ أزهاره ، وذاب على زَبَرْجَدِه بِلّور أنهاره ، وتجمعت فيه المحاسن المتفرّقة ، وأضحت مُقَل الحوادث عنه مُطْرِقة ، فخيولُ النسيم تركض في ميادينه فلا تَكْبُو ، ونُصولُ السواقي تحسم[5] أدواء الشجر فلا تنبو ، والزروع قد نقّبتْ وجه الثرى ، وحجبت الأرضَ عن العيونِ فما تُبصَر ولا تُرَى ، وكان المتوكل بن الأفطس يَعُدُّه غاية الأرب ، ويُعِدُّه مشهداً[6] للطرب ، ومدفعاً للكرب ، فباتوا فيه ليلتهم يديرون لمَع لهَب يتمنون فيه الخلود ، ويتَحسَّونَ ذَوْب ذهب لا يُصْهر به ما في بطونهم والجلود ، حتى تركتهم ابنة الخابية ، كأنّهم أعجازُ نخل خاوية ، فلمّا هزم رُوميُّ الصباح زنجيَّ الظلام ، ونادى الديكُ حيَّ على المُدام ، انتبه

---

١ ك : الخليل خليلا .
٢ القلائد : وقد ذهب عن عقله الوسن .
٣ هو من قول بشار :

اليوم هم ويبدو في غد خبر والدهر ما بين إنعام وإبآس

وأصله من قول امرىء القيس : اليوم خمر وغداً أمر .
٤ البدائع ٢ : ١٤٠ .
٥ البدائع : تصول لحسم .
٦ البدائع : منبهة .

كبيرُهمَ أبو محمد مستعجلاً ، وأنشد مرتجلاً « يا شقيقي ... الخ » فانتبه أخوه أبو بكر لصوته ، وتخوّف لذهاب ذلك الوقت وفوْته ، وأنبه أخاهما أبا الحسن وهو يرتجل « يا أخي قم تر النسيم ... إلخ » فانتبه أخوه لكلامه ، دافعاً للذة مَنامه للذة قيامه ، وارتجل « يا صاحبيَّ ذرَا ... إلخ » انتهى .

قال الفتح [1] : ولمّا أمر المعتمد بن عباد أبا بكر بن القَبْطُرْنة السابق الذكر مع الوزير أبي الحسين ابن سراج بلقاء ذي الوزارتين أبي الحسن ابن اليَسَع القائد [2] والمشي إليه ، والنزول عليه ، تنويهاً لمقدمه [3] ، وتنبيهاً على حظوته لديه وتقدمه ، فصارا إلى بابه ، فوجداه مقفراً من حُجّابه ، فاستغربا خُلُوّه من خوَل ، وظنّ كلٌّ واحد منهما وتأوّل ، ثم أجمعا على قَرْع الباب ، ورَفْع ذلك الارتياب ، فخرج وَهُو دهِش ، وأشار إليهما بالتحيّة ويَدُه ترتعش ، وأنزلهما خَجِلاً ، ومشى بين أيديهما عَجِلاً ، وأشار إلى شَخْص فتوارى بالحجاب ، وبارى الريحَ سرعةً في الاحتجاب ، فقعدا ومُقْلة الخِشْف ، ترمق من خلال السَّجْف ، فانصرفا عنه ، وعزَما أن يكتبا إليه بما فهما منه ، فكتبا إليه :

سَمِعْنا خَشْفَةَ الخِشْفِ　　وشِمْنا طَرْفَةَ الطَّرْفِ
وصَدَّقْنـا ولم نَقْطع　　وكذَّبْنا ولم نَنْفِ
وأغْضَيْنـا لإجـلالِـ　　كَ عن أكرومةِ الظَّرْفِ
ولم تُنْصِف وقد جِئْنا　　كَ ما نَنْهَضُ من ضَعْفِ
وكان الحكم [4] أن تَحْمِـ　　لَ أو تُرْدِفَ في الرِّدْفِ

---

١ انظر القلائد : ١٦٨ .
٢ أهله بنو اليسع كانوا أعيان حصن قولية من عمل بسطة ، وكان الأمير أبو الحسن يتولى مرسية للمعتمد بن عباد فثار عليه أهلها وخلعوه ، ووصفه الفتح بأنه كان صاحب بطالة وراحة (انظر ترجمته في القلائد : ١٦٧ والمغرب ٢ : ٨٧ والحلة السيراء ٢ : ١٧٢) .
٣ ك : بمقدمه .
٤ دوزي : الحق .

فراجعهما في الحين[1] بقطعة منها :

أيا أسفي على حالٍ سُلبتُ[2] بها من الظرفِ
ويا لهفي على جهلي بصنفٍ كان من صنفِ[3]

انتهى . ولأهل الأندلس في مغاني الأنس الحسان ، ما لا يفي به لسان .

* * *

[٣ — من ترجمة ابن حسداي]

وقال الفتح في ترجمة الوزير أبي الفضل بن حسداي ، بعد كلام ، ما صورته[4] : فمنها هذه القطعة التي أطلعها نيِّرة ، وترك الألباب بها متحيرة ، في يوم كان عند المقتدر بالله مع علية ، قد اتخذوا المجد حلية ، والأملُ قد سفر لهم عن مُحيّاه ، وعبق لهم عن ريّاه ، فصافحه الكل منهم وحيّاه ، وشمس الراح ، دائرة على فلك الراح ، والملك ينشر فضله ، وينثر وابله وطلّه ، يُسْدي العلاء ، ويهب الغنى والغناء ، فصدحت الغواني ، وأفصحت المثالث والمثاني ، بما استنزل من مرقب الوقار ، وسرى في النفوس مسرى العُقار :

تورِيدُ خدِّكَ للأحداق لذّاتُ عليه من عنبر الأصداغ لاماتُ
نيرانُ هجركَ للعُشّاق نارُ لظًى لكنّ وصْلَكَ إن واصلتَ جنّاتُ
كأنّما الراحُ والراحاتُ تحملها بُدُورُ تِمٍّ وأيْدي الشَّرْبِ هالاتُ
حُشاشةٌ ما تركْنا الماء يقتُلُها إلا لتحْيا بها منّا حُشاشاتُ

---

١ في نسخة : فراجعهما أبو الحسن .
٢ دوزي : سلت .
٣ في ق ط : بنصف كان من نصف ؛ ج : لضيف كان من ضيف .
٤ القلائد : ١٨٣ .

قد كان في كأسها مِنْ قَبْلِها ثِقَلٌ ... فخفَّ إذ مُلِئَتْ منها الزُّجاجاتُ
عَهْدٌ لِلُبْنَى تقاضَتْهُ الأماناتُ ... بانَتْ وما قُضِيت منها لُبَاناتُ
يُدْني التوهُّمُ للمشتاق مُنْتَزِحاً ... من الأمور ، وفي الأوهامِ راحاتُ
تُقْضى عِداتٌ إذا هبَّ[1] الكرى ، وإذا ... هبَّ النسيمُ فقد تُهْدى تَحيّاتُ
زُورٌ يُعَلِّل قلبُ المُسْتهام بِهِ ... دَهراً، وقد بَقِيَتْ في النفس حاجاتُ
لعلَّ عَتْبَ اللّيالي أن يَعُودَ إلى ... عُتْبى فتُبْلِغَ أوْطارٌ ولذّاتُ
حتّى نَفُوزَ بما جادَ الخيالُ بِهِ ... فرُبما صَدَقَتْ تلكَ المَناماتُ

ولما أعرس المستعينُ بالله[2] ببنت الوزير الأجلِّ أبي بكر بن عبد العزيز[3] احتفل أبوه المؤتمن في ذلك احتفالاً شَهَرَه ، وأبدع فيه إبداعاً راق مَنْ حضره وبَهَرَه ، فإنّه أحضر فيه من الآلات المبتدعة ، والأدوات المخترعة ، ما بهَرَ الألباب ، وقَطَع دون معرفتها الأسباب ، واستدعى إليه جميع أعيان الأندلس ، مِنْ دانٍ وقاص ، ومُطيع وعاص ، فأتَوْه مسرعين ، ولبّوه متبرعين ، وكانَ مُديرَ تلك الآراء ومُدَبِّرَها ، ومنشىء مخاطباتها ومُحَبِّرَها ، الوزير الكاتب أبو الفضل ، وصدرت عنه في ذلك الوقت كتب ظهر إعجازُها ، وبهر اقتضابها وإيجازها ، فمن ذلك ما خاطب به صاحب المظالم أبا عبد الرحمن بن طاهر[4] :

---

١ القلائد : عاد .
٢ المستعين بالله : أحمد بن محمد بن سليمان بن هود ، تولى الحكم بعد أبيه المؤتمن محمد بن المقتدر أحمد سنة ٤٧٨ وظل في الحكم حتّى سنة ٥٠١ ، ولم يكن ممن نزعه يوسف بن تاشفين عن الحكم من أمراء الطوائف .
٣ أبو بكر بن عبد العزيز كان وزيراً ببلنسية للمظفر عبد الملك بن المنصور عبد العزيز بن الناصر العامري (انظر ترجمته في القلائد : ١٦٣ وأعمال الأعلام : ٢٠٢) .
٤ أبو عبد الرحمن بن طاهر، محمد بن أحمد بن إسحاق بن طاهر : قام بأمر مرسية حيناً حتّى ثار عليه أهلها واستغاثوا بالمعتمد بن عباد فأرسل إليه ابن عمار فأخذها منه وعندئذ انحاز ابن طاهر إلى بلنسية وظل فيها حتّى توفي سنة ٥٠٧ هـ . (انظر ترجمته في القلائد : ٥٦ والذخيرة – القسم الثالث : ٨ والمغرب ٢ : ٢٤٧ وأعمال الأعلام : ٢٠١) . وفي ط ج : أبا عبد الله ابن طاهر .

علّك أعزّك الله[1] في طيّ الجوانح ثابتٌ وإن نزحت الدار ، وعيانُكَ في أحناء الضلوع بادٍ وإن شحَطَ المزار ، فالنفس فائزة منك بتمثّل الخاطر بأوفر الحظ ، والعين نازعة إلى أن تمتع من لقائك بظَفَر اللحظ ، فلا عائدة أسبغُ بُرْدا ، ولا موهبة أسْوَغُ وِرْدا ، من تفضلك بالخفوف[2] إلى مأنسٍ يتم بمشاهدتك التئامُه ، ويتصل بمحاضرتك انتظامُه ، ولك فضل الإجمال ، بالإمتاع من ذلك بأعظم الآمال ، وأنا أعزّك الله على شَرَف سُؤددك حاكم ، وعلى مَشْرَع سنائك حائم ، وحَسْبي ما تتحقّقه من نزاعي وتشوّقي ، وتتيقنه من تطلعي وتتوّقي ، وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة ، واعترض الاقتراح باستحباب[3] الصلة ، وأنت وَصَلَ الله سَعْدَكَ بسَماحة شيمك ، وبارع كرمك ، تُنْشيء للمؤانسة عهدا ، وتُوري بالمكارمة زَنْدا ، وتَقْتَضي بالمشاركة شكراً حافلاً وحمدا ، لا زلتَ مهنّاً بالسعود المقبلة ، مُسَوّغاً اجتلاء غُرَرِ الأماني المتهللة ، بمنّه ، انتهى .

ثم قال بعد هذا بيسير ، ما نصّه[4] : وركب المستعين بالله يوماً نهرَ سَرَقُسْطة يريد طِرَادَ لذته ، وارتياد نزهته ، وافتقاد أحد حصونه المنتظمة بلَبّته ، واجتمع له من أصحابه ، من اختصه لاستصحابه ، وفيهم أبو الفضل مشاهداً لانفراجهم ، سالكاً لمنهاجهم ، والمستعين قد أحضر من آلات إيناسه ، وأظهر من أنواع ذلك وأجناسه ، ما رَاقَ مَنْ حضر ، وفاق حسنُه الروضَ الأنضر ، والزوارق قد حفّت به ، والتفّت بجوانبه ، ونغماتُ الأوتار تحبس السائر عن عَدْوه ، وتخرس الطائر المُفْصِح بشَدْوه ، السمك تثيرها المكايد ، وتغوصُ إليها المصايد ، فتبرز منها للعين ، قُضْبان درٍّ أو سَبائك لُجَيْن ، والراحُ لا

---

١ ق : نصرك الله .

٢ ك : بالحوق .

٣ القلائد : الانتزاح بارتقاب .

٤ القلائد : ١٨٥ .

يطمس لها لمع ، ولا يبخس منها بصر ولا سمع ، والدهرُ قد غضت صروفُه ، واقتص من نكره معروفه ، فقال :

لله يَوْمٌ أنيقٌ واضحُ الغُرَرِ ... مُفَضَّضٌ مُذْهَبُ الآصال والبُكَرِ
كأنّما الدهرُ لمّا ساء أعتَبَنا ... فيه بعُتْبى وأبْدى صَفْحَ مُعْتَذِرِ
نسيرُ في زَوْرَقٍ حفَّ السَّفِينُ به ... من جانبيه بمنظومٍ ومُنْتَثِرِ
مُدَّ الشراعُ بهِ نشراً على مَلِكٍ ... بَذَّ الأوائلَ في أيّامهِ الأُخَرِ
هو الإمام الهمام المستعينُ حوى ... علياء مؤتمن عن هَدْيِ مُقْتَدِرِ
تحوي السفينةُ مِنْهُ آيةً عجباً ... بحرٌ تجمّع حتى صار في نَهَرِ
تُصاد من قَعْرِه النينانُ مُصْعَدة ... صيداً كما ظفر الغوّاصُ بالدُّرَرِ
وللنّدامى به عَبٌّ ومُرْتَشَفٌ ... كالريق يَعْذُبُ في وِرْدٍ وفي صدَرِ
والشَّرْبُ في مدح مولًى[1] خلقُه زهَرٌ ... يَذْكُو وغرّتُه أبهى من القمرِ

* * *

[٤ — من ترجمة ابن السيد]

وقال في ترجمة العلامة الكبير ، الأستاذ أبي محمد عبد الله بن السِّيد البطليوسي شارح أدب الكتاب[2] وسقْط الزَّند وغيرهما ، ما صورته[3] : أخبرني أنّه حضر مع المأمون بن ذي النون في مجلس الناعورة بالمُنية التي تطمح إليها المُنى ، ومرْآها هو المقترح والمتمنى ، والمأمون قد احتَبى ، وأفاض الحُبا ، والمجلسُ يروق كالشمس في أفُقِه ، والبدر [كالتاج][4] في مَفْرقه ، والنَّوْر عبِق ، وعلى ماء النهر مُصْطبح ومُغْتَبِق ، والدولاب يئنُّ كناقة إثر الحُوار ، أو كثَكْلى من حرّ الأوار ، والجوّ قد عَنْبرَتْه أنواؤه ، والروض قد رَشّته

١ القلائد : في ود مولى .
٢ ك : أدب الكاتب .
٣ القلائد : ١٩٣ .
٤ زيادة من القلائد .

أنداؤه ، والأُسْد قد فَغَرَت أفواهها ، ومجت أمواهها ، فقال :

يا مَنْظَراً إنْ نَظَرْتُ بَهْجَتَه أذْكَرَني حُسْنَ جَنَّة الخُلْد
تُرْبَةُ مسْكٍ ، وجَوُّ عَنْبَرَةٍ ، وغَيْمُ ندّ ، وطشُّ ما وَرْد
والماء كاللازَوَرْدِ قد نَظَمَتْ فيهِ اللآلي فَوَاغِرُ الأسْد
كأنّما جائلُ الحباب بـه يَلْعَبُ في جانبيه بالنَّرْد
تَرَاهُ يَزْهُو[1] إذا يحلُّ به الـ ـمأمونُ زَهْوَ الفَتاة بالعِقْد
تَخالـه إنْ بَدا بهِ قَمَراً تِمّاً بَدا في مطالع السّعْد[2]
كأنّمـا أُلْبِسَتْ حَدائِقُهُ ما حازَ من شيمةٍ ومن مَجْد
كأنّمـا جادَهـا فَرَوَّضَها بوابلٍ من يمينه رَغْد
لا زَالَ في رِفْعَةٍ[3] مُضاعفَةٍ متمّمَ الرِّفْد وَارِيَ الزَّنْد

وقال في وصف هذا المجلس بعينه ، في الكتاب الذي أفرده لترجمة ابن السِّيد ، ما صورته[4] : فمن ذلك أنّه حضر مع القادر بالله بنَ ذي النون بمجلس الناعورة بطُلَيْطلة في المنية المتناهية البهاء والإشراق ، المباهية لزَوْراء العراق ، التي ينفح شَذَاها العَطِر ، ويَكاد من الغَضارة يُمْطر ، والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوَقار وارْتَداه ، وحكّم العُقارَ في جوده ونَداه ، والمجلسُ يشرق كالشمس في الحمل ، ومن حواه[5] يبتهج كالنفس عند منال الأمل ، والزهر عبِق ، وعلى ماء النهر مُصْطبِح ومغتبِق ، والدولابُ يئنّ كناقة إثر حُوار ، إلى آخر ما سبق .

---

١ ط ج : يزهى .
٢ قبل هذا البيت في القلائد : «ومنها» .
٣ ق ط ج : في عزة .
٤ هذا التأليف الذي أفرده الفتح لابن السيد أورده المقري بجملته في أزهار الرياض ٣ : ١٠٣ والنص الوارد هنا ثابت في الأزهار ص : ١٠٧ .
٥ ط : حماه .

وقال ابن ظافر[1] في وصف هذا المجلس حاذياً حذو الفتح ، ما صورته : حضر الأستاذ أبو محمد ابن السيِّد عند المأمون ابن ذي النون في بعض منتزهاته ، في وقت[2] طاب نَعيمُه ، وسَرَت بالسعود نجومُه ، والروض قد أجاد وَشْيَه راقمه ، والماء قد جرَت بين الأعشاب أراقمه ، وثمَّ بركة مملوّة ، كأنّها مرآة مجلوّة ، قد اتخذت سباعُ الصُّفْر بشاطئها غاباً ، ومَجّت بها من سائغ الماء لُعاباً ، فكأنّها آساد عيْن ، أدْلَعَتْ ألسنة من لُجين ، وهي لا تزال تقذف الماء ولا تَفتَر ، وتنظم لآلي الحباب بعدما تنثر ، فأمره بوصف ذلك الموضع ، الذي تَخِدُ[3] إليه ركائبُ القلوب وتُوضِع ، فقال بديهاً «يا منظراً . . . إلخ » ، انتهى .

ثم قال الفتح في هذا التصنيف بعد كلام في المذكور ، ما نصّه : وما أبدع قوله في وصف الراح ، والحضّ على النَّبذ للهموم والاطّراح ، بمُعاطاة كاسها ، وموالاة إيناسها[4] ، ومُعاقرة دِنانها ، واهتصار ثمار الفُتُوّة وأفنانها[5] ، والإعراض عن الأيّام وأنكادها ، والجَرْي في مَيْدان الصَّبْوة إلى أبعد آمادها :

سَلِّ الهُمومَ إذا نَبا زَمَن ... بمُدامة صَفْراء كالذَّهبِ
مُزِجتْ فمن دُرٍّ على ذَهبٍ ... طافٍ ومن حَبَبٍ على لَهَبِ
وكأنَّ ساقيَها يُثيرُ شَذاً ... مِسكٍ لدى الأقوام مُنْتهَبِ

ولله هو فقد ندب إلى المندوب ، وذهب إلى مداواة القلوب من الندوب ، وإبرائها من الآلام ، وإهدائها كلَّ تحيّة وسلام ، وإبهاجها بآصال وبُكَر ، وعلاجها من هموم وفِكَر ، في زمن حَلْيِ عاطلُه ، وجُلّيَ في أحسن الصور

١ في ك ق ط ج : وقال الفضل ؛ وصوابه ما أثبت ، فهذا النص في بدائع البدائه ٢ : ٤٠ .
٢ البدائع : يوم .
٣ البدائع : تخب .
٤ أزهار الرياض : بمعاطاة كؤوسها ، وموالاة تأنيسها .
٥ ك : من أفنانها .

باطلُه ، ونفقت مُحالاته ، وطبقت أرضه وسماءهُ استحالاته ، فليثه كأسد ، وذئبه مُستأسد ، وحفّاثه تنمّر[1] ، وبغاثه قد استنسر ، فلا استراحة إلا في مُعاطاة حُمَيّا ، ومواخاة وسيم المحيّا ، وقد كان ابن عمار ذَهب مذهبه ، وفضّضه بالإبداع وذهّبه ، حين دخل سَرَقُسْطة ورأى غَباوة أهلها ، وتكاثُفَ جهلها ، وشاهد منهم من لا يعلم معنى ولا فصْلاً ، وواصَل من لا يعرف قَطْعاً ولا وصلاً ، فأقبل على راحِه يتعاطاها ، وعكف عليها ما تَعدّاها ولا تخطّاها ، حتى بلغه أنهمَ نقموا مُعاقرته العُقار ، وجالت ألسنتُهم في توبيخه مَجالَ ذي الفَقار ، فقال :

نقمتم علَيَّ الرّاحَ أُدْمِنُ شربها   وقلتم فتًى راحٍ وليس فتى مجدِ
ومن ذا الذي قادَ الجيادَ إلى الوغى   سِوايَ ومن أعطى كثيراً ولم يُكْدِ ؟
فديتكمُ لم تفهموا السّرّ ، إنّما   قَلَيْتكمُ جَهْدي فأبعدتكم جَهْدي

ودعي ابن السِّيد ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأنس والطرب ، وقرع فيه السرورُ نبعه بالغَرَب ، ولاحت نجوم أكواسه ، وفاح نسيم رَنْدِه وآسه ، وأبدت صدور أباريقه أسرارها ، وضمّت عليه المجالس أزرارها ، والراح يديرها أهيف أوطَف ، والأماني تُجْنَى وتُقْطَف ، فقال :

يا رُبَّ لَيْلٍ قد هتكْتَ حجابَهُ   بمدامــةٍ وقّــادة كالكوكبِ
يَسْعى بها أحْوى الجُفُونِ كأنّها   من خدّهِ ورُضاب فيه الأشْنَبِ
بدرانِ بدرٌ قد أمِنْتَ غروبَه   يَسْعى ببدر جانح للمغربِ
فإذا نعِمتَ برَشْفِ بدر غاربٍ   فانعم برشفةِ طالعٍ لم يغرُبِ

.. ..

[1] ق ك ط ج ودوزي : وأضفاثه تنسر ، وفي أزهار الرياض : وأحفاشه ، وكل ذلك خطأ ؛ والحفاث تحدث عنه الجاحظ في الحيوان (٤ : ١٤٧) فقال: «وفي البادية حية يقال لها الحفاث... ولها وعيد منكر ونفخ وإظهار للصولة وليس وراء ذلك شيء .»

حتى تَرى زُهرَ النّجوم كأنّها حولَ المجرَّة رَبْرَبٌ في مشربِ
والليلُ مُنْحَفِزٌ[1] يطير غرابه والصّبحُ يطرده ببازٍ أشْهبِ

ثم قال الفتح ، بعد كلام كثير ، ما صورته[2] : ودخل – يعني ابن السِّيد – سَرَقُسْطة أيام المستعين وهي جنّة الدنيا ، وفتنة المحْيا ، ومنتهى الوصف ، وموقف السرور والقَصْف ، ملك نمير البشاشة ، كثير المشاشة ، وملك أبهجُ الفِناء ، أرِجُ الأرجاء ، يروق المجتلي ، ويفوق النجم المعتلي ، وحضرة منسابة الماء ، منجابة السماء ، يبسم زهرها ، وينساب نهرها ، وتتفتح خمائلها ، وتتضوع صَبَاها وشمائلها ، والحوادث لا تعترّضها ، والكوارث لا تقرضها[3] ، ونازلها من عرس إلى موسم ، وآملها متصل بالأماني ومُتّسم ، فنزل منها في مثل الخورنق والسدير ، وتصرف فيها بين روضة وغدير ، فلم يخف على المستعين احتلاله[4] ، ولم تخف لديه خلاله ، فذكره معلماً به ومعرّفاً ، وأحضره مُنَوِّهاً به ومشرّفاً ، وقد كان فرّ من ابن رَزِين ، فرار السرور من نفس الحزين ، وخلص من اعتقاله ، خلوص السيف من صقاله ، فقال يمدحه[5] :

هُمُ سلبوني حسن صبريَ إذ بانوا بأقمار أطواق مطالعُها بانُ
لئن غادروني باللوى إنّ مهجتي مسايرة أظعانَهُمْ حيثما كانوا
سقى عهدَهم بالخَيفِ عهدُ غمائم ينازعها نهرٌ من الدمع هتّانُ
أأحْبابَنا هَلْ ذلكَ العَهْدُ راجعٌ وهل لي عَنكم آخِرَ الدهر سُلوانُ
ولي مقلةٌ عَبْرَى وبين جوانحي فؤادٌ إلى لُقْياكم الدهْرَ حنّانُ
تنكرتِ الدنيا لنا بعد بُعْدِكم وحفّتْ بنا من معضِل الخطب ألوانُ

. . . . . .

١ ك : منفجر .
٢ أزهار الرياض ٣ : ١٠٩
٣ ك : تفترضها .
٤ الأزهار : اختلاله ؛ ج : اجلاله .
٥ انظر القلائد أيضاً : ١٩٩ .

أناخت بنا في أرض شَنْتَمَرِيَّةٍ ... هواجسُ ظَنٍّ خان والظنُّ خوّانُ
وشِمْنا بروقاً للمواعيد أتعبت ... نواظرنا دهراً ولم يَهْمِ تَهْتانُ[1]
فسِرْنا وما نَلْوي على متعذر ... إذا وطنٌ أقصاك آوتك أوطانُ
ولا زاد إلاّ ما انتشته من الصَّبا ... أنوفٌ وخازته من الماء أجفانُ
رحلنا سَوامَ الحمد[2] عنها لغيرها ... فلا ماؤها صَدّاً ولا النبت سعدانُ[3]
إلى ملك حاباه بالمجد يوسف ... وشاد له البيتَ الرفيعَ سليمانُ
إلى مُسْتَعين بالإله مؤيَّد ، ... له النصر حزبٌ والمقادير أعوانُ
جَفَتْنا بلا جرم كأنّ مودّةً ... ثنى نحونا منها الأعنّةَ شَنْآنُ
ولو لم تُفِدْ منّا سوى الشعر وحده ... لحقّ لنا برٌّ عليه وإحسانُ
فكيفَ ولم نجعل بها الشعْر مكسباً ... فيوجبَ للمُكْدي جفاءً وحرمانُ
ولا نحن ممن يرتضي الشعرَ خُطّةً ... وإن قصُرت عن شأونا فيه أعيانُ
ومن أوْهَمَته غيرَ ذاك ظنونُه ... فثَمَّ مجال للمقال وميْدانُ
خليليَّ من يُعْدي على زمن له ... إذا ما قضى حَيْفٌ عليَّ وعدوانُ
وهل ريء من قبلي غريقُ مدامعٍ ... يفيض بعينيه الحيا وهْو حرّانُ
وهل طرَفَتْ عين لمجدٍ ولم يكُنْ ... لها مقلة من آل هُودٍ وإنسانُ
بوجه ابن هودٍ كلما أعرض الورى ... صحيفة إقبال لها البِشر عُنْوانُ
فتى المجد في بُرْدَيْه بَدرٌ وضيغم ... وبحرٌ وقدسٌ ذو الهضاب وثهلانُ
من النفر الشُّمّ الذين أكفُّهُمْ ... غيوثٌ ولكنّ الخواطرَ نيرانُ
ليوثُ شرًى ما زال منهم لدى الوغى ... هِزَبْرٌ بيُمْناه من السُّمْرِ ثُعبانُ
وهل فوق ما قد شاد مُقْتَدِرٌ لهم ... ومؤتمن بالله لقياه إيمانُ
ألا ليس فخر في الورى غير فخرَهم ... وإلاّ فإنّ الفخرَ زُور وبُهْتانُ

---

١ ك والأزهار : هتان .
٢ ك : الحمر ؛ ط : الحمر.
٣ إشارة إلى المثل : ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان .

فيا مُستعيناً مُستعاناً[1] لمن نبا به وطن يوماً وعَضَّتْه أزمانُ
كسوتك من نظمي قلادة مَفْخَر يباهي بها جيدُ الزمان[2] ويزْدانُ
وإن قصُرَت عمَّا لبست فرُبَّما تجاور[3] درٌّ في النظام ومَرْجانُ
معانٍ حكت غنجَ الحسان كأنّني بهن حبيب أو بَطَلْيوسُ بغدان
إذا غرست كفّاك غرس مكارم بأرضيَ أجْنَتْكَ الثنا منه أغصانُ

وقال في وصف مجلس[4] لأبي عيسى ابن لبُّون[5] أحضر إليه ابنَ السِّيد منوهاً بقدره، ما صورته[6]: وأحضرهُ إلى مجلس نام عنه الدهر وغفل، وقام لفرط أنسه واحتفل، قد بانت صُرُوفه، ودنت من الزائر قطوفه، وقال: هلمَّ بنا إلى الاجتماع بمذهبك، والاستمتاع بما شئته ببراعة[7] أدبك، فأقاموا يُعْملون كاسهم، ويصلون إيناسهم، وباتوا ليلهم[8] ما طرقهم نوم، ولا عدَاهم عن طيب اللذّات سوْم.

ثم قال بعد كلام كثير[9]: وحضر ابن السِّيد عند عبد الرحمن الظافر بن ذي النون مجلساً رفعت فيه المنى لواءها، وخلعت عليه[10] أضواءها، وزفّتْ

---

١ ك: مستغاثاً.
٢ ك: جيد المعاني؛ ط والأزهار: جيد المعالي.
٣ ط: تجاوز.
٤ ط ج ق: في وصفه مجلساً.
٥ أبو عيسى ابن لبون: هو لبون بن عبد العزيز بن لبون من أصحاب القادر بن ذي النون، رأس بمربيطر من أعمال بلنسية ثم تخلى عنها لأبي مروان بن رزين، وكان معدوداً في الأجواد موصوفاً بتجويد القريض (انظر ترجمته في الحلة ٢: ١٦٧ والقلائد: ٩٩ والمغرب ٢: ٣٧٦ والذخيرة – القسم الثالث: ٣٣).
٦ أزهار الرياض ٣: ١٢١.
٧ ك: من براعة.
٨ ك: ليلتهم.
٩ أزهار الرياض ٣: ١٢٧.
١٠ زاد في الأزهار: الشمس.

إليه المسرات أبكارها ، وفارقت إليه الطير أوكارها ، فقال يصفه :

[ومجلس جمّ الملاهي أزْهَرا ... ألذّ في الأجفان من طعم الكرى][1]
لم تَرَ عيني مثله ولا تَرَى ... أنْفَسَ في نفسي وأبهى مَنْظرا
إذا تردّى وشيَه المصوَّرا ... من حَوْك صَنعاء وحَوْك عبْقرا
ونسج قرْقُوب ونسج تُسْتَرا[2] ... خِلْتَ الربيع الطلق فيه نَوَّرا
كأنّما الإبريقُ حين قرْقَرا ... قَدْ أمَّ لثم الكأس حين فَغَرا
وَحشيّة ظلّت تناغي جُؤذَرَا ... تُرْضِعه الدَّرَّ ويَرْنو حَذِرا
كأنّما مجَّ عقيقاً أحمَرا ... أوْ فتّ من ريّاه مسْكاً أذْفرا
أو عابد الرحمن يَوْماً ذُكرا ... فنَمّ مسكاً ذكْرُه وعَنْبَرا
الظافر الملك الذي مَنْ ظفرا ... بقربه نال العَلاء الأكْبرا
لو أنّ كسْرَى راءهُ أو قَيْصَرَا ... هَلّلَ إكباراً لهُ وكَبّرا
تُبْدي سماء الملك مِنهُ قمرا ... إذا حجابُ المجد عنْهُ سَفَرا
يا أيها المُنْضي المطايا بالسُّرى ... تبغي غمامَ المكرمات الممطرا

* * *

[٥ – من ترجمة ابن العطار]

وقال الفتح في ترجمة الأديب أبي القاسم ابن العطار ، ما صورته[3] :

هو أحد أدباء إشبيلية ونحاتّها ، العامرين لأرجاء المعارف وساحاتها ، لولا مواصلة راحاته ، وتعطيل بُكَرِه ورَوْحاته ، ومُوالاته للفُرَج ، ومغالاته في عَرْف للأنس أو أرج[4] ، لا يُعَرّجُ إلا على ضفة نهر ، ولا يلهج[5] إلا بقطعة

١ زيادة من أزهار الرياض .
٢ تستر : مدينة بخوزستان ، وقرقوب : قرية من أعمالها .
٣ القلائد : ٢٨٤ (قلت: وانظر ترجمة أبي القاسم ابن العطار في المغرب ١ : ٢٥٤) .
٤ ك : عرف الأنس والأرج .
٥ ك : ولا يبتهج .

زهر ، ولا يحفل بملام ، ولا يتنقل [1] إلا في طاعة غلام ، ناهيك من رجل مخلوع العنان في ميدان الصبابة ، مُغرم بالحسان غَرَامَ يزيد بحَبابة ، لا تراه إلا في ذمّة انهماك ، ولا تلقاه إلا في لُمّةِ انهتاك ، رافعاً لرايات الهوَى ، فارعاً لثنيّات الجوى ، لا يُقْفِرُ فؤاده من كلف ، ولا يبيت إلاّ رَهْن تلف ، أكثر خلق الله تعالى عَلاقة ، وأحضرهم لمشهد خَلاقة [2] ، مع جزالةٍ تُحرك السكون ، وتُضحك الطير في الوُكُون ، وقد أثبتُّ له ما يرتجله [3] في أوقات أُنْسه وساعاته ، وينفُث [4] به أثناء زَفَراته ولَوْعاته ، فمن ذلك ما قاله في يوم ركب فيه النهر على عادات انكشافه ، وارتضاعه لثغور اللذّات وارتشافه [5] :

عَبَرْنا سماء النهر والجوُّ مُشْرِقٌ ... وليس لنا إلا الحبابَ نُجُومُ
وقد ألْبَسَتْه الأيكُ بُرْدَ ظِلالها ... وللشمس في تلك البرود رُقُومُ

وله فيه :

مَرَرْنا بشاطي النهر بينَ حَدائقٍ ... بها حَدَقُ الأزهارِ تَستوقف الحدَقْ
وقد نَسَجَتْ كفُّ النسيمِ مُفاضةً ... عليه وما غيرُ الحبابِ لها حَلَقْ

وله :

هبّتِ الريحُ بالعشيّ فحاكتْ ... زَرَداً للغَدير ناهيكَ جُنَّهْ
وانجلى البدرُ بعد هَدْءٍ فصاغتْ [6] ... كفُّهُ للقِتالِ مِنْهُ أسِنَّهْ

---

١ القلائد : ينتقل عن المدام ، وفي ق ج ط : لم يحفل بملام ولم يتنقل إلا . . . إلخ .
٢ ج : خلافة ؛ وقد أثبتها دوزي في ملحق المعاجم « خلاقة » عن القلائد ، وقال : كأنها تعني (Réunion de debauchés) .
٣ هذه رواية ق ج ط والقلائد ؛ وفي ك : ما ارتجله .
٤ هذه رواية ج ط ق والقلائد ؛ وفي ك : ونفث .
٥ انظرهما أيضاً في المغرب ١ : ٢٥٤ .
٦ ق ط ج : بعد هذا فحاكت .

وقوله[1] :

لله بهجةُ مَنْزَهٍ ضَرَبَتْ بِهِ فوقَ الغديرِ رُوَاقَهَا الأنْشامُ
فمعَ الأصيلِ النهرُ دِرْعٌ سابغٌ ومعَ الضُّحى يلتاحُ منه حُسَامُ

وله :

ما كالعَشيّة في رُواء جمالها وبُلُوغِ نَفْسي مُنْتَهى آمالها
ما شِئتُ شمس الأرض مُشْرِقةُ السّنا والشمسُ قد شدّت مَطِيَّ رحالها
في حَيْثُ تَنْسابُ المياهُ أراقماً وتُعيرُكَ الأفياء بُرْدَ ظِلالها

وله :

لله حُسْنُ حديقة بَسَطت لنا منها النفوسَ سوالفٌ ومَعاطِفُ
تختالُ في حُلَلِ الربيعِ وحَلْيِهِ وَمِنَ الربيعِ قلائدٌ ومَطارِفُ

* * *

[٦ – من ترجمة ابن عمّار]

وقال الفتح في ترجمة ابن عمار[2] : أخبرني ذو الوزارتين الأجلّ أبو المطرّف ابن عبد العزيز أنّه حضر معه عند المؤتمن في يوم جادت فيه السماءُ بهَطْلها ، وأتبعت وَبْلها بطَلّها ، وأعْقَبَ[3] رَعْدَها برقُها ، واتسكب دِراكاً ودَقُها ، والأزهار قد تجلّت من كِمامها ، وتحلّت بدُرّ غمامها ، والأشجار قد جُلِي صَداها ، وتوشّحت بنَداها ، وأكؤس الراح كأنّها كواكب تتوقّد ، تديرُها أناملُ تكاد من اللطافة تُعْقَد ، إذا بفتًى من فتيان المؤتمن أخرس لا يُفصح ،

---

١ هذه الأبيات متقدمة في القلائد على القطعتين اللتين قبلها ، وانظر المغرب ١ : ٢٥٤ .
٢ القلائد : ٨٥ .
٣ ق ج ط : وارتقب .

ومستعجم لا يبين ولا يوضح ، متنمّر تَنَمُّرَ الليث ، متشمّر كالبطل الفارس عند الغَيْثِ[1] ، وقد أفاض على نفسه دِرْعاً ، تضيق بها الأسنّة ذَرْعاً ، وهو يريد استشارة المؤتمن في التوجّه[2] إلى موضع بَعَثَه إليه ووجّهه ، وكلٌّ من صده عنه نهره ونَجَهَه ، حتى وصل إلى مكان انفراده ، ووقف بإزاء وساده[3] ، فلمّا وقعت عينُ ابن عمّار عليه ، أشار بيده إليه ، وقرَّبه واستدناه ، وضمّه إليه كأنّه تبنّاه ، وحدّ[4] أن يخلع عنه ذلك الغدير ، وأن يكون هو الساقي والمُدير ، فأمره المؤتمن بخلعه ، وطاعة أمره وسمعه ، فنَضاه عن جسمه ، وقام يسقي على حكمه ورَسْمه ، فلمّا دبت فيه الحميّا ، وشبت غرامَه بهجةُ ذلك المحيّا ، واستنزلته سَوْرة العُقار ، من مرقب الوقار ، قال :

وهَوِيتُهُ يَسْقِي المدام كأنّهُ ... قمرٌ يَدُور بكَوْكب في مجلسِ
متأرِّجُ الحركات تَنْدَى رِيحُهُ ... كالغصن هزَّتْهُ الصَّبا بتنفّسِ
يَسْعَى بكأسٍ في أنامل سَوْسَنٍ ... ويُديرُ أخرَى من محاجر نرجسِ
يا حاملَ السيفِ الطويل نجادُهُ ... ومُصَرِّف الفَرس القصير المحبسِ
إيّاك بادِرَةَ الوَغى من فارسٍ ... خَشِنِ القِناع على عِذار أملسِ
جَهْمٍ وإن حَسَرَ اللثام[5] فإنّما ... كشف[6] الظلام عن النهار المشمسِ
يطغى ويلعبُ في دلالِ عِذارِهِ ... كالمُهر يمرحُ في اللجام المُجرِسِ
سلّم فقد قصف القَنا غصنُ النَقا ... وسَطا بليث الغاب ظبيُ المَكْنِسِ
عنّا بكاسِكَ ، قد كَفَتْنا مُقْلة ... حَوْراء قائمة بسُكر المجلسِ[7]

---

١ القلائد : متشمر تشمر البطل الباسل عند الغيث .
٢ القلائد : في الخروج .
٣ ق ج ط : اساده .
٤ هذه رواية القلائد : وحد ؛ وفي ك : وجد ؛ وفي ق ط ج : وأشار .
٥ دوزي : القناع ؛ ج : حذر اللثام .
٦ بعض أصول القلائد : رفع .
٧ بعض أصول القلائد : الأنفس .

وأورد هذه القصة صاحبُ البدائع بقوله[1] : حضر أبو المطرّف ابن عبد العزيز عند المؤتمن بن هود في يوم أجرى الجوُّ فيه أشْقَرَ بَرْقِهِ ، ورمى بنَبْل[2] وَدْقه ، وتحملت[3] الرياحُ فيه أوقار السحاب على أعناقها ، وتمايلت قاماتُ الأغصان في الحُلل الخضر من أوراقها[4] ، والرياحُ قد أشرقت نجومُها في بروج الراح ، وحاكت شمسُها شمسَ الأفق فتلفعت بغيوم الأقداح ، ومُديرُها قد ذاب ظَرْفاً فكاد يسيل من إهابه ، وأخْجل خدَّها حُسناً فتظلل بعرق حَبابه ، إذا بفتى من فتيان المؤتمن قد أقبل متدرّعاً كالبدر اجْتابَ سحاباً ، والخمر قد اكتست حباباً[5] ، وقد جاء يريد استشارة المؤتمن في الخروج إلى موضع كان عوّل فيه عليه ، وأمره أن يتوجّه إليه ، فحين لمحه ابنُ عمار والسكر قد استحوذ على لبّه ، وبثّ سراياه في ضواحي قلبه[6] ، جَدّ في أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدّلاص ، وأن يجلّي عنه سَهَكه كما يُجلّى الخبثُ عن الخِلاص ، وأن يكون هو الساقي[7] ، فأمره المؤتمن بقبول أمره وامتثاله ، واحتذاء مِثاله ، فحين ظهرت تلك الشمس من حُجُبها ، ورُميت شياطين النفوس من كُميت المدام بشُهُبها ، ارتجل ابنُ عمار « وهويته . . . إلخ » إلا أنّه قال إثر قوله :

---

١ انظر بدائع البداله ٢ : ١٣٣ وسيرد هذا النص في الباب السابع من النفح .

٢ البدائع : ببندق .

٣ البدائع : وحملت .

٤ زاد في البدائع والباب السابع : والأزهار قد تفتحت عيونها والكمائم قد ظهر مكنونها ، والأشجار قد انصقلت بالقطر (بمداوس القطر) ؛ ونشرت ما يفوق ألوان البز ، وبثت ما يعلو أرواح العطر .

٥ بعدها في البدائع والباب السابع : والطاووس انقلب حباباً ، فهو ملك حسناً إلا أنه جسد ، وغزال ليناً إلا أنه (في هيئة) الأسد .

٦ بعدها في البدائع والباب السابع : فأشار إليه وقربه واستبدع ذلك اللباس واستغربه وجد ...

٧ في البدائع والباب السابع : وأن يوفر على ذلك الوفر نعمة جسمه ، ويكون هو الساقي على عادته القديمة ورسمه .

إيّاك بادرةَ الوَغى من فارس

ما صورته :

يضع السنان على العِذار الأملس

ولابن عمار الرائية المشهورة في مدح المعتضد عباد والد المعتمد ، وهي[1] :

أدرِ المدامة[2] فالنسيمُ قد انبرى   والنجمُ قد صرف العِنان عن السُّرى
والصبحُ قد أهدى لنا كافُورَهُ   لمَّا استردَّ الليلُ منّا العَنْبرا
والروض كالحَسْنا كساه زَهْرُهُ   وشْياً وقلّدهُ نَداه جَوْهَرا
أو كالغُلامِ زَها بورْدِ خُدُودِه   خَجَلاً وتاهَ بآسِهِنَّ مُعَذّرا
رَوْضٌ كأنَّ النهرَ فيه مِعْصَمٌ   صافٍ أطَلَّ عَلى رِداء أخضَرَا
وتهزه ريحُ الصَّبا فتخالُهُ   سَيْفَ ابن عَبّادٍ يبدّد عَسْكرا
عَبّادٌ المخضرُّ نائلُ كفّهِ   والجوُّ قد لبِسَ الرداء الأغبرا
مَلِكٌ إذا ازدَحَمَ الملوكُ بمَوْرِدٍ   ونَحاه لا يَرِدُونَ حتى يَصْدُرا
أندى على الأكباد من قَطْرِ الندى   وألذّ في الأجفان من سِنَةِ الكَرى
يختار إذ يَهَبُ الخريدَةَ كاعِباً   والطِّرفَ أجردَ والحسامَ مُجَوْهَرَا
قدّاحُ زَنْدِ المجدِ لا ينفَكّ من   نارِ الوَغى إلاّ إلى نارِ القِرَى
لا خَلْقَ أقرأُ من شِفارِ حُسامه   إن كنتَ شبّهْتَ المواكب أسْطُرا
أيقنتُ أنّي مِنْ ذَرَاه بجنّة   لمّا سقاني من نداه الكَوْثَرَا
وعلمتُ حقّاً أنَّ رَبْعي مُخْصِبٌ   لمّا سألْتُ[3] به الغَمامَ المُمْطِرا
مَنْ لا تُوازِنُهُ الجبالُ إذا احْتَبى   مَنْ لا تُسابقُه الرياحُ إذا جَرَى
ماضٍ وصَدْرُ الرمح يكْهَمُ والظُّبا   تَنْبو وأيدي الخيلِ تعثرُ في الثرى

. . . .

١ انظر القلائد : ٩٦ ومحمد بن عمار لصلاح خالص ص : ١٨٩ ولم تورد منها ج إلا بضعة أبيات وسائرها بياض .

٢ ج : الزجاجة .

٣ القلائد : أسال .

قادَ الكتائبَ كالكواكبِ فوقَهُمْ … مِنْ لأمِهِمْ مثلُ السّحابِ كنَهْوَرا[1]
مِنْ كلِّ أبْيضَ قد تقلّدَ أبْيضاً … عَضْباً وأسمرَ قَدْ تقلّدَ أسْمَرا
ملكٌ يَرُوقُكَ خَلْقُهُ أو خُلْقُهُ … كالرَّوْضِ يَحْسُنُ مَنْظَراً أو مخبرا
أقْسَمْتُ باسْمِ الفضلِ حتى شِمْتُهُ … فرأيْتُهُ في بُرْدتَيْهِ مُصَوَّرا
وجَهِلْتُ مَعْنى الجودِ حتى زُرْتُهُ … فقرأْتُهُ في راحَتَيْهِ مُفسَّرا
فاحَ الثرى مُتَعَطِّراً بثَنائِهِ … حتى حَسِبْنا كلَّ تُرْبٍ عَنْبرا
وتتوَّجَتْ بالزَّهْرِ صُلْعُ هضابه … حتى ظننّا كلَّ هضبٍ قيصرا
هَصَرَتْ يدي غُصْنَ الغنى من كفّه … وجنت به روضَ السّرورِ منوَّرا
حَسْبي على الصُّنْعِ الذي أولاه أن … أسعى بجِدٍّ أو أموتَ فأُعْذَرا
يا أيّها الملكُ الذي حازَ العُلا … وحَباه منهُ بمثل حمديَ أنورا
السيفُ أفصحُ من زيادٍ خطبةً … في الحربِ إن كانت يمينُك منبرا
ما زلتَ تُغني مَنْ عَنا لك راجياً … نَيلاً وتُفْني مَنْ عتا وتَجبّرا
حتى حللتَ من الرياسة مَحْجِراً … رحباً وضمّتْ منك طَرفاً أحورا
شقيَتْ بسيفكَ أمّةٌ لم تعتقدْ … إلاّ اليهودَ وإن تَسَمّتْ بربَرا
أثمرتَ رُمْحكَ من رؤوسِ ملوكهم … لمّا رأيتَ الغصنَ يُعْشَقُ مثمرا
وصبغتَ درعكَ من دماء كُماتِهِمْ … لمّا علمتَ الحسنَ يُلْبَسُ أحمرا
وإليكَها كالروض زارته الصَّبا … وحنا عليه الطَّلُّ حتى نوَّرا
نمّقْتُها وَشْياً بذكركَ مُذْهَباً … وفتقتُها مسكاً بحمدكَ أذفرا
من ذا يُنافحني وذِكرُكَ مَنْدَلٌ … أوردتُهُ من نارِ فكري مِجْمَرا
فلئن وجدتَ نسيمَ مدحيَ عاطراً … فلقد وجدتُ نسيمَ بِرّكَ أعطرا

* * *

١ الكنهور : قطع السحاب .

[٧ — من ترجمة ابن وهبون]

وقال في ترجمة عبدالجليل بن وهْبُون المُرسي[1] : ركب بإشبيلية زورقاً في نهرها الذي لا تدانيه الصَّرَاة ، ولا يضاهيه الفُرَات ، في ليلة تنقبت بظلمتها[2] ، ولم يبدُ وَضَحٌ في دُهْمتها ، وبين أيديهم شمعتان قد انعكس شعاعهما في اللجَّة ، وزاد في تلك البهجة ، فقال :

كأنّما الشَّمْعتانِ إذ سَمَتَا   خَدّا غلامٍ مُحَسَّنِ الغَيَدِ
وفي حَشا النهر من شعاعهما   طريقُ نارِ الهوى إلى كبدي

وكان معه غلام البكري[3] معاطياً للراح ، وجارياً في ميدان ذلك المراح ، فلمّا جاء عبد الجليل بما جاء ، وحلّى[4] للإبداع الجوانبَ والأرجاء ، حسده على ذلك الارتجال ، وقال بينَ البطء والاستعجال :

أعْجِبْ بِمَنْظرِ ليلةٍ ليلاء   تُجنى بها اللذّاتُ فوق الماء
في زورقٍ يزهو بغرّةِ أغيدٍ   يَخْتالُ مثلَ البانةِ الغَيْناء
قَرَنَتْ يداهُ الشمعتين بوجهه   كالبدرِ بين النَّسْر والجوزاء
والتاجَ تحت الماء ضَوْءُ جَبِينِهِ   كالبرق يخفق في غمام سماء

* * *

[٨ — من ترجمة ابن طاهر]

وقال الفتح رحمه الله[5]: دعيتُ يوماً إلى منية المنصور بن أبي عامر ببلنسية ،

---

١ القلائد : ٢٤٢ .
٢ ق ج ط ك : في ظلمتها .
٣ هو أبو الحسن حكم بن محمد غلام أبي عبيد البكري (انظر ترجمته في الذخيرة — القسم الثاني — ٢٢٠ والقلائد : ٢٩٠ وبغية الملتمس ص : ٢٦٥ والمسالك ١١ : ٣٨١ والمغرب ١ : ٣٤٨).
٤ ق ط ج : وحل .
٥ القلائد : ٦٨ .

وهي منتهى الجمال ، ومزهى الصَّبا والشمال ، على وَهْي بنائها ، وسكنى[1] الحوادث برهة بفِنائها[2] ، فوافيتها والصبح قد ألبسها قميصه ، والحسن قد شرح بها عَوِيصه ، وبوسطها مجلس قد تفتّحت للروض أبوابه ، وتوشّحت بالأُزر الذهبية[3] أثوابه ، يخترقه جدول كالحسام المسلول ، وينساب فيه انسياب الأيم في الطُّلول ، وضَفّاتُه بالأدواح محفوفة ، والمجلس يروق كالخرِيدة المزفوفة ، وفيه يقول عليُّ بن أحمد أحد شعرائها ، وقد حلّه مع طائفة من وزرائها :

قم سقِّني[4] والرياضُ لابسةٌ   وَشْياً من النَّوْر حاكه القَطْرُ
في مجلسٍ كالسماء لاحَ بِهِ   مِنْ وجهِ مَنْ قد هَوِيتُهُ بدرُ[5]
والشمس قد عُصْفرت غلائلُها   والأرض تندى ثيابها الخضرُ
والنهرُ مثلُ المجرّ حفّ به   من الندامى كواكبٌ زُهْرُ

فحللت ذلك المجلس وفيه[6] أخدان ، كأنّهم الولدان ، وهم في عيش لَدْن ، كأنّهم في جنّة[7] عَدْن ، فأنخت لديهم ركائبي وعقلتها ، وتقلدت بهم رغائبي واعتقلتها ، وأقمنا نتنعم بحسنه طولَ ذلك اليوم ، ووافى الليل فذُدْنا عن الجفون طروق النوم ، وظللنا بليلة كأن الصبح منها مقدود ، والأغصان تميس كأنّها قُدود ، والمجرّة تتراءى نهراً ، والكواكب تخالها في الجو زهراً ، والثريّا كأنّها راحة تشير ، وعطارد لنا بالطرب بَشير ، فلمّا كان من الغد وافيت الرئيس أبا عبد الرحمن زائراً ، فأفضنا في الحديث إلى أن أفضى بنا إلى ذكر

---

١ القلائد : وسكون .
٢ القلائد : في فنائها .
٣ القلائد : المذهبة .
٤ ك والقلائد : فاسقني .
٥ تأخر هذا البيت عن الذي يليه في القلائد .
٦ ق : وفيهم .
٧ ق : جنات .

منتزهنا بالأمس ، وما لقينا فيه من الأنس ، فقال لي : ما بهجة موضع قد بان قَطينه وذهب ، وسلب الزمان بهجته وانتهب ، وباد فلم يبق إلاّ رسمه ، ومحاه الحدثان فما كاد يلوح وسمه[1] ، عهدي به عندما فرغ من تشييده ، وتُنوهي في تنسيقه وتنضيده ، وقد استدعاني إليه المنصور في يوم[2] حلّت فيه الشمس برج شرفها ، واكتست[3] الأرض بزخرفها ، فحللت به والدوح تميس معاطفه ، والنَّوْر يخجله قاطفه ، والمدام تطلع به وتغرب ، وقد حلّ به قَحْطان ويَعْرُب ، وبين يدي المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع ، ولا يحل غير الفؤاد من مَرْبع ، وهم يديرون رحيقاً ، خلتها في كأسها دُرّاً أو عقيقاً ، فأقمنا والشُّهب تغازلنا ، وكأن الأفلاك منازلنا ، ووهب المنصور في ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفاً من صِلاتٍ متصلات ، وأقطع ضياعاً ، ثم توجع لذلك العهد ، وأفصح بما بين ضلوعه من الوجد ، وقال :

سَقْياً لمنزلة اللّوى وكثيبها إذ لا أرى زمناً كأزماني بها

* * *

[٩ — من رسالة للفتح]

وما أحسن ما كتب به الفتح إلى بعض الملوك يصف نزهة ببعض منتزهات الأندلس المونقة ، ويذكر استضاءته فيها بشموس المسرّة المشرقة ، وهو :

أطال الله سبحانه بقاء ناصر الدولة ، ومحيي الملّة ، الذي حَسُنَ بلقياه العيش ، وتزين بمحياه الجيش ، وراق باسمه الملك ، وجرَتْ بسعده الفُلك ، وأنار به الليل الدامس ، ولاح له الأثر الطامس ، وجرى الدهر لسطوته خائفاً ، وغدا السعد بعقوته طائفاً ، والزمان ببرود علياه ملتحف ، ولثغور نَداه

... ...

١ ق : إلا وسمه .
٢ ك : وقت .
٣ ك : واكتست فيه .

مرتشف ، ولا زال للمجد يتملّكه ، والسعد يحمله فلكه ، أما وقد وافقتني أيّامه أيده الله سبحانه وفاقاً ، ورأيت للبيان عنده نَفاقاً ، فلا بد أن أرسل كتائبه أفواجاً ، وأفيض من بحره أمواجاً ، وأصف ما شاهدته من اقتداره ، وعاينته من حسن إيراده وإصداره ، بمقال أفصح من شكوى المحزون ، وأملح من رياض الحُزُون ، وقد كنت ، أيّده الله تعالى ، كلفاً بالدول وبهائها ، لهجاً بالبلوغ إلى انتهائها ، لأجد دولة أرتضيها ، وحظوة علياء أقتضيها ، فكل مَلِك فاوضته سرّاً وجهراً ، وكلُّ مُلْك قلبته بطناً وظهراً ، والنفس تصدُّ عنه صدود الجبان عن الحرب ، والملائكة الكرام عن الشرْب ، إلى أن حَصَلْتُ لديه ، ووصلت بين يديه ، فقلت : الآن أمكن من راحِ البغية الانتشاء ، وتمثّلت ﴿ الحَمْدُ لله الذي أذْهَبَ عَنّا الحزَنَ وَأوْرَثَنا الأرْضَ نَتَبَوّأُ مِنَ الجَنّةِ حَيْثُ نَشاء ﴾ (فاطر : ٣٤) وما زلْتُ أسايره حيث سار ، وآخذ اليمين تارة وتارة اليسار ، وكل ناحية تُسْفر لي عن خدّ روض أزهر ، وعِذار نبتٍ أخضر ، وتبسم عن ثغر حباب ، في نهر كالحباب ، وتَرْفل من الربيعَ في ملابس سندسيّات ، وتُهْدي إلينا نوافحَ مسكيّات ، وتُزهَى من بهجتها بأحسن منظر ، وتتيه بجلباب أيْنَعَ من بُرْدِ الشباب الأنضر[1] ، فجلنا فيها يميناً وشمالاً ، واستخبرنا عن أسرارها صبّاً وشمالاً ، ثم مال بنا ، أيّده الله تعالى ، عن هذه المسارح السنيّة ، والمنازل البهيّة ، إلى إحدى ضياعه الخالية ، وبقاعه العالية ، فحللناها والأيْمُ قد عَرِيَ من جلبابه ، واليوم قد اكتهل بعد شَبابه ، فنزلنا في قصور يقصر عنها جَعْفَرِيُّ جعفر[2] ، وقصور بني الأصفر ، تهدي من لَبّاتها بُرداً محبّراً ، وتُبدي من شَذَاها مسكاً وعنبراً ، وقد لاحت من جوانبها نجومُ أكواس لو رآها أبو نواس لجعلها شعاره ، ووقف على نعتها أشعاره ، ولم يتخذ سواها نُجْعَة ، ولا نبّه خَمّاره بعد هجعة ، فتعاطيناها والسعد لنا خادم ، وما غير السرور

١ هذه رواية ق ك ج ط ؛ وفي دوزي : الأخضر .
٢ يعني جعفراً المتوكل وقصره المسمى بالجعفري .

علينا قادم ، وخدود سُقاتها قد اكتست من سناها ، وقدودهم تتهيّل علينا بجناها ، ونحن بين سكر وصحو ، وإثبات لها ومحو ، وإصاخة إلى بَمّ وزير ، والتفاتة إلى ملك ووزير ، إلى أن ولّى النهار فحيّانا ، وأقبل الليل المميت فأحيانا ، فوصلنا بلَهْو وقصف ، وعيش يتجاوز كلّ وصف ، فكأن يومنا مقيم ، أو كأن ليلنا من الظلام عقيم ، ولما سلّ الفجر حُسامه ، وأبدى لعبوس الليل ابتسامه ، وجاء يختال اختيالاً ، ويمحو من بقايا الليل نيالاً ، قمنا نتنادب للمسير ، وكلّنا في يد النشوة أسير ، فسِرْنا والملكُ الأجلّ يقدِّمنا ، والأيام تخدمنا ، فلا زالت الأيام به زاهية ، وعن سواه لاهية ، ما عمر وكراً عُقاب ، وكان للشهور غُرَر وأعقاب ، انتهى .

* * *

[١٠ – من ترجمة الراضي]

وقال الفتح في ترجمة الراضي بالله أبي خالد يزيد بن المعتمد بن عباد بعد كلام ما صورته[١] : وأخبرني المعتز[٢] بالله أن أباهُ المعتمد وجّهه – يعني أخاه الراضي – إلى شِلْبَ والياً ، وكانت ملعبَ شبابه ، ومألف أحبابه ، التي عمر نجودَها غلاماً ، وتذكر عهودها أحلاماً ، وفيها يقول يخاطب ابن عمار وقد توجّه إليها :

ألا حَيِّ أوطاني بشِلْبَ أبا بكرِ وسَلْهُنّ هل عَهْدُ الوصال كما أدري
وسَلِّم على قَصْر الشراجيب من فتًى لَهُ أبداً شَوْقٌ إلى ذلك القَصْرِ

وقصر الشراجيب هذا متناهٍ في البهاء والإشراق ، مُباهٍ لزَوْراء العراق ، ركضتْ فيه جياد راحاته ، وأومَضَتْ بُرُوقُ أمانيه في ساحاته ، وجرى الدهر مطيعاً بين بُكَره ورَوْحاته ، أيام لم تحلّ عنه تمائمه ، ولا خلت من أزاهير

١ القلائد : ٣٢ .
٢ القلائد وق ط : المعتد ؛ ك ج : المعتمد .

الشباب كمائمه ، وكان يعتدُّها مُشْتَهى[1] آماله ، ومنتهى أعماله ، إلى بَهْجة جنَباتها ، وطيب نفحاتها وهبّاتها ، والتفاف خمائلها ، وتقلدها بنهرها مكان حمائلها ، وفيها يقول ابن اللبّانة :

أما علِمَ المعتزّ[2] بالله أنّني بحَضْرَته في جنّةٍ شقّها نهرُ
وما هوَ نهر أعشَبَ النبتُ حَوْلَه ولكنّهُ سيْفٌ حمائله خُضْرُ

فلمّا صدر عنها وقد حسنت آثاره في تدبيرها ، وانسدلت رعايته على صغيرها وكبيرها ، نزل المعتمد عليه مشرفاً لأوبته ، ومعرفاً بسُمُوّ قدره لديه ورتبته ، وأقام يومَه عنده مستريحاً ، وجرى في ميدان الأنس بطلاً مُشيحاً ، وكان واجداً على الراضي فَجَلَت الحميّا أفقَه ، ومحت غيظه عليه وحنَقَه ، وصوّرته له عين حنُوّه ، وذكرته بعُده فجنح إلى دنوّه ، وبين ما استدعى وأوفى ، مالت بالمُعْتَمد نَشْوَته وأغفى ، فألفاه صريعاً في منتداه ، طريحاً في منتهى مَداه ، فأقام تجاهه ، يرتقب انتباهه ، وفي أثناء ذلك صنع شعراً أتقنه وجوّده ، فلمّا استيقظ أنشده :

ألان تَعُودُ حيَاةُ الأمَلْ ويَدْنُو شفاء فؤاد مُعَلّ
ويُورقُ للعزّ غُصْنٌ ذَوَى ويَطْلُع للسّعْد نجمٌ أفَلْ
فقد وَعَدَتْني سَحابُ الرضا بوَابِلِها حينَ جادت بِطَلّ
أيا ملِكاً أمرُهُ نافِذٌ فمَنْ شا أعزّ ومَنْ شا أذَلّ
دَعَوْتَ فَطارَ بقَلْبي السرورُ إليك ، وإن كان منك الوَجَلْ
كما يَسْتَطيرُك حُبُّ الوَغى إليها وفيها الظُبا والأسَلْ
فلا غَرْوَ إن كان منك اغتفارٌ وإن كان منّا جميعاً زَلَلْ

---

١ في القلائد : مجنى ؛ وفي دوزي : محيا .
٢ في الأصول : المعتد .

فمثلك – وهْوَ الذي لم نَجِده   عاد[1] بحلْم على من جَهِلْ

* * *

[١١ – من ترجمة المتوكل]

وقال في ترجمة المتوكل على الله ابن الأفطس ، ما صورته[2] : وأخبرني الوزير أبو محمد بن عبدون ، أن الجدبَ توالى بحضرته[3] حتى جفّتْ مذانبُها ، واغبرَّت جوانبُها ، وغرد المكّاء في غير روْضه ، وخاض اليأسُ بالناس أعظم خوْضِه ، وأبدت الخمائلُ عبوسَها ، وشكت الأرضُ للسماء بوسَها ، فأقلع المتوكلُ عن الشرب واللهو ، ونزَع ملابسَ الخُيلاء والزَّهْو ، وأظهر الخشوع ، وأكثر السجود والركوع ، إلى أن غيّم الجوّ ، وانسجم النوّ ، وصاب الغمام ، وترنّمت[4] الحمام ، وسفَرت الأنوار[5] ، وزهت النجود والأغوار ، واتفق أن وصل أبو يوسف المُغَنّي والأرضُ قد لبست زخارفها ، ورقمَ الغمامُ مَطارِفَها ، وتدبجت[6] الغيطان والرُّبى ؛ وأرجَتْ نَفَحات الصَّبا ، والمتوكل ما فضّ لتوبته خِتاماً ، ولا نفضَ عَنْ قلبه منها قَتاماً[7] ، فكتب إليه :

ألمَّ أبو يوسفٍ والمطرْ   فيا ليْتَ شِعْرِيَ ما يُنْتظَرْ
ولَسْتُ بآبٍ وأنتَ الشهيدُ   حضورَ نَديّكَ فيمن حضَرْ
ولا مَطْلعي وسطَ تلك السماء   بَيْنَ النجوم وبين القَمَرْ

---

١ القلائد : لم يزل يعود .
٢ القلائد : ٤٣ .
٣ ك : أن الأرض توالى عليها الجدب بحضرته .
٤ القلائد : وغنت .
٥ في الأصول : الأزهار .
٦ هذه رواية القلائد ، وفي ق ك ط ج : وتتوجت .
٧ ك : ولا قوض ... خياماً .

وركْضِيَ فيها جيادَ المُدَامِ   مَحْشُوثَةً بِسياطِ الوَتَرْ

فبعث إليه مركوباً ، وكتب معه :

بَعَثْتُ إليكَ جَناحاً فَطِرْ   عَلى خِفْيَةٍ مِن عُيُون البَشَرْ
على ذُلُلٍ[1] من نتاج البُرُوق   وفي ظُلَلٍ من نَسيج الشَّجَرْ
فحسْبِيَ ممَّن نأى مَنْ دَنَا   ومنْ غابَ كان فِدا من حَضَرْ

فوصل القَصَبَة[2] المطلّة على البطحاء ، المُزْرِية بمنازل الرَّوْحاء ، فأقام منها حيث قال عَدِيُّ بن زيد يصف مصنعاً[3] :

في قبابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ   حَوْلَها الزيتونُ قَدْ يَنَعا

ومَرَّ[4] لهم من السرور يومٌ ما مر لذي رُعَيْن ، ولا تصوّر قبل عيونهم لعَيْن . وأخبرني أنّه سايره إلى شَنْتَرِين قاصية أرض الإسلام ، السامية الذرا والأعلام ، التي لا يَرُوعُها صَرْف ، ولا يَفْرَعُها طرف ، لأنّها متوعّرة المراقي ، مُعَفَّرة[5] للراقي ، متمكّنة الرَّواسي والقواعد ، من[6] ضفة نهر استدار بها استدارة القُلْب بالساعد ، قد أطلّتْ على خمائلها ، إطلال العرُوس من مِنَصَّتِها ، واقتطعت من الجوّ أكثر من حِصَّتها ، فمروا بألْبَش[7] قُطْرٍ سالت به جداولُه ، واختالت فيه خَمائلُه ، فما يجول الطّرف منه إلاّ في حديقة ،

---

١ ك : على فلك .
٢ القلائد : فوصل إلى القصبة ؛ وفي ك : فوصل القبة .
٣ البيت في اللسان (دسكر) منسوباً للأخطل ؛ والدسكرة : بناء كالقصر حوله بيوت اللهو والشراب .
٤ القلائد : ومضى .
٥ القلائد : معثرة .
٦ القلائد : على .
٧ في الأصول : بأنفس ؛ وألبش – كما في القلائد ودوزي – هي (Elvas) وتقع الى الغرب من بطليوس (Badajos)

أو بُقْعة أنيقة ، فتلقّاهم ابنُ مقانا قاضي حَضْرته وأنزلهم عنده ، وأورى لهم بالمبرّة زَنْدَه ، وقدّم لهم طعاماً ، واعتقد قبوله مَنّاً وإنعاماً ، وعندما طَعِمُوا قعد القاضي بباب المجلس رقيباً لا يبرح ، وعينُ المتوكل حياءً منه لا تجول ولا تمرح ، فخرج أبو محمد وقد أبرمه بتثقيله ، وحرّمه راحة رواحه ومَقيله ، فلقي ابنَ خَيْرُونَ منتظراً له ، وقد أعد لحلوله منزله ، فسار إلى مجلس قد ابتَسَمت ثغور نُوّاره ، وخجلت خدود ورده من زُوّاره ، وأبدت صدورُ أباريقه أسرارها ، وضمّت عليه المحاسن أزرارَها ، ولما حضر له وقتُ الأنس وحينُه ، وأرِجَتْ له رياحينُه ، وجّهَ مَنْ يَرْقُبُ المتوكل حتى يقوم جليسُه ، ويزول مُوحِشه لا أنيسُه ، فأقام رسوله وهو بمكانه لا يَرِيمُه ، قد لازمه كأنه غريمُه ، فما انفصل ، حتى ظن أن عارض الليل قد نَصَل ، فلمّا علم أبو محمد بانفصاله بعث إلى المتوكل قطيع راح [1] وطبق ورد ، وكتب معهما :

إليكها فاجتليها مُنيرةً ... وقد خبا حتى الشهابُ الثاقبُ
واقفةً بالباب لم يؤذَنْ لها ... إلاّ وقد كاد يَنام الحاجبُ
فبَعْضُها من المخافِ جامدٌ ... وبعضها من الحَياء ذائبُ

فقبلها منه ، رحمه الله تعالى وعفا عنه ، وكتب إليه :

قَدْ وصَلَتْ تلك الّتي زَفَفْتَها ... بِكراً وقَدْ شابَتْ لها ذوائبُ
فَهُبَّ حتّى نَسْتَرِدّ ذاهباً ... من أُنْسنا إن استُرِدّ ذاهبُ

فركب إليه ، ونَقَل معه ما كان بالمجلس بين يديه ، وباتا ليلتَهُما لا يريمان السهر ، ولا يشيمان برقاً إلا الكاسَ والزَّهَر .

ثم قال بعد كلام [2] : وأخبرني الوزير الفقيه أبو أيوب بن أبي أمية أنّه مرّ

---

١ القلائد : بقطيع خمر ؛ والقطيع — بلغة الأندلسيين — الزجاجة .

٢ القلائد : ٤٦ .

في بعض أيّامه برَوْض مُفْترّ المباسم ، مُعَطَّر الرياح النواسم ، قد صَقَل الربيعُ حَوْذانه ، وأنطق بلبله ووَرَشانه[1] ، وألحف غصونه بروداً مخضرّة ، وجعل إشراقه للشمس ضرّة ، وأزاهيره تتيه على الكواكب ، وتختال في خِلَع الغمائم السواكب ، فارتاح إلى الكون به بقيّة نهاره ، والتنعم ببنَفْسَجِه وبهاره ، فلمّا حصل من أنسه في وسط المدَى ، عَمَدَ إلى وَرَقة كُرُنْبٍ قد بللها النّدى ، وكتب فيها بطرف غصن ، يستدعي الوزير أبا طالب ابن غانم ، أحد ندمائه ، ونجوم سمائه :

أقْبِلْ أبا طالبٍ إلينا ... وَقَعْ وقوعَ النّدى عَلَيْنا
فنَحْنُ عقدٌ بغير وُسْطى ... ما لَمْ تَكُنْ حاضراً لدينا

* * *

[١٢ — من ترجمة المعتصم بن صمادح]

وقال في ترجمة المعتصم بن صُمادح ، ما صورته[2] : وأخبرني الوزير أبو خالد بن بَشْتَغَيرَ[3] أنّه حضر مجلسه بالصمادحية في يوم غيم وفيه أعيان الوزراء ، ونُبَهاء الشعراء ، فقعد على موضع يتداخل الماء فيه ، ويلتوي[4] في نَواحيه ، والمعتصم منشرح النفس ، مجتمع الأنس ، فقال :

أنْظُرْ إلى حُسْنِ هذا الماء في صَبَبِهْ ... كأنّهُ أرْقَمٌ قَدْ جَدَّ في هَرَبِهْ

فاستبدعوه ، وتيّموه به وأوْلَعُوه ، فأسكب عليهم شآبيب نَداه ، وأغرب بما ظهر من بِشره وأبْداه .

....

١ الورشان : طائر مفرد يشبه الحمام .
٢ القلائد : ٤٨ .
٣ تصحفت هذه الكلمة كثيراً في الأصول ، وفي نسخة بهامش ك : يستمير ، وعند دوزي : يشتغير .
٤ القلائد : ويتلوى .

ثم قال بعد كلام[1] : وخرج إلى بَرْجَةَ ودَلاية وهما نظران[2] لم يجُلْ في مثلهما ناظر ، ولم تَدَّعِ حسنَهما الخدودُ النواضر ، غصونٌ تُثَنّيها الرياح ، ومياه لها انسياح ، وحدائق تهدي الأرَجَ والعَرف ، ومنازل[3] تبهجُ النفسَ وتمتع الطرف ، فأقام فيها أياماً يتدرج في مسارحها ، ويتصرف في مَنازهها ، وكانت نزهة أرْبَتْ على نزهة هشام بدير الرُّصافة ، وأنافت عليها أيَّ إنافة .

* * *

[١٣ — من ترجمة ابن رزين]

وقال في ترجمة ابن رَزِين ، ما ملخَّصه[4] : أخبرني الوزيرُ أبو عامر [ابن سنون][5] أنّه اصطبح يوماً والجوّ سِماكي[6] العَوارِف ، لازوَرْدِيُّ المطارف ، والروض أنيقة لَبّاته ، رقيقة هَبّاته ، والنور مُبْتَلّ ، والنسيم مُعْتَلّ ، ومعه قومُه ، وقد راقهم يَوْمُه ، وصِلاته تُصافح مُعتفيهم ، ومَبرّاته تُشافه مُوافيهم ، والراح تُشَعْشَعُ ، وماء الأماني ينشع ، فكتب إلى ابن عمّار وهو ضيفه :

ضَمانٌ على الأيّام أن أبْلُغَ المُنى ... إذا كُنْتَ في وُدّي مُسِرّاً ومُعْلِنا
فلو تسألُ الأيّامُ : مَنْ هو مفرد ... بوُدّ ابن عمّارٍ ؟ لقلت لها : أنا
فإنْ حالَتِ الأيّامُ بَيْني وبينَهُ ... فكيف يَطيبُ العيشُ أو يحسن الغنا[7]

فلمّا وصلت الرقعة إليه تأخّر عن الوصول ، واعتذر بعذر مختلّ المعاني

---

١ القلائد : ٥١ .
٢ ك : منظران .
٣ ك : ومنازه .
٤ القلائد : ٥١ .
٥ زيادة من القلائد .
٦ دوزي : مسكي .
٧ ك : أو يحصل المنى .

والفُصُول ، فقال أحد الحاضرين : إنّي لأعجب من قعود ابن عمار ، عن هذا المضمار ، مع مَيْله إلى السّماع ، وكَلَفه بمثل هذا الاجتماع ، فقال ذو الرياستين : إن الجواب تعذر ، فلذا اعتذر ، لأنّه يُعاني قوله ويُعَلّله ، وَيُرَوّيه ولا يرتجله ، ويقوله في المدة الممتدّة ، فرأى أن الوصول بلا جواب إخجال لأدبه ، وإخلال لمنازله في الشعر ورُتَبه ، فلمّا كان من الغد وَرَدَ ابن عمار ومعه الجواب ، وهو :

هَصَرْتَ ليَ الآمالَ طَيّبَةَ الجَنَى ... وسَوّغْتَني الأحْوالَ مُقْبلة الدُّنى
وألْبَسْتَني النُّعما أغَضَّ مِنَ النّدَى ... وأجْمَلَ مِنْ وَشْيِ الرَّبيعِ وأحْسَنا
وكَمْ ليلةٍ أحْظَيْتَني بحضُورها ... فَبِتُّ سَميراً للسَّنـاء وللسّنا
أعَلّلُ نَفْسي بالمكارم والعُلا ... وأذْني وكفّي بالغِناء وبالغِنى
سأقرن بالتمويل ذكرَكَ كلّما ... تعاوَرَتِ الأسماء غَيْرَكَ والكُنى
لأوْسَعْتَني قَوْلاً وطَوْلاً كلاهُما ... يُطوّقُ أعْناقاً ويُخْرِسُ ألْسُنا
وشَرّفْتَني من قطعةِ الروضِ بالّتي ... تناثر فيها الطّبْعُ وَرْداً وسَوْسَنا
تروقُ بجيدِ الملك عِقْداً مُرَصّعاً ... وتزهو على عِطفَيْهِ بُرْداً مُزَيّنا [1]
فَدُمْ هكذا يا فارس الدَّسْتِ والوَغى ... لِتَطْعَنَ طَوْراً بالكلامِ وبالقَنا

وأخبرني الوزير [الكاتب أبو جعفر] [2] ابن سَعْدُون أنّه اصطبح [3] يوماً بحضرته وللرذاذ رَشّ ، وللربيع على وجه الأرض فرش ، وقد صَقَلَ الغمامُ الأزهار حتى أذهب نمَشَها ، وسقاها فأرْوى عَطَشها ، فكتب إليه :

فدَيْناك لا يسطيعُكَ النظمُ والنثرُ ... فأنت مليك الأرض، واتصل [4] الأمرُ

١ ق ط ج : وشياً معينا .
٢ زيادة من القلائد .
٣ ق ط : أصبح .
٤ القلائد : وانفصل .

مَرَيْنا نداك الغمر فانهلّ صيّباً كما سكبت وَطْفاءُ أو سكب البحرُ[1]
وجاء الربيعُ الطّلْقُ يبدي غضارة فحيّتك منه الشمس والروض والنهرُ

إلى أن قال[2] : ثم وجّه فيه إلى روضة قد أرجت نفحاتها ، وتدبجت ساحاتها ، وتفتّحت كمائمها ، وأفصحت حمائمها[3] ، وجردت جداولها كالبواتر ، ورمقت أزهارها كالعيون الفواتر[4] ، وأقاموا يُعْمِلون أكواسهم[5] ، ويشتملون إيناسهم ، فقال ذو الرياستين[6] :

وَرَوْضٍ كساه الطَّلُّ وَشْياً مجدّدا فأضحى مُقيماً للنفوس ومُقْعِدا
إذا صافحتْه الريحُ خلْتَ غصونه رواقصَ في خضر من القُضْب[7] مُيَّدا
إذا ما انسكاب الماء عاينْتَ خلته وقدْ كسرته راحةُ الريح مِبْرَدا
وإن سكنتْ عَنْهُ حسبتَ صفاءه حُساماً صقيلاً صافيَ المَتْن جُرِّدا
وغَنَّتْ بهِ وُرْقُ الحمائم بيننا غناءً يُنَسّيك الغَريضَ ومَعْبَدا
فلا تَجفُوَنْ الدّهر ما دام مسعداً ومُدّ إلى ما قَدْ حباك به يدا
وخذها مُداماً من غزال كأنّهُ إذا ما سقى بدرٌ تحمّلَ فرْقَدا

إلى أن قال[8] : وأخبرني الوزير [أبو عامر][9] ابن سَنُون ، أنّه كان معه في منية العيون ، في يوم مُطَرَّز الأديم ، ومجلس معزز النديم ، والأنس يغازلهم

١ دوزي : أو فتق الزهر ؛ ق ج ط : أو فتق البحر .
٢ القلائد : ٥٣ .
٣ القلائد : كمامها . . . حمامها .
٤ القلائد : بعيون فواتر .
٥ القلائد : كأسهم .
٦ انظر أيضاً المقترب ٢ : ٤٢٨ .
٧ دوزي : العصب ؛ وفي القلائد : العصف ، خطأ .
٨ القلائد : ٥٥ .
٩ زيادة من القلائد .

من كل ثنية ، ويواصلهم بكل أُمنية ، فسكر أحد الحاضرين سكراً مثّل له ميدان الحرب ، وسهّل عليه مستوعر الطعن والضرب ، فقلب مجلس الأنس حرباً وقتالا ، وطلب الطعن وحده والنزالا [1] ، فقال ذو الرياستين :

نفس الذليل تعزُّ بالجِريْالِ   فيُقاتل الأقرانَ دون قِتالِ
كم من جبان ذي افتخار باطلٍ   بالراح [2] تحسبه من الأبطالِ
[كبشُ النديّ تخَمُّطاً وعَرامةً   وإذا تُشَبُّ الحربُ شاةُ نزالِ] [3]

* * *

[١٤ — من ترجمة ابن طاهر]

وقال في ترجمة ابن طاهر ، ما صورته [4] : وجئته يوماً وقد وقفت بباب الحنش ، فقال لي : من أين ؟ فأعلمته ، ووصفت له ما عاينته من حسنه وتأمّلته ، فقال لي : كنت أخرج إليه في أكثر الليالي مع الوزير الأجلّ أبي بكر — يعني ابن عبد العزيز — إلى روضته التي ودّت الشمس أن يكون منها طلوعها ، وتمنى المسك أن تنضم عليه ضلوعها ، والزمان غُلام ، والعيش أحلام ، والدنيا تحية وسلام ، والناس قد انتشروا في جوانبه ، وقعدوا على مَذانبه ، وفي ساقيته الكبرى دولاب يئنّ كناقة إثر حُوار ، أو كثكلى من حرّ الأوار ، وكل مغرم يجعل فيه ارتياحه ، بُكرتَهُ ورَوَاحه ، ويغازل عليه حبيبه ، ويصرف إليه تشبيبه ، فخرجت عليه ليلة والمتنبي الجزيري [5] واقف وأمامه ظبي آنس ، تهيم

١ من قول المتنبي :
وإذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا
٢ القلائد : بالخمر .
٣ سقط هذا البيت من الأصول .
٤ القلائد : ٦٤ .
٥ هو أبو طالب عبد الجبار كان يلقب بالمتنبي ويعرف بالجزيري نسبة إلى جزيرة شقر (الذخيرة ٢/١ : ٤٠١) .

به المكانس ، وفي أذنيه قرطان ، كأنّهما كوكبان ، وهو يتأوَّد تأوُّد غصن البان ، والمتنبي يقول :

مَعْشَرَ النّاس بِباب الحنشِ ... بدرُ تِمّ طالع في غَبَشِ
عَلّق القُرْطَ على مِسْمَعِهِ ... مَنْ عليه آفة العين خشي

فلمّا رآني أمسك ، وسبّح كأنّه قد تنسك .

* * *

[١٥ — من ترجمة ابن عمّار]

وقال في ترجمة ابن عمار ، ما صورته[١] : وتنزه بالدمشق بقرطبة ، وهو قصر شيّده بنو أميّة بالصُّفّاح والعَمَد ، وجروا في إتقانه إلى غير أمد ، وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحته وفِناؤه ، واتخذوه مَيْدان مرَاحهم ، ومضماراً لانشراحهم ، وحكوا به قصرهم بالمشرق ، وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق ، فحلّه أبو بكر ابن عمار على أثر بوسِه ، وابتسم له دهره بعد عبوسه ، والدنيا قد أعطته عَفْوَها ، وسقته صَفْوَها ، وبات فيه مع لُمّةٍ من أتباعه ، ومتفيّئي رِباعه ، وكلهم يحييه بكاس ، ويفديه بنفسه من كل باس ، فطابت له ليلته في مشيده ، وأطربه الأنس ببسيطه ونشيده ، فقال :

كلُّ قَصْرٍ بعدَ الدمشق يُذَمُّ ... فيه طابَ الجَنَى وفاح المَشَمُّ
منظرٌ رائقٌ ، وماءٌ نميرٌ ... وثرًى عاطرٌ ، وقصر أشَمُّ
بِتُّ فيه والليلُ والفجرُ عندي ... عَنْبرٌ أشهبٌ ومسكٌ أحمُّ

وعبَّر صاحب البدائع عن هذه القصة بقوله[٢] : تنزه ابن عمار بالدمشق بقرطبة ، وهو قصر شيّده خلفاء بني أميّة وزخرفوه ، ودفعوا صرف الدهر .. ..

١ القلائد : ٨٤ ، وقد ورد بعض هذا النص من قبل ، انظر ما تقدم ص : ٤٧٠ .
٢ انظر بدائع البدائه ٢ : ١٣١ .

عنه وصَرَفُوه ، وأجروه على إرادتهم وصرَّفوه ، وذهّبوا سُقُفَه وفضَّضُوها ، ورخَّمُوا أرضه وروَّضوها ، فبات به والسعد يلحظه بطَرْفه ، والروض يحييه بعَرْفه ، فلمّا استنفدَ كافور الصباح به مسك الغسق ، ورصع آبنوس الظلام نضار الشفق ، قال مرتجلاً : « كل قصر بعد الدمشق يُذمُّ » . . . إلخ ، انتهى .

* * *

[١٦ – من ترجمة ابن لَبّون]

وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي عيسى ابن لَبّون[١] : أخبرني الوزير أبو عامر ابن الطويل أنّه كان بقصر مُرْبيطر بالمجلس المشرف منها[٢] ، والبطحاء قد لبست زخرفها ، ودبج الغمام مِطْرَفها ، وفيها حدائق ترنو عن مُقَل نرجسها ، وتبثُّ طيب تنفُّسها ، والجلّنار قد لبس أردية الدماء ، وراع أفئدة الندماء ، فقال :

قُم يا نديم أدر عليَّ القَرْقَفا ... أوَما ترى زهر الرياض مُفوَّفا

فتخال محبوباً مُدِلاً وردَها ... وتظن نرجسها محبّاً مُدْنَفا .

والجلّنار دماء قتلى معرك ... والياسمين حَباب ماء قد طفا

إلى أن قال[٣] : وشرب مع الوزراء والكتّاب ببطحاء لورقة [عند أخيه ، وابنُ اليسع غائب عنها][٤] في عشية تجود بدمائها ، ويصوب عليها دمع سمائها ، والبطحاء قد خُلع عليها سندسها ، ودنَّرها[٥] نرجسها ، والشمس تنفض على الرُّبى زعفرانها ، والأنوار تغمض أجفانها ، فكتب إلى ابن اليسع :

---

١ القلائد : ٩٩ وانظر المغرب ٢ : ٣٧٦ .
٢ ج ق ط : المشرق منها .
٣ القلائد : ١٠٠ والمغرب ٢ : ٣٧٧ .
٤ زيادة من القلائد .
٥ في الأصول : وردها .

لو كنتَ تشهد يا هذا عشيّتَنا   والمزنُ تسكُبُ أحياناً وتنحدرُ
والأرض مصفرة بالشمس[1] كاسية   أبصرتَ تبراً عليه الدرُّ ينتثرُ

* * *

[١٧ – من ترجمة ابن رُحَيم]

وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي بكر ابن رُحيم ، ما صورته[2] : ووصل هو وابن وضاح[3] صهر المرتضى ، وابن جمال الخلافة صاحب صقلية ، إلى إحدى جنّات مُرْسية ، فحلوا منها في قبة فوق جدول مُطّرد ، وتحت أدواحٍ طيرُها غَرِد ، فأقاموا يتعاطون رحيقهم ، ويعمرون في المؤانسة طريقهم ، إذا بالجَنّانِ قد وقف عليهم وقال : كان بموضعكم بالأمس صاحب الموضع ومعه شعور منشورة ، وخدود غير مستورة ، قد رفعت عنها البراقع ، وما منها نظرة إلاّ ومعها سهم واقع ، فاستدعى فحماً وكتب في إحدى زوايا القبّة :

قادَنا ودُّنا إليْكَ فجئنا   بنفوس تفديك من كل بوسِ
فنزَلْنا منازلاً لبدور   وحلَلْنا مطالعاً لشموسِ

* * *

[١٨ – من ترجمة ابن عبدون]

وقال في ترجمة الوزير الكاتب أبي محمد ابن عبدون ، ما صورته[4] : حللت بيابرة[5] فأنزلني واليها بقصرها ، ومكّنني من جَنَى الأماني وهَصْرها ، فأقمت

......

١ القلائد : بالمزن .
٢ القلائد : ١١٦ .
٣ في بعض أصول القلائد : وابن صمادح .
٤ القلائد : ١٤٥ .
٥ يابرة (Evora) مدينة من كورة باجة أي هي من البرتغال ، تقع على بعد ١١٧ كيلومتراً بالسكة الحديدية من الأشبونة (لشبونة) ؛ وفي الأصول : حللت يابرة .

ليلي ، أجُرُّ على المجرّة ذيلي ، وتتطارد في ميدان السرور خيلي ، فلمّا كان من الغد باكرني الوزير أبو محمد مسلّماً ، ومن تَنَكُّبي عنه متألّماً ، ثم عطف على القائد عاتباً عليه ، في كوني لديه ، ثم انصرف وقد أخذني من يديه ، فحللت عنده في رحب ، وهَمَتْ عليّ من البرّ أمطار سحب ، في مجلس كأنّ الدراري فيه مصفوفة ، أو كأن الشمس إليه مزفوفة ، فلمّا حان انصرافي ، وكثر تطلّعي إلى مآبي واستشرافي ، ركب معي إلى حديقة نضرة ، مجاورة للحضرة ، فأنخنا عليها أيديَ عيسنا ، ونلنا منها ما شئنا من تأنيسنا ، فلمّا امتطيت عزمي ، وسدّدت إلى غرض الرحلة سهمي ، أنشدني :

سلامٌ يُناجي منه زَهْرَ الرُّبى عَرْفُ فَلا سَمْعَ إلاّ وَدَّ لو أنّه أنْفُ
حَنيني إلى تلك السّجايا فإنّها لآثارُ أعيانِ المَساعي التي أقْفُو

ثم سَرّد القصيدة إلى أن قال : وله رحمه الله تعالى[1] :

سَقاها الحَيا مِنْ مَغانٍ فِساحِ فَكَمْ لي بها من مَعانٍ فِصاحِ
وحَلّى أكاليلَ تلْكَ الرُّبى ووَشّى معاطفَ تلك البِطاحِ
فَما أنْس لا أنْس عَهْدي بها وجَرّيَ فيها ذيولَ المِراحِ
ونومي على حِبَرَاتِ الرِّياضِ يُجاذب بُرْدَيَّ مَرُّ الرِّياحِ
ولم أُعْطِ أمرَ النُّهى طاعَةً ولم أُصْغِ سَمْعاً إلى لَحْيِ لاحِ[2]
ولَيْلٍ كرَجْعَةِ طرفِ المُريب لَمَ آدرِ له شَفَقاً مِنْ صَباحِ

* * *

[١٩ — من ترجمة ابن مالك]

وقال في ترجمة الوزير أبي محمد ابن مالك بعد كلام له فيه وإنشاده بيتيه

---

١ القلائد : ١٤٦ والمغرب ١ : ٣٧٥ .
٢ ك : سمعي إلى قول لاح .

البديعين اللذين هما :

لا تَلُمْني بأنْ طربْتُ لشَجْوٍ ... يَبْعَثُ الأنسَ فالكريمُ طَرُوبُ
لَيْس شَقُّ الجُيوب حقّاً علَيْنا ... إنّما الشأن[1] أن تُشَقَّ القلوبُ

ما صورته[2] : وخرجْتُ من إشبيلية مشيّعاً لأحد زعماء المرابطين ، فألفيته معه مسايراً له في جملة من شيَّعه ، فلمّا انصرفنا مال بنا إلى مُعَرَّس أميرَ المسلمين أدام الله تعالى تأييده الذي ينزله عند حلوله إشبيلية[3] ، وهو مَوْضع مستبدَع ، كأن الحسن فيه مُودَع ، ما شئت من نَهرَ ينساب انسياب الأراقم ، وروض كما وشّت البُردَ يدُ راقم ، وزهر يحسد المسكُ رَيّاه ، ويتمنّى الصبح أن يَسِمَ به مُحَيّاه ، فقطف غلام وسيم من غلمانه نَوْرة ومد يده إليَّ وهي في كفّه ، فعزم عليَّ أن أقول بيتاً في وَصْفه ، فقلت :

وبَدْرٍ بَدا والطَّرْفُ مَطْلع حُسْنِه ... وفي كَفِّه من رائق النَّوْر كَوْكَبُ

فقال أبو محمد :

يَرُوحُ لتَعْذِيب النفوسِ ويَغْتَدي ... ويَطْلُعُ في أفْقِ الجَمال ويَغْرُبُ
ويَحْسُد منه الغصنُ أيَّ مُهَفْهَفٍ ... يجيء على مِثْلِ الكثيب ويَذْهَبُ

* * *

[٢٠ — من ترجمة ابن السقاط]

وقال في ترجمة الوزير أبي القاسم ابن السَّقّاط بعد كلام كثير ، ما صورته[4] : وحمّلنا الوزير القاضي أبو الحسن ابن أضحى إلى إحدى ضِياعه بخارج غرناطة ،

---

١ القلائد : إنما الحق .
٢ القلائد : ١٧١ .
٣ ك : بإشبيلية .
٤ القلائد : ١٧٤ .

ومعنا الوزيرُ أبو محمد ابن مالك ، وجماعة من أعيان تلك الممالك [1] ، فحللنا بضَيْعة لم ينحَتِ المحلُ أثلها ، ولم ترمق العيون مِثْلها ، وجُلْنا بها في أكناف ، جنّاتٍ ألفاف ، فما شئت من دَوْحة لَفّاء ، وغصن يميس كعِطفي هَيْفاء ، وماء ينساب في جداوله ، وزهرٍ يُضَمّخُ بالمسك راحة متناوله ؛ ولما قضينا من تلك الحدائق أرَباً ، وافتضضنا منها أتراباً عُرُباً ، ملنا إلى مَوْضع المقيل ، وزلنا عن منازهٍ تُزْري بمنازه جذيمة مع مالك وعَقيل ، وعند وصولنا بدا لي من أحد الأصحاب تقصيرٌ في المبرّة ، عرض لي منه تكدير لتلك العين [2] الثرّة ، فأظهرتُ التثاقُلَ أكثر ذلك اليوم ، ثم عَدَلتُ عنهم إلى الاضطجاع والنوم ، فما استيقظتُ إلا والسماء قد نُسِخَ صَحْوُهـا ، وغيّمَ جوُّها ، والغمام منهمل ، والثرى من سقياه ثمل ، فبَسَطني بتحفّيه ، وأبهجني ببرٍ له لم يزل يتممه ويوفيه ، وأنشدني :

يَوْمٌ تجهّم فيهِ الأفقُ وانتثرت مَدامِعُ الغيثِ في خدّ الثرى هَمَلا
رأى وُجومَك فاربَدَّت [3] طلاقتُه مُضاهياً لك في الأخلاق مُمْتَثِلا

* * *

[٢١ — من ترجمة ابن أضحى]

وقال في ترجمة الوزير القاضي أبي الحسن ابن أضحى ، ما نصّه [4] : وكان لصاحب البلد الذي كان يتولّى القضاء به ابنٌ من أحسن الناس صورة ، وكانت محاسن الأفعال والأقوال عليه مقصورة ، مع ما شئت من لَسَن ، وصوت حسن ، وعَفاف ، واختلاط بالبهاء [5] والتفاف ، فحملنا إلى إحدى ضياعه بقرب من

---

١ القلائد : المسالك .
٢ دوزي : العيون .
٣ ق ك ج ط . فارتدت .
٤ القلائد : ٢١٧ .
٥ دوزي : بالنبهاء .

حضرة غرناطة فحللنا قرية على ضفة نَهْر ، أحسن من شاذَمِهْر[1] ، تشقّها جداولُ كالصِّلال ، ولا ترمُقُها الشمس من تكاثف الظلال ، ومعنا جملة من أعيانها ، فأحضرَنا من أنواع الطعام ، وأرانا من فرط الإكرام والإنعام ، ما لا يطاق ولا يحد ، ويقصر عن بعضه العد ، وفي أثناء مُقامنا بَدا لي من ذلك الفتى المذكور ما أنكرته فقابلته بكلام أحقده ، ومَلام اعتقده[2] ، فلمّا كان من الغد لقيت منه اجتنابه ، ولم أر منهُ ما عهدته من الإنابه ، فكتبت إليه مُداعباً ، فراجعني بهذه القطعة :

أتتْني أبا نَصْرٍ نَتيجةُ خاطرٍ سَريعٍ كرَجْعِ الطّرْف في الخطراتِ
فأعْرَبْتَ عن وَجْدٍ كمينٍ طَوَيْته بأهْيَفَ طاوٍ فاترِ اللحَظاتِ
غزَالٍ أحَمَّ المُقْلَتين عَرَفْتَهُ بخَيفِ مِنًى للحسنِ أو عَرَفاتِ
رَماكَ فأصْمَى والقُلُوبُ رَميّةٌ لكلّ كحيلِ الطّرْفِ ذي فتَكاتِ
وظَنّ بأن القلبَ مِنْك مُحَصَّبٌ فلبّاك من عَيْنَيْه بالجمَرَاتِ
تَقَرَّبَ بالنُّسّاك في كل مَنْسَكٍ وضَحّى غَدَاةَ النّحْرِ بالمُهَجاتِ
وكانت له جَيّانُ مَثْوًى فأصبحت ضُلُوعُك مَثْواهُ بكلّ فَلاةِ
يَعزُّ علَيْنا أن تهيمَ فتَنْطَوي كَئيباً على الأشجان والزَفَراتِ
فلو قُبِلَت للنّاسِ في الحبّ فِدْيَةٌ فَدَيْناكَ بالأمْوال والبَشَرَاتِ

* * *

[٢٢ — من ترجمة ابن خفاجة]

وقال في ترجمة أديب الأندلس وشاعرها أبي إسحاق ابن خفاجة بعد كلام ، ما صورته[3] : وقال يندب معاهدَ الشباب ، ويتفجّع لوفاة الإخوان والأحباب ،

. . . . . .

١ شاذمهر : موضع نزه بنيسابور .
٢ ك : بكلام اعتقده وملام أحقده .
٣ القلائد : ٢٣٦ والديوان : ١٧٧ .

بعقب سَيْل أعاد الديار آثاراً ، وقضى عليها وَهْياً وانتثاراً :

ألا عَرِّس[1] الإخوانُ في ساحة البِلى ... وما رَفَعُوا غيْر القُبورِ قِبابا
فدَمْعٌ كما سَحَّ الغَمام ولَوْعَةٌ ... كما أضْرَمَتْ ريحُ الشمالِ شِهابا
إذا استَوْقفتني في الدّيار عَشيّةٌ ... تَلَدَّدْتُ[2] فيها جيئةً وذَهابا
أكُرُّ بطَرْفي في مَعاهد فِتْيَةٍ ... ثَكِلْتُهُمُ بيضَ الوجوه شَبابا
فَطال وُقوفي بينَ وَجْدٍ وفُرْقَةٍ[3] ... أنادي رُسوماً لا تُحيرُ جَوَابا
وأمْحُو جميلَ الصَّبرِ طَوْراً بعَبرَةٍ ... أخُطُّ بها في صَفْحَتَيَّ كِتابا
وقد دَرَسَتْ أجسامُهُمُ وديارُهُم ... فلَمْ أرَ إلاَّ أعْظُماً ويَبَابا
وحَسْبي شَجْواً أن أرى الدارَ بلقعاً ... خَلاء وأشْلاء الصَّديقِ تُرابا

ولقد أحلّني بهذه الديارَ المندوبة وهي كعهدها في جَوْدة مَبْناها ، وعودة سَناها ، في ليلة اكتحلنا ظلامها إثمِداً ، ومَحَوْنا بها من نفوسنا كَمَداً ، ولم يزل ذلك الأنس يبسطه ، والسرور ينشطه ، حتى نشر لي ما طَواه ، وبثَّ مكتوم لوعته وجَوَاه ، وأعلمني بلياليه فيها مع أترابه ، وما قضى بها من أطرابه .

انتهى ما وقع عليه اختياري من كلام أبي نصر الفتح بن عبيد الله رحمه الله تعالى في وصف بعض منتزهات الأندلس البديعة ، ورياضها المونِقة المريعة .

* * *

[٢٣ — من رسالة للفتح]

وما أحسن رسالة له مختصرة كتَبها مهنئاً بعضَ ملوك الأندلس بما منحه الله تعالى من التمكين الذي أيده الله به ونصره ، وقد جوَّد أوصافه ، واستطرد منها إلى ذكر الناصر وولده الحكم اللذين عَمّرا الزهراء والرُّصافة ، ونصّها :

١ ق ك ج ط : ألا عرض .
٢ ق ك ج ط : تلذذت .
٣ القلائد : وزفرة . دوزي : وحرقة .

أدام الله تعالى أيّام الأمير للأرض[1] يتملّكها ، ويستدير بسعده فَلَكها ، وقد استبشر الملك أيدك الله وحُقّ له الاستبشار ، فقد أومأ إليه السعدُ وأشار ، بما اتفق له من تَوْليتك ، وخفَق عليه من ألويتك ، فلقد حُبي منك بملك أمضى من السهم المسدّد ، طويل نجاد السيف رَحب المقلّد ، يتقدّم حيث يتأخّر الذابل ، ويتكرّم إذا بخل الوابل ، ويَحْمي الحمى كربيعة بن مُكَدَّم[2] ، ويسقي الظُّبا نجيعاً كلون العَنْدَم ، فهنيئاً للأندلس فقد استردت عهد خلفائها ، واستجدّت رسوم تلك الإمامة بعد عَفائها ، فكأن لم تمت أعاصرُها ، ولم يمت حَكَمُها ولا ناصرها ، اللذان عمرا الرصافة والزهرا ، ونكحا عقائل الروم وما بذلا غير المشْرَفيّة مَهْرا ، والله سبحانه أسأله إظهار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك ، حتى يكون عصرُك أجمل من عصرهم ، ونصرك أغرب من نصرهم ، بمنّه وكرمه ويمنه .

* * *

[٢٤ — من ترجمة ابن عطية]

وقال رحمه الله تعالى في ترجمة الفقيه القاضي الحافظ أبي محمد عبد الحق ابن عطية صاحب التفسير الشهير ، بعد كلام كثير ، ما صورته[3] : ومررنا في إحدى نُزْهنا بمكان مُقْفِر ، وعن المحاسن مُسْفِر ، وفيه بكير نرجس كأنه عيون مِرَاض ، يسيل وسطه ماء رَضْراض ، بحيث لا حس إلا للهام ، ولا أنس إلا ما يتعرض للأوهام ، فقال :

نرجسٌ باكَرْتُ منهُ رَوْضةً ... لذّ قطع الدّهْر فيها وعَذُبْ
حَثّتِ الريحُ بها خَمْرَ حَياً ... رقَصَ النبتُ لها ثمّ شَرِبْ

---

١ بعض النسخ : للأزمن .
٢ ق : ربيعة بن المكدم .
٣ القلائد : ٢١١ .

فَغَدا يُسْفِرُ عَنْ وَجْنَتِهِ نَوْرُهُ الغَضُّ ويَهْتَزُّ طَرَبْ
خِلْتُ لمعَ الشمْسِ في مَشْرِقِه لهباً يَجْمُدُ منهُ في لهَبْ
وَبَياضَ الطَّلِّ في صُفْرَتِهِ نُقَطَ الفضّة في خَطِّ الذهَبْ

انتهى .

وسيأتي إن شاء الله تعالى كثير من وصف بلاد الأندلس ومنتزهاتها ، وما اشتملت عليه من المحاسن ، في كلام غير واحد ممن يجري ذكره في هذا الكتاب ، وخصوصاً أديب زمانه غير مُدافَع ، من اعترف له أهل الشرق ، بالسبق ، وأهلُ المغرب ، بالإبداع المُغْرب ، النورُ أبو الحسن عليُّ بنُ سعيد العَنْسي ، فإنّه لما دخل مصر اشتاق[1] إلى تلك المواطن الأندلسيّة الرائقة ، ووصَفَها بالقصائد والمقطوعات الفائقة ، وقد أسْلَفْنا أيضاً فيما مرَّ من هذا الكتاب بعض ما يتعلّق بمحاسن الأندلس ، فليراجَع في محلّه من هذا الكتاب .

قلت : وماذا عسى أن نذكر من محاسن قُرْطُبَةَ والزاهرة والزهرا ، أو نصف من محاسن الأندلس التي تبصر بكل موضع منها ظلاًّ ضافياً ونهراً وزَهْرا ، ويرحم الله تعالى أديبها المشهور ، الذي اعترف له بالسبق الخاصة والجمهور ، أبا إسحاق ابن خفاجة ، إذ قال[2] :

يا أهْلَ أندلُسٍ لله دَرُّكُمُ ماءٌ وظلٌّ وأنْهارٌ وأشجارُ
ما جَنّةُ الخلدِ إلا في دِيارِكُمُ ولو تَخَيّرْتُ هذا كُنْتُ أخْتارُ
لا تحسَبُوا في غدٍ[3] أن تَدْخُلوا سَقَراً فلَيْس تُدْخَلُ بعدَ الجنّةِ النارُ

ويروى مكان قوله :

ولو تخيرتُ هذا كنتُ أختارُ

---

١ ك : لما اتصل بمصر ودخلها اشتاق . . . إلخ .
٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٤ .
٣ ك : لا تختشوا بعد ذا .

ما مثاله : .

وهذه كنتُ لو خُيِّرتُ أختارُ

وكذا رأيت بخط الحافظ التَّنَسي ، والأول رأيته بخط العلاّمة الوانْشَريشي ، رحمهما الله تعالى .

وحكي أن الخليليّ لما قدم من الأندلس رسولاً إلى سلطان المغرب أبي عِنان فارس ابن السلطان أبي الحسن المَريني أنشد بحضرة السلطان المذكور أبياتَ ابن خفاجة هذه كالمفتخر ببلاد الأندلس ، فقال السلطان أبو عنان : كذب هذا الشاعر – يشير إلى كونه جعلها جنّة الخلد ، وأنّه لو خُيِّر لاختارها على ما في الآخرة – وهذا خروج من رِبْقة الدين ، ولا أقلّ من الكذب والإغراق ، وإن جرت عادة الشعراء بذلك الإطلاق ، فقال الخليليّ : يا مولانا ، بل صدق الشاعر ، لأنّها مَوْطن جهاد ، ومُقارعة للعدوّ وجِلاد ، والنبي صلى الله عليه وسلّم الرؤوف الودود الرحيم العطوف[1] ، يقول : « الجنّة تحت ظلال السيوف » ، فاستحسن منه هذا الكلام ، ورفع عن قائل الأبيات الملام ، وأجزل صِلَته ، ورفع منزلته . ولعمري إن هذا الجواب ، لجدير بالصواب ، وهكذا ينبغي أن تكون رسُلُ الملوك في الافتنان ، روّح الله تعالى أرواح الجميع في الجنان .

* * *

[قصائد لابن خفاجة]

وأبو إسحاق ابن خفاجة كان أوحَدَ الناس في وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين ، وقد سبق بعضُ كلامه ، ويأتي أيضاً منه بعضٌ أثناء الكتاب ، ومن ذلك قوله[2] :

---

١ هكذا في ك ؛ وفي ق : الرحيم الرؤوف يقول ...
٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٣٦ .

وكِمامة حَدَرَ الصباحُ قِناعَها عن صَفْحة تَنْدى مِن الأزهارِ
في أبْطَحٍ رَضَعَتْ ثغورُ أقاحِه أخْلافَ كلّ غمامةٍ مِدْرارِ
نثرت بحِجْرِ الأرض فيه يَدُ الصّبا دُرَرَ النّدى ودَرَاهِمَ النُّوّارِ
وقد ارتَدى غُصْنُ النَّقا، وتقلّدتْ حَلْيَ الحَبابِ سَوالِفُ الأنْهارِ
فحَلَلْتُ حيثُ الماء صَفْحَة ضاحك جَذِل وحيث الشَّطُّ بَدْءُ عِذارِ .
والريحُ تنفضُ بُكْرَةً لمَ الرُّبى والطَّلُّ يَنْضَحُ أوْجُهَ الأشْجارِ
مُتَقَسّم الألحاظِ بَيْنَ مَحاسِنٍ مِنْ رِدْفِ رابيةٍ وخَصْرِ قَرَارِ
وأراكة سَجَعَ الهديلُ بفرْعِها والصبْحُ يَسْفِرُ عن جبين نهارِ
هزَّتْ لهُ أعْطافَها ولربّما خلَعَت علَيْهِ مُلاءة الأنْوارِ

وقوله[1] :

سَقْياً ليَوْم قدْ أنَخْتُ بسَرْحة رَيّا تُلاعِبُها الرياحُ فتلْعَبُ
سَكْرى يُغَنّيها الحَمام فتَنْثَني طَرَباً ويَسْقيها الغمامُ فتَشْرَبُ
يلهُو فتُرْفَعُ للشبيبة رايَةٌ فيه ، ويَطْلع للبهارة كَوْكبُ
والروضُ وَجْهٌ أزْهَرٌ ، والظلُّ فر عٌ أسْوَدٌ ، والماء ثغرٌ أشْنَبُ
في حَيْثُ أطْرَبَنا الحمامُ عشيّةً فشَدا يغنّينا الحمامُ المُطْرِبُ
واهتزَّ عِطْفُ الغصن مِن طرَب بنا وافْتَرّ عن ثغر الهلال المَغْرِبُ
فكأنّه والحُسْنُ مُقْتَرِنٌ به طَوْقٌ على بُرْد الغَمامة مُذْهَبُ
في فِتْيةٍ تسري فينْصَدعُ الدُّجى عَنْها ، وتنزل بالجديب فيُخْصِبُ
كرُمُوا فلا غيثُ السّماحة مخلِفٌ يَوْماً ، ولا بَرْقُ اللطافة خُلَّبُ
من كل أزْهَرَ للنعيم بوَجْهِه ماء يُرَقرِقه الشّبابُ فيَسْكبُ

وقال يمدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم[2] :

---

١ ديوانه : ٢٨٩ ؛ وفي ق : وقال .

٢ ديوان ابن خفاجة: ٣٣ وأبو يحيى هو أبو بكر بن إبراهيم المعروف بابن تيفلويت (– ٥١٠)–

سَمَحَ الخيالُ على النوَى بمَزارِ ... والصبحُ يَمْسحُ عَنْ جَبينِ نهارِ
فرَفَعْتُ من ناري لضَيفِ طارقٍ ... يَعْشُو إليها من خيالِ طاري
ركب الدُّجى أحسِنْ به من مركبٍ ... وطوَى السُّرى أحسِنْ به من ساري
وأناخ حيث دموعُ عيني منْهلٍ ... يُرْوي، وحيث حشايَ موْقدُ نارِ
وسقَى فأرْوى غُلّة مِنْ ناهلٍ[1] ... أوْرى بجانحتَيْهِ زَنْدَ أُوارِ
يلْوي الضلوعَ من الولوعِ لخطْرةٍ ... من شيْمِ بَرْقٍ أو شميم عَرارِ
والليلُ قد نضَحَ النَّدى سِرْبالَهُ ... فانهلَّ دمْعُ الطّلِّ فوق صِدارِ
مُترقِّبٌ رُسُلَ الرياحِ عشيّةً ... بمَساقِطِ الأنْواء والأنْوارِ
ومَجرّ ذَيْلِ غَمامة لَبِسَتْ به ... وَشْيَ الحَباب مَعاطفُ الأنهارِ
خفقت ظلال الأيك فيه ذوائباً ... وارْتَجّ رِدْفاً مائجُ[2] التيّارِ
ولوَى القضيبُ هناك جيداً أتْلعاً ... قدْ قبّلتْهُ مَباسِمُ النُّوّارِ
باكَرْتُه والغَيْمُ قطعةُ عَنْبرٍ ... مشبُوبَةٌ والبرقُ لفحةُ نارِ
والريحُ تَلْطُمُ فيه أردافَ الرُّبى ... لَعِباً وتلثِمُ أوجُهَ الأزهارِ
ومَنابر الأشجار قد قامَتْ بها ... خُطَباء مُفْصِحةٌ من الأطْيارِ
في فتية جنَبُوا العَجاجة لَيْلَةً ... ولربّما سَفَرُوا عن الأقمارِ
ثار القَتامُ بهم دُخاناً وارْتمى ... زَنْدُ الحَفيظةِ منهمُ بشَرارِ
شاهَدْتُ من هَيْئاتِهِم وهِباتِهم ... إشرافَ أطْوادٍ وفَيْضَ بِحارِ
مِنْ كلِّ مُنْتَقِبٍ بورْدةِ خجلةٍ ... كرَماً ومُشْتَمِلٍ بثَوْب وَقارِ
في عِمّةٍ خُلِعَتْ عليه للمّةٍ ... وذُؤابة قُرِنَتْ بها لِعِذارِ
ضافي رِداء المجدِ طمّاح العُلا ... طامي عُباب الجود رَحْب الدارِ

— أحد أمراء المرابطين ، وكان والياً مدة على سرقسطة وهو ممدوح الفيلسوف ابن باجة . والشاعر يسأله في هذه القصيدة أن يشكر القائد الأعلى أبا عبد الله ابن عائشة لبرّ لحق ابن خفاجة من جهته .

١- الناهل : الظمآن .

٢ ق ك : مائل .

جَرَّار أذيالِ المَعالي والقَنا ... حامي الحقيقة والحِمى والجارِ
طردَ القنيصَ بكلِّ قَيْدِ طريدةٍ ... زَجِلِ الجناحِ مُوَرَّدِ الأظفارِ
مُلتفَّـةٍ أعطافُـهُ بحَبيرةٍ ... مَكْحُولة أجفانُهُ بنُضارِ
يُرمى به الأملُ القصيُّ فينثني ... مَخْضُوب راء[1] الظُّفْرِ والمِنقارِ
وبكلِّ نائي الشَّوْطِ أشدق أخزَرٍ ... طاوي الحشا حالي المقلَّد ضاري
يفترُّ عن مثل النِّصال[2] ، وإنّما ... يَمْشي على مِثْل القَنا الخطّارِ
مُسْتَقْرياً أثَرَ القنيص على الصَّفا ... والليلُ مُشْتَمِل بِشَمْلَةِ قارِ
من كلِّ مُسْوَدّ تلهَّبُ طَرْفه ... تَرْميك فَحْمَتُه بشُعْلة نارِ
ومُوَرَّسِ السِّربال يُخْلَع قدُّه ... عَنْ نَجْم رَجْمٍ في سَماء غُبارِ
يَسْتَنُّ في سَطْر الطريق وقد عفا ... قِدْماً فتقرأ أحْرُفَ الآثارِ
عَطَفَ الضمورُ سَرَاتَه فكأنّه ... والنَّقْعُ يَحْجُبُه هلالُ سِرَارِ
ولربَّ رَوّاغٍ هُنالكَ أنْبَطٍ ... ذَلِقِ المسامع أطلس الأطْمارِ
يجري على حذر فيَجْمع بسْطَه ... يَهْوي فينعطف انعطاف سِوارِ
ممتدّ حَبْل الشأوِ يَعْسِلُ رائغاً ... فيَكادُ يُفْلِتُ أيْديَ الأقْدارِ
مُتَرَدّد يرمي به خَوْفُ الرَّدى ... كرَة تَهادَتْها أكفٌّ قِفارِ
ولربَّ طيّارٍ خفيفٍ قَدْ جرَى ... فَشلاً بجارٍ خَلْفه طيّارِ
من كلِّ قاصرة الخُطا مختالة ... مَشْيَ الفتاة تجرُّ فَضْل إزارِ
مَخْضُوبة المِنقار تحسَبُ أنّها ... كرَعَتْ على ظمإٍ بكأسِ عُقارِ
ولو استجارَتْ منهما بحمَى أبي ... يَحْيى لآمَنَها أعزُّ جِوارِ
خَدَمَ القضاءُ مُرادَهُ فكأنّما ... مَلَكَتْ يَدَاه أعِنّةَ الأقدارِ
وعَنا الزمانُ لأمره فكأنّما ... أصغَى الزمانُ به إلى أمّارِ
وجَلا الإمارةَ في رفيفِ نَضارةٍ ... جلَتِ الدُّجى في حلّة الأنوارِ

---

[1] ك : دره ؛ والمعنى أن ظفره ومنقاره معوجان كحرف « الراء » .
[2] ق : النضار .

في حَيْثُ وَشَّحَ لَبّةً بقِلادةٍ ... مِنْها وحلّى مِعْصَماً بِسِوارِ
جذْلان يمْلأُ مِنْحةً وبَشاشَةً ... أيْدي العُفاةِ وأعْيُنَ الزُّوّارِ
أرِجَ النّدِيُّ بذكرِه فكأنّهُ ... متنفّسٌ عن رَوْضَةٍ مِعْطارِ
بطل حوى الفلكَ المحيطَ بسَرْجِهِ ... واستَلّ صارمَه يَدُ المِقْدارِ
بيمينِه يومَ الوَغى وشِمالِه ... ما شاء مِنْ نارٍ ومِن إعْصارِ
والسُّمْرُ حُمْرٌ[1]، والجياد عوابسٌ ... والجوّ كاسٍ ، والسيوف عَواري
والخيلُ تَعْثُر في شبا شَوْكِ القَنا ... قِصَداً وتسبَحُ في الدم المَوّارِ
والبِيضُ تُحْنى في الطلى فكأنّما ... تُلْوى عُرًى مِنْها عَلى أزْرارِ
والنقعُ يكسر من سنا شمسِ الضحى ... فكأنّه صَدأ عَلى دِينارِ
صَحبَ الحسامَ النّصرُ صحبةَ غبطةٍ ... في كفّ صوّالٍ به سَوّارِ
لو أنّهُ أوْمى إليْهِ بنَظْرةٍ ... يوماً لثارَ ولَمْ ينَمْ عَنْ ثارِ
ومَضى وقد ملَكتهُ هِزّةُ عِزّةٍ ... تحت العجاجِ وضحكة استِبْشارِ

وقال رحمه الله تعالى[2] :

وأراكةٍ ضَرَبَتْ سَماء فَوْقَنا ... تَنْدَى وأفلاكُ الكؤوس تُدارُ
حَفّتْ بِدَوْحتها مجرّةُ جدولٍ ... نَثَرَتْ عَلَيْهِ نجومَها الأزهارُ
وكأنّها وكأنّ جَدْوَلَ مائها ... حَسْناء شُدَّ بخَصْرِها زُنّارُ
زَفّ الزجاجُ بها عروسَ مُدامةٍ ... تُجْلى ونُوّارُ الغصون نِثارُ
في رَوْضة جنحُ الدّجى ظلٌّ بها ... وتجسّمَت نوراً بها الأنوارُ
غَنّاء ينشُرُ وَشْيَه البزّازُ لي ... فيها ويفتقُ مِسْكَه العطّارُ
قام الغِناء[3] بها وقد نَضَحَ النّدى[4] ... وَجْهَ الثرى واستيقظ النُّوّارُ

---

١ ق : والشمس خمر .
٢ ديوان ابن خفاجة : ٣٥١ .
٣ ج ط : الغبار .
٤ ج : الدجى .

والماء في حَلْيِ الحَبابِ مُقَلَّد زَرَّتْ عَلَيْهِ جيوبَها الأشجارُ

وقال ملتزماً ما لا يلزم[1] :

خُذْها إليكَ وإنّها لنَضِيرة طَرَأت إليكَ قَليلة النُّظَراء
حملت وحسبُك بهجةً من نَفحة[2] عَبَقُ العروس وخَجْلة العَذْراء
من كل وارِسَةِ القَميص كأنّما نَشأتْ تُعَلُّ بريقَةِ الصَّفْراء
نجمتْ تروق بها نجوماً حسبها[3] بالأيكة الخضراء مِنْ خَضْراء
وأتتك تَسْفِرُ عَنْ وُجُوهِ طَلَقة وتَنُوبُ من لُطْفٍ عن الشّعراء
يَنْدى بها وَجْهُ النَّدَى ولربّما بَسَطت هُناك أَسِرّة[4] السرّاء
فاستضحكت وَجهَ الدجى مقطوعة حملَتْ جَمالَ الغرّة الغَرّاء

وقال أيضاً[5] :

وصَدر نادٍ نَظَمْنا لَهُ القوافيَ عِقْدا
في منزل قَدْ سَحَبْنا بِظلّه العزَّ بُرْدا
تذكو به الشُّهبُ جَمْراً ويَعْبَقُ الليلُ ندّا
وقَد تأرّجَ نَوْرٌ غَضٌّ يُخالِطُ وَرْدا
كما تَنَفّس ثَغْرٌ عَذْبٌ يقبّلُ خَدّا

وقال من قصيدة يصف منتزهاً[6] :

١ ديوانه : ٧١ .
٢ ق ط ج : نفحة في بهجة .
٣ ق : نجوم حسنها .
٤ ك : هنالك أوجه .
٥ ديوان ابن خفاجة : ٨٠
٦ ديوانه : ٣٣٧ .

يا رُبَّ وضّاحِ الجبين كأنّما رَسْمُ العِذارِ بصفحتيه كتابُ
تُغْرَى بطلعته العيون مهابةً وتبيتُ تَعْشَقُ عقلَهُ الألْبابُ
خُلِعتْ عليه من الصَّباح غِلالةٌ تَنْدى ومن شَفَقِ المساء [1] نقابُ
فكرعتُ من ماء الصِّبا في منهلٍ قد شَفَّ عنه من القميص سرابُ
في حيثُ للريح الرُّخاء تَنَفُّسٌ أرِجٌ ، وللماء الفُرات عُبابُ [2]
ولربَّ غَضّ الجسْمِ مدّ بخوضه [3] سبْحاً كما شَقَّ السّماءَ شهابُ
ولقد أنختُ بشاطِئيْه يهزُّني طرباً شبابٌ راقَني وشرابُ
وبكيْتُ [4] دجلتَهُ يُضاحكني بها مَرَحاً حَبيبٌ شاقَني وحَبابُ
تُجْلى من الدنيا عَرُوسٌ بَيْنَنَا حَسْناءُ ترشف والمدامُ رُضابُ
ثم ارتحَلْتُ وللنهار ذُؤابةٌ شَيباءُ تخضب والظلامُ خِضابُ
تَلْوِي معاطفيَ الصبابةُ [5] والصِّبا والليلُ دون الكاشحين حجابُ

وقال [6] :

مَرَّ بنا وَهْوَ بدرُ تِمٍّ يَسْحَبُ من ذيلِه سَحابا
بِقامَةٍ تَنْثَني قَضِيباً وغُرَّةٍ تلتظي شِهابا
يَقْرَأُ والليلُ مُدْلَهِمٌّ لنورِ إجلاله كِتابا
ورُبَّ ليل سَهِرْتُ فيهِ أزْجرُ من جُنْحِهِ غُرَابا [7]
حتى إذا الليلُ مال سُكْراً وَشَقَّ سِرْبالَهُ وجابا

---

١ ق ك ج ط : السماء .
٢ بعد هذا البيت في الديوان « ومنها » اعتماداً على الذخيرة .
٣ الديوان : مر بخوضه ؛ ج : مرّ .
٤ الديوان : وعبرت . ج : وبكت وحلته .
٥ ق ك ج ط : والنهار .
٦ ديوان ابن خفاجة : ٣٣٨ وهي في الذخيرة أيضاً ، وفي الروايتين اختلافات .
٧ ق ك ج ط : نكابا .

وحام من سُدْفَةٍ غُرابٌ طالَتْ به سنّهُ[1] فشابا
ازْدَدْتُ من لَوْعَتي خَبالاً فحثَّ من غُلّتي شَرابا
وما خطا قادماً فوافى حتى انثنى ناكصاً فآبا
وبَيْن جفْني بحرُ شَوْقٍ يَعُبُّ في وَجْنَتي عُبابا
قد شَبَّ في وَجْهِهِ شُعاع وشَبَّ عن قَلْبيَ التهابا
ورَوْضة طَلْقة حَياء غَنّاء مُخْضَرَّة جَنابا
ينجابُ عن نَوْرِها كمامٌ يَحُطُّ عن وَجهه نِقابا
بات بها مَبْسِمُ الأقاحي يرشفُ مِن طَلّها رُضابا
ومِنْ خفُوقِ البروق فيها ألْوِيَةٌ خُمّرَتْ خِضابا
كأنّها أنمُلٌ ورادٌ تحصر قَطْرَ الحيا حِسابا

وله أيضاً[2] :

رَحَلْتُ عنكم ولي فؤادٌ تُنْقِضُ أضلاعُه حَنينا
أجُودُ فيكم بعلق دَمْع كُنْتُ به قبلكم ضَنينا
يَثُورُ في وَجْنَتيَّ جيشاً وكان في جفْنِه كَمِينا
كأنّني بعدكُم شِمالٌ قَدْ فارَقَتْ منكمُ يمينا

وقال[3] :

فيا لشَجا صدر[4] من الصبر فارِغٍ ويا لقَذى طَرْفٍ من الدمع ملآنِ
ونَفْسٍ إلى جَوّ الكنيسة صَبّةٍ وقلبٍ إلى أفق الجزيرة حَنّانِ

---

١ ق : مدة .
٢ ديوانه : ٣٤٠ والذخيرة ؛ ولفظة أيضاً سقطت من ك ج ط .
٣ ديوان ابن خفاجة : ٣٤٥ والذخيرة .
٤ ك : قلب .

تعوّضت من واهاً بآهٍ ومن هوًى بهُونٍ ومن إخوان صدق بخُوّانِ
وما كلُّ بيضاء ترُوق بشحمةٍ وما كلُّ مرْعًى ترْتَعيه بسَعْدانِ
فيا ليتَ شعري هل لدهريَ عطفة فتُجْمعَ أوطاري عليّ وأوطاني
ميادين أوطاري ولذّة لذّتي ومَنْشأ تهيامي وملْعبُ غزْلاني
كأن لم يصلْني فيه ظَبْيٌ يقومُ لي لماه وصُدْغاه براحي وريحاني
فسقْياً لواديهم وإن كنتُ إنّما أبيتُ لذكراه بغلّة ظمْآنِ
فكمْ يوم لهوٍ قدْ أدرْنا بأفقه نجومَ كؤوسٍ بينَ أقمارِ ندْمانِ
وللقُضْب والأطيار ملْهًى بجزْعه[1] فما شئتَ من رقصٍ على رجْع ألحانِ
وبالخضْرة الغرّاء غِر[2] علقْتُه فأحببتُ حُبّاً فيه قُضْبان نعْمانِ
رقيقُ الحواشي في محاسن وجهه ومنْطقه مَسْلًى قلوبٍ وآذانِ
أغار لخدّيْه على الورْد كلّما بدا ولعطْفيْه على غصُن البانِ
وهبْنيَ أجني وردَ خدّ بناظري فمن أين لي منْهُ بتُفّاحِ لُبنانِ
يُعلّلني منْهُ بموعدِ رشْفةٍ خيالٌ له يُغْري بمطْلٍ وليّانِ
حبيب علَيْه جنّة من صوارم علاها حبابٌ من أسنّة مُرّانِ
تراءى لنا في مثلِ صورة يوسفٍ تراءى لنا في مثل مُلْكِ سُليمانِ
طوى بُردُهُ منها صحيفةَ فتنةٍ قرأنا لها من وجهه سطرَ عُنوانِ
محبّتُه ديني ومثْواه كعبتي ورؤْيتُه حجّتي وذكراه قرآني

وقال أيضاً رحمه الله تعالى[3] :

ولَيْلٍ تعاطيْنا المدامَ وبيْننا حَديثٌ كما هبَّ النسيمُ على الوردِ
نُعاوِدُه والكاسُ يعبَقُ نفْحُه[4] وأطيبُ منها ما نُعيدُ وما نُبْدي

---

١ في بعض النسخ : بأفقه .
٢ ق : الغرا أغن .
٣ ديوان ابن خفاجة : ٣٤٨ .
٤ الديوان : تعبق مسكة .

ونَقّلي أقاحُ الثّغر أو سَوْسَنُ الطَّلَى ونرجِسَةُ الأجفان أو وردةُ الخد
إلى أن سرَت في جسمه الكاسُ والكرى ومالا بعِطْفَيْه فمال على عضدي
فأقبلْتُ أسْتَهْدي لما بينَ أضْلُعي من الحرِّ ما بينَ الثّنايا[1] من البَرْدِ
وعايَنْتُه قد سُلَّ من وَشْيِ بُرْدِه فعانَقْتُ منه السيفَ سُلَّ من الغمدِ
ليانَ مَجَسّ واستقامةَ قامةٍ وهزّةَ أعطافٍ ورونَقَ إفْرِنْدِ
أُغازِلُ منه الغصْنَ في مَغْرِس النّقا وألْثِمُ وجهَ الشمس في مطلع السعدِ
فإن لَمْ يَكُنْها أو تكُنْه فإنّه أخوها كما قُدَّ الشراك من الجلدِ
تسافر كلتا راحتيّ بجسْمِه فطوْراً إلى خَصْرٍ وطوْراً إلى نَهْدِ
فتهبِطُ من كَشْحَيْه كفٌّ[2] تهامةً وتصعَدُ من نَهْدَيْه أخرى إلى نجدِ

وقال أيضاً[3] :

ورداء لَيْلٍ بات فيه مُعانقي طيفٌ ألمّ لظبية[4] الوَعْساء
فجمعْتُ بينَ رُضابه وشرابه وشَرِبْتُ من ريق ومن صَهْباء
ولثمتُ في ظلماء ليلةِ وَفْرِهِ شَفَقاً هناك لِوَجْنَةٍ حمراء
والليلُ مُشْمَطُّ الذوائبِ[5] كبرةً خرفٌ يدبُّ على عَصا الجوزاء
ثمَّ انثنى والصبحُ يسحبُ فرعه ويجُرُّ من طربٍ فضولَ رداء
تندى بفيهِ أقْحُوانةُ أجرَعٍ قد غازلتها الشمسُ غبّ سماء
وتميسُ في أثوابِه ريحانةٌ كَرَعَتْ على ظمإٍ بجدول ماء
نَفّاحةُ الأنفاس إلا أنّها حَذِرَ النّدى خفّاقة الأفياء

. . . .

١ هذه رواية الذخيرة والديوان ، وفي ق ك ج ط : الضلوع .
٢ ق ك ج ط : كفي .
٣ ديوان ابن خفاجة : ١٥٣ .
٤ في ق ك ط : بظبية . ج : بظبية الوعثاء .
٥ ق ج ط : الذؤابة .

فلويتُ معطفَها اعتناقاً حسبُنا[1]   فيه بقطر الدمع من أنواء

* * *

[قصيدتان لابن سعيد]

وكان المعتمد بن عباد رحمه الله تعالى كثيراً ما ينتاب وادي الطلح مع رُمَيكيته ، وأولي أنسه ومسرته ، وهو واد بشرف إشبيلية مُلتفّ الأشجار ، كثير ترنم الأطيار ، وفيه يقول نور الدين ابن سعيد :

سائل بوادي الطلْح ريح الصَّبا   هل سُخّرَت لي من زمان[2] الصبا
كانت رسولاً فيه ما بيننا   لن نأمن الرُّسْل ولن نكتُبا
يا قاتـل الله أناساً إذا   ما استؤمنوا خانوا فما أعجبا
هلاّ رعوْا أنّا وثقْنا بهم   وما اتّخذْنا عنهم مذهبا
يا قاتل الله الذي لم يتُبْ   من غدرهم من بعد ما جرّبا
واليمُّ لا يعرفُ ما طعمُه   إلا الذي وافى لأن يشربا
دعني من ذكر الوشاة الألى   لمّا يزلْ فكري بهم مُلْهبا
واذكرْ بوادي الطلح عهداً لنا   لله ما أحلى وما أطيبا
بجانب العطف وقدْ مالت الـ   أغصانُ والزهرُ يبثُّ الصَّبا
والطيرُ مازَتْ بين ألحانها   وليس إلا مُعْجباً مُطْرِبا
وخانني من لا أسميه مِنْ   شُحٍّ أخافُ الدهر أن يسلبا
قد أترع الكأس وحيّا بها   وقلتُ أهلاً بالمنى مرْحبا
أهلاً وسهلاً بالذي شئتُه   يا بدرَ تمٍّ مُهْدياً كوكبا
لكنّني آليْت أسقى بها   أو تُودِعنْها ثغرك الأشنبا
فمجَّ لي في الكأس من ثغره   ما حبّبَ الشربَ وما طيّبا

---

١ الديوان : حسبها .
٢ دوزي : في زمان .

وقال ها لثمي نقلاً ولا تشمّ إلا عرْقيَ الأطيَبا[1]
واقطفْ بخدّي الورد والآس[2] والـ نسرين لا تحفلْ بزهر الرُّبى
أسعفتُه غصناً غدا مُثمراً ومن جناه ميْسُه قرّبا
قد كنتُ ذا نهيٍ وذا إمرةٍ حتّى تبدّى فحللتُ الحُبا
ولم أصُنْ عِرضيَ في حبّه ولم أُطعْ فيه اللذي أنّبا
حتّى إذا ما قال لي حاسدٌ ترجوه والكوكب أن يغربا
أرسلتُ من شعريَ سحراً له ييسّرُ المرغبَ والمطلَبا
وقالَ عرّفهُ بأنّي سأحْـ تالُ فما أجتنب المكتبا
فزاد في شوقي لهُ وعده ولم أزل مُقتَعِداً[3] مرْقبا
أمُدُّ طرْفي ثم أثنيه من خوفِ أخي التنغيص أن يرقبا
أصدّق الوعد وطوراً أرى تكذيبَه والحرُّ لنْ يكذبا
أتى ومن سخّره بعدما أيأس[4] بطءٌ كاد أن يُغضبا
قبّلْتُ في الترب ولم أستطع من حصَرِ اللقيا سوى مرْحبا
هنأتُ ربعي إذ غدا هالةً وقلت يا من لم يُضِع أشعبا
بالله مِلْ مُعتَنِقاً لاثماً فمال كالغُصْن ثنتْه الصَّبا
فقال ما ترغبُ قلتُ اتّئد أدركتُ إذ كلّمتني المرْغَبا[5]
فقال لا مذهبَ[6] عن ذكر ما ترغبُه قُلْتُ إذن مركبا
وكان ما كان فوالله ما ذكرته دهريَ أو أغلبا

---

١ بعض النسخ : الطيبا .
٢ بعض النسخ : الآس والورد .
٣ ق ك ج ط : معتقداً .
٤ ق ج ط : آيس .
٥ في نسخة : المأربا .
٦ ق ك : مرغب .

وستأتي هذه القصيدة بكمالها [1] في جملة من نظم ابن سعيد المذكور [2] .

وقال يتشوق إلى إشبيلية ، وهي حمص الأندلس :

أنَّ الخليجُ وغنّت الورْقاءُ ... هل بَرَّحا إذ هاجتِ البُرَحاءُ
أنا منكما أولى بحلية عاشقٍ ... أفنى وما نمّتْ بيَ الصُّعداء
أخْشى الوُشاة فما أفوهُ بلفظةٍ ... والكتمُ عندَ العاشقَين عَناء
لولا تشوّقُ لأرضِ حمصٍ ما جرَى ... دمعي ولا شَمِتَتْ بيَ الأعْداء
لم أستطِعْ كتماً له فكأنّني ... ما كان لي كتْمٌ ولا إخفاء
والبدرُ مهما رام كتماً مَنْ سَرَى ... فيهِ ينمُّ على سُراهُ ضياء
بلدٌ متى يَخْطُرْ لهُ ذكرٌ هفا ... قلْبي وخانَ تصبُّرٌ وعزاء
من بعده ما الصبح يشرق نورُهُ ... عندي ، ولا تتبدّل الظلماء
كم لي به من ذي وفاء لم يخُنْ ... عَهْدي ، ويَنْمُو بالودادِ وفاء
فتراه إما مرّ ذكري سائلاً [3] ... عَنْ حالتي إن قلّتِ الأنباء
يُمسي ويُصْبح في تذكُّر مدّة ... يرضى بها الإصباح والإمساء
معَ كل مَبْذول الوصال ممنّعٍ ... من غيرنا تَسْمُو به الخُيلاء
كالظبي ، كالشمس المنيرة ، كالنّقا ... كالغُصْن يثني معْطَفَيْه رُخاء
يسعى براحٍ كالشهاب ، براحة ... كالبدر ، والوجهُ المنيرُ ذُكاء
ما لان نحو الوصلِ حتى طال منْ ... هُ الهجرُ واتّصلَتْ به البَلْواء
خير المحبّة ما تأتّتْ عن قِلَّى ... تُدْرَى ببؤسِ الفاقةِ النَّعماء
ما زِلتُ أرْقي بالقريض جُنُونَهُ ... حتى استكان ، وكان منهُ إباء
فظفِرْتُ منهُ بمدّة لو أنّها ... دامت لدامت لي بها السّرّاء

---

[1] بكمالها : زيادة من نسخة ك .
[2] سيأتي شعر ابن سعيد في الباب الخامس من الكتاب .
[3] ط ج ق : فترى إذا ما مر ذكري سائل .

صفوٌ تكدَّر بالتحرُّك ، ليته ما زال[1] ، لكن لا يُرَدُّ قضاء
إنّ الفراق هو المنيّة ، إنّما أهلُ النّوَى ماتوا وهم أحياء
لولا تذكُّر لَذَّةٍ طابت لنا بذَرَا الجزيرة حيث طاب هواء
وجرى النسيمُ على الخليج مُعَطَّراً وتبدّدت في الدَّوْحة الأنداء
ما كابدَتْ نفسي أليمَ تفكُّر ألوى به عن جَفْنَيَ الإغفاء[2]
يا نهرَ حمصٍ لا عَدَتْكَ مسَرَّةٌ ماءٌ يسيلُ لديك أم صَهْباء
كلُّ النفوس تَهَشُّ فيك كأنّما جَمَعَتْ عليك شَتاتَها الأهواء
وُدّي إليك معَ الزمان مُجَدَّدٌ ما إن يحُولُ تذكُّرٌ وعناء
ولَوَ انّني لم أحْيِ ذكراً للّذي أوليتَهُ ما كانَ فيَّ حَياء
ما كنتُ أطمَعُ في الحياة لوانّني أيقنتُ أن لا يُسْتَردُّ لقاء
غيري إذا ما بان حان ، وإنّما أبقى حياتي ، حينَ بِنْتُ ، رجاء

وسيأتي إن شاء الله تعالى لهذا النمط وغيره مزيد أثناء الكتاب ، بحسب ما اقتضته المناسبة ، والله تعالى المرجو في حسن المتاب ، وهو سبحانه لا إله إلا هو الموفّق للصواب[3] .

تم المجلد الأول

---

١ ق ط ج : ليته ما زلت .
٢ ك : الإغضاء .
٣ عند هذا الحد تنتهي النسخة ك ، وفي آخرها : « انتهى السفر الأول من كتاب نفح الطيب . . . الخ » .

محتويات المجلد الأول

القسم الأول

فيما يتعلّق بالأندلس من الأخبار . . . [ثمانية أبواب تشمل الأجزاء ١ — ٤]

الباب الأول

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الرابع